صـــورة الجـاهـلية

الجاهلية بين التصوّر الأدبي والحقيقة التاريخية

صورة الجاهلية: الجاهلية بين التصور الأدبي والحقيقة التاريخية

الدكتور محمد زروق

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2011/1/88)

رقم التصنيف : 810.1

الواصفات:/النقد الأدبي// العصر الجاهلي/

الطبعة الأولى 1433هـ - 2012 م

حقوق الطبع محفوظة للناشر
All rights reserved

دار جرير للنشر والتوزيع

عمّان-شارع الملك حسين- مقابل مجمع الفحيص التجاري

هاتف : 4651650 - فاكس: 4643105 6 962+

ص . ب . : 367 عمّان 11118 الأردن

www.darjareer.com- E-mail: dar_jareer@hotmail.com

ردمك ISBN 978 - 9957 – 38 – 235 – 3

جميع حقوق الملكية الفكرية محفوظة لدار جرير للنشر والتوزيع عمان- الأردن ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

صـــورة الجـاهـلية

الجاهلية بين التصوّر الأدبي والحقيقة التاريخية

الدكتور

محـمـد زروق

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

دار جـرير
للنشـر والتوزيع

مقدمة

يُشكّل النثر العربي مدوّنة وسيعة لدراسة السرد العربي القديم ولبيان مختلف مظاهره وطرائق أجناسه وقدرته على تصوير الحياة انطلاقا من مواقع لها الدور الفاعل في صياغة ملامح هذه الحياة. وبالرغم من هذا الثراء، فإنّ النثر العربي بقي برهة من الزمن مديدة خارج دائرة الدرس، في محلّ الهامش أو هو يُدرَسُ عَرَضا وبأدوات لا تُراعي خصائصه ومقامه في تاريخ الأدب. وقد كان للجامعة التونسية الدور الرئيس في إخراج هذا الموروث –درسا وتفحّصا وضبطا لحدود الجنس- من العتمة إلى الضياء وفي التنبيه إلى أهميّة هذه الدراسة، فكان الاهتمام بالخطبة والمقامة والرسالة والخبر ومختلف صنوف النثر العربي ضمن رؤية تستفيد قدر الإمكان من المُحْدَثات النقدية وتُراعي في ذات الآن خصائص الجنس المدروس في الفضاء الثقافي والحضاري الذي أنتجه وأنشأه.

ومن هذه الأرضيّة التي تمهّدت وبُذرت فيها جملة من المسائل العالقة بهذه الأشكال النثرية، كان المنطلق إلى النظر في فروع هذه الأجناس، وفي مدى تضافرها وتكاملها لتحقيق حدود الجنس الجامع. وضمن هذا الإطار يتنزّل مبحثنا في فرع من فروع الخبر، في رؤية متكاملة ينصرف فيها عدد من الباحثين إلى تناول أجناس الخبر المتفرّعة عنه، علّنا بذلك أن نبلغ يوما تحقيق تصنيف للسرد العربي يقوم على خلاصة هذه الدراسات.

يُعَدُّ الخبر من الفنون الأثيرة عند العرب، ولقد مثّل –سعةً من الزمن- الشكل الطاغي والدُرجة السائدة في التأليف حتّى علا شأنه على جملة الأجناس المغايرة، وهو بسبب من ذلك في حاجة إلى مداومة الدراسة وإمعان النظر في خصائصه ووسائط تميّزه وتفرّده، وبيان ما به تهيّأ شكلا جالبا لمختلف الأجناس، تدخل عالمه فيصوغها خلقا جديدا بوسائله وأدواته.

ولم يتركّز الخبر في هذا العلوّ منزلةً وإدارةً للأجناس بسبب خصائصه الشكليّة فحسب، وإنّما سيادته راجعة إلى اعتماده في تصانيف مختلفة وتوظيفه في مقامات تخرج عن الأدب في حدّه الضيّق لتلامس التاريخيّ والسياسيّ والحضاري عامّة. فهو "خبر" لقدرته على احتواء عدد من الأجناس والأصوات والرؤى من جهة، ولهذه العلاقة المخصوصة التي يعقدها مع الواقع، والتي تجعله -بشكل أو بآخر- راصدا لوقائع حاصلة، مؤكّدا هذا الرصد ملحًا عليه. فالخبر -في إنتاجه وتأثيره- معتمد واسطةَ إبلاغ وإعلام وفعل وتأثير وتأريخ.. وهو وسيلة من وسائل الصراع السياسي والمذهبي والنَسَبي، وتلك بعض من خصال الخبر التي لبّست من أمره وأشكلت في تحديد منزلته. ومن ذلك تأتّى أثر الخبر في إنتاج صور عن الحضارة العربيّة في الجاهليّة، تخضع في رصد ملامحها إلى أثر الرواة ومنزلتهم من الحدث المرصود أو الشخصيّة المدار، وتخضع في جانب آخر إلى مقتضيات العصر الذي تأسّست فيه هذه الصور.

إنّ الخبر يُحاكُ وفق مقاصد مضبوطة تُراعي موقع المتكلّم والمقام الذي فيه يُنجَز وينشأ، والعلاقات التخاطبية الواصلة بين متكلّم مخصوص ومخاطَب معلوم -وفقا للعلاقة المباشرة التي تصل الأخباري بتلاميذه أو المنصتين إليه في مقام الإنجاز الشفوي، أو وفقا لرفع أغلب المصنفات الأخبارية إلى مخاطَب سائس تُوجَّه إليه الأخبار لعدد من المقاصد- تجعله في مختلف مراحل إنجازه – إذا افترضنا أنّه يتكوّر ويتكوّن خلقا وإنشاءً عبر مراحل يتقلّب فيها فينتفخ أو يتقلّص-خاضعا لمختلف التأثيرات التي تعصف به قصفا وقسرا لخلقه إنشاءً أو لمسخه إن كان سابق الخلق. ومن هنا يتأتّى سؤال يخصّ رحلة الخبر ودور رواته في تصريفه وتبديل وجهه، إن كان له وجهٌ يُلمَح.

وعلى ذلك فقد كان الموضوع الذي انصرفنا إليه مشدودا إلى الخبر من حيث هو شكل له مقوّماته الخاصّة، وقد عرّفه محمد القاضي بقوله: "الخبر في الأدب له ظاهر وباطن. فظاهره أنّه قول معاد يأخذه اللاّحق عن السابق، ويحرص فيه على التواري خلفه والوقوع دونه، وأمّا باطنه فهو أنّه إبداع، إلاّ أنّه يحتاج إلى قناع يوهم القارئ بأنّ هذا القول ليس لإنشاء شخصيّا، وإنّما هو كلام مأثور قالته الشخصيّة المتحدّث عنها أو نقلته عنها شخصيّة حضرت الواقعة وتناقلته عنها الرواة، ومشدود إلى الجاهليّة

مرحلةً تاريخيّةً مثّلت مجالا انصرفت إليه الأخبار. ولا يهمّنا في هذا المقام النظر في القضايا التاريخيّة للجاهليّة وما حفّ بها من إشكال التسميّة والحدّ، وإنّما حدّنا للجاهليّة خاضع لما هو رائج من حيث هي الاسم الذي يُطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل الإسلام أو بعبارة أخصّ الاسم الذي يُطلق على الفترة التي خلت من الرسل بين عيسى و محمّد".

والجامع بين الخبر أداةً و الجاهليّة مجالاً هي الصورة التي تنتجها الأخبار عن الجاهليّة.

والصورة -دوما- موصولة في تشكيلها بموقع الناظر المصوّر و باختياره لزوايا التصوير ومواقع التركيز ودرجات انفتاح الرؤية، فالذات المصوّرة داخلة في تشكيل الصورة وإن لم تظهر عيانا.

ولقد صدرنا في البحث في"صورة الجاهليّة في أخبار كتاب الأغاني" عن جملة من الهواجس الموصولة بمسألتين على قدر كبير من الأهميّة، تخصّ المسألة الأولى منزلة الخبر في التراث العربي نظرا في تشكيله وإنشائه بحكم عميق صلته بمجالات قد تفارق الأدبيّ في معناه الضيّق، فالخبر داخل _فيما يؤدّيه من وظائف_ في باب الصراع السياسيّ والحضاري، وهو أداة يحكمها الساسة والقادرون ويوجّهونها مآرب شتّى لترويج صورهم و لصناعة صور لأعدائهم. وهو في ذات الآن _ وبالرغم من أثر المقام السياسيّ الواسع في صياغة ملامحه وأغراضه_ يُعتمد في بعضٍ من المصنّفات التاريخيّة وثيقة لإثبات وقائع حاصلة في التاريخ وسندا في كتابه تاريخ العرب القديم. فإلى أيّ حدّ يُمكن اعتماد الخبر أصلا من أصول التاريخ، ومتّكأ للتوثيق، والحال أنّه يخضع لما يخضع له الأدب من طرائق صوغ وتصريف، ويخضع بالإضافة إلى ذلك إلى قيمة مضافة بمقتضاها يصير أداة في أيد الساسة يضربون بها خصومهم ويركّزون بها سلطانهم.

وهي أداة -في وجه من وجوهها- تُضارع وسائط الإعلام في زماننا التي يعسر أن تكون فيما تُروّجه من أخبار ومشاهد موضوعيّة.

وأمّا المسألة الثانية، فتوصَل بدراسة الجاهليّة فترةً تاريخيّة، ذلك أنّ غايتنا من هذا الدرس لا تقوم على رصد الجاهليّة في تاريخيّتها وإنّما لاحظنا أنّ الخبر يُعتَمد في تأريخ هذه الفترة في أغلب المصنّفات العارضة للتاريخ العربيّ القديم، فهل أنّ الجاهليّة التي تصوّرها هذه الأخبار على تناقض بعضٍ من جوانبها وتعارضها هي فعلا الصورة التاريخيّة لهذه الفترة، أم هي محض تصوير لوقائع تنطلق من الحالّ السائد لإسقاطه على الماضي، وما علاقة الرواة بهذا الواقع التاريخيّ؟

إنّ البحث الذي نُجري لا يقف عند بيان ما به يتميّز الخبر في التراث العربيّ، دراسة لبنيته ولطرائق تشكيله، وإنّما بحثنا متركزّ على إثارة عدد من المسائل العالقة بالخبر، وقد كان لصدورنا عن منزلة الخبر في التراث النثري عميق الأثر في توجيه مراحل دراستنا، فالخبر لم ينعزل في كامل مراحل إنشائه وتكوينه عن جملة من المقامات التي ساهمت في تشكيله وإخراجه مخرجا مخصوصا، ولذلك فإنه لم يكن بالشكل الأدبيّ المحض وإنّما هو داخل في عدد من المقامات التي جعلته يكون حاضرا في الدرس الأدبيّ ومستندا في الدرس التاريخيّ ومعتمدا في الدرس الفكريّ بصورة عامّة. وفي جولان الخبر بين هذه الآفاق خصوصيّة منه تُلمَح يستقلّ بها، وعلى ذلك كان السؤال الذي لازمنا والخاصّ بضبط الفروق القائمة بين الأخبار التاريخيّة في المصنّفات العربيّة القديمة وبين الأخبار الواردة في المصنّفات التي عُدّت أدبيّة.

فمن خصال الخبر التي كان لها الأثر الواضح في صياغته وقوعه موقعا جامعا بين توظيفه أداةً فنيّة يجري عليها ما يجري على مختلف صنوف الأجناس الأدبيّة التي تظهر فيها القدرة على الصياغة وإخراج خطاب على هيئة حسنة، وبين وقوعه في مواقع الإخبار و الإعلام، وتمكّن الساسة منه يُوجّهونه مناحي شتّى ويُوظّفونه في خدمة مآربهم، ومن ذلك تأتّت قدرة الخبر على صياغة صورة الجاهليّة. فما هي المقامات المساهمة في إنتاج أخبار تنصرف إلى الجاهليّة و تجعلها مدارها؟ وما الأسباب التي جعلت الجاهليّة بالرغم من نكرانها دينيّا والإعراض عنها تحظى بهذا الكمّ الوفير من أخبار الأخباريين؟ وما هي الوسائط المعتمدة لإخراج هذه الصورة التي رصدتها أخبار

أنشئت في مرحلة من المفروض أنّها تُقيم حدودا فاصلة بينها وبين الجاهليّة؟ ثـمّ كيـف كانت هذه الصورة المرصودة وما هي أهمّ عناصرها؟

لقد وردت هذه المسائل -طرقا وبسطا- مبثوثة في كتابين كان لهمـا عميـق الأثـر في توجيه مسار البحث وتعميق إشكالاته، كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" وكتـاب محمّـد القاضي "الخبر في الأدب العربي" فأمّا بالنسبة إلى طـه حسـين فقـد فـتح بإشـارات في تـاريخ الجاهليّة وتاريخ الأدب العربي مسالك للبحث تنمّ عن وعي عميق للرجل وتبصّر بتـاريخ الأدب العربي يعسر أن يتوفّر عند غيره، فعليه كان المتّكأ في بحث علاقـة الخـبر بالسياسـي وفي دور الشعوب في صناعة صـور عـن ماضـيهم تختلـف بحسـب موقـع النـاظر في هـذا الماضي، وأمّا بالنسبة إلى محمد القاضي فالفضل يرجع إليه في تحديـد الخـبر شـكلا وضـبط جملة مقوّماته وتنزيله منزلته من الأدب العربي، فكان كتابه هـديا وهـدى، أفادنـا بقـدر مـا عسّر علينا أمر البحث بسبب من إحاطته بأغلب مسائل الخبر في التراث النثري.

إضافةً إلى دراسات أخرى كانت استفادتنا منها سلبا وإيجابا أي بالوقوف على ما وقعت فيه من لبس أو بالاتّكاء على ما ورد فيها من رؤى وأفكار. ومنها علـى سـبيل المثال "العصر الجاهلي" لشوقي ضيف الذي حاول أن يقدّم صورة عـن طبيعـة الحيـاة في الجاهلية ولكنّ منزعه كان تاريخيّا حضاريّا، إضافةً إلى أنّ سطوة الشعر الجـاهلي ظلّـت ثابتة في دراسته، ووجّهت رؤيته إلى الوقائع والأشياء، فاعتمد الشعر والخبر في عدد من المواضع وثائقَ تاريخيّة منها يبلغ إقرار طبيعة الحياة في الجاهليّة.

ودراسة ناصر الدين الأسد "مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية" الـتي اسـتند فيها أساسا إلى الشعر الجاهلي، مبينا عن مصادره، وكـان اللّجـوء إلى الأخبـار أساسـا لبيان بعض الأوضاع التاريخيّة أو لفهم الشعر أو لـتأكيد صـورة اسـتقاها الباحـث مـن هذا الشعر. فالخبر في ظلّ هذين الكتابين وفي غيرهما قد اعتُمد شاهدا به يُفسَّر الشـعر أو تُثبَّت وقائع معيّنة. إضافة إلى جهود جواد علـي في "المفصّـل في تـاريخ العـرب قبـل الإسلام" وفؤاد سزكين في تاريخ التراث العربـي". غـير أنـه يجـدر أن نشـير إلى أنّ جـلّ الدراسات في هذا المجال قد ركّز فيها أصحابها المادّة التي درسوها على الشعر الجاهلي، منه تُستَمدّ صورة الجاهليّة أو هي تُدرس هذه الفترة لبيان منابت هذا الشـعر ومصـادر

تخلّقه في حركة ازدواجيّة تنطلق من بعض الوقائع بلوغا إلى القول الشعري أو هي تنطلق منه لبيان "الواقع الجاهلي". فلقد تركّز البحث في في صورة الجاهليّة على الأصول الشعريّة، ومنها كان المنطَلَق لإظهار مكوّنات هذه الصورة وبيان أجزائها حدّ الإقرار التاريخي، وكان الاتّكاء على الأخبار عارضا، داعما لما تؤسّسه الصورة الشعريّة، والحال أنّ المدوّنة الأخباريّة تمثّل مرصدا مهمّا للجاهليّة والإسلام، ذلك أنّ رصد الجاهليّة كان مستندا إلى واقع حال يظهر في هذه الصورة بشكل بيّن.

فكان أن شرعنا في بيان صورة الجاهليّة كما رصدتها الأخبار، واقتصرنا في هذا النظر على مدوّنة محدودة هي الأخبار الواردة في "كتاب الأغاني" التي انصرفت إلى الحديث عن الجاهليّة، بسببٍ من أنّ هذا الكتاب يمثّل منتهى تشكّل الفنّ الأخباريّ، فكانت مرحلة تدوينه مرحلة بلوغ الخبر أوجَ مراقي علوّه، إضافة إلى إلمامه بجلّ الأخبار المبثوثة في مصنّفات الأخباريين، فهو كتاب جامع يحوي في طيّاته كتبا عديدة، ناهيك أنّه يحتوي على نسبة نسبة كبرى من أخبار الجاهليّة توفّر لنا مادّة خصبة للدراسة، وهو "يتضمّن الحياة العربيّة بكلّ ما فيها من أساطير وحكايات وقصص وأمثال وأشعار وخطب، ويصف لنا هذا التضمين الجانب الروحي –فضلا عن المادّي– لهذه الحياة، أبو الفرج في كنزه هذا يفتح لنا الأفق لقراءة الشخوص قراءة إبداعيّة فاحصة، لا قراءة تاريخيّة أو علميّة، فقد استطاع أن يُقيم حوارا بأسلوب مع هذه الشخوص، واستطاع أن يُحوّلها إلى أقنعة ورموز في عالم تمثيليّ"

ولم نعتمد في هذا العمل نهجا مخصوصا عليه الاعتماد والاتّكاء وإنّما حاولنا قدر الإمكان أن نستفيد من جملة المباحث النقديّة الخاصّة بمجال الخطاب وخاصّة منه الخطاب السردي، ضمن رؤية تعمّق من وصل الأثر الأدبيّ بالمجال الذي أنتجه. وعلى ذلك فقد سعينا إلى إيلاء النصّ الذي ندرس خصوصيّته داخل الثقافة التي أنتجته، ولم ننجح إلى تطبيق مناهج سرديّة كما هي بسببٍ من أنّ هذه المناهج كانت ناتجة من أصل تشكّلها عن دراسة نصيّة خاصّة، ولذلك كان اعتقادنا في الاستفادة من بعض مفاهيم هذه المناهج دون مطلق الاعتصام بها أو إجرائها كما هي.

لقد اعتمدنا في النهج الذي سلكناه لدراسة هذه المسألة على ثلاث مسائل هي وإن كانت لا تفي بحاجة الموضوع فإنها_فيما نرى_ الأسس التي يعسر إقصاؤها،وهي:

البحث في المقامات التي أنتجت الأخبار التي بها تشكّلت صورة الجاهليّة الأدبيّة والتاريخيّة، ودراسة طرائق بناء الخبر وما به يختصّ على مستوى تشكيله البنيويّ، والخروج في آخر هذا المبحث إلى محاولة رصد الصورة الجاهليّة التي صاغها الأخباريّون ومقارنة البعض من هذه الصور بما ثبت في الأذهان عن حياة الجاهليّين.

فكان أن نظرنا في جملة من المحاور التي منها حاولنا بيان الصورة التي رصدها الأخباريّون للجاهليّة ومختلف الآثار التي ساهمت في صياغة هذه الصورة، فكان اهتمامنا في مرحلة أولى بإنتاج الخبر،ذلك أنّ الخبر خاضع في إنتاجه وبناء مقاصده إلى جملة من المقامات التي تُساهم بدرجات متفاوتة في تحديد معالمه.ولبيان هذه المسألة كان لزاما علينا أن نعترض إلى المقامات التي فيها نشأت أخبار الجاهليّة ويفعت، وركزنا في بياننا لهذه المقامات على مقامين، هما المقام السياسيّ والمقام الأدبيّ، فأما بالنسبة إلى المقام السياسيّ، فإنّه ظاهر في وجهين وجه تقوم فيه السلطة السياسيّة باستدعاء الأخبار لغاية الذود عن وجودها وصناعة صورة لها تقوم على ماضٍ تليد مجيد، ووجه يدخل فيه الخبر مجال الصراع القبليّ، ليشكّل أداة بها يكون التفاخر بالأنساب وإثارة الماضي من ركوده تركيزا لصور تغلو في القيمة وتعلو ولصورة أخرى تحطّ من شأن الأعداء وتضعهم أسفل المراتب. وأمّا بالنسبة إلى مقام رواية الشعر فقد بداء جليّا في أخبار تُجري في إطار الاحتفاء برواية الشعر، فهي ترافقه وتلزم حدوده أو هي تخرج عنه وتمرق لتعتمده متكأ منه المنطلق لتأسيس مجالها الخاصّ بها. فلقد تشكّلت مدوّنة أخباريّة مهمّة على هامش رواية الشعر تقديما له وتأطيرا لأسباب قوله أو وقوفا عند أحداثه وتحويلها من مقام الشعر إلى مقام السرد، ولم تقتصر هذه الظاهرة على رواية الشعر الجاهليّ وإنما توفّرت أيضا في رواية الشعر الإسلاميّ، ومن ذلك أنّ أهمّ مدوّنة في رواية أخبار الأيّام قد كانت ناتجة عن روايةنقائض جرير والفرزدق".

وكان من الضروريّ في إطار البحث في إنتاج الخبر أن نقف عند رُواية وبيان أثرهم في رواية هذه الأخبار ومواقعهم من الأحداث التي يرونها، ودرجات حضورهم

في السند تختلف تأثيرا وفعلا في الرواية، فسعينا إلى النظر في درجات الرواية وفي مدى اقتراب الراوي ممّا يرويه وفي دوره في أداء الرواية بحسب إمكانات التصريف والتحويل والإنشاء، وعلى ذلك فقد انصرفنا إلى الاهتمام بالرواة الأول ومختلف المظاهر التي يبدون عليها سواء كانت أسماء مجهولة أو معلومة أو مطلقة سائبة، كما نظرنا في الرواة الثواني بحسب مواقعهم النصيّة في السند نقلةً ورؤوسا.

ووقفنا في الباب الثاني عند بعضٍ من خصائص الخبر في مستوى بنائه،فلم نعمد في هذا الإطار إلى الاقتصار على نهج بعينه كما لم نجنح إلى دراسة عامّة لمختلف ما يتشكّل به الخطاب السرديّ وإنّما قصرنا البحث على مسائل عُدّت مشكلة في بنية الخبر أو هي مميّزة لبنيته الخاصّة، فكان أن نظرنا في البنية الحدثيّة للخبر اعتمادا على نماذج صدرنا عنها وهي "أخبارالأيّام" وقد اتخذنا منها نموذجين للدرس وهما، خبر"يوم ذي قار" وخبر "يوم شعب جبلة"، وأخبار الصعاليك، وحاولنا في هذا القسم أن نتبيّن المقاطع الحدثيّة التيس منها يتشكّل الخبر المصوّر للجاهليّة. ولمّا كانت الأخبار تتراوح بين الاقتضاب والإفاضة أثرنا في فصل ثان هذه المسألة، وحاولنا فيها أن ننظر في بعضٍ من المظاهر الصياغيّة التي توسّع من النواة في روايتها أو هي تقتصر الأمر على السرد في حدّه الأدنى أو على محض الإعلام والإخبار.

ومن الطبيعيّ بعد رصد مصادر إنتاج الخبر ومقامات إنشائه، وبعد تبيّن طرائق صياغة صورة الجاهليّة فيه أن نبلغ مرحلة فيها يقع بيان سمات المجال الجاهليّ كما بدت في الخبر، وكان هذا المبحث مدار الباب الثالث. فكان أن عرضنا إلى عناصر الصورة التي صاغها الرواة عن الجاهليّة، والتي تحكّمت في رصد ملامحها المقامات التي ذكرنا،وبناه الرواة على هيئة جامعة بين التنفير من بعضٍ من مظاهرها والترغيب في البعض الآخر.فوقفنا في فصلٍ أوّل على وجهتين في التعامل مع أخبار الجاهليّة، وجهة تراها معتَمَدا للتأريخ،وهي وجهة لا تعنينا في ذاتها، وإنما حسبنا الإشارة إليها، ونقد بعض مظاهرها في الإيمان المطلق بدلالة الخبر على التاريخ، ووجهة ثانية هي مُعتَمدنا، وهي الوجهة التي ترى الخبر أداة لتصوير وقائع وشخصيّات قد تُوصل بالواقع فتُحوّر بعضا من عناصره وقد تتحرّر منه لصياغة صور خاضعة في بنائها لعدد من المقامات.

ومنه فرغنا في الفصلين اللاّحقين إلى تفريع هذه الصورة فرعين متعارضين، فرع هو مدار الفصل الثاني وهو خاصّ بضبط مظاهر الصورة المرغّبة، التي تشكلّت أساسا عبر بناء شخصيّات نموذجيّة وتصوير حياة جاهليّة لا تُنكر إذ تُذكر وإنّما هي نموذج يُقتدى به ويهتدى، ومنه مأتى الفخر وتأصيل القيم الأخلاقيّة و الفنيّة. وفرع ثان هو للأوّل ضدّ خصصّنا له فصلا يدور على بيان مظاهر الصورة المنفّرة وبيان عناصرها، بحثا في شخصيّات إذ تُذكر فاعلها تُنكر، ومظاهر حياة تدلّ على جاهليّة ملؤها النزاع والفوضى، وقد ساهمت مقامات عديدة في الدفع إلى تأسيس الصورة الأولى أو الصورة الثانية. ونشير إلى أنّ الفصل الذي اعتمدنا بين الصورتين هو فصل إجرائيّ وليس فصلا دقيقا حاسما، ذلك أنّا واجدون أيضا تداخلا بين الصورتين في عدد من الأخبار.إنّنا نقدم على بحث مواطن الزلل فيه جمّة، لعلّ أهمّها عسر الفصل بين الأدبيّ والحضاريّ في المدوّنة المعتمدة، إضافة إلى أنّ البحث عنانه يسير الارتخاء وتقييده فته عسر كبير، بسبب من ملامسة الأخبار للتاريخيّ والأسطوري والدينيّ واليوميّ.... ولعلّ أهمّ هذه العوائق تشظّي المدوّنة داخل الأثر الذي نعتمد وخارجه إضافة إلى انعدام الرابط البيّن الذي يصل بينها سوى انتمائها إلى فترة تاريخيّة محدّدة، فهي أخبار منجّمة في كتاب الأغاني تختلف حجما وأحداثا مرويّة وصناعة. ,وأخير فإنّ ندرة الدراسات الخاصّة بالنثر العربيّ وعدم توضّح مناهج درسه،مثّلت عائقا حقيقيّا. وقد كان من العسير علينا أن نجمع بين الجاهليّة فضاءً بكرا غائمة ملامحه،تسوده العتمة إلاّ من بصيص نور يحسبه التائه ومقرّه ومستراحه وهو مهلكه وشروع تيهه، وبين الخبر شكلا سرديّا يجري عليه ما يجري على مختلف صنوف النثر القديم من تجاهل وإعراض وندرة درس على ثرائه ووفرة تصاريفه.

وأملنا أن نكون بما أثرناه من عناصر قد ساهمنا بقسط يسير في بيان ما اختصّت به أخبار الجاهليّة في مستوى تشكلّها وخصائص بنائها وما تؤسّسه من مجالات.

الباب الأوّل

إنتاج أخبار الجاهليّة

الفصل الأوّل

مقامات إنتاج أخبار الجاهليّة

لقد تأثّر الأدب العربي – شأنه في ذلك شأن كلّ الآداب الكونيّة- بجملة من العوامل التي ساهمت في تحديد سماته وبثّت فيه أنفاسا مختلفة توجّهاتها، متباينة مراميها. واحتوته مقامات انقاد إلى فضاءاتها واصطبغ بصبغتها، فالأدب -بمختلف توجّهاته- لا يمكن أن يكون بمعزل عن مؤثّرين أساسين، أوّلهما حضاريّ يحتوي السياسي والاجتماعي ...وثانيهما أدبيّ يخصّ معاشرة الجنس للأجناس المجاورة، وطرائق تفاعله معها. ولقد حفّت بأخبار الجاهليّة جملة من العوامل التي ساهمت في إنتاجها ووسمها بميسم مميّز. لذلك أردنا أن ننصرف إلى بيان هذه العوامل وإظهار أثرها في إخراج هذه الأخبار، فوصلناها بالسائد السياسي، سلطةً قادرة على إنتاج تصوّر خاصّ بالجاهليّة في مجالات مختلفة، وصراعا قبليّا سائدا، مسايرا لهذه السلطة، اعتمد هذه الأخبار آلة ذود ومواجهة، من خلالها تُروى مآثر القبيلة وتُرسَّخ أقدامها في الماضي. ووصلناها أيضا بالشعر ذلك أنّ عددا كبيرا من الأخبار متولّد في مقامات أدبيّة خاصّة برواية الشعر جاهليّا كان أو إسلاميّا. فعن رواية الشعر الجاهلي تولّدت أخبار عديدة تصل هذا الشعر بمقامات إنتاجه وبمناسبات إنشائه، وتبين عن الظروف التي تحرّك فيها هذا الشعر. وعن رواية الشعر الإسلامي توفّرت مناسبات لإنتاج هذه الأخبار.

ومن أجل ذلك انصرفنا في هذا الفصل الأوّل إلى رصد ظاهرة تكوّن أخبار الجاهليّة في هذين الفضائين، رغما من وجود عوامل أخرى عديدة قد ساهمت في توليد هذه الأخبار وترويجها مثل البحث في الأنساب، ومثل العامل الديني...إلاّ أنّا رشّحنا هذين المجالين لعميق فعلهما في أخبار الجاهليّة.

ونشير في هذا المقام إلى أنّ سلوك هذا المسلك في البحث محفوف بالمزالق، بسبب من عسر الظفر بمدوّنات أخباريّة تعود إلى زمن ظهور هذه الأخبار، وذلك راجع أساسا إلى ظاهرة مهمّة في تاريخ الأدب العربي، وهي ظاهرة تأخّر التدوين. فهنالك فاصل بيّن بين زمن إنشاء أخبار الجاهليّة مشافهةً وزمن إنشائها تدوينا.

لقد حاولنا في هذا الفصل أن نردّ أخبار الجاهليّة إلى المقامات التي نشأت فيها انطلاقا من معطيات تاريخيّة ومن حجج عقليّة استنباطيّة، تجعل هذه الأخبار الواردة في كتاب الأغاني لا تُرَدّ إلى القرن الرابع وإنّما تضرب بجذورها في ماض قد يعود إلى بداية الرسالة المحمّديّة. فوجدنا عسرا في الإجراء لاعتبارنا الأخبار مجالا للوضع ونحن ننطلق منها في ذات الآن لإثبات انتسابها إلى الفضاء الأموي السياسيّ، فأجرينا هذه المقاربة على ما تحتمله من تناقض لأسباب نذكر أهمّها:

- **السبب الأوّل**، راجع إلى أنّ التاريخ العربيّ مبنيّ أساسا على الأخبار فلا يمكن أن ننفذ إليه إلاّ من خلال هذه الأخبار، لذلك نلاحظ على سبيل المثال أنّ مدوّنة أخباريّة أدبية مثل كتاب الأغاني[1] تُعتَمد في عدد كبير من المصنّفات التاريخيّة الحديثة[2].
- **السبب الثاني**، وهو راجع إلى طرائق إجرائنا لهذه الأخبار، فنحن نصل بينها وبين إشارات تاريخيّة، ونوظّفها متى كانت الظاهرة الأصل مثبتة تاريخيّا، إضافة إلى أنّنا لا نُجري آلة الصدق والكذب على هذه الأخبار، وإنّما قصارانا أن نُثبت الظاهرة، فالصراع القبليّ على سبيل المثال عنصر بيّن في أخبار الجاهليّة، لذلك فإنّا نُظهر بروزه دون وقوف على جزئياته انطلاقا من الخبر المُثبَت.
- **السبب الثالث**، وهو أهمّ الأسباب وأوكدها إذ هو الدافع الرئيسيّ لاعتمادنا هذا المسلك في التحليل، ويتمثّل في أنّ هذه الأخبار التي وصلتنا مدوّنة في القرن الرابع، مكتملة، بيّنة الحدود والملامح، تقتضي حتما المرور بمراحل تَشَكُّلٍ وتَكَوُّنٍ، وهي المراحل التي حاولنا بيانها.

1- الأصبهاني (أبو الفرج): **كتاب الأغاني**. دار الثقافة. بيروت. لبنان. الطبعة السادسة 1983.

2- انظر على سبيل المثال كتاب فكتور سحّاب: **إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف**. المركز الثقافي العربي وكمبيو نشر. بيروت. الدار البيضاء. الطبعة الأولى1992، خاصّة الصفحات التالية: 146-163-214-221-252-255-369.

وعموما فإنّ هذه المقاربة لا تسلم حتما من هنات، ولكنّا نعتقد اعتقادا جازما أنّه من الضروريّ أيضا البحث في خصوصيّة النثر العربي عبر مظاهره المتعدّدة.

السائد السياسيّ وأثره في إنتاج أخبار الجاهليّة

يمثّل العامل السياسيّ مقاما من أهمّ المقامات التي نشأ فيها الخبر وتكوّن، فهو يرعاه ويساهم في ترويجه. وقد كان الخبر في أغلب مراحل إنتاجه ونمائه موصولا بهذا العامل عالقا به من أوجه شتّى، وقد ظهرت هذه الصلة في احتواء السياسيّ للأخبار وعمله على تغذيتها ونشرها، وفي انصراف الأخبار ذاتها إلى التعبير عن هذا المقام إذ داخلته فصارت عالقة به منشدّة إليه. وقد احتلّت الجاهليّة منزلة عليا من حيث هي موضوع من أهمّ موضوعات المقام السياسيّ، إذ كانت مدار انصراف الأخباريين ووجهة يصرفهم إليها المقام السياسيّ –الذي نبين بعدا بعضا من صوره. وعلى ذلك فإنّ المقام السياسيّ بمختلف توجّهاته قد كان له الأثر البالغ في تغذية رواية الخبر وفي صرفه إلى المواضيع التي يروم.

ونريد أن نشير في هذا المبحث إلى اعتقادنا أنّ الأدب بمختلف أجناسه وأشكاله لا ينشأ معزولا عن جملة من العوامل التي تُساهم في تمامه، بعثًا أوليّا وتكوينا حدّ الكمال واكتساب خصائص التميّز والتفرّد.

وعلى هذا فإنّا نريد أن نلمع إلى أنّ البحث في تكوّن الأجناس وظهورها هو اجتهاد فيه من النسبيّة الشيء الكثير. ونريد أن نؤكّد في ذات المقام أنّ أجناس الأدب وأشكاله في تكوينها ليست محكومة برؤية مسبقة، وهي أيضا ليست نتاج تناسل طبيعيّ قائم على التولّد الذاتي والاحتكام إلى مكوّنات جنينيّة تبعث الأجناس وصلا لها بأجناس مولّدَة[1]. بل توجَد طوارئ حضاريّة لها دور فاعل في بعث جنس أدبيّ أو

1- نشير إلى بعض الدراسات الأجناسيّة المسايرة لرؤية أرسطو في مسألة التولّد الطبيعي أو الذاتي للأجناس، وصلا لها بطبيعة الإنسان. فالإنسان يُولّد الإنسان وعلى نفس الشاكلة فإنّ الجنس يُولّد الجنس" انظر أساسا عرض هذه الرؤية في كتاب:

تبديل وجه جنس سائد أو تحويل شكل وجوده أو تعويضه بآخر. وهذه الطوارئ الحضاريّة تشدّ إليها الثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ، إذ هي عناصر تُساهم في بعث الأجناس وترويجها أو في تهميشها والإطاحة بها.

إنّ نشأة الأجناس موصولة بمقامات أو ظروف إنتاج تُساهم في ولادتها وتحديد معالمها، إذ تُوجَد معطيات تاريخيّة تُغيّر أوجه السائد الأدبي وتُعلي سائدا بديلا أو مجاورا يتمثّل التغيّرات الحضاريّة والأدبيّة، ويختطّ سبيلا في الإنتاج الأدبيّ يُساير هذه التغيّرات ويُواكبها. فالجانب الحضاريّ على اختلاف أوجهه عامل فاعل في تنشئة الجنس الأدبيّ (ومقال الحال خير دليل على ذلك).

يذهب رشيد يحياوي إلى أنّ صلات النوع بالحياة الاجتماعيّة بما فيها اللّغويّة والفنيّة، عميقة، وأنّ عوامل كثيرة من هذه الصلات تتدخّل لتحدّد **منشأ** النوع **وشيوعه** وحتّى **انقراضه**."[1]، غير أنّ أغلب الدارسين يُضربون عن وصل الأجناس في إنتاجها بالمتغيّرات الحضاريّة[2]. ونحن نقرّ من هذا المنطلق أنّ الأدب العربي يختصّ بخصلة تُميّزه وتفرض على الدارس سبلا مخصوصة في الدراسة، وتتمثّل هذه الخصوصيّة في صلته العميقة بالمعطى السياسيّ. ولئن كانت جملة الآداب الكونيّة موصولة بالسياسيّ أغراضا ومضامين ومقاصد، فإنّ الأدب العربيّ موتود إلى السياسيّ

Jean Marie Schaeffer : « **Qu'est ce qu'un genre littéraire ?** » Collection Poétique. Ed Seuil, Paris, 1989.

وخاصّة الفصل الأوّل:

« Bref historique de quelques impasses théorique »

2- يحياوي رشيد: "**شعريّة النوع الأدبيّ: في قراءة النقد العربي القديم**" دار إفريقيا-الشرق. الدار البيضاء-المغرب. طبعة أولى 1994. ص185.

3- انظر خاصّة، رينيه ويليك، أوستن وآرن، في كتابهما: "**نظريّة الأدب**" تعريب عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، السعوديّة 1992. ص151. "ورغم ما يتّضح من ارتكاز بعض الإيديولوجيّات والموضوعات الأدبيّة على الظروف الاجتماعيّة، فقلّما أمكن التثبّت من الأصول الاجتماعيّة للأشكال والأساليب والأجناس والأنماط الأدبيّة."

إنشاءً وترويجا. وقد يُرَدّ ذلك أساسا إلى أنّ الفضاءات السياسيّة منذ العصر الأمويّ قد باتت مسرحا للحركة الأدبيّة ومجالا فسيحا يتغذّى منه الأدب ويكون[1].

إنّ عددا من الدلائل التي نُبينها لاحقا تُظهر أنّ الخبر شكلا[2] أدبيّا قد نما مسايرةً للتحوّلات الحضاريّة الطارئة، منطلقا مع خلافة بني أميّة نشأةً أولى، ومواصلا عمليّة تكوّنه دون انفصال عن هذه المتغيّرات التي ساوقها وسايرها على اختلاف أوجهها وتغاير مناحيها.

إنّ حركة التاريخ قد تدفع إلى إنشاء فعل أدبيّ محدث، يتسرّب إلى جوار الأجناس السائدة من مداخل متعدّدة، وقد يكون المدخل السياسيّ من أهمّها وأنفذها. وهذا المنطلق التاريخيّ الذي يُساهم بدرجة أو بأخرى في إنتاج أجناس وليدة حديثة، لا يُقصي -ضرورةً- الأجناس السابقة، بل إنّ الفضاء الأدبيّ قادر على احتمال عدد من الأجناس

1- يذهب طه حسين إلى أنّ عاملين قد أثرا عميق الأثر في التاريخ العربي، وهما الدين والسياسة، يقول: "والحقّ أنّه لا سبيل إلى فهم التاريخ الإسلامي مهما تختلف فروعه إلاّ إذا وضحت هذه المسألة (مسألة الدين والسياسة) توضيحا كافيا. فقد أرادت الظروف ألاّ يستطيع العرب منذ ظهر الإسلام أن يخلصوا من هذين المؤثّرين في لحظة من لحظات حياتهم." في الشعر الجاهلي". دار النهر للنشر والتوزيع. الدقي. الطبعة الثالثة 1996. ص85.

ويقول أيضا في ذات الموضوع: "وإذن فكلّ حركة من حركاتهم وكلّ مظهر من مظاهر حياتهم متأثّر بالدين، متأثّر بالسياسة" م.ن. ص: 85.

ولقد رشّحنا المعطى السياسيّ بغاية بيان أثره في إنتاج أخبار الجاهليّة، نظرا لتوفّر جملة من الدلائل التي تصل تنشيط رواية هذه الأخبار وترويجها، بالفضاء السياسيّ.

ونحن لا نقرّ إقرارا مطلقا بتفرّد الأدب العربي تأثّرا بالمجال السياسي، وإنّما يبدو أنّ ظاهرة اتّصال مختلف صنوف الأدب العربي بالسياسي مسألة حقيقة بالاهتمام، نظرا لطبيعة هذه الصلة. لذلك فلا غرابة أن يحوي الفضاءُ السياسيّ أهمّ الأنشطة الشعريّة، ولا غرابة أيضا أنّ جلّ المصنّفات النثريّة تُرفَع أساسا إلى أصحاب الأمور وسائسي البلاد.

2- إنّنا ننطلق في اعتبار الخبر شكلا أدبيّا ممّا انتهى إليه محمّد القاضي في بحثه عن منزلة الخبر من الأجناس الأدبيّة.

سيادةً. لذلك فإنّا لا نركن إلى إقرار منطق الاستبدال[1] أو تبادل السيادة، وإنّما نجنح إلى إثبات منطق التجاور. فالأجناس لا تتداول وجودها وسيادتها في الحضارة العربيّة، ففي أوج علوّ الخطابة لم يخفت صيت الشعر، وإنّما ظلّ حضوره فاعلا ونافذا، بل إنّ الخطابة لتستدعيه دوما تأكيدا لأقوالها وتقوية من حجمها وتحقيقا لمقاصدها.

ونحن في هذا المقام نسعى إلى رصد العوامل المساهمة في إنتاج شكل حادث في الأدب العربي، قد غابت أصوله ولكنّها لم تُمح امّحاء كليّا، وإنّما بقيت بعض ملامحها بيّنة تُرصَد في المصنّفات التاريخيّة والأدبيّة، وفي الأخبار ذاتها. وما عرضناه لحدّ الساعة ليس داخلا في بسط مشاكل تحديد الخبر وضبط منزلته من الأجناس، وإنّما هو محض مدخل منه أردنا إثبات مسألتين على قدر من الأهميّة بالنسبة إلينا فيما نعرض له لاحقا، تخصّ المسألة الأولى أثر العامل السياسيّ في بعث الخبر والمساهمة في تنشيطه وترويجه، وتخصّ المسألة الثانية بيان تجاور الأجناس والأشكال، إذ أنّ ظهور جنس أدبي مخصوص لا يعني أنّه يحتلّ منزلة جنس آخر.

وعلى ذلك فإنّ الخبر شكلا من أشكال التعبير والجاهليّة مضمونا لهذا الشكل قد ظهرا وتمّ الجمع بينهما نشاطا أدبيّا ينصرف إليه الرواة في زمن بني أميّة، وإن كان هذا الظهور لا يخلو من جهود أولى مهّدت له وساهمت في تشكيله.

1- نشير أساسا إلى ما ذهب إليه رشيد يحياوي في كتابه **شعريّة النوع الأدبيّ** ص: 184. 185. يقول: «إنّ الحاجة الاجتماعيّة لأنواع وأنماط أكثر من أخرى هي التي تؤدّي إلى اختلاف درجات هذه الأنواع في سلّم التداول. ففي مرحلة أولى من الجاهليّة كان الشعر في أعلى ذلك السلّم، تنزّل باقي الأنواع والأنماط ومنها الخطابة عن درجته، إذ كان الشاعر في الجاهليّة يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهول على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانها ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم." ولكن جاءت مرحلة تالية فتغيّر سلّم الأنواع الجاهليّة ونزل الشعر وتكاثر الشعراء، وتحوّلوا إلى التكسّب وكشف أعراض النّاس، ممّا جعل الخطيب عندهم "فوق الشاعر"».

لقد أشار حمّادي صمّود[1] إلى أنّ عصر بني أميّة قد مثّل مرحلة "انتقاليّة" هامّة في تاريخ الأدب العربي، تنشِئةً للنثر. إذ تميّزت هذه المرحلة بقيام الدولة كيانا منظّما وبـ"الحنين إلى الماضي" تصوّرا وسياسةً. وهذا النظام الخاصّ بالدولة مرفوقا برؤية عصبيّة قد حفز في منحى من مناحيه على بعث الخبر شكلا أدبيّا يُتَناقَل مشافهةً وكتابةً.

لقد غذّى هذا المتغيّر الحضاري الذي شمل سياسة الدولة والمجتمع الأوبة إلى الجاهليّة تذكّرا وروايةً.

ويؤكّد محمّد القاضي في بحثه عن العلاقة الواصلة بين الإيديولوجيا بوجهيها والخبر أنّ التنازع القبليّ الناشئ أو المُثار زمن الخلافة الأمويّة قد ساهم بشكل بيّن في تنشئة الأخبار وتوليدها، يقول: "وبذلك تكون الثارات القبليّة هي المحرّك الحقيقيّ لهذه الأخبار، وهي التي ولّدتها ووجدت فيها مجالا للبروز والتجسّد"[2].

لقد تولّدت أخبار الجاهليّة في زمان غير زمانها وفي فضاء غير فضائها، لذلك فهي محكومة دوما في إنتاجها برؤية السائد سياسيّا واجتماعيّا، فجملة الثارات القبليّة التي أفاض فيها رواة الأخبار القول، هي ثارات مُثبَتة تاريخيّا زمن بني أميّة وزمن العبّاسيين وزمن الرسول أيضا، وهي مُثبتة شعريّا وقصصيّا زمن الجاهليّة. يقول طه حسين في هذا الشأن: "وإذن فنحن لا نُسرف ولا نغلو ولا نتجاوز العلم ولا القرآن حين نعلن في صراحة وقوّة أنّ هجرة هذه القبائل (فريق من عرب اليمن) بعينها إلى هذه المواطن بعينها تكلّف كان بعد الإسلام، واستغلّ فيه القصّاص هذه النصوص القرآنيّة استغلالا لأسباب سياسيّة يعرفها أقلّ الناس إلماما بالصلة بين القحطانيّة والمضريّة بعد ظهور الإسلام"[3].

1- تعرّض حمّادي صمّود إلى هذه المسألة في إطار بحثه في نشأة النثر العربي ووصله بالمؤسّسات السياسيّة. انظر في ذلك الدرس الذي قدّمه في شهادة التبريز سنة 1996. (درس مخطوط).

2- القاضي محمّد: **الخبر في الأدب العربي**: دراسة في السرديّة العربيّة. منشورات كليّة الآداب منوبة، تونس-دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى 1998. ص651.

3- حسين طه: **في الأدب الجاهلي**. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة عشرة (د.ت). ص91.

وعلى هذا، فإنّ بعث الجاهليّة من رمادها مدارا للأخبار مسألة مشدودة – بنسبة كبيرة- إلى رؤية سياسيّة سايرها المجتمع واحتفى بها. والخبر لم يتكوّن شكلا أدبيّا مكتملا منذ بدء سطوعه وبزوغه، وإنّما نشأ موظّفا آلة للدعاية، فكان سلاحا في أيدي الرواة الذين كانوا آلات في أيدي الساسة والثارات القبليّة[1]. فـ"رعاية الأدب"[2] ظاهرة بيّنة في التراث الأدبيّ العربي.

يُبعَث الجنس الوليد حادثا في مجتمع لم يتعوّده وذائقة لم تتشكّل على تقبّله، لذلك فإنّ الأمر موصول بحتميّة تاريخيّة حضاريّة تقتضي تولّد هذا الجنس وبعثه، إذ تتضافر جملة من المعطيات التي تُساهم في إنتاجه وإخراجه وترويجه.

ولمحن ولئن وصلنا الأخبار الجاهليّة في إنتاجها بالعامل السياسيّ فإنّا لا نعدم عوامل أخرى اتّصلت بها وفعلت فيها فعل الإخراج والإنتاج، أثبتنا أهمّها وهو العامل السياسيّ المساير لنقلة حضاريّة في بنية المجتمع وظروف عيشه وطبيعة سياسته، ونشير إلى عوامل أخرى، مثل تبدّل الذائقة الغالبة بعد أن نأت بعض الشيء عن تقبّل الشعر وعوّضته بالقرآن خطابا نثريّا متداولا يحوي فيما يحويه "نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا الكتاب"[3].

إضافة إلى عامل مجاور وهو تناقل أحاديث الرسول واعتماد أسانيد تشدّ المقول إلى أصل إنشائه. فهذه العوامل –وغيرها كثير- قد ساهمت مجموعة في إنتاج شكل لا يستقلّ تمام الاستقلال عن الشعر، إذ أنّ الخبر يحتوي –في أغلب حالاته- أشعارا يُوصَل بها بطرائق شتّى مسايرةً لها أو خروجا عنها أو ضبطا لمناسبات قولها. فرواية الشعر حنينا إلى الماضي وتفاخرا بالأمجاد، قد مثّلت أيضا عاملا من العوامل المهمّة في بعث هذه الأخبار.

1- دون أن نسقط في التعميم، فهنالك من الأخبار ما ينفلت عن هذا الحكم.

2- "نظريّة الأدب": ص .137.

3- سورة يوسف. الآية (3). إضافة إلى آيات أخرى تحثّ على القصص. آل عمران (62): "إنّ هذا لهو القصص الحقّ". الأعراف (176): "فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون".

غير أنّ حديثنا عن تكوّن[1] الخبر شكلا حادثا زمن الأمويين [2] لا سند له لحدّ الساعة وإنّما هو محض اجتهاد نسعى إلى تأكيده في مقبل التحليل. وسندنا الذي نعتمده منطلقا، هو تأخّر التدوين في الحضارة العربيّة الإسلاميّة[3]، ولا يمكن أن نقرن بين ظهور التدوين وشيوعه وبين نشأة الجنس. فزمن النشأة ليس موصولا -ضرورة- بزمن التدوين، ولئن كان تأخّر التدوين هو الذي طمس المعالم الأولى لبزوغ هذا الجنس، فإنّه لا يعني أنّ المصنّفات الأخباريّة التي بلغتنا مكتملة في مصنّفات القرنين الثالث والرابع هي البداية الأولى لظهور الخبر، لأسباب عدّة، أهمّها أنّ هذه المصنّفات تحمل في طيّاتها أصداء لمصنّفات سابقة، وأنّ الخبر في حدّ ذاته قد وصلنا في هذه المصنّفات مكتملا.

وعلى هذا الأساس، فإنّه يبدو أنّ عددا من الإشكالات تنهض حواجز تعسّر الخوض في هذه المسائل، نظرا لغياب مدوّنات حقيقيّة تبين عن الأزمنة الأولى التي نشأت فيها أخبار الجاهليّة، ونظرا أيضا لقيام التاريخ العربي برمّته على أخبار تُقدّم الصورة ونقيضها. لذلك، فإنّه يعسر ضبط المعالم المحدّدة لتولّد الجنس أو إنتاجه والمساهمة في إخراجه وتثبيته سيادةً في الإنتاج الأدبي، كما يعسر أن نحدّد بدقّة صارمة العهود التي نشأت فيها هذه الأخبار. وقصارى جهدنا أن نبين عن بعض الظروف التي تدخّلت تدخّلا بيّنا في إنشاء شكل له مكانته ومنزلته المهمّة في تاريخ الأدب العربي.

1- ونشير في هذا المقام إلى أنّ تكوّن الخبر قد كان على هيئتين، هيئة أولى تكوّن فيها الخبر إنشاء ورواجا بين النّاس، وهي مرحلة تكوّن الخبر على مستوى الشفويّ، وهيئة ثانية، وهي الأهمّ بالنسبة إلى مبحثنا تكوّن فيها الخبر جمعا وتدوينا.

2- يقول فؤاد سزكين: "فقد بدأ في عهد معاوية جمع الأخبار التاريخيّة وما يتّصل بها من أشعار، ألّف عبيد بن شريّة الجرهمي(...) "كتاب في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها" وألّف زياد بن أبيه (...) "كتاب المثالب" وألّف بن مفرّغ الحميري (ت 69 هـ/ 688م) "سيرة تبّع وأشعارها" وهذه الكتب يمكن أن تعدّ أقدم المؤلّفات في هذا الاتّجاه" **تاريخ التراث العربي**". نقله إلى العربيّة محمود فهمي حجازي نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة محمّد بن سعود الإسلاميّة. المملكة العربيّة السعوديّة. 1983. م2. ج1. ص38

3- وإن كانت هذه المسألة لا تخلو من جدال ومن تغاير رؤى واختلاف منطلقات وطرائق تحليل، إذ نرى فؤاد سزكين على سبيل المثال يسعى إلى إثبات نقيض هذه الفكرة، فيقوّض منزع تأخّر التدوين.

ولن ندّعي في هذا المقام الإحاطة التامة بجميع العناصر المساهمة في إنتاج أخبار الجاهليّة، وإنّما نأتي على ما بدا لنا عاملا فاعلا في بعثها من خلال دراسة صورة من صور الخبر أو مظهرا من مظاهر تحقّقه في أخبار الجاهليّة. ومبحثنا ليس مبحثا تاريخيّا أو حضاريّا وإن توسّل بالتاريخيّ والحضاريّ، بل هو بحث في مقامات ساهمت في تحديد ملامح أخبار الجاهليّة.

إنّ خصوصيّة هذا الشكل في تاريخ الأدب العربي تحتّم ضرورةً خصوصيّة في تناول مسائل إنتاجه، ونحاول في هذا العمل تتبّع هذه الخصوصيّة في حركتها التاريخيّة وبيان مختلف تشكّلاتها، وإن كنّا نعلم بدءا أنّ ما نجريه هو محض اجتهاد بسببٍ من غياب جلّ النصوص البدئيّة التي يمكن أن توفّر لنا مادّة لدراسة المظاهر الأولى التي بدت عليها أخبار الجاهليّة.

ويمكن أن ننظر في أثر المتغيّرات السياسيّة في بناء أخبار الجاهليّة من زاويتين، تهتمّ الأولى بالنظر في السائد السياسي ودوره في بعث أخبار الجاهليّة، طلبا لا يُرَدُّ وهدفا يُتقصّى، وتهتمّ الثانية بالنظر في التنازع القبلي وما حفّ به من بعث أخبار وابتكار أخرى في مقام التنازع القبليّ القوليّ. وفصلنا بين السائد السياسي وظاهرة التنازع القبليّ هو فصل إجرائيّ فحسب، فهما واحد، ولكن نهتمّ في الأولى ببيان دور السلطان سيادةً سياسيّة وأثره في تنشيط رواية أخبار الجاهليّة، ونهتمّ في الثانية ببيان أثر التنازع القبليّ -وإن كان على صلة متينة بالسلطان السياسي- في تذكية رواية هذه الأخبار.

1- السلطان السياسيّ وأثره في إنتاج أخبار الجاهليّة.

لقد رافقت الخلافة الأمويّة جملة من التغيّرات الحضاريّة التي أحدثت نقلة نوعيّة، تصوّرا سياسيّا وأساليب معاملة وطرائق معاش، ودون أن نقع في مجال الرصد التاريخي للحضارة العربيّة زمن الخلافة الأمويّة، نقرّ أنّنا ننطلق من خلاصة المصنفات التاريخيّة والحضاريّة قديمها وحديثها، التي انتهت إلى أنّ الدولة الأمويّة دولة عربيّة أعرابيّة، تقوم على العصبيّة القبليّة، ودون أن نسائل هذا الموقف القائم على عدد من الحجج ودون أن نعمّق النظر فيه، لأنّ مبحثنا لا يتركّز على تتبّع الدولة الأمويّة في حدّ

ذاتها، وإنّما هو يضطلع برصد ظاهرة أدبيّة قد نمت ويفعت في ظلّ هذا المتغيّر السياسي الذي ساهم في إقامتها وإعلاء بنيانها.

إنّ انتصاب بني أميّة ساسةً على النّاس قد حمل معه جملة من المتغيّرات المتمثّلة أساسا في الابتعاد –نسبيّا– عن الاتّكاء على الشرعيّة الدينيّة، والابتعاد أيضا عن الوحدة القائمة على المساواة انتماءً إلى الدين، وتمّ إذكاء النصرة القبليّة، والعصبيّة القبليّة في عدد من أوجهها.

ونظرا إلى أنّ العرب المسلمين قد أخذتهم حركة الفتوح والمعتقد الحديث، نأيا عن جاهليتهم، فإنّ الركون إلى الاستقرار بعد هدْأة هذه الحركة مثّل حافزا على تذكّر الماضي وبعثه من رماده إحنا وأمجادا. وممّا أذكى هذا التذكّر سلطة تستمدّ شرعيّتها من ماضيها المجيد في جاهليّتها، وتنازع قبليّ أفضى –ضرورة– داخل مقام المفاخرة، إلى استحضار بطولات الماضي. لذلك، فإنّ أغلب الدارسين[1] يتحدّثون عن عودة قويّة مع الخلافة الأمويّة إلى التنازع القبليّ وإلى التفاخر.

1- يمكن الإشارة إلى عدد كبير من الدراسات التاريخيّة والدراسات الخاصّة بتاريخ الأدب العربي التي تؤكّد هذا المنحى، ونذكر منها على سبيل المثال:

- حسين (طه): "**في الشعر الجاهلي**"، أنظر أساسا الكتاب الثاني "أسباب انتحال الشعر" ص97.
- سركيس (إحسان): "**الظاهرة الأدبيّة في صدر الإسلام والدولة الأمويّة**". دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1981. انظر خاصّة ص256.
- أمين (أحمد): "**فجر الإسلام**". دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. الطبعة الحادية عشرة 1975. ص 8. يقول: "والإسلام جاء وكان قد تمّ اعتقاد العرب بأنّهم في أنسابهم يرجعون إلى أصول ثلاثة: ربيعة ومضر واليمن، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقا لهذه العقيدة، واستغلّها خلفاء بني أميّة ومن بعدهم، فكانوا يضربون بعضا ببعض".
- دكسن عبد الأمير (عبد حسين): "**الخلافة الأمويّة**: 65 هـ–86 م. دراسة سياسيّة". دار النهضة للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1973. انظر خاصّة ص141.
- خفاجي (عبد المنعم): "**الحياة الأدبيّة، عصر بني أميّة**" دار الكتاب اللّبناني. بيروت. الطبعة الثانية 1982. انظر خاصّة ص54.
- الأسد (ناصر الدين): "**مصادر الشعر الجاهلي** وقيمتها التاريخيّة". دار الجيل. بيروت. لبنان. الطبعة الثامنة. 1988.

لقد قدّ المقام السياسي –من حيث هو سلطة فاعلة– توجّها تهافت عليه الرواة إرضاءً لسائسيهم، ولا خلاف –تاريخيّا– في أنّ السلطة الأمويّة قد أقامت نفوذها على مبدأ النزاع القبليّ. وفي هذا المقام يُهَيَّأ نمط أدبيّ للظهور (ولا قصديّة في هذه التهيئة) مسايرة لهذا التوجّه السياسيّ، ناهيك أنّنا نتعامل مع حضارة التصق الأدب بساستها التصاقا متينا.

إنّ المقام السياسي عنصر فاعل في إنتاج أخبار الجاهليّة وإذكاء روايتها بسببٍ من استقطابه لعدد من الرواة وتكليفهم برواية هذه الأخبار والمساهمة في ترويجها بتدوينها وإشاعتها بين الناس.

وبصرف النظر عن الأخبار التي تدور في هذا المدار، فإنّ الحقائق التاريخيّة تُظهر احتفاء السلطة الأمويّة، ومن بعدها السلطة العبّاسيّة بتدوين أخبار الجاهليّة لأغراض مختلفة.

فنحن إذن إزاء خلقين، خلقٍ أوّل يُكرّس أساسا للمشافهة –وإن كنّا وفقا لبعض المعلومات التاريخية لا نعدم التدوين بصورة مطلقة– وهو بدء التكوّن أو هو المرحلة الأولى لتكوّن هذه الأخبار في مجال شفويّ، وخلقٍ ثان تظهر فيه هذه الأخبار في صورتها المكتوبة، تدوينا لها. ولن نتعمّق في النظر في هذه المسألة، فلنا أوبة إليها في الفصل الثاني من هذا البحث، غير أنّنا أردنا الإشارة إلى أنّ المستضيف السياسيّ قادر في كلا الخلقين على وسْم رواية هذه الأخبار بميسمه الخاصّ.

وإضافةً إلى ذلك فإنّ الخلق الثاني لم يكن ليُوجَد لولا حدوث خلقٍ أوّل يبعثه وهو مناط بحثنا. لذلك اعتبرنا أنّ الأخبار الجاهليّة تولّدت في الفضاء السياسي الأموي، نظرا لما أسلفنا ذكره من تأخّر التدوين حجّةً تشفع لنا ردّ هذه الأخبار إلى أصول لا تنحصر أساسا في زمن التدوين، وإنّما هي تتعدّاه رجوعا في الزمن إلى السّاسة الأمويين الذين احتفوا بالجاهليّة أخبارا وأشعارا.

والاهتمام بالجاهليّة عند الأمويين له جذور عميقة لا يمكن التوسّع فيها في هذا المعرض، وإنّما حسبنا أن نشير إلى بعضٍ من مظاهرها.

إنّ الصراع بين الأمويين والهاشميين –على سبيل المثال– هو صراع ضارب بجذوره في الجاهليّة، تنازعا على السيادة، وقد تواصل هذا الصراع في الدولة الإسلاميّة بين العائلة الهاشميّة ومن ناصرها من القبائل وبين العائلة الأمويّة ومن ناصرها من القبائل[1]. إضافة إلى أنّ الأمويّين لم ينسوا ما بدا من الأنصار خاصّة يوم بدر، فوقفوا ضدّهم في عدد من المواقف. ناهيك أنّ الأنصار أغلبهم كانوا يحيطون بابن الزبير، وهو من هو وقوفا ضدّ بني أميّة سلطةً سياسيّةً. وفي ظلّ هذه النزاعات الموروث بعضها والحادث بعضها الآخر، التفّت القبائل مُناصِرَةً للأمويين وللهاشميين وللزبيريين[2]. ونلاحظ في هذا المقام أنّ أهمّ قبيلة وقفت مع الأمويين هي الكلبيّة وهو ما فتح بابا للنزاع بينها وبين القيسيّة[3].

1- يمكن النظر في كتاب إحسان النصّ: "**العصبيّة القبليّة** وأثرها في الشعر الأمويّ" دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية 1973. ص188: "ومثل هذه العصبيّة نجدها في بطون قريش أيضا، فقد كان بين بني هاشم وبني أميّة منافسة قديمة ترجع إلى أيّام الجاهليّة، فلمّا جهر الرسول الهاشمي بدعوته نصره جلّ بني هاشم، وامتنع أكثر بني أميّة من الدخول في دينه وعلى رأسهم شيخهم أبو سفيان، وقد ظلّت العصبيّة بين هاتين الأسرتين قائمة أمدا طويلا بعد ذلك".

2- يمكن أن ننظر على سبيل المثال في آثار وقعة الحرّة، وما يركّز عليه الرواة من تقتيل يزيد بن معاوية للأنصار أساسا. ويمكن أن ندرك جذور هذا الخلاف أيضا في ما قام به القرشيّون بزعامة ابن الزبير مع العائلة الأمويّة، خلعا ليزيد بن معاوية ومحاصرةً لآل بيته، وإخراجا لواليه (مروان بن الحكم). ويمكن أن ندرك أبعاد هذا الفعل في سياسة عبد الملك بن مروان.

انظر في هذا الشأن: العش (يوسف): "**الدولة الأمويّة**" دار الفكر. سورية. الطبعة الثانية 1985.. ص172 وما بعدها. وانظر أيضا، النص (إحسان) في كتابه "**العصبيّة القبليّة**" و "**الخلافة الأمويّة**" ص33 وما بعدها.

3- يمكن أن نشير إلى اتّفاقيّة الجابيّة بين زعماء الأسرة الأمويّة، ووقوف الكلبيين سندا لهم. ويمكن أن نشير إلى الانقسام الحاصل في ظلّ الصراع بين الزبيريين والأمويين، إذ جنح الكلبيون إلى الأمويين، والقيسيّون إلى الزبيريين.

يمكن أن نحيل أيضا إلى الدور الفاعل للقبائل في ظلّ هذا السلطان، الذي تجلّى أساسا في مناصرة الكلبيين لعهد مروان إلى ولديه من بعده. "إنّ عهد مروان هذا لولديه من بعده(...) أصبح نافذ المفعول بمساعدة رئيس بني كلب حسّان بن مالك" "**الخلافة الأمويّة**". ص34.

يمكن النظر توسّعا في هذه المسألة في كتاب "**الدولة الأمويّة**" ص185. .186

فكلّ هذه النزاعات وغيرها كثير[1]، (يمكن الإشارة أيضا إلى الصراع داخل البيت الأموي ذاته بسببٍ من اختلاف أنساب أمّهاتِ بني أميّة، انتسابا إلى الكلبيّة أو القيسيّة) قد ساهمت في بعث هذه العصبيّة المميّزة للحكم الأموي، وساهمت أيضا في التفات الأمويين إلى ماضيهم بعثا لأمجادهم وتشريعا لسلطانهم.

إنّ كلّ هذه المظاهر، تسوّغ لنا العودة بالأخبار الجاهليّة -إنتاجا- إلى زمن الأمويين، وإن كنّا نعدم هذه النصوص الأولى، فإنّ عددا من الأخبار -التي لا نركن إلى تصديقها يقينا لا ينخره الزيف، ولا نركن أيضا إلى تكذيبها مطلق التكذيب- تمثّل دليلا على مسايرة الخبر لأوبة الأمويين من جهة والمجتمع من جهة ثانية إلى الجاهليّة.

إنّ استدعاء عبيد بن شريّة وتكليفه بأمر رواية أخبار عن الجاهليّة حدث تاريخيّ، يُبين عن بدء التوجّه الرسميّ لصياغة تصوّر أدبي عن الجاهليّة، يتحكّم فيه الراوية والسياسي الحاضر تقبّلا للخطاب الأخباري، ومساهمةً في بعثه طلبًا، والمقامُ المستند أساسا إلى المسامرة منطلقا وغايةً. فنحن إزاء مقامين، مقام السياسة مستقطبا لأخبار الجاهليّة وحافزا على إنتاجها، ومقام المسامرة داخل المقام السياسي، إذ يطلب السائس هذا النوع من الأخبار بغية تقصير الليل، ويمكن أن ندرك ذلك بجلاء في مقدّمة أخبار عبيد بن شريّة الجرهمي: في أخبار اليمن وأنسابها[2]: "وكانت أفضل لذّاته (معاوية) في آخر عمره **المسامرة وأحاديث من مضى**، فقال له عمرو بن العاص: لو بعثت إلى الجرهمي الذي بالرقة من بقايا من مضى، فإنّه أدرك ملوك الجاهليّة، وهو أعلم من بقي اليوم في **أحاديث العرب وأنسابها** وأوصفه لما مرّ عليه من تصاريف الدهر. فبعث إليه، فأتى في محمل بعد أيّام كثيرة

1- بل إنّ الصراع يمكن أن ينتقل إلى داخل العائلة الأمويّة ذاتها. ونبين ذلك من خلال حدثين، أوّلهما خروج عمرو بن العاص على عبد الملك بن مروان طلبا للإمارة، وثانيهما النزاع الذي تتحدّث عنه كتب التاريخ بين عبد العزيز بن مروان وبشر بن مروان: لقد قيل إنّه في وقت غارة حميد بن حريش كان عبد العزيز بن مروان الذي كانت أمّه كلبيّة يفخر على أخيه بشر بن مروان الذي كانت أمّه قيسيّة في مجلس عبد الملك" **الخلافة الأمويّة**. ص.154

2- وردت هذه الأخبار في كتاب **التيجان في ملوك حمير** لوهب بن منبه. تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنيّة. الجمهوريّة العربيّة اليمنيّة. صنعاء. طبعة أولى 1347 هـ.

وشدّة شوق من معاوية إليه، فدخل عليه شيخ كبير السنّ، صحيح البدن، ثابت العقل، منتبه ذرب اللسان كأنّه الجذع، فسلّم على معاوية بالخلافة، فرحّب به معاوية، وقال له: إنّي أردت اتّخاذك مؤدّبا لي **وسميرا** ومقوّما، وأنا باعث إلى أهلك وأنقلهم إلى جواري، وكن لي سميرا في ليلي ووزيرا في أمري. قال: يا أمير المؤمنين (رأيتني ورحلي) فأرسلها مثلا في العرب! وقال له معاوية: فذلك أخفّ لمؤونتك وأحلى للزومك، فأمر به معاوية فأنزله في قربه وأخدمه، وأمر من يجري وظيفته، ووسع عليه وألطفه. فإذا كان ذلك وقت السمر فهو سميره في خاصّته من أهل بيته، وكان يقصر عليه ليله ويذهب عنه همومه، وأنساه على كلّ سمير [كذا!] كان قبله. ولم يخطر على قلبه شيء قطّ إلاّ وجد عنده فيه شيئا ومرحا[1].

لقد بدا معاوية –وهو رمز سياسة بني أميّة– في هذا الخبر مهتمّا بتتبّع أخبار الماضيين، متقصيّا لرواة أحاديثهم ووقائعهم، متلهّفا للقائهم "فأتى في محمل بعد أيّام كثيرة وشدّة شوق من معاوية إليه"، وهذه الرغبة في إيجاد المسامِر ليست بحثا في محض تقصير ليلٍ أو إذهاب مللٍ، فتلك وسائلها متوفّرة، ولا يعدمها مقام معاوية السياسي، بل بحث عن باعث أخبار الماضين، ورغبة من السلطان السياسي لا يحقّقها إلاّ راوية مبتكر قادر على ربط الوقائع بمقتضى الحال وإخراج أخبار قادرة على شدّ انتباه المسامَر، فهي شبيهة في وجه من وجوهها بما تحقّقه الحكاية في "ألف ليلة وليلة" نفاذا من الموت وإرجاءً له، في حين أنّ المسامِر في ظلّ السلطان السياسي يضمن البقاء صحبة معاوية حتّى ارتقى إلى محلّ الوزير، إذ لاقى القبول الحسن ووقعت أخباره موقعا نافذا في ذات المسامَر[2].

يضعنا العامل السياسيّ –وفقا لما سلف ذكره– إزاء منحيين كلّ منهما له خصوصيّاته، يمثّل الأوّل "المسامرة" مقاما له مقتضياته من حكاية سرديّة ومراعاةٍ لأفق المتقبّل المخصوص والعمل على "تقصير الليل" بأخبار ينصرف إليها المسامر انصرافا كليّا، ويمثّل الثاني "موضوع" هذه المسامرة وهو التاريخ الجاهليّ، فالمسامرة قائمة على

1- م.ن: ص 326. 327.

2- م.ن.ص.

استدعاء التاريخ، إن لم نقل السعي إلى تأريخ وقائع الماضين، بحكم استضافة راوية قد عايش عصرا تُرجَى رواية وقائعه، وهذا الجمع بين المقام وموضوعه، قد يضع الراوية في حيرة من أمره، فإن التزم حقائق الوقائع كما حدثت فعلا دون تصرّف في "الواقع التاريخي"، يُمكن أن يُدخل الملل على ذات المسامر، وإن خضع إلى مقتضيات المقام خضوعا تامّا إذهابا للملل وإدخالا للمرح والسرور خرج عن حدّ الالتزام برواية هذه الوقائع. وعلى ذلك فإنّ الراوية في خضوعه للمقام العامّ مدعوّ إلى إحداث المناسبة بين المقام الخاصّ والموضوع، ونلاحظ أنّ عبيد بن شريّة في الشاهد المذكور أعلاه قد وفّق في إحداث هذه المناسبة، "وأنساه على [كذا] كلّ سمير كان قبله، ولم يخطر على قلبه شيء قطّ إلاّ وجد عنده فيه شيئا **ومرحا وسرورا**"[1].

إنّ المسامرة مقام إنتاجيّ، وهو ساعة يُداخِل المقام السياسيّ فإنّه يتقيّد بمقتضياته، لذلك اعتبرنا أنّ مقام المسامرة داخل في إطار المقام السياسيّ العامّ. وعندما يكون معاوية هو المسامر فإنّ وضع الخطاب الأخباريّ يتشكّل وفقا لآفاق تقبّله.

فالأدب –على اختلاف أجناسه– في الحضارة العربيّة سلطة متى تبنّاه الساسة، وهو عدم إن أعدموه، ذلك أنّ "سلطة الكتابة هي سلطة وظيفتها،وإنّ تاريخ الكتابة هو تاريخ الصراع الاجتماعي، فلا كتابة بلا وظيفة، ولا سلطة كتابيّة بدون سلطة سياسيّة تمنحها الجذور"[2]. ومساوقةً لقولة فيصل درّاج فإنّه لا سلطة للأخبار بدون سلطة سياسيّة تمنحها الجذور وتشدّ من أزرها.

ويمكن أن يتّخذ مقام المسامرة شكلا مغايرا للشكل الذي رأيناه مع معاوية، إذ يبحث طالب السمر عن المسامرة حقّا، دون تحديد أو سؤال عن غاية محدّدة، ومثاله ما ورد في خبر عمر بن هبيرة[3]: "قدم عمر بن هبيرة الكوفة، فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم

1- م.ن.ص.

2- درّاج (فيصل): **الواقع والمثال: مساهمة في علاقة الأدب والسياسة** دار الفكر بيروت لبنان. الطبعة الأولى 1989. ص.296.

3- كان من ولاة الأمويين، ولي العراق في إمارة يزيد الثاني، وكان عاملا على الجزيرة سنة 100هـ، وولي خراسان وعُزل عنها سنة 105 هـ، وكان متعصّبا للقيسيّة وعدوّا لدودا لليمنيين. انظر تعريفه في:

من وجوه الكوفة، فسمروا عنده، ثمّ قال ليحدّثني كلّ رجل منكم أحدوثة، وابدأ أنت يا أبا عمرو. فقلت: أصلح الله الأمير! أ حديث الحقّ أم حديث الباطل؟ قال: بل حديث الحقّ، قلت: إنّ امرأ القيس آلى بأليّة ألاّ يتزوّج امرأة حتّى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهنّ عن هذا، قلن أربعة عشر، فبينما هو يسير في جوف الليل، إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنّها البدر ليلة تمامه، فأعجبته، فقال لها: يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنتان؟ فقالت: أمّا ثمانية فأطباء الكلبة، وأمّا أربعة فأخلاف الناقة، وأمّا اثنتان فثديا الناقة، فخطبها إلى أبيها فزوّجه إيّاها، وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال...»[1].

إنّ المقام السياسي يشدّ إليه الأدبي ويدعوه إلى رحابه بغية تحقيق المسامرة. فطلب ابن هبيرة، وهو المسامر في الخبر هو طلب عامّ، إذ يطلب أقصوصة أو أحدوثة من كلّ مسامر، ويحدّد هذه الأحدوثة بأن تكون صادقة، غير أنّا متى تبيّنا الأحدوثة أدركنا أنّ صلتها بالقصّ متينة، وكأنّها قُدّت فعلا لمقام المسامرة، إذ قامت على جملة من الأحاجي، وكلّ أحجية تؤدّي بنا إلى أحجية تالية، إضافة إلى توفّر الحبكة القصصيّة المترابطة وحياكة الأحداث تناسلا وتوالدا بدقّة ودراية وصناعة. ولعلّ كلّ هذه العوامل، لا صدق الخبر، هي التي جعلت السائس يكتفي بهذا الخبر إذ تحقّق مقصده، ولم يأمل في خبر يُضاهيه أو يفوقه قيمةً، «قال ابن هبيرة: حسبكم. فلا خير في الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن تأتينا بأعجب منه»[2].

إنّ المقام السياسي قادر على استقطاب حركة الرواية لتدور في مداره تحقيقا لمبدإ المسامرة والترغيب في المروي أو مسايرة لتوجّه سياسيّ سائد، وهو قادر أيضا

«تاريخ الأمم والملوك» لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت 310هـ). دار الكتب العلميّة. بيروت لبنان. الطبعة الثالثة 1991: 4/ 2. 4/ 96. 4/ 104. 4/ 106. وانظر أيضا:

- «**Encyclopédie de l'islam**». Tom III. Nouvelle edition. E.J. Brill. Paris. Première reimpression 1975. p825. 826.

1- الأصبهاني: **كتاب الأغاني**. 9/ 97 وما بعدها.

2- م.ن: 9/ 100.

على تحريك هذا المجال بواسطة المساهمة الفعليّة في إنتاج هذه الأخبار. فمعاوية في أخبار عبيد بن شريّة كان عنصرا خطابيّا مهمّا، إذ يتدخّل دوما في إنتاج الخطاب الأخباريّ، ناهيك عن وجوده مخاطَبا ورأسا للسلطة السياسيّة القائمة. أمّا ابن هبيرة، فقد ساهم في إنتاج خطاب أخباري قصصيّ شدّه إليه وأذهب عنه الملل، فتحقّق مقصده من ذلك.

ونشير في هذا الإطار إلى أنّه من العسير حقّا أن نضبط مسألة النشأة الخاصّة بشكل من الأشكال الأدبيّة تحديدا صارما ودقيقا، ولكن يمكن أن نبين بعض الفضاءات التي ساهمت في إنتاج هذا الشكل بتداول إنتاجه وصياغة ملامحه. ومن هنا كان اهتمامنا بالفضاء السياسي الحافّ بظهور أخبار الجاهليّة. والحقّ أنّنا إزاء فضائين سياسيين ساهما بدرجة كبيرة في إخراج هذه الأخبار وترويتها، فضاء ساهم في إنتاجها الشفوي (وإن كان القول بالإنشاء الشفوي في ظلّ سياسة بني أميّة ليس قولا قطعيّا جازما، لأنّ الأصول الشفويّة للخبر قد تضرب بجذورها إلى ما قبل الدولة الأمويّة، فهي مسألة يستحيل ضبطها وبيان العوال المساهمة في إنتاجها، ولإثبات الرواة وجود نصوص مكتوبة، وحثّ السلطة الأمويّة على تدوين أخبار الجاهليين) وفضاء ساهم في إنشاء المدوّن كتابةً، فانتقلت من مجال مداره الغلبة الشفويّة إلى مجال مداره المكتوب، وإن كان التدوين حاضرا في الفضاء الأوّل والشفويّ كامناً في الفضاء الثاني. ويبدو أنّ الأمويين –سلطةً سياسيّةً- كانوا في حاجة إلى ضرب أعدائهم –وهو كُثْرٌ تنازعا على السلطة- بحجّة غير حجّة السّابقة في الإسلام والمآثر في ظلّ الدين الجديد، لذلك آبوا إلى الجاهليّة نبشا في ماضٍ كان لهم فيه مطلق العزّ، وهم العرب الخُلَّص انتسابا. فكان معاوية على سبيل المثال يستلذّ أخبار الماضين ويركن إلى الإنصات إليها، وأمّا معاوية بن أبي سفيان فقد كانت له ساعات من كلّ يوم يقعد فيها، فيحضر غلمانه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك غلمان مرتّبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءاتها، وكان من جملة تلك الأحاديث، أحاديث عبيد بن شريّة الجرهمي عن وقائع

العرب وأخبارها وأشعارها، فكان معاوية يأمر أهل ديوانه أن يوقّعوا هذه الأحاديث ويدوّنوها في الكتب وينسبوها إلى عبيد بن شريّة[1].

وبغضّ النظر عن صدق هذا الخبر أو عدمه (طلبا للحقيقة التاريخيّة) فإنّ هذا الوضع التخاطبي الجامع بين معاوية وعبيد بن شرية ينطلق من تصوّر عن الجاهليّة تُواكبه الأخبار الموظّفة في رحابه. إنّ هذه المسامرة الجامعة بين سائل صاحب رؤية سياسيّة، تُعتبر الجاهليّة مرحلة عزّ ومقوّما للسيادة، بل هي المبدأ الذي يقيم عليه هذا السائس سلطانه في تمصيره الأمصار وبنائه لجيشه وتوزيعه العطايا، وبين مُخبِر يلقَى لديه السائل شِفاءً لغُلَّته، تؤسّس أخبارا، عُدّ هذا المخبر أسّ إنتاجها.

إنّ طلب معاوية –وهو نموذج السلطة السياسيّة السائدة- أخبارا عن الماضين في مسامراته، يجعل المسؤول في حيرة من أمره. فإن كان على علم حقيقي ببعض الوقائع، فعليه أن يرويها بطريقة تُؤنس السائل طالب السمر، وتقع في نفسه موقع الرضى والاستحسان. وإن كان جاهلا بها فعليه أن يبعثها صياغةً إنشائيّة. فالسلطة السياسيّة باستضافتها للسلطة الروائيّة –ممثّلة في عبيد بن شريّة أو غيره من الرواة- تُعلن غايةً وتُضمر خفايا. وعلى السلطة الروائيّة من حيث هي جامعة الأخبار ومنتجتها أن تُدرك المُعلَن والمخفي من طلب السائس الذي يتقصّى العظة والاعتبار من وقائع الملوك والساسة، وهو في ذات الآن يُروّح عن نفسه بتعلّم مكائد الساسة وحِيَلهم، وبالإضافة إلى كلّ هذا، فإنّ السلطان السياسي لا يقبل بأيّ شكل من الأشكال أن يحطّ من شأنه في ماضيه أو أن يُعلي الراوية من شأن خصومه.

وهذا هو جوهر المقام السياسي باعثا لأخبار الجاهليّة ومتحكّما في تصاريفها، إذ يفرض تعجيل الوقائع المرويّة وفقا لهوى السائس. وعلى هذا الأساس، فإنّ الراوية –كما سلف أن ذكرنا- يقع في حيرة سؤال السائس، فإمّا أن يكون عارفا بما سُئِل فيه، فيُعمِل آلة التحويل والتعديل خضوعا لمقام المسامرة، وإمّا أن يكون جاهلا، وهو في هذا المقام محتاج إلى إعمال آلة الخلق والابتكار صياغةً تُحقّق القبول الحسن.

1- الأسد (ناصر الدين): "مصادر الشعر الجاهلي: وقيمتها التاريخيّة" ص.159

إنّ مسألة الاستئناس بهذه الأخبار مسامرةً كوّنت حركة إنتاجيّة تختصّ بإنشاء أخبار الجاهليّة. وأصحاب الأمور كانوا ساسة يستضيفون في مجالس أنسهم ومسامراتهم رُواةً وُظّفوا أساسا لبعث هذه الأخبار وترويجها، "كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج: انظر لي رجلا عالما بالحلال والحرام، عارفا بأشعار العرب وأخبارهم أستأنس به، وأصيب عنده معرفة، فوجّهه إليّ من قبلك. فوجّه إليه الشعبيّ، وكان أجمع أهل زمانه"[1].

وهذا عَلَمٌ آخر من أعلام رواية أخبار الجاهليّة يستضيفه المقام السياسيّ، ليُديره في مدار رؤيته. ويُقدَّم لنا الاستئناس في هذا الخبر مقرونا بالمعرفة، وهما غايتان على الراوية تحقيقهما في إنجازه لأخبار العرب.

وقد يتجاوز الأمر محض الاستفادة والإنتاج والترويج لهذه الأخبار صورةً من صور سياسة بني أميّة، إلى حدود محاورة المستحضَر أو المدعوّ ممثّلا لجامعة الأدب والعلم، وهذا ما ندركه بجلاء في إخراج صورة عبد الملك بن مروان على هيئة طالب المعرفة ومدركها ومنتجها، ساعة يُخرج الشعبيّ المدعوّ إلى مقامه ويحاججه بمنطق محصّل الأدب وراويه، لا بمنطق السائس، السائل، "كتب عبد الملك إلى الحجّاج أنّه ليس شيء من لذّة الدنيا إلاّ وقد أصبتُ منه، ولم يكن عندي شيء ألذّ إلاّ مناقلة الأخوان للحديث، وقبلك عامر الشعبيّ، فابعث به إليّ يُحدّثني"[2].

ولعلّنا ندرك الاختلاف الواضح بين الخبر الأوّل والخبر الثاني، وهما واحد، إذ يطلب عبد الملك الشعبيّ تحديدا باسمه في الخبر الثاني، ويطلبه صفةً يبحث عنها في الخبر الأوّل دون تحديد أو ضبط لاسم بعينه أو شخص مخصوص. غير أنّ هذا لا يُبدّل كثيرا ممّا يمكن أن يفيده كلّ من الخبرين تقصّيا للأدب ورُواته من طرف السلطة السياسيّة. إنّ عبد الملك يبدو في هذا الخبر حريصا على تحصيل الأحاديث، فيبعث إلى عمّاله طالبا أعلام الرواية. غير أنّ لاحق الخبر يعدل بنا عن هذا التوجّه الظاهر في أوّله، ليدخل بنا إلى فضاءٍ أعمّ، وهو فضاء التصارع الأدبي -روايةً- بين الشاميين

1- م.ن: ص.199

2- الأصبهاني: "كتاب الأغاني" 11/ 19.

والعراقيين. فينتصب عبد الملك ذائدا عن رواية الشاميين، ويُنصِّب الشعبيّ ممثّلا للرواة العراقيين. فيظهر لنا بذلك أنّ استدعاء الشعبيّ لا صلة له بما ورد في أوّل الخبر، استفادةً وتبادل أخبار، وإنّما استدعاؤه موصول بوضع جداليّ حجاجيّ عامّ، إذ يعمد عبد الملك إلى الدفاع عن سنده –ونقصد بذلك الشاميين– والتقليل من شأن معارضيه –ونقصد بذلك العراقيين– في مدار ينأى ظاهريًا عن الصراع السياسيّ، ويُلامس المجال الأدبيّ، وإن كان السياسيّ بيّن الظهور.

ثُمّ قال: يا شعبيّ، لعلّك شقّ عليك ما سمعتَ. قلت: أي واللّه يا أمير المؤمنين، أشدّ المشقّة. إنّي أحدّثك منذ شهرين، لم أفدك إلاّ أبيات النابغة في الغلام. قال: يا شعبيّ، إنّما أعلمتك هذا، لأنّه بلغني أنّ **أهل العراق يتطاولون على أهل الشام**، يقولون: **إن كانوا غلبونا على الدولة فلم يغلبونا على الرواية**»[1].

إنّ الاحتفاء بالجاهليّة –إخبارا– كان خيارا سياسيّا لبني أميّة، وفقا لمعطى حضاريّ قوامه التبدّل المزامن لحلول هذه السلطة، وطلبا للعظة والاعتبار وعودة إلى مجد يُواصله ذووه. إذ يُردّ لهم شرف السيادة في الجاهليّة مع قيام سلطانهم في الإسلام، إضافةً إلى اعتبارات حضاريّة وتاريخيّة حتميّة تفرض ضرورة التواصل مع الماضي بواسطة الحكايات والأخبار.

لقد قام بنو أميّة سلطةً سياسيّة بمجهود كبير (تُلمّح أصداؤه في الأخبار ذاتها، ويؤكّدها المنصرفون إلى دراسة التاريخ السياسيّ للدولة الأمويّة) في تجميع أخبار الجاهليّة[2]، وتنشيط روايتها، وهو مجهود مؤسّس (إذا اعتبرنا صدق الأسانيد[1]، إذ أنّ

1- م.ن: 11/ 23.

2- لقد أبان عبد المنعم خفاجي في كتابه **الحياة الأدبيّة: عصر بني أميّة**. دار الكتاب اللبناني. بيروت لبنان. الطبعة الثانية 1980. ص54. أنّ سياسة بني أميّة قد ساهمت في إحياء منطق التفاخر والتنازع القوليّ عبر عدد من الأشكال الأدبيّة، يقول: «وكان من وسائلهم (الأمويّون) إلى حفظ ملكهم والإبقاء على سلطانهم أنّ عمدوا إلى إثارة العصبيّات وبعث الخصومات وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهليّة وأحقادهم، ليشغلوا النّاس بذلك عن مواثبتهم على الملك، ومساورتهم على السلطان، ومنازعتهم فيما استقرّ لهم من أمور الخلافة، فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك في أشعارهم وتصويره في قصائدهم، وشغلوا في الحديث عن أمجاد القبائل ومغازيها رغبة في مدح أو شفاء لحقد أو طمعا في عطاء».

أغلب الرواة الباعثين لأخبار الجاهليّة زامنوا الخلافة الأمويّة)، فالسلطان السياسيّ مثّل باعثا مهمّا إنشاءً لأخبار الجاهليّة، "وكان عبد الملك يعنى بأخبار العرب وأشعارها وفعل فيها ما فعل بالتفسير، وأمر من جمع له المعلّقات"[2].

إنّ الاحتفاء بأخبار الجاهليّة –وفقا لهذا الخبر– بلغ حدّ مضارعتها التفسير وجمع المعلّقات، اتّصالا بالمقدّس الديني، وبالمقدّس الأدبي، وبذلك نتبيّن القيمة التي أولاها الأمويّون لأخبار الجاهليّة.

إنّ إعلاء شأن أخبار الجاهليّة، يُرَدّ أساسا –فيما ذهبنا إليه– إلى توجّه سياسيّ قام على نقيض توجّه سالف. فالإسلام ممثّلا في دُعاته الأوَل وخلفائه المصاحبين للرسول السائرين على دربه قد أضرب عن الجاهليّة[3]، وإن كانت عناصر الجاهليّة لم تُعرض عن ماضيها تمام الإعراض. فتمّ رفض "حديث الجاهليّة" و"فعل الجاهليّة" و"شعر الجاهليّة" وكلّ ما له صلة بهذا الفضاء واسما إيّاه بالجهل وعدم تمكّن الإيمان من نفوس أهله. ولمّا سادت السلطة الأمويّة، آب الشعر في مظهر من مظاهره إلى الجاهليّة، ونمت عناصر الجاهليّة تحاول استرداد صُور الماضي في جبّة الإسلام شكلا محتويا لهذه الروح[4].

1- وهي مسألة اشتغل عليها فؤاد سزكين وحاول بواسطتها أن يُثبت تقدّم التدوين عند العرب. انظر في هذه المسألة أساسا، سزكين (فؤاد): **تاريخ التراث العربي** "المجلّد الأوّل. الجزء الثاني. بداية من ص:.3

2- الأسد (ناصر الدين): **مصادر الشعر الجاهلي**: وقيمتها التاريخيّة. ص.159

3- لا نشير في هذا المقام إلى إضراب مطلق عن الجاهليّة، بل إنّ عددا من الأخبار يتوجّه إلى بيان اهتمام الرسول وصحبه بالجاهليّة، سؤالا أو تحديدا للأنساب. ويؤكّد فؤاد سزكين هذا الانصراف إلى الجاهليّة في **تاريخ التراث العربي**" المجلّد الأوّل، الجزء الثاني، ص27، غير أنّ الظاهرة العامّة تتّجه أساسا إلى التخلّص قدر الإمكان من آثار الجاهليّة. لذلك فكثيرا ما نلاحظ نعت قولٍ أو فعلٍ بأنّه جاهليّ، وهو نعت وُسمت به جلّ المظاهر السلبيّة.

4- يمكن أن نتبيّن استعداد المجتمع إلى تقبّل حياة الجاهليّة واستعادة مآثرها وصورها في الخبر التالي: "...ثمّ قال له: أيّ الشراب أحبّ إليك، اللبن أم ما كنّا نتنادم عليه في الجاهليّة؟ قال: أوَ ليس قد حرّمها الله جلّ وعزّ؟ قال: أنت أكبر سنّا أم أنا؟ قال: أنت. قال: فأنت أقدم إسلاما أم أنا؟ قال: أنت. قال: فإنّي قرأت ما بين دفّتي المصحف، فوالله ما وجدت لها تحريما، إلاّ أنّه قال: "فهل أنتم منتهون". فقلنا: لا. فسكت وسكتنا. فقال له: أنت أكبر سنّا وأقدم إسلاما. فجاء بها، فجلسا يتناشدان ويشربان ويذكران أيّام الجاهليّة حتّى أمسيا (ورد هذا الخبر في كتاب الأغاني: 15/ 171).

لقد كان للمقام السياسيّ دور فاعل في بعث هذه الأخبار وجعلها تتشكّل في بداياتها الأولى قُبيل أن تتكوّن نماءً وتبلغنا على صورتها المكتوبة. ولقد بيّنا من خلال عَلمين من أعلام إنتاج أخبار الجاهليّة دور السلطة السياسيّة القائمة في احتواء هذه الأخبار وتنميتها داخل مقامها الموجّه. وها هما عَلَمان آخران تركن إليهما السلطة السياسيّة وتوظّفهما في مجال ترويجها لأخبار الجاهليّة، وهما حمّاد الراوية وجناد بن واصل، إذ يستعير منهما الوليد بن يزيد كتبهما عندما أراد جمع **أخبار العرب وأشعارها**. ونحن لا نقرّ بلا ريب أنّ هذه الكتب –إن افترضنا صدق الواقعة– لو لم تُوافق هوى السلطان السياسيّ لما لجأ إليها تدوينا، وقد كان أمر كتب حمّاد المشتملة على شعر الجاهليّة معروفا مشهورا حتّى أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك، حين أراد أن يجمع ديوان العرب وأشعراها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، استعار من حمّاد ومن جناد بن واصل الكوني ما عندهما من الكتب والدواوين، فدوّنها عنده، ثمّ ردّ إليهما كتبهما[1].

إنّ السلطة السياسيّة قادرة على صياغة توجّه في الأدب يُساوِق توجّهها السياسيّ ويسير في مساره. ودون أن نسقط في حكام بدئيّة، نُقرّ حضور الجاهليّة في الذاكرة العامّة صورةً تُتناقَل أخبارها وحكاياتها، واستعداد العامّة للتواصل مع الجاهليّة يُشكّل أرضيّة خصبة لنفاذ هذه الأخبار التي وصلناها أساسا في نشأتها بالرغبة السياسيّة. فجملة الوقائع التاريخيّة –وإن كان التاريخ لا يُوفّر حكما قطعيّا– تُؤكّد استضافة المقام السياسيّ للأدبي على اختلاف مظاهره. فالمقام السياسيّ الخاصّ المتمثّل في السلطة السياسيّة القائمة يستقطب دائرة أدبيّة تدور في مدار سياسته. وقد تطلّب

يتضمّن هذا الموقف التخاطبي ردّا بينا على المُحدَث العقائدي الإسلامي، فهو معارضة لموقف الرسول في إسرائه عندما خُيِّر بين اللبن والخمر والماء، فاختار اللبن. ولحن هنا لم نُورد الخبر شاهدا تاريخيّا على رؤية مخصوصة، وإنّما نسعى إلى إبانة توجّه إلى الجاهليّة تضمّنته الأخبار في حدّ ذاتها، وتشكّلت بواسطته، ونشير إلى أنّ الاستعداد النفسيّ مثّل عاملا من عوامل شيوع هذه الأخبار وتنشيط روايتها، إذ وجدت صدى عند الناس فراجت وتُقُبّلت لأنّها تلامس تاريخهم وماضيهم. ولولا وجود هذا الاستعداد لإنشائها وتقبّلها وإعادة إنتاجها لما كان للسلطان السياسيّ مهما كان نفوذه أن يبعثها في النّاس.

1– الأسد (ناصر الدين): **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة**. ص157.

المقام السياسيّ الأمويّ أخبارا عن الجاهليّة تُساير توجّهه السياسيّ المنتَهج، بحكم أنّ الأخبار لا تنشدّ إلى الأدبيّ في معناه الضيّق بل تتعدّاه إلى تحقيق مقاصد إعلاميّة ودعائيّة، فهي واسطة أساسيّ للإخبار والإعلام وصناعة صُوَر السياسات القائمة، فعبرها تُنقَل الوقائع والحوادث، وبواسطتها تحقّق السلطة السياسيّة السائدة أهدافها[1].

والسلطان السياسيّ القائم له مقتضياته وظروفه الخاصّة، لذلك فإنّ الأخبار عندما تُدعى إلى هذا الفضاء، فإنّها تتلوّن بأصباغه وتتطبّع بطباعه. فالسلطان عندما يطلب مسألة من راويه، فإنّ الخطاب المنتَج له يُغاير ما يُنتَج من خطابات لعامّة النّاس[2]. إنّنا إزاء مقام يُحدّد أفق الإنتاج ويجعل الراوية مُحاطا بعددٍ من المحدّدات التي يجب عليه التزامها. فعلى الراوية أن يُراعي آفاق تقبّل السائل، وما يُضمره السؤال من طلبٍ لجواب يُرضيه ولا يقع في نفسه موقع الرفض. إنّ الأخبار المنتَجة في حضرة معاوية أو عبد الملك بن مروان أو غيرهما هي أخبار مصنوعة لهما مُخاطَبين مخصوصين، أو مستَحضرة استجابةً لما يقتضيه السياق. فإن كان هذا المخاطَب السائس يطلب مسامرةً، فينبغي على الراوية أن يُعوّل على طرافة الخبر وعلى تحقيقه هذا المقصد. وإن كان يطلب حكمةً في سياسة الأمور فينبغي أن يُقَدَّ له خبر أو يُقَدَّم له خبر يُوافق مطلبه، وإن كان يطلب شرفا في ماضيه، فيجب على الراوية أن يُمكّنه منه.

إنّ هذه مسألة لا تخصّ الأخبار الجاهليّة فحسب، وإنّما تشمل صنوف الأدب التي يتمّ إنتاجها في هذا المقام. واحتفاؤنا بهذه الظاهرة يُرَدّ أساسا إلى أنّ المقام السياسيّ قد مثّل عاملا من عوامل تنشئة هذه الأخبار وبعثها في مقامات متعدّدة. وينشدّ الخطاب السياسيّ المضادّ بدوره إلى هذا المقام منشئا أخبارا تُشكّك في ماضي السلطة السياسيّة القائمة، وتبحث في تجاويف التاريخ عن مواطن الهنة في أخبار تحاول تبديد صورة هذه السلطة.

1- انظر لبيان هذه المسألة: محمّد القاضي (1998)، ص660.

2- انظر في شأن مراعاة أقدار المستمعين: الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" دار الجيل- دار الفكر. بيروت (د.ت). 1/ 138.

ولقد أبان عبد اللّه العروي عن استقطاب السائد السياسيّ للأدبيّ، فقال: "ومن المعلوم أنّ الدولة الأمويّة مزّقتها حروب نتجت عن صراع ومنافسة بين قطاعات المجتمع العربي المختلفة، وأنّ الدولة العبّاسيّة عرفت نزاعات اعتبرها البعض ذات صبغة قوميّة أذكت نارها فُرقة الجماعات إلى شِيع ونحل متعدّدة، واهتدت الخلافة بعد تجارب عديدة خاصّة أيّام المتوكّل إلى سنّ سياسة تعايش بين الجماعات المتصارعة، وذلك بإدماجها في حظيرة الدولة، وبالمساهمة في استغلال الثروة والنفوذ، ومن عبارات ذلك الإدماج، ومن نتائج إيديولوجيا الوحدة والجماعة، توسيع نطاق التدوين التاريخي إلى ماضي الشعوب غير العربيّة بجانب النواة المكوّنة من حياة النبي ورفاقه، دوّنت مفاخر القوميّات التي خضعت للإسلام. وهكذا ساهمت عرب الجاهليّة، شماليّة وجنوبيّة، قحطانيّة وعدنانيّة، مضريّة بأيّامها وأشعارها وأساطيرها على يد وهب بن منبّه وابن الكلبي وغيرهما (...) فالهدف من التدوين هو المعنى الأصلي أي الجمع والإثبات في ديوان الفخر، داعما بذلك ما يرمي إليه الخلفاء من توفيق وتقارب. يعطي الديوان لكلّ طائفة من الأمّة وسيلة التعرّف على مشاهير أجدادها، بدون أن يمنع الآخرين من الحقّ ذاته، ويجب لتحقيق الغرض أن يكون التأليف شاملا أكثر ما يمكن الشمول وعدلا إلى أقصى ما يمكن العدل، لكي لا تستطيع أي جماعة أن تستغلّه كسلاح للسيطرة والاستغلال كما فعل العرب أيّام الأمويين، وبرّروا باستغلالهم نشوء الحركات الشعوبيّة"[1].

يُظهر العروي في درسه التاريخي ظاهرة مهمّة، تمثّلت في استغلال الأمويين لقوميّتهم عزّا يُدوّن وتُثبَت مفاخره، ومحاولة شِقٍّ من العبّاسيين تجاوز هذه النعرة، وهذا التجاوز لم يجنح إلى الإضراب عن الافتخار بالماضي وإنّما فسح المجال لكافّة الطوائف والقبائل والملل للافتخار بماضيها وبانتمائها، تقنينا لهذه الظاهرة وضبطا لها داخل مؤسّسة الدولة، وبغضّ النظر عن حركة التدوين التي أبان العروي مظاهرها وظروفها في رصده لحالة التفاخر التي سادت الحضارة العربيّة في ظلال الدولتين

1- العروي (عبد اللّه): "العرب والفكر التاريخي". المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت. الطبعة الثالثة 1992. ص81/ 82.

الأمويّة والعبّاسيّة، فإنّ المهمّ بالنسبة إلينا الوقوف عند بيان أثر إرادة الساسة في بعث أخبار الجاهليّة، تحريكا واحتواءً للجاهليّة بأيّامها ووقائعها وأشعارها. فنُدرك آنذاك أنّ حركة البعث هذه ليست إحياءً للتاريخ واستحضارا له في فضاء مشابه، وإنّما هي تكوينٌ لتاريخ إن غاب التاريخ. إنّه تاريخ الأمجاد والبطولات والقيَم العليا، وهو أيضا تاريخ الجبن والتدنّي الأخلاقي، تعاملا مع الماضي الخاصّ أو التاريخ الخاصّ، وتعاملا مع الماضي المضادّ أو التاريخ المضادّ.

ويؤكّد العروي أنّ مرحلة نشوء الأخبار قد احتفّت بمنزع قوميّ، وأنّ هذا المنزع تواصل مع الخلافة العبّاسيّة بعثا لتوجّه آخر في الأخبار تدوينا يمنح فرَص الإثبات والقول إلى الجميع. وعلى هذا الأساس فإنّ الأخبار -إضافةً إلى الشعر- قد مثّلت الآلة التواصليّة السائدة اهتماما بالجاهليّة وفقا لمنطق عصبيّ أو وفقا لمبدإ التفاخر وإثبات الكينونة آنيّا عبر الكائن في ماضي الأزمان. ولا ريب أنّ السلطة الأمويّة في منزعها السياسيّ قد مثّلت حنينا إلى الماضي، وهذا ما يهمّنا أساسا دون الغوص -تاريخيّا- في تفاصيل هذا الحنين ومظاهره.

لقد ساهمت عدّة مقامات في إنتاج أخبار الجاهليّة، إذ هي لا تُمثّل ظاهرة أدبيّة محضة في بدء نشوئها، وإنّما هي مظهر من مظاهر السياسة ونشاط اجتماعيّ مثّل قناة تحوي فيما تحويه عددا من الأجناس الأدبيّة. لذلك فإنّ هذه الأخبار غالبا ما تتداخل والتاريخيّ تداخلا يعسر معه ضبط الأدبيّ من التاريخيّ. ويمكن ثني هذا المسار أن نشير إشارة عابر إلى أنّ مفهوم الأدب[1] عند العرب القدامى لم يتمحّض للدلالة على الخلق والابتكار فحسب، وإنّما هو جامع أخبارهم وأشعارهم وأمثالهم، لذلك يذهب جرجي زيدان إلى القول: "فكان المراد بالأدب في أوّل الإسلام جمع أقوال العرب

1- لقد وجدنا عُسرا في تقصّي مفهوم الأدب عند العرب القدامى، ويبدو أنّ المسألة جديرة بالبحث في ذاتها، فنحن إزاء تطوّر بيّن في تحديد مفهوم الأدب بدءا من تحديده في مجال القدرة على الرواية والجمع، ومرورا بشدّه إلى فضاء الكتابة لدى أدب الكتّاب وانتهاءً إلى وصله بالإحداث والاختراع، إضافةً إلى غياب تحديد هذا المفهوم تحديدا صارما ودقيقا في المصنّفات البلاغيّة والنقديّة، وتتوفّر كتب الإعجاز والتاريخ على بعض التحديدات والجديرة بالاهتمام.

وأشعارهم وأخبارهم وأمثالهم للاستعانة بها على تفسير القرآن الكريم وضبط ألفاظه وتفهّم أساليبه"[1]. ويقف ابن خلدون عند المفهوم ساعيا إلى تحديده، فيقول: "هذا العلم لا موضوع له يُنظَر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنّما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللّغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك، متفرّقة يستقرئ منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربيّة مع ذكر بعضٍ من أيّام العرب يفهم بها ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامّة، والمقصود بذلك كلّه أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم (...) ثمّ إنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من علم بطرف"[2].

فنتبيّن من هذا الحدّ أنّ الأدب هو حافظ تاريخهم إنتاجا أدبيّا ووقائع حاصلة وأنسابا تُرَدُّ إليها الأفراد والجماعات[3]. لذلك فلا غرابة أن ينطلق راوية مثل أبي عبيدة من أقوال شعريّة مُستَنَدا إلى بناء أيّامه، ولا غرابة أيضا أن نجد عددا من الأخبار تتردّد في كتب تمحّضت للأدب وفي كتب تمحّضت للتاريخ، ولا فرق بينها سوى أنّ هذا المصنّف هو مصنّف في التاريخ، وذاك مصنّف في الأدب (ولنا أوبة إلى تناول هذه المسألة في الباب الثالث من هذا البحث).

إنّ المقام السياسيّ –إضافةً إلى حركة المجتمع الإسلاميّ الذي انقلب إلى ماضيه يرويه– من أوكد المقامات، ذلك أنّه ساهم –كما سلف أن بيّنا– في تغذية العودة إلى

1- زيدان (جرجي): "**تاريخ اللغة العربيّة**". منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت لبنان. 1983. م (1). ص400.

2- ابن خلدون: "**المقدّمة**" دار الفكر. (د.ت). ص553.

3- انظر تعريف الأديب في "**دائرة المعارف الإسلاميّة**". صادر عن كتاب الشعب. القاهرة. (د.ت). مقال "أدب". ص469: "ذلك أنّ الأديب الكامل في العصر الأمويّ كان هو الشخص الذي يبرع في معرفة الشعراء القدامى وأيّام العرب وفي الثقافة الشعريّة والتاريخيّة العربيّة...".

الجاهليّة على جميع المستويات. ودون أن نتتبّع الظروف التاريخيّة لهذه الفترة وطرائق عودتها إلى الجاهليّة، نؤكّد أن السلطة السياسيّة قد مثّلت عاملا أساسيّا في تغذية الحسّ الجاهليّ، إضافةً إلى ظروف تاريخيّة حتميّة تقتضي عدم إضراب الحضارات عن ماضيها إضرابا كليّا. لذلك فإنّ القطيعة التي أعلنها الإسلام مع الجاهليّة لم تكن قطيعة فصليّة، بل هي قطيعة ظرفيّة[1]، فسرعان ما تمّت العودة إلى الجاهليّة من خلال الخلافات والعصبيّات القبليّة التي ظهرت في توزيع العطايا وفي المفاخرات والمعارضات الشعريّة وفي بناء الجيش (مع الأمويين والعبّاسيين على حدّ سواء)، إضافةً إلى تجدّد أيّام العرب في الدولة الإسلاميّة[2].

ومساوقةً لهذه الحركة العامّة التي تذكّر فيها العرب ماضيهم بعد أن هدأت فورة الإسلام حداثةً دينيّةً وسياسيّة حاولت أن تبيد الجاهليّة، غير أنّ هذا المُحدَث الدينيّ السياسيّ قد تُقُبّل وفقا للسائد الجاهليّ في أُطُرٍ جديدة مثّلتها الدولة أساسا.

1- لم يُضرب الرسول إضرابا كليّا عن الجاهليّة، بالرغم من وجود أحاديث عديدة تُظهر نهيه عن إثبات أفعال الجاهليّة أو التخلّق بأخلاق الجاهليّة. إذ نجد أخبارا كثيرة تُبين سؤاله عن عنترة وعن قسّ بن ساعدة وغيرهما، بل هو في بعض المواطن يُثني على الجاهليّة، فقد ورد في كتاب **العصبيّة القبليّة** لإحسان النصّ، ص180، حديث منقول عن صحيح البخاري: 4/ 181: "فحين سأله (الرسول) قوم من أكرم العرب؟ كان جوابه: خيارهم في الجاهليّة، خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا".

وأورد أيضا أنّ "قيس بن عاصم سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الحلف، فقال: لا حلف في الإسلام، ولكن تمسّكوا بحلف الجاهليّة". ص181.

وهذا كلام يحتمل وجهين، فحلف الجاهليّة هو تناصر قبائل، وحلف الجاهليّة هو أيضا حلف الفضول الذي انشدّ إليه الرسول وعلق به. انظر في ذلك، **كتاب الأغاني**: 17/ 210 وما بعدها.

2- انظر مجمل الأيّام الدائرة بين عصبيّتين كان لهما عميق التأثير في العودة إلى بعث الماضي، وهما العصبيّة اليمنيّة والعصبيّة القيسيّة، وقد اتّخذ كلّ منهما غطاء فيه يجول في ظلّ توزيع القوى في الدولة الإسلاميّة، إذ احتمى القيسيّون بالأمويين، وساند اليمنيّون ابن الزبير. وانظر أيضا الأيّام الحاصلة نتاج الصراع بين قيس وتغلب.

لقد مثّل الرجوع إلى الجاهليّة في الظرف الأمويّ بالذات خيارا سياسيّا منظّما، حاول أن يُنسّق هذه العودة من خلال الحفز على رواية هذا النوع من الأخبار مسايَرةً لتيقُّظ الحنين إلى الماضي.

إنّ جهود الأمويين سلطةً سياسيّة، تبدو بيّنة في المساهمة في إنتاج أخبار الجاهليّة، إضافةً إلى محاولة جمعها وتدوينها. فنحن نتبيّن من خلال الوقائع المذكورة الاحتفاء الكبير الذي كان يخصّ به الأمويّون الفترة الجاهليّة والعناية الفائقة التي كانوا يُوجّهونها إلى هذا العصر، ممّا جعل الرواة يتهالكون على رواية أخبارها إرضاءً لملوكهم. ولا غرابة أن يستند الوليد بن يزيد على حماد[1]، وهو من هو في رواية أخبار الجاهليّة وأشعارها. وحمّاد وفقا لما يحوم حوله من أخبار[2]، ووفقا لآراء الدارسين فيه[3]، لا علاقة له بالتاريخ وبتدوين الوقائع، وإنّما وضّاعة، صاحب قدرة فائقة على الابتكار شعرا وأخبارا مُحاذاةً لنماذج جاهليّة.

لقد ساهم الوضع السياسيّ في بعث أخبار الجاهليّة وتغذية روايتها وفسح مجالا وسيعا ارتاده الرواة وتهافتوا عليه. فكانت الدعوة السياسيّة إلى رواية أخبار الجاهليّة مساوقةً لحركة المجتمع الذي هدأت فورته واستكان بعد حركة الفتح والغزو، فتذكّر ماضيه وتغذّت فيه النزاعات القديمة، فعادت المناحرات بين القبائل وعادت الدعوة إلى النعرة القبليّة وتذكّر الأمجاد.

1- لقد أبان ياقوت الحموي عن العلاقة التي تصل حمّادا بخلفاء بني أميّة، فقال: "حمّاد بن ميسرة (...) قال المدائني: كان من أعلم النّاس بأيّام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وكانت ملوك بني أميّة تُقدّمه وتُؤثره وتستزيره فيفد عليهم ويسألونه عن أيّام العرب وعلومها ويجزلون صلته". **معجم الأدباء**. دار الفكر الطبعة الثالثة 1980. المجلّد الخامس. الجزء العاشر. ص258.

2- انظر خبر حمّاد في **كتاب الأغاني**: 6/ 68.

3- انظر أساسا موقف بلاشير، إذ يقول فيه: "إنّ حمّادا على مرّ العصور آفة الرواية الشفهيّة". **تاريخ الأدب العربي**. دار الفكر. دمشق-سورية. دار الفكر المعاصر. بيروت-لبنان. الطبعة الثانية 1984. ص131.

إنّ ما يُسمّيه محمّد اليعلاوي بـ"التجنيد الشعري" أو "تجنيد الشعراء"[1] في ظلّ الخلافة الأمويّة، مسألة لا تخصّ الحركة الشعريّة فحسب، وإنّما تتعدّاها إلى الأخبار، إذ أنّ عددا من الرواة قد جُنّدوا لإخراج الجاهليّة وفقا للرؤية السياسيّة السائدة[2]. فمقاومة المخالفين والمعارضين لم تتمّ بالسلاح فحسب، وإنّما تمّت بالقول أيضا شعرا وأخبارا. إذ احتاج السلطان السياسيّ الأمويّ إلى ترويج ماضيه من جهة في صورة من الجلال والعزّة، وإلى تغذية التناحر مفاخرة ومهاجاة بين القبائل من جهة ثانية، حتّى يتمكّن من الأمر ويسود.

وهذا المقام لا يتطلّب إجراء آلة الصدق والكذب تحريّا للحقائق، بحكم تعلّق صاحبه بالمسامرة وانصرافه إلى أخبار ماضية. فهي كاذبة ما لم تُوافق هواه، وهي صادقة متى وقعت في نفسه موقع الرضى والاستحسان.

لقد أردنا من هذا المبحث بيان دور المقام السياسيّ ممثّلا في السلطة السياسيّة، في إثارة الجاهليّة، واعتماد الأخبار آلة من الآلات التي تُجرَى بعثا لهذا العصر ولأخباره. ويمكن أن نتبيّن أصداء هذا الانصراف إلى الجاهليّة في أخبار الأغاني ذاتها، بيانا لانقلاب المواقع التخاطبيّة ولتحوّل صاحب المقام السياسيّ، من موضع السائل الباعث على الإنشاء، إلى موضع المضطلع بأداء الرواية في حضور راوية متخصّص، "نسختُ من كتاب أحمد بن القاسم بن يوسف، قال: حدّثني حرّ بن قطن أنّ ثمامة بن الوليد دخل على المنصور، فقال: يا ثمامة، أوَ تحفظ حديث ابن عمّك عروة الصعاليك بن الورد العبسيّ؟، فقال: أيّ حديثه يا أمير المؤمنين، فقد كان كثير الحديث حسنه. قال: حديثه مع الهذليّ الذي أخذ فرسه. قال: ما يحضرني ذلك فأرويه يا أمير المؤمنين. قال المنصور: خرج عروة...."[3].

1- حوليّات الجامعة التونسيّة عدد 20/ 1981. ص 62.

2- يقول محمّد اليعلاوي في دراسة له في حوليّات الجامعة التونسيّة بعنوان **أدب≈ أيّام العرب↔**: "فالعصبيّة كانت محرّكا قويّا للأحزاب والجماعات السياسيّة منذ منصف القرن الأوّل للهجرة. وكانت سلاحا ناجعا عند معاوية بالخصوص وعامّة خلفاء بني أميّة (...) فجنّدوا الشعراء..." حوليّات الجامعة التونسيّة عدد 20/ 1981. ص 62.

3- "**كتاب الأغاني**": 3/ 79.

لقد كنّا بيّنا هذه المسألة مع رمز من رموز تغذية أخبار الجاهليّة في السلطة السياسيّة الأمويّة، وها خبر ثان يُبين عن نفس الظاهرة في المقام السياسيّ العبّاسيّ مع تغاير في المقاصد بين المقامين. فهذا الخبر يُظهر صورة من صور سياسة الخطاب في المقام السياسي المُحتَوِي، ويبدو ذلك بيّنا في اعتذار ثمامة بن الوليد، فلم يُعلن جهله بالخبر المطلوب وإنّما اعتذر بغيابه ساعة السؤال عن ذهنه، وهي طريقة من طرائق التعامل مع السلطان السياسي عندما يطلب أمرا. ودون أن نتوسّع في بيان علاقة الراوية بالسائس الطالب، نُشير إلى أنّ المنصور يتحوّل إلى راوية أخبار بعد أن أعجز الراوية المسؤول. وهو على إدراك تامّ بأحداث الخبر المطلوب، لذلك فإنّ مسألته هي مسألة تعجيز، لا تُراد منها المعرفة وإنّما رواية الخبر، ولن يتمكّن من ذلك إلاّ متى أعجز ثمامة بن الوليد، حتّى يبدو مالك الخبر الوحيد، فيتمتّع بروايته. وبحكم موقعه فإنّ روايته مقبولة ومستَحسَنة، وهذا ظاهر في موقف الراوية-السامع، تركيزا بيّنا على قيمة الخبر المكتَسَبة من رواية المنصور له، "...قال ثمامة: إنّ له عندنا أحاديث كثيرة ما سمعنا له بحديث هو أظرف من هذا. قال المنصور: أفلا أحدّثك له بحديث هو أظرف من هذا؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، فإنّ الحديث إذا جاء منك كان له فضل على غيره"[1].

لقد اتّخذنا الخبر -دون مطلق الإيمان بصدقه- صورة من صور اهتمام الساسة وانشغالهم بأخبار الجاهليّة، طلبا وإنتاجا. فنحن لم نقدّم هذا الخبر حجّة على إنتاج المنصور أو غيره للأخبار الجاهليّة، وإنّما أتينا به بغية تأكيد استدعاء السلطة السياسيّة للتاريخ الجاهليّ بطولةً تُروى وأحداثا تُقَصُّ وأيّاما تُتَذَكَّر ومجدا يُبعَثُ. فالمهمّ بالنسبة إلينا أنّ مآتي العزّة والشرف والمجد قد تبدّلت، إذ كان العزّ في صدر الإسلام يُكتَسَب من الأقدميّة في الإسلام والالتزام بشعائره، وتحوّل -خاصّة مع بني أميّة- إلى عزّ يُستَمدُّ من قوّة الحضور في الجاهليّة، فأصبح هذا الفضاء مجالا للقصّ والأخبار.

إنّ ما أردنا إبانته لحدّ الآن هو احتواء الفضاء السياسيّ الإسلامي لأخبار الجاهليّة، بل قد يكون هذا المقام هو المساهم الفعليّ في إنتاجها، واستنادنا إلى أخبار

1- م.ن: 3/ 81. 82.

تُبين هذا المنحى لا يُمثّل حجّة قاطعة، وإنّما هو تصوير لهذا الفضاء العامّ دون مطلق الاتّكاء عليها للقطع بما ذهبنا إليه. وكان من الضروريّ أن نركن إلى ما أبانه المؤرّخون ودارسو الأدب من جنوح السلطان الأمويّ إلى إخراج الجاهليّة مخرجا مخصوصا، وإلى نزوع السلطان العباسيّ إلى احتواء هذه الظاهرة وتدوين ما يروج من هذه الأخبار والركون إلى مذاكرتها في المسامرات ومجالس الظرف والأدب. وفي كلا الأمرين، فإنّا إزاء مقام سياسيّ يُخرج جاهليّة مخصوصة ومقصودة، ومن منطلقات متغايرة، إمّا منطلق العصبيّة وإمّا منطلق التأنّس بهذه الأخبار والسمر بوقائعها، وما يقتضيه المقام في كلا الظرفين من تصوير للجاهليّة وفقا "لمقتضى الحال".

إنّ رواية أخبار الجاهليّة داخل مقام سياسيّ مخصوص لا تُعبّر على واقع الحياة الجاهليّة بل هي تُسقط على هذا الواقع واقعَها الخاصّ، فترصده انطلاقا ممّا هو كائن وممّا هو سائد[1].

إنّنا إزاء نصوص شائكة يتداخل فيها التاريخيّ والسائد الاجتماعيّ والسياسيّ والأسطوريّ والدينيّ. ولا يمكن لنا في ضيق هذا المبحث أن نوسّع دائرته بيانا لهذه المظاهر، فواعل في إنتاج أخبار الجاهليّة. وما يعنينا أساسا هو أنّها تُخرَج في نهاية المطاف إخراجا أدبيّا جامعا يصل بين مختلف هذه المظاهر، فالأدب هو القادر على المؤالفة بين هذه الجهات المتغايرة المختلفة. وقد رشّحنا بدءا العامل السياسيّ بسببٍ من أهميّته وقدرته على التأثير في إنشاء هذه الأخبار، رغم أنّ المؤثّرات العَقديّة والمذهبيّة كان لها بعيد الأثر في ابتكار دائرة تدور هذه الأخبار في مدارها.

إنّ السياسيّ يتوسّل بالأخبار قصد بيان موقعه الأثير في الجاهليّة ضمن تناحرات سياسيّة عميقة جعلت كلّ طرف من الأطراف يُوظّف الحكاية الأخباريّة وفقا لمقاصده. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المذاهب المتناحرة، أمّا الجانب الدينيّ فإنّه ماثِلٌ في هذه الأخبار روحا تُدرَكُ ودلالةً تُتَقصَّى، غير أنّه لا يمكن أن يُغَلَّب على الجانب السياسيّ في إنتاج هذه الأخبار وترويجها.

1- يمكن أن نرصد ذلك أساسا في أخبار أيّام العرب في الجاهليّة، فالصراع المنقول مجاله آن الحكاية ويتّخذ من الماضي ستارا لحركته.

لقد اتُّخِذت الأخبار مطيّة يسيرة المركب تُعلي من هذا الجانب وتحطّ من ذاك، خاصّة في وجود رُواة قادرين على بناء أخبار وفقا لمقتضى الحال، اتّكاءً على نواة أصليّة في أو اختلاقا لفضاءات في مبتكرة.

إنّ الانصراف إلى الجاهليّة خيار سياسيّ اقتضى شكلا في بناء هذه الأخبار وفقا لحال المقام، فلا ريب أنّ كلّ تحوّل يحمل في أحشائه شكلا تعبيريّا مُحدَثا يُساوقه ويسير في ركابه أو يُعارضه ويقف ضدّه. وعلى هذا الأساس فإنّ انصراف السلطة السياسيّة إلى الجاهليّة قد صرف الرواة إلى بناء أخبارها وتداول وقائعها وإنشاء مجال في الرواية يَمرق عن مسار تتبّع حياة الرسول وأحاديثه. فالمقام السياسيّ قادرٌ على صناعة توجّه أدبيّ مخصوص، عندما يُوجّهه إلى ضمائر الرعيّة يستثير فيهم كامنا خَفَت صداه بحلول حادث عقديّ جامع أو بديل للنعرة العصبيّة.

لقد أحيَت السلطة الأمويّة بذور القبليّة والنزاعات العصبيّة[1] أو هي وجدت نفسها تُواجَه بهذه الفُرقة القبليّة (ولسنا في مقام بحث تاريخيّ حتّى نقف عند هذه المسألة ونتحرّى في مبادئ قيام السلطة الأمويّة، وإنّما نستفيد من جملة الدراسات التاريخيّة دون أن نعيد البحث فيها أو نقوّض ما وُسِمت به هذه السلطة)، ذلك لأنّ شرعيّة تسلّمها مقاليد السلطة لا تعود إلى سند دينيّ كما هو الشأن بالنسبة إلى أبي بكر أو عمر، وإنّما تعود إلى شرعيّة عصبيّة، سارت السلطة الأمويّة في تغذيتها وإنمائها. وضمن هذا المسار العامّ يمكن أن نحدّد تاريخيّا[2] تكوّن الأخبار الجاهليّة وزمن ظهورها. فنحن إزاء توجّهين: توجّه سياسيّ يدعم هذا الموقف لعدد من الغايات، ورعيّة تستلذّ هذه الأوبة، ولها استعداد نفسيّ لرواية مآثر ماضيها.

فأمّا التوجّه السياسيّ، فإنّه قد بدا في موقفين، موقف السلطة الأمويّة وموقف السلطة العبّاسيّة، وهما مرحلتان مهمّتان من مراحل تكوّن أخبار الجاهليّة (وإن كنّا ننصرف انصرافا بيّنا إلى الوقوف على المرحلة الأولى بسبب من اعتبارها الفضاء الأوّل

1- وإن كانت هذه النزاعات لم تخفت زمن الرسول خفوتا تامّا. انظر في خصوص هذه المسألة، كتاب "العصبيّة القبليّة" لإحسان النصّ، ص185 وما بعدها.

2- وإن كان هذا التحديد قائما أساسا على الاجتهاد، ذلك أنّه من العسير أن نقطع برأي في هذه المسألة.

الذي استقطب هذه الأخبار وعمل على إنشائها وترويجها)، فأمّا المرحلة الأولى، فإنّ انصراف ممثّليها إلى الجاهليّة أخبارا تُتَذاكَر وتُتَناقَل يعود أساسا إلى ما كنّا قد بيّناه من خيار سياسيّ موصول بسياسة الأمويين وبرؤيتهم إلى سلطانهم، ويعود أيضا إلى تمكّنهم من آلة إجرائيّة كان لها عميق الجدوى في المحافظة على سلطانهم الذي بُني على النزاعات القبليّة والعرقيّة، فكانت الأخبار ضرورةً سياسيّة لبعث هذه النزاعات وتعميقها بوسائط قوليّة شملت مظاهر الأدب المختلفة. وأمّا المرحلة الثانية، فقد انشدّت أساسا إلى طرائق تعامل السلطان السياسيّ العباسيّ مع الجاهليّة، إدماجا لها في ديوان الفخر الجامع لمختلف القبائل. فتوجّهت الأخبار في مرحلة أولى توجّها مخصوصا ومُنِحَت في المرحلة الثانية حقّا عامّا. إضافةً إلى أنّ المرحلة الثانية كانت موصولة بالتدوين، فغذّى السلطان السياسيّ من حركة الجمع والإثبات تدوينا.

وأمّا الاستعداد النفسيّ عند العامّة، فنلمح آثاره بجلاء ثنيّ الأخبار، ونلاحظه أيضا في كثافة المادّة الأخباريّة المتوجّهة إلى الجاهليّة، فهي متعة يَسعد لإنصاتها الناس تلذّذا بمآثر أمجادهم ووقوفا عند بطولات أجدادهم.

غير أنّ ما يعنينا أساسا هو الأخبار ذاتها تكوّنا وتشكّلا في ظلّ هذه السياسة السائدة، "والإسلام جاء وكان قد تمّ اعتقاد العرب بأنّهم في أنسابهم يرجعون إلى أصول ثلاثة: ربيعة ومضر واليمن، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقا لهذه العقيدة واستغلّها خلفاء بني أميّة ومن بعدهم، فكانوا يضربون بعضا ببعض"[1].

ففي خضمّ حركة التفاخر الشعريّة هذه، بزغت الأخبار مُساوِقةً أو مجاريةً لهذا التوجّه. فمبدأ استغلال التناحر القبليّ قد شدّ الأدبيّ -أخبارا وأشعارا- مواكبةً للسائد السياسيّ ودخولا -مُساهمةً- في دائرة هذا التنازع وفي منطقه. فالأدب بمختلف صنوفه يتحوّل إلى أداةِ مقاومة وذودٍ عن الذات وعن الكيان وعن الانتماء. وفي هذا العصر يُحافظ الشعر على ألقه، وتُجانبه الأخبار (وهي مدار اهتمامنا) آلةً مُحدَثة تعتمد القصّ أداةً داخل هذا النزاع القبليّ. ولذلك فإنّ هذا السائد السياسيّ يمكن أن يُفضي بنا إلى تصوّر الجغرافيا

1- أمين (أحمد): "فجر الإسلام" ص8.

السياسيّة العامّة تنازعا قبليّا وخلافا داخل بنية المجتمع، يحمي السلطة السياسيّة من الوحدة التي يمكن أن تعصف به في كلّ آونة. ولذلك، فلا مناص من بيان دور هذا التنازع القبلي في إثارة أخبار الجاهليّة، لأنّها عُدّت واسطة رئيسيّة اعتُمِدت في إطار التنازع القبليّ الذي أذكِيَت جذوتُه في ظلّ السلطان السياسيّ القائم.

2- أثر العصبيّة القبليّة في إنتاج الأخبار.

لقد حاولنا في العنصر المخصّص لدراسة أثر السلطة السياسيّة أن نصلَ إنتاج الأخبار بتصوّر سياسيّ انصرف إلى الجاهليّة وحفز الرواة على ذكر أخبارها. ونسعى في هذا المقام إلى الإبانة عن الدور الذي قامت به العصبيّة القبليّة في توفير مادّة تنصبُّ عليها الأخبار، وفي تغذية رواية هذه الأخبار واعتمادها آلة مُواجهةٍ وذودٍ قوليّة تُجاورِ الشعر وتعضُدُه.

إنّ ارتكازنا إلى بيان مظاهر التنازع القبليّ وأثره في بناء أخبار الجاهليّة لا يُعَدّ معطى مسلَّطا على هذه الأخبار، بل هو نابع منها أساسا، ومن الدراسات التي أشارت إلى هذه العوامل وصلا للأدب بتاريخه[1].

إنّ ما نسعى إلى إجرائه هو محاولة إظهار طرائق اتّصال أخبار الجاهليّة بالتنازع القبليّ في الإسلام، وصلا لها بالظروف المساهمة في تشكيلها وتحديد معالمها. ومع إقرارنا -منطلَقا- أنّ حركة الأدب في مختلف مظاهرها وتجلّياتها لا يمكن أن تنعزل -حتّى وإن أغرقت في التجريد- عن الروابط الاجتماعيّة وعن الفضاء العامّ الذي يحويها، وتصير المسألة أوكد وأظهر عند تعاملنا مع مظاهر الأدب العربي[2].

لقد كانت الأخبار في بدء تكوّنها مسايرةً لحركة التنازع القبليّ، إذ واكبتها ونشأت تكوُّنا في فضائها (ظاهرة مقنّنة داخل ديوان الفخر، أو غير مقنّنة ممارسةً

1- لم نجد دراسة تعمّقت في بيان هذه المسألة، بالرغم من الإشارات اللطيفة التي أبداها طه حسين في كتابه: "في الشعر الجاهلي".

2- إنّنا نعتقد أنّ الأدب العربي خاصّة في أجناسه الأولى موصول بالسياسة صلة عميقة، ونشير أساسا إلى الشعر والخطابة والرسائل والأخبار.

قبليّة). وتتوضّح هذه المسألة زمن التدوين وتجميع هذه الأخبار تجميعا رسميّا مع الخلافة العباسيّة توسيعا لدائرة النزاع إلى فضاء شعوبيّ يتجمّع فيه العرب في خانة، وغيرهم من الموالي والفرس في خانة مقابلة.

وبسببٍ من أنّ اهتمامنا يتركّز أساسا على بدايات ظهور هذه الأخبار، فإنّنا نقتصر في بياننا للعوامل المساهمة في إنتاج أخبار الجاهليّة وتغذيتها على إظهار دور النزاع القبليّ في بعثها وإذكاء جذوتها، فهي سلاح قوليّ تستند إليه القبائل المتصارعة مُجاورا للشعر وعاضدا له. وقد تكون الأخبار في هذا النزاع القوليّ آلة ألجع من الشعر في تناول أحداث الجاهليّة ومآثرها، وإن حافظ الشعر على ألقه تأثيرا في النفوس.

وننطلق في هذه المحاولة من بيان وجيز لصورة هذه العصبيّة المُثارة في الإسلام، ثمّ نسعى إلى تتبّع أثرها في الأدب عامّة –انطلاقا من بعض الآراء النقديّة– وفي الأخبار خاصّة.

لقد أبان طه حسين[1]، في دراسته للشعر الجاهليّ عن عودة العصبيّة القبليّة في العصر الأمويّ عودةً قويّة، فأُثيرت النزاعات بين العدنانيين والقحطانيين، وبين بطونهم وأفخاذهم، وهي نزاعات موروثة[2]، أذكيت وفُسِح لها المجال وسيعا لتَجول بين هذه القبائل والبطون، يقول طه حسين: "ذلك أنّ العصبيّة لم تكن مقصورة على أهل مكّة والمدينة، ولكنّها تجاوزت إلى العرب كافّة، فتعصّبت العدنانيّة إلى اليمنيّة، وتعصّبت مضر إلى بقيّة عدنان، وتعصّبت ربيعة على مضر، وانقسمت مضر نفسها، فكانت فيها العصبيّة القيسيّة والتميميّة والقرشيّة، وانقسمت ربيعة، فكانت فيها عصبيّة تغلب وعصبيّة بكر، وقُل مثل ذلك في اليمن، فقد كانت للأزد عصبيّتها ولحمير عصبيّتها ولقضاعة عصبيّتها"[3].

1- حسين (طه): "في الشعر الجاهلي": انظر أساسا ص91 وما بعدها.

2- لقد أشار يوسف العشّ في كتابه "الدولة الأمويّة" إلى أنّ الصراع بين القيسيّة واليمنيّة هو صراعٌ موروث من الجاهليّة. ص184.

3- حسين (طه): "في الأدب الجاهلي". ص129. 130.

يظهر لنا من خلال هذا الشاهد –وغيره كثير– عودة العصبيّة القبليّة إلى مجال التصارع وإثبات الذات أمام الآخر بطرائق عديدة. ولا غرابة أن نصلَ فضاءَ الفرقة هذا بسياسة بني أميّة إحياءً وتفضيلا للعرب على سائر الأمم، وتفضيلا لآل بني أميّة على بقيّة العشائر.

فلا ريب –تاريخيًا– أنّ العصر الأمويّ مثّل إحياءً بيّنا لهذه الصراعات القبليّة التي خمدت –نسبيًا– بحلول الإسلام بديلا، لم يتمكّن من القضاء نهائيًا على الانتماء القبليّ.

وتظهر صِلاتٌ وطيدة بين السلطان السياسيّ القائم وبين حال الفُرقة القبليّة، في تعاون القبائل معه أو وقوفها ضدّه، ولقد أظهر "أحمد محمّد الحوفي" أثر هذه العصبيّة في تشكيل الفضاء السياسيّ، والتدخّل في هرم الدولة انتصارا لطرف دون الآخر[1].

فتقريب قبيلة معيّنة أو مجازاتها كان يثير ضغائن القبائل الأخرى[2]، ويُذكي حقدا دفينا. وبنو أميّة لم يتعاملوا مع هذه القبائل بصورة متساوية، وإنّما قرّبوا من ناصرهم وبعّدوا من عاداهم في إطار المكافأة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنّه يبدو أنّ بعض القبائل كانت قادرة على التأثير في السلطان السياسي نصرا له أو حطّا من قدره. ولقد اجتهدت السلطة السياسيّة في المحافظة على الفرقة بين أكبر القبائل العربيّة،

1- يقول أحمد محمّد الحوفي بيانا لدور هذه القبائل في التأثير في السلطة السياسيّة: "لقد انحازت اليمنيّة إلى بني أميّة بعد موت يزيد بن معاوية وآزرت ابنه خالدا وحصرت الخلافة فيه. غير أنّ كبراء بني أميّة آثروا أن يُولّوا مروان بن الحكم، على أن يكون الحكم بعده لخالد (...) وكان بعض قيس، وقد عرفنا ولاءها لابن الزبير يعضدون أحيانا بني أميّة، فهم الذين ناصروا هشام بن عبد الملك، وهم الذين نصّبوا مروان بن مروان بن محمّد خليفة بعد قتل يزيد بن الوليد، لأنّ أمّ يزيد قيسيّة، لهذا تعصّب لهم مروان فأغضب اليمنيّة بالشام وغيره"

"وكان الأمويّون يُقرّبون قبيلة تغلب لأنّها ناصرتهم مرّات، ناصرتهم في صفّين إذ آزرت معاوية على علي، وناصرت يزيد بن معاوية في موقعة الحرّة، وظاهرت مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط. لكن تقريب الأمويين لتغلب كان يغضب قبائل قيس وقبائل كلب. وكان شعراء القبائل الثلاث يتهاجون ويتفاخرون ويعبّر كلّ منهم عن موجدة قومه على خصومهم". انظر **أدب السياسة في العصر الأموي**. دار النهضة. مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة. الطبعة الخامسة. (د.ت) ص347.

2- م.ن.ص.

وأساسا بين قيس وكلب، حتّى تسود ويكون لها الأمر. فلا شكّ أنّ السلطة السياسيّة قد غذّت هذه النزاعات القائمة بين القبائل، لأنّ المسألة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحها السياسيّة. فلقد "قوّى هذه العصبيّات الفرعيّة ارتباطها بالمنافع السياسيّة والماديّة التي زادت في الإحن والبغضاء والتنافس المرير والتحاسد، بحيث سيطر ذلك على وجدان كلّ قبيلة وحدود اتّجاهها وسياستها. وقد غلبت في أكثر بقاع العربيّة: عصبيّة يمانيّة قوامها الأزد وحلفاؤهم من بكر وعبد القيس، وعصبيّة قيسيّة قوامها قيس وتميم"[1].

ويمكن أن ندرك هذا الدور في معرض تشكيل الجيش الإسلامي، الذي لم يقسم زمن الخلافة الأمويّة على وحدة عقديّة وإنّما على تكتّلات قبليّة "وكان العرب قبل مروان يحاربون إجمالا صفّا واحدا أو صفوفا متراصّة تُقابل صفوف العدوّ. فيلتحم الطرفان بعد مبارزات فرديّة تقع بين الصفيّن، ويأتي في الصفّ أفراد القبائل، قبيلة بجانب قبيلة (...) فالجيش مقسَّم إلى قبائل لا إلى فرق متكاملة"[2]

فندرك أنّ حضور القبائل موزّعة، مستقلّة بذاتها قد كانت ظاهرة بيّنة، فالقبيلة ما زالت تحافظ على وحدتها حتّى وإن انتظمت في وحدة أكبر هي وحدة الجيش الإسلامي. بل إنّنا نلاحظ في مرحلة متأخرة مع الخلافة العباسيّة أنّ اجتماع هذه القائل صفّا واحدا يُمكن أن يهدّد السلطان السياسيّ وأن يقضي على ملكه "وقد كان من الأمور التي شغل بها المنصور حقّا وضع العنصر العربي في الدولة الجديدة، فهو لم يستطع أن يستبعده نهائيّا، بخاصّة في إطار الجيش الذي كان جنوده حينذاك موزّعين في ثلاث فرق، اثنتان منهما عربيّتان وهما الفرقة اليمنيّة والفرقة المضريّة، وواحدة خراسانيّة، وقد أدرك أنّ هذه القبائل العربيّة لو اجتمعت عليه لما كان له معها حيلة"[3].

ويُمكن أيضا أن نشير إلى ظاهرة أخرى بانت فيها العصبيّة القبليّة، وهي ظاهرة تمصير الأمصار أو تمدين المدن. ذلك أنّ توطّن العرب في المدائن المفتوحة قد

1- سركيس (إحسان): "**الظاهرة الأدبيّة في صدر الإسلام والدولة الأمويّة**" ص250.

2- العشّ (يوسف): "**الدولة الأمويّة والأحداث التي سبقتها وتمهّدت لها ابتداء من فتنة عثمان**" ص306.

3- إسماعيل (عز الدين): "**الأدب العباسيّ: الرؤية والفنّ**". دار النهضة العربيّة. بيروت. 1975. ص83.

قام على أساس قبليّ بيّن. فقد وقع تأهيل هذه المدن بقبائل حافظت على وحدتها وتماسكها وطرائق معاشها وإدارتها لشؤونها[1].

لقد أردنا هذا العرض الوجيز لحال القبائل العربيّة في الإسلام، مهادا لبيان أثر السائد السياسيّ في تغذيّة رواية أخبار الجاهليّة وإنتاجها. ونعمد في مرحلة ثانية إلى وصل هذا السائد السياسيّ بالأدب عامّة وبالأخبار خاصّة[2]. لقد ساهم الوضع السياسيّ السائد في تنشيط الحركة الأدبيّة -ونخصّ بالذكر هنا الشعر أساسا-، فلقد أطلقت ألسنة الشعراء تمجيدا للقبائل التي ينتسبون إليها وهجاء للقبائل أو العشائر المعادية. وفي ظلّ هذه الظروف يفعت أخبار الجاهليّة -وهي صورة من صور الخبر بدءا إنتاجيّا- سلاحا قوليّا وآلة استغلّتها السلطة السياسيّة، وكذلك القبائل المتناحرة لتكوين مدوّنة أخباريّة جاهليّة.

ونحن نعلم أنّه من العسير إثبات هذا المذهب، ولكنّا نعتقد -بعد أن تمرّسنا بالمدوّنة- أنّ الأخبار التي بلغتنا كاملة متّخذة شكل الخبر التامّ (ونشير هنا أساسا إلى مدوّنات القرنين الثالث والرابع)، لها ظلال أولى، فإن عدنا إلى حركة الرواية -ونرجئ التفصيل فيها إلى الفصل اللاحق- وجدنا أنّ قسما من رواة أخبار الجاهليّة قد عايش الجاهليّة وعاصرها، وإذا عدنا إلى أقدم المؤلّفات الأخباريّة -ولا خيار لنا في تصديق

1- يقول أحمد أمين في **فجر الإسلام** ص180. 181: "رحل العرب إلى العراق يحملون بين جنوبهم العصبيّة القبليّة وأرستقراطيّة الفاتح، فكان من مظاهر الأمر الأوّل أنّ البصرة والكوفة، خطّط كلّ منهما تخطيطا قبليّا. فقد قسّمت الكوفة مثلا قسمين، القسم الشرقي -وكان خير القسمين- والقسم الغربي، واقترع على من يأخذ خير القسمين، اليمنيّون أم النزاريون؟ فنال القسم الشرقي اليمن، والقسم الغربي نزار. ثمّ اختطّ كلّ فريق جزءا من أرضه حسب القبائل. ويروي الشعبيّ أنّ اليمنيين بالكوفة كانوا أكثر من النزاريين. فكان اليمنيّون اثني عشر ألفا، والنزاريّون ثمانية آلاف، وكانت هذه العصبيّة مثارا للنزاع الشديد كما رأيت -ممّا حكينا عن ابن أبي الحديد- وكان عرب الكوفة إذا قتلوا عرب البصرة انحازت كلّ قبيلة وقاتلت مثيلتها في الجانب الآخر. فيمن الكوفة يُقاتلون يمن البصرة، وربيعة الكوفة تُقاتل ربيعة الصرة، ومضر الكوفة تُقاتل مضر البصرة".

2- يُؤكّد طه حسين في **الأدب الجاهليّ** ضرورة ربط مظاهر الأدب العربي بالجانب السياسيّ. انظر الصفحات التالية: 66 -91 -116 -117.

انتسابها إلى عبيد بن شريّة الجرهمي مُرافقا ومسامرا لمعاوية- وجدنا أنّها موصولة أساسا بالمقام السياسيّ الأمويّ. لكلّ هذا -إضافة إلى ما ندركه داخل الأخبار المرويّة ذاتها من مشاحنات ونزاعات قبليّة، تبدو آنا سافرةً وآنا ثاويةً- انصرفنا إلى بيان هذه المظاهر التاريخيّة احتفاءً بنشوء شكل أدبيّ وليد ساهمت ظروف عدّة في تكوينه وتمهيد الفضاء لكونه، ولكي يجد مادّة خصبة يحوكها ويثيرها من رمادها.

ونحن إذ نبين -إقرارا- وضع العصبيّة في ظلّ الخلافة الأمويّة، فإنّا نبحث في فضاءٍ وفّر مادّة للإنتاج الشعريّ، وساهم في إنتاج الأخبار وبناء معالمها. فلقد تزامن ظهور الأخبار مع عودة هذه العصبيّة ومع سيادة الأمويين سلطانا سياسيّا، وإن كان الخبر قد تشكّل وبانت معالمه النهائيّة في ظلّ الخلافة العباسيّة.

لقد احتوت الأسواق الأدبيّة في ظلّ هذا التنازع القبليّ السائد زمن الأمويين والعباسيين من بعدهم، ضروبا من المشاحنات والمفاخرات، واستُدعيت الجاهليّة نشاطا أدبيّا، إذ عادت إلى هذه الأسواق يفاعتها بانفتاح باب الماضي تذكّرا، فشهدت مفاخرات العرب مع إذكاء جذوة الفرقة القبليّة، "فكان (المربد) ملتقى العرب، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهليّة، من مفاخرة الأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة، وذكر لما كان بين القبائل من إحن"[1]. لقد ساوق النشاط الأدبيّ بمختلف مظاهره -شعرا ونثرا- هذه النزاعات، واضطلع بدور فاعل في إثارتها وبعثها، بل إنّ الجانب الأدبيّ، بيانا لهذه العصبيّة ودخولا في غمارها، فقد طغى على النزاعات الفعليّة حروبا وتقاتلا. ويشير الجاحظ في نفس هذا السياق، إلى عصبيّة شاعرين، لا يستقلاّن بهذه العصبيّة صوتين منفردين وإنّما هما مدرستان تدور في مدارهما عدد من القصائد والأشعار، "ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح، وكان الكميت عدنانيّا عصبيّا، وكان الطرماح قحطانيّا عصبيّا"[2].

1- خفاجي (محمّد عبد المنعم): **الحياة الأدبيّة**. عصر بني أميّة. ص117.

2- الجاحظ: **البيان والتبيين**. 1/ 46.

لقد اهتمّ عدد من الدارسين ببيان أثر هذه النزاعات القبليّة في الشعر الأمـويّ خاصّة، غير أنّه من العجيب أنّنا لم نلاحظ في أغلب هذه المقاربات اهتماما بالأخبـار[1]، على الأقلّ من حيث احتواؤها لجلّ هذه الأشعار التي وصلتنا –في أكثـر الأحيـان– في مدوّنات أخباريّة جامعة، على شاكلة "كتاب الأغاني"، بـالرغم مـن الإشـارات اللطيفـة التي أبداها طه حسين[2]، بيانا لدور القصّ –وهو غالبا لا يفصل بين الأخبار والقـصّ– في إثارة هذه النزاعات والتعبير عنها وإظهارها. ولقد أشار محمـد القاضـي في معـرض دراسته للخبر إلى أثر هذه النزاعـات في إنشـاء أخبـار الجاهليّـة، وخاصّـة منهـا "أخبـار الأيّام"، عند حديثه عن الإيديولوجيا السافرة من حيـث هـي ظـاهرةٌ بيّنـة في الأخبـار، يقول: "ولهذه الإيديولوجيا السافرة شكل آخر يظهر في الأخبار ويسمها بميسمه، نعني به العصبيّة القبليّة، ولنا في هذا المجال مثال بيّن، هو أخبار أيّام العـرب، سـواء مـا اتّصـل منها بالجاهليّة أو الإسلام. فهذه الأخبار قائمـة علـى الصـراع بـين القبائـل، وهـي لا تقتصر على ذكر المواجهات الدامية بين العدنانيين والقحطانيين، بل تفـيض في وصـف المجابهـات بـين القبائـل والبطـون والأفخـاذ داخـل العصـبيّة العدنانيّـة أو العصـبيّة القحطانيّة"[3].

إنّ العصبيّة القبليّة تتخّذ شكل الإيديولوجيا الصريحة التي عليها تقـوم أخبـار وفي مدارها تدور. فكأنّ هذه الإيديولوجيا قادرة على بعث هذه الأخبار وتصـريفها في دائرتها الخاصّة. فهـي حـافز مـن الحـوافز الأساسـيّة الـتي سـاهمت في تشـكيل الخـبر

1- نشير إلى جملة من المقاربات التي اهتمّت بأثر السائد السياسيّ في الأدب، ولكنّهـا قصـرت أمرهـا علـى الشعر دون غيره. انظر على سبيل المثال كتـاب "**الحيـاة الأدبيّـة، عصـر بـني أميّـة**" لمحمـد عبـد المـنعم خفاجي، إذ أنّ صاحبه لم يهتم بالأخبار مطلقا. وانظر أيضا كتاب "**الخليفة عبد الملك بن مروان الناقد الأديب**" لخليل إبراهيم جفّال، دار النضال. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 1991. فبالرغم من أنّ مؤلّفه تعرّض إلى الخطابة وإلى الشعر، إلاّ أنّه أعرض إعراضا كليّـا عـن الأخبـار. انظـر أيضـا كتـاب "**أدب السياسة في العصر الأموي**" لأحمد محمّد الحوفي، فلقد أبان فيه صاحبه أثر النزاعات القبليّـة في الشـعر الأمويّ ولم يُظهر أثرها في الأخبار.

2- حسين (طه): "**في الشعر الجاهلي**". انظر خاصّة فصل: "القصص وانتحال الشعر". ص118.

3- محمّد القاضي (1998)، ص650.

وإنشائه. بل إنّ محمّد القاضي ليذهب إلى أعمق من ذلك، بيانا لوظيفة هذه الأخبار من حيث هي أداة لخدمة العصبيّة القبليّة، وهو الدور الأوّل الذي اضطلع به الخبر اتّصالا بالمجال السياسيّ، يقول: "وبهذا يكون الخبر مُجنَّدا لخدمة الصراع القبليّ، يحشد له كلّ ما يستطيع للإقناع به ولإخراجه في صورة الحقيقة التي لا يُداخلها الشك"[1]، وهي سبيل يؤسّسها الخبر مغايرة لسبيل الشعر، إذ يُبحَث عن الإقناع وبيان الحقائق في الأولى، وعن التأثير والتحميس في الثانية. وهذا أمر مدرَك نظرا إلى انشغال الخبر أساسا منذ تشكّله وانبعاثه بالسياسة مواضيع قول تُتناول ومقاما ضامّا وقصديّةً يُرجى تحقيقها.

لقد أوحى لنا طه حسين، ومن بعده محمّد القاضي بهذه الإشارات العميقة، باتّباع هذا السبيل وصلا للأخبار بالسياسيّ عامّة وبفضاء التنازع القبليّ خاصّة. لذلك رُمنا توسيع هذه الإشارات بحثا عن الفضاءات التكوينيّة الأولى التي ساهمت في إخراج الأخبار من خلال صورة من صور تحقّقها في الأخبار الجاهليّة.

لقد وجدت حركة الرواية التي نشطت في هذا الفضاء السياسيّ مادّة ثريّة تحوك منها أخبارها، ولقي الرواة حظوة لدى السائسين ولدى قبائلهم بسبب من اضطلاعهم بوظيفة خطيرة ومهمّة في ذات الآن، وهي بناء صورة القبلة والحطّ من صور القبائل المعادية.

ولقد أبان حسين الحاج حسن عن هذه الحركة الروائيّة النشطة، مشيرا إلى أنّ العصبيّة قد دفعت هؤلاء إلى اختلاق قصص وُضعت لغاية إثبات الذات تاريخيّا وإظهار المآثر التالدة للقبيلة التي يذود عنها الراوية، ونكران ذات أخرى تقف في ساحة مقابلة، يقول: "وقد كان لكلّ فريق رواة وأهل أخبار يقصّون على الناس قصصا وأخبارا موضوعة، لا أصل لها، وذلك للعصبيّة التي تهزّ نفوسهم أو تقرّبا من السلطان كما فعل عبيد بن شرية الجرهمي حيث [كذا!] وضع العديد من القصص والأشعار لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان مغرما بسماع أساطير الأوّلين وأخبار الماضين"[2].

1- م. ن: ص: 652.

2- حسن (حسين الحاج): "**حضارة العرب في عصر الجاهليّة**". المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى1984. ص63. 64.

إنّ ردّ أخبار الجاهليّة في إنتاجها إلى مجالين هما السلطان السياسيّ والعصبيّة القبليّة، إشارة من حسين الحاج قيّمة، إذ حاول أن يُجمِّع الظروف المساهمة في حركة وضع الأخبار. وحديثهم عن الوضع في القصص أو الأخبار لا يُشاكل ذات الحديث في مجال الشعر، وإن جُمِع بينهما في الدراسات المهتمّة بهذه المسألة، ونخصّ بالذكر طه حسين وحسين الحاج حسن. فالوضع في الشعر هو نسبة أشعار إلى غير منتجها حقّا أو تحميل شاعر ما لم يقله، على سبيل التضليل، وبغاية تحقيق عدد من المقاصد، ليس هذا مقام التوسّع فيها، أمّا الوضع القصصي والأخباريّ، فهو ابتكارٌ لأحداث تُروَى، لم تكن واقعة بالضرورة. والحال أنّنا عندما نتعامل مع القصص يجب أن ننفصل عن الوقائع التاريخيّة، لأنّ القصّ هو وضعٌ بالضرورة حتّى وإن لامس التاريخيّ. ونظرا إلى كلّ هذه الخوافّ السياسيّة، ونظرا إلى أنّ النصوص الأخباريّة البدئيّة تُرَدُّ في حقيقة الأمر إلى هذا الفضاء الذي نشأت فيه النزاعات القبليّة، وقد بانت بسيطة في صياغتها السرديّة[1]، تُوحي حقّا بأنّها إنشاءٌ بدئيّ أو أنّها المبتدأ الأوّل لممارسة جنس وليد في تاريخ الأدب العربي، لم يجد عُسرا في الرواج بحكم احتوائه الشعر ومساوقته لحركة المجتمع في تنازعه وتخاصمه، فإنّا اعتمدنا هذا الفضاء العامّ منشِئا رئيسيّا لأخبار الجاهليّة ومساهما في بزوغها على السطح، وإن لم تتمحّض في بدء تكوّنها واسِطةً أدبيّة، بل كانت أساسا قناة في أيدي الساسة.

إنّ حركة الصراع القبليّ قد ساهمت في إنتاج حركة روائيّة تتجّه إلى الجاهليّة مجالا حدثيّا، فـ"إثر هذا الصراع القحطاني العدناني، اختلق الرواة قصصا وحكايات وضعوها في صدر الإسلام حين احتدم الخلاف بين الأنصار وقريش، سجّلت في الكتب وانتشرت بين الناس على أنّها أمور واقعيّة"[2].

لقد كان اختلاق "القصص الأخباري" ناتجا أساسا عن الصراع بين القحطانية والعدنانية –فيما يرى حسين الحاج حسن–، وعمليّة الاختلاق أو الوضع –وفقا لرأي

1- يقول محمّد القاضي (1998)، ص660: "وبهذا يتّضح لنا أنّ الأخبار قد استخدمت وسيلة من وسائل الدعاية للدين والعصبيّات القبليّة والفرق الدينيّة والنزاعات القوميّة، فكانت قليلة الحظّ من الفنّ..."

2- حسن (حسين الحاج): "**حضارة العرب في عصر الجاهليّة**". ص63.

طه حسين- هي ابتكار محدث في تاريخ الأدب، بحكم أنّا لا نظفر بمدوّنات أخباريّة تُرَدّ إلى الجاهليّة أو إلى صدر الإسلام، وإنّما الأخبار جنس ناشئ مسايرةً لظهور العصبيّة القبليّة شكلا من أشكال تأثير السياسة في الإنتاج الأدبي. لذلك فإنّ هذه الظاهرة الأدبيّة المُحدَثة- تتبلور وتتخّذ شكلها الفني المميّز في زمن لاحق، أي في القرن الرابع للهجرة أساسا.

إنّ منشأ "هذه القصص" أو هذه الأخبار كان موصولا بالحال السياسيّة، ولقد أبان طه حسين بشكل جليّ هذه الصلة، بعد أن عمّق الوشائج التي تشدّ الأدبيّ إلى السياسيّ في الأدب، فأشار إلى أثر العصبيّة القبليّة في بناء أشعار الجاهليّة -انتحالا- وفي تغذية رواية أخبارهم. وهي حجّة من الحجج التي نعتمدها في بنائنا لمسار هذا الفصل الذي نردّ فيه الأخبار الجاهليّة -وهي كوّة ننفذ منها إلى الشكل عامّة- في إنتاجها إلى أصول سياسيّة اجتماعيّة، كان لها بالغ الأثر في إقامتها والاحتفاء بها احتواءً وتنشيطا لرواياتها. يقول طه حسين: "وهنا تقف أمام طائفة من الأعاجيب في تفنّن القصّاص لإرضاء العصبيّات وتأييدها. فأنت حين تقرأ ما يروى من الشعر الذي قيل في يوم الكلاب الثاني ترى عجبا، ترى طائفة من الشعراء اليمنيين يثنون على مضر ويغلون في مدحها والإشادة بذكرها، وذلك لأنّ النصر في هذا اليوم كان لقبيلة مضريّة هي تميم على طائفة من القبائل اليمنيّة منها الحميريّ، ومنها الكهلاني، وقد انهزمت -فيما يقول القصّاص- جموع اليمن هزيمة منكرة وأسرت طائفة من ساداتهم، وأسر قائدهم عبد يغوث، وقتل ورثى نفسه قبل أن يموت، وانطلقت ألسنة الشعراء من المنهزمين بالاعتذار عن الهزيمة، فيتّخذون من هذا الاعتذار وسيلة إلى الإسراف في الثناء على التميميين، وما كان لهم من شجاعة وبأس وإقدام. ولكنّك لا تشكّ وأنت تقرأ هذا الشعر في أنّ الجاهليين من أهل اليمن لم يقولوه. وإنّما هو شعر صنعه قصّاص تميم، والمروّجون للعصبيّة اليمنيّة، وقصدوا إلى إنطاق اليمنيين أنفسهم بفضل المضريين عامّة وتميم خاصّة"[1].

1- حسين (طه): "في الأدب الجاهلي" ص186.

فنحن نُلاحظ صورة من صور ابتكار أيّام العرب –وهي ذات العلاقة التي أبانها محمّد القاضي– داخل فضاء العصبيّة القبليّة، إذ هي مشدودة في منطلقها وبدء تشكّلها إلى ظاهرة سياسيّة تمثّلت في عودة الفرقة القبليّة بين جذرين كبيرين، وهما اليمنيّون والمضريون. وداخل هذين الجذرين تتوسّع دائرة التنازع بين الجذر الواحد قبائلَ متناحرة أو بين قبائل هذين الجذرين تنازعا فرعيّا.

لقد أسّس الوضع السياسيّ وضعا أدبيّا أحيا النزاع القوليّ بين ممثّلي القبائل المتناحرة والعشائر المتصارعة، لذلك فإنّ تركيز الأخبار على الجاهليّة مجالا للحكاية قد تغذّى في هذا الفضاء الذي وجد حججه التفاخريّة في الماضي، فالأيّام تدعو الأيّام، وكلّ حادث في مدار هذا النزاع يمكن أن يُختَلَق له أصل في الماضي يستند إليه الرواة.

إنّ أخبار الجاهليّة قد نشأت أساسا في ظلّ هذا الوضع السياسيّ الذي طبعها بطابع مميّز وحدّد آفاق توجّهها. هذا الوضع الذي لولاه لم تكن أخبار الجاهليّة لتنشأ وتتكوّن بهذه الكيفيّة. لقد أصبحت الجاهليّة موضوع حديث بعد حدوث الإسلام (وهذا أمر طبيعيّ) من ناحية، وبعد إحياء الإحن الراكدة بين قبائل الجاهليّة، لذلك فإنّ طفوّها على السطح قد جعل الرواة يهتمّون بها موضوعا بدئيّا من مواضيع الأخبار. إضافة إلى دور حركة رواية الشعر الجاهليّ –والمسألة تُوصَل دوما بالفضاء السياسيّ– في إنتاج هذه الأخبار.

إنّ السائد السياسيّ قادرٌ على تغليب تصوّر أو ممارسة أدبيّة أو تنشيط شكل وليد والمساهمة في بعثه داخل أطره وتصوّراته. فسياسة الأدب في هذه المرحلة موصولة بسياسة الرعيّة. ولذلك فإنّ العودة إلى الماضي (الجاهليّة) مضمونا في نمط أدبيّ (سياسيّ) وليد يُجانب الشعر ويعضده ويحويه، هي أداة فعل تُساوِق سائدا سياسيّا واجتماعيّا فأنت تستطيع أن تتصوّر هذه القبائل في هذا الجهاد السياسيّ العنيف، تحرص كلّ واحدة منها على أن يكون قديمها في الجاهليّة خير قديم، وعلى أن يكون مجدها في الجاهليّة رفيعا مؤثلا[1].

1– م.ن: ص130.

إنّه لمن العسير أن نُبين في هذا المبحث عن جميع الظروف الحافّة بنشأة أخبار الجاهليّة، ولكن مبلغ أملنا أن نُظهر بعضها وأن نبرز ما فعل فيها فعلا جليّا في مراحل تكوّنها واكتسابها الشكل النهائي الذي اتّخذته.

لقد وُظّفت أخبار الجاهليّة في مجال التنازع القبليّ في ظلّ السائد السياسيّ سلطةً أمويّة أو عباسيّة، وهذا أمر مُدرَك في إطار سياسة السلطة للأدب. فكأنّ أخبار الجاهليّة في ظهورها قد ساوقت حركة المجتمع الراجع إلى الجاهليّة في مظاهر مختلفة. وكأنّ ظهور أخبار الجاهليّة في هذا الفضاء هو حتميّة تاريخيّة أو هو إفراز طبيعيّ داخل مجتمع ينزع إلى التفاخر والبحث عن مجده التليد، وداخل فضاء سياسيّ ينفخ من روحه في ماضيه. فهذا المقام اقتضى حكاية مآثره، ولا بدّ لكي تكتسب الحكاية سلامتها وصدقها وتنفذ في الذوات المخاطَبة بحثا عن حجج قوليّة أن تُوهِم بمطابقتها للواقع. وعلى هذا الأساس كان التهافت على الأخبار شكلا حادثا ومؤثّرا في الذوات المخاطَبة، لأنّه أبين من الشعر في إيهامه بالصدق. فالشعر موصولٌ دوما بالنخيّل، والأقوال الأخباريّة تدّعي معانقتها الحقيقة.

إنّ في ما تصوّره الأخبار من نزاع جاهليّ بين القبائل قسما مهمّا من أصداء حاضر إنتاج الأخبار ذاتها، فالعودة إلى الجاهليّة -أخبارا وأشعارا- قد كانت مساوقة لنزاعات بين القبائل العربيّة التي دخلت الإسلام وراحت تبحث في ماضيها عمّا يُعلي من شأنها ويحطّ من شأن أعدائها، وراحت أيضا تصوّر الماضي وفقا لرؤيتها وانطلقا من هذا الواقع الذي اشتّدت فيه المنازعات بين هذه القبائل بسبب التصارع على مصادر الثروة والتنافس على تحصيلها[1] أو بسبب العلاقة بالسلطان القائم ودرجة الاقتراب منه أو الابتعاد عنه...

وتصوّر لنا مصنّفات التاريخ هذه الصراعات الدامية بين القبائل العربيّة زمن الدولة الأمويّة، وبغضّ النظر إن كان هذا الصراع هو إحياء لنزاعات موروثة عن

1- دكسن (عبد الأمير عبد حسين): **الدولة الأمويّة** [65 هـ-86 هـ/ 684م-705م] دراسة سياسيّة. دار النهضة العربيّة. بيروت. الطبعة الأولى 1973. ص142. 143.

الجاهليّة أو هو ناشئ وقتها، فإنّ الأكيد أنّ هذا الشكل من التصارع الذي اتّخذ الجاهليّة مضمونا له قد ظهر في الأخبار وبان بشكل جليّ، فعُدّت بذلك شكلا من أشكال التعبير عنه. ولذلك، فلا غرابة أن يجد أبو عبيدة هذا الكمّ الهائل من الأخبار المتعلّقة بتصوير مختلف النزاعات بين العرب أيّاما ينقلها في معرض شرحه لنقائض جرير والفرزدق.

لقد غلب زمن الأمويين صراع دائر بين مختلف القبائل العربيّة في مناطق مختلفة من الدولة الإسلاميّة، فلقد ثارت العصبيّة في بلاد الشام بين العصبيّة اليمنيّة الغالبة وبين العصبيّة القيسيّة[1] التي تحوّلت بفعل إعراض السلطان عنها ومساندته لليمنيين إلى قبائل تُعارض الحكم الأمويّ وتقف مع من قام ضدّه وخاصّة ابن الزبير الذي ناصرته[2]، ولقد تعمّقت هذه العصبيّة بجنوح الأمويين إلى تفضيل الكلبيين وإيثارهم على بقيّة العناصر الأخرى، فكانت معركة "مرج راهط"[3] لقاءً بين هاتين العصبيتين وقد اتّخذتا غطاء لها وسندا الخلاف الدائر بين الأمويين والزبيريين، فوقف القيسيّون بحكم موقع المعارضة الذي صاروا إليه إلى جانب ابن الزبير وعاضدوه في حربه، ولزم اليمانيّون جانب مروان بن الحكم، وقد نتجت عن هذه المعركة أيّام أخر لاحقة، يدعو بعضها البعض طلبا للثأر والانتقام، فكان يوم الغوير ويوم الفرس ويوم دهمان...[4]

ولقد تأثّر البيت الأمويّ بهذا الصراع بين القيسيّة واليمانيّة، فكان منهم من يذود عن اليمانيين، ومنهم من يقف إلى جانب القيسيين يدعمهم ويدافع عنهم، وفقا لانتساب كلّ منهم إلى أمّ قيسيّة أو يمانيّة، فعبد العزيز بن مروان –على سبيل المثال– كانت أمّه كلبيّة، وبشر بن مروان كانت أمّه قيسيّة، وكان كلّ منهما يتعصّب لنسب أمّه، وقد قامت خلافات عديدة داخل البيت كان سببها هذا النسب[5].

1- م.ن: ص 139.

2- م.ن: ص 143.

3- م.ن: ص 144.

4- م.ن: ص 146.

5- م.ن: ص153.

ولقد وجد الخلفاء الأمويّون في الصراع القبلي الدائر بين قيس وتغلب مستراحا لهم إذ تنشغل بذلك قيس عن أنصارها من الكلبيين، وتخوض حربا تنهك قواها وقوى تغلب معا، وتجد هذه القبائل المعرضة ما به تُشغَل عن منازعة السلطان سلطته. وقد حصلت أيّام عديد نتيجة صراع قيس مع تغلب، منها يوم ماكسين أيّام عبد الملك بن مروان، ويوم الثرثار الأوّل، ويوم الثرثار الثاني، ويوم المعارك ويوم الحشاك ويوم لبى ويوم الشرعبيّة[1]...وهي أيّام ناتجة في أصل حدوثها عمّا يُناظر أسباب بعض من أيّام العرب، إذ أنّ سبب اشتعال القتال بين قيس وتغلب يرجع إلى أنّ رجلا من بني الحريش، من بني عامر قد ذبح عنزة تعود إلى امرأة تغلبيّة، فكان هذا الحادث دافعا لتولّد جملة من الأيّام بين القبيلتين، وهو ما يشبه تقريبا سبب يوم البسوس.

إضافة إلى أيّام أخرى بين مختلف القبائل العربيّة كانت تابعة لهذه الانقسامات بين القبائل أو هي حادثة بين فروع القبيلة الواحدة على شاكلة الصراع الذي دار بين ربيعة ومضر في خراسان[2] وهو محلّ إقامتها في حركة تمصير الأمصار وتوزيع القبائل فيها، ثمّ الصراع بعد بين المضريين أنفسهم، بين قيس وتميم....ولقد كانت جملة هذه النزاعات قائمة على الصراع حول توزيع الثروات واحتلال المواقع الأهمّ في الأمصار المفتوحة، ذلك أنّ القبائل العربيّة في استقرارها في المدائن المختطّة أو المفتوحة كانت ترتحل مجموعة محافظة على وحدتها القبليّة[3]، وقد وقع توزيعها توزيعا قبليّا فيه مراعاة لتجامعها. يقول هشام جعيط في هذا السياق، مبينا عن استقرار القبائل العربيّة في الكوفة وعن محافظة السلطة على هذا التوزيع القبلي في مختلف نُظمها: "المفارقة أنّ الكوفة وهي المصر المثالي، كانت مصرا للبدو في أوّل الأمر، إذ لا يمكن أن تنزع عن قبائل مثل أسد وتميم وكندة، التي استقرّت بكثرة في الكوفة، السمة المزدوجة للبداوة العربيّة، أي التنظيم العشائري والقبلي الذي استبقي في الكوفة، وماضي الترحّل

1- م.ن: ص158. 159. 160.

2- م.ن: ص163.

3- جعيّط (هشام): **الكوفة، نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة** دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى 1986. ص121.

والظعون. لكن الأمر يرتبط ارتباطا دقيقا بماضٍ معيّن/ مهما كان قريبا. أمّا عن الظاهرة القبليّة، فقد تأطّرت بقوّة التنظيم الحكومي والعسكري والجبائي".[1]

لقد أردنا فقط أن نقدّم مهادا عن وضع القبائل العربيّة في ظلّ الدولة الأمويّة وغلبة الصراع عليها، وهو ما يشكّل عاملا مهمّا من عوامل بعث الماضي وجعله مسرحا لنزاعات الحاضر. وعليه فإنّ ما نلحظه من نزاع هذه القبائل في الجاهليّة أمر موصول بطريقة أو بأخرى بوفرة نزاعها في الإسلام، خاصّة في ظلّ وجود رُواة قبائل دورهم يتمثّل في بيان مآثر القبيلة التي ينتمون إليها، ومثالب القبائل التي يعادون.

إنّ آثار هذه العصبيّة الغالبة في ظلّ الدولة الإسلاميّة بادية في جلّ أخبار الجاهليّة، تكاد تُفصح عنها حينا وتغلب سفورا أحيانا. وإنّا لَمُظهرون بعضا من مظاهرها، إذ تبدو غالبةً، مُصرِّفةً لمناحي الأخبار، مُفصِحةً عن حضورها آلة متحكّمة في بنائها، ومدارا تدور عليه.

نتبيّن أصداء هذه العصبيّة في أخبار رُدّت وقائعها إلى الجاهليّة، والحال أنّ فيها آثارا بيّنة من مواقف الرواة الآنيّة أو ممّا ترسّخ في الذاكرة الجمعيّة وممّا هو سائد من وضع سياسيّ تفرّقت فيه القبائل تنازعا على مصادر الثروة وامتلاك السلطة. ويمكن أن نستدلّ على حضورها مبدءا من مبادئ إنشاء أخبار الجاهليّة في بعضٍ من أخبار الأغاني، فلقد ورد فيه "أنّ الحارث بن عبد اللّه بن بكر بن يشكر (...) كان يأخذ من جميع الأزد إذا غنموا الربع، لأنّ الرياسة في الأزد كانت لقومه، وكان يُقال لهم "الغطاريف"، وهم أسكنوا الأزد بلد السراة، وكانوا يأخذون للمقتول منهم ديّتين، ويعطون غيرهم ديّة واحدة، إذا وجبت عليهم، فغزتهم بنوا فُقيم بن عديّ بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فظفرت بهم، فاستغاثوا ببني سلامان، فأغاثوهم حتّى هزما بني فقيم، وأخذوا منهم الغنائم وسلبوهم، فأراد الحارث أن يأخذ الربع كما كان يفعل، فمنعه مالك بن ذهل بن سلامان، وهو عمّ أبي حاجز، وقال: "هيهات ترك الربع غدوة"، فأرسلها مثلا، فقال له الحارث: أتراك يا مالك تقدر أن تسودا. فقال: هيهات الأزد أمنع من ذلك...".[2]

1- م.ن: ص75.

2- كتاب الأغاني": 13/ 213.

وإنّك لتلاحظ في هذا الخبر أمرين بيّنين، أوّلهما إثبات قوّة بني سلامان، إذ هم قادرون على تغليب الطرف الذي يجنحون معه، وقد كان ذلك مثبتا في خطّة قوليّة قامت على إثبات رياسة آل الحارث وقوّتهم، ثمّ حاجتهم إلى مؤازرة بني سلامان عندما ظفرت بهم بنو فقيم، فكان لهم ذلك. أمّا ثاني الأمرين، فهو قائم على ما قام عليه الأمر الأوّل إثباتا لقوّة بني سلامان بواسطة الحجّة القوليّة، ساعة يدخل الحارث في منازلة قوليّة مع مالك، فيظفر به بعد أن سلبه عزّة السيادة.

فكأنّنا بصاحب الخبر يريد أن يُعلي من شأن بني سلامان، إذ يُدخلهم طرفا ثالثا، قادرا على أن يغيث، وأن يفتكّ الرياسة ممّن كانت له، سيادةً مطلقةً. ولعلّنا نلاحظ بيسر أنّ هذا التنازع القبليّ الذي يظهر في هذه الأخبار يُمثّل محرّكا أساسيّا في إنتاجها وإنشائها. فالأخبار آلة للمواجهة والذود. فقد اتّخذت مطيّة في هذا الصراع القبليّ الشديد، كما كان الشعر آلة قوليّة مسايرة لهذا الصراع بين القبائل[1].

ونحن، باعتماد هذا المسلك، لا نُثقِل على هذه الأخبار، ولا نخضعها قسرا لمذهبنا في الدراسة، وإنّما نخضع لها، ونتبيّن ما تُفصِح عنه، ونحاول أن نبلغ العوامل التي ساهمت في بعثها وتشكيلها. إذ نحتفي بما احتفت به، ونلتزم بما فرضته علينا طرحا للسؤال وطرقا لمسالك وعرة يستحيل القطع فيها برأي.

ولك خبرٌ آخر مبين عن آثار هذه العصبيّة: "قال أبو عبيدة: وهوازن بن منصور، لا ترى زهير بن جذيمة إلاّ ربّا، قال: وهوازن يومئذ لا خير فيها، ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد، فهم أذلّ من يد في رحم، وإنّما هم رعاء الشاء في الجبال، قال: وكان زهير يعشرهم، وكان إذا كان أيّام عكاظ أتاه زهير، ويأتيها الناس من كلّ وجه، فتأتيه هوازن بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم، فيأتونه بالسمن والأقط والغنم..."[2].

فأبو عبيدة يتوجّه في بنائه لخبره إلى تحقير قبيلة هوازن بن منصور، إذ يجعلها تخضع لزهير بن جذيمة، وتؤدّي له الإتاوة. وما يجعلنا نجنح إلى اعتبار صاحب الخبر

1- يمكن أن ننظر في نفس هذا السياق أخبار ورقاء بن زهير. "كتاب الأغاني": 11/ 70 وما بعدها.

2- "كتاب الأغاني": 11/ 77.

يصدر عن رؤية عصبيّة، جملة الصفات التي يسندها إلى هوازن (لا خير فيها- أذلّ من يد في رحم- رعاء الشاء في الجبال). فلا مناص من إقرار هذه العصبيّة في إنشاء هذه الأخبار، وهي عصبيّة لا تُسنَد إلى أبي عبيدة أو غيره من الرواة، وإنّما هي ماثلة أساسا في إنشاء الصورة الأولى للقبيلة أو البطن أو الفخذ، وفي ما يُروَّج حولها من حكايات، فما أثبتناه سالفا لا يعني أنّ أبا عبيدة ضرورةً يصدر عن مبدإ عصبيّ، وإنّما قد يكون – فعلا- مجرّد ناقل لصورة رائجة عن هوازن يتوسّع في إنشائها.

إنّ التعرّض إلى القبائل في الخبرين السالفين، قد اقترن برفعها سيادةً أو الحطّ من قيمتها. فلا يكتفي الخبر ببيان بعض الأحداث أو الوقائع، وإنّما يتركّز أساسا على بيان مقام هذه القبيلة أو تلك. وكان صاحب الخبر –إن كان للخبر صاحب يُعرَف به- ينزع إلى صناعة صورة مخصوصة للقبيلة أو العشيرة التي يعرض لها في معرض بنائه لخبره، وهذه القبائل تمثّل حقيقة تاريخيّة في وجودها، غير أنّ الصفات والأعمال المُسنَدة إليها تختلف من خبر إلى آخر. ولك مثال آخر على هذه الظاهرة، فقبيلة هذيل على سبيل المثال، تكون ساعة مُخرِجَةَ الأبطال، وساعة مُخرِجة الجبناء، في إسنادٍ لسمتين متباينتين لنفس القبيلة، في خبرين مختلفين. إذ يُعلن الخبر الأوّل أنّ هذيلا تُنتج رجالا لهم من الفطنة والصرامة والشدّة ما يُجابهون به أعتى الخصوم، "...والذي رأيت من صرامتي فمن قِبَل أعمامي وهو هذيل"[1]، في حين يُظهر الخبر الثاني جبن الرجال الذين تنتجهم هذيل "ما أرعدت عضدك إلاّ من قبل أمّك الوابشيّة من هذيل"[2]. وهما خصلتان متباينتان يُوسَم بهما رجال هذيل، بل هما سمتان متغايرتان لقبيلة هذيل ذاتها، وذلك داخل لا محالة في ما سلف أن عرضنا له من صراع قبليّ ظهر في هذه الأخبار[3].

1- م.ن: 13/ 81.

2- م.ن: 21/ 179.

3- يمكن أن ندرك أيضا انتقاء بعض القبائل بيانا لوهنها، وجعلها قبلة الغازين، إذ ينفرد منها فرد وكأنها خلو من الرجال، مثل قبيلة فهم وهي قبلة المتنخّل في غاراته. انظر **كتاب الأغاني**: 23/ 26. أو قبيلة بجيلة وهي قبلة الصعاليك، انظر كتاب الأغاني: 21/ 149. 21/ 153. 21/ 156. 21/ 160.

والأمر قد يتعدّى إثبات هذا النزاع في معرض حدثيّ إلى إثبات صفات ثابتة لبعض القبائل تُوسَم بها وشما لا يمّحي، "...وأمّا بنو كلاب فكالحيّة إن تركتها تركتك. وإن وطئتها عضّتك، وأمّا بنو كعب فإنّهم يصيدون اللأي، وأمّا بنو نُمير فإنّهم يرعون إبلهم في رؤوس الجبال، وأمّا بنو هلال فيبيعون العطر"[1]. فلا ريب أنّك تتبيّن في هذا التصنيف إجلالا لقبائل ووضعا لقبائل أخرى، حطّا من قيمتها. إذ قام المصنِّف بإعلاء شأن القبيلتين الأوليين، ووضع القبيلتين التاليتين في ضعة المنازل، فجعل الأولى منها ترعى الإبل في رؤوس الجبال، ولا تقدر على رعيها في السهول والمراعي، وجعل الثانية تبيع العطر، وكأنّه يكنّي بذلك عن ميلها إلى التأنّث. في حين جعل القبيلتين الأوليين في أعلى المنازل، إذ شبّه الأولى منهما بالحيّة التي إن ابتعدتَ عنها سلمتَ من شرّها، وإن حاولت وطأها فإنّ سمّها ناجع. وأمّا الثانية فهي ترعى الثور الوحشيّ دلالة على قوّتها واقتدارها.

وهذه الصفات أو السمات التي يجنح فيها الرواة إلى وصف القبائل وبيان خصالها، منجّمة في "كتاب الأغاني" على اختلافها وتضادّها[2]. ولقد أردنا إثباتها بيانا لما نزعنا إليه من إظهار لدور هذا الصراع بين القبائل في تنشيط رواية أخبار الجاهليّة.

وقد تُتّخذ الخيل واسطةً للإبانة عن هذا الصراع القبليّ، فهي صورة من صوره، والمفاخرة بها هي فخر القبيلة ومجدها. ويمكن أن ندرك ذلك في هذا الخبر الذي أورده صاحب "الأغاني" على لسان الحارث بن ظالم المرّي: "...أبيت اللعن، نعم صباحك، وأهلي فداؤك! هذا فرس من خيل بني مرّة. فلن تُؤتَى بفرس يُشَقُّ غباره، إن لم تنسبه انتسب. كنت ارتبطته لغزو بني عامر بن صعصعة، فلمّا أكرمت خالدا أهديته إليك.

1- كتاب الأغاني. 11/ 81.

2- لقد ورد أيضا في **كتاب الأغاني**: 16/ 50، أنّ ابن لسان الحمّرة -من بني تيم الله بن ثعلبة- تحدّث إلى المغيرة بن شعبة عن بعض القبائل: "قال (المغيرة): ممّن أنت؟ قال: من بكر بن وائل. قال: وكيف علمك بهم؟ قال: إن جهلتهم لم أعرف غيرهم. قال: فما تقول في بني شيبان؟ قال: سادتنا وسادة غيرنا. قال: فما تقول في بني ذهل؟ قال: سادة نوكى. قال: فقيس بن ثعلبة؟ قال: إن جاورتهم سرقوك وإن ائتمنتهم خانوك. قال: فبنو تيم الله بن ثعلبة؟ قال: رعاع النقد وعراقيب الكلاب..."

وقام الربيع بن زياد العبسيّ، فقال: أبيت اللعن، نعم صباحك، وأهلي فداؤك! هذا فرس من خيل بني عامر ارتبطت أباه عشرين سنة، ولم يخفق في غزوة، ولم يعتلك في سفر، وفضله على هذين الفرسين كفضل بني عامر على غيرهم"[1].

وهذا التنازع في تفضيل الخيل في محضر النعمان بن المنذر هو في جوهر الأمر افتخار بالأنساب، وما عرض الخيل إلاّ واسطة من وسائط هذا التنازع الذي سرعان ما يطفو ويظهر في نفس الخبر بتنازع الشخصيتين الممثلتين للقبيلتين المتنازعتين "فغضب خالد وكان لا يُنازَع، فقال: أ تنازعني يا حارث، وقد قتلت حاضرتك وتركتك يتيما في حجور النساء"[2]. فامتداح خالد لخيله هو إظهار لقوّة قبيلته وشِدّة غزوهم في سابقٍ كان، وفعل حادث في ماضي الزمن. وأثر هذا الفعل هو الذي جرّ حارث إلى الاتّكاء على الخيل مدحا وإطراء، إيماءً إلى مقبل الفعل، "كنتُ ارتبطته لغزو بني عامر"، فمعرض التفاخر بالخيل هو تواصل للنزاع العصبيّ القائم بين بني عامر وبني مرّة. وعرض الخيل يتضمّن في ثناياه – تصريحا وتكنية- عرضا للقبائل مفاخرةً، ذلك أنّ التفاخر بالخيل هو تفاخرٌ بالقبيلة والانتماء والنسب وصفاء العرق والعلوّ على بقيّة القبائل. فظاهر القول عرضٌ للخيل في محضر النعمان بن المنذر تقرّبا منه، وباطنه تنازعٌ بيّن بين القبيلتين العارضتين.

فإذا ما بلغنا هذا الحدّ أدركنا أنّ الصراع القبليّ قد ساد وعلا شأنه في ظلّ الدولة الأمويّة، وقد كان مصدرا من مصادر العودة إلى الجاهليّة للبحث فيها عن نزاعات ضريعة أو مشابهة منها كان المنطلق لإثبات الذات، ويمكن أن نتصوّر أثر الهزيمة أو النصر في هذه الصراعات بين هذه القبائل في بعث الماضي أخبارا تُتناقل وتروج بين النّاس، تحمل في أحشائها أصداء الحاضر أكثر من تعبيرها الصادق عن تاريخ الجاهليين.

إنّ حضور التفاخر القبليّ، عصبيّةً، قد مثّل مجالا رئيسيّا من المجالات التي انصرف إليها الرواة في إنتاجهم لأخبار الجاهليّة. وإذا وصلنا بين المهاد التاريخيّ الذي

1- م.ن: 11/ 90.

2- م.ن: 11/ 91.

قدّمناه وبين الاحتفاء المطلق بهذه المسألة داخل الأخبار، وبين البدء التاريخيّ (التقريبي) لظهور هذه الأخبار، انتهينا إلى أنّ الأخبار في صورتها الأولى -تنشئة- مثّلت أداة سياسيّة، أو هي أداة قوليّة اتّخذت واسطة لإثارة الضغائن بين القبائل.

ويقرّ محمّد القاضي صلة الخبر بالتاريخ، فيذهب إلى أنّ الخبر "انبثق من رحم التاريخ"[1]، تناولا لمسائل موصولة بالتاريخ أو معالجة لمجالات تاريخيّة، إذ حاول في بداياته "عكس" الواقع التاريخيّ، فاستحال "هذا الواقع ظلاّ له"[2].

والحقيقة أنّ السبب في إثارتنا هذه المسائل وصلا للإنتاج الأدبيّ بالظروف السياسيّة الحافّة به والمساهمة في إنتاجه، هو جملة من الملاحظات التي أبداها طه حسين في كتاب "في الأدب الجاهليّ"، وملاحظات رئيسيّة أقرّها محمّد القاضي في أطروحته "الخبر في الأدب العربيّ"، فدفعانا إلى ضرورة التوسّع في هذه الإشارات التي يؤكّد طه حسين أهميّتها، ويبين القاضي دورها الفاعل في بعث الخبر شكلا أدبيّا. إذ ردّه إلى مولّد أساسيّ هو الثارات القبليّة[3]، إضافة إلى انتهائه إلى أنّ الأخبار استُخدِمت وسائل دعاية للعصبيّات القبليّة[4] وجنّدت لخدمة الصراع القبليّ[5].

وهي مسائل قد حدت بنا إلى محاولة بيان هذا الصراع القبليّ الذي يؤكّد محمّد القاضي دوره الفاعل في إنتاج هذه الأخبار. إضافةً إلى ما سلف أن أبنّا من فعلٍ بيّن للسائد السياسيّ في إنتاج الأخبار وإذكاء روايتها. وهي مسألة أكّدها طه حسين، إذ أقرّ الصلة العميقة التي تربط بين أدبنا العربي في مختلف مظاهره وبين السياسة[6].

1- محمّد القاضي (1998): ص682.

2- م.ن: ص681 يقول: "كان الخبر ظلاّ للواقع التاريخيّ فأصبح الواقع التاريخيّ ظلاّ له".

3- م.ن: ص651.

4- م.ن: ص660.

5- م.ن: ص652.

6- حسين (طه): "في الأدب الجاهلي". ص116 وما بعدها.

إنّ ما أنجزناه في هذه المرحلة هو وصل الخبر بجملة من العوامل الخارجة عن النصّ، المتجليّة فيه، وهي عوامل قطعنا بتأثيرها العميق في تغذية رواية الأخبار وتحديد معالمها. ونحن وإن كنّا نعدم النصوص التي تُظهر لنا بداية تشكّل الخبر، وتوفّر لنا مادّة دراسة يمكن أن ننطلق منها، فإنّه من الممكن أن نلحظ صورا نزْرة منها، تبدو في الأخبار المرويّة خلوا من الحكاية القصصيّة المعقّدة. ويمكن أن نقرّ أنّ ما سوّغ لنا سلوك هذا المسلك هو الاتّكاء إلى معطيين، مثّلا منطلقين لمبحثنا، أوّلهما، منطلق افتراضيّ، مفاده أنّ هذه الأخبار التي بلغتنا على هيئة فنيّة في القرن الرابع، تقتضي ضرورة المرور بمراحل تكوّن عديدة حتّى تستقيم وتنهض شكلا أدبيّا معتمدا في مختلف التصانيف وشكلا سائدا يرتقي إلى مصافّ الدُّرجّة في التأليف. إضافةً إلى أنّ الظاهرة موصولة بالتدوين تأخّرا زمنيّا. وثانيهما، آراء منجّمة في كتب التاريخ وفي مؤلّفات تاريخ الأدب وفي المصنّفات النقديّة، تقرّ استدعاء المؤسّسة السياسيّة للرواة في المجالس العامّة والخاصّة بغية السمر وصناعة صورة للسلطان السياسيّ تتناقلها ألسنة الرواة وأقلام المدوّنين وصحائفهم. إضافة إلى عدد من الإشارات تؤكّد مسايرة الأخبار للسائد السياسيّ سلطةً قائمةً وصراعا بين القبائل. وهذان المنطلقان هما اللذان أفضيا بنا إلى العدول عن مسلك مسايرة البحوث النظريّة -الغربيّة أساسا- المهتمّة بتولّد الأجناس وتشكّلها، وحتّما علينا اعتماد مقاربة مغايرة (نسبيّا)، قد تحتمل ما تحتمل من الهنات، ولكنّ هناتها -فيما نعتقد- ليست أشدّ من تلك التي يمكن أن نقع فيها باستدعاء مسالك في المقاربة لم تدرك خصوصيّة الخبر في التراث الأدبيّ العربيّ (وإن كانت الاستفادة من هذه الأعمال حاصلة بطريقة أو بأخرى). لذلك فإنّا نُوافق طه حسين فيما ذهب إليه من أنّ الأدب العربيّ على صلة عميقة بالسياسيّ والدينيّ -رغم عسر الفصل بينهما-، وهي صلة قد أثّرت بالغ الأثر في إنتاجه وإنشائه.

لقد حاولنا انطلاقا من هذين المعطيين أن نبحث في الظروف الحافّة بنشأة أخبار الجاهليّة وتكوّنها، وفي المقامات التي أذكت روايتها ودفعتها إلى التشكّل. لأنّ ما سينتهي بعد ذلك إلى الرواة-المصنّفين، إنّما هو أخبار قابلة للتشكيل والتصريف. فأخبار الأيّام على سبيل المثال هي مادّة مشتركة يصوغها كلّ مصنّف وفقا لقدرته وطرائق حياكته، ووفقا لنهجه الخاصّ في الصياغة. لذلك فإنّا نُعاين صياغات متعدّدة

للمادّة الواحدة[1]. ولذلك أيضا، فإنّا لا نؤمن بأنّ أبا الفرج كان محض ناقل أو مجرّد مدوّن جامع، كما لا نقرّ بمطلق اختراعه لهذه الأخبار.

صحيحٌ أنّ الخبر قد اتّخذ شكله المميّز في القرن الرابع إذ بلغ أوجه حضورا فنيّا، قصصيّا، أدبيّا، غير أنّ هذا التشكّل مسبوق حتما بمراحل سابقة، كان الخبر يخطو فيها خطاه الأولى، وإن كان التدوين قد ساهم في توفير الأخبار الناتجة في القرن الرابع، فإنّ الشفويّة قد أضاعت أو حوّرت عددا كبيرا من الأخبار الأولى. لذلك فإنّ عرضنا لمسألة النشأة والتكوّن يُعَدُّ من لغْوَ قولٍ إن نحن حسمنا الأمر، بسببٍ من غياب نصوص أولى نرتكز إليها في إنشاء أحكامنا، وبسببٍ من عدم اطمئناننا التامّ لتاريخيّة أسانيد الأخبار.

فلا ريب أنّه من العسير أن نُمسِك بزمن البدايات أو أن نحدّد زمن النشأة تحديدا قطعيّا فاصلا، وإنّما أردنا أن نُبين عن بعض الحوافّ التي فعلت فعلا عميقا في إظهار أخبار الجاهليّة، ووجدنا سندا في ذلك انصراف السلطة السياسيّة إلى الجاهليّة إرثا يُتَذكّر وما ساد من صراع بين القبائل غدّى هذه العودة إلى الجاهليّة. فكانت الأخبار شكلا مواكبا لحركة المجتمع ولحركة السياسة. ونحن بهذا الانصراف إلى السائد السياسيّ واعتماده مقاما من مقامات إنتاج أخبار الجاهليّة قد أسقطنا عددا من المقامات الأخرى –على أهميّتها–، وذلك يُرَدّ أساسا إلى أنّا أردنا الاهتمام بأقرب المظاهر تأثيرا في الأخبار، وأعلقها بها. فاحتفينا بهذا المقام نظرا إلى قيمته الجليّة في إقامة هذه الأخبار وتحديد معالمها وتخومها، ونظرا أيضا إلى أنّا أردنا أن نضع هذه الأخبار في إطارها الحضاريّ الذي ظهرت فيه. فمن المؤكّد أنّ دارس أخبار الجاهليّة يعسر عليه إدراكها وفهمها ما لم يصلها بزمنين تاريخيين خارجين عن زمن النصّ، وهما، آن إنتاج الأخبار والأزمنة التي تعانقها، وصلا للزمنيين إن وُجِد جامعٌ يصل بينهما أو هو يُوحّد بينهما. فنحن لكي نُدرك أخبار الأيّام على سبيل المثال، لا بدّ أن تكون في أذهاننا ظلال تاريخيّة عن هذه الأيّام إنشاءً ومدارا حدثيّا.

1- انظر على سبيل المثال الأخبار التالية في "كتاب الأغاني": 9/ 110 و112. 11/ 23 و32 و34.

إنّ ما بذرناه لحدّ الساعة من محاولات لمحاصرة مقامات إنتاج أخبار الجاهليّة لا يكاد يشفي غلّة الصادي، بسببٍ من تعدّد هذه المقامات وتضافرها مجموعة لإخراج هذا الشكل، ولعلّنا نشير بذلك إلى مقام من أوكد المقامات حضورا وأشدّها تأثيرا في إنتاج هذه الأخبار، وهو مقام أدبيّ فيه يَرعى الأدبُ الأدبَ ويتولّد الجنس الحادثُ من جنس تالد فيغلب عليه ويحتويه على قِدَمه وشدّة الشعر في إنتاج أخبار الجاهليّة.

دور الشعر في إنتاج أخبار الجاهليّة

لقد سعينا في المبحث السالف إلى بيان دور السّائد السياسيّ في إنتاج أخبار الجاهليّة وتغذية نشأتها، وحاولنا أن نصل بزوغ جنس فرعيّ بجملة من الظّروف السياسيّة المخصوصة التي ساهمت في شيوعه، ومثّلت أرضيّةً يُمكن أن ينمو فيها ويسود. ونُحاول في هذا المبحث الموصول بسالفه أن ننظر في العلاقة الإنتاجيّة الواصلة بين الأخبار والأشعار، من زاوية واحدة، وهي تلك المتمثّلة في بيان دور رواية الشعر في إنشاء أخبار تحفّ به وتلزَمه لزوما مُطلَقا أو لزوم إحاطة وتأطير. ذلك أنّ أخبار الجاهليّة التي نبحث في ظروف إنتاجها تُوصل برواية الشعر وصلَ قرابة متينا، فأغلبها[1] يدور على الشعر، حتّى لكأنّنا إزاء جنس يُنتَجُ على "هامش" جنس مغاير. وهذا ما سوّغ لنا النظر في هذا الوجه الأدبيّ الخاصّ ببيان حركة الخبر في ظلّ تاريخ الأدب تفاعلا وتضايفا. ولذلك فإنّا ساعون إلى بيان المقامات التي نشأ فيها جنس فرعيّ وليد (وفقا لما انتهى إلينا من أخبار مدوّنة ووفقا لما راج من آراء حول هذه الأخبار)، لم تتعوّده الذائقة الأدبيّة ولم تنشأ عليه. وهو جنسٌ يَعسُر أن يُحدَث وفقا لتصميم قبليّ أو تصوّر مبدئيّ، وإنّما إحداثه موصول بحاجات ضبطنا الحضاريّ منها في صورته السياسيّة، ونُحاول أن نضبط الأدبيّ منها في إطار النظر في مسار الأدب -تاريخيّا-

1- نخصّ هنا أخبار "كتاب الأغاني" تحديدا.

تخصيصا للمرحلة "الأولى" التي كان فيها الخبر يحبو في أحضان سائد شعريّ انشدّت إليه آداب العرب وعلومهم في شقّ كبير منها.[1]

ولقد أردنا النظر في هذه المسألة على عُسر سُبُلها وإمكانيّة الفراغ منها بخلوّ الوفاض، بغاية الوقوف على مبدأ بارز مثّل منطلق انصرافنا إلى إثارة علوق أخبار الجاهليّة برواية الشعر، وهو إحداث تصوّر عن الجاهليّة نابع من مسايرة أقوال شعريّة جاهليّة وإسلاميّة

فكأنّ الشعر في هذا المقام هو الذي يفتتق رحيب معاني الجاهليّة وفسيح فضاءاتها، إذ يكون السبب والمنطلق لإحداث هذا التصوّر ولرصد هذه الصورة.

ولذلك فإنّ سؤالنا الحافز على اتّباع هذا المسلك، هو كيف يمكن أن تُبنى صورة عن الجاهليّة مؤسّسة على أقوال تخييليّة؟

فلهذا السبب ولغيره أردنا أن نُبين عن تشكّل أخبار الجاهليّة داخل مقامات شعريّة قد تُؤثّر بشكل أو بآخر في إنشاء الخبر وفي إخراجه وفي تحديد صورته وملامحه.

ونعتمد في هذا المبحث على النظر في هذه العلاقة من زاويتين، زاوية أولى نبين فيها دور رواية الشعر الجاهليّ في إنتاج الخبر، وزاوية ثانية نتقصّى فيها دور رواية الشعر الإسلامي في إثارة أخبار الجاهليّة وبعثها. فأمّا الزاوية الأولى فإنّا ساعون فيها إلى بيان اتّصال الأخبار برواية الأشعار الجاهليّة التزاما مطلقا بما جاء في رواية المنظوم وإعادة إنتاج له في شكل منثور، في شقّ أوّل، ثمّ نسعى في شقّ ثان إلى بيان كيفيّة إحداث مقامات أخباريّة تخرج عن محض مسايرة المنظوم إلى بناء مهاد يحويه ويضمّه، غير أنّ الجامع بين هذين الشقّين هو المقام الشعريّ الذي يستدعي الأخبار ويؤسّسها وفقا لمداره الحدثي، فهي تنجذب إليه علوقا واتّصالا. ونتطلق في بياننا لهذه الظاهرة في شقّيها من نماذج أخباريّة نتّخذها مجالا للدّراسة.

2- ولقد رصد محمّد القاضي (1998) تاريخيّة تناوب السيادة بين الأشعار والأخبار، وانتهى إلى أنّ الشعر احتوى الخبر في بدء نشوئه، فأسبغ عليه شرعيّة أدبيّة، فنمت في رحابه قبل أن تنفرد جنسا مستقلاً محتويا للأشعار. انظر الفصل الأوّل من الباب الخامس (ص540-592).

وأمّا الزاوية الثانية، فإنّا منصرفون فيها إلى النظر في ما حفّ ببعض روايات الشعر الإسلامي من إيجاد مناسبات تُقَدَّمُ فيها أخبار عن الجاهليّة، بما يمكن أن يحويه هذا الشعر من إشارات وإحالات إلى وقائع هذا العصر وحوادثه. فيُمثّل بذلك منطلَقا في إطار التفسير والتوضيح لإيراد هذه الأخبار. ونُخصّص النظر أساسا تناولا لهذه المسألة في رواية أبي عبيدة لنقائض جرير والفرزدق، إذ أنّ هذا الشرح قد حوى مدوّنة أخباريّة جاهليّة مهمّة خاصّة في إيراده لجلّ أيّام العرب في الجاهليّة.

وعلى هذا، فإنّ هذه المقاربة ذات مزالق عديدة، يعسر على صاحبها أن يسلم من مساوئ سبلها، نظرا إلى إشكال تداوله النقّاد ولم يقطعوا الرأي فيه، وهو مسألة وضع الشعر الجاهلي. فنحن ننطلق من رؤية مفادها أنّ قسما مهمّا من هذه الأخبار أُنتج في مجال رواية الشعر الجاهليّ، والحال أنّ المسألة يمكن أن تكون على خلاف ذلك، فيُعتَبر هذا الشعر ناشئا في مقام أخباريّ، ويُعتَبر الراوية في هذا المجال واضعا للشعر مسايرة للذائقة العامّة. غير أنّ هذا المنحى وإن كان من اليسير إثباته نصّيّا، فإنّه يبين عن مرحلة اشتدّ فيها الخبر وساد، وهي مرحلة متأخّرة تقتضي اعتبار مراحل أولى كان فيها الخبر في بدء تشكّله، منضويا تحت جنس مكتمل، نافذ، فاعل في المتقبّل، هو الشعر. ونحن على وعينا لهذا الإشكال ولأثره في هذه المقاربة، نجنح إلى الاحتفاء بهذا الوجه الثاني الذي كان فيه الخبر–وفقا لعبارة محمّد القاضي–"خادما للشعر"[1] بسبب من انصرافنا إلى بيان المقامات التي نشأت فيها الأخبار.

1–مرافقة الأخبار للأشعار

تُظهر عديد الأخبار والمواقف أنّ ظاهرة إحياء الشعر الجاهليّ قد يفعت أساسا في المرحلة الأمويّة، وأنّ خلفاء بني أميّة وفقا لتوجّههم السياسي قد ساهموا مساهمة فاعلة في إثارة هذا الشعر والدعوة إلى روايته[2]، فكانت العودة القويّة إلى الاهتمام بالشعر الجاهليّ روايةً وبحثا في أسباب إنشائه وفي مقامات قوله.

1– انظر محمّد القاضي (1998)، ص 542.

2– يذهب فؤاد سزكين في **تاريخ التراث العربي** م1. ج2. ص17. إلى أنّ "هذا الضرب من التآليف في الأخبار" مع الأشعار المتّصلة بها، قد جاز في أوائل العصر الأموي اهتماما وعناية بنفس درجة الاهتمام بتدوين المغازي والحديث والتفسير، ثمّ تطوّر بعد ذلك تطوّرا سريعا."

ويورد ابن سلاّم في طبقاته قولا يبين عن أسباب هذه الأوبة المتأخرة إلى رواية الشعر الجاهليّ وتجميع آثاره الباقية من أفواه الحَفَظَةِ والرّواة، يقول " فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولَهَت عن الشعر وروايته.

فلمّا كثُر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك،وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير."[1] غير أنّ الانصراف عن الشعر الجاهليّ تناقلا وروايةً بسبب من حلول الإسلام عقيدةً صرفت النّاس إلى مشاغل أخر، لا يعني حدوث قطيعة تامّة معه، وإنّما تنيء عديد الأخبار أنّ الرسول كان في عديد المواقف داعية إلى إثارة الجاهليّة بحثا في أخبارها وأشعارها وسؤالا عن المطابقة بين القول الذي انتهى إليه والفعل الغائب عنه، فمن ذلك ما أورده ناصر الدين الأسد[2] " قال جابر بن سمرة: جالست رسول اللّه صلّى اللّه مائة مرّة، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهليّة، فربّما يبتسم رسول اللّه صلّى اللّه وسلّم[3]. وفي نفس هذا المسار يقرّ ناصر الدّين الأسد التواصل التامّ بين الجاهليّة والإسلام على مستوى رواية الشعر الجاهليّ وأخباره " فنحن نرى إذن- ممّا قدّمنا من الأمثلة-الشواهد- أنّ رواية الجاهليّة أشعارها وأخبارها لم تنقطع منذ الجاهليّة، بل لقد اتّصلت زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وصحابته وخلفائه الراشدين[4]، واستمرّت طوال القرن الأوّل حتّى تسلّمها

2- ابن سلاّم الجمحيّ: "**طبقات فحول الشعراء**". السفر الأوّل. مطبعة المدني- القاهرة. د.ت. ص .25

3- ولا مفرّ من اعتماد الأخبار للإثبات في هذا المجال.وفي نفس هذا المسار فإنّ طه حسين يقرّ في"**في الشعر الجاهليّ**" (ص: 147) بأنّ القنوات التي بلغنا من خلالها تاريخ الجاهليين وقسم من تاريخ المسلمين هي قناة الأدب،يقول ذلك أنّ أخبار الجاهليين وأشعارهم لم تصل إلينا من طريق تاريخيّة صحيحة، وإنّما وصلت إلينا من هذه الطريق التي تصل منها القصص والأساطير، طريق الرواية والأحاديث، طريق الفكاهة واللّعب، طريق التكليف والنحل.فنحن مضطرّون أمام ذلك كلّه أن نحتفظ بحرّيتنا كاملة، وإلى أن نقاوم ميولنا وأهواءنا ونظرتنا التي هي مستعدّة للتصديق والاطمئنان في سهولة ويسر.ونحن لا نعرف نصّا عربيّا، وصل إلينا من طريق تاريخيّة صحيحة،يمكن أن نطمئنّ إليها قبل القرآن إلاّ طائفة من النقوش، لا تثبت في الأدب حقّا ولا تنفي منه باطلا،وهي إن أفادت في تاريخ الرسم،فذلك كلّ ما يمكن أن يُؤخذ منها إلى الآن."

1- ناصر الدّين الأسد:"**مصادر الشعر الجاهليّ**"،ص204-205.

2- في شأن رواية الشعر الجاهلي في القرن الأوّل للهجرة وانصراف أصحاب الرسول إليها، **انظر** "**رواية اللّغة**":دار المعارف. مصر 1971. ص47.

العلماء الرّواة من رجال القرن الثاني. ولم تكن ثمّة فجوة تفصل هؤلاء العلماء عن العصر الجاهليّ، وإنّما تلقّفوه عمّن تقدّمهم وورثوه عمّن سبقهم، رواية متّصلة وسلسلة محكمة، يأخذها الخلف عن السلف، ويرويها الجيل بعد الجيل، حريصين عليها معنين بها[1] ورؤيته هذه، تقوم على الإيمان المطلق بتواصل الجاهليّة أخبارا وأشعارا، دون قطيعة تُلحَظ، ولن نجادل في هذا المقام هذه الرؤية، فلنا عودة إلى إثارة هذا المبحث في الفصل اللاّحق عند البحث في مصادر إنشاء هذه الأخبار، ولكن قصارانا أن نؤكّد أنّ مسألة اتّصال أخبار الجاهليّة وأشعارها امتدادا زمنيّا والإقرار بمبدأ التّواصل التامّ، مسألة يعسر الاطمئنان إليها وإن وجدنا أخبارا عديدة تبين تلذّذ الرسول وصحبه بالاستماع إلى أخبار الجاهليّة وأشعارها. ولعلّ الرؤية الأسلم التي نجنح إلى الانطلاق منها هي تلك القائمة على الإقرار بحدوث قطيعة ظرفيّة ونسبيّة مع الجاهليّة أخبارا وأشعارا، مسايرةً للسّائد السياسي واندماجا في حركات الفتوح الأولى- وهي نفس الرؤية التي أثبتها ابن سلاّم الجمحي في الشاهد المثبت أعلاه- وانصرافا إلى الاهتمام بظاهرة الدين الجديد، وبسبب من أنّ الجاهليّة لم تتحوّل -كما سلف أن ذكرنا- تاريخا يُتذكّر إلاّ بعد أن ساد الإسلام، ذلك أنّ المرحلة الأولى من ظهور الإسلام أعلق بالجاهليّة منها بالإسلام، فالوعي بأنّ الشعر الجاهليّ هو شعر مرحلة انقضت كان أساسا مع خلافة بني أميّة التي حاول ساستها النفخ في هذا الشعر وتقصّي مقامات إنشائه. فتكوّنت حركة روائيّة تختصّ برواية الشعر وتتبّع آثاره، ولقد نتج عن هذا الأمر بروز علماء في رواية الشعر الجاهليّ، عُدُّوا بمثابة الأصول الأولى لإخراجه وتحقيقه، ثمّ في مرحلة ثانيّة سعوا إلى تدوينه وإثباته.ولم يكتف هؤلاء الرّواة المؤسّسون برواية الشعر خالصا، وإنّما سعوا في أغلب الأحيان إلى وصله بالظروف التي نشأ فيها والبحث في مناسبات قوله والزجّ به ضمن أخبار تحتويه والوقوف عند معانيه بسبب من تبدّل حال المتقبّل وحاجته إلى أن يتمثّل الفضاء الذي قيل فيه الشعر ورغبته في فهم معانيه وحوادثه المذكورة فيه. ونحن في هذا المقام لا يمكن أن نخصّ طرفا بعينه يركن إلى تأثيث الشعر بأخبار تساوق مساره الحدثي، لأنّ الشعر الجاهليّ في روايته تقلّب من لسان إلى

1- ناصر الدين الأسد: "مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة".ص205.

آخر، وكلّ راوية يمكن أن يُقدّم له أو أن يُوضّحه وفقا لاجتهاده ولنظره في هذا الشعر الذي يضطلع بروايته. ومكانة الشعر تقتضي التحرّي والتثبّت فيه دون حوافّه.

ودون أن نفيض قولا في بيان أهميّة هذا الشعر في الموروث الأدبيّ العربيّ، ودون أن نطرق إشكال وضعه ونحله، لأنّها مسائل تخرج بنا عن السبيل الذي نروم اتّباعه، وهو سبيل يختصّ ببيان دور هذا الشعر في بناء الأخبار سواء كان منحولا أو مسندا حقيقة إلى أصحابه[1]، نقرّ أثر هذه العودة إلى رواية الشعر الجاهليّ في إخراج أخبار الجاهليّة[2]. وهي مسألة يمكن إثباتها بحجّة عقليّة استنباطيّة وأخرى نصيّة، أمّا الحجّة العقليّة فمفادها أنّ هذا الشعر وفقا لأهميته[3]وطلب روايته يقتضي بيان

1-إنّ مسألة وضع الشعر الجاهليّ لا تعنينا في هذا المقام بسبب من أنّ هذه الأشعار يمكن أن تكون موضوعة وتساهم بدورها في إنتاج مقام أخباريّ يرافقها، كما يمكن أن تكون غير موضوعة فيؤثّث الرّاوية بأخبار تضمّها وتحتويها. لذلك فإنّا نُعرض عن طرح هذا الإشكال.

2- يقرّ شوقي ضيف في كتابه "العصر الجاهلي" دار المعارف. القاهرة مصر الطبعة الحادية عشر. ص148، ظاهرة بزوغ طبقة في الرواية تنصرف إلى رواية الشعر الجاهلي وما حفّ به من أخبار، يقول "ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الاسلامي ومطلع العصر العبّاسي حتّى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتّخذون رواية الشعر الجاهلي عملا أساسيّا لهم، وتختلط في هذه الطبقة أسماء عرب وموال، وأسماء قرّاء للقرآن الكريم وغير قرّاء، وهم جميعا حضريّون، عاشوا غالبا في البصرة والكوفة. **ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجرّدة، بل كانوا يضيفون إليها كثيرا من الأخبار عن الجاهليّة وأيّامها**، وكانوا يتّخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاّب **وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة، أو يفسّرون لهم ظروف النصّ التاريخيّة**"

3- لقد أورد ناصر الدين الأسد أخبارا تبين عن أهميّة رواية الشعر الجاهليّ وانصراف الرسول وأصحابه إلى روايته "وقال أبو سلمة، لم يكن أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم متحزّمين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر الجاهليّة."ص.205.

و"قال الشريد بن السويد الثقفي: استنشدني النبي صلّى اللّه عليه وسلّم شعر أميّة بن أبي الصلت، فاستنشدته، فأخذ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: هيه، هيه، حتّى أنشدته مائة قافية." ص213.

فهذه الأخبار مبنيّة على بيان أهميّة الشعر الجاهليّ في هذه المرحلة وانصراف النّاس إليه في بدء الرسالة المحمّديّة، بل يمكن أن ندرك الاحتفاء برواية الشعر الجاهليّ في هذه المرحلة في ما راج حول كلف ابن عبّاس برواية الشعر الجاهليّ واعتماده له في تفسير القرآن، ويقرّ ناصر الدين الأسد في "مصادر الشعر

الفضاءات التي أُنتج فيها وذكر المناسبات التي أنشأته. لذلك فإنّه من الطبيعي أن تتولّد أخبار ترافق رواية هذا الشعر، وهي مسألة تختلف عمّا ذكرناه سالفا من إنتاج الأخبار للأشعار. وأمّا الحجّة النصيّة فتظهر في عدد من الأخبار الملتزمة بمعاني الشعر المرويّ، إذ تظهر فيها أولويّة الشعر وإلحاق الخبر به على سبيل التأطير والتأثيث، وإنّا لواقفون على بعض من هذه الأخبار في لاحق التحليل.

فالغاية الأولى تتّجه نحو رواية الشعر، والغاية الثانية تتّجه نحو بناء الخبر، أي أنّ الراوية يهتمّ في الوجه الأوّل بتأثيث الشعر في حين ينصرف الراوية في الوجه الثاني إلى تأثيث الخبر. وهذان الوجهان اللّذان يحكمان علاقة الخبر بالشعر يجعلا ن المسلك الذي نروم اقتفاءه محفوفا بالمزالق. فردّ الأخبار إلى المجال الشعريّ أمر يحتمل ما يحتمل من مخاطرة بسبب من أنّ هذا الشعر في حدّ ذاته يمكن أن يكون ناتجا عن رواية الأخبار، فتنقلب الآية، ونتحوّل من إطار الحديث عن شعر مولّد نشأت في رحابه الأخبار إلى الحديث عن نثر مولّد توضَع فيه الأشعار الجاهليّة. فالمسألة إذن ذات وجهين، ولا ينفي وجود أحدهما الآخر، وإنّما هي ظاهرة تُبين عن تفاعل الأجناس الأدبيّة وتبادل السيادة في تاريخ الأدب العربيّ.

ونسعى في هذا القسم إلى بيان دوران الخبر في فضاء الشعر، ملازمة تأطير وتأثيث، من خلال النظر في الأخبار الملحقة برواية الشعر الجاهليّ.

أ- الوجه الأوّل :الأخبار حلاّ للمنظوم/أو- الالتزام التامّ بالشعر.

يبدو التصاق الأخبار بالأشعار بيّنا في مرحلة نشوئها الأولى قبل أن تستقلّ مديرة للشعر في مجالها. وما أكّد هذه الملازمة هو المكانة التي احتلّها الشعر رواجا وتداولا، إذ تعوّدته الذائقة العامّة ودرجت عليه وانتظرته في مختلف صنوف الأدب. ولذلك فقد مثّل قطبا جاذبا لمختلف الأجناس، فوجود أخبار عن الجاهليّة في هذه المرحلة ليس وجود تفرّد داخل كيان مستقلّ، وإنّما هو وجود التابع يُظِلّ أصله ويقفو

الجاهليّ ص203، أنّ" الأخبار عن معرفة ابن عبّاس بالشعر الجاهليّ وروايته إيّاه وحثّه على طلبه وتعلّمه وتفسير كتاب الله تعالى به أخبار كثيرة."

خطاه أنّى سار، يستجير به ويتطبّع بطباعه. إذ كانت تؤثّث هذه الأشعار، فتُقدّم لها وتُفصح عمّا جال فيها معاودةً وتكرارا. فمثّل النصّ الشعريّ منطلقا - في هذه الحال- لبناء الأخبار، وهو ما لاحظه جواد علي، فذهب إلى أنّ جلّ أخبار الجاهليّة متولّدة عن رواية الشعر الجاهليّ، إذ يقول " إنّ إليه (الشعر الجاهليّ) يعود فضل بقاء كثير من الأخبار المتعلّقة بالجاهليّة، فلولاه لم نعرف من أمرها شيئا، ولستُ مبالغا إذا قلت إنّ كثيرا من الأخبار قد ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسباتها، وإنّ أخبارا خُلقت خلقا لأنّ واضع الشعر أو راويه اضطُرّ إلى ذكر المناسبة التي قيل فيها، فعمد إلى الخلق والوضع. وهو من ثمّ صار سببا في تخليد الأخبار لسهولة حفظه ولاضطرار راويه إلى قصّ المناسبة التي قيل فيها."[1]

ويبين ناصر الدين الأسد عن نفس هذا المنحى عند تعرّضه لطبقة " الرواة- العلماء" يقول" ومدار تميّزها وتفرّدها على أنّها اتّخذت من الشعر موضوعا علميّا تدرسه دراسة، وتأخذه عن شيخ أو أستاذ في مدرسة من مدارس علم الشعر وروايته آنذاك، ونعني بها تلك المجالس والحلقات التي كانت تعقد في المساجد أو منازل الشيوخ، ويجتمع فيها التلاميذ من العلماء والمتعلّمين، يتحلّقون حول شيخ شُهد له بالحفظ والرواية ومعرفة كلام العرب والإحاطة الواسعة بشعرهم، وذلك بالاطّلاع على ما سبق عصره من جهود الرّواة في حفظ الشعر وتدوينه، وقد تكون وسيلة الدرس مزدوجة تقوم على أمرين: على قراءة ديوان الشاعر أو ديوان القبيلة، والتلاميذ يتابعون القراءة في نسخ بين أيديهم أو يستمعون لمن يقرأ، وعلى ما يلقيه الأستاذ الشيخ من تصحيح لبعض الأخطاء أو ذكر لوجوه الروايات أو تفسير لغريب الألفاظ أو شرح للمعنى العام وذكر جوّه التاريخيّ وحوادثه وأخباره."[2] فندرك- ممّا أورده ناصر الدين الأسد- احتفاء الرّواة "المحترفين" بالشعر الجاهليّ وانكبابهم عليه دراسة وتأطيرا، فوظيفة الرّاوية لم تكن مقتصرة على رواية الشعر، وإنّما هي تتخطّاه

1- جواد علي: "**المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**". دار العلم للملايين- بيروت- مكتبة النهضة- بغداد- الطبعة الثانية 1976- 1/ 25

2- "**مصادر الشعر الجاهليّ**": ص251-252.

إلى شرح الألفاظ وبيان المعاني وإيراد الأخبار، وبذلك يمكن أن نتبيّن ما أحدثه النصّ الشعريّ الجاهليّ في روايته من حركة أدبيّة، تنصرف إليه وتعتصم به، فهو باعث البحث عن شروح المعاني، وهو باعث البحث في الفضاء التاريخي الذي ولّده، توضيحا وبيانا للفضاء العامّ للقصيدة ولمعانيها الأصليّة والفرعيّة. فقد مثّل الشعر الجاهليّ مجال استقطاب لجهود هؤلاء الرّواة، بالالتفاف حوله، روايةً له وبحثا في حوادثه وبعثا لمعانيه.

ونتبيّن هذه الصلة التي تشدّ رواية الأخبار إلى رواية الأشعار مع عَلَم من أعلام رواية الشعر الجاهليّ، وهو أبو عمرو بن العلاء " فلقد وجّه عنايته إلى تدوين كميّات هائلة من الشعر الجاهليّ والأخبار المتعلّقة به"[1] حتّى لكأنّ رواية الأخبار صارت صارت لازمة تابعة لرواية الشعر الجاهليّ، ولعلّنا نتبيّن من قول جواد علي وناصر الدين الأسد أنّ الحاجة إلى إلحاق الأخبار بهذه الأشعار في مقام رواية الشعر الجاهليّ موصولة بتغيّر المتقبّل وبتبدّل حدوده المعرفيّة والإدراكيّة، وموصولة أيضا بمنطق المغايرة النسبي بين الفضاء الذي أُنتج فيه الشعر أو الذي رُدّ إليه وبين الفضاء الذي رُوي فيه، ولذلك كانت الحاجة إلى تقديمه في إطار يوضّح ما غمض منه ويبين عن مناسباته. ولقد تطلّبت عمليّة تقريب" فضاء الإنتاج" إلى "فضاء التقبّل" جهودا كبرى من المدوّنين الناقلين إحداثا وإضافةً إلى هذا المتداول الشعريّ لمقامات نثريّة تُقدّم المرويّ الشعريّ وتفسّره في سياق حدثي يساير السياق الشعريّ.

ويمكن أن نقف على هذه الظاهرة بيانا لها في عدد من أخبار " كتاب الأغاني"، ومثال ذلك: "مرّ حسّان بن ثابت بليلى بنت الخطيم - وقيس بن الخطيم أخوها بمكّة حين خرجوا يطلبون الحلف في قريش- فقال لها حسّان: اظعني، فالحقي بالحيّ، فقد ظعنوا، وليت شعري ما خلّفك، وما شأنك، أقلّ ناصرك أم راث رافدك؟ فلم تكلّمه وشتمه نساؤها. فذكرها في شعره في يوم الربيع الذي يقول فيه(من المتقارب)

لَقَـد هَـاجَ نَفسَـكَ أشـجَانُهَا وَعَاوَدَهَـــا اليَـــومَ أديَانُهَـــا

1- بلاشير (ريجيس) : "تاريخ الأدب العربي" ص128.

تَـذَكَّرتُ لَيلَـى وَأَنَّـى بِهَـا ... إذا قُطِّعَـت منـكَ أقرَانُهـا
وَحَجَّـلَ في الـدَّار غربَانُهـا ... وَخَـفَّ مِـنَ الـدَّار سُـكَّانُها
وَغَيَّرَهَـا مُعصِـرَاتُ الرِّيَـاح ... وَسَـحُّ الجَنُـوب وَتَحتَانُهـا
مَهَـاةٌ مِـنَ العَـين تَمشـي بِهـا ... وَتَتبَعُهَـا ثَـمَّ غِزلاَنُهـا
وَقَفـتُ عَلَيهَـا فَسَـاءَلتُهَا ... وَقَـد ظَعَـنَ الحَـيُّ: مـا شَـانُهَا
فَعَيَّـت وَجَـاوَبَنِي دُونَهَـا ... بِمَـا رَاعَ قَلـبِي أعوَانُهَـا.[1]

لقد احتوى الخبر على أهمّ الأحداث الواردة في المنظوم، بل يمكن أن ندرك توسّع الشعر في بعض المناحي وخاصّة في الوصف بيانا لحال المكان ولصفات الشخصيّة، واكتفاء الخبر بذكر الأحداث الكبرى التي أوردها الشعر، التزاما به ومسايرةً لمنطوقه، ويمكن أن نتبيّن هذه المسايرة في الجدول التالي:

	في الشعر		في الخبر	
اسم المرأة	ليلى	+–	ليلى بنت الخطيم	++
وصف المرأة	مهاة من العين تمشي بها...	++	ـــــــــ	––
وصف الديار	حجّل في الدار غربانها خفّ من الدار سكّانها وغيّرها معصرات الرياح وسحّ الجنوب وتحتانها	++	اظعني فالحقي بالحيّ	––
العلاقة بين الشاعر والمرأة	السؤال: وجاوبني	––	السؤال: وليت شعري، ما خلّفك، وما شأنك؟	++
موقف المرأة	السكوت: فعيّت	––	السكوت: فلم تكلّمه	––
موقف نسائها	جاوبني بما راع قلبي أعوانها	++	وشتمه نساؤها	++

1- كتاب الأغاني: 3/ 13-14.

فنلاحظ تطابقا يكاد يكون تامّا بين المعاني التي وردت في الشعر والمعاني التي وردت في الخبر إذ تمّ حلّ المنظوم ووقع تتبّع ذات معانيه دون احتواء له يمرق عن حدوده أو يضيف إليه، وإنّما هو الاقتصار التامّ على ما ورد في الشعر. فهذا الخبر لا يتصيّد الشعر ليُدخله في مجاله، وإنّما هو إعادة إنتاج للنصّ الشعريّ وإدماج له في مقام نثريّ يبين عن الظروف العامّة التي نشأ فيها الشعر، والحال أنّ هذا المقام النثريّ أسير معاني الشعر لا يكاد يبرحها أو يتخطّاها. فكأنّنا إزاء قراءة للشعر تُستقى منه وتلزمه فتلتزم بمعانيه لتقدّ منه هو ذاته إطارا يحويه ويبين عن مناسبات إنتاجه، إذ تُجعل الأشعار موصولة بحدث مخصوص، مرتبطة بواقعة معلنة تُؤسّس لمشروعيّة قوله الشعريّ، وهي في هذا المقام تُخرَج من الشعر ذاته.

ورد في كتاب الأغاني أنّ عمرو بن معد يكرب قال لقيس بن مكشوح المرادي- وهو ابن أخت عمرو- حين انتهى إليهم أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: يا قيس إنّك سيّد قومك، وقد ذكر لنا أنّ رجلا من قريش، يُقال له محمّد قد خرج بالحجاز، يُقال له نبيّ، فانطلق بنا حتّى نعلم علمه، وبادر فروة لا يغلبك على أمر، فأبى قيس ذلك وسفّه رأيه وعصاه، فركب عمرو متوجّها إلى النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وقال خالفتني يا قيس، وقال عمرو في ذلك:(من الوافر)

أَمَرتُـــكَ يَـــومَ ذي صَـــنعَا ... ءَ أمـــــرًا بَيِّنًـــــا رَشَـــــدُهُ

أَمَرتُـــكَ بالتَّقَـــاء اللَّـــــ ... ـــــــه تأتيـــــه وتَتَّعِـــــدُهُ

فَكُنـــتَ كَـــذي الحُمَيِّـــرِ غَـــرَّ ... هُ مـــــن عَـــــيره وتِـــــدُهُ[1]

إنّنا نُدرك- من هذا الشاهد- ما بين الخبر والشعر من تناغم وتعالق، إذ يُجعل القول الشعريّ ناتجا عن موقف أو حدث ما يُفضي بالشاعر إلى نقل القول نظما، والحال أنّ الخبر رغم ما فيه من توسّع موصول بالشعر موتود إليه، فهو لا يُؤسّس مجالا خارجا عنه، وإنّما علاقته به تظلّ علاقة التابع، يُمهّد له ويصطنع ظروفه من ذات معانيه. ورغم وعينا العميق -كما ذكرنا سالفا- لإشكال الوضع، فنحن نفصل

1- كتاب الأغاني: 15/ 163

بين وضع للشعر يقتضيه مقام الخبر، وبين وضع للشعر في حدّ ذاته، وعلى ضوئه تُقدّ أخبار تُرافقه وتلازمه حتّى تخرج على صلة "بالواقع" و"بالتاريخ"، إضافة إلى وعينا العميق بما يحفّ بهذا النوع من الأخبار بالذات من صناعة بسبب من انصرافها إلى تمجيد الدعوة الإسلاميّة والإعلاء من شأنها، خاصّة في بداياتها، فإنّنا نعتبر أنّ هذا الخبر- وأمثاله- يُقدّ على نموذج شعريّ ولا يُصطَنَع الشعر وفقا لتوجّهاته، ذلك أنّ العلاقة بينه وبين الشعر الذي وُضع في محلّ الاحتجاج لمسار وقائع الخبر هي علاقة احتواء وتصريف، احتواء داخل فضاء الشعر وتصريف لمعانيه التزاما بمعاني الشعر. فالظاهر أنّ الشعر المرويّ هو إعادة إنتاج لنفس مضمون الخبر، والحال أنّ المسألة عكس ذلك، فالشعر في هذا المقام هو المنطلَق- حتّى وإن كان موضوعا- وحجّتنا على ذلك أنّ الخبر ملتصق بالمنظوم معيد لإنتاجه، أو هو حلّ للمنظوم مع إضافات توضيحيّة وتوسيع في الوقائع وبيان لأسبابها، فالمخاطَب في الشعر مجهول وهو في الخبر معلوم، والحدث في الشعر مُجمَل وهو في الخبر مفصّل بعض التفصيل. فكأنّ الخبر أُلحق بالشعر بغاية توضيح ما يمكن أن يُغمض فيه، وينزّله منزلته، حيث تتحاور الشخصيات وتبين عن أفعالها وأقوالها وليُكمّلَ الفعلَ المبثوث موقفا مضمَّنا في الشعر، وهو إسلام صاحبه، إذ يُعلَن في الخبر ويُومأ إليه في الشعر، وفقا لطبيعة كلّ من الخطابين.[1]

وعلى هذا الأساس، فإنّا إزاء مقام يحدّ من آفاق الخبر ويأسره داخل فضاء حدثيّ محدّد ويُوظّفه داخل مجاله خدمةً لـه. ولهذا السبب فقد كانت بنية الأخبار الملتزمة بمعاني الشعر الجاهليّ، المرافقة له في روايته بسيطة[2]، بل إنّ أغلبها لا يُجنّح في

1- فتتبّع الخبر للشعر لا يمكن أن يظهر وفقا لضبط الأسبق زمنيّا -وإن كانت علاقة السّابقة الزمنيّة مهمّة- وإنّما أساس التمييز في تبادل الأدوار بين الشعر والخبر سيادةً واحتواءً، هو انصراف أحدهما إلى الآخر وفراغه له، وعلى هذه الهيئة، فإنّ ما نجريه في تتبّع الأخبار للأشعار، دائر في هذا المدار، انصرافا من الأخبار إلى تتبّع حدود الشعر والاهتداء بظلاله.

2- انظر ستيفان ليدر وهيلاري كيلباتريك في مقال لهما بعنوان "النثر الأدبي العربي القديم" ورد في مجلّة "الأدب العربي".

فضاء الحكي، وإنّما هي منصرفة إلى إعادة إحياء المعاني الواردة في الشعر نثرا، مع الزجّ بها داخل منطق حدثيّ محدود يجعل الشعر ناتجا عنه. ومثال ذلك خبر "قيس بن عاصم المنقري" الذي يبدو أنّ صورته عند الرّواة قد ارتبطت بموقف تحريمه الخمر على نفسه قبل الإسلام، ولذلك، فإنّا نعاين عددا من الأخبار المختلفة[1] التي تُصاغ انطلاقا من هذا الموقف الذي يعبّر عنه شعره، وهي أخبار تتّفق إجمالا- في الانتهاء إلى إعلانه تحريم الخمر على نفسه." أخبرني محمّد بن مزيد بن أبي الأزهر قال حدّثنا حمّاد بن إسحاق عن أبيه، قال ذكر عاصم بن الحدثان وهشام بن الكلبي عن أشياخهما: أنّ قيس بن عاصم المنقري سكر من الخمر ليلة قبل أن يسلم، فغمز عكنة ابنته- أو قال أخته- فهربت منه. فلمّا صحا منها، قيل له أوَ ما علمت ما صنعت البارحة؟ قال: لا. فأخبروه بصنعه. فحرّم الخمر على نفسه، وقال في ذلك(من الوافر)

وَجَدتُ الخَمرَ جامِحَةً وَفِيهَا ... خِصَالٌ تَفضَحُ الرَّجُلَ الكَرِيمَا
فَلاَ وَاللّه أشرَبُهَا حَيَاتي ... وَلاَ أدعُو لَهَا أبَدًا نَدِيمَا
وَ لاَ أعطِي بِهَا ثَمَنًا حَيَاتي ... وَلاَ أشفِي بِهَا أبَدًا سَقِيمَا
فَإنَّ الخَمرَ تَفضَحُ شَارِبِيهَا ... وَتَجشَمُهُم بِهَا أبَدًا عَظِيمَا."[2]

فلا ريب أنّ الخبر والشعر كلاهما دائر في مدار عقديّ إسلاميّ يبين مضارّ الخمر وما تفعله في صاحبها من تعدّ على المحارم وسلب للرشد والعقل، ومُظهرٌ ظلالا للانتباه إلى فعلها، تسوّغ تحريمها في الإسلام. وقد كان امتناع "قيس بن عاصم" عن الخمر منطلَقا لتقديم أخبار متنوّعة تبين عن الظروف التي جعلته ينتهي إلى هذا التحريم. فالأخبار الدائرة حول الشخصيّة انصرفت إلى ما انصرفت إليه أشعاره تركيزا على

Classical arbic prose literature: A researchers Sketech map. Journal of Arbic Litterature. Vol XXIII. 1992. Part 1, March. E.J. Brill. P11

1- انظر "كتاب الأغاني": 14/ 79- 80 -81

2- "كتاب الأغاني": 14/ 79.

أسباب إعراضه عن الخمر، وقد كان من محبّيها. فيُوضّح الخبر معاني الشعر-في هذه الحالة- ويُصوّر الظروف التي أنتج فيها. وعليه، فإنّ رواة الشعر الجاهليّ قد حاولوا تأطيره وفكّه حكايةً تُروى وتُستَقى معانيها أو معناها الأصليّ ممّا ينصرف الشعر إلى بيانه من معان، فتُختَلَق له فضاءات وشخصيات وأمكنة وعُقَد قصصيّة، غير أنّها تظلّ موصولة به، إذ يكون منطلقها وآسرها، يُديرها في مداره ويحرّكها في فضائه.

ويُمكن أن ننتهي إلى أنّ حركة رواية الشعر الجاهليّ قد استقطبت الأخبار مجالا مغايرا وشكلا مختلفا، انصرف إليه الرّواة وفقا لمقتضيات حضاريّة وأدبيّة. ذلك أنّ هدأة المجتمع الإسلامي بعد خفوت حركة الفتح واستقرار الدين الجديد وقيام سلطان سياسي منظّم، قد حفزت الرّواة إلى جمع الشعر الجاهليّ وضمّ ما تناثر منه، بحكم ابتعاد هذا المجتمع الجديد عن الظروف التي نتج فيها هذا الشعر أو التي رُدّ إليها، لذلك احتاج الرّواة إلى بيان مناسبات إنتاجه والوقوف عند معانيه تفسيرا وسردا للأحداث التي تضمّنها. فكان استحضار الجاهليّة وبعثها أخبارا تُروَى عبر هذه القناة الراوية للشعر الجاهليّ. وهي صورة أولى من صور تفاعل الأجناس واشتغالها، التزم فيها الخبر بما يرد في الشعر من معان، إذ بقي الشعر غالبا، مهيمنا على الذائقة العامّة وعلى تحديد أفق الخبر، وكان استدعاء الأخبار في هذا المقام، محاولة لاستدعاء الفضاء العامّ الذي دار فيه الشعر، غير أنّه استدعاء ظلّ ملتزما في هذا الوجه الأوّل بما جاء في الشعر، ونتبيّن في لاحق هذه المقاربة وجها آخر من وجوه ارتباط الخبر بالشعر، إذ يلازمه ولكنّه لا يلتزم التزاما تامّا بما جاء فيه.

الوجه الثاني: الخبر مؤطّرا للشعر:

و أمّا الوجه الثاني من وجهي اختلاق الأخبار داخل مقام رواية الشعر الجاهليّ، فيتمثّل في إعادة إنتاج المنظوم دون اعتصام به أو عُلوق بمعانيه الظاهرة فيه أو التزاما بأحداثه، وإنّما الخبر في هذا الوجه ممهّدٌ للشعر مبين عن مناسبات قوله، دون أن تكون هذه المناسبة مُعلَنَةً ضرورةً في المنظوم. وهي واسطة لتأطير رواية الشعر يُلحَظُ وُجودها بصورة مكثّفة في "كتاب الأغاني" وفي غيره من الكتب التي احتوت هذا الشعر،

وخاصّة منها دواوين الشعراء الجاهليين[1] ودواوين القبائل[2]. ويؤكّد فؤاد سزكين أنّ هذه هذه الدواوين قد تضمّنت أخبارا تُوضّح الشعر وتبين عن مناسباته[3]. ويُمكن أن نتبيّن نتبيّن هذه الظاهرة في جملة المقدّمات – الأخبار التي وضعها السكّري تأطيرا لأشعار الهذليين عند روايته لـها[4]، كما يمكن أن نتبيّنها في رواية هشام بن محمّد الكلبي لشعر حاتم الطائي، إذ لم يكتف بنقل شعره وإنّما روى أخباره وأخبارا أخرى تعلق به وتُوصل بمواضيع فرعيّة قد يُلامسها شعره أو يُحيل عليها، وفي رواية السكّري لشعر

1- انظر على سبيل المثال "**ديوان تأبّط شرّا وأخباره**" جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى 1984. و"**ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره**" صنعه يحيى بن مدرك الطائي ورواية هشام بن محمّد الكلبي. تحقيق عادل سليمان جمال. مكتبة الخانجي. الطبعة الثانية 1990.

2- انظر "**ديوان الهذليين**" دار الكتب المصريّة- القاهرة- الطبعة الثانية 1995.

3- فؤاد سزكين: "**تاريخ التراث العربي**". المجلّد الأوّل. الجزء الثاني. ص 17. وانظر أيضا شوقي ضيف "**العصر الجاهلي**" ص162، إذ يقول "ويظهر أنّ الكتب الخاصّة بالقبائل لم تكن تكتفي برواية الأشعار بل كانت تضمّ إليها غير قليل من أخبارهم وأيّامهم، وربّما كان هذا هو السبب في أنّنا نرى مؤرّخيهم ينثرون في تاريخهم أشعارا كثيرة كأنّهم يرون أنّها سنده وعماده، على نحو ما تصوّر ذلك كتب المدائني والواقدي وابن الكلبي، وكان رواة الشعر يمزجون بروايتهم كثيرا من الأخبار التاريخيّة على نحو ما نرى في شرح النقائض لأبي عبيدة".

4- انظر على سبيل المثال وقوف السكّري عند قصيدة "حذيفة بن أنس" ص26 من "**ديوان الهذليين**": (من الطويل)

"غَلَت حَربُ بَكرٍ واستَطَارَ أديمُهَا وَلَو أنّهَا إذَا شُبّت الحَربُ بَرَتِ"

إذ يُقدّم لها السكّري بقوله "قال ابو عمرو والجمحي، كان من حديث "حذيفة بن أنس"، أنّه خرج هو ورجلان من قومه يطلبون نفرا من بني عبد بن عديّ بن الديل بن بكر، وخرج الآخرون فارّين حتّى أتوا مرّا وعلافا..." بيانا للأحداث التي سبقت قول الشعر وكانت مرجعه وأصل إنشائه.

وانظر أيضا في ذات المصنّف، وبحثا عن المراجع "الواقعيّة" لإنشاء الشعر ولتكوّنه مساوقةً لأحداث واقعة، يعاينها الشاعر ويعايشها ويكون طرفا فيها، وقوف السكّري عند قصيدة أبي كبير الهذلي ص88 ومطلعها: أزُهَيرُ هل عن شَيبَة من مَعدَلِ أم لاَ سَبيلَ إلى الشَّبَابِ الأوّلِ" فيقول ضابطا السبب الذي حدا بالشاعر إلى قول هذا الشعر "كان السبب في هذه القصيدة أنّ أبا كبير...".

وانظر أيضا ص77 إذ يقف السكّري مبينا عن سبب إنشاء قصيدة "حبيب الأعلم". وص142و136 تأطيرا لقصيدتين لأبي خراش.

الهذليين، وإن كانت الأخبار المؤطّرة للأشعار فيه أندرُ وُجودا وأقلُّ حضورا، إلاّ أنّه يعمد في رواية بعض القصائد إلى بيان أسباب إنشائها. فكأنّ رواية الشعر أصبحت بحكم تغاير فضاءات التقبّل تقتضي إلحاق الأخبار بها، تمهيدا وتوضيحا للشعر ووضعا له في إطاره العامّ. ولنا أن نقف عند بعض الأمثلة المبينة عن هذه الظاهرة في هذين الديوانين، الممثّلين لظاهرتين لهما عميق الأثر في رواية الشعر الجاهليّ وفي إلحاق الأخبار المهتمّة بالجاهليّة بها، ونعني بذلك، "ديوان حاتم الطائي" ممثّلا لدواوين الشعراء، و"ديوان الهذليين" ممثّلا لدواوين القبائل، إضافة إلى النظر في أخبار "كتاب الأغاني". فمن ذلك: "أخبرني إبراهيم قال: أخبرني أبو جعفر قال: نا أبو صالح. قال المنذر، كان بدء العداوة التي كانت بين طيء وزرارة بن عُدُس أنّ عمرو بن هند خرج غازيا، فرجع منفضا، فقال له زرارة، أبيت اللّعن، أغر على هذا الحيّ من طيء، فقال: إنّ بيننا وبينهم عقدا، فلم يزل به حتّى أغار، فأصاب أذوادا ورجالا ونساء، فذلك قول عارق (من الطويل)

أَكُــلُّ خَمِــيسٍ أخطَــأَ الغُــنمَ مَــرَّةً ... وَصَــادَفَ حَيًّــا دَائِنًــا هُــوَ سَــائِقُه
فَأَقسَــمتُ لاَ أحتَــلُّ إلاَّ بِصَــهوَةٍ ... حَــرَامٍ عَلَيــكَ رَمْلُــهُ وَشَقَائِقُــه
فَأَقسَمتُ جهدًا بالمَنَازِلِ مِن منى ... وَمَــا ضَــمَّ مــن بطَــائِحِهِنَّ دَرَادِقُــه
لئن لَم تُغيّر بَعضَ مَا قَد صَنَعتُم ... لأَمتَحــيَن للعَظــم دُو أنَــا عَارِقُــه[1]

إنّ القول الشعريّ يظلّ مُغمضا معتّما ما عُزل عن الأسباب الممكنة لإنشائه، وعلى ذلك فقد مهّد له الراوية بقول نثريّ مبين عن الظروف السابقة لحُدُوثه أو الدافعة إلى قوله، بالرغم من أنّ الشاعر لم يذكر هذه الحوادث في شعره بل هو أومأ إليها في البيت الأوّل، وهو -فيما نعتقد- ما اعتُمد مرتكزا وسّعه الراوية بعض التوسيع وقَدَّ منه الإطار الحاوي لمرويّه الشعريّ. فالخبر لم يقتصر على ما ورد في المنظوم وإنّما أبان عن أجوائه بإيراد أحداث لم يعلنها الشعر ولم يُظهرها. وبذلك فإنّ القول الشعريّ يخرج بوساطة هذا الإجراء من فضاء الممكن ومطلق الدلالة إلى التسييج الدلالي، بما أنّه نتاج فعل معلوم وحدث مذكور قبل ذكر

1- "ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره" ص: 160.

الشعر، وإن كان في حقيقته ناتجا عنه. ونتبيّن ما يمكن أن يُوفّره القول الشعريّ من مادّة أخباريّة ومن إمكان التصرّف في طرائق الحياكة السرديّة، إذ يُمثّل حافزا لبناء هذه الأخبار، في رواية أخرى تعتمد نفس هذا الشعر لبناء خبر يُغاير في تشكيله الخبر الذي أوردناه ولا يُطابقه مطابقة كليّة، وإن كان يحافظ على نفس الملامح الحدثيّة العامّة. فقد ورد في "كتاب الأغاني" أنّه " كان من حديث يوم أوارة أنّ عمرو بن المنذر بن ماء السماء- وهو عمرو بن هند، كان يُعرَف باسم أمّه هند بنت الحارث الملك المقصور ابن حجر بن آكل المرار الكندي، وهو الذي يقال له مضرّط الحجارة- إنّه كان عاقد هذا الحيّ من طيّء على ألاّ ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا، وأنّ عمرو بن هند غزا اليمامة، فرجع منفضا، فمرّ بطيّء، فقال له زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم الحنظليّ: أبيت اللّعن، أصب من هذا الحيّ شيئا، فقال له: ويلك، إنّ لهم عقدا، قال: وإن كان. فلم يزل به حتّى أصاب نسوة وأذوادا. فقال في ذلك الطائي، وهو قيس بن جروة أحد الأجئيين..."[1]

فلقد اعتُمد نفس الشعر لبناء الخبرين، وهما وإن كانا واحدا بنيَةً حدثيّةً، فإنّه يمكن أن نتبيّن منهما "زيادات" الرّواة وتصرّفهم في البنية الخطابيّة فالمتّكأ لتقديم الخبرين كان شعرا معلنا عن حادثة غير محدّدة، ركن رواته إلى تسييجها وضبط أطرها وحوادثها فقيّد الشعر بهذا الإطار وجُعل نتاجا لوقائعه فالرّواة يعتمدون في روايتهم للشعر على قراءة مخصوصة له منها يبتكرون[2] الأخبار الحافّة به وفقا لما يمكن أن يبذره الشعر من معان ووفقا لما شاع عن الشاعر من قيم تُعدّ ثابتة، تُوصل به وتحدّد صورته الرائجة، فكلّ شعر لديهم موصول- ضرورةً- بمناسبة معلومة قد حفزت الشاعر على قوله. ويبين خبر ابن الكلبي صورةً عن انطلاق الراوية من الشعر وممّا شاع عن الشاعر من صورة تُميّزه في بنائه للخبر المرافق: " ضاف حاتما ضيف في سنة فلم يقدر على شيء وله ناقة يسافر عليها يُقال لها أفعى فعقرها وأطعم أضيافه قسيمها وبعث إلى عياله بقسيمها الآخر، فقال حاتم في ذلك (من الطويل)

1- **كتاب الأغاني**: 22/ 188.

2- وعمليّة الابتكار ليست خلقا محضا يكون على غير هيئة أو صورة وإنّما هو يستند في أغلب الأحيان إلى الرائج وإلى علاقات القبائل وتاريخها وجملة من المحدّدات التي تجعل هذا الابتكار ذا ظلال عند المتقبّل.

لَمّا رَأيتُ النّاسَ هرّت كلابُهم ... ضَرَبتُ بسَيفي سَاقَ أفعَى فَخَرّتِ
فَقُلتُ لأصحَابٍ صِغَارٍ وَنسوَةٍ ... بشِهبَاءَ من لَيلِ اليَمَانينَ قَرّتِ
عَليكم من الشطّين كلّ وَرِيّةٍ ... إذَا النّارُ مَسّت جَانبها ارمَعَلّتِ
وَلاَ يَترُكُ المَرءُ الكَريمُ عيَالَهُ ... وَأضيَافَهُ ما سَاقَ مالاً بضَرّتِ[1]

إنّ الصورة المرصودة لحاتم الطائي قرنا له بالكرم حدّت من الجموح الممكن لمعاني الشعر، وجعلت أمر التمهيد له يسيرا وصلا لجمل أقواله بقيمة أُدير عليها شعره وهي الكرم. ولذلك فإنّ الراوية الذي مهّد للشعر انطلق منها، واصطنع حدثا لم يُعلنه حاتم في شعره تصريحا وإن أوماً إليه إيماءً خفيفا، ذلك أنّ هذا القول الشعريّ يمكن أن يكون داخلا في إطار الافتخار بقيمة الكرم دون تقيّد-ضرورةً- بحادثة بعينها، تجعل القول ناتجا عن فعل سابق، ولكنّ الراوية نزّله منزلة الحقيقة، ووصله بحادثة مخصوصة، فرُدّ إلى وقائع عايشها الشاعر ثمّ عبّر عنها بشعره.

ونتبيّن من هذه النماذج التي يحاذي فيها القول الأخباريّ القول الشعريّ أنّ الراوية لا يعمد إلى إعادة إنتاج المنظوم بحرفه وإنّما هو يجتهد في توسيع بعض المعاني الواردة في الشعر، وكأنّنا إزاء قراءة مخصوصة لهذا المنظوم، وفهم يُدرك منه. فمنه يُحدَث المنطلَق لبناء هذه القراءة المخرَجة في شكل تمهيد يسبق رواية الشعر. وجُنُوحنا في هذا المقام إلى الانصراف عن اعتبار الخبر- في هذه الحال بالذات- مُولّدا للشعر، هو عدم التوسّع في بناء الخبر والاكتفاء فيه بالأفعال الأساسيّة اقتصارا على بيان المناسبة، وتوضيحا لما يُمكن أن يكون مُغمَضا من معاني الشعر.

إنّ هذا النوع من الأخبار داخل في فضاء الشعر، وجوده وجود توضيح وإبانة وتقديم، ولعلّ هذا ما حدا "تيودور نيلدكه" إلى اعتبار أغلب الأخبار ناشئة عن عدم إدراك وعدم فهم للشعر الذي تدور في مداره، إذ فرغت إلى شرحه، انطلاقا من فهمه على وجه الحقيقة، لا على وجه المجاز، يقول: "وكثير من الأخبار التي تُروى لشرح قصيدة من القصائد إنّما نشأت بسبب سوء تصوّر لبعض المواضع في القصيدة،

1- "ديوان حاتم بن عبد الله وأخباره". ص 163.

خصوصا إذا أخذ المعنى الحرفي للكلمات بدلا من التعبير المجازي، وشطر كبير ممّا ورد في "كتاب الأغاني" وغيره ممّا يروي أخبار الشعراء القدماء، إنّما يدين بوجوده لمثل هذه الأحوال من سوء الفهم."[1]

وهي ظاهرة- وإن كنّا لا نلاحظها في كلّ أخبار الجاهليّة- تُوجد في قسم مهمّ من الأخبار إذ يُبنى الخبر اعتمادا على اعتبار المعاني الشعريّة صورا حقيقيّة تُعبّر فعلا عن وقائع يثبتها الشاعر في شعره. وتحملنا هذه المسألة على إدراك طرائق تعامل الرّواة مع الشعر الجاهليّ، إذ يعدّونه ناقلا ومُصوّرا للحياة الجاهليّة، ولا ينظرون فيه من حيث هو تصوّر لها. فالراوية يمكن أن يبني خبره انطلاقا من تفسير معنى مخصوص، ومن ذلك "وأمّا قوله : تحفّ الدوابر، فإنّ أهل اليمن لمّا انهزموا، قال قيس بن عاصم لقومه: لا تشغلوا بأسرهم فيفوتكم أكثرهم..."[2]، فالخبر تولّد برمّته عن تفسير لفظ ورد في الشعر. وعليه فإنّ ما أثبته نيلدكه يمكن أن يكون صائبا في قسم كبير منه، "فسوء الفهم" هو الالتزام بالمعنى السطحي للعبارات الشعريّة والإيمان بأنّ ما أورده الشاعر هو تعبير فعليّ على حقائق تمّت، دون اعتبار ما يمكن أن يتأسّس مجازا، ودون اعتبار ما يمكن أن يتأسّس من شعر لا يُحيل ضرورة على وقائع مذكورة. فأغلب الأخبار الحافّة بهذه الأشعار، هي أخبار تُوظّف لإبانة مقامات إنتاجها وإظهار الإطار العامّ الذي حواها. فالراوية عندما "يجلس" لرواية الشعر لا يقصر أمره على محض نقل الأشعار، وإنّما يقف مؤطّرا ومفسّرا ومبينا عن الظروف التي حفّت بإنتاج الشعر. وعلى ذلك فإنّ هذه الأخبار تُقَدّ على هيئة من الاقتصاد السرديّ تركيزا على الأحداث الكبرى، ويمكن أن نُدرك صورة من صور اندراج الأخبار نحو البساطة احتفاء مطلقا بالشعر، وكأنّ وجودها رهين وجوده، إذ هي تظهر مؤسّسة له، ولكنّها في حقيقة الأمر متأسّسة عليه، منطلقة منه، في الخبر التالي: "قتلت نهلة أخا وعلة الجرمي، فاستعان بقومه، فلم

1- نيلدكه تيودور: "من تاريخ ونقد الشعر" في كتاب "دراسات المستشرقين حول صحّة الشعر الجاهليّ" ترجمة: عبد الرحمان بدوي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى 1979. ص 32.

2- "كتاب الأغاني": 22/ 225.

يعينوه، فاستعان بحلفاء بني نمير، وكانوا له حلفاء وإخوانا، فأعانوه، حتّى أدرك بثأره، فقال في ذلك (من البسيط)

سَائل مُجاور جَرمٍ هَل جَنَيتُ لَهَا ... حَربًا تُزيّلُ بينَ الجيرة الخُلُط

أم هل علَوتَ بجَرّارٍ لهُ لَجَبٌ ... يَغشى الأماعز بين السهل الفُرُط

حتّى تَركت نسَاء الحيّ ضاحيةً ... في سَاحَة الدّار يَستوقدنَ بالعُبُط[1]

إنّ الشعر المسند إلى وعلة الجرمي قائم على حافز جعله ينطق به، ويصرفه إلى هذه المعاني، وهو الأخذ بالثّأر و طلب العون من حلفائه و رفض أهله مساندته لتحقيق فعله هذا ومجاوبة حلفائه له. و نلاحظ أنّ الخبر يسير في نفس المسار إذ يقوم على ذكر أهمّ الوقائع دون حياكة سرديّة بادية فيه بغاية اختلاق مقام يسند الشّعر و يمتّن من وصله بحوادث تُعلَم شدّا لمكن جموح معاني الشّعر. ونلاحظ وجود عدد مهمّ من الأخبار التي ترد على صورة من الإجمال والاقتضاب في بناء السرد، إذ يكتفي فيها الراوية بذكر الأفعال الرئيسيّة الكبرى، سردا متسارعا، متلاحقا، محاولة لوضع الشعر في إطاره الحدثي، وكأنّنا بالراوية في هيئة الأخباري يعدو بتسريع هذه الأحداث بغاية بلوغ هيئته الثانية راوية للشعر[2].

1- كتاب الأغاني : 22/ 223-224.

2- ويمكن أن نلحظ تحوّل الشعر إلى شاهد على الحياة العربيّة في الجاهليّة، والإيمان بـ"عكسه" أو بـ"نقله" لواقع هذه الحياة، في مقال الرواية والنقد عند أبي عبيدة" مجلّة كلية الآداب، جامعة فاروق الأوّل، المجلّد الخامس، مطابع رمسيس بالإسكندرية 1949 إذ أنّ صاحبه يعلّل تقصّي أبي عبيدة للأشعار بقدرتها على نقل مظاهر الجاهليّة واحتوائها على مختلف طباعها، يقول: ص66"...ولكن ينبغي أن نقرّر هنا أنّ هذا الحكم ليس على إطلاقه فيما يخصّ أبا عبيدة، ذلك أنّه لم يكن من رواة الأخبار بالمعنى القريب اليسير، فيكفيه من القصّة أن يروي حوادثها، ويسوق أجزاءها، كيفما اتّفق له، ويظفر من ذلك بإرضاء النزوع الساذج عند العامّة. وإنّما كان-كما أتيح لنا أن نرى من قبل- يتعمّق ويتغلغل ويستقصي لالتماس المقوّمات المختلفة للحياة العربيّة، حتّى يستطيع أن يتمثّلها تمثّلا صادقا شاملا دقيقا، ويتعرّف جوّ هذه الأقاصيص تعرّفا مستبصرا دائبا، حتّى يحيط بوجوهه المختلفة. وقد يكون في تلك الأخبار، مع هذا التقصّي، ما يتيح له بعض ذلك، ولكن هنالك -لا ريب- ما لا يتيحه له غير

إنّ تأثيث رواية الشعر- في هذه الحال- بغاية إخراجه مخرج الفعل الناشئ عن أسباب ساهمت في كونه، موصول بفهم الرّواة للأشعار المرويّة، إذ انطلقوا منها وعدّوها دالّة في حدّ ذاتها على حقائق، معبّرة عن أحداث فعليّة، وناقلة لوقائع حادثة في الجاهليّة دون إجراء التصوير أو التخييل، لذلك ردّوا كلّ شعر يُقال إلى مناسبة معلومة، فرُسّخ المنظوم في "واقع" أنتجه، مثلما نتبيّن ذلك في الأخبار التالية: "وهذا الشعر الذي فيه الغناء يقوله أبو قيس في حرب بعاث"[1]، أو "وهذا الشعر يقوله قيس بن الخطيم في حرب كانت بينهم وبين جحجبى وبني قطمة"[2]. وهي أخبار موصولة في إنشائها بجهود الرّواة في تسييج المنقول الشعري وضبط حوادثه ومناسبات قوله. ونلاحظ في هذه الأخبار بالذات انعدام التوازن بينها وبين الأشعار التي تحويها، إذ يكون الخبر بسيطا مقتضبا، ملتزما بإعلان الحدث فحسب، ويكون الشعر مديدا، دالاّ على عدد من المعاني التي يمكن أن تتعدّى ما حواه الخبر من معان، ومثال ذلك ما ورد في خبر زهير : "وقال الشرقي بن القطامي : عاش زهير أربعمائة سنة، فرأته ابنة له، فقالت لابن ابنها: خذ بيد جدّك، فقال: من أنت؟ فقال: فلان بن فلانة، فأنشأ يقول (من الكامل)

أبـــنيَّ إن أهلَـــكـــك فقَـــد ... أورثـــتكُم مَجـــدًا بَنيَّـــه
وَتـــرَكتُكُم أبنَـــاءَ سَـــا ... دَات زِنَـــادُكُم وَرِيَّـــه
وَلكُـــلُّ مَـــا نَـــالَ الفَتَـــى ... فَلـــيَهلَكَن وبـــهِ بقِيَّـــه
وَلَكُـــلُّ مَـــا نَـــالَ الفَتَـــى ... قَـــد نلتُـــهُ إلاَّ التَحِيَّـــه
وَالمَـــوتُ خَـــيرٌ للفَتَـــى ... فَلـــيَهلَكَن وَبـــهِ بقِيَّـــه

شعر هؤلاء الشعراء الذين عاشوا في ذلك الجوّ وانطبعوا به، ولا يكاد يجد الوسيلة إليه في غير تلك الصور الشعريّة التي تعبّر عنه تعبيرا دقيقا، وتصوّره تصويرا حيّا نابضا".

1- "كتاب الأغاني": 17/ 67. وممّا يُلاحظ في هذا الخبر أنّ المصنّف يتوسّع في هذا الخبر في موضع لاحق. انظر "كتاب الأغاني" : 17/ 68.

2- م.ن. 3/ 19.

مِـــن أن يُـــرَى الشَـــيخُ البَجَـــا ... لُ وَقَـــد تهَـــادَى بالعَشِـــيَّه
وَلَقَـــد شَـــهِدتُ النَّارَللأســـ ... ـــلأفِ تُوقَـــدُ فِـــي طَمِيَّـــه
وَلَقَـــد رَحَلـــتُ البَـــازِلَ الـــ ... ـــكَومَـــاءَ لَـــيسَ لَهَـــا وَلِيَّـــه
وَخَطَبـــتُ خِطبَـــة ماجِـــد ... غَـــيرِ الضَـــعيفِ ولا العِيِّـــه
وَلَقَـــد غَـــدَوتُ بِمشـــرفِ الـــ ... ـــقُطـــرَينِ لم يغمَـــز شَـــظِيَّه
فَأَصَـــبتُ مِـــن بَقَـــرِ الجَنَـــا ... بِ ضُـــحَى وَمِـــن حُمُـــرِ القَفِيَّـــه.[1]

إنّ المناسبة المُعلَنة تقديما للشعر ناتجة عمّا ورد في الشعر من معان ظاهرة، بيّنة تجعل كلام الشاعر ردّا على فعل وخطابا إلى بنيه، وناتجة أيضا عن وصل بين ما يُمكن أن يكون شائعا حول زهير من تعميره وبين ما يرد في الشعر من بيان لعزوفه عن الحياة بعد أن امتلأ منها، وبذلك فإنّ الخبر السابق للشعر يُعدّ بمثابة القراءة له، إذ يُقدّ على هيئة سابقة ويُصنع وفقا لنموذج يُحلّ محلّ المقصد الذي يُتوصّل إليه بعد إحداث هذا المهاد المؤطّر له، فخبر زهير لم يخرج عن حدود الشعر الظاهرة، ولم يخرج عن كونه محض تقديم لهذا الشعر وضبط لأسباب قوله. وقد يعمد الراوية إلى الوقوف عند هذه الأسباب توضيحا لهذه الدوافع وبيانا دقيقا لها، ومثال ذلك ما ورد في "كتاب الأغاني" في معرض تفسير الشعر: "قال: وأمّا قوله(من البسيط)

لَـو تُستَطيعُون أن تلقَـوا جُلُـودَكُم ... وتَجعلُـوا جِلـدَ عبـدِ اللّـه سِـربَالا

فإنّ السبب في ذلك أنّ هبيرة بن سلمة بن قشير لقي حداش بن زهير البكائي، فتنافرا على مائة من الإبل، وقال كلّ منهم لصاحبه، أنا أكرم وأعزّ منك، فحكّما في ذلك رجلا من بني ذي الجدّين، فقضى بينهما أنّ أعزّهما وأكرمهما أقربهما من عبد اللّه بن جعدة نسبا، فقال حداش بن زهير: أنا أقرب إليه، أمّ عبد اللّه بن جعدة عمّتي- وهي أميمة بنت عمرو ابن عامر- وإنّما أنت أدنى إليه منّي منزلة بأب، فلم

1- كتاب الأغاني": 18/ 307-308.

يزالا يختصمان في القرابة لعبد اللّه دون المكاثرة بآبائهما إقرارا لـه بـذلك، حتّـى فلـج هبيرة القشيري وظفر."[1]

فالراوية في هذا الخبر لم يلتزم معاني الشعر، وإنّما اتّخذها منطلقا -في معرض التفسير- لإيراد الواقعة التي أنتجته في مقام الفخر، وهي واقعة مستقاة من ذات الشعر، إذ أنّ الناظر في هذا البيت منطلق التفسير والدافع إلى إيراد الخبر، يلحظ أنّ قائله يعني هبيرة ابن عامر هو المتكلّم، وهو الداعي إلى أن يُجعل طرف مسمّى هو عبد اللّه محلاّ للفخر، إذ فيه دعوة إلى التجرّد من الافتخار بالذات ومحاولة الاقتراب من عبد اللّه، والصيغة الإيجابيّة التي يورد بها هذا القول تجعل القائل ظافرا، وبذلك فإنّ الهيكلة العامّة للخبر ضبطا لشخصيّاته ووقائعه قد تحدّدت في الشعر. ودون أن نتوسّع في الوقوف عند الأمثلة المدعّمة لهذا المنحى، وهي عديدة[2] يمكن أن تنتهي إلى أنّ أخبارا عديدة تنشأ في معرض تفسير الشعر الجاهليّ، وقوفا عند لفظ أو معنى مخصوص، إضافة إلى وجود أخبار مؤطّرة لهذا الشعر، ممهّدة له، باحثة في مناسبات قوله، ناتجة عن قراءة مخصوصة لهذا الشعر دون مطلق الالتزام بما ورد فيه من معان.

إنّ السلطان المطلق للشعر قد مكّنه من احتواء أجناس وإحداث مهاد لإنتاجها في رحابه. فانصراف الرّواة-على سبيل المثال- إلى رواية الشعر الجاهليّ قد حدا بهم إلى إحداث مقام نثري أخباريّ داخل مقام الرواية الشعريّة بغية تأطير هذا الشعر والوقوف على مناسبات إنشائه، بسبب من سعيهم إلى تقريب فضاء الإنشاء إلى فضاء التقبّل. وقد لاحظنا من خلال الأمثلة التي أوردناها، إثباتا لهذه الظاهرة أنّ الراوية قد يلتزم الشعر ومعانيه في تمهيده أو توضيحه للشعر المرويّ، وقد يتعدّى حدود الشعر الظاهرة لذكر جملة من الأحداث والوقائع المستقاة من ذات الشعر، الخارجة عنه في بعض المحدّدات والتوسيعات، غير أنّه في كلتا الحالتين يظلّ رهين الشعر موصولا به أسيرا لـه، بإعادة ما جاء فيه إعادة تامّة، أو بالانطلاق منه لتقديم المناسبة أو لشرح بعض معانيه وألفاظه.

1- م.ن: 3/ 19.

2- انظر الأخبار الواردة في "ديوان الهذليين".

ولذلك فقد جنحنا إلى اعتبار أخبار الجاهليّة على صلة مهمّة في بداية نشأتها – إن صدرنا من اعتبارها جنسا فرعيّا حادثا في ظلّ الحضارة الإسلاميّة- برواية الشعر الجاهليّ أساسا. وانصراف الرّواة إلى الاهتمام بالأخبار الدائرة حول الشعراء الجاهليين ومناسبات قول أشعارهم، راجع أساسا إلى مقام رواية الشعر وسعيهم إلى بيان الفضاء الذي دار فيه وتصوير الظروف التي أنتجته.

وعلى هذا الأساس فقد بحث محمّد القاضي في وظائف الشعر في الأخبار[1]، ووصل إلى نتائج مهمّة، وظّفنا جانبا كبيرا منها، وإن كان مسارنا يُغاير مساره، إذ سعينا إلى قصر دراستنا على بيان دور رواية الشعر الجاهليّ في إنتاج أخبار الجاهليّة. فالشعر يمثّل مصدرا وذخيرة ومجالا قادرا على تذويب الأجناس في رحابه، فيظلّ صوته هو الغالب ومقامه هو المحدِّدُ. والخبر وإن احتوى الشعر فهو-في قسم مهمّ منه- سائر في مساره، دائر في مداره، لا يكاد يخرج عن حدوده ومعانيه. وعلى هذه الصورة فإنّا نلاحظ وجود عدد كبير من الأخبار التي تكتفي بإعادة إنتاج المعاني الواردة في الشعر أو التي تؤطّر الشعر مؤثّثة لـه انطلاقا من النظر فيه. وهذه الأخبار تأتي-غالبا- مبينة عن الظروف التي حفّت بإنتاج هذا الشعر.

ولقد سلك عدد من الدارسين مسلكا حدا بهم إلى اعتبار الأخبار مجالا وسيعا يُنتَج فيه الشعر المنسوب إلى الجاهليّة، باعتبار أنّ مقصد القصّ والحكي قد دفع الرّواة إلى ابتكار أشعار تزين أخبارهم وتساوق مسارها الحدثي وتوافقه وتدعمها بحجج شعريّة مراعاة للذائقة المتقبّلة التي اعتادت الشعر ودرجت عليه، وسعيا إلى إضفاء المصداقيّة على هذه الأخبار. وهذه السبيل هي التي قفاها طه حسين[2]، مؤكّدا وضع الشعر الجاهليّ ضمن عدد من المقامات والفضاءات التي دفعت الرواة إلى وضعه

1- محمّد القاضي (1998)، ص540.

2- لقد أكّد طه حسين هذه الظاهرة في عدد من المواطن في كتابه في "الشعر الجاهلي". انظر -على سبيل المثال- قوله ص122"وأكاد لا أشكّ في أنّ هؤلاء القصّاص لم يكونوا يستقلّون بقصصهم ولا بما يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص، وإنّما كانوا يستعينون بأفراد من النّاس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها."

ونحله، وهي ذات السبيل- تقريبا- التي نهجها من بعده ناصر الدين الأسد عند تعرّضه إلى الحديث عن استدعاء الأخبار للأشعار[1]، وعرض إليها محمّد القاضي في شقّ من دراسته لعلاقة الشعر بالخبر عند حديثه عن الخبر مستخدما للشعر[2]. والحال أنّ المسالة- والقول يخصّ أساسا الدّارِسين الأوّلين، بحكم أنّ القاضي قد أجرى الوجهين ونظر في الخبر خادما للشعر ومستخدما لـه- يمكن أن تأخذ وجها آخر، وتُجرى على غير هذا المجرى، فممّا هو ثابت أنّ عددا من الأخبار قد اصطنع رواتها أشعارا تُوافق مقاصد هذه الأخبار وتسير في ركابها، غير أنّ هذه المرحلة التي "أكل" فيها الخبر الأجناس السائدة، هي مرحلة متأخرة، ساد فيها وأصبح بمثابة الدرجة المجراة على صنوف الآداب. ولقد أكّد محمّد القاضي- كما سلف أن ذكرنا- هذه المسألة، إذ اعتبر أنّ الأخبار كانت مسايرة للشعر، خادمة له[3]، قبل أن تحوّله خادما لها، مسايرا لمسارها[4]. وقد سعينا إلى إبانة هذا الدور الذي كان عليه فرع من فروع الخبر في مرحلة ظهوره الأولى، التصاقا بالشعر.

وعلى هذا الأساس، فقد حاولنا أن نردّ إنتاج أخبار الجاهليّة في قسم منها إلى رواية الشعر الجاهليّ، بحكم يُسر علوق الشعر في الأذهان وعسر حفظ مناسبات إنتاجه التي يحملها خلف عن سلف. ولذلك جنحنا إلى بيان دور الراوية في مقام رواية الشعر الجاهليّ اجتهادا في بناء أخبار تخصّ هذه الأشعار المرويّة، واتّخاذها منطلقا لحياكة أخبار تعيد إنتاج المرويّ الشعريّ.

1- يذهب ناصر الدين الأسد في "**مصادر الشعر الجاهليّ وقيمتها التاريخيّة**" ص:250 ، إلى الجزم بوضع الشعر في الأخبار، وهي مسألة نقرّها، ولكن لا نطلقها على كامل الأخبار، يقول"وموضوع ثالث- غير القصص والأسمار وغير الأنساب- كان مجالا واسعا للوضع والنحل هو أخبار أيّام العرب في الجاهليّة، وهو موضوع يتّصل بسابقيه اتّصالا وثيقا، وتكاد ثلاثتها تكون موضوعا واحدا، متّصلا ذا فروع مختلفة، فمن أمثلة وضع الشعر في الأخبار ونحله للشعراء الجاهليين ليكون ذلك سندا للخبر الذي يُساق، ما أورده أبو عبيدة في حديث البراجم."

2- محمّد القاضي (1998)، ص542 وما بعدها.

3- م.ن: ص 542.

4- م.ن: ص569 وما بعدها.

ويُمكن أن نبين مظهرا آخر من مظاهر ملازمة الأخبار للأشعار ونشوئها عنها، يبدو في رواية بعض الشعر الإسلاميّ، ذلك أنّ أخبارا جاهليّة عديدة ظهرت في مجال رواية بعضٍ من الشعر الإسلاميّ وقوفا عند معانيه أو شرحا لما يرد فيه من أحداث تخصّ الجاهليّة أو ما يعود إليها من مواقف.

2- دور رواية الشعر الإسلاميّ.

لقد عرضنا إلى مسألة تولّد أخبار الجاهليّة من رواية الشعر الجاهليّ، وحاولنا أن نُظهر دور هذا الشعر في إنشاء مدوّنة أخباريّة تخصّ الجاهليّة بمختلف مناحيها وتتّخذها موضوعا لأخبارها. وانتهينا إلى إثبات هذا العامل وبيان دوره في حفز الرّواة على إخراج هذه الأخبار. غير أنّ هذا الإثبات يظلّ حامل أوجه، ولا يمكن القطع فيه برأي فاصل، بسبب من عسر تأكيده يقينا جازما من خارج المجال النصّي ، إذ ترافق رواية هذا الشعر أخبار تصله بالفضاءات التي نشأ فيها وانتسب إليها، على سبيل "نقل الوقائع الحقيقيّة" أو إحداث صور من نسيج الخيال بغاية تأثيث روايته والإيهام بأنّه نتاج أفعال معلومة يبسطها الخبر.

ونعرض في هذا الوجه الثاني من وجهي إنتاج أخبار الجاهليّة داخل فضاء رواية الشعر إلى أثر رواية الشعر الإسلامي في إنشاء الخبر. ذلك أنّ ما لاحظناه في تعاملنا مع أخبار الجاهليّة وردٌ قسم كبير منها في إنتاجها إلى رواية الشعر، أنّ الأخباريين أو رواة الشعر لا يتوسّعون في بيان مناسبات إنتاج الشعر الجاهليّ وإظهار حوافّه الحَدَثيّة وتفسير ما يرد فيه من وقائع فحسب، وإنّما هم ينطلقون من أشعار لا صلة لها في إنتاجها بالجاهليّة فيُنشئون أخبارا تكون الجاهليّة مجالها الفسيح. وهي مسألة تبين عن توسّع رواة الشعر الإسلامي تفسيرا له أو وقوفا عند معانيه في رواية أخبار الجاهليّة توسيعا لما يرد في المنظوم تصريحا أو إيماء أو إشارة وبيانا لما قد يعلنه الشاعر من وقائع وأحداث داخل مجال المفاخرة أو المهاجاة، تمثّل النواة الأساسيّة لإنشاء الخبر.

ولقد اتّخذنا لرصد هذه الظاهرة مصنّفا اختصّ برواية شعر جرير والفرزدق ومن حام حولهما من الشعراء مساندةً وعداءً في مقام المناقضة، وهو "**كتاب النقائض**:

نقائض جرير والفرزدق"[1] لأبي عبيدة. وهو مصنّف انصرف إلى تجميع هذه النقائض وشرح معانيها. وجنوحه إلى التفسير والبيان في تتبّعه للمفاخرة الدائرة أصلا بين هذين الشاعرين وبين مسانديهما ومحاولته توضيح ما عمي أو ما غمض من معاني هذه الأشعار وألفاظها وإشاراتها قد دفعه إلى إيراد عدد مهمّ من أخبار الجاهليّة وخاصّة منها أخبار أيّام العرب في الجاهليّة. ولقد مثّل المصدر الرئيس لرواية هذه الأخبار، فاتّكأت عليه المصنّفات اللاّحقة في إيرادها لهذه الأيّام، ولنا أن نلاحظ مدى استعانة أبي الفرج في "كتاب الأغاني" بأخبار أبي عبيدة وبأيّام العرب في الجاهليّة التي أوردها[2].
أوردها[2].

إنّ هذا المقام الذي نما فيه شعر هذين الشاعرين قد ساهم في تأسيس مدوّنة أخباريّة تحفّ به وترافقه، فهي منشأة في حماه -وإن كانت سابقة في الزمن- فقول مثل قول "غسّان ابن ذهيل":

إِذَا تَعَـــاظَمْتُم جُعُـــورا فَشَـــرِّفُوا جُحَيْشًا إِذَا آبَت مـن الصَّيفِ عِيرُهـا[3]

يظلّ غامضا سطحيّا ما لم يُظهر الرّاوية ما يكمن خلفه من أحداث. إذ يومىء الشعر إلى حدث مخصوص في مقام فخر، ولذلك فإنّ الخبر المرافق له، جاء مبينا عن هذه الخلفيّة الحدثيّة التي انطلق منها الشاعر في بنائه لهذا المعنى. فالشاعر هو الذي يعود إلى الجاهليّة مستلهما منها معانيه، وتتبّعا لـه يعود الراوية إلى هذه المرحلة مبينا عن الحوادث التي غالبا ما يشير إليها الشاعر إشارة عابرة، يعسر على المتلقّي بسبب من تغاير الفضائين أن يدركها. ولذلك فإنّ الراوية يذكر هذه الحوادث سواء كانت أيّاما أو أحداثا أخرى، ويقف عندها موضّحا ومبينا. فيكون الشاعر منشئا للمناسبة التي تدفع بالراوية إلى تقديم أخباره وتُسوّغ له بناءها، وهذا ما نلحظه في شرحه لبيت "غسّان بن

1- أبو عبيدة: "**كتاب النقائض**، نقائض جرير والفرزدق" دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. د.ت.

2- لقد كانت لأبي عبيدة النسبة الأرفع من نِسَب الرّواة المصادر الذين اتّكأ عليهم أبو الفرج في روايـة أخبـار الجاهليّة. انظر الجدول الذي ضبطنا فيه نِسب الرّواة المصادر الواردة أسماؤهم في أسانيد أخبار الجاهليّة.

3- النقائض: 1/ 11.

ذهيل"، إذ أرفقه بخبر عُدّ من قبيل الشرح المبين عن معناه، فقال: "يقول إذا جاءت الإبل بالميرة، كثرت عندهم الحنطة والتمر فيشبعون وتعظم جعورهم، قال أبو عثمان حدّثنا الأصمعي قال: تجاعر حيّان من العرب أي خرئوا، فاختار كلّ حيّ منهم رجلا، وكان سبقهم في ذلك جَزُورا، فال فأطعما من اللّيل طعاما كثيرا حتّى اندحّت بطونُهما قال ثمّ أصبحوا، فاجتمع النّاس، فجاء أحدهما فوضع أمرا عظيما فهال ذلك أصحاب الآخر، وجبنوا وخشوا أن يُغلَبوا، فقال صاحبهم:لا تعجلوا، قال ، فجاء صاحبهم إلى ما وضع صاحبه، ثمّ جلّله، ثمّ تنحّى ناحية، فوضع مثله، قال فغلب، فأخذه أصحابه فحملوه على أعناقهم، فقال الغالب لأصحابه، بأبي أنتم، أمّا إذا كان الظفر لنا، فأشبعوني من أطايبها، يعني أطايب الجزور."[1]

لقد أوردنا هذا الخبر تامّا حتّى نُظهر تدرّج الرّاوية في تقديم الخبر وأثر الشعر في إنتاجه وتحديد دلالاته. فالراوية أورد الشعر بدءا ووقف عند معنى من معانيه موضّحا ومفسّرا وهو" تعاظم الجعور"، فأبان عن المعنى بصورة مجملة، ثمّ أورد خبرا موصولا بهذا المعنى"تجاعر حيّان" مساوقة لما أسّسه الشعر من تفاخر بهذا الفعل، فكان الخبر دالاّ على حدث فخريّ قائم على" التجاعر".

فالشعر ناتج عن حدث سابق وعن خبر سالف رائج أو أخبار تحوم حول بيان فعل التفاخر بتعاظم الجعور، ومنه قَدّ الشاعر صورته ومعناه الفخري. غير أنّ حديثنا عن الأخبار النّاتجة عن الأشعار في هذا المقام موصول بإحداث المناسبة اتّكاءً على الشعر لرواية الخبر، فغاية أبي عبيدة من رواية الأخبار متمثّلة في إدارتها على الأشعار، فوظيفتها هي وظيفة إبانة وتوضيح، أو هي مسخّرة لخدمة المعاني الشعريّة، وبذلك فإنّ شعر "غسّان ابن ذهيل"، قد دفع بشارحه إلى الانطلاق من تفسير لفظ لبيان الظاهرة عند العرب في الجاهليّة ولإيراد خبر يدعمها ويبين اشتغالها في الفضاء الجاهليّ. فوفّر الشعر المناسبة التي سوّغت لأبي عبيدة عرض الخبر، إذ أُنتج بغاية تفسير الشعر وتوضيحه أو هو سند لبيان مغمضه. فتكون رواية الشعر مرتكزا ينطلق منه الراوية لإيراد أخبار قد

1- النقائض: 1/ 11.

تتخطّى معانيه إفاضةً وتوسيعا للنّواة الواردة إشارةً في هذا الشعر. فكتاب النقائض[1] وإن كان كتابا في رواية شعر جرير والفرزدق وفي تفسيره، فإنّه حوى عددا مهمّا من الأخبار عن الجاهليّة حتّى أصبح مصدرا رئيسا ومستندا مهمّا يعتمده اللاّحقون حُجّة في إثبات مظاهر الجاهليّة.

وفي نفس هذا السياق، فإنّا نظفر بمدوّنة أخباريّة عن الجاهليّة مهمّة في مقام تفسير هذا الشعر أو بيان بعض ألفاظه. فعبارة "ذي كلع" -على سبيل المثال- الواردة في شعر "البعيث" قد أفضت براوية الشعر ومفسّره إلى الوقوف عندها توضيحا وبيانا لأحداث متّصلة بها، ولقد ورد هذا اللّفظ في الشعر في سياق فخريّ: (من الطويل)

ضَرَبْنَا بُطُونَ الخَيلِ حَتَّى تَدَارَكَت ذَوِي كَلَعٍ والأَشعَثَينِ وخَثعَمَا"

إنّ الشعر يومئ إلى حدث أو فعل مخصوص ويُجري ألفاظا غامضة استدعت من مفسّره الإبانة كما استدعت تنزيل الفعل المعلن في سياق حدثي يحتويه، لذلك فقد وصله بحادث "تاريخي" يجعل الشعر محيلا على واقع ما، فيعلن أن هذه الأحداث كانت في يوم عند العرب وهو "يوم نجران"، ويعرّف الأشعثين والمتكلّعين، فيقول "هذا يوم نجران، وكان الأقرع بن حابس بن عقال بن محمّد بن سفيان بن مجاشع انصرف من الكلاب فأغار على نجران، وهو في ألفين، وفيها أخلاط من اليمن من حمير وهم المتكلّعون بلغة حمير، وكانت القبائل إذا اجتمعت وتناصرت فقد تكلّعت، والاسم منه التكلّع، ومنه سَميفَع بن ناكور الكَلاعي الوافد على عمر بن الخطّاب...والأشعثان الأشعث بن قيس بن معدى كَرِب بن جبلة الكندي وأخو الأشعث..."[2]

إنّ الشاعر يتحرّك وفق خلفيّة "تاريخيّة" مخصوصة، يسعى الراوية إلى إظهارها وبيانها، لذلك فقد قام الخبر بدور مهمّ في شدّ الشعر إلى مرجعيّة "تاريخيّة" تكون فيها

1- النقائض: 1/ 46.

2- م.ن: 1/ 46.

الوقائع وتتحرّك فيها الشخصيّات "التاريخيّة"[1]. فأبو عبيدة شأنه شأن أغلب رُواة الأخبار يتعامل مع الشعر على أنّه صورة لبيان "حقائق تاريخيّة"، لذلك فإنّه ينطلق منه باعثا الأسماء، باعثا الأحداث، رابطا الشعر بمقام حدثيّ تاريخيّ مخصوص[2]. فالشعر يُوفّر المناسبة لإيراد أخبار جالت معانيها وراجت فيكون بذلك محدّدا لفضاءاتها، إذ هو أساسها ومنطلقها أو هو القادح في تجميعها وحياكتها حياكة توافق مقاصد الشارح، وهو مستَنَد الرّاوية في إنشائه لأخباره. وهذا يدفعنا إلى بسط افتراضين: أوّلهما أنّ الراوية ينظر في هذه الأشعار بذهن مشحون، فهو مدرك لما راج من أخبار تسبق نظم الشعر وتُوظّف داخله، فهو يتصيّد ظلال هذه الأخبار أو ما يحيل عليها ويستخرجها، ثمّ يُلائم بينها وبين ما هو حاصل في ذهنه عنها، فيوجِد الخبر المنشأ، بكلّ ما يمكن أن تقتضيه هذه العمليّة من بحث عن الموافقة والمطابقة ومن لجوء إلى تطويع الخبر وتعديله بغاية مسايرته للمعاني التي يؤسّسها الشعر أو يحيل عليها. وثانيهما أنّ الراوية يسعى في مقام التفسير إلى اختلاق أخبار توسّع من دائرة تفسيره، وتُوجد فضاءات مرجعيّة تُظهر الضمنيّ الذي يُحرّك الشاعر في كلّ إشارة أو تلميح. وفي كلا الوجهين فإنّ الراوية يعتمد الشعر لإخراج أخباره سواء كانت هذه الأخبار أخبارا "تاريخيّة"، "حقيقيّة" يعيد إنتاجها داخل هذا المقام ويُوائمها والمعاني الشعريّة أو كانت أخبارا موضوعة مختلقة، تتبّعا للمعاني التي يؤسّسها الشاعر وتوسيعا لإشاراته وتلميحاته، فإنّه عاقد

1- إنّ استعمالنا "للوقائع التاريخيّة" أو "الشخصيّات التاريخيّة" في هذا المقام لا يُظهر إيماننا بأنّ هذه الأحداث أو هذه الأخبار مشدودة بصورة قطعيّة إلى التاريخيّ، وإنّما نحن نظهر ما يحاول الرّاوية الأخباريّ بيانه من تقديمه للأخبار الموضّحة للشعر.

2- ونشير في هذا المقام إلى مسايرة بعض المحدثين لهذا التوجّه واعتمادهم على نفس فهم أبي عبيدة لمعاني الشعر، وصلا لها بـ"نقل الواقع" وبيان مظاهره على صورتها الحقيقيّة، ومن أمثلة هؤلاء طه الحاجري في مقاله "**الرواية والنقد عند أبي عبيدة**" يقول ص66، "وقد يكون في تلك الأخبار مع هذا التقصّي، ما يتيح له (أبو عبيدة) بعض ذلك، ولكن هنالك -ولا ريب- ما لا يتيحه له غير شعر هؤلاء الشعراء الذين عاشوا في ذلك الجوّ وانطبعوا به، ولا يكاد يجد الوسيلة إليه في غير تلك الصور الشعرية التي تعبّر عنه تعبيرا دقيقا، وتصوّره تصويرا حيّا نابضا."

المناسبة بين معاني الشعر ومعاني الخبر، وهو منتج لأخبار في مقام تفسيريّ توضيحيّ، تخطّ سبيلا لفهم الشعر وتكون واسطة لإدراك معانيه.

ويمكن أن نلاحظ في الخبرين التاليين انطلاق الراوية من الشعر لتقديم أخبار تحوم حوله وتحاول أن تفسّره وتُوضّحه وهي جائلة في مداره ساعية في ركابه-وإن كان اعتمادها في الشعر دليلا على رواجها قبل إنشائه- تُوظّف في مساره وتنشأ في عالمه - خلقا ثانيا بعد خلقها الأوّل، له مناسباته وظروف إيجاده- إذ يبعثها إشارة مغمضة أو عبارة مبهمة يتلقّفها المفسّر ليصوغ عليها خبره وليُسوّغ إيراده،فيوم طيّىء الوارد في شعر البعيث يبقى في حاجة إلى بيان، إذ يعلنه الشاعر في شعره ويعسر على متلقّيه أن يُدرك وقائعه، ولذلك فإنّا نلحظ وقوف الراوية عند هذا اليوم تجاوزا للشعر في سرده لأحداثه، وإن كان منبعثا في مقامه وعلى هامشه: (من الطويل)

وَنَحنُ حَدَرنَا طَيِّئًا عَن بِلاَدِهَا وَنَحنُ رَدَدنَا الخَوفَزَانَ مُكَلَّمَا

أمّا يوم طيّىء الذي ذكر فإنّ زرارة بن عدسُ بن زيد بن عبد اللّه بن دارم لمّا حضرته الوفاة أوصى إلى عمرو بن عمرو بن ملقط الطائي، وكان هو الذي وشى بهم إلى عمرو بن المنذر اللّخمي، وعمرو بن المنذر هو مضرّط الحجارة، فحرّق من بني تميم يوم أوارة تسعة وتسعين رجلا وامرأة تمّ بها نذره، فأمر عمرا أن يغير على طيّىء، فلمّا مات زرارة أغار عمرو بن عمرو بن عدس على طيّىءٍ فقتل بشرا كثيرا وأفلته عمرو بن ملقط."[1]ونلحظ نفس الظاهرة في المثال الثاني الذي نقدّمه،في شرح أبي عبيدة لبيت جرير: (من الطويل)

وَعَمِّي رَئِيسُ الدَّهمِ يَومَ قُرَاقِرٍ فَكَانَ لَنَا مِربَاعُهُ وَنَوَافِلُهُ

قال أبو عثمان حدّثنا أبو عبيدة أنّ يوم قراقر هو يوم ذي قار الأكبر، وهو يوم الحِنو، حِنو ذي قار(...) قال أبو عثمان حدّثنا أبو عبيدة قال حدّثنا أبو المختار فراس بن حُندَق القيسيّ، قيس بن ثعلبة وعدّة من علماء العرب، قد سمّاهم فراس بن

1- النقائض: 1/ 54-46.

خندق، وأثبت الحديث الأصمعيّ فيما أثبته وعرّفه أنّ الذي جرّ يوم ذي قار قتل النعمان بن المنذر اللّخميّ عديّ بن زيد العباديّ، قال..."[1].

إنّ عبارتي "طيّىء" و"يوم ذي قراقر" الواردتين في الشعر اتّخذتا بمثابة الحافز الذي دفع راوية الشعر إلى تقديم خبرين مبينين عنهما، ذلك أنّ الراوية-المفسّر يفترض أنّ المتلقّي خالي الذهن من موضّحات هاتين العبارتين الدّالتين على يومين كبيرين في الجاهليّة. فأخرج خبريهما استنادا إلى هاتين العبارتين الشعريتين، فوجد بذلك الفضاء الملائم للتوسّع في الحكي والإخبار. ففي الخبر الأوّل يقف الراوية المفسّر عند يوم طيّىء لإحداث مجالات سرديّة تتجاوز ما أُسّس في الشعر، ثمّ يعود في موضع آخر بيانا لاسم علم يرد في نفس البيت وهو الحوفزان ليروي قصّته،"وأمّا قصّة الحوفزان، فكان من حديثه..."[2]. فالأخباريّ يفيض القول ويتوسع في بناء الخبر، ويكون الدافع إلى ذلك هو البحث عن فهم ما ورد في الشعر. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الخبر الثاني، "فيوم قراقر" الوارد في الشعر قد مثّل مدارا للخبر الذي رافقه تفسيرا وتوضيحا.

لقد مثّلت حركة رواية الشعر مجالا خصبا لإنشاء أخبار الجاهليّة وتغذية روايتها ومسوّغا لإنتاجها. ذلك أنّ الأخبار قد علقت برواية الشعر وعانقت فضاءاتها، ومنها كان مدخلها إلى الأدب فيفاعتها واستقلالها شكلا يحتوي فيما يحتويه في مداره الشعر يُوجّه مساره بعد أن نما في رحابه وجال في فُسحه. ومبحثنا -في جانب منه- موصول بتنازع الأجناس وجودَها، وتداخلها في هيئة جامعة، فالأجناس قادرة على توليد أجناس مغايرة، تنشأ عنها وتقيم إنشائيتها من مقاماتها. ولقد أقرّ محمّد القاضي هذه العلاقة القائمة بين جنسين متغايرين يؤسّس الأوّل رسوخه وشيوعه وثباته ويبحث الثاني عن مشروعيّة وجوده في حمى هذا الثابت، فيسم هذه العلاقة -تاريخيّا-

1- م.ن: 2/ 638.

2- م.ن: 1/ 47.

بالتواطؤ[1] (وهي علاقة تبادل سيادة) بين الأشعار والأخبار، وهو تواطؤ قائم في بدئه على توظيف الشعر للخبر، يستدعيه ليوضّح معانيه ويبين مقامات إنتاجه(وهو ما يهمّنا في هذا المبحث)، لذلك فقد سوّغنا لأنفسنا أن نثير مسألة تولّد شكل-هو الخبر في صورته الجامعة- من صلب جنس مغاير-هو الشعر. وظاهرة سيادة الشعر على الآداب العربيّة ظاهرة بيّنة، وهذه السيادة هي التي مكّنته من استضافة أجناس وتنشئتها قبل أن تستقلّ بذاتها وتسود بدورها. فلقد مثّل الشعر -قيمةً إنتاجيّةً وتقبّليّةً- الظاهرة الأدبيّة الأغلب في التراث الأدبيّ العربيّ، وقد تعوّدت الذائقة على تقبّله، ذلك أنّ الذائقة تتشكّل وفق السّائد، تتعوّده وتنشأ على تقبّله، فيعسر أن تسيغ غيره إن كان خاليا من مكوّنات الذائقة وسائدها، ولذلك فإنّ الذائقة التي أسّسها الشعر في التراث الأدبيّ العربيّ هي ذائقة يعسر خرقها، عَصِيبٌ فَسحُها المجال لتقبّل المغاير. وعلى هذا الأساس، فإنّا نلاحظ في "كتاب الأغاني"-على سبيل المثال- ظلالا لبدء بزوغ الأخبار في إطار رواية الشعر، إذ أنّ وجودها في هذا المحلّ ليس وجود استقلال واحتواء وسيادة، وإنّما هو وجود أسير تابع، فهي محدثة بغاية تقريب فضاءات الشعر وتأثيثها. بل إنّ "كتاب الأغاني"-وهو من أهمّ المدوّنات الأخباريّة في تراثنا الأدبيّ- لينبني برمّته على تتبّع أخبار الشعراء، وإن كان يتجاوز الشعراء في عدد من المواضع، إلاّ أنّه لا يمكن أن يعدل عن صلة هؤلاء بشعر يُقال، أو بأبيات ينجذبون إليها أو ينتجونها أو يتمثّلون بها في مَعارض شتّى. ولا غرابة في ذلك، إذ هو كتاب مؤسّس على تتبّع الأشعار والأصوات المغنّاة، لذلك فإنّه غالبا ما يصدر في ترجمته للشخصيّة المرشّحة مدارا للأخبار من بيان انتسابها إلى الفضاء الشعريّ إنتاجا.[2]

1- يقول محمّد القاضي (1998) ص541: "فليس غريبا -والحالة هذه- أن تنشأ بين الأخبار والأشعار علاقة مخصوصة معقّدة، فيها شيء من التواطؤ وشيء من الصراع...نعم، إنّ الرأي عندنا أنّ المرحلة الأولى كان ميسمها التواطؤ.."

2- انظر كلّ الأخبار الواردة في كتاب الأغاني ومنها على سبيل المثال أخبار خفاف، 18/ 22: "وهو شاعر من شعراء الجاهليّة وفارس من فرسانهم" وأخبار أبي قيس بن الأسلت، 17/ 67: "وهو شاعر من شعراء الجاهلية"، وأخبار الحارث بن وعلة، 22/ 221: "وكان وعلة الجرمي وابنه الحارث من فرسان قضاعة وأنجادها وأعلامها وشعرائها.."، وأخبار دريد بن الصمّة، 10/ 3: "ودريد بن الصمّة شاعر فحل..."

وعلى ذلك فقد سعينا إلى بيان صلة أخبار الجاهليّة برواية الشعر، واجتهدنا - دون توسّع- في إظهار علوق الخبر برواية الشعر الجاهليّ في مرحلة أولى ثمّ وقفنا على دور رواية الشعر الإسلاميّ-في قسم منه- في إثارة أخبار الجاهليّة وتوفير المناسبة لروايتها. والفاصل -فيما نعتقد- بين المظهر الأوّل والمظهر الثاني، أنّ الرّواة في تعاملهم مع الشعر الجاهليّ حاولوا البحث عن المناسبات والظروف التي أفضت بالشاعر إلى إنتاج شعره، وزجّوا بهذه الأشعار في وقائع حدثيّة سعوا إلى استخراجها من داخل الشعر أو إحاطته بها، في حين أنّ رواة الشعر الإسلامي قد انتهوا إلى إعلان أخبار الجاهليّة في مقام توضيح ما غمض من هذا الشعر والاجتهاد في تفسيره، عودةً إلى أخبار سابقة تمّ تسخيرها لفهم الشعر.

لقد حاولنا في الفصل الخاصّ ببيان مقامات إنتاج أخبار الجاهليّة أن نضبط الفضاءات التي يمكن أن تمثّل حافزا فعليّا لإنتاج هذه الأخبار، فوصلناها أوّلا بالسائد السياسيّ على مستوى مرافقتها لانصرافه إلى الاهتمام بالجاهليّة، واجتهدنا في إبانة أثر السائد السياسي في طبع هذه الأخبار بميسم مميّز، غير أنّ ما أنجزناه يظلّ سعيا في حاجة دائمة إلى حجج قويمة تسنده، وإن كنّا قد حاولنا الاحتجاج لوصل أخبار الجاهليّة في إنتاجها بالصراع القبليّ وبسلطان سياسيّ يغذّي العودة إلى الجاهليّة. ووصلناها ثانيا بمجال أدبيّ احتواها ووظّفها في خدمته، وهو الشعر، فسعينا إلى إظهار طرائق توظيفه للأخبار وإدارته لها في فضائه، وانتهينا إلى بيان علوقها به وانصرافها إلى إظهار المناسبات التي قيل فيها ومحاولة تمتين صلته بالواقع الذي أنتجه. والراوية الأخباريّ واجد الخبر في شعر يرويه ظافر بالمناسبة ذاكر للأحداث العالقة به. وفصلنا في بياننا لهذه الظاهرة بين شعر يُروى ويسبق أو يُردَف بخبر أو أخبار تؤثّث روايته وتشدّه إلى الجاهليّة وإلى أحداث معلومة أفرزته، وبين شعر إسلاميّ ينصرف قائله إلى التمثّل بأحداث الجاهليّة أو هو يذكر بعضا من وقائعها، فينصرف من ورائه الأخباريّ إلى حكاية هذه الوقائع، وإيراد أخبار تُظهر المنطلقات التي اتّكأ عليها الشاعر في مقام المفاخرة أو المهاجاة.

ووقوفنا عند بيان دور الفضاء السياسيّ أو دور الشعر في إنتاج أخبار الجاهليّة، لا ينفي وجود عوامل أخرى ساهمت بدورها في تنشيط حركة روايتها، ونذكر على

سبيل المثال الاهتمام بالأنساب[1] ففي سياق ضبط النسّابين للأنساب العربيّة أوردوا عددا مهمّا من أخبار الجاهليّة بغية الإثبات أو التدليل أو لمحض العرض. إضافة إلى جنوح المفسّرين ورواة السيرة[2] إلى التعويل على أخبار الجاهليّة في تفاسيرهم أو في ضبطهم للسيرة النبويّة.

فمآتي تولّد أخبار الجاهليّة عديدة ولا يُمكن أن تُقصر على رواية الشعر جاهليّه وإسلاميّه، ولا يمكن أن تحدّد وصلا بالفضاء السياسيّ فحسب، وإنّما هي ظواهر غلبت على إنتاجها وبرزت في هذه الأخبار، فاعتمدناها، واجتهدنا في بيان طرائق تعالقها ودورها في إنتاج الخبر، وفي افتتاق مجال أخباريّ ينصرف إلى الجاهليّة. وإضافة إلى هذه العوامل المساهمة في إنشاء هذه الأخبار، فإنّه يمكن أن نشير إلى دور رُواة ساهموا بدرجة كبيرة في صياغة الجاهليّة أخبارا تُروى حتّى عدُّوا بمثابة الحلقات الرئيسيّة أو المصادر الأساسيّة في إنتاجها. وفي هذا المقام، فإنّ عددا من الإشكالات يُرفَق ببسط هذه المسألة، ويظلّ قائما ومطروحا، لعلّ أهمّها، ما هو دور هؤلاء الرّواة في إنتاج هذه الأخبار، فهل هم محض نَقَلَة أم هم حائكو حكايات، ينطلقون من أسس متداولة في بناء أخبارهم؟ وإن كانوا على الهيئة الأولى، فما مبرّر القطيعة الحاصلة-في أغلب الأحيان- بينهم وبين الجاهليّة على مستوى تواصل سلسلة الإسناد؟ وإن كانوا على الهيئة الثانية، فما مدى الحديث عن جاهليّة فعليّة والحال أن أغلب المعطيات عنها

1- أنظر في ذلك على سبيل المثال، كتاب أبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (156 هـ- 236 هـ)،"كتاب نسب قريش". نشره وعلّق عليه: إ. ليفي بروفنيسال. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثالثة. 1982. فقد احتوى على عدد مهمّ من الأخبار المنصرفة إلى الحديث عن الجاهليّة. وانظر أيضا ما قاله فؤاد سزكين في "تاريخ التراث العربي". المجلّد الأوّل.الجزء الثاني. ص17:"وفي سياق المراحل التالية، كانت الأخبار والأنساب تشكّل موضوعين مرتبطين غالبا. فقد ذكر ابن النديم كتابا لخراش بن إسماعيل الشيباني شيخ محمّد بن السائب الكلبي(المتوفّى 146هـ/ 763م)،عنوانه "كتاب أخبار ربيعة وأنسابها" يضاف إلى ذلك "كتاب النسب العتيق في أخبار بني ضبّة"، وربّما كان الطابع المزدوج لهذه الكتب السبب الرئيسي الذي دفع إسحاق الموصلي إلى أن يصف "كتاب الأنساب" الذي ألّفه صديقه الزبير بن بكّار بأنّه "كتاب الأخبار."

2- انظر على سبيل المثال الجزء الأوّل من "السيرة النبويّة" لابن هشام. المكتبة العلميّة. بيروت. لبنان. (د.ت). فقد انصرف فيه برمّته تقريبا إلى إيراد أخبار الجاهليّة، لضبط سيرة النبي.

منقولة بوساطة قناة الأخبار؟ وكيف يمكن أن نتحدّث -على سبيل المثال- على صورة أبي عبيدة في أخباره، والحال أنّ عددا جمّا من الرّواة يكمنون خلفه وأمامه، يتناقلون الخبر ويتزيّدون فيه كما شاؤوا، ولهم ذلك، "فالقداسة"في نقل النصوص لم تلحق إلاّ النصوص الدينيّة!!

فجملة هذه المسائل، إضافة إلى مسائل أخرى نجريها في مقبل عملنا، هي التي حدت بنا إلى إفراد فصل للبحث في دور الرّواة في إنتاج أخبار الجاهليّة.

الفصل الثاني

مصادر إنتاج أخبار الجاهليّة

تتناقل الخبر أسماءٌ عديدة يشفُّ عنها سنده ويُعلنها، وفي مسار هذه الرحلة التي قد تطول وقد تقصر، يعسر أن نظفر بصاحب له يمتلكه ويُرَدُّ إليه[1]. فهو مصبوغ بآثار جماعة من الرّواة، خاصّة إذا ما صدرنا من إقرار سمة الشفويّة التي وُسمت بها هذه الأخبار في بدء نشأتها، والغالبة على إنتاجها في مراحلها الأولى، ولذلك فإنّ الحديث عن مصدر مفرد ينتج الخبر أمر لا يقوم له سند، خاصّة وأنّ حلقات الأسانيد

1- يُقرّ محمّد القاضي (1998) ص: 222، أنّ "التنقيب عن بصمات المؤلّف الأصلي للخبر أمر لا جدوى منه."

يمكن أن تُفرد راوية بعينه يُنسَب إليه الخبر، والحال أنّ موضعه هو موضع القناة[1] لا موضع الإنتاج الأوّليّ[2].

وإثارتنا لمبحث مصادر الإنتاج تدفعنا إلى التعرّض لظاهرتين في ضبط هذه الأصول التي ساهمت بدورها في إنتاج أخبار الجاهليّة وإخراجها، تخصّ الأولى التعرّض لرواة أول مجاهيل تُسند إليهم الأخبار ويُخرجها عنهم جملة من الرّواة تختلف مواضعهم نقلا أو مساهمة في وسم الخبر بسمة مخصوصة أو جنوحا إلى إعادة تشكيله. وتخصّ الثانية التعرّض لرواة علماء معلومة أسماؤهم، شيوعا ورواجا، إذ تظلّ تنتقل من مركز في الرواية إلى آخر، حدّ بلوغها الهيئة الأخيرة التي تشكّل عليها. وهما ظاهرتان مهمّتان في بناء الخبر، قد تضيئان لنا قبسا نهتدي بضيائه في بيان العلاقة بين أصول مجهولة وأصول معلومة وفي السعي إلى جبّ المسافة[3] الفاصلة بين زمن وقوع الحدث وبين زمن روايته وتنشئته خطابا أدبيّا. فما يميّز أخبار الجاهليّة أنّ أغلبها يُنتج في زمان غير زمانها، ويُخرَج بالضرورة -تبعا لإنتاجها- في غير زمانها.

ومن خصال الخبر الثابتة أنّه لا يُلازم حالا واحدة، وإنّما هو متقلّب عبر الألسن مرتحل من راوية إلى آخر، وكلّ فاعلٌ فيه بقسط، ناظرٌ فيه انطلاقا من مقام مخصوص.

1- نقصد بالقناة في صورتها النظريّة مجموع الرّواة الواصلين بين من ينتسب إليه الخبر إعلانا إسناديّا، وهو الرّاوية الأخير المسمّى في الإسناد، وبين من يمثّل آخر الرّواة المتقبّلين للخبر، وهو مخرجه والمتصرّف في إسناده. وهي في تحديدنا موضع يمكن أن يتحدّد به الاسم الوارد في الإسناد وأن تُضبط وظائفه.

2- نقصد بالمنتج الأوّل الشخص الذي يُرَدُّ إليه الخبر في آخر سلسلة السند، فهو وفق المُعلَن أوّل من أصدره وأنتجه.

3- يتوسّع حمّادي صمّود في بيان هذه المسافة في الأخبار في معرض تحليله لنصّ من الإمتاع والمؤانسة، فيفصلها إلى مسافتين المسافة الأولى، وهي مهمّة جدّا، وهي مسافة زمن المعيش وزمن الكتابة أو إن شئنا مسافة الفعل وذكرى الفعل، فإخراج النصّ مخرج الشهادة، تغييب لفعل الذاكرة في ما تسترجع وتتذكّر، وطمس لقدرتها على تحويل الأحداث وانتقائها وإخراجها على هيئة مغيّرة منتقاة (...) أمّا المسافة الثانية، فهي مسافة الحدث والتعبير عن الحدث باللّغة، لأنّ اللّغة لا تنقل الأشياء كما هي وإنّما تُقيم هيآتها وتبني أمثلتها..." الأدب وتحويل الواقع" في من تجليّات الخطاب الأدبيّ: قضايا نظريّة سلسلة تحديث. دار قرطاج للنشر والتوزيع. تونس. الطبعة الأولى. 1999.

ولقد اتّصلت هذه الأخبار في روايتها بأسماء أو صفات لأشخاص تصدر عنهم هذه الأخبار، فهم بمثابة المجاهيل، لا ندرك في الغالب عنهم شيئا يُذكَر، وبأسماء أخرى، تبدو على نقيض الأولى، متعاودة، ثابتة، مصادرَ إنتاج لها عميق الأثر في إنشائها وترويجها، فنحن-في هذه الأخبار- إزاء أسماء تُذكَر وتُنكَر وأخرى يُعلى من شأنها ويُحتَفى بها، ويمثّل هؤلاء أساسا الرّواة الأوَل الذين تصدّروا رواية الأخبار وكانوا متّكأ الرّواة اللاّحقين وسندهم، حتّى أصبحت هذه الأسماء بمثابة الحجّة في حدّ ذاتها، إذ أنّ إيرادها كفيل لضمان نفاذ الخبر وتحقيق "مصداقيته".

إنّ إثارة مبحث مصادر الرّواية في أخبار الجاهليّة تفضي بنا إلى طرح عدد من المسائل في تحديد الرّاوية المصدر[1]، فهل هو الرّاوية الأوّل أسبقيّةً تاريخيّةً أو هو الرّاوية الأوّل قيمةً علميّةً وروايةً؟ فإذا ما جمعنا بين الأسبقيّة في الزمن والقيمة في الرّواية، فهل يمكن أن يتناول عدد من الرّواة-المصادر بعضهم عن بعض الخبر الواحد دون تصرّف أو إضافة؟

ثمّ لماذا يقع إبراز بعضٍ من الرّواة وموضعهم موضع النّاقل، فتُسنَد الأخبار إليهم دون غيرهم من النّقَلَة، ودون الرّاوية-الأصل؟

والأهمّ من كلّ ذلك هل أنّ التواصل الإسناديّ في أخبار الجاهليّة ضامن لوصل الخبر ردّا له إلى الجاهليّة؟ أي هل من صلة تُلحَظ بين الجاهليّة ورُواتها؟

إنّ كلّ هذه المسائل إضافة إلى مسائل أخرى تُبديها ثني هذا المبحث تمثّل هواجس أساسيّة في جلّ مراحل بحثنا، وهي أسئلة لا تخصّ أخبار الجاهليّة فحسب، وإنّما هي تشمل الخبر بصورة عامّة، وإن كانت بادية بصورة أعمق في هذه المدوّنة.

ولقد آثرنا أن ننفذ إلى هذه المسائل من زاويتين، نهتمّ في الأولى بمبحث الرّواة الأوَل ودورهم في إنتاج هذه الأخبار، ونعرض إلى مظهرين يميّزان تجلّي هؤلاء الرّواة، وهما الرّواة المجاهيل والرّواة المعروفون. ونهتمّ في الثانية ببيان رحلة الخبر، وما قام به عدد من الرّواة من إعادة إنتاج لهذه الأخبار.

1- نقصد بالرّاوية المصدر أساسا الرّاوية الذي ينتهي إليه إنتاج الخبر، فهو أصل إنشائه إعلانا إسناديّا.

- الرّواة الأُوَل:

إنّنا نقصد بالرّواة الأُوَل، أولئك الذين وردت أسماؤهم في نهاية الإسناد، وهي الأسماء التي يُرَدّ إليها الخبر صدورا أوّليًا، ولقد تبيّنّا في تعاملنا مع مدوّنة أخبار الجاهليّة الواردة في "كتاب الأغاني"، عددا من المظاهر التي تفضي بنا إلى نتائج مهمّة، في خصوص بيان أصول إنتاج الخبر، فنحن إزاء طرفين لكلّ منهما خصائصه وسماته، أمّا الطرف الأوّل فإنّه متمثّل في رُواة تُذكَر أسماؤهم، ولكنّها تظلّ غائمة، غامضة، أو هي تُذكر بصفاتها أو بنسبتها إلى المكان مدار الحدث، وهذا الطرف هو الذي نعتناه بالرّواة المجاهيل، وأمّا الطرف الثاني فإنّه يمثّل رواة لهم أصداؤهم في مجال رواية الأخبار، معلومة أسماؤهم، وهم الرّواة المعلومون أو هم الرّواة العلماء. ونحن بذلك نفصل بين مرحلتين مهمّتين من مراحل تكوّن الخبر، مرحلة ما قبل "التأسيس العلميّ" المدرسيّ ومرحلة التأسيس وما يليها.

أ- الرّواة المجاهيل:

نقصد بالرواة المجاهيل المصادر التي اتّكأ عليها الرواة العلماء، وهم يُعدّون من أوائل منتجي أخبار الجاهليّة، من رواة أعراب يُنسَبون إلى قبائل معيّنة[1]، ويسمّون انتسابا إليها، أو رواة تُسمَّى أسماؤهم على غير شيوع أو رواج[2]. ولقد اتّخذنا لهؤلاء الرّواة صفة المجاهيل، تمييزا لهم من الرواة المعلومين، وبيانا لعدم الاحتفاء بهم، على غير ما تمّ في مباحث تأصيل الرواية اللّغويّة[3]، إذ نجدهم ينصرفون إلى إبراز هؤلاء الرواة الأعراب وإظهار مراتبهم في الرواية وتتبّع أخبارهم، وهو ما لا نظفر به في دراسة أغلب رواة أخبار الجاهليّة الأعراب، وإن كانت غير منفصلة عن رواية اللّغة.

1- انظر الجدول الخاصّ بالمصادر المطلقة.

2- انظر الجدول الخاصّ بالمصادر المطلقة.

3- انظر أساسا عبد الحميد الشلقاني في كتابيه: "رواية اللّغة" و"الأعراب الرواة".

ولقد تبيّنّا من الجدول الذي ضبطناه للرواة المجاهيل[1] أنّ عددا مهمّا من أخبار الجاهلية لا تُرَدُّ إلى راوية معلوم، ومن أولائك الرّواة الذين عُرِفوا برواية أخبار الجاهليّة، كما تبيّنّا نسبة مهمّة من الأخبار تُسنَد إلى رُواة يُذكرون مصادرَ إنتاج مرّة واحدة[2]، وهي ظواهر قد حفزتنا على الوقوف عند هذه المصادر المطلقة[3] أو المسمّاة.

• **المصادر المطلقة:**

إنّ المصدر المطلق هو المصدر الذي يشدّ فيه "المؤلّف"[4] الخبر إلى عدد من النقلة الذين يتداولونه عن أصل لا يسمّى أو هو يُطلق شيوعا دون ناقل معلوم يُثبَتُ، ودون منتج أصليّ يُحدّد. فهو خبر تنشئه صفة، يضبطها ناقله، وتُصبح الصّفة بديل الضّامن الاسميّ، فهي الضّامن داخل عمليّة التعاقد بين صاحب الخبر وقارئه للإيمان بما يُقال وتصديقه ضمن العمليّة الإيهاميّة التي يأتيها أحد النّقَلة أو جامع الخبر ومصنّفه ومرمّمه. وهذه الصّفة كما سلف أن ذكرنا هي فعل قوليّ تأثيريّ تُضبَط فيه العلاقة العلميّة أو الأخلاقيّة بين هذا المصدر المطلق وبين النّاقل أو يُرَدُّ فيه صاحب الخبر إلى القبيلة منبع حدوث وقائع الأخبار أو إلى الشخصيّة تواصلا معها وصحبة.

ويمكن أن نقف على بعض هذه الطرائق المبينة عن أشكال استناد النّقلة على هؤلاء الرّواة المعلومين بصفاتهم أو بانتمائهم أو المعمّاة أسماؤهم وصفاتهم فلا نظفر بأثر لهم يُثبَت.

فأمّا الضرب الأوّل الذي نُعاين وجوده فهو ذاك القائم على ضبط علاقة ما بين النّاقل وبين صاحب الخبر ومثاله : " قال الزبير وحدّثني مصعب بن عبد الله قال حدّثني الضحّاك ابن عثمان عن عبد الرحمان بن أبي الزناد عن موسى بن عقبة قال

1- انظر الجدول الخاصّ بالمصادر المطلقة.

2- انظر الجدول الخاصّ بنسب ظهور الرواة المصادر.

3- نقصد بالمصادر المطلقة، تلك التي لا تُذكر بأسمائها وإنّما تُذكَر بصفاتها أو بذكر انتسابها إلى المكان أو بعلاقة الرّاوية النّاقل بها.

4- انظر محمّد القاضي (1998)، ص: 182.

سمعت من أرضى يُحدّث، إنّ زيد بن عمر كان يعيب على قريش ذبائحهم ...". إنّ هذا السّند بيّنة على ظاهرة تدقيق أسماء النّقَلة وإهمال اسم الرّاوية الأوّل للخبر، رغم أنّ العلاقة بين النّاقل الأوّل والرّاوية الأوّل قائمة على حسن الظنّ به وتصديق أقواله، فتُثبَت الصّفة ويغيب الاسم. وتصير المسألة أشكل وأعقد عندما نطّلع على خبر لاحق لهذا الخبر في الترتيب، يقوم على نفس المراحل الإسناديّة التي قام عليها الخبر الأوّل ويقوم أيضا على نفس المقصد وإن اختلفا من حيث تصريف الأحداث والأقوال والمقامات الدّالة على هذا المقصد، وهذا الخبر يُسنَد إلى الزبير أيضا مركزا روائيّا ورأسا في سلسلة الإسناد : " قال الزبير: وحدّثني مصعب بن عبد الله عن الضحّاك بن عثمان عن عبد الرّحمان بن أبي الزناد عن موسى بن عقبة عن سالم بن عبد الله أنّه سمع عبد الله بن عمر يُحدّث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أنّه لقي زيد بن عمر بن نفيل بأسفل بلدح..."[2].

إنّ مقصد الخبرين قائم على رفض زيد بن عمر أكل الذبائح التي لا يسمّى عليها اسم الله، والمُلاحَظ أنّ ما أثبتناه في الإسناد الأوّل تغييبا لاسم الرّاوية المصدر واكتفاءً بالصفة عن ذكر اسم الموصوف يسقط في الإسناد الثّاني، إذ تتواصل الرّواية بلوغا إلى الرسول. وما حدا بنا إلى إلحاق السّند الأوّل بثان يُغايره هو التّشاكل القائم في قنوات التبليغ والنّقل. ففي كلا الإسنادين يأخذ الزبير عن مصعب ويأخذ مصعب عن الضحّاك بن عثمان ويأخذ الضحّاك عن عبد الرّحمان بن أبي الزناد الذي يستند على موسى بن عقبة وهو آخر الثوابت في أسانيد الزبير بن بكّار وعنه تتنوّع المصادر إطلاقا وتسييجا، وهي مسألة نثيرها في العنصر اللاّحق بيانا لثبات بعض قنوات النقل على هيئة واحدة وصورة واحدة. ولعلّ تواصل الإسناد الثاني راجع إلى صلته بالرسول إذ تصير أواصر الوصل مقدّسة وواجبة ضرورةً، فإذا ما نأى الخبر عن الرسول، تمتّع الرّاوية الموزّع (ونقصد بالراوية الموزّع منتهى ثوابت قنوات الرواية وهو

1- كتاب الأغاني: 3/ 119.

2- م.ن: 3/ 120.

الرّأس الذي منه تتفرّع مصادر الإسناد، مثل موسى بن عقبة في هذا المقام) بفُسحَة من الحريّة في تحمّل الخبر وعدم البحث عن رأسه الأصليّ.

وقد تكون إعادة الخبر بإسنادين متقاربين وغير متطابقين، راجعة إلى ما تمثّله النواة الحدثيّة من قيمة بالغة في مجال نوسّع الحديث فيه في الباب الثالث من هذا العمل، وهو مجال التمهيد للإسلام، بيانا لشخصيّات قد آمنت بمبادئ الإسلام قبل حلوله. ولا غرابة أن يُخرج الزبير بن بكّار (ت 256 هـ) الخبرين وهو من هو في مجال الرواية[1]، ثقةً واشتغالا على الأخبار التي تغلب عليها سمة التمهيد للإسلام.

إنّ الصورة الأولى التي أردنا إبانتها من هذه الأسانيد المطلَقة هي اضطلاع الرّواة في بناء الأسانيد بإثبات أسماء وإهمال أخرى، وإهمال هذه الأسماء في هذا الشقّ الأوّل قائم على تقديم ضمان تكفل به الصّفة التي يُسندها "النّاقل" إلى الرّاوية الأوّل مشروعيّة نفاذ الخبر إضافةً إلى وجود أسماء "ثقاة" يتداولون الخبر ويصرف وجودهم القارئ عن مواصلة تتبّع الأصل. ومثال ذلك، تدخّل بعض الأسماء الضامنة لما يُروى إطلاقا، في صورة غياب صاحب الخبر، وهذه الأسماء تمثّل حجّة في ذاتها، دينيّا أو أدبيّا، فلا يُنظر إلى من يكمن خلفها من رواة، ولا يُنظر إلى الإثبات أو الإطلاق، كضمان موسى بن عقبة أو حسّان بن ثابت[2]. وهي صورة من صور حضور أسماء رائجة تُغني عن أسماء أخرى، وتكفل الخبر إذ تحضر في سنده.

وأمّا الضرب الثاني من ضروب تجلّي الرّواية المطلَقة، فإنّه قائم على ترسيخ الرّواة الغائبة أسماؤهم أو المغيّبة في فضاء الأحداث، انتماءً إلى المكان الذي صدرت عنه الشخصيّة أو صدرت عنه الوقائع في الخبر، أو هو قائم على ضبط علاقة ما تصل الرّاوية بالشخصيّة المُرشّحَة مدارا للخبر. وبذلك يصبح الانتماء إلى المكان حُجّة داعمةً

1- يُعرّفه ابن النديم في "الفهرست". (تحقيق إبراهيم رمضان. دار المعرفة. بيروت لبنان. الطبعة بقوله: "أبو عبد الله الزبير بن بكّار (...) من أهل المدينة، أخباريّ، أحد النسّابين، وكان شاعرا صدوقا وراوية نبيل القدر، ولي قضاء مكّة، ودخل بغداد عدّة دفعات..".

2- "كتاب الأغاني": 11/ 32 :"...رجل قد سمّاه حسّان بن ثابت"

للخبر، تُقصي الاسم ويغلب وجودها وجوده، فإثباتها أنفذ من إثباته، ومثال ذلك هذا السّند المبين عن ردّ الراوية الأصليّ للخبر إلى المكان الذي حوى الشخصيّة المُتحدَّث عنها "أخبرني الحسين بن عليّ قال حدّثنا أحمد بن سعيد الدمشقيّ قال حدّثنا الزبير بن بكّار قال حدّثني عليّ بن المغيرة عن ابن الكلبيّ عن رجل من النمر بن قاسط قال:..."[1] وقد ورد هذا الإسناد في خبر يخصّ عمرو بن كلثوم وهو من وائل بن قاسط، فصاحب الخبر مشارك لصاحب الأحداث في الانتماء القبليّ، وهذه المشاركة أنفذ من إيراد اسمه، إذ تحلّ الصّفة محلّ الاسم بسبب من ضمانها لحسن تقبّل الخبر، ولقدرتها على تعميق وصله "بالواقع". وكذلك الأمر في أسانيد أخبار عديدة تُعتَمد فيها هذه الخُطّة القوليّة في بناء الأسانيد.

وتؤدّي طريقة وصل الرّاوية الأصليّ بالشخصيّة نفس هذه الوظيفة (من أدرك شأس ابن زهير) إذ يتواصل الإسناد بلوغا إلى الشخصيّة التي تدور عليها الأخبار، فيُشدّ إليها نقلا لأقوالها وأفعالها وأحوالها، عن طريق الصّحبة أو المعاينة أو المعاصرة.

وهذه الصيغ من إطلاق الرّواة لا تُقلق النّقلة ولا تنفّرهم من رواية الخبر، بل هم يعتمدونها إسنادا موازيا لمظاهر الإسناد الأخرى. غير أنّ صيغةً من الإطلاق الذي لا يُحَدَّد بما يضبط جموحه، قد دفعت النّقلة إلى النّفور من تحمّلها، وهو المظهر الممثّل للضرب الثّالث من ضروب تجلّي مصادر رواية أخبار الجاهليّة، وهو ضرب يغاير الضربين المذكورين، وإن اجتمعا واشتركا في عدم تسميّة صاحب الخبر الأصليّ، وهو ما اجتهدنا في نعته **بالرّواية السّائبة** نفيا لمصادر النّقل ولمصادر الإخراج والإنتاج، إذ تتجمّع الأسانيد في أفعال دالّة عليها دون أسماء تُرَدَّدُ وتتحمّل إنتاج الخبر ونقله.

وهذه الأفعال المُستعمَلة أساسا هي "قال" و"زعم" و"ذكر"[2]، إسنادا إلى المُفرَد أو إلى الجمع. وأكثرها استعمالا هو فعل "زعم"، وهو في هذا المقام وفي هذه الأخبار بالذّات فعل حكاية دالّ في أغلب إجراءاته على موقف المؤلّف تجرّدا ممّا يتبعه من متون

1- م.ن: 11/ 53.

2- انظر الجدول الخاصّ بالمصادر المطلقة.

وتخلّصا من تحمّل الخبر رغم الاضطلاع بإثباته وتدوينه. وقد ورد في "لسان العرب" أنّ "الزّعم: الكذب ...الزعم والتزاعم أكثر ما يُقال فيما يُشكّ فيه ولا يحقق، وقد يكون الزّعم بمعنى القول"[1] وقد أورد صاحب اللّسان أيضا، "وقال اللّيث: سمعت أهل العربيّة يقولون إذا قيل ذكر فلان كذا وكذا، فإنّما يقال ذلك لأمر يُستيقَن أنّه حقّ، وإذا شكّ فيه فلم يُدر لعلّه كذب أو باطل، قيل زعم فلان"[2] فالزّعم يمكن أن يكون – وفقا لابن منظور– رديفا للقول، غير أنّ الأصبهاني قد أجرى هذا الفعل في عدد من المواطن على غير هذا المعنى ذلك أنّ السّياق الذي أورد فيه فعل "زعم" كان متضمّنا لمعنى التجرّد والابتعاد عن مسؤوليّة رواية الخبر، بل إنّه يوحي بأنّ الخبر –بإطلاق إسناده – يعسُر أن يطابق الواقع، إذ أنّ هذا الفعل ورد في أغلب المواطن مُسنَدا إلى المجهول أو إلى الغائب. ومثاله: "وزعموا أنّ حاتما خرج في الشّهر الحرام يطلب حاجة، فلمّا كان بأرض عنزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفّانة، أكلني الإسار والقمل، قال: ويلك، والله ما أنا في بلاد قومي، وما معي شيء، وقد أسأت إذ نوّهت باسمي، وما لك مترك. فساوم بين العَنَزيّين فاشتراه منهم، فقال خلّوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتّى أؤدّي فداءه، فأتي بفدائه."[3]

إنّ ما حفزنا على إثارة هذه المظاهر رصدا لها في أخبار الجاهليّة هو ما عايناه من تدقيق مبالغ فيه في بعض المواطن في إثبات أسماء الرّواة وتعريفهم وضبط صفاتهم والاجتهاد في إسنادها أساسا إلى رواة معلومين يحضون بثقة الذات المتلقيّة، وفي مقابل ذلك نظفر بأخبار تمرق في بناء أسانيدها عن هذا التدقيق. والعجيب أنّ إهمال الأسماء أو ذكر أسماء غير معروفة لا يمسّ الرّواة النّقلة وإنّما هو يلحق صاحب الخبر أو الرّاوية الأصليّ له، رغم وجود عديد الإشارات الدالّة على معرفة النّاقل به وتواصله معه[4].

1- ابن منظور: "لسان العرب". دار صادر. بيروت. ج12. ص267.

2- م.ن: ج12. ص264.

3- "كتاب الأغاني": 17/ 302.

4- انظر الجدول الخاصّ بالمصادر المطلقة، وخاصّة "المصادر ذات العلاقة بالناقل".

فهذه الرّواية المطلقة يمكن أن تعود -إضافة إلى المحافظة على اتّصال أسانيد الأخبار- إلى سببين نعلّل بهما المصادر غير المسمّاة أو المجهولة لرواية أخبار الجاهليّة. أوّلهما راجع إلى شيوع الخبر وانتشاره حتّى صار من قبيل الإرث المشترك تداولا بين النّاس أو تداولا بين الرّواة وبذلك فإنّ نسبه لا قيمة له إذا صدرنا من أنّ الإسناد ضامن لنفاذ الخبر ولحسن مقروئيّته ولجودة تقبّله. وثانيهما عائد إلى ما أثبته ناصر الدّين الأسد ومن بعده محمّد القاضي من أنّ الرّواة الأول لم يكونوا مهتمّين بالإسناد بنفس القدر الذي أصبح عليه اللاّحقون.

ويمكن أن نتبيّن هذه المظاهر التي يبدو عليها هذا الراوية وطرائق تواصله مع الناقل في الجدول الخاصّ بالرواية المطلقة[1] الذي حاولنا أن نضبط فيه هذه الظواهر .

إنّ الجدول[2] الذي ضبطناه، وحاولنا فيه أن نُحدّد المصادر المطلقة، مبين عن أشكال ظهور جملة من الرواة الذين احتلّوا موقعا مهمّا في إصدار أخبار الجاهليّة، ومحيل إلى ظاهرتين مهمّتين أولاهما ردّ الأخبار في إنتاجها إلى "شهود عيان" أو إلى "ورَثَة الخبر" انتماءً إلى المكان الذي حوى حوادثها، وثانيهما موصول بإهمال تقصّي الأسماء في إسناد هذه الأخبار إلى رواة لا يُحدّدون صفةً ولا انتماءً إلى المكان ولا معرفة بالشخصيّة التي تدور عليها أحداث الخبر، وإنّما هو فعل الحكاية يُسنَد إلى فرد أو إلى جماعة، دون حدّ يُضبَط، أو تسييج لإطلاقيّة الإسناد. غير أنّ هذين المظهرين تحديدا وإطلاقا تامّا يحيلان معا إلى المصادر المطلقة، غير المسمّاة، والتي تأسّس عليها عدد مهمّ من هذه الأخبار، منها ما يمثّل حجّةً تؤصّل الخبر بضبط علاقة الراوية بالمكان أو بالشخصيّة، ومنها ما يمثّل حجّة بإثبات رواجه وشيوعه، وفي كلتا الحالتين فإنّ الأسماء لا قيمة لها أمام إثبات الصفة الدالّة على علاقة فضاء الخبر براويه أو أمام الإيحاء بأنّ الخبر شائع بين النّاس ودارج.

• الرواة الأعراب:

1- انظر الجدول الخاص بالمصادر المطلقة.

2- انظر الجدول في الملحق.

وهنالك ظاهرة ثانية يمكن أن نشير إليها في إطار بياننا لمصادر رواية أخبار الجاهليّة وفي إطار الرّواة المجهولة أسماؤهم وتتمثّل هذه الظاهرة في وجود رواة استند إليهم الرّواة -العلماء في روايتهم لأخبارهم، وهم الرّواة الأعراب[1]. ذلك أنّ الرواية عن أعراب قد حافظوا على مقوّمات الجاهليّة، وعلى مظاهر حياة أسلافهم وطرائقها، من الخطط المعتمدة في بناء الخبر التي تضفي عليه ظلالا من آثار هذا الماضي المرصود، تجلّله بهالة تصله بأواصر متينة ينشدّ إليها، فيتأصّل وتظهر جذور له تعمّق ترسيخه في "الواقع" الذي من المفترض أن يكون قد نشأ فيه[2]. ولذلك فإنّا نلاحظ وجود عدد من الأخبار تُسنَد في إنشائها إلى بعضٍ من الأعراب المعروفين أو المجهولين، غير أنّ معرفتهم أو نكرانهم موصول بدرجة استفادة الرّواة العلماء منهم، وهذه الأخبار المنتهية في إسنادها إلى أعراب قليلة في أسانيد أبي الفرج، فهو لا يهتمّ في أغلب أسانيده بتوصيلها أو بتتبّع مصادر الرّواة العلماء، وإنّما الأغلب الأعمّ من أسانيده في رواية أخبار الجاهليّة ينتهي بهؤلاء الرّواة الذين غلبوا أو غلّبهم حتّى يظهروا في هيئة الرّواة الأصليين أو المصادر الأولى التي لا تعود إلى أطراف سابقة أو رواة سابقين يستقون منهم أخبارهم، فكأنّنا بأبي الفرج كان على وعي تامّ بأدوار هؤلاء الرّواة وبقدرتهم على حياكة الأخبار حتّى وإن استقوها -حقيقةً- من أعراب البادية. غير أنّ هذا لا ينفي وجود حركة مهمّة كان للأعراب فيها الأثر البالغ من حيث توفير مادّة الحكي الأساسيّة التي يصوغها الرواة. وعلى ذلك، فإنّا نتبيّن حركة مزدوجة في علاقة الرواة العلماء بالأعراب أخذا عنهم عن طريق طلبهم والسعي إليهم، وفي مرحلة ثانية يكون الأخذ بعرض المادّة على الرّواة العلماء وهم في مواقعهم بعد أن وعى الأعراب بما

1- يشير شوقي ضيف في "العصر الجاهلي" ص148، إلى أخذ الرواة العلماء عن الأعراب، ورحيلهم إلى البادية لتقصّي أشعار الجاهليين والأخبار الحافّة بها، يقول: "...وأهمّ هؤلاء الرواة (الذين رووا الشعر الجاهلي وأخبار الجاهلية وفسّروا هذا الشعر وأحاطوه بظروفه التاريخيّة) أبو عمرو بن العلاء وحمّاد الراوية وخلف الأحمر ومحمّد بن السائب الكلبي والمفضّل الضبّي، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحيانا ليستقي الأشعار والأخبار الجاهليّة من ينابيعها الصحيحة، وكان من البدو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدّهم بما يريدون."

2- يذهب عبد الحميد الشلقاني في "رواية اللّغة" ص206، إلى أنّ "الوجه البدوي كان سمة من سمات التوثيق"

يحملونه من مآثر أجدادهم، فطلبوا علماء الرواية يزوّدونهم بما لديهم من واقع حياتهم وصلا له بما مضى وبمن مضى[1]. ولقد أشار عدد من الدّارسين إلى أنّ الرّواة العلماء[2] استندوا في رواية أخبارهم عن الجاهليّة إلى الأعراب، يأخذون عنهم أخبار القبائل وأخبار الشعراء وأخبار من اشتهر من أسلافهم ومن كانت لهم مآثر أو مثالب تُذكر في الجاهليّة[3]، غير أنّه من العسير أن نتتبّع هؤلاء الرّواة وطرائق أخذ العلماء عنهم، ولقد اجتهدنا في استخراج هذه الأسماء ومحاولة الوقوف عليها وبيان دورها في صياغة صور عن أخبار القبائل أساسا، غير أنّ اجتهادنا انتهى إلى فراغ، بسبب من عدم توفّر مادّة عن هؤلاء الرّواة، ممّا عسّر علينا البحث، وكدنا نُضرب عن إثارة هذه المسألة، إلاّ أنّ بعضا من الظّواهر بانت لنا جديرة بالاهتمام، فآثرنا تتبّع سبلها، علّنا بذلك نفتح طريقا لمزيد الاهتمام بهذا المسلك، وإن كانت شعابه شائكة.

فممّا لاحظناه في منتهى أسانيد أبي الفرج الأصبهاني في الأخبار التي يرويها عن الجاهليّة، أنّه يعتمد على عدد مهمّ من الرّواة الذين يذكرهم مرّة واحدة[4]، فأسماؤهم غير متواترة، ومن الصّعاب التي ذكرناها سابقا أنّا لم نظفر بتعاريف بيّنة لهذه الأسماء، غير أنّا وقفنا على النزر القليل منها، وهم الرّواة الأعراب الذين استند إليهم بعض الرّواة العلماء. ولئن كانت ظاهرة الرّواية عن الأعراب دارجة ورائجة في المباحث اللّغويّة، اهتمّ بها السّابقون واللاّحقون، فإنّها مسألة مهملة في المباحث الأدبيّة.

1- نجد إشارات عديدة إلى دخول الرّواة وخاصّة منهم رواة اللّغة إلى البادية طلبا للغريب وتقصيّا لإجراء الأعراب للّغة وضبطا لبعض الاستعمالات، وجمعا للشعر الجاهلي وللأخبار الحافّة به، كما نجد إشارات عديدة إلى خروج الأعراب من بواديهم ونزولهم إلى الحواضر عرضا لما يحملونه ويطلبه منهم هؤلاء الرّواة.من ذلك ما يشير إليه الشلقاني في كتابه **"الأعراب الرّواة"**. دار المعارف. مصر 1977. ص205 من رحلة الفقعسي إلى بغداد، واتّصاله بعلماء الرّواية ومدّهم بمآثر بني أسد وأخبارها.

2- ونقصد بالرّواة العلماء الرّواة المعلومين الذين تصدّروا لرواية الأخبار.

3- نذكر من هؤلاء الدّارسين أساسا: طه الحاجري في مقال له بعنوان **"الرواية والنقد عند أبي عبيدة"** ص65. وعبد الحميد الشلقاني في كتابه **"رواية اللّغة"** ص75وص171. وكذلك في كتابه **"الأعراب الرّواة"** ص90.

4- انظر الجدول الخاصّ بإحصاء نِسَب ورود الرّواة المصادر لأخبار الجاهليّة.

ومن هذه الأسماء التي وردت في أسانيد أبي الفرج نذكر عيسى بن دأب[1] ويعرّفه صاحب الفهرست بالقول التالي: "أبو الوليد عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، وهو كنانة بن أبي الشداخ، وله عقب بالبصرة، وأخوه يحيى بن يزيد، وكان أبوهما أيضا عالما بأخبار العرب وأشعارها، والأغلب على آل دأب الأخبار."[2] و"الفقعسي" وهو من الأعراب وفقا لما يشير إليه ابن النديم[3]، ويُردّ إلى قبيلة بني أسد وهو صاحب أخبارها ويُظهر في ترجمته لسان حالها، ومزوّد الرّواة بأخبار هذه القبيلة[4] وصبار بن عيينة[5]. غير أنّ وجود هؤلاء الرّواة قليل في أسانيد أبي الفرج. والحقيقة أنّنا نظفر بعدد مهمّ من الأسماء الواردة في أواخر هذه الأسانيد، وهي أسماء لا نعلم عنها شيئا، ولسنا ندري هل تمثّل الرّواة الأعراب، أم هم رواة آخرون لاعلاقة لهم بحياة البدو، وللأسف فإنّنا في الغالب الأعمّ نجهل هذه الأسماء جهلا تامّا ولا توفّر لنا كتب التراجم أيّ مادّة عنها. ونلاحظ في عدد من المؤلّفات الحديثة إقرارا باستفادة الرّواة- العلماء من الأعراب ممّا أدّى بهم إلى نتائج وصلوا بمقتضاها بين الأخبار المرويّة عن الجاهليّة وبين الجاهليّة إثباتا لتواصل الأسانيد، ومن ذلك ما يقوله عبد الحميد الشلقاني في شأن أخذ أبي عمرو الشيباني عن الأعراب، "ومن الذين رحلوا إلى البادية أبو عمرو الشيباني، فقالوا إنّه دخل البادية ومعه دستيجان حبرا فما خرج حتّى أفناهما، يكتب سماعه عن الأعراب..."[6]، غير أنّنا نلحظ في تتبّعنا للأسانيد التي وُجد فيها أبو عمرو الشيباني أنّه لم يُسنِد أخباره إلى أعراب وإنّما كان في أكثر أخباره منتهى

1- ورد في إسناد خبر أميّة بن أبي الصلت. كتاب الأغاني: 4/ 129. وانظر أيضا نفس المصدر:17/ 214، و21/ 168.

2- ابن النديم: "الفهرست" ص119.

3- م.ن: ص72.

4- يُعرّفه الشلقاني في كتابه "الأعراب الرّواة" ص204 .بقوله "راوية بني أسد وصاحب مآثرها وأخبارها، وكان شاعرا أدرك المنصور، ومن بعده، وعنه أخذ العلماء مآثر بني أسد."

5- يعرّفه الأصبهاني في كتاب الأغاني:18/ 67، بأنّه "أحد بني شمس."

1- "رواية اللّغة": ص171.

الإسناد[1]، ولا ظلال لرُواة آخرين استند إليهم، وساعة يحيل إلى سابق استقى منه خبره فلا يكون الأعراب هم المصدر، وإنّما هو أبوه الذي كان متّكأه في جلّ الأخبار التي لم يكن الشيباني فيها منتهى الإسناد[2]. فلا نتبيّن هذه الاستفادة من الأعراب داخل الأسانيد. وكذلك الأمر أيضا مع أبي عبيدة[3] إذ أفاض دارسوه في بيان اتّصاله بالأعراب، ونشير أساسا إلى جملة دراسات طه الحاجري التي خصّ بها أبا عبيدة إظهارا لدوره في الرواية، ووصلا له بالأعراب، غير أنّ ما أظهرناه في شأن أبي عمرو الشيباني يجري أيضا على أبي عبيدة من حيث إظهاره في أغلب الأسانيد الرّاوية الأخير أو المصدر الأخير[4] لهذه الأخبار فيكون بذلك -وفقا لظاهر السند- صاحب الخبر ومنشئه، إذ يُغيَّب من يقبع خلفه من رواة زوّدوه بمادّة الحكي، وإن كنّا نلحظ بعضا من الإحالات مع أبي عبيدة على رواة أعراب خاصّة في روايته لأخبار الأيّام، إلاّ أنّ هذه الأخبار التي يحيل فيها أبو عبيدة إلى بعض الأعراب تظلّ قليلة مقارنة بالأخبار التي يُسنَد فيها الخبر إليه راويةً مصدرا[5]، فما لدينا أساسا من ظاهرة استفادة الرّواة العلماء من الأعراب هو إشارات المترجمين والدارسين، وبعض من الأخبار التي أحال فيها هؤلاء الرّواة إلى أعراب غير أنّ هذه الظاهرة لا تمثّل سمةً غالبة، وإنّما الغالب هو

---

2 انظر "**كتاب الأغاني**": 11/ 37. 16/ 295. 17/ 278. 18/ 309. 21/ 344.

3- انظر "**كتاب الأغاني**": 10/ 33. 10/ 35. 17/ 182.

4- يؤكّد طه الحاجري في مقال له بعنوان "**أبو عبيدة**" مجلّة "الكاتب المصري" م2. عدد6. مارس 1946 ظاهرة استفادته من الأعراب إثباتا لتقصّه الحقائق، يقول ص285-286 "فلم يكتف(أبو عبيدة) في ذلك بالتلقّي عن شيوخ البصرة الذين تلقّوا عن الأعراب كأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، وإنّما سلك سبيل هؤلاء الشيوخ، فجعل يأخذ عن الأعراب كما كانوا يفعلون.."

5- انظر نسبة ظهور أبي عبيدة مصدرا من مصادر رواية أخبار الجاهليّة في الجدول الخاصّ بنسب ظهور الرواة المصادر.

1- يقول طه الحاجري في "**الرواية والنقد عند أبي عبيدة**" ص65 "وكذلك استطاع (أبو عبيدة) أن يعقد أسبابه بطائفة من هؤلاء الرّواة من أهل البادية، ممّن كان أكثر اتّجاههم إلى رواية الشعر ثمّ يجيء الخبر تابعا له...مثل هذين الأخوين...وهما: مسحل بن كسيب بن عمران...وأخوه أيّوب، ومثلهما في ذلك أبو دؤاد بن متمّم بن نويرة...ومن هؤلاء الرواة أيضا أيّوب بن صبرة... إلى غيرهم ممّن اتّصل بهم أبو عبيدة، وكان حريصا على أن يتلقّى عنهم، ويجعل منهم مصدرا من مصادره الأصليّة."

ظهور الرّواة العلماء مصادر أساسيّة لهذه الأخبار. فباستثناء أخبار قليلة يظهر فيها هؤلاء الأعراب المعروفون في إخبارهم عن القبيلة التي ينتمون إليها[1]، والتي اتّكأ عليها طه الحاجري لبيان "صدق" ما يُنقَل[2]، واتّكأ عليها ناصر الدين الأسد لإظهار التواصل التامّ[3] بين الجاهليّة ورُواتها، لا نظفر بأخبار يمكن أن ننطلق منها لإظهار صلتها بالقبائل التي ترويها ولضبط شبكة من الرّواة المتحكّمين في إنتاج هذه الأخبار، ودورهم في إخراج صورة ما عن الجاهليّة وفقا لموقعهم القبليّ.

إنّ أخبارا جاهليّة عديدة تقدّم دون تسمية الراوية الأخير الذي أخرجها وأوجدها فتُسند إلى أعرابيّ أو إلى منسيّ أو إلى مجموعة تنتمي إلى قبيلة معيّنة. وهذا الراوية غير المسمّى يظهر في عدد من الأشكال المبينة عن موضعه وعن علاقته بمن نقل الخبر عنه.

إنّ الخبر الجاهليّ -والمسألة قد تُعمّمُ -لا ينتسب إلى أب معلَن أو إلى آباء مُعلَنين وإنّما قد ينتهي الإفراط الملحوظ في تتبّع المسار التاريخيّ للخبر تناقلاً عبر رُواة تُدَقَّقُ أسماؤهم وصفاتهم إلى راوية غير مُحدَّد, يكتسب وجوده من ثقة الراوية فيه، أو من انتمائه إلى الفضاء الذي نشأ فيه الخبر, فهو مُعاينٌ لنمائه, ينقله نقلَ مدرك. وفي كلّ الحالات فإنّنا لسنا إزاء رُواة شائعة أسماؤهم في مجال رواية الأخبار ولسنا أيضا تُجاه رُواة مُحنّكين محترفين وإنّما إزاء "شهود عيان" يُتّكأ عليهم ضمانا لشرعيّة

2- ومثال ذلك إسناد الخبر إلى أحد أفراد القبيلة مدار الحدث، على شاكلة إسناد خبر زهير بن جذيمة إلى "سيّار بن عمرو" وهو "أحد بني عبيد بن سعد بن عوف بن جلال بن غنم". انظر "كتاب الأغاني": 11/ 70، أو وصل الإسناد في القليل النادر منه بالجاهليّة "وأخبرنا أبو حاتم قال أخبرنا الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن هجاس بن مرير الإيادي عن أبيه وكان قد أدرك الجاهليّة." كتاب الأغاني: 16/ 299.

3- يقول طه الحاجري في مقاله **"أبو عبيدة"** ص464: "وهنالك ظاهرة بيّنة في الروايات التي يرويها أبو عبيدة عن الأعراب تصدر ذلك المصدر، وهو التفصيل في الصور التي تؤدّيها هذه الروايات. وربّما كان هذا التفصيل من الأشياء التي كان خصومه يستندون إليها في اتّهامه بالكذب واختلاق الأخبار. ولكنّه عندنا مظهر من مظاهر النزوع إلى الدقّة التي تدفعه إلى الاستيفاء، فهو حريص كما رأينا على استيفاء الروايات المختلفة كما سمعها، وهو حريص على استيفاء أجزاء الصورة وأن يؤدّيها كما رُويت له، في العبارة والمعنى. ومن ذلك كانت رواياته لأيّام العرب أصدق صورة وأدقّ للحياة العربيّة."

4- انظر ناصر الدين الأسد: **"مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة"** ص205.

الخبر وتيسيرا لقبوله. والملاحظ في هذا المجال أنّ المؤلّف يكثّف من الرّواة النّاقلين ويدقّق فيهم، ويطلق أصل الخبر(دائما وفق المنطلق الذي يحدّد مسارنا في هذا التوجّه الذي نعتبر فيه أنّ الأسماء الواردة في منتهى أسانيد الأخبار هي أصول إنتاجها) في عديد الأسانيد وهي مسألة جديرة بالاهتمام في دراسة أخبار الجاهليّة لأنّها تُظهر هذه الهوّة القائمة بين إنتاج أخبار الجاهليّة وبين زمن وقوعها ولأنّها تُظهر انعدام تقديس الإسناد في الأخبار الأدبيّة . وظاهرة الرواة الأعراب لا تختلف عن ظاهرة الرواة المطلقين، بل إن كثيرا ممّن ذكرناهم في صورتهم المطلقة يمكن أن يكونوا من الأعراب، وخاصّة منهم أولائك المنتمين إلى المكان الذي صدرت عنه أحداث الخبر، والذين يمثّلون حجّة تُقدّم لشدّ الخبر إلى "الواقع"، وقد يظهر هذا التلاقي في صورة بيّنة وهي "أحد الأعراب" أو "غير واحد من الأعراب"[1].

ويمكن أن نشير إلى رُواة عديدين تُثبت أسماؤهم من حيث إخراجهم الأوّليّ للخبر غير أنّها تظلّ في نهاية المطاف مسمّاة باسم راوية يُحَدَّدُ له وضع النّاقل، فيملك الخبر ويُسنَد إليه ويُسَمَّى باسمه (ولك أن تنظر عددا كبيرا من أخبار الجاهليّة تسند إلى رُواة تُذكَر أسماؤهم مرّة واحدة[2] أو مرّتين، فهم من قبيل الرّواة المجهولة أسماؤهم)، وهي مسألة نسعى إلى إثارتها في العنصر اللاّحق من هذا العمل .

ب- الرّواة المعلومون.

إنّ الجهد الذي بذلته طبقة الرّواة الغالبين على رواية أخبار الجاهليّة لبيّنة، وهي جهود موصولة بعدد من المشاغل التي دفعت هؤلاء الرّواة إلى الظّهور في هذه المراحل التّاريخيّة وتنظيم روايتهم للجاهليّة والجلوس لتعليم هذه الأخبار ولتلقينها لرُواة آخرين تحمّلوها وحمّلوها غيرهم، غير أنّه لا يمكن أن نُقرّ هذه "القداسة" تناقلا للخبر دون، تحويل أو تحوير، ودليلنا على ذلك انقسام عقد السّند في أغلب الأحيان إلى رُواة باهت وجودهم غير فاعلين في ما ينقلونه، وإنّما هم محض نَقَلة، وإلى رُواة

1- **كتاب الأغاني**: 11/ 86.

1- انظر الجدول الخاصّ بنسب ظهور الرواة المصادر.

رؤوس يبدو وجودهم فاعلا في إنشاء هذه الأخبار وعدم الاكتفاء بمحض النقل، وهذا مدار العنصر اللاّحق من هذا العمل .

إنّ ما وصلنا من أخبار تامّة الصناعة في القرنين الثالث والرّابع أساسا يؤكّد لنا تحرّكها في زمان سابق لزمن إخراجها تدوينا. فنحن نلمح في كتاب الأغاني ظلالا لكتب سابقة في الزمن ولروايات بلغته بوسائط عديدة، لعلّ أهمّها تحمّل الرّجال هذه الأخبار ونقلها عبر الرّواية الشفويّة. فأبو الفرج وغيره من المؤلّفين يلقون هذه الأخبار على سابق يلقيها بدوره على سابق حدّ بلوغ المصدر الرئيس لإخراج الخبر. وعلى هذا الأساس فإنّا نتبّعا لظاهر هذه الواسطة في إسناد الأخبار، نلاحظ وجود رواة أخذ عنهم أبو الفرج أخباره وهم الذين سلّموه هذه الأخبار، ونلاحظ أيضا وجود رواة مصادر يتحمّلون الإنتاج، فهم أصول الأخبار، عنهم تصدر، ومنهم تخرج في صورتها الأولى. وما بين هاتين الواسطتين تُمثّل قناة تحوي عددا من الرّواة، وظيفتها الأساسيّة- وفقا لظاهر السند- نقل الخبر والمحافظة على بيان أصوله وناقليه، إذ يأخذه لاحق عن سابق تحمّلا ومداولة. وفي هذه الأطوار الثلاثة التي يمرّ بها الخبر مسائل عديدة اجتهدنا في إثارتها في هذا المبحث، وهي أطوار تخصّ الخبر بصورة عامّة، غير أنّ مسألة الفاصل الزمنيّ بين الرّواة الأصول أو المصادر هي التي حفزتنا على إفراد أخبار الجاهليّة وتمييزها من بقيّة الأخبار. إضافة إلى عدد من الملاحظات التي تحيد بنا عن النهج الذي قفاه محمّد القاضي في معالجته لمسألة الإسناد في الخبر[1]، وتصرفنا إلى الاهتمام بهؤلاء الرّواة الأوَل إظهارا لهم وبيانا لدورهم في إنتاج هذه الأخبار حدّ بلوغها مؤلّفها ومدوّنها (ولعلّ المسألة مازالت محافظة على بعض من الغموض، الذي نحاول التقليص من عتمته، ومأتي الغموض راجع إلى عسر الجزم بوسم هؤلاء الرّواة بالإنتاج أو محض الرّواية أو الرّواية مع التصرّف في النّواة الأخباريّة).

ولقد سعينا في إطار محاصرتنا لظروف إنتاج أخبار الجاهليّة إلى الوقوف عند جملة من الظروف التي بانت لنا فاعلة في تمهيد الفضاء لتيسير شيوع هذه الأخبار، وفي نفس هذا الإطار، فإنّ حركة في الرواية قد بزغت في ظلّ هاتيك الظروف، إذ

1- انظر محمّد القاضي (1998)، ص223-350.

اضطلعت مصادر إنتاج معلومة وأخرى مجهولة بإخراج أخبار الجاهلية (وقد تكون وفقا لهذا المنطلق أولى المواضيع التي شكّلت الخبر وتشكّل عبرها وبواسطتها)، تلقفتها من أفواه الأعراب أو تقصّتها عند معاين لأحداثها وقد تكون المسألة موصولة بمبدإ المناسبة التي تبدو فيها قدرة الراوية على الحياكة وفقا لمعطيات معينة، يبني عليها الراوية خبره سواء كان هذا المعطى شعرا يجول بين الألسن أو مثلا رائجا بين الناس أو نواة لخبر توفّر مادّة رئيسية للتوسع في بيانها.

فإذا جاز لنا أن نصل أخبار الجاهلية بالمرحلة الأمويّة بذرا أوّليّا كما سلف أن ذكرنا في الفصل الأوّل، وكما ذهب إليه فؤاد سزكين عندما أقرّ أنّ "هذا الضرب من التأليف في "الأخبار" مع الأشعار المتصلة به قد جاز في أوائل العصر الأمويّ اهتماما وعناية بنفس درجة الاهتمام بتدوين المغازي والحديث والتفسير ثمّ تطوّر بعد ذلك تطوّرا سريعا"[1]، فإنّ إشكالا حقيقيا يواجهنا ويفصل بين مقامات إنتاج أخبار الجاهليّة ومصادر إنتاجها، ذلك أنّ أغلب الرّواة المعلنين مصادر إنتاج في كتاب الأغاني يُرَدّون أساسا إلى ما بعد القرن الثاني للهجرة، والحال أنّا حاولنا استنادا إلى جملة من الأخبار الأدبيّة والتاريخيّة وجملة من الأقيسة العقلية أن نظهر صلة هذه الأخبار في تكوّنها بالفضاء الأمويّ، فكأنّنا بذلك إزاء مفارقة بين أخبار نقرّ بعثها في القرن الأول وبين مصادرها التي نجد أنفسنا مضطرّين إلى ردّها إلى ما بعد القرن الثاني للهجرة.

ومقالنا في هذا الإشكال الظاهر بيّنٌ، إذ نحن لا ننفي وجود رواة سابقين أثّروا بصورة فاعلة في إنشاء حركة الرواية التي غلبت بداية من القرن الثاني بل هم الذين مهّدوا السبيل لتشكيل جزء كبير من روايات الرواة اللاحقين. ذلك أنّ حركة الرواية المنظمة مع رواة علماء تقتضي حتما وجود رواة سابقين غابت عنّا أغلب رواياتهم. ومن هؤلاء نذكر علمين، هما عبيد بن شريّة الجرهمي [2] ووهب بن منبه. [1]

2- انظر فؤاد سزكين **تاريخ التراث العربي** المجلّد الأوّل. الجزء الثاني. ص17. وانظر أيضا في نفس الشأن، المجلّد الثاني. الجزء الأوّل ص38، إذ يقول "ومن المرجّح أنّ تدوين الشعر العربيّ القديم قد بدأ في العقود الأولى من حكم الأمويين، فقد بدأ في عهد معاوية جمع الأخبار التاريخيّة وما يتّصل بها من أشعار."

1- ورد في "**معجم الأدباء**" م6. ج12. ص73-78 "عاش عبيد بن سارية ثلاثمائة سنة، وقال بعضهم مائتين وعشرين سنة، إلاّ أنّنا نظنّ أنّه عاشها في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم، ووفد على معاوية بن أبي

وقد اشتهرا بأنّهما من الأوائل الذين حدّثوا عن الجاهليّة، غير أنّنا لا نجد أخبارا تسند إليهم، إذ يغيب وهب بن منبّه عن أسانيد أخبار الجاهليّة بصورة تامّة تقريبا، ويحضر عبيد بن شريّة، مصدرا لخبر وحيد ظفرنا به في مجموع هذه الأخبار، [2]وهو خبر يلقى دون بيان لناقليه وإنّما هو يروى عنه فحسب، ويخصّ هذا الخبر الوقوف عند أسباب قول مثل وهو "مكره أخوك لا بطل"، وندرة وجوده في أسانيد أخبار الجاهليّة، تجعلنا نسأل عن وضعه موضع الأصل الذي انحدرت منه هذه الأخبار، غير أنّ ما وسمه به المترجمون من انشغال بأخبار العرب القديمة، يحفزنا على محض الإشارة إلى بعض الأسماء الغائبة في أسانيد الأخبار أو النادر وجودها، المحتفى بها احتفاء كبيرا في إنتاج هذه الأخبار، ومن ذلك ما يقوله ابن النديم في الفهرست عن عبيد بن شريّة "الجرهمي، في زمان معاوية، وأدرك النبي ﷺ، لم يسمع منه شيئا، ووفد على معاوية ابن أبي سفيان، فسأله عن الأخبار المتقدّمة، وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق النّاس في البلاد، وكان استحضره من صنعاء اليمني فأجابه إلى ما أمر، فأمر معاوية أن يدوّن وينسب إلى عبيد بن شريّة (...) عارف بأيام العرب وأحاديثها، وهو أحد من أخذت عنه المآثر". [3]

وأمّا "الرواية بمعناها العلمي" فقد تشكّلت أساسا مع راويتين مصدرين ينعت منهما مدارس في الرواية عديدة، وساهما في إنتاج جملة من المصادر اللاّحقة، وهما حمّاد الراوية وأبو عمرو بن العلاء. ومضارعتهما لوهب بن منبّه ولعبيد بن شريّة الجرهمي تتمثل أساسا في أنّهما من الرواة الأوائل إثباتا تاريخيّا وأسبقيّة في الزمن وفي

سفيان...فسأله عن الأخبار المتقدّمة وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد..."

2- يقول فيه ياقوت الحموي في "معجم الأدباء" م10.ج19.ص260 : "كان فقيها، أخباريّا، نسّابا، لكنّه متّهم في الحديث..."

3- انظر الجدول الخاصّ بإحصاء رواة أخبار الجاهليّة.

1- ابن النديم: "الفهرست". ص118

ندرة وجودهما مصادر إنتاج لهذه الأخبار، رغم أنّهما يختلفان عنهما أساسا في جلوسهما للرواية.

إنّ هذه المصادر الأولى رغم اختلاف تأثيراتها في الرّواة اللاّحقين يجمع بينها الغياب (المطلق أو النسبيّ) عن أسانيد أخبار الجاهليّة، أو ندرة نسبة الأخبار إليها، ويعلّل ناصر الدّين الأسد[1] هذه الظاهرة بأنّ الرّواية الأدبيّة بمعناها العلميّ لم تتشكّل أساسا إلاّ مع حمّاد وأبي عمرو بن العلاء، غير أنّ هذين الرّاويتين يندر وجودهما مصادرَ إنتاج في أسانيد أخبار الجاهليّة التي يوردها أبو الفرج في مصنّفه، إذ تُسنَد - على سبيل التقريب- أربعة إلى أبي عمرو بن العلاء وخمسة أخبار إلى حمّاد الرّاوية[2]. فالرّواة اللاّحقون كانوا أغزر من السّابقين في رواية هذه الأخبار، ويمكن أن نصل المسألة أيضا بقنوات النقل وإعادة الإنتاج التي أنهت إسناد أخبارها إلى رواة لاحقين.

يقول ناصر الدين الأسد في معرض ضبطه لظاهرة الرواية الأدبيّة عند العرب: "فالرواية الأدبيّة بمعناها العلمي الذي عرفه القرن الثاني لم تكن موجودة إذا صحّ ما ذهبنا إليه قبل زمن أبي عمرو بن العلاء وحمّاد الراوية ومن عاصرهما، ومن هنا كان هؤلاء هم في الغالب الأعمّ نهاية الإسناد في الرواية الأدبيّة، يأخذها من لا يسأل عمّن أخذها هؤلاء، ولا يجد في انقطاع الإسناد عندهم ما يضعف من هذه الرواية. ومن هنا كان الإسناد في الرواية الأدبيّة هو القاعدة العامّة في القرنين الثالث والرابع، يرتفع حتّى يصل إلى هذه الطبقة الأولى من العلماء ثمّ يقف عندها لا يتجاوزها."[3] غير أنّ هذه الرؤية لا ينهض لها دليل داخل الأسانيد ذاتها، فحمّاد وعمرو بن العلاء لا يُمثّلان نهاية الإسناد في رواية أخبار الجاهليّة وإنّما من تتلمذ عنهما هم الممثّلون الحقيقيون لنهاية أسانيد هذه الأخبار.

2- ناصر الدين الأسد ص 276.

2- انظر الجدول الخاصّ بنِسَب وجود الرّواة المصادر في أسانيد أخبار الجاهليّة، إذ يمثّل حمّاد نسبة ضئيلة جدّا مقارنة بما يحوم حوله من أخبار تؤكّد أنّه من الأوائل الذين انصرفوا إلى رواية الجاهليّة كما تؤكّد أنّه يمثّل أهمّ المصادر في رواية هذه الأخبار.

3 - ناصر الدين الأسد:ص.276.

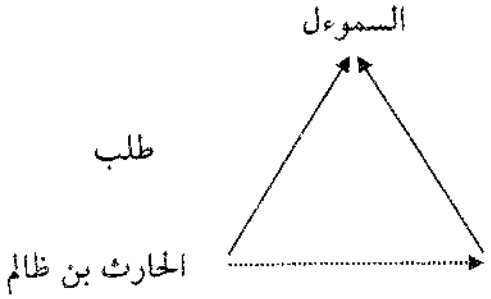

محور جواب الطلب:

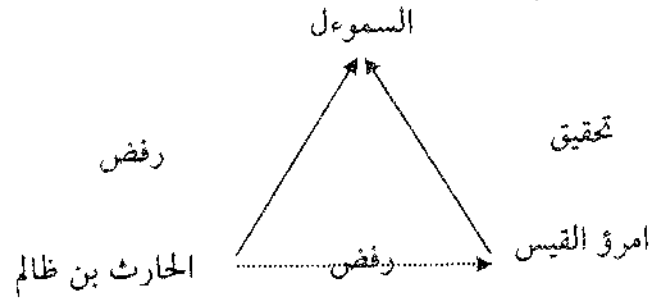

فلو ضبطنا شجرة الإسناد العامّة وفقا لتسلسلها التاريخيّ ووفقا لتناسل الطبقات لوجدنا طبقة أولى لا تُولّد شيئا وطبقة ثانيّة تؤسّس لنسل يختصّ في إنتاج الأخبار وروايتها، يرث عنها ويزيد عليها.

وعلى هذا فإنّ الطبقة اللاّحقة لهذه "المصادر الأولى" أجلى حضورا في أسانيد أخبار الجاهليّة، ولذلك فإنّا نسعى إلى الوقوف عند أهمّ رُواتها. ذلك أنّه يعسر أن نردّ أخبار الجاهليّة في أصل تكوّنها إلى أبي عمرو بن العلاء أو إلى حمّاد الرّاوية وفقا لمُعلَن الإسناد، إذ هما لا يرويان إلاّ عددا نزرا من الأخبار، وإنّما الأغلب الأعمّ يُسند إلى الطبقة الثانية والثالثة منتهى الإسناد، فيبدو أنّ هؤلاء الأُوَل قد أسّسوا رواية الشعر والتعليق عليه، وتوسّع الثواني في ما بذره الأُوَل، فأفاضوا في بناء الأخبار وتتبّع مقامات إنتاج الشعر الجاهليّ.[1]

2- الرّواة الثواني.

إنّ الرّواة الثواني[2] لا يتحملون وظيفة واحدة وأداء واحدا داخل أسانيد أخبار الجاهليّة، وإنّما هم يتمايزون من حيث الأدوار التي يؤدّونها، ويبدو هذا التمايز في إشارات لطيفة يُفارق بها المؤلّف[3] بين مختلف الأدوار المنوطة بهؤلاء الرّواة، تحدّد وظيفة الرّاوية داخل موضع "القناة"[4]، أي داخل الموضع الذي يشدّ وتدين لهما عميق الأثر في إنشاء أخبار الجاهليّة، وهما المنشئ الأوّل للخبر، ومتقبّله أو مخرجه الأخير. ذلك أنّ المخرج أو "المؤلّف" يُميّز في إيراده لأسانيده بين راوية-قناة، يضطلع بإعادة

1- انظر الجدول الخاصّ بضبط نِسَب إيراد الرّواة المصادر، وانظر خاصّة مقام حمّاد وعبيد بن شريّة ووهب بن منبّه وهم يُعَدّون من أوائل رواة الجاهليّة في ما أثبتناه من آراء المترجمين لهم.

2- نقصد بالرّواة الثواني، حلقة الرّواية المقابلة للرّواة الأُوَل، فالثواني يمثّلون حَمَلَة الخبر نقلا عن الرواة الأوّل.

3- يعرّف القاضي "المؤلّف" أنّه "بمثابة الحلقة الأخيرة من حلقات الرّواية" وإن كان هذا التعريف عامّا، وشاملا، وهو يشير إلى ذلك، وإلى وجود "مؤلّفين" تُتناقل أخبارهم عن طريق رواة لاحقين، فليسوا هم آخر حلقات الرّواية، وإنّما يليهم رُواةٌ آخرون. انظر: محمّد القاضي (1998) ص216.

4- إنّنا نقصد بالقناة أساسا، مجمل الرّواة الواصلين بين أعلام في الرّواية ومصادر في إنتاج الأخبار، فهم من قبيل التلاميذ المردّدين لأخبار معلّميهم، ونُفصّل الحديث عن هذه الصورة في موضع لاحق من التحليل.

رواية الخبر، ويظلّ بمثابة قناة العبور التي يسلكها المنقول اللّفظيّ، محافظا على العهدة المرويّة يؤدّيها كما هي، فهو صوت راوية علّمه أخبارا، هو ناقلها بإسنادها إلى صاحبه، وبين راوية يُبرَزُ، فينتسب إليه الخبر في كثير من الأحيان، حتّى لكأنّه صاحبه ومالكه، رغما عن وجود صاحب له أسبق، يُغَضُّ عنه الطرف في نسبة الخبر. إضافة إلى أنّ هذا الرّاوية الواقع في موقع القناة والمؤدّي لدور الرّأس[1]، صاحب شأن بالغ في توزيع أدوار الرّواية، والتحكّم في عمليّة التنسيق بين هذه الرّوايات المتعدّدة التي تبلغه، فيُخرجها صوتا واحدا وإن أثبت تعدّد الأصوات فيها.

وتبقى هذه العمليّة القائمة على تمييز الرّواة النّقلة/ الحَفَظة من الرّواة الفاعلين، المتصرّفين، رهينة دور المؤلّف الذي يضطلع بتوزيع جملة الأدوار، ويحلّ كلّ راوية المحلّ الذي يراه مناسبا له، وفقا لمراحل تقلّب الخبر من فضاء المشافهة إلى فضاء التدوين، ووفقا لتشكيل الأسانيد، ووفقا لما تحتويه من رؤوس في الرّواية.

ونظرا إلى كلّ هذه المسائل الخاصّة ببيان مصادر إنشاء الخبر، نسعى إلى الوقوف عند هذه المصادر التي يتقلّب فيها الخبر تناقلا عبر واسطة الرّواة الثواني، أي في المرحلة التالية لمرحلة إنشاء الخبر من قبَل الرّاوية الأوّل.

• الرّواة النّقَلَة

إنّ قنوات نقل الخبر تُحدَث جسرا لعبوره، يشدّ الرّؤوس بعضها إلى بعض، ويُسَخَّر لطيّ مراحل تاريخيّة بين متقبّل الخبر ومنشئيه. وعلى ذلك فإنّا نقف عند قسم هامّ من الأسماء الواردة في أسانيد أخبار الجاهليّة تَلزم بعضا من الرّواة الرّؤوس (ولنا مآب إلى هذا الشِقّ من الرّواة في العنصر اللاّحق من هذا العمل) لُزوما مطلقا، لا تكاد تبرحه، وإنّما هي ناقلة لشتّى أخباره، معتصمة بالاتّكاء عليه، عازفة عن غيره من المصادر، فهي صوته وأداته وواسطته والقناة التي تُبَلِّغ بها أخباره. ومثالنا على هذه الصورة الأولى من صور رواة تنحصر وظيفتهم في نقل الخبر، أبو سعيد

1- لقد اجتهدنا في تسمية الرّواة المُبرَزين في مواضع النقل بالرّواة الرّؤوس. فالرأس هو الرّاوية الذي ينشدّ إليه النّقَلة، وموضعه الذي يحتلّه من الإسناد هو موضع الحمل والنقل لا موضع الإنتاج الأوّليّ، إلاّ أنّا نلاحظ أنّ الأخبار كثيرا ما تُسنَد إليه.

السكّري[1] ملازمةً لـ "محمّد بن حبيب"[2]، واضطلاعا بنقل أخباره. ومنه يمكن أن ننتهي إلى رصد الفوارق القائمة بينهما، رغم وجودهما في ذات المحلّ من الإسناد حملا لأخبار منشأة سلفا ونقلا لها روايةً.

ولنا في هذا المقام أن نفرغ إلى بيان دور النقل المحض، دون تصاريف تبدو من النّاقل، وإنّما هو بمقام التلميذ من الأستاذ، يأخذ عنه ويدوّن أخباره، ويتكفّل بإعادة قراءتها وإخراجها دون اجتهاد منه يُلمَحُ في ردّها إلى أصولها أو التصرّف فيها. ويمكن أن ننظر في هذه الصّلة بين هذين الرّاويتين تتبّعا للأسانيد التي وُجدا فيها[3].

وفي نفس هذا السياق، فإنّ الرّاوية الواصل بين السكّري وأبي الفرج الأصبهاني في إيراد مجمل هذه الأخبار، هو "عليّ بن سليمان الأخفش"[4]، وقد كان سند الأصبهاني في إيراد مجمل هذه الأخبار. فمن مجموع خمس وثلاثين خبرا ينقلها الأخفش إلى الأصبهاني نجده يستند إلى السكّري في تسع وعشرين منها-تقريبا- فجلّ أخبار السكّري هو حاملها وناقلها.

1- أبو العلاء بن صَفرة، المعروف بالسكّري (212هـ-275هـ) يعرّفه ياقوت الحموي في "معجم الأدباء" م4.ج8.ص94 "أبو سعيد النحوي اللّغوي الراوية الثقة المكثر...سمع يحيى بن معين، وأبا حاتم السجستاني والرياشي ومحمّد بن حبيب...وخلقا سواهم." و يعرّفه ابن النديم في "الفهرست" ص106، بأنّه "حسن المعرفة باللّغة والأنساب والأيّام" . ويذهب شوقي ضيف في "العصر الجاهلي" ص163 إلى اعتباره أهمّ رواة القرن الثالث، يقول "وربّما كان السكّري أهمّ راو ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث، فقد رويت عنه دواوين كثيرة، وهو يجمع في روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية، إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين، كما أخذ عن الرياشي وأبي حاتم السجستاني البصريين."

2- محمّد بن حبيب (ت245) يُعرّفه ياقوت الحموي في "معجم الأدباء" م9 ج18 ص112. بأنّه "من علماء بغداد باللّغة والشعر والأخبار والأنساب، الثقات...وهو يروي كتب ابن الأعرابي وابن الكلبي وقُطرب وكتبه صحيحة."

3- انظر على- سبيل المثال- "كتاب الأغاني": 3/ 12- 8/ 240.242-11/ 113.119.153- 17/ 123.237- 21/ 198.6.

4- الأخفش المجاشعي(ت 315 هـ)، روى عن حمّاد بن الزبرقان فيما ينقله عنه ابن النديم في "الفهرست" ص75 يقول"أبو الحسن بن سعيد بن مسعدة، مولى لبني مجاشع بن دارم، من مشهوري نحوي البصرة، أخذ عن سيبويه وهو أحد أصحابه..."

وعلى نفس هذه الهيئة، نلحظ التزام أبي غسّان دماذ[1] بنقل أخبار أبي عبيدة، وإن كانت هذه الظاهرة من الالتزام تُغاير حال السكّري من عكوف كليّ على أخبار ابن حبيب وانصراف تامّ إليها. ذلك أنّ دماذ لا يُعدّ الرّاوية الأوحد الذي من خلاله تُخرَج أخبار أبي عبيدة، وإنّما هي ملك شائع لعدد كبير من النّقَلَة، غير أنّ له النصيب الأوفر في روايتها، وهو لازم له، لا يروي إلاّ عنه[2].

ويضطلع ناقل آخر متخصّص في رواية الأخبار التي ينقلها أبو غسّان دماذ بوصل هذه الأخبار بأبي الفرج، وهو هاشم بن محمّد الخزاعي [3]، وهو راوية كلّ أخبار دماذ.

ويمكن أن نستدلّ بمثال ثالث مبين عن صور هؤلاء النّقلة، وما تخصيصنا لهم إلاّ من أجل إظهار قنوات وصل ثابتة تشكّل مراكز رواية في التصاقها براوية مخصوص، وفي تسلسلها- تناقلا للخبر- على هيئة واحدة متعاودة في عدد من الأسانيد. غير أنّا نحدّدها بدءا بالالتزام برواية الأخبار دون تصرّف فيها. وما إقرارنا هذا إلاّ بسبب من أنّ الرّاوية النّاقل يلزم صاحبه، لا يخرج عنه فهو صوته، ومبلّغ إنتاجه. ومثالنا الثالث نخصّصه لراوية مهمّ من رواة أخبار الجاهليّة، وهو الزبير بن بكّار ونحن ننصرف إلى بيان من اتّصل به من نَقَلَة ومن عَلق به لزوما وثباتا لترويج أخباره. إذ أنّنا نلاحظ ثلاثة رواة قد تخصّصوا في إخراج أخباره وروايتها، وهم الطوسي[4] والحرمي بن أبي العلاء[5].

1- يعرّفه ابن النديم في "الفهرست" ص77 بقوله "ومن أصحاب أبي عبيدة دماذ أبو غسّان واسمه رفيع بن سلمة بن مسلم بن رفيع العبدي، روى عن أبي عبيدة، وكان يورق كتبه، وأخذ عنه الأنساب والأخبار والمآثر."

2 - انظر على سبيل المثال: "كتاب الأغاني": 14/ 10, 74.69/ .4.11.19.20.21.24

3- انظر نفس الأمثلة.

4- انظر "كتاب الأغاني": 3/ 114. 117. 119. 120- 17/ .210

5- م.ن: 4/ 127. 128- 10/ 21- 15/ 18.

وأحمد بن سعيد الدمشقي[1] بصورة منفردة أو باجتماعهم في صوت واحد. وقد لازموه ونقلوا جلّ أخباره[2] ولا غرابة أن يكون الطوسي والحرمي وأحمد بن سعيد الدمشقي من أهمّ الأصوات الناقلة لأخبار الزبير بن بكّار، إذا ما أدركنا وسائط تناقل المعرفة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، في قرونها الأولى، القائمة أساسا على ملازمة رُواة- تلاميذ للرّاوية- الأستاذ أو المعلّم أو "الرأس" يحتمون به، ويُروّجون أخباره. وقد كان الطوسي والحرمي معا مخرجي أخبار عديدة للزبير[3] إضافة إلى إخراجهما لكتبه التي بلغتنا[4].

وقد كان الأصبهاني في نقله لأخبار الزبير بن بكّار مدركا لهذه الوظيفة التي اضطلع بها هؤلاء الرواة إخراجا لأخبار أستاذهم. ولذلك نجده في أغلب الأحيان يسقط هذه الأسماء الواصلة، الحافظة لأخبار الرّاوية المستَنَد، عندما يورد أخبارا متلاحقة للزبير، فيكتفي بذكرها في الخبر الأوّل ثمّ يُضرب عنها، لاجئا إلى الزبير مباشرة، إذ يُسند إليه الخبر المرويّ دون إعادة ذكر وسائط روايته الواصلة بينه وبين الزبير. ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك، جملة الأسانيد التالية:

- "أخبرنا الطوسي قال حدّثنا الزبير قال حدّثني عمّي مصعب بن عبد اللّه ومحمّد بن الضحّاك عن أبيه قالا..."[5]

1- وإن كان وجوده مخرجا لأخبار الزبير عن الجاهليّة أندر من وجود الطوسي والحرمي. م.ن: 11/ 53- 23/ 414.

2- كلّ أخبار الزبير تقريبا تُنقل عبر هؤلاء الرواة إضافة إلى راوية آخر تحمّل قسطا من هذه الأخبار ونقلها وهو أحمد بن زهير، انظر "الأغاني": 3/ 11و 3/ 13.

3- في شأن اجتماع الطوسي والحرمي صوتا واحدا ناقلا لأخبار الزبير بن بكّار انظر "الأغاني": 6/ 321- 14/ 145- 22/ 74- 23/ 414.

4- ومثالنا على ذلك إخراج الطوسي لأخبار الزبير في كتاب "جمهرة نسب قريش وأخبارها" مكتبة دار العروبة. القاهرة. د.ت. إذ ورد في مقدّمته ص4: "صنعة أبي عبد اللّه الزبير بن بكّار بن عبد اللّه بن مصعب- رواية أبي عبد اللّه أحمد بن سليمان الطوسي عنه..." وكذلك نلحظ أثر أحمد بن سعيد الدمشقي في رواية "الأخبار الموفّقيات" إذ يتردّد اسمه في عدد من المواضع، ناقلا لأخبار "أستاذه". انظر "الأخبار الموفّقيات" تحقيق سامي مكّي العاني- مطبعة العاني- بغداد- 1972.

5- "كتاب الأغاني": 3/ 117

- "قال الزبير وحدّثني مصعب بن عبد الله قال حدّثني الضحاك بن عثمان عن عبد الرّحمان بن أبي الزناد قال قال هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر أنّها قالت قال زيد بن عمرو بن نفيل..."[1]
- "قال الزبير وحدّثني مصعب بن عبد الله..."[2]
- "قال الزبير وحدّثني مصعب بن عبد اللّه..."[3]
- "قال الزبير وحدّثني مصعب بن عبد الله..."[4]
- "قال الزبير وحدّثني مصعب بن عبد اللّه..."[5]

إنّ الملاحظة الأولى التي نتبيّنها من هذه الأسانيد المتتالية المتماثلة تشابها تقريبيّا في حلقات تبليغ الخبر وتوصيله أنّ المؤلّف بعد إيراده للخبر الأوّل يتخلّى في إسناده عن الحلقة الواصلة بينه وبين الزبير بن بكّار ليحيل إليه مباشرة. وهي مسألة يمكن أن تُدرك أبعادها إذا ما وقفنا على أنّ الطوسي كان مخرجا لآثار الزبير بن بكّار، فمن المرجّح أنّ الأصبهاني قد عاد إلى مصنّفات الزبير برواية الطوسي واستخرج منها ما يفيده من أخبار، وعلى هذا الأساس من استثمار المدوّن، يمكن أن يثبت الأصبهاني اسم المخرج أو الناقل في الخبر الأوّل، ثمّ يُضرب عنه في لاحق الأخبار، من حيث أنّه راجع إلى الأصل أو إلى صاحب هذه الأخبار، دون نَقَلَته. وبذلك فإنّا نتبيّن صورة أولى عن نوع من نَقَلَة الأخبار، وهي صورة النَّقَلَة الوسطاء أو قنوات التبليغ، فوظيفتهم تكاد تنحصر في نقل أخبار شيخهم دون تحقيقها أوتثبيتها. فهم موصولون به، معيدون لإنتاجه بالخضوع إلى ضوابط تُقيّد من إمكانيّة تصرّفهم وتُسيِّجُ من فسيح ممكن البناء على هذه الأخبار. فالطوسي -على سبيل المثال- قناة أولى تُحذف في

1- م.ن: 3/ 118.
2- م.ن: 3/ 119.
3- م.ن: 3/ 120
4- م.ن: 3/ 120
5- م.ن: 3/ 121.

لاحق الأسانيد ليصل الأصبهاني الزبير دون واسطة، وهذه أولى الدلائل التي تبرز في غير موقعها مبينة تعامل المؤلّف مع أخبار مدوّنة يأخذها من مظانّها.

وعلى ذلك فإنّا نلحظ في عدد من مواطن الإسناد إسقاط هؤلاء الرّواة الواصلين، وعدم الاحتفاء بهم تدقيقا في إسناد الأخبار إليهم داخل في سياسة بناء أسانيد أخبار الجاهليّة إبرازا للرؤوس وإثباتا لمواضعهم دون إغفال ذكرهم بترديد نفس الأسانيد. ولقد سلف أن لاحظنا أنّ "المؤلّف" في رجوعه إلى الزبير بن بكّار راوية رأسا يعمد إلى إسقاط القناة التي تصله به وهي الطوسي، ويكتفي بذكر هذه القناة مرّة واحدة في حال تواتر عدد من الأسانيد المتلاحقة التي يروي فيها الطوسي أخبار الزبير. ويمكن أن نقف عند نفس هذه الظاهرة في غير حالة الطوسي اتّصالا بالزبير في الإسنادين التاليين:

- " أخبرني الحسن بن عليّ، قال حدّثنا أحمد بن زهير قال حدّثنا الزبير قال قال سليمان بن داود المجمّعي."[1]
- " أخبرني الحسن قال حدّثنا محمّد قال حدّثنا الزبير قال حدّثني حسن بن موسى عن سليمان بن داود المجمّعي."[2]

فلك أن تنتبه في هذين الإسنادين المتماثلين-تقريبا- إلى حضور القناة الواصلة بين الزبير بن بكّار والرّاوية-المصدر في المثال الثاني، وغياب هذه الواسطة في المثال الأوّل. فالصلة بين الزبير والمجمّعي كانت مباشرة في الخبر الأوّل وكانت عبر واسطة في الخبر الثاني، وهو حسن بن موسى. كما يمكن أن نلاحظ غياب أحمد بن زهير في الرواية الثانية وهو غياب استبدال، إذ تمّ تعويضه بواصل آخر، هو محمد. وما يهمّنا أساسا من هذه الظاهرة هو إبراز أسماء دون أخرى، وعدم الاهتمام بقنوات توصيل الخبر إذ لا يهتمّ المؤلّف بتتبّعها وضبط أسمائها وبيان طرائق تواصلها، ومن ذلك ما نتبيّنه بجلاء في ظاهرة استبدال أحمد بن زهير براوية آخر يُسمّى إلاّ أنّه رغم تسميته

1- كتاب الأغاني: 3/ 11.

2- م.ن: 3/ 11.

يظلّ مجهولا، وهو محمّد، ونلحظ ذلك أيضا في القناة الواصلة بين الزبير والمجمّعي إذ يحضر في الإسناد الأوّل ويغيب في الثاني، رغم وجود دلائل تذهب بنا إلى الاعتقاد بثبات نفس الإسناد في نقل الخبرين، من ذلك انصرافهما إلى ذات الموضوع، ومن ذلك ثبات الراوية المصدر، ومن ذلك أيضا ثبات الزبير بن بكّار في حلقة الإسناد.

وإهمال هذه القنوات الواصلة في بعض المحالّ والاكتفاء بإثباتها فرضَ كفاية، دالٌّ في شقٍّ منه على عدم أهميّة هذه الأسماء تأثيرا في رواية الخبر. وطرائق الالتزام الآنفة الذكر برواة مخصوصين قد جعلت بعض الأسانيد تتشابه وتتماثل في شِقٍّ منها أو في كلّيتها.

وبذلك، فإنّ أخبار الجاهليّة قد عبرت قنوات ثابتة، ولكن هل يعني ذلك، بما وصلنا إليه من تحليل وإبانة، أنّ هذه القنوات كانت خير حافظ لهذا المنقول؟ وهل أنّ الرّواة الثواني على اختلاف أدوارهم يؤدّون دور الحَفَظة النَّقَلة القَوَمَة على صيانة المرويات الجاهليّة؟ وهل يعني ذلك أنّنا إزاء أخبار ظلّت محافظة على حالها الأولى، ولم يفعل فيها الزمن فعل التضخيم وفعل التطويع؟

لقد عرضنا -بإيجاز شديد- إلى صورة أولى من صور الرّواة الثواني، وهي صورة الحَفَظَة النَّقَلَة، وإنّا لواقفون في العنصر اللاّحق على صورة ثانية تخصّ شِقًّا من الرّواة قد برّزهم المؤلّف ورصد لهم حدود المغايرة مع طبقة الرّواة التي أسلفنا فيها الحديث. وإنّ هذا العنصر لكفيل -فيما نعتقد- بحلّ بعضٍ من المعضلات التي بذرنا.

• الرّواة الرّؤوس

إنّ الرّواة الرّؤوس أدوار وظيفيّة داخل الأسانيد، ذلك أنّ الأسانيد ليست حاملة أسماء يجنح إليها المؤلّف خضوعا لسنّة غالبة في رواية الأخبار وتقصيًا للحقائق أو إيهاما. وإنّما هي ركن داخل في سياسة الخطاب. ويبدو أنّ القدامى -ونقصد بذلك مؤلّفي المصنّفات الأخباريّة أساسا- قد كانوا على وعي بالأدوار الوظيفيّة لهذه الأسماء.

ولذلك، فإنّا نلحظ فوارق بيّنة تظهر في تحمّل هؤلاء النَّقَلة لرواية أخبار الجاهليّة بالذات، بسببٍ من أنّها توفّر مجال تصرّف كبير، وتُطلق ألسنة الرّواة

وأقلامهم بمطلق الحريّة في بناء هذه الأخبار، وفقا لآفاق التقبّل الممكنة والمتبدّلة - ضرورة- بتبدّل فضاءات الرّواية ومقاماتها والأطر التي تحتويها.

وبياننا لمواضع الرّواة الرّؤوس ولأدوارهم يمكّننا من إدراك أطراف روائيّة أدّت وظائف لا تقلّ أهميّة عن وظائف الرّواة المصادر. غير أنّه ينبغي أن نشير في بداية هذه المباشرة إلى أنّ أطراف الرّواية هذه قادرة على تحديد مواضع الرّواة النّقَلَة. فوقوفنا عندها يحقّق غايتين في آن، غاية أولى ندرك من خلالها رواة ميّزناهم داخل حلقة الرّواة الثواني، وغاية ثانية تمثّل برهانا بالخلف، إذ أنّه بتوضيح مقامات هؤلاء الرّواة تتوضّح لنا مواقع الرّواة الذين سلف أن أبنّا بعضا من وظائفهم وأدوارهم، وإن وجدنا عسرا في تخطّي وظيفة النقل المحض المثبتة، فهو الدور المسند لهم ولو أفيض في عقد أواصر الصلة بينهم.

فالأسانيد تتشكّل إذن من قنوات نقل ومن مراكز تقبّل وإعادة إنتاج. وقد خضعت أخبار الجاهليّة -شأنها في ذلك شأن جلّ الأخبار، بل إنّ خضوعها لهذه الظاهرة لأعمق وأشدّ- إلى عدد كبير من مراكز التقبّل وإعادة الإنتاج بسبب من أنّ الرّواة يتعاملون مع إرث حضارة تنوّعت مصادر إنتاجها وتفارقت. فقد خضعت رواية هذا الإرث إلى مؤثّرات عديدة ساهمت في تحويلها وتصريفها وفقا لمواقع الإنتاج وإعادة الإنتاج، بين وافدٍ لا يروي تاريخه وإنّما يروي تاريخ الحضارة التي أصبح ينتمي إليها لُغَةً وانتسابًا بالولاء، وبين أصيل تنغرس جذوره في هذه الحضارة، ويمتدّ نسبه توغّلا فيها، وهو بدوره منقسم إلى جذوع متعدّدة تجتمع تناحرا سياسيّا أو دينيّا أو قبليّا...

وكلّ هذه العوامل جعلت هذه الجاهليّة "المنقولة" خاضعة -بالضرورة- إلى رؤى هؤلاء الرّواة الذين يأخذون أخبارها وأيّامها ووقائعها، ويعيدون صياغتها وفقا لحاجات العصر ومقتضياته. ونظرا إلى كلّ ذلك، فإنّا نلحظ داخل أسانيد أخبار الجاهليّة وجود رؤوس للرواية يضاهون في أدائهم الرّواة المصادر. وسؤالنا الذي نصدر عنه والذي حدا بنا إلى إثارة هذا المبحث هو هل تؤدّي هذه الأصوات المكثّفة في بناء أخبار الجاهليّة دورا واحدا؟ وهل يؤثّر وجودها -في اختلاف مظاهره ووظائفه- في هذه الأخبار صياغةً وتحميلا لمختلف المعاني؟

إنّ أبا الفرج الأصبهاني يخصّ بعضًا من "الرّواة الثواني" تمييزا لهم وإظهارا، وهو تمييز له ما يبرّره ويُسوّغه. فنعاين بيسر أنّه ينصرف إلى وضع الزبير في محلّ المركز وكذلك عمر بن شبّة وابن حبيب وجملة من "الرّواة-المصادر" الذين ينتقلون من وضع المصدر المنشئ للخبر الذي سلف أن أبنّا صورته، إلى محلّ التحمّل والنقل. غير أنّ تحمّلهم يحمل معه قيمة مضافة إلى سابق القيمة التي حدّدها المحلّ من الإسناد. فإثبات هذه الأسماء رواةً والاتّكاء عليهم في إسناد الخبر دون مصدره الذي يعلنه منتهى الإسناد، لا يعود إلى ثباتهم وتحوّل من حولهم من النّقلَة فحسب، وإنّما هو راجع إلى أسباب أخرى موصولة في شِقّ كبير منها باستثمار المدوَّن، وموصولة بثقة "المؤلّف" فيهم، وموصولة أيضا بوعي المؤلّف بالأدوار الحقيقيّة التي يؤدّونها تحقيقا لما انتهى إليهم من أخبار، ونظرا في مآتيها، وضربا للروايات المنصرفة إلى بيان حدث واحد، بعضها ببعض، وإخراج صياغة واحدة لمختلفها وقد استُصفِيَت واستُنشِيَت وأُثبِتَت على الهيئة التي يراها ذاك "الناقل" الناظر فيها. ولذلك فإنّا عددنا هؤلاء الرّواة بمثابة مراكز الإنتاج داخل مواضع الرّواة الثواني، إذ يتقبّلون الخبر ويُخرجونه إخراجا جديدا قد يتنكّر به لشكله الأوّل وقد يوائمه، غير أنّ التحوير داخل عليه لا محالة، فهم بذلك يتخطّون دور الحفظ والنقل المحض. وإبرازنا لهذه المواضع من الإسناد التي يكون فيها دور الراوية فاعلا في تصريف "المنقول" داخلٌ في باب تمييزها من مواضع أخرى يؤدّي فيها الرواة دور النقل دون أن يبدو منهم تجميع لمختَلف الروايات وتغليب أحدها أو تغليب رواية على أخرى أو اعتمادها مجموعة وإخراجها في صياغة واحدة. وذي مسألة نروم الوقوف عندها في إطار بحثنا عن مصادر إنشاء أخبار الجاهليّة، وتقصيًا لصور رَصَدَها هؤلاء الرّواة لمرحلة تاريخيّة كثُر في شأنها القول وتغايرت الرؤى تجاهها وفقا لمواقع الرؤية.

ومن أوكد وظائف الرّواة الرؤوس وأهمّها في بناء أخبار الجاهليّة اضطلاعهم داخل -الأسانيد- بتنويع مصادر الأخذ، ذلك أنّهم يمثّلون المراكز التي تنتهي إليها مجمل الروايات، فيجمعون متفرّقها ويُوحّدون صوتها، فهم -في وجه من وجوه أدائهم- بمثابة المصفاة التي تستقبل هذه الأخبار وتروّيها إلى حَفَظَةٍ نَقَلَةٍ يروّجونها أو

إلى رؤوس أخرى تعيد تحقيقها وتمحيصها والنظر فيها، وقد سلف أن بيّنّا طرائق التفاف الرّواة النَّقَلَة، الحَفَظة حول أحد هذه الرّؤوس.

وعلى هذا فإنّ الرّاوية -الرأس يحقّق في وجه من وجوه تصرّفه في المنقول الأخباريّ، وينظر فيه نظر الباحث، فلا يأخذ الروايات كما بلغته وإنّما هو واقف على دقائقها، مضيف إليها ما بدا له محتاجا إلى إضافة، ومثال ذلك" أخبرني هاشم بن محمّد الخزاعي قال حدّثنا الرياشي، قال حدّثنا الأصمعي، قال خرج رجل من بني تميم – يقال إنّه قيس بن عاصم-، قال الرياشي، وحقّق أبو عبيدة، إنّه قيس..."[1]

فننتبه في هذا الإسناد إلى أنّ أبا عبيدة لم يكن حاضرا في مراحل إسناد الخبر، ولكنّه قد حُدِّد مصدرا من مصادر الرياشي في تحقيق الخبر. فالرياشي هنا رأس من رؤوس الرواية، إذ يجتهد في بناء الخبر بالرغم من أنّ مصدره المُعلَن إنشاءً أوّليًّا هو الأصمعي. ولا غرابة في رجوع الرياشي إلى تحقيق أبي عبيدة، فقد عُرف بهذا المنحى في الرواية، -فانظر على سبيل المثال- السند التالي : "قال أبو عبيدة حدّثني عبد الحميد بن عبد الواحد بن عاصم (...) قال حدّثني أبي عبد الواحد وعمّي صفوان ابنا عاصم عن أبيهما عاصم بن عبد اللّه عمّن أدرك شأس بن زهير...-قال أبو عبيدة، أراه النعمان-..."[2] فلك أن تلاحظ صورة من صور تجلّي الرّاوية الموضوع محلّ الناقل، إذ يتدخّل في "المنقول" الذي لا ينتسب إليه –وفقا لظاهر منطوق السند- صدورا وإنشاء، فيحقّق في اسم الشخصيّة الواردة في خبره، ويجتهد في بيانها، ويثبت رأيه ورؤيته الخاصّة، بيانا لمن تكون هذه الشخصيّة اجتهادا منه. وحسبنا في هذا المقام أن نثبت دور التحقيق والاجتهاد إلى الرّواة الرؤوس الواردة أسماؤهم في محلاّت النقل دون الإنتاج الأول.

ويمكن أن نلحظ دورا ثانيا يؤدّيه الرّواة الرؤوس، وهو توزيع أدوار الرواية، إذ يحتلّ الرّاوية الرأس موضع النّاقل، ويُصرّف الرّوايات ويتنقّل من مصدر إلى آخر، ومثال ذلك ما ورد في خبر "يوم بعاث"، "أخبرني محمّد بن جرير الطبري، قال حدّثنا محمّد بن حميد الرازي قال: حدّثنا سلمة بن الفضل عن محمّد بن إسحاق. وأضفت إليه ما ذكره ابن

1- "كتاب الأغاني": 22/ 224

2- م.ن: 11/ 70.

الكلبي عن أبيه عن أبي صالح، وعن أبي عبيدة وعن محمّد بن ياسر..."[1]. فلنا أن نُلاحظ اجتماع روايات متعدّدة للخبر الواحد في هذا السند، تجمع بين عدد من الرواة المختلفة مواضعهم من "المنقول"، ثمّ إنّا نلاحظ في ذات المقام ترشيح راوية رأس، محلّه في السند محلّ الرواة الثواني، فبعد أن يُذكر في مجمع الإسناد الأوّل صحبة غيره من الرواة، يُفرَد في لاحق أحداث الخبر صوتا مفردا يُنوّع من مصادره ويعدّد، فهو يُدخَلُ في سند ثان، بحثا عن إضافة لم تتحقّق في "المنقول" الأوّل، رواية عن أبيه، وظفر بها في المنقول الثاني: "قال هشام: فحدّثني عبد المجيد بن عيسى عن خير عن أشياخ من قومه..."[2]

إنّ وظيفة توزيع أدوار الرّواية وظيفة ظاهرة بشكل بيّن في أسانيد أخبار الجاهليّة، بل هي سمة غالبة على هذه الأخبار. وهذا هو جوهر الفصل الذي اعتمدناه بين قنوات عبور الخبر، وبين مراكز تقبّله وإعادة إنتاجه. ولأدوار الرّواية دلالات جمّة نسعى إلى إبانتها وتوضيحها في محلّها المخصّص لها. فإذا كان الأمر على هذه الحال، فهل يعني ذلك أنّ الخبر بخضوعه إلى عدد من مراكز الرواية يُفسَخُ وجهُه ويُمحى شكله الأوّل؟ أي هل أنّ الخبر الجاهليّ الذي يورده عمر بن شبّة مُحدّثا به عن أبي عبيدة –على سبيل المثال– هو ملك عمر بن شبّة باعتباره صاحب التصرّف فيه، وباعتبار "المؤلّف" يُلمح إلى دور التصرّف هذا ؟

ويمكن أن نضبط –إضافة إلى ما ذكرنا من أمثلة– أبرز الرّواة الرؤوس الواردة أسماؤهم في أسانيد أخبار الجاهليّة والذين اضطلعوا بتوزيع أدوار الرواية داخل الأسانيد، وهم عمر بن شبّة وهشام بن الكلبي وابن حبيب أساسا. فعمر بن شبّة يمثّل دورا مهمّا داخل الإسناد، فهو يمثّل مرحلة مهمّة من مراحل رواية الخبر، إذ يقرّ مختلف أصول الروايات التي انتهت إليه، ويخرجها في صورة واحدة، ويُحمّلها "الحَفَظَة" وقد آلف بينها ونضّدها على الهيئة التي توافق رؤيته في إخراج الأخبار. ذلك أنّ كلّ عقد لشتات أو توحيد لأصوات، يحمل في جنباته أثرين من ذات الجامع، العاقد، أمّا الأثر الأوّل فهو أنّه صاحب هذا الشكل الذي صُبّ فيه هذا المختلف المتعدّد، وأمّا الأثر

1- م.ن: 17/ 68.

2- م.ن: 17/ 70

الثاني فيتمثّل في أنّ هذه العمليّة لا تسلم من رؤية خاصّة يتحمّلها هذا الموحِّد ويعتمدها في صياغته وفي توجيهه لمرامي هذه الأخبار. وهو لعمري دور خطير يؤدّي إلى انقياد أخبار الجاهليّة إلى مراكز تُخضعها بالضرورة إلى أساليبها الغالبة وإلى رؤيتها إلى هذه المرحلة التاريخيّة.

ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك، بعضا من الأسانيد التي كان فيها عمر بن شبّة جامعا لروايات متعدّدة انتهت إليه فصاغها في صورة واحدة:

أبو عبيدة

عمر بن شبّة ← حبيب بن نصر+ أ. الجوهري[1].

غيره من علمائهم

الأصمعي

عمر بن شبّة ← حبيب بن نصر+ أ. الجوهري[2].

أبو عبيدة

خلاّد بن الأرقط

عمر بن شبّة ← أحمد بن عبد العزيز[3].

غيره من علمائنا

فعمر بن شبّة في هذه الأمثلة لم يلتزم مصدرا واحدا، وإنّما كانت الأسانيد متفرّعة في أوائلها إلى فرعين، عنهما ينتج الخبر ويتقبّل ابن شبّة هاتين الروايتين ويخرجهما صوتا واحدا، ولذلك فإنّه لا يمكن أن يكون ناقلا محضا لما ينتهي إليه من

1- **كتاب الأغاني**: 11/ 8.

2- م.ن: 11/ 8.

3- م.ن: 11/ 9.

أخبار وإنّما هو متدخّل فيها، متصرّف في روايتها، بجمعه لهذا المختلف وبتوحيده لأكثر من رواية يعود إليها، بغاية تحقيق أخباره وعدم الاعتصام بمصدر فرد ينقل أخباره.

وفي نفس هذا المجال، يمكن أن ننظر إلى إبراز ابن حبيب داخل حلقات الإسناد، إذ يسند الخبر الواحد إلى عدد من المصادر، مزيدا في تحقيق الخبر وطلبا له في مظانّ متعدّدة، وكأنّ التعدّد في الإسناد ضامن لشرعيّة عبور الخبر(وتبقى لهذه الطريقة خصوصيّة مميّزة في أخبار الجاهليّة، بحكم أنّ الرأس يتقصّى أخبارا بعيدة في الحدوث زمنيًا) غير أنّها على تغايرها وتخالفها وتعدّدها تُخرَج على هيئة واحدة وقد أُلّف بينها، فهو مؤلّف بهذا المعنى من ورائه "مؤلّف" لاحق يجمع مختلف هذه التواليف ويُثبت مناطق المخالفة فيها، يُجمّعها متى أراد ذلك ليغلب صوته هو على هذه الأصوات التي وافق بينها.

ويمكن أن نقف على مثال مبين لصفة ابن حبيب التي أثبتنا استصفاء لمختلف الأخبار الدائرة على حدث واحد أو واقعة واحدة:

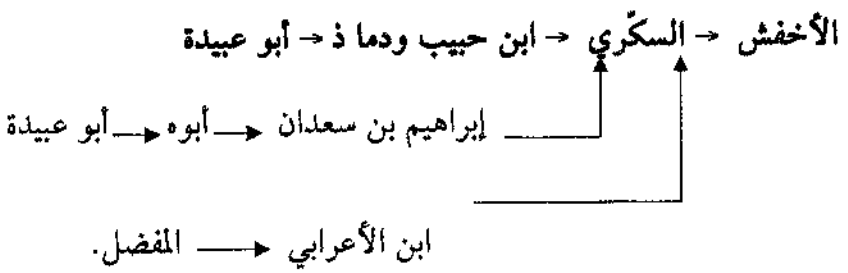

فنلاحظ موقع ابن حبيب من حيث هو داخل في قناة الإسناد ينقل خبرا، يُسنَد إلى غيره إنشاءً أوّليًا وصدورا بدئيًا، غير أنّ دوره لا يتحدّد بالنقل المحض، وإنّما هو فاعل في الخبر بطريقة ما، وإبراز الأصبهاني له، خير دليل على ذلك، وتصرّفه بيّن في رجوعه إلى أكثر من مصدر ينتج الخبر عنه، فيأخذ هذا المجموع ويُخرجه صوتا واحدا، موحّدا بين مختلف الروايات، جامعا شتاتها، غير أنّ دوره هذا، ليس الأخير في تنويع المصادر وتوحيدها، وإنّما يظلّ قدر الخبر أن يعبُر قنوات نقل تحافظ على صورته

وأخرى تعدّد مصادره فتتدخّل في إنشائه. فالخبر التالي -على سبيل المثال مظهر لما يبرزه الأصبهاني من أسماء داخل حلقات "نقل" الخبر: "أخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال حدّثنا أبو سعيد السكّري قال **حدّثنا ابن حبيب** ودماذ عن أبي عبيدة.
قال ابن حبيب، قال أبو سعيد، وأخبرنا إبراهيم بن سعدان عن أبيه عن أبيه عن أبي عبيدة.
قال ابن حبيب أخبرني به ابن الأعرابي.
قال أبو سعيد قالوا جميعا."[1]

فإضافةً إلى ما يمكن أن نلحظه من إبراز لابن حبيب "مصفاةً" أساسيّة للأخبار التي تنتهي إليه، وتحميلها إلى أبي سعيد السكّري، يمكن أن نؤكّد ظاهرة أخرى سلف أن أبنّا عن وجودها، وهي إقصاء المؤلّف تدريجيّا لبعض قنوات النقل إن تعاود الإسناد وثبت المركز المنوّع لمصادره، ولذلك فإنّا نلحظ في إسناده القول إلى ابن حبيب مباشرة، إقصاء للحلقة الواصلة بينهما وهي أبو سعيد السكّري، على ملازمته لابن حبيب وثباته مخرجا أساسيّا لجمل أخباره، كما هو الشأن في حال الطوسي والحرمي مع الزبير بن بكّار. بل يمكن أن نلحظ هذا الدور المهمّ الذي يضطلع به ابن حبيب، تقبّلا لمختلف صور الخبر الواحد، وإخراجا لها في هيئة جامعة وصورة موحّدة:

ابن الأعرابي
أبو عبيدة
أبو عمرو

ابن حبيب ← السكّري ← عليّ بن سليمان

ابن الكلبي
غيرهم[2]

فقد جمّع مصادرَ خبره جملة من الرّواة-العلماء الذين مثّلوا أصول إنتاجه ووحّد أصواتهم على تغاير أساليبهم في الرواية، وعلى اضطلاع كلّ منهم في رواية أخباره بالتعويل على ذاته تجميعا لها وتقصيّا.

1- كتاب الأغاني: 17/ 237.
2- كتاب الأغاني: 22/ 343.

ويمكن في هذا المقام أيضا أن نشير إلى دور مهمّ من أدوار النقلة وهو دور "المؤلّف"[1] الذي يمثّل الصوت الأخير من أصوات تناقل الخبر، وتعرّضنا إلى الرّاوية المؤلّف هو وقوف عند منتهى هذه المراحل التي يمكن أن تكون الجاهليّة-أخبارا- قد عبرتها وتقلّبت فيها. فهذه الرحلة التي تقطعها أخبار الجاهليّة انطلاقا من راوية مصدر يؤسّسها ويبثّها بين رواة تختلف أدوارهم، بين ناقل محض لها وبين رأس يتقبّلها ويعيد إنتاجها خلقا جديدا قد يغاير به الأصل- بشكل أو بآخر- تنتهي إلى آخر الرواة الذي يصلنا بها ويخرجها إلينا. فللمؤلّف صوت يُلمَح ورأي يُبدى، وهو موقف -لعمري- بالغ التأثير إن صرّح به علنا في مواضع وصمت عنه في مواضع أخرى نحال أنّه قايس فيها وفاضل بين الرواة والمرويات. ولنا أن نقارن بين ملاحظته اللّطيفة التي خصّ بها مصعب عندما وقف منه على ما رآه مخالفا للصّواب "وأحسب هذا غلطا من مصعب..."[2]، وبين الشدّة التي أخذ بها ابن الكلبي اتّهاما له بالوضع والكذب، "...وهذا من أكاذيب ابن الكلبي..."[3]، ويقول فيه أيضا: "وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي والتوليد فيه بيّن (...) وإنّما ذكرته لئلاّ يخلو الكتاب من شيء قد رُوي"[4].

ففي القول الأوّل الذي آخذ فيه ابن الكلبي إثبات لصفتي الوضع والتوليد، وهذا "الاتّهام" ناتج عن بحث ونظر في هذه الأخبار التي رواها ابن الكلبي، وفقدانها في مظانّ أخرى عُدّ حجّة على هذا الاتّهام. فلئن كانت أخبار ابن الكلبي موسومة

1- لن نتوسّع في بيان دور المؤلّف ولن نفرد له عنصرا خاصّا بسبب من تعرّض محمّد القاضي في أطروحته "الخبر في الأدب العربي" لهذه المسألة، وإفراده قسما خاصّا لها.

2- **كتاب الأغاني**: 3/ 12.

3- **كتاب الأغاني**: 10/ 40 يقول: "وقال مؤلّف هذا الكتاب: هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلّها، والتوليد فيها بيّن، وفي أشعارها، وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمّة على سائر الروايات، وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير، فإنّه ذكر فيه ما لحق دريد من الهجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قتل معه وانصرافه منفردا، وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنّه ظفر ببني الحارث وقتل أماثلهم. وهذا من أكاذيب ابن الكلبي، وإنّما ذكرته على ما فيه، لئلاّ يسقط من الكتاب شيء رواه الناس وتداولوه".

4- م.ن: 21/ 24. 25.

بالوضع فإنّ قسما كبيرا ممّا وصلنا من أخبار الجاهليّة موضوع بحكم أنّ ابن الكلبي قد أخرج عددا مهمّا من هذه الأخبار[1]، سواء بوجوده راوية أوّلا أو بوجوده ناقلا، حاملا لما ينتهي إليه من روايات سابقيه. وفي القول الثاني الذي أوخذ به ابن الكلبي،عدد من الملاحظات، لعلّ أهمّها إثبات ما تمّ بيانه في "النقد" الأوّل، وإضافة مسألة مهمّة تدلّ على وجود روايات متعدّدة للخبر الواحد، لا تُثبَت –ضرورة– في ما يرويه أبو الفرج، وإنّما هو منصرف في مثل هذه الأوضاع إلى إثبات ما يعتبره نحلا ووضعا، بل إنّه ليُعلن صراحة اشتهار ابن الكلبي بالكذب، وهذه السمة لا تدفع المؤلّف إلى النأي عن أخباره، بل بالعكس تماما، إذ نجده منصرفا إلى رواية أخباره، ممّا يدفعنا إلى التساؤل عن الهاجس الذي غلب على هذا المؤلّف في إخراج أخبار معيّنة والإضراب عن أخرى، فإن كانت غايته تقصّي الحقائق، فلِمَ يثبت "الأكاذيب" !

إنّ هذه المسألة بالذات يمكن أن تُعدّ منطلقا لوصل أخبار الجاهليّة بـ"الكذب الفني"، وكأنّ الوظيفة الجماليّة للخبر مقدّمة على الوظيفة المرجعيّة. إضافة إلى تعويله على الذائقة الجماليّة الغالبة، إذ هي تتحكّم في ما يرويه الأصبهاني من أخبار، من حيث أنّها أخبار قد راجت بين الناس وتداولوها ولاقت عندهم القبول الحسن، فتصير مسألة مسايرة الذائقة العامّة من أهمّ العوامل المتحكّمة في تصريف هذه الأخبار.

إنّ غايتنا الأساسيّة من بيان بعض من مسائل الإسناد، بعيدة –بعض الشيء– عمّا سلف لمحمّد القاضي أن أثاره في القسم المخصّص لـ"قضايا الإسناد"[2]. فلئن كان قد توسّع في مسائل الإسناد هذه وأفاض فيها البحث والطلب، فإنّا ساعون إلى توظيف بعضٍ من هذه المظاهر في الإسناد نظرا في جزئيّات تخصّ أخبار الجاهليّة وتدعم خصوصيّة مبحثنا وخصوصيّة الأخبار التي نعتمدها مصدرًا. فنحن نرمي إلى بيان أصوات داخل أخبار الجاهليّة يمكن أن تؤثّر بشكل أو بآخر في هذا "المنقول الأخباريّ" – وفقا للمفترض الذي صدرنا عنه، والذي نعتبر فيه تاريخيّة أسانيد هذه الأخبار–

1– انظر الجدول الخاصّ بنسب ظهور الرواة المصادر في أخبار الجاهليّة.

2– انظر محمّد القاضي (1998)، الباب الثالث. "قضايا الإسناد في الأدب العربي" ص: 223.

فهنالك مراكز بارزة أصواتها. فهل أنّ بروز أصواتها وإسناد الرّواية إليها[1] ذو دلالة بمقتضاها يحوّر "الخبر المنقول" أم هو مجرّد سياسة من خطط "المؤلّف" في بناء الأسانيد داخل خطّة إيهاميّة تمسّ بعدا من أبعاد بناء القول الأدبيّ؟

لقد أردنا من إثارة مسألة مصادر الرواية الوقوف على المظاهر التي يبدو عليها هؤلاء الرّواة، من حيث أنّهم يُخرّجون نصيّا وتاريخيّا الرّواة الأصليّين لهذه الأخبار، وبيان إشكال رئيسيّ في أخبار الجاهليّة قد يُتّخذ مُنطلَقًا يُيَسّرعلينا الإقرار بأدبيّة هذه الأخبار، وهو انقطاعها ووقوفها عند حدّ الرّواة الذين امتهنوا الرواية في مرحلة لاحقة، فلا نحن نظفر بأخبار تُسند إلى من عُدُّوا من أوائل مخرجي هذه الأخبار وهي الطبقة التي نعتناها بالرّواة الغائبين، ولا نحن نعاين تواصلا يغلب على أسانيد هذه الأخبار فيشُدُّ لاحقها إلى سابق يصلها بالجاهليّة رأسا، وقد تكون مسألة الرّواة الغائبة أسماؤهم حُجّة تبين عدم الاهتمام عند الأوائل بإسناد هذه الأخبار إلى صاحب يُكسبها شرعيّة تناقلها. إذ نلحظ تماسكا بيّنا في جلّ مراحل الإسناد وحلاّ لهذا العقد المنتظم في أواخره، بإثبات صفات ما أو بتركه دون تسييج ودون تسميّة أو تحديد.

إنّ ما نريد إثباته من هذه النظرة العجلى في بعض رواة أخبار الجاهليّة، الفاعلين والواقعين في محلّ النقل، هو وجود أصوات داخل الأسانيد قد تساهم في تشكيل هذه الأخبار.

إنّ العلاقة الإنتاجيّة يمكن أن تظهر بواسطة هذه الإشارات التي يبدو فيها الفاصل بيّنا بين مواضع النقل ومواضع الإنتاج. فلقد سلف أن حدّدنا جملة من الأسماء المتعاودة التي تتعاور أخبار الجاهليّة وتساهم في تحويلها عبر تنقّلها روايةً، فكلّما تقدّمت في الزمن ونأت عن المرحلة التي تعبّر عنها، اقتربت من التجريد والتمثيل والتصوير. ويبدو أنّ عمليّة التحويل لم تكن على صورة واحدة ولم تكن

1- لك أن تنظر عددا جمّا من الأمثلة التي يُبرِّز فيها "المؤلّف" راوية من مواضع "النقل" ويُسند إليه فعل الرواية، ويمكن أن نُظهر منها مثلا يُعلن فيه المؤلّف تصرّف "الناقل" في اللّفظ الذي أُخرج عليه الخبر دون حرج "... أخبرني به عمّي قال حدّثنا أحمد ابن عبيد الله قال أخبرنا أحمد بن يزيد الكلبي أبو عبد الله قال حدّثني معروف بن خرّبوذ عن يحيى بن أيّوب عن أبي زرعة بن عمرو، قال سمعت جدّي جرير بن عبد الله –ولفظ هذا الخبر لأحمد بن عبد الله وروايته أتمّ– قال...". الأغاني: 2/ 11

مظهرا واحدا أو فعلا واحدا يُسنَد إلى أولئك الرّواة الأوَل، وإنّما هي عمليّة متكرّرة موصولة بـ"إعادة الإنتاج المتكرّرة" للخبر. ولقد مثّلت الجاهليّة مجالا وسيعا لإثراء عمليّة "التحويل"، ذلك أنّ التحويل لم يكن قائما على حقائق معاينة مشاهدة في أغلب الروايات وإنّما قد تمّ باعتماد تصوّرات سائدة.

ولذلك فإنّ الرّواة الأوَل لا يتحمّلون نتج الأخبار بمفردهم وإنّما قد شاركهم في ذلك عدد من الرّواة اللاّحقين الذين أعادوا صياغة هذه "المنقولات"، لأنّه يعسر أن نجزم بهذه العمليّة الإسناديّة برمّتها هي عمليّة إيهاميّة تُبتَكَر فيها أسماء تُكَأة، كما يعسر أن نقرّ انعدام تناقل الخبر. ولكن على أيّة هيئة كان هذا التناقل؟

إنّ ظاهرة الرّواة الرّؤوس موصولة في جانب كبير منها بوعي "المؤلّف" بإعادة الإنتاج المسندة إلى الرّواة الثواني، وبإدراكه مواقع القدرة على تحويل "المنقولات" القوليّة. ولذلك فإنّا نراه يميّز الرّواة الرؤوس من الرّواة النّقَلَة. فنكون بذلك قد بلغنا طرفا من أطراف الإسناد يوزّع جملة هذه المواضع التي حاولنا إبانتها، ويكون هو منتهى هذه الأخبار بعد رحلتها المثبتة.

إنّ الجاهليّة وهي تُصاغ أخبارا تُروج بين النّاس، قد مرّت بمراحل عديدة-وفقا لما أظهرناه في مراحل البحث السابقة- ومرّت بالتالي بأزمنة متغايرة لها مواقف متضاربة من هذه المرحلة التاريخيّة. وقد اهتمّ بصياغتها رواة عايشوا هذا العصر بكلّ ما تحمله من تضارب في الرؤى، وبكلّ ما يمكن أن تقتضيه الذائقة الغالبة من أشكال في التعبير تفرض على هؤلاء الرّواة أن يقدّموا أخبارهم وفقا لما يُوائم هذه الذائقة.

إنّ ما يمكن أن ننتهي إليه من إثارتنا لمسألة مصادر الرواية في أخبار الجاهليّة، هو أنّ مسألة التواصل بين الجاهليّة ورُواتها مسألة لا تظهر في هذه الأخبار، وإنّما الغالب هو القطيعة الفاصلة بين رُواة لهم من الكفاءة والقدرة ما يخوّل لهم إنتاج عدد مهمّ من الأخبار وفقا لتشكيل أخبار عامّة رائجة[1]، تمثّل صورة محدّدة للشخصيّة المرصودة أخبارها أو للقبيلة المرشّحة مدارا للأخبار. ولذلك فقد كانت هذه الأخبار في جلّ

1- ودليلنا على ذلك تكثيف هؤلاء الرواة المجاهيل واختلال الرواة"الحَمَلَة" موضع الصدارة من إنتاج هذه الأخبار.

مظاهرها مسندة إلى الرّواة- العلماء، وهـذه المسـألة يمكـن أن تكـون موصـولة بـوعي "المؤلّف" بأثر هؤلاء في بناء هذه الأخبار وصياغة "المادّة" الأخباريّة التي تنتهي إليهم واحدة وتخرج منهم عددا وفقا لطرائقهم في صوغها وتحديد معالمها.

الباب الثاني

في طرائق بناء صورة الجاهلية

الباب الثاني

في طرائق بناء صورة الجاهلية

نصرف جهدنا في هذا الباب إلى محاولة بيان بعضٍ من الخصائص التي تضامّت وتضافرت لتوفير مكوّنات الخبر ولتوجيه قارئه أو سامعه إلى تمثّله وتصديقه. ولقد اعترتنا حيرة الباحث –وإنّها لحيرة كؤود على من يسابق الزمن فلا هو مدركه ولا هو مدرك من مراده مقتلا– في خطّ أسلم المسالك التي يمكن أن نستند إليها نهجا للنظر في المدوّنة وفقا لمقاصد رمنا بلوغها. فتهنا بين مختلف المناهج السرديّة، وكان لنا ما كان من تجارب إجرائية انتهى جلّها بالفشل بسببٍ من إجراء مناهج لا صلة لها في تكوّنها وتحديد عناصرها وضبط محاور اهتمامها بالمدوّنة التي ندرسها ولا بخطوط البحث التي خططنا. فكان أن آثرنا التعامل مع هذه المناهج بانتقاءٍ نراعي فيه خصوصيّة المدوّنة وتميّزها، ناهيك أنّ أغلب النظريّات السرديّة كانت نابعة من النظر في مدوّنات بعينها، عنها صدرت طرائق في التحليل مخصوصة، وقسم مهمّ من الاختلاف بين هؤلاء المنظّرين –وإن كان اختلاف تكامل– راجع إلى اختلاف الآثار التي صدروا عنها والسياق التاريخي الذي وجدوا فيه. وهذا ما سوّغ لنا حريّة التعامل مع عناصر التحليل التي وفّرتها هذه المناهج دون مطلق اعتصام بحدودها النظريّة، واحتكاما إلى الخصوصيّة التي يقتضيها الأثر الذي ندرسه. ولذلك فقد حدّدنا بعد مديد نظر وطول ممارسة جملة من المسائل بدت لنا موافقة لأخبار الجاهليّة، يسيرة الإجراء، فضبطنا محاور بحث هي حصيلة مزاوجة بين هذه الأخبار والزاد النظريّ السرديّ، مع إجازة الانحراف عن حدود هذه المسالك في صيغتها المضبوطة متى وجدنا تنافرا بينها وبين الخبر. ومن أجل ذلك فقد آثرنا الالتزام بوضعنا التاريخيّ والاستفادة من مجمل المحدثات الخاصّة بالنظريّات السرديّة والخِطابيّة عموما، ولكن مع مراعاة الوضع التاريخيّ للأثر الذي ننظر في طرائق بنائه. فكان نتاج ذلك أن قسّمنا هذا الباب إلى

ثلاثة فصول علّنا أن نتبيّن منها السبل المتوخّاة لرصد صورة عن الجاهليّة، هي في جانب كبير منها موصولة بالصياغة وبالخطّة التي ينتهجها منتج القول الأخباريّ وبموقعه التاريخيّ. فسعينا أن نثير في الفصل الأوّل مسألة الخبر من حيث هو وحدة سرديّة تامّة-[1]، فنظرنا في تضامّ المقاطع لبناء أحداث الخبر أو لبناء حدثه الرئيس، وعالجنا في قسم ثان من هذا الفصل مسألة تراوح الخبر بين الاقتضاب والإفاضة، والوسائط المعتمدة إيجازا أو توسيعا. وحاولنا في الفصل الثاني أن ننظر في ظاهرة مهمّة وإن لم تشكّل سمة مهيمنة، غير أنّ وجودها على عدم غلبتها لافت للنظر وحقيق بالدراسة في رصد الوسائط السرديّة في النصوص النثريّة الأولى في التراث العربي، وهي مسألة تفاعل الأخبار وتعاضدها في رصد صورة ما عن الجاهليّة، إذ لا يكتفي الراوية بالخبر الواحد وإنّما هو يُكمّل أحداثه بأخبار أخرى تمثّل تواصلا حدثيّا وإن تنوّعت الأسانيد وتغايرت، فتمّحي الحدود الفاصلة بين الأخبار -في قسم منها- ويُكمّل الخبرُ الخبرَ، وهو مدخل لإثارة مسألة الرواة ودور الرواية في تبديل صياغة الخبر من جهة وفي توسيع زاوية النظر أو تضييقها من جهة ثانية.

وقد كان بناء هذه الفصول مستند إلى منطق تحكّم في عناصرها، ووصل بعضها ببعض، منه ننظر في أخبار الجاهليّة وفق مستويات قصدنا إليها قصدا، ذلك أنّ البحث في البنية الحدثيّة سبيل لبيان طرائق صياغة عناصر الخبر، وواسطة منها نُدرك مواضع الاقتضاب ومواضع الإفاضة في حياكة الخبر، ومنه أيضا يُمكن أن ندرك تفاعل الأخبار تكاملا لتمام رصد صورة الجاهليّة. وهي فصول استندنا عليها لغاية بيان بناء الخبر وطرائق صياغته، بدءا برصد بناء المادّة الحدثيّة وانتهاء ببيان اشتغال الأخبار تضامّا وتعالقا.

وأملنا أن نكون بإثارتنا لهذه المسائل قد أبنّا خصوصيّة أخبار الجاهليّة بنيةً حدثيّةً وصياغةً وإخراجا للشخصيّة من حيث هي وسائط تُحاك بها صورة مخصوصة عن الجاهليّة.

1- محمّد القاضي (1998): ص353.

الفصل الأوّل

البنية الحدثيّة للخبر

لقد تنازعتنا المسالك في سعينا إلى النظر في البنية الحدثيّة للخبر، وكادت أن تثلج ما كان فينا مدّا وانطلاقا إلى السياحة في هذه الأخبار، بسببين، أوّلهما اختلاف طرائق استخراج بنية الخطاب الحدثيّة في صورتها العامّة، وثانيهما تنوّع مواضيع أخبار الجاهليّة،إذ يعسر أن نشدّها إلى ضابط حدثيّ ينتظم عناصرها، وإن كان محمّد القاضي قد ظفر في دراسته لبنية[1] الخبر بنتائج مهمّة عسّرت علينا النظر في هذا الركن، إذ تمكّن بواسطتها من ضبط جملة من القوانين المتحكّمة في بنية الخبر، ولعلّ أهمّها وسمها بالبساطة[2] وبيانه للبنى المتداولة[3] وللثنائيّة الغالبة[4]. وهذه النتائج على أهميتها تبقى مسكونة بهاجسين أوّلهما محاولة تسييج بنية الخبر الحدثيّة في صورة جامعة، وهيئة شكليّة يمكن أن تلتقي فيها جلّ الأخبار، وثانيهما استنتاج قوانين عامّة تخصّ بنية الخبر الحدثيّة، فهذان الهاجسان النظر في الخبر دون التقيّد بجنس فرعي مخصوص، والسعي إلى ضبط قوانين هذا الجنس في صورته العامّة، هو الذي حدا بمحمّد القاضي إلى استخراج بنية تُجرى على الخبر وهي نابعة منه، لا يمثّلان منطلقا نصدر عنه، إذ

1- م.ن ص : 353.

2- م.ن ص: 358 يقول: "وأمّا الخصيصة الثانية التي بدت لنا واضحة في الأخبار فهي بساطة بنيتها، وليس لهذه البساطة علاقة بطول الأخبار أو قصرها، وإنّما تلتمس البساطة في الحركة السردية التي يمكن أن تختزل غالبا في ثنائيّة رئيسيّة واحدة". وانظر كذلك ص:346 في وصله البساطة التي تُوسَم بها الأخبار بـ"الأشكال البسيطة".

3- يحصر القاضي البنى الغالبة على الخبر، ويحدّدها بأربع بنى هي: الطلب والمخالفة والتحويل واللّغز، وهي حسب رأيه أكثر البنى تداولا. انظر: نفسه ص362.

4- م.ن: ص: 358، إذ يحدّد الثنائيّة الغالبة وهي الطلب والاستجابة أو الطلب وعدم الاستجابة.

أنّا لا ننحو ذات المنحى[1]، فنحن نتقيّد بمدوّنة محدودة وبأخبار مخصوصة تمثّل فرعا من فروع الخبر، ولا نسعى في ذات الآن إلى إظهار القوانين المتحكّمة في أخبار الجاهليّة، وإنّما جهدنا منصرف إلى بيان اشتغال عناصر الخبر الحدثيّة لصناعة صورة عن الجاهليّة، فنركّز نظرنا في تضافر مكوّنات الخبر الحدثيّة تضامّا وتعالقا لإنتاج هذه الصورة، فلا نستهدف ردّ المتفرّق إلى جامع يوحّده، وإنّما نحن منصرفون إلى التماثل إن وُجد، منصرفون عنه إن انعدم مع المحافظة على خصوصيّة كل خبر أو كل موضوع أخباريّ في طريقة بناء أحداثه، واصلين هذا الشتات بمبدأ المحاور الغرضيّة التي تجتمع فيها هذه الأخبار، صادرين عن الحدود النظريّة المجرّدة، مبينين عن طرائق التصرّف وإمكانات التنويع.

إنّ الخبر شأنه شأن كلّ خطاب سرديّ يتشكّل من تضامّ عدد من المقاطع[2] التي تتالى وفق خطةّ قوليّة مخصوصة، وهي بدورها تتكوّن من عدد من المقاطع الفرعيّة[1] أو

---

1 - لقد تعمّق القاضي في دراسة هذه المسألة وبلغ نتائج مهمّة يعسر أن ننقضها، غير أنّنا ساعون إلى محاولة الإضافة وتعمّق دراسة بنية الخبر الحدثية من جهة مغايرة وباتّخاذ مدوّنة محدودة. ولذلك فإنّا نقرّ نتائجه وننطلق منها، غير أنّنا لسنا بالضرورة بالغين ما بلغه. فلقد انتهى القاضي في دراسته للبنية الحدثية في الخبر إلى تأكيد بساطتها باعتبار قيام الحركة فيها على ثنائيّة واحدة -في الغالب- مهما طال الخبر. ونحن ولئن كنّا نجاريه رأيه وفقا لما اعتمده من مدوّنة شاملة، جامعة فإنّا لن ننحو منحى تقصّي بنية مخصوصة تجتمع فيها هذه الأخبار، وإنّما نحاول إثارة خصوصيّة البنية الحدثيّة في الخبر. إذ هي تتنوّع بتنوّع الموضوع أو الغرض المُثار، وبساطتها -بالمعنى الذي قصده القاضي- هي بساطة نسبيّة (وقد أشار القاضي إلى ذلك، انظر ص 362 من المرجع نفسه.)، نظرا لوجود عدد من الأخبار المركّبة. وإن غلبت الأخبار البسيطة فإنّ هذه الأخبار المركّبة -على عددها النزر- مهمّة في دراستنا، لأنّها تمثّل ظاهرة قصصيّة رائدة في تراثنا النثري. ومن هنا تتأتّى قيمتها ويظهر سندنا في اعتمادها وإن لم تغلب على المدوّنة.

2- نقصد بالمقطع الوحدة المعنوية الكبرى في الخبر. إذ هو الجزء الذي يؤدّي معنى يمكن أن يستقلّ به في الخبر، غير أنّه يتعالق مع بقيّة معاني المقاطع المحيطة به. وهي معان تتعالق وتتضامّ لبناء المعنى العام للخبر. فنحن نجري مصطلح المقطع دلالة على القسم من الخبر الذي يحتوي على جزء حدثي له دور فاعل في تمامه والذي يكوّن فعلا دلاليّا يصوّر مرحلة من مراحل الخبر الحدثية، وهو يحوي داخله جملة من الوحدات الفرعية. وحسبنا في هذا المقام أن نتتبّع المقاطع في حدودها الموسّعة دون تقصّي وحداتها أو جملها السردية التي تشكّلها.

ونشير في معرض ضبطنا لحدّ تجريه على المقطع، أنّنا على وعي بجملة الخلافات النظريّة الحاصلة في خصوص حدّ المقطع. ونسعى إلى الإفادة من هذه الخلافات ومن جملة الحدود النظريّة ولكن دون التزامها مطلق الالتزام، ذلك أنّا نسعى إلى تبسيط حدّ المقطع وضمان إجرائه على المدوّنة. فلا ننحو منحى تودوروف في حدّه للمقطع بأنّه كلّ ما احتوى وضعا قارّا ثابتا تُربكه قوّة ما تدخل عليه فتنتج وضع الارتباك، ثمّ يُستَعاد التوازن بفعل قوّة تُوَجّه في الاتّجاه المضادّ، وبذلك فإنّ كلّ مقطع يحوي خمس جمل كبرى (*macro propositions*)، وهي:

ج1- الوضع القارّ. (*Situation stable*)

ج2- القوّة المربكة. (*Force quelconque vient perturber*)

ج3- وضع الارتباك الناتج عنها. (*état de déséquilibre*)

ج4- القوّة الموجّهة في الاتجاه المضادّ لاستعادة التوازن. (*L'action d'une force dirigée en sens inverse*)

ج5- التوازن الجديد. (*Le second équilibre*)

انظر في ذلك:

- T. Todorov : « **Poétique** ». Ed.Seuil.1986.P82

ولا نقرّ أيضا الصورة التي أقرّها لاريفي للمقطع بما فيها من إطلاق، والتي حدّها على الشكل التالي: وضع أصلي← تحويل← وضع نهائي. (انظر في ذلك كتاب "النص السردي ص 32.) وإن كانت تمثّل هيكلا عامّا مغرقا في التجريد ويجري على مختلف الخطابات السردية. وإنّما تعريفنا يصدر عن حدٍّ أقرّه جان ميشال آدم في كتابه *"النصّ السرديّ"* وهو:

"يمكن تعريف الوحدة النصيّة التي أسميها بعبارة **المقطع** من حيث هي بنية أي من حيث هي:

- شبكة علاقات تراتبيّة: عرضٌ يمكن تقسيمه إلى أجزاء موصول بعضها ببعض، وبالكلّ الذي تبنيه.
- كائن مستقلّ نسبيّا: مكتسب لمنظومة داخليّة تخصّه، وهو إذن في علاقة خضوع/ استقلال، مع مجموع أوسع يكون فيه جزء.

- Jean Michel Adam ;" **le texte narratif**". Ed Nathan. 1994.P111. □

1 – « micro-séquence ». Barthes Roland : « *Introduction à l'analyse structurale des récit* ». in « ***l'analyse structurale du récit*** ». Communication 8. Ed du seuil , 1981. p20. □

من الجمل الكبرى[1] التي يتشكّل منها معنى المقطع. ونرصد في هذا الشقّ من البحث بنية أخبار الجاهليّة، نظرا في مقاطعها ومكوّناتها وفي طرائق تناظمها وتراكبها. وانصرافنا إلى سلوك هذا السبيل راجع إلى سببين رئيسيين:

* السعي إلى بيان تعالق المقاطع لبناء الحدث.

* تحديد المقاطع الثابتة والمتغيّرة في بنية أخبار الجاهليّة.

ونظرنا في طرائق تركيب بنية الخبر الحدثيّة هو سبيل لبيان مختلف الوسائط المعتمدة لبناء صورة الجاهلية وكيفيّة انتظامها تشاكلا ومخالفة، بغاية الوقوف على خصائص هذه البنية، ولقد لاحظنا أثناء تعاملنا مع المدوّنة تباينا ناتجا عن اختلاف الأغراض التي تنصرف إليها هذه الأخبار، قد يؤدّي بنا إلى عسر الجمع بينها على مستوى بنائها وعلى مستوى تحديد مقاطعها وجملة مكوّناتها الحدثيّة-. فكان لزاما علينا أن نفصّل النظر في هذه المدوّنة، بتحديد محاور غرضيّة[2] كبرى تمكّننا من محاصرة شتاتها وضمّ متفرّقها، فكانت خطّتنا أن ندرس المكوّنات الحدثيّة لكلّ محور، ثمّ نعرض نتاجها بعضه على بعض، علّنا ندرك منها المشترك، وإلاّ تركناها على خلافها، راصدين تفاعلها وتناظمها.

إنّ أخبار الجاهلية تتناول عددا من الأغراض المتنوّعة، إذ نجد فيها الصعلكة والأيّام والبطولة والكرم والوفاء... ويعسر أن نتناول كلّ غرض على حدة، وإن كان مذهبنا يأخذ بعين الاعتبار هذا التصنيف الغرضيّ، فكان من الأيسر أن ننظر في هذه الأخبار وفق محاور تجتمع فيها الأغراض وتتلاقى، فأخبار الجاهليّة -عموما- يمكن أن تُشَدّ إلى محورين حدثيين كبيرين يحويان عددا من الأخبار التي تتكوّن من مقاطع تؤكّد

1- "macro propositions". يشير جان ميشال آدم إلى أنّ المقطع يتكوّن من هذه الجمل الكبرى أو من "الجمَل" "paquets de propositions"، يقول ص 111-112 من المرجع المذكور سابقا: إنّ المقطع هو وحدة مكوّنة للنصّ ومتكوّنة من مجموع جمل (الجمل الكبرى)، هي في حدّ ذاتها متكوّنة من عدد من الجمل".

2- Axes thématiques

هذا المحور أو ذاك، وهما محور الصراع ومحور القيم. ولقد فصلنا بين هذين المحورين لغاية إجرائيّة وإن كان التداخل بينهما حاصلا، فأمّا محور الصراع فإنّا نقصد به المحور الذي تجتمع فيه أخبار تغلب فيها الأحداث الخاصّة بتصوير النزاع بين الأفراد أو بين القبائل. وأمّا محور القيم فإنّه يجمع أخبارا لا تختصّ بنقل صورة عن جاهليّة تسود فيها الصراعات والخصومات، وإنّما هي منصرفة إلى رصد صورة شخصيّات فاضلة، تختصّ في بنائها بقيمة من القيم التي ميّزت الفضاء الجاهليّ فعُدّ أصلها وحوى نماذجها العليا. والبنية العامّة لهذين المحورين معا تقوم على الثلاثيّة التقليديّة التي تحدّ أحداث السرد، وهي ضبط وضع أوّليّ يُدخل عليه إرباك ما ثمّ يُختَم السرد بوضع نهائيّ يكون نتاج هذا الإرباك. غير أنّ هذه الأوضاع العامّة يمكن أن تشكّل ثلاثة مقاطع يؤدّي كل مقطع منها وضعا معيّنا، وتمثّل الحدث الأساسيّ للخبر، ويمكن أن تضمّ جملة من المقاطع لا تنحصر ضرورة في وضع من الأوضاع.

فأمّا محور الصراع فهو ظاهر في عدد مهمّ من الأخبار حتّى تكاد الجاهلية أن تُحصَر أحداثها في النزاع والمقاتلة ومختلف ضروب الصراع القولي والفعلي، وتدور على هذا المدار مقاطع الخبر، تتالى وتتفاعل داخل هذا المحور، وأمّا محور القيم فإنّنا نجده في مواضيع عدّة مثل الدفاع عن الظعائن والوفاء والكرم.. وهو محور يُظهر الوجه الثاني للجاهلية. ويعسر في كلّ من المحورين أن نتحدّث عن بنية ثابتة سواء على مستوى الوظائف المكوّنة لأحداث الخبر أو على مستوى تشكّل مقاطع الخبر، وقصارى ما يمكن أن نثبته في هذا الإجراء هو تنوّع البنى المقطعيّة بتنوّع المحور أوّلا وبتنوّع الموضوع الذي تتجمّع فيه عناصرها ثانيا. تساير أخبار القيم في بناء مقاطعها جملة الأخبار القائمة على أوضاع ثلاثة، عليها تُبنى الأحداث وتُقام، وهي الوضع الأوليّ الذي فيه تُبذَر الأحداث وتُقَدَّم الشخصيّات وتتحدّد مواقعها. ووضع الأزمة الخاصّ بتعقّد الأحداث، ذلك أنّ الشخصيّات الفاضلة غالبا ما تتعرّض إلى طلب يعسر تحقيقه، وبسببٍ من تركيزها شخصيّة قادرة على تحقيق الطلب فإنّها تسعى إلى تجاوز الأزمة وتخطّيها، وهو ما يؤدّي إلى تأسيس الوضع الثالث الخاصّ بفكّ الأزمة أو بالخلاص.

وتغلب على هذه المقاطع ثنائيّة الطلب وتحقيق الطلب، وقد يحوي الطلب أو السعي إلى تحقيقه عددا من الأفعال التي تُشكّل مقاطع يمكن أن تلزم الحدّ العامّ لهذا المحور ويمكن أن تتعدّاه توسيعا لمجالها وإفاضة في أحداثها. ويمكن أن نجري هذه الثنائيّة هيكلا عامّا مجرّدا لا يخلو من استثناءات. ذلك أنّ محور القيم منصرف إلى بيان الخصال الفاضلة لشخصيّات الجاهليّة عبر أفعال بها تتحقّق قيمة أخلاقيّة من مجموع القيم السائدة في المجال الجاهلي. وعلى ذلك فإنّ شخصيّات هذا المحور تتركّز قبلة لطالبي حاجات يصبون إلى تحقيقها، فتتحقّق، طلبا لضيافة و إقراء أو طلبا لجوار وإقامة، أو طلبا لحماية وذود...

ولبيان طرائق بناء هذه المقاطع في هذا المحور، نقدّم عددا من النماذج فيها تظهر هذه الأقسام ونعرض نتاجها على ما نبلغه من نتائج في دراستنا لمحور الصراع ومنها يمكن أن ندرك البنى الحدثيّة المهيمنة في أخبار الجاهليّة. فخبر السموءل مع امرئ القيس[1] قد قام على هذه الثنائيّة، إذ تشكّل حدثيّا من طلب تقدّم به امرؤ القيس للحماية وتحقيق أسنِد إلى السموءل، وتعاودت هذه الثنائيّة طلبا وتحقيقا للطلب، ويمكن أن نرصد ذلك في تتالي هذين الفعلين:

1- *كتاب الأغاني*: 22/ 109.

* لجوء امرئ القيس إلى السموءل = طلب الحماية.

⇓

* نعرف لهما حقّهما...= تحقيق الطلب.

⇓

* ثمّ إنّ امرئ القيس سأله = الطلب.

⇓

* ففعل= تحقيق الطلب.

⇓

* طلب الحارث بن ظالم متاع امرئ القيس= الطلب.

⇓

* فلست أخفر ذمّتي ولا أسلّم مال جاري= رفض الطلب.

فالثنائيّة الأساسيّة التي تحكّمت في هذا الخبر هي الطلب وتحقيق الطلب، وما الرفض الوارد في الثنائية الأخيرة إلاّ تحقيق لطلب أوّل. فرفض مطلب الحارث بن ظالم هو تحقيق لطلب امرئ القيس الأوّل وهو ما يُشكّل مقطعين يمثّلان مرحلتين حدثيتين، مقطع أوّل يكوّن وضعا أوّليّا يتحدّد بضبط علاقة مخصوصة بين امرئ القيس والسموءل، وهي علاقة الطلب وتحقيق الطلب، وحدوده من "إنّ امرئ القيس" إلى "فكانت عنده ما شاء اللّه"،وأمّا المقطع الثاني، فقد تكوّن هو أيضا من الطلب وتحقيق الطلب، محافظةً علي نفس المواضع فاعليةً و مفعوليةً. وحدود هذا المقطع الفرعي، من قوله "ثمّ إنّ امرئ القيس" إلى "مع ابنته هند"، ويؤسّس هذان المقطعان حدثا مهمّا في بنية الأحداث هو ذود السموءل عن امرئ القيس وتحمّله الدفاع عن متاعه وآله. فهذا المقطع إذن يمثّل مرحلة حدثيّة أولى هي قبول الودائع، ويلي هذا الحادث فعل يمثّل مرحلة الاختبار إظهارا لصورة عن السموءل تكوّنت من نجاحه في اختبار الوفاء. وينتج المقطع الثاني عن الحدث المكوّن للمقطع الأوّل المتمثّل في قبول حماية ودائع الطالب، إذ يتدخّل طرف يُربك الأحداث ويوتّرها، وهو الحارث بن ظالم، بطلبه

الودائع من السموءل، وحدود هذا المقطع، من "قال: ونزل الحارث بن ظالم" إلى "ولا أسلّم مال جاري" وهو مقطع قائم على ثنائيّة الطلب ورفض الطلب، إذ يردّ السموءل طلب الحارث ، وفي ردّه تحقيق للطلب المذكور في المقطع الأوّل، ويمكن أن نرصد العلاقة بين الطالب والمطلوب، فنصوّرها على الهيأة التالية:

*** المقطع الأوّل: امرؤ القيس + السموءل**

امرؤ القيس + السموءل

*** المقطع الثاني:** الحارث بن ظالم + السموءل

الحارث بن ظالم ¯ السموءل

فيُشكّل السموءل مركز لقاء الطالبين، وتحقيقه لطلب الواحد منهما يساوي رفض طلب الآخر، وقد رسمنا هذه العلاقة في محورين:

• محور الطلب:

السموءل

طلب طلب

امرؤ القيس ◄ ---------- الحارث بن ظالم

*** محور جواب الطلب :**

السموءل

تحقيق رفض

امرؤ القيس ◄- ------رفض---------- الحارث بن ظالم

وعلى ذلك فإنّ المقاطع تتالى لبيان القدرة على تحقيق الطلب، وإن كان التحقيق يساوي القضاء على ابن المُحَقِّق كما هو الشأن في خبر السموءل أو كان التحقيق معجزا مثلما هو الحال في خبر حاتم الطائي ، إذ يُطلَب منه إكرام النازل بقبره وهو ميت، فيأتي ذلك وهو الساكن خلف الترب، ويُحقّق طلب الطالب[1]. فتُبرَزُ

1- م.ن: 17/ 287..300.

الشخصيّة بما تأتيه من فعال تحقيقا لما يُطلَب منها بصورة ظاهرة معلَنة أو بما تراه هي فرضا وإن جاء الطلب خافيا مضمَرا. ولذلك فإنّ أهمّ المراحل الحَدثيّة التي بُنيت عليها أخبار القيم –دون إطلاق أو تعميم– هي: الطلب ← المأزق← التحقيق.

وعلى هذه الهيأة تُرصَد صورة صاحب الفعل الذي يُؤْثِر على نفسه وإن كانت به شِدّة. ولعلّ المثال الأبين على ذلك، ظاهر في خبر ترويه ماوية لابن أخيها عن حاتم في حال من أحوال كرمه، أو في حدث من عجيب الأحداث التي عاينتها فيما يأتيه من كريم الفِعال[1]. وقد قام هذا الخبر على ثلاثة مقاطع، تترابط حَدَثيًّا لإخراج هذه الصورة. فأمّا المقطع الأوّل فإنّه يمتدّ من قوله: "**أصابت النّاس**" إلى "فسكت"، وفيه إظهار لوضع أوّليّ يبين فيه المتحدّث شدّة أصابت النّاس عامّة، حتّى افتقروا إلى الزاد وعجزوا عن إطعام عيالهم، وتبدو هذه الحال في تصوير علاقة حاتم بأبنائه وزوجته، إذ هو يُعَلِّل عياله حتّى يستسلموا للنوم على ما بهم من شدّة الجوع، وهو عاجز عن توفير زادهم. وهو وضع تتركّز فيه حال الحاجة التي تلحق حاتما وآله. وأمّا المقطع الثاني فهو ناتج عن الوضع السالف ذكره في المقطع الأوّل، وهو يحوي الأزمة وحلّها، والطلب وجوابه. فكأنّ الأزمة لم تلحق حاتما إذ اشتكى أبناؤه من الجوع ومسّته إذ جاع عيال الآخرين، وكأنّ الطلب لم يتحقّق بطلب عياله المأكل منه، وتحقّق عندما صدر الطلب عن الآخرين. فظهور طرف طالب يُشفَع بقبول الطلب وتحقيقه ودفعِ ما أُثبت في الوضع الأوّل أزمةً لا يبدو لها من حلّ، بل إنّنا لنراه يُحقّق مطلب العشيرة كلّها وإن لم تطلب منه حاجتها. وهي صورة مطلق الكرم تُثبَت في أحداث هذا الخبر، وحدود هذا المقطع من قوله: "فنظر إلى فتق في الخباء" إلى "فاجتمعوا حول تلك الفرس"، وفيه تظهر الثنائيّة الرئيسيّة، الطلب وتحقيق الطلب. غير أنّ الطلب لا تظهر قيمته إلاّ بما تركّز في الوضع الأوّل وما تركّز أيضا في الوضع النهائيّ الذي يمثّل المقطع الأخير من مقاطع الخبر، وحدوده من قوله "وتقنّع بكسائه" إلى "وما ذاقه"، وهو مقطع وجيز يمثّل الحال الختاميّة لأحداث الخبر، وفيه بيان لحالين ختاميين مهمّين، هما حال القوم وقد دفع عنهم حاتم بفعله ألم الجوع ومهّد لهم سبيل النوم الهنيء، وحال حاتم التي لم تتغيّر

1- م.ن: 17/ 302.

في الظاهر وظلّ جائعا. فنلحظ بذلك أنّ مقاطع الخبر تتالى وتترابط حدثيّا بغاية إظهار هذه الصورة المسنَدة إلى حاتم الطائي.

إنّ قسما كبيرا من أخبار القيم يتركّز على تحقيق الطلب بشتّى الوسائط وفي كلّ الأحوال يسيرها وعسيرها. وهذا يظهر أيضا في خبر عمرو بن معد يكرب[1]، الذي يظهر في صورة منجد المستنجد فهو بغية المستجير وأمل الأسير، إذ ينتهي إلى سمعه صوت يطلب الغوث منه ويستجير به دون أن يلمح وجوده فيسرع إلى نجدته وإطلاقه من قيده. ويركّز الراوية على إحاطته بمقام خارق تهيئا للفضاء الذي تمّت فيه النجدة "ليلة باردة" وإلحاحه على خروجه إلى القوم فردا رغم أنّه كان في صحبة من قومه. فيتشكّل الخبر من مقاطع تُكوّن مراحل الخبر الحدثيّة، وتتفاعل هذه المقاطع وتتالى لإظهار هذه الصورة المرصودة للشخصيّة:

م1: وضع أوّليّ ← م2: أزمة (طلب) ← م3: خلاص (تحقيق الطلب).

وتظهر هذه المراحل الحدثيّة في عدد مهمّ من أخبار الجاهليّة الواردة في كتاب الأغاني، وصورتها الأجلى و الأبين تتحقّق في مواضيع الكرم والجوار ونجدة المستنجد والدفاع عن الظعائن، وهو ما مثّل المحور الحدثيّ لجلّ أخبار ربيعة بن مكدم[2]، إذ يدور أغلبها على حدث دفاعه عن الظعائن، وتُوَظَّف مجمل مقاطع الخبر لبناء هذا الحدث. ففي الخبر الذي يورد وفاة ربيعة بن مكدم في حال حماية ظعائن بني كنانة، بيانا لمعنى الدفاع عن الظعائن حدّ الموت، نلحظ في مقاطعه الثلاثة تركيزا لهذه الصورة. فالمقطع الأوّل يُصوّر حدثا حاصلا بين بني سليم وبني فراس، وهو تخاصمهما وانتهاء المخاصمة بمقتل رجلين من بني سليم وبقبول ديّتهما وهو ما مثّل الوضع الأوّليّ أو المنطلق الأوّل لبناء أحداث ترتكز على هذا المنطَلَق، وهي أحداث المقطع الثاني الذي قام على المخاصمة ووقوع دم بين بني سليم وبني فراس لم تمحُه الديّة، إذ يطلب السلميّون دمهم من ظعائن تعترضن سبيلهم. وهنا فإنّ الأزمة تحصل، والطلب يظهر

1- م.ن: 23/ 574.

2- م.ن: 16/ 24-25-31-35-37.

بصورة ضمنيّة في سؤال الظعن عن إمكان هرب ربيعة. ويكون جواب الطلب حرب ربيعة مع طالبي الظعائن، ومنه يكون المقطع الأخير الممثّل للوضع النهائيّ نجاء للظعن وموتا لربيعة، إذ حقّق الطلب باذلا نفسه في سبيله. وعلى هذا فإنّ أخبار القيم ممّا رأينا في خبر السموءل وفي خبر حاتم وفي خبر ربيعة بن مكدم، تقوم في بنائها على هيكل يتأسّس من ثلاثة مقاطع أو من ثلاثة مراحل حدَثيّة:

الوضع الأوّلي الأزمة الخلاص(الوضع النهائي).

والثنائيّة المتحكّمة فيها هي ثنائيّة الطلب وتحقيق الطلب. غير أنّ هذا المحور غالبا ما يتقاطع مع المحور الحدثي الثاني الخاصّ بالنزاع[1]، فيتحقّق الدفاع عن الظعائن بالمواجهة مع المغيرين وتتحقّق نجدة المستنجد بالمقاتلة. فمحور النزاع قطب غالب يشدّ جلّ المواضيع والمحاور المتفرّعة عنه. وعلى ذلك فقد آثرنا أن نتبيّن خصوصيّة بناء أخبار الجاهليّة نظرا في غرضين مثّلا مجال استقطاب عدد من الأخبار، وهما أخبار الأيّام وأخبار الصعاليك.

أخبار الأيّام.

تمثّل أخبار الأيّام قسما مهمّا من أخبار الجاهلية وشطرا منها يمكن أن يُظهر صورة عن الجاهليّة. وقد تنوّعت طرائق بناء الأيّام[2] ووسائط إنشاء أحداثها واختلفت معاقد أفعالها، غير أنّ فيها من البنى ما يتردّد ومن الأحداث ما يتعاود وإن تغيّرت المواضع والفواعل، وفيها من الثبات ما يمكن أن يؤسّس هيكلا عليه تُبنى وقائعها وأفعالها وتجتمع في صورته مؤسّسة بذلك جنسا سرديّا فريدا في التراث النثري العربي.

1- انظر في ذلك أغلب أخبار ربيعة بن مكدم: 16/ 24 وما بعدها وبعضا من أخبار حاتم: 17/ 283-303.

2- لقد تعرّض محمّد اليعلاوي في مقاله *أدب أيّام العرب* إلى طرق السرد في الأيّام وحصرها في ثلاث: التسلسل- الموالاة الطبيعيّة- الإدراج والمراوحة.ص109 110.

فهي أخبار تصوّر وقائع العرب في الجاهلية، فيها ما يصوّر نزاع القبائل العربية[1] وفيها ما يصوّر نزاع العرب مع الفرس[2]. ورواية هذه الوقائع محكومة بمنطق نضّد عناصرها ورتّب أقسامها وقدّ معناها. ونحن منصرفون في هذا المبحث إلى دراسة هذه الأخبار ومحاولة إظهار طرائق بناء أحداثها، دون التزام بهيكل جاهز نجريه[3]، وإنّما نحن مستفيدون من عدد من الهياكل الإجرائية مع احترام خصوصيّة الخطاب المدروس.

1- يوم وادي نساح- يوم شراحيل-يوم رحرحان- يوم الفلج- الفجاران- يوم أوارة- حرب البسوس- يوم رحرحان- يوم شعب جبلة- يوم الكلاب الثاني -حرب داحس والغبراء -يوم بعاث.

2- وقعة ذي قار – يوم الصفقة.

3- لقد اهتمّ الإنشائيّون في دراستهم للخطاب السردي بالعناصر التي يتأسّس عليها هذا الخطاب، فحدّدوا أهمّ المراحل الحدثية فيه بطرائق مختلفة، هي أساسا الانطلاق من وضع أصليّ تدخل عليه قوّة مربكة فتنتج الارتباك أو انعدام التوازن، ثمّ يُستعاد التوازن بفعل قوّة مضادّة تدخل عليه. وهي محدّدات القصّة المثلى في تصوّرهم، يقول تودوروف في كتابه *شعريّة النثر* ص121:

« Un récit idéal commence par une situation stable qu'une force quelconque vient perturber. Il en résulte un état de déséquilibre par l'action d'une force dirigée en sens inverse, l'équilibre est rétabli. »

- Tzvetan Todorov : « ***Poétique de la prose*** ». Edition du Seuil.. 1978.

إضافة إلى جهود لاحقة حاولت محاصرة القصّة والبحث عن أهمّ مكوّناتها الحَدَثيّة في صورتها المثاليّة، ونشير أساسا في هذا المقلم إلى ما انتهى إليه قرونوفسكي من إثبات لثلاثة أوضاع أساسيّة تُشكّل القصّة التامّة في دراسته للقصّة القصيرة في كتابه"Lire la nouvelle" ص94. وهي: الوضع الأصلي(S.I) والتغييرات الفجئيّة (P) والوضع النهائي(S.T) . وإلماحنا إلى النزر اليسير من هذه الجهود المنصرفة إلى تحديد أهمّ المراحل الحدَثيّة في الخطاب السردي موصول بما نحن بصدد إنجازه. فنحن حتما مستفيدون من هذه الجهود، غير أنّ وجهتنا لا تقوم على ضبط القوانين المتحكّمة في الخطاب الأخباري (وإن كان خاضعا في حدوده العامّة لهذه القوانين) بقدر ما نحن منصرفون إلى بيان سمات خطاب مخصوص يندرج ضمن الخطّة الحدثية العامّة التي تجعل منه خطابا سرديا يكتسب تميّزه من خصوصيّة خطّته القوليّة.

تقوم البنية الحدثيّة لأخبار الأيّام على هيكل عامّ ومجرّد، عليه تقوم مختلف الأفعال، فالأحداث لا تُعقَد على بيان اليوم وتصوير ساحة الوغى وحال القتال والمقاتلين، وإنّما هي متركّزة في طرفين يتوسّعان ويحتويان أغلب الأفعال، وهما المقدّمة والخاتمة، أي العنصر الخاصّ ببيان السبب الذي أدّى إلى حصول الواقعة، والعنصر الذي فيه ترصد نتيجة الواقعة تصويرا لظفر الظافر ولهزيمة المنهزم. وأمّا الواقعة في حدّ ذاتها فهي أقلّ العناصر حضورا، وأكثرها إيجازا واختصارا. وعلى ذلك فقد تبيّنّا بنية متعاودة في أغلب أخبار الأيّام شكّلت قالبا ثابتا عليه مدار الأحداث، وتقوم هذه البنية على أربعة مقاطع، هي:

- سبب الواقعة: وهو أهمّ المقاطع في بنية اليوم الحدثيّة، وغالبا ما يقع التوسّع في بيان السبب وهو مقطع يحوي عددا من الأفعال التي نتبيّنها في دراستنا لبعضٍ من الأيّام.
- التهيّؤ للواقعة: وهو مقطع يلي المقطع الخاصّ ببيان سبب اليوم، وفيه عناصر تُظهر طرائق التهيّئ لليوم تجامعا وتناصرا واستنفارا وضبطا للخطط الحربيّة، وتحميسا قوليّا.
- الواقعة: وهو المقطع الخاصّ بذكر التقاء المتنازعين وتصوير التحامهما، وهو أوجز المقاطع.
- نتيجة الواقعة: وهو مقطع مهمّ، يحوي عددا من الأفعال، إذ هو قد يتوسّع ليضارع مقطع سبب الواقعة امتدادا حدثيّا واحتواء لمختلف الأفعال.

وما حفزنا على تتبّع العلائق الواصلة بين مقاطع الخبر وبيان المواضيع الفرعية التي أسّستها، هو ندرة الدراسات المنصرفة إلى إثارة هذه المسألة[1] من جهة، والمستوى

1- لقد حاول محمّد اليعلاوي في مقاله "*أدب أيّام العرب*" ومن بعده محمّد القاضي سواء في دراسته للخبر وتعرّضه لأخبار الأيّام ضمن أطروحته "الخبر في الأدب العربي" أو في مقاله الخاصّ بدراسة أيّام العرب، بعنوان "*المكوّن السرديّ لأيّام العرب*" الوارد في مجلّة Arabica. Tom XLUI. 1999. وكان ما انتجاه منطلقا لنا وهديا أضاء في عتمة ما نحن مقدمون عليه قبسا من الضياء، نظرا لندرة الدراسات التي يمكن أن تستفيد من المحدثات النظرية ولكن دون إجرائها بتمامها وإهمال ما يؤسّسه "اليوم" من خطط سرديّة فريدة.

الكمّي الذي رشّح أخبار الأيّام مدوّنةً غالبةً على مجمل أخبار الجاهلية، والاحتفاء الظاهر داخل "كتاب الأغاني" بها تحقيقا وطلبا لمختلف رواياتها. ولذلك فقد آثرنا أن نرصد المقاطع[1] المشكّلة لتمام اليوم، واتّخذنا -نموذجا للتحليل- يومين من أعظم أيّام العرب[2]، وهما يوم ذي قار[3] نموذجا للوقائع الدائرة بين العرب والفرس ويوم شعب جبلة[4] مثالا للوقائع الدائرة بين القبائل العربيّة.

يوم ذي قار.

يُستهلّ يوم ذي قار بمقطع تمهيديّ في شكل خبر أوّليّ وصليّ تذكيريّ، يَنذر لأحداث لاحقة الذكر. وهذا المقطع الأوّل يبدو وكأنّه معزول عن مسار اليوم المذكور، غير أنّه يمثّل قسما تمهيديّا مهمّا وسببا رئيسا من أسباب الواقعة. وحدود هذا المقطع من أوّل الخبر "كان من حديث ذي قار" إلى قوله "وقد مضى خبره مشروحا في أخبار عديّ بن زيد"[5] وهي الوحدة الدالّة على أنّه تلخيص لخبر سابق[6] وتذكير بوقائع أخبار قد عرض لها المؤلّف وأفاض فيها القول في موقع آخر. وهنا نبسط سؤالا في غير موضعه غير أنّه على جانب كبير من الأهميّة، فهل فعل التذكير داخل في رواية الرّواة الذين تصدّروا الخبر أم هو قول المؤلّف صاحب المصنّف؟ فإذا كان

1- يتشكّل الخطاب السردي أساسا من تضامّ عدد من المقاطع. انظر جان ميشال آدم في كتابه *النصّ السرديّ* ص 111-112:

ويقول أيضا في نظره في الأجزاء المتضامّة لتكوين الكلّ: ص112-113:

« Les propositions sont les composantes d'une unité supérieure, la macro-proposition, elle-même unité constituante de la séquence, elle-même unité constituante du texte. »

2- لقد أورد صاحب الأغاني قولا لأبي عبيدة يبين مكانة هذين اليومين ومنزلتهما داخل مجموع الأيّام، انظر : 11/ 125، يقول: "قال أبو عبيدة: وأمّا يوم جبلة، وكان من عظام أيّام العرب، وكان عظام أيّام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة، ويوم ذي قار."

3- م.ن: 23/ 220.

4- م.ن: 11/ 125.

5- م.ن: 23/ 220.

6- م.ن.ص.

7- انظر خبر عديّ بن زيد في *"كتاب الأغاني"*: 2/ 80.

التذكير (أو المقطع الدالّ عليه) داخلا في قول الرّواة المجموعة أصواتهم في فعل الرواية "قالوا"[1]، فكيف يحيلون إلى أخبار سابقة في المصنّف الموضوع لاحقا، الذي لا يتحمّلون الإحالة عليه، لأنّهم -افتراضا- على جهل تامّ بتنضيده وترتيبه، وإذا كان القول خاصّا بالمؤلّف فلِمَ يُدخله في قول الرّواة ويُسنِده إليهم؟ وهي مسألة حسبنا في هذا المقام أن نثيرها سؤالا، ولنا إليها مآب في لاحق التحليل، في فصل نخصّصه لدراسة تفاعل الأخبار. والجدير بالملاحظة في هذا الإطار أنّ هذا القول التذكيري داخل في خطّة بناء أحداث اليوم المذكور، فهو تلخيص لعلاقة كسرى بالنعمان بن المنذر وتمهيد لبيان توتّر العلاقة بين كسرى وقبيلة بكر بن وائل بسببٍ من توتّر العلاقة بين كسرى والنعمان بن المنذر. وفي هذا المقطع اختصار لتأزّم الوضع بين هذين الفاعلين وهو ما تمّ تفصيله في أخبار عديّ بن زيد، وفيه ذكر لأحداث مهمّة، تُتّخذ سببا يؤدّي إلى الواقعة، ويمكن أن نعدّد هذه الأحداث:

- غضب كسرى على النعمان.
- هروب النعمان إلى هانئ بن مسعود.
- وضع المال والأهل عند هانئ بن مسعود.
- وضع ودائع عند أحياء من العرب.
- رفض طيء استجارة النعمان.
- طلب بني رواحة حماية النعمان ورفضه ذلك.
- النعمان يسلّم نفسه إلى كسرى.
- سجن النعمان.

وكلّ هذه الأحداث يمكن أن تشكّل مهادا لفعال تظهر في مراحل حدثيّة لاحقة، فهي أسباب تُبذر تَعقّد الأحداث وتُرمَى بغاية بلوغ نتيجة أساسيّة هي الواقعة. فغضب كسرى على النعمان هو عنوان لغضبٍ ممكن التعميم، إذ تُوَسَّع دائرة الغضب لتشمل من ناصر النعمان وذاد عنه بطش الطالب، وهروب النعمان إلى هانئ بن مسعود أدّى إلى فعل لاحق هو تقبّل متاع النعمان وأهله وتكفّله بالذود عنهم ضدّ أيّ

1- م.ن: 23/ 221.

سلطان يطلبهم أو قوّة يمكن أن تبطش بهم، وهو فعل يمثّل سببا من الأسباب الأساسيّة لتأزّم العلاقة بين الطرفين المتنازعين. وكذلك الشأن بالنسبة إلى وضع الودائع عند أحياء العرب تسويغا لتناصر العرب وتضامّهم ضدّ هذا الطالب الذي يريد منهم ودائع تكفّلوا بحمايتها. أمّا رفض طيء للنعمان فإنّه فعل حدثيّ يؤسّس لمناصرة طيء لكسرى والوقوف معه ضدّ قبائل العرب المتناصرة، وأمّا إقبال النعمان على كسرى مسلّما ووقوعه في السجن فإنّه فعل يُنتِج فعلا تاليا يساهم في تأزّم الأحداث ويُشكّل أيضا سببا حافزا على التدرّج بها إلى التعقّد، وهو فعل غارة بكر بن وائل على السواد بعدما رُفِع المانع وعجز البديل عن كفّ هذه الغارة.

وبذلك فإنّ هذا المقطع (مختَصَر خبر عديّ بن زيد) يعقد الصلة بالواقعة من خلال فعلين، هما:

- وضع المال والودائع عند هانئ بن مسعود وبعض قبائل العرب، وهو ما اتُّخِذَ حجّة لمقاتلة حاملي الودائع.
- هلاك النعمان الذي أفضى إلى إطلاق أيادي بكر بن وائل على السّواد.

ونحن نتبيّن هذه الأواصر تدريجيّا، ولذلك فقد عنونّا هذا المقطع بـ"السبب المؤدّي إلى الواقعة"، فنلحظ صلة سببيّة تعاقبيّة بين المقطع الأوّل وبين المقطع اللاّحق القائم على وصف العلاقة بين كسرى وبعض قبائل العرب بعد هلاك النعمان. وحدود هذا المقطع من "قالوا: فلمّا هلك النعمان" إلى قوله "فيا فلجي يا قوم إن لم تقاتلوا...(الشعر)". وهو مقطع معقود على عنصر حدثي ورد في المقطع الأوّل، تمثّل في انتهاء النعمان واسِطَةً بين قبائل العرب وكسرى. وانتهاء هذه الواسطة مؤسّس لحدث مهمّ في مسار ضبط أسباب اليوم، وهو فعل إغارة بكر بن وائل على السّواد، وهذا ما أفضى في المراحل الأولى لتوتّر العلاقة بين كسرى والقبائل العربيّة إلى فعل لاحق وهو وضع بديل النعمان وهو قيس بن مسعود الذي ضُبِطت علاقته بكسرى بالطلب وتحقيق الطلب، وعنه ينتج فعل فشل البديل في الوساطة بين العرب وملك الفرس أو بالأحرى الفشل في الذود عن كسرى بتواصل فعل الغارة على السواد. وتكون نتيجة الفشل نهاية الواسطة بفعل الحبس. ويمكن التوسّع في هذا المقطع بيانا لوحداته

الصغرى وتتبّعا لمجمل أفعاله المؤسّسة له، غير أنّ تتبّعنا لكلّ فعل على حدة قد يُفقِد منّا الخيط الذي نروم المسير فيه، وهو خيط مسار الأحداث المكوّنة لبنية "اليوم" الحدثيّة. فننتهي إلى ضبط جملة من الأفعال المواصلة لأحداث المقطع الأوّل والمؤسّسة بدورها لأحداث المقطع الثاني، وهي:

- إغارة بكر بن وائل على السواد.
- وضع بديل للنعمان بغاية منع الغارة.
- فشل البديل وتواصل الغارة.
- غضب كسرى على بكر بن وائل.
- علمه بالودائع.
- انتهاء البديل.
- تعبئة الجيوش للحرب.

ويُختَم المقطع بفعلٍ مُعَادٍ، غير أنّ أثره في كسرى قد مثّل سببا أساسيّا للغارة على العرب، وهو وضع حلقة النعمان وماله وأهله عند قبائل من العرب. والحادث في المقطع الثاني هو طلب هذه الودائع. فيتحدّد سببان لتوتّر العلاقة بين الفاعلين المتنازعين هما:

- مواصلة الغارة على السواد.
- حماية بقايا مغضوب عليه، مسجون، عدوّ لكسرى.

وهذا ما أسّس المقطع الثالث القائم على فعل الطلب أساسا، وحدود هذا المقطع من قوله: "فلمّا وضح لكسرى واستبانّ" إلى "ومنع هانئ إيّاه ما منعه". وهو مقطع قد قام على جملة من الأفعال، أهمّها رواية قولين يُسنَد أحدهما إلى كسرى مبعوثا به إلى هانئ بن مسعود، ويُسنَد الثاني إلى هانئ مبعوثا به إلى كسرى جوابا على مألكته. وقد تشكّلت الحركة السرديّة على التنوّع حالا وفعلا وقولا:

فعل← قول← فعل← قول← قول/ حال← فعل← فعل← حال.

فالمقطع قد قام على فعل أدّى إلى قول أفضى بدوره إلى إنتاج فعل شُفِع بقول أصدر قولا لاحقا يدلّ على الحال ويسِم العجم بسَمة تُفصِّلها أفعال الخبر اللاّحقة. وقد تركّز الحال أساسا في هذا المقطع على بيان تأثير القول في شخص كسرى. فأظهر حاله بصورة عامّة حديثا عن خصال الفرس وبصورة خاصّة ذكرا لأثر مألكة ابن هانئ فيه. وممّا يُلاحَظ أيضا في هذا المقطع أنّه يُثبِّت السببين السابقين ويضيف إليهما سببا ثالثا ناتجا عنهما وهو اشتداد الحنق بسبب رفض الطلب، إذ أنّ المقطع قام على الطلب بواسطة التهديد والفرض الذي جويه بالرفض. ومن أجل ذلك فهو مقطع يتوجّه إلى بناء الأقوال على الحجّة الإقناعيّة، حجّة أولى ترد في حكاية القول الأوّل، وتتمثّل في إثبات ملكيّة كسرى لمتاع النعمان وآله، وحجّة ثانية تظهر في حكاية القول الثانية والمتمثّلة في رفض تقديم المتاع بعرض إمكانيتين ينتهي بهما صاحبهما إلى رفض تقديم المتاع بلطف قوليّ بيّن، خضع فيه القائل إلى حدود المواضع التخاطبية وإلى الالتزام بالمواقع التخاطبية.

والمهمّ في مستوى أحداث هذا المقطع أنّه يحقّق ثلاثة أفعال لها عميق التأثير في البناء الحدثي لهذا اليوم، وهي:

- توتّر علاقة كسرى ببكر بن وائل.
- العجز عن الظفر بمتاع النعمان.
- غضب كسرى بسبب رفض طلبه.

وانتهاء الأحداث إلى هذا المآل من تأزّم الأوضاع وتوتّر العلاقات بين الفاعلين الأساسين يتوجّه بها إلى مرحلة حدثية يُتدرَّج بالأحداث إليها وهي اليوم أو الحرب. ونلاحظ في هذا المقام أنّه قد تمّ التوسّع في ضبط أسباب اليوم بشكل بيّن، ووقع تجميع أسباب "مقنعة" يمكن أن تسوّغ لهذه الحرب.

وأوّل الحرب أو اليوم مقطع يؤدّي فعل "**التهيّئ لليوم**" وهو عنوان المقطع الرابع، وحدوده من "قال: دعا كسرى" إلى "وإذا لدفعته بدمي وزيري (الشعر)"، ويحوي مقطعين فرعيين يشكّلان تمامه ويبنيان معناه وهما:

- الاستشارة.
- وصايا الحرب أو الخطّة القتاليّة.

وتتركّب الاستشارة من حكاية أقوال استدعاءً للآراء وبيانا لمختلف الشعاب المفضية إلى الظفَر، وقد تكوّنت الاستشارة من أقوال إياس بن قبيصة الطائي المرفوضة وأقوال عديّ بن زيد العبادي والنعمان بن زرعة المقبولة. ويأتي الفعل لاحقا لهذه الأقوال مؤسّسا للمقطع الفرعي الثاني (فعقد)، فتتالى الأفعال دلالة على توزيع الأدوار (وعقد..وعقد..وبعث..). وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ هذا المقطع قد حوى عددا من الموضّحات أو من الموتيفات التوزيعيّة الحرّة[1] (وكانت أمّ إياس أمامه...) (وكانت العرب...) (وكان لكسرى...)، والتي تمثّل خروجا عن المسار التتابعي للأحداث وتكسيرا لخطيّة تواصل المقاطع. ويؤسّس هذا المقطع الخاص "بالتهيّء للقتال" مقطعا ناتجا عنه موصولا به، يبني التهيّء المضادّ أو تهيئ الطرف المقابل، وحدوده من قوله "فلمّا بلغ بكر بن وائل الخبر" إلى قوله "يتأهّبون للحرب"، وهو يحوي فعلين أساسين هما: العرض ورفض العرض، وكلّ من هذين الفعلين يتأسّس على عدد من الوحدات الحدثيّة والمكوّنة لمعنى العرض ولمعنى رفض العرض. وقد ورد العرض حكاية قول على لسان النعمان بن زرعة قبل بدء القتال[2] وجاء الرفض حكاية قول أيضا صادرة عن سيّد القوم حنظلة ابن ثعلبة[3]، ويمكن أن نحدّد جملة هذه الوحدات المتفاعلة لإنتاج معنى المقطع نظرا لأهميّتها في تشكيل بنيته:

1- "Les motifs libres".

- Tomachevski : « **Thématique** ». in « ***Théorie de la littérature. Textes des formalistes russes*** ». réunis , présentés et traduit par Tzvetan Todorov. Collection « Tel Quel » aux éditions du seuil. 1965. p :270.

2- "كتاب الأغاني": 23/ 227.

3- م.ن: 23/ 230.

- السير إلى مقرّ الواقعة.
- قدوم الوسيط.
- العرض.
- إرجاء الجواب.
- انتظار السيّد.
- قدوم السيّد.
- رفض العرض.
- اجتماع السببين: بكر بن وائل وهانئ بن مسعود. وقد ظهر هذا الاجتماع في قوله: "ثمّ أمر بقبّته فضربت بوادي ذي قار، ثمّ نزل ونزل النّاس، فأطافوا به، ثمّ قال لهانئ بن مسعود: يا أبا ثمامة إنّ ذمّتكم ذمّتنا عامّة، وإنّه لن يُوصل إليك حتّى تفنى أرواحُنا، فأخرج هذه الحلقة"[1].

التأهب للحرب.

لقد حوى المقطع إذن أفعالا مهمّة كوّنته وبنته، وقد ظهرت هذه الأفعال أساسا في **دور صاحب الرأي** المنتظر لحسم الأمر والمسير بالأحداث إلى الحرب. وكان بإمكانه –إن شاء ذلك– أن يمنعها. وعنه تصدر الحيلة (طلب توزيع الودائع على النّاس حتّى يقاتلوا عليها، فيعسر على العدوّ الظفر بها إلاّ بعد تمام سيطرته على القوم، دون أن يكتفي بطلب فرد بعينه، وهو بذلك يُحوّل مجال الطلب من الفرد إلى المجموعة). ويتضمّن المقطع شأنه في ذلك شأن المقطع السابق تكسيرا لخطيّة الأحداث بحكايةٍ مثّلت خروجا عن المسار التتابعي للوقائع واستطرادا عن تتابع أفعال اليوم، تحقيقا في خبر شخصيّة ظهرت في حال التهيّئ للحرب بالرغم من أنّها لا تمثّل فاعلا مهمّا، وإنّما ذكرها عارض بيانا لانسحابها من مجال المنازعة وقولها الشعر في التحفيز

1- م.ن: 23/ 229.

على القتال. فيرفض الراوي الفعل والقول، ورفضُه في حاجة إلى سند وهو ما أدّى إلى إيراد خبر خاصّ بمرداس بن أبي عامر السلمي.

إنّ سيرورة الأحداث نحو فعل "المقاتلة" تؤدّي إلى إنتاج مقطع وصليّ أو هو مقطع ربط بين فعل التهيّئ للقتال وفعل القتال أو الحرب، وقد خُصّص هذا المقطع للاستنفار حثًا على القتال وتحريضا على الحرب ورفعا للهمم. وحدود هذا المقطع، من قوله: "فلمّا أصبحوا أقبلت" إلى "والوضين بطان الناقة". وقد احتوى أساسا على أقوال تمهّد للمنازلة الفعليّة، وهو مقطع داخل في مقام التهيّئ للقتال. وقد تأسّست هذه الأقوال على أفعال أنتجتها. فأمّا الفعل الأوّل فهو قدوم الأعاجم نحو مكان تجمّع العرب "فلمّا أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم". وهو فعل أفضى إلى إنتاج قول حنظلة وفعلِه حيلةً منه لإجبار القوم على القتال ولتعجيزهم عن الفرار. وكذلك أنتج هذا الفعل قول ربيعة بن غزالة السكوني الذي احتوى خطّة حربيّة قُدِّمت مقترَحا يمكن أن يقاوم كثرة الأعاجم. وأمّا الفعل الثاني فهو فعل تقارب المتنازعين: "فلمّا التقى الزحفان وتقارب القوم" وقد أنتج جملةً من الأقوال، قول حنظلة بن ثعلبة خطّةً في القتال وتحميسا لآله، وقول هانئ بن مسعود مستنفرا القوم رافعا من هممهم، وقول شريك بن عمرو بن شراحيل وقول عمرو بن جبلة بن باعث التحميسيّ، الاستنفاري. وعن هذه الأقوال يُنتَج فعلٌ يُظهِر أثر القول وتحوّله إلي فعل يُنجَزُ، وهو فعل حنظلة بن ثعلبة المتمثل في قطعه وضين راحلة امرأته وسائر الوضن حتّى لا يفرّ الرجال من المعركة وإن اشتدّت عليهم.

وقد تشكلت هذه المقاطع الفعلية والقولية التي كوّنت معني المقطع الخاصّ بالاستنفار على الشاكلة التالية:

فعل حنظلة (السيّد)

قول حنظلة (الخطّة).

فعل نزار بن قيس خوفا

*قدوم الأعاجم = فعل

قول ربيعة بن غزالة (الرأي وقبول الرأي)

قول حنظلة بن ثعلبة (السيّد) = التحميس + الخطّة.

* تقارب المتنازعين = فعل قول شريك بن عمرو بن شراحيل= التحميس.

قول عمرو بن جبلة بن باعث= التحميس.

فعل حنظلة بن ثعلبة (السيّد): قطع الوضن.

فمن هذا الرسم يمكن أن ندرك مسألتين مهمّتين في بنية اليوم، وهما:

- التعاقب السببي للأحداث، إذ تنتج الأقوال عن أفعال تمهّد لها فضاءَ كونها، وتنتج الأفعال عن الأقوال بعد أن تفعل فعلها في الشخصيّات.
- الدور المهمّ الذي يؤدّيه "السيّد"، فبعد أن كان صاحب قرار الحرب، أُسنِد إليه القول الأوّل من جملة الأقوال الواردة في المقطع الفرعي الأوّل، وفي المقطع الفرعي الثاني، وهو صاحب الخطّة الحربيّة المُقدَّمة، وهو الفاعل الذي يبادر بالفعل ويتبعه القوم حتّى وإن كان الفعل إمكان موت جماعي.

وتؤسّس هذه المقاطع التمهيديّة فعل المقاتلة أو فعل التحارب بين الفريقين المتنازعين، الذي تتوجّه الأحداث إلى بنائه، وهو مدار المقطع التالي. وحدوده من "قالوا: وكانت بنو عجلان.." إلى "فلم يفلت منهم كبير أحد". ويُستَهلّ المقطع الخاصّ بالواقعة ببيان الحال توزيعا لمواقع الحرب في المنازلة، ثمّ يُلحَق الحال بفعل يُصوّر

المنازلة الفرديّة فالمنازلة الجماعيّة. وممّا يُلاحظ في هذا المقطع الـذي يمثّـل "جـوهر الخـبر" ومصير وقائعه أنّ وصف الواقعة فيه قد كان في موجَز من العبـارة، إذ يغلـب التمهيـد على الجوهر، ويفوق سرد حوافّ الحادثة الحادثة في حدّ ذاتها. وقد أورد الراوي مقطع النزال أو القتال في المقطع التالي: "ثمّ إنّ القوم اقتتلـوا صـدر نهـارهم أشـدّ قتـال رآه الناس إلى أن زالت الشمس، فشدّ الحوفزان –واسمه الحارث بن شريك- على الهامرز فقتله، وقتلت بنو عجل خنابرين، وضرب اللّه وجوه الفرس فانهزموا"[1]. فإلى هذا الحـدّ تنتهي الواقعة بهزيمة الفرس وظفر بكر بن وائل، ومـا يـرد مـن أحـداث لاحقـة يمثّـل حصاد الظفر من تتبّع لفلول الفرس ومن ناصرهم من العـرب في فـرارهم مـن موقـع القتال. ومن هذا التتبّع نتبيّن مصائر بعض الشخصيّات التي مهّدت لهذه الواقعـة مثـل النعمان بن زرعة الوسيط بين كسرى وبكـر بـن وائـل، وإيـاس بـن قبيصـة. وتنتهـي الملاحقة بقوله: "فلم يفلت منهم كبير أحد" إعلانا عن نهاية اليوم وعـن فنـاء المشـاركين فيه من الفرس ومن ساندهم من العرب. وبنهاية "اليوم" واقعةً ومقاتلةً تدور رحاها بين جيشين، ينفتح الخبر على بيان نتيجة هذه الحرب، وهو محور المقطع الأخير، وحـدوده من قوله: "فأقبلت بكر بن وائل على الغنائم" إلى قوله: "فنزعت كتفاه". وتتشكّل النتيجـة من مقطعين فرعيين، تركّز الأوّل منهما على النظر في حال الظـافر وفعالـه مـن خـلال بيان فِعال بكر بن وائل بعد النصر، وتركّـز الثـاني علـى متابعـة حـال المنهـزم وفعالـه بتصوير معاقبة كسرى للنذير. وإضافة إلى هذين المقطعين اللّذين يُنهيان أحداث اليـوم فإنّه يُمكن أن نُدرج القول الوارد في منتهى الخبر ملمحا من المتكلّم مقطعـا ثالثـا ناتجـا عن هذه الوقائع وصادرا عنها. وهو القول الخاصّ بالرسـول تعليقـا علـى هـذا اليـوم وبيانا لسبب نُصرة العرب فيه وغلبتهم علـى الفـرس. فتصـل قولـة الرسـول الواقعـة بالمجال العقدي وتفتحها على حادث ديني، بردّ النصر إلى حضور الرسول طرفا يُحمّلـه مُورد الأحداث تغليب الفئة القليلة على الفئة الكثيرة.

ومن كلّ هذا يُمكن أن نُدرك أنّ **يوم ذي قار** قد تميّز في بنائه الحدَثي بجملة من الخصائص، أهمّها:

1- م.ن: 23/ 233.

- أنّه قائم على تتالي جملة من الوقائع ذوات المعاني الفرعيّة التي تشكّل في تضامّها وتعالقها معنى اليوم.
- تنبني هذه المقاطع في حدودها الدنيا على التدرّج الزمنيّ والتعاقب السببي بدءا بضبط السبب فالتهيّؤ للحرب، ثمّ بيان اليوم في تلاقي الجمعين وتقاتلهما وانتهاءً بإظهار نتيجة الواقعة. وهي محاور المقاطع الكبرى التي قام عليها اليوم.
- غير أنّ هذه المقاطع الفرعيّة قد تتضمّن كسرا للخطيّة التي وُسِمت بها المقاطع الكبرى في ترابطها، فقد تنفتح على أخبار سابقة أو هي تستدعي أخبارا تضمّنها اليوم في شكل استطراد أو إحالة على أخبار سابقة، فيتوقّف المسار الحدثي ويقع الانحراف إلى تتبّع وقائع بعيدة عنه، غير أنّها موصولة بمسيرة شخصيّة من شخصيّاته، أو هي موصولة بالتحقيق في حدث من أحداثه.

ويُمكن أن نخرج من دراستنا للمقاطع المكوّنة ليوم ذي قار بالهيكل المقطعي التالي:

1. سبب الواقعة: وقد توسّع الراوي في الوقوف على السبب الذي أدّى إلى حدوث اليوم مفصّلا فيه الحكاية، وقد تمّ أداؤه في مقطعين يمكن أن يجتمعا لبيان أسباب الواقعة. فكان السبب -على تنوّعه- كامنا أساسا في خرق الاتّفاق المُضَمَّن في هذا اليوم، وهو اتّفاق بين كسرى وبكر بن وائل بعدم الغارة على السّواد بوجود وسيط منهم يُحقّق رضا الطرفين. وعن هذا الخرق -الذي ظهر في عدد من الحوادث- ينتج اليوم.
2. التهيّؤ للواقعة: وقد تحقّق التهيّؤ عبر واسطتين، تهيّؤ قوليّ ظهر في الاستنفار والتحميس. وتهيّؤ فعليّ -وقد يكون في صيغ قولية- ظهر في ضبط الحيل الحربية بين الطرفين المتنازعين. وفي هذا القسم نتبيّن حضور عنصر مهمّ هو السيّد بما يؤدّيه من أقوال وأفعال، وبما يتحمّله من أدوار توجّه مسار الأحداث في اليوم.
3. الواقعة: بيانا لالتحام المتنازعين ودخولهما في القتال.

4. نتيجة الواقعة: وقد ظهرت في هذا اليوم من جهتين احتفاءً بالغنائم وعقابا للنذير.

لقد حاولنا في دراستنا لهذا اليوم أن نتبيّن أهمّ المقاطع الكبرى المؤسّسة له، واجتهدنا قدر الإمكان في ضبط الحدود الكبرى لهذه المقاطع دون أن نعمّق النظر في مقاطعها الفرعيّة ووحداتها الدنيا. ولنا في ذلك مأرب نسعى إلى بلوغه، وهو إدراك الهيكل العام الذي يمكن أن تجتمع فيه الأيّام، من خلال دراسة مكوّناتها الحدثيّة، ذلك أنّ النصوص يمكن أن تتماثل في حدودها الكبرى، وتظلّ الحدود الدنيا خاضعة لشتّى التصاريف والمذاهب.

ولنا أن ننظر في يوم آخر هو "يوم شعب جبلة"، منتهجين ذات السبيل، ناظرين فيما أثرناه في اليوم السابق، باحثين في ثناياه عمّا يمكن أن يمثّل حدودا ثابتة ببيان المقاطع التي شكّلته وطرائق انتظامها ومختلف العناصر التي يمكن أن توافق ما سلف أن أظهرناه في يوم "ذي قار".

يوم شعب جبلة.

يُستَهلّ "يوم شعب جبلة"[1] بمقطع أوّل فيه ضبط لسبب الواقعة، وهو المقطع الواقع من أوّل الخبر إلى قوله: "اقصدوا لبني عامر". وفيه بيان لإضمار العداوة بعد فعل الخروج والانفصال عن القبيلة. ففعل "الخروج" الظاهر في هذا المقطع مشفوع بقول تهديدي ينبئ باشتعال العداوة بين المُخرج والمُخرَج. وفيه إظهار للطرفين المتنازعين وتحديد غائم لسبب العداوة أو التنازع: "فعل الطرد أو الإخراج"، وتحديد للمكان المقصود عونا على النزاع. وعنه يتأسّس المقطع الثاني الخاصّ بطلب الجوار أو البحث عن سند في هذا النزاع. وهو فعل مشدود إلى التهيّئ للحرب طلبا للمناصرة والمعاضدة والمؤازرة. وقد احتوى المقطع جملة من الأفعال الجزئيّة مثل الطلب وتحقيق الطلب والاستجارة والمجاورة (التي تمثّل فرعا من فروع الطلب وتحقيقه). وتظهر في هذا المقطع صورة السيّد المحقّق للطلب، المستطيع بقوله تحقيق فعل الحرب أو رفضه. ونلاحظ

1- 11/ 125.

أيضا في هذا المستوى الحدثي تنازع الأقوال بين مستجير يتوسّط بمختلف الحجج القوليّة لتحقيق فعله، وبين رافض يلجأ هو أيضا إلى حجج تسند قوله ويسعى بها إلى تحقيقه فعلا، وبين سيّد ليس محتاجا إلى ما به يدعم قوله، ولذلك فهو لا يلجأ إلى طلب الحجّة، وإنّما قوله هو الحجّة وقد استُمِدّت من موقعه ومقامه من القبيلة. ويُروَى موقف الاستجارة بطريقتين أو بروايتين تُكرّسان نفس الفعل، غير أنّ الصياغة تختلف، في الأقوال المسنَدة إلى الشخصيّة الرافضة، وفي وسائط تحقيق طلب المناصرة.

ويُمكن أن نقسّم هذا المقطع التامّ إلى ثلاثة مقاطع فرعيّة تُشكّل بتعالقها صورَته التامّة، وهي:

- الاستجارة أو طلب المناصرة وتحقيقها في قسم منها (ذلك أنّ الطرف الأوّل المقصود قد سار في نفس مسار الطالب وانطلق للدفاع عن حربه). وحدود هذا المقطع الفرعي، من "فخرج حتّى نزل مضيقا" إلى "فأمهلوني حتّى أستطلع طلع قومي".
- الطلب وتحقيقه = الاستجارة والجوار. وحدود هذا المقطع الفرعي، من "فخرج في قوم" إلى "فأنزلوا القوم وسطهم بحبوحة دارهم"، وهو قائم على أفعال اتّجهت في تجمّعها وتواترها إلى تحقيق فعلي الاستجارة والجوار، وهي أفعال يمكن أن نضبطها على الشاكلة التالية:

الخروج ← بلوغ المقصد ← ملاقاة الرافض ← تحريض الرافض ← رفض قول الرافض ← النزول على المجير ← السؤال ← الجواب ← الجوار.

وهي أفعال تُحقّق في مجملها فعلين أساسين يؤدّيان إلى طلب النصرة تهييئا للواقعة وهما: الاستجارة والجوار.

ويقوم المقطع الفرعي الثالث -تقريبا- على نفس المراحل الحدثية التي قام عليها المقطع الثاني. فهو مقطع إعادي، تكرّري، يعيد نفس الوقائع ويحقّق نفس الفعال المُثبَتة في سابقه. غير أنّ التغاير حاصل في مستوى الصياغة بتحوّل فعل إسناد الرواية. وفيه اتّصال مباشر بـ"السيّد" وطلب الجوار منه دون حضور الوسيط، المساعد. وفيه

أيضا تغيّر للمقول الذي تُوسِّط به لطلب الجوار، إذ يحاصِر المستجيرُ المجيرَ حتّى يجبره بقوله على قبول طلبه، فيكون فعل تحقيق الجوار سابقا لفعل الرفض الموجود في الصياغتين. ويقوم المقطعان الفرعيان على فعلين، يتحقّقان في كلّ منهما، وهما:

- الطلب وتحقيق الطلب = الاستجارة والجوار.
- الطلب ورفض الطلب = رفض الجوار وقبول الجوار.

وعن تحقيق فعل الجوار في هذا المقطع ينتج مقطع لاحق يتأسّس عليه ويليه حدثيّا وزمنيّا، وحدوده من قوله: "قال: وسمعت بهم حيث قرّ قرارهم بنو ذبيان" إلى قوله: "وليتبع كلّ رجل منكم بعيره حجرين أو ثلاثة". وهو مقطع قائم على فعل التهيّئ للقتال، وقد كان التهيّؤ عبر عدد من الأفعال المتقابلة الصادرة عن الطرفين المتنازعين، تهيّئًا من بني ذبيان، وتهيّئا من بني عامر:

- المقطع الفرعي الأوّل: من "قال: وسمعت.." إلى "أمّا هذا فنعم"، وهو مقطع يفرغ لبيان تهيّئ بني ذبيان للحرب، عبر عدد من الأفعال: إدراك موقع العدو← جمع الحشود ← الخروج ← طلب المؤازرة والحصول عليها ← طلب المؤازرة والفشل في الحصول عليها.

فندرك من كلّ ذلك أنّ الفعل الغالب على هذا المقطع الفرعي هو طلب العون من القبائل المناصرة والحصول عليه من كافّة المطلوب منهم باستثناء طرف واحد آثر الحياد في هذه الحرب وهو بنو سعد. ويمكن أن نُدرج هذا المقطع تحت عنوان "طلب الحشود والخروج للقتال".

- المقطع الفرعي الثاني: من "**فلمّا سمعت عامر بمسيرهم**" إلى "فليتبع كلّ رجل منكم بعيره حجرين أو ثلاثة"، وهو يحتوي أفعالا مهمّة في بنية اليوم الحدثية. ففيه الحيلة والحيلة المضادّة، ذلك أنّ الحيلة الأولى نتجت عن "سيّد القوم" أو عن "صاحب الرأي"، وتمثّلت في الإنصات إلى حِيَل النّاس علّه يُرجّح ما يصلح منها لمجابهة الحشود الغازية، فلمّا لفظها مجموعة كان الرأي منه فعل الفرار. في حين نتجت الحيلة الثانية أو الحيلة المضادّة عن صاحب الرأي الأوّل فيقبل منه ويُحوّل القول فعلا. والحيلة دوما ناتجة عن عدم التوازن الكمّي بين الجهتين

المتنازعتين، فهي تصدر عن الفئة القليلة حلاّ لمجابهة الفئة الكثيرة. فقوّة الغازي في كثرة عتاده وبأس مقاتليه وعدد فرسانه، وهو ما يدفع الطرف المقابل، الواقع عليه الفعل إلى البحث عن التوازن بطلب الحيلة التي يمكن أن يُجَابَه بها العدد.

وعلى ذلك فإنّا نلحظ تواتر الحيَل بعد تحقيق الحيلة الأولى والإيمان بجدواها، بغاية ضبط الخطّة الحربيّة. وهو مدار التهيّئ للحرب في هذا المقطع. وقد تدرّج هذا الفعل بالأحداث إلى المقطع التالي الخاصّ بالمواجهة بين المتحاربين. وحدوده من "**ففعلوا ثمّ صاحوا بها**" إلى آخر الخبر. وقد قام على إجمال الواقعة وتقديمها في صورة عامّة دون تفصيل بيانا للمنتصر وللمنهزم "فانهزموا شرّ هزيمة، ثمّ يقع تفصيل الأفعال انطلاقا من التركيز على مصائر بعض الشخصيّات، ويمكن أن نعدّد هذه الأفعال:

- مصير لقيط وحربه مع شريح.
- تعداد المقتولين.
- أفعال السبي وجزّ النواصي.
- مغانم طفيل بن مالك.
- مصير عمرو بن عدس: أسره وهروبه.
- أسر عتيبة بن الحارث بن شهاب.

ولقد وقع التوسّع في هذه الأفعال وصفا للمعركة في صورها الفرديّة أو في تتبّع بعض الشخصيّات "المهمّة". وهو توسّع أدمج الفعل بنتيجته، ولذلك فقد لاحظنا أنّ تتبّع أفعال الأفراد قد أُلحِق بحصاد هذه الأفعال كسبا وغنما. وقد وقع تفصيل هذه الأفعال دون بيان دور المجموعة في هذا اليوم.

إنّ رصدنا الموجز لأهمّ المقاطع التي شكّلت يوم "شعب جبلة" يجعلنا ننتهي إلى جملة من الملاحظات الخاصّة ببنية "اليوم" الحدثيّة، وهي ملاحظات تتفرّع إلى فرعين، فرع أوّل يخصّ العناصر الكبرى التي قام عليها اليوم، وفرع ثان يخصّ تعالق الأحداث

وترابطها. أمّا الفرع الأوّل فإنّا نتبيّن فيه قيام اليوم في صورته الحدثيّة الكبرى على عناصر يمكن أن تنتظم مختلف مقاطعه (الكبرى والصغرى)، وهي:

- سبب الواقعة.
- التهيّؤ للقتال.
- القتال ونتائجه.

وأمّا الفرع الثاني، فإنّا نتبيّن فيه تسلسل المقاطع وترابطها، تعاقبا سببيّا وزمنيّا. إذ يتأسّس اللاّحق من الأحداث على سابق يبنيه ويمهّد له. وعلى هذه الهيئة من تضامّ مقاطع اليوم تنمو وقائعه وتكتمل أحداثه. فذكر الواقعة تقاتلا بين الطرفين المتنازعين يُسبَق بتهيّئ لهذه المقاتلة وبعلّة تكون السبب في اشتعال العداوة بين المتقاتلين، ويُلحَق بنتاج يتبع الواقعة ظفرا أو هزيمة، ومنه يُصوَّر حصاد الظافر وحصاد المنهزم. غير أنّ المقاطع الفرعيّة قد تحوي استطرادا يهزّ هذا الترابط ويُدخل على التتالي الحدثي بعض التوتّر، فلا يُلتَزَم في اليوم في مقاطعه الفرعيّة التسلسل الذي وسمنا به المقاطع الكبرى تتبّعا لمسار شخصيّة ما أو تحقيقا في حدث مخصوص. ومثال ذلك تتبّع نسب "دختنوس": **"دختنوس بنت لقيط بن زرارة وكانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس..."**[1] أو تفسير الشعر وتقديم الشعراء، **"يُقال للرجل إذا وقع في خطب لا يطير غرابه"**[2]، **"الحلّة: لم يكونوا يتشدّدون في دينهم..."**[3].

ومن دراستنا لهذين اليومين ، ومن نظرنا في "أيّام" أخر، يمكن أن نتبيّن بعض الحدود الحَدَثيّة المشتركة[4] وبعض المقاطع[1] التي يقوم عليها "اليوم" في بنائه الحدثيّ:

1- 11/ 137.

2- 11/ 138.

3- 11/ 139.

4- لقد ظهرت جهود سابقة سعت إلى ضبط الهيكل الحدثي الجامع لأيّام العرب في الجاهلية، وقد مثّلت نتائجها منطلقا صدرنا عنه في دراستنا للبنية الحدثية لأيّام العرب، وهي ولئن اتّسمت في إثارتها لهذا المبحث بالتعميم إلاّ أنّها لامست من المدوّنة جوهرها. ومن هذه الأعمال نذكر قسم "عناصر القصّة في الأيّام" الوارد في مقال محمّد اليعلاوي حول *"أدب أيام العرب في الجاهلية"* ص114-

- **التمهيد للواقعة** بذكر السبب الذي أدّى إلى حدوثها، وهو ركن رئيس من أقسام البنية الحدثيّة في "اليوم"، فذكر السبب محدّد لعناصر النزاع وللمقام الجامع بينها وضبط للوضع الممهّد لحدوث الواقعة أو إثبات الوضع السابق لتوتّر العلاقة المفضي إلى حدوث الواقعة. ويتحدّد "السبب" في مظاهر متعدّدة. ففي "يوم ذي قار" كان ذكر السبب مُوَسَّعا، وذلك قد يعود إلى قيمة هذا اليوم في الموروث الأخباري، فهو يُوضَع في موضع الأيّام الشِداد عند العرب، وقد احتوى إحالةً على خبر سابق الذكر وهو خبر عديّ بن زيد وعلاقته بالنعمان بن المنذر. وقد انحصر السبب في هذا "اليوم" في فعلي الطلب ورفض الطلب، وهو القادح الذي أذكى جذوة الخلاف بين كسرى وقبيلة بكر بن وائل، وعنه كانت الواقعة. أمّا "يوم شعب جبلة" فإنّ السبب لم يتشكّل وفقا لرفض الطلب وإنّما تحقيقه هو الذي حفز على وقوع "اليوم". فثنائيّة الطلب وقبول الطلب الظاهرة في الاستجارة والجوار قد مثّلت السبب الأساسيّ لاندلاع الحرب بين بني عامر ومن ورائهم بني عبس وبين بني ذبيان ومن

=

115. والذي يقرّ فيه احتواء "اليوم" على العناصر الأساسيّة المكوّنة للقصّة، يقول: "تشتمل قصص الأيّام على العقدة وعلى المشوّقات والقفزات بالاهتمام والحلّ أي انحلال العقدة بانفراج الأزمة أو على العكس بنهاية مأساوية" (ص114)، ومنها أيضا مقال محمّد القاضي حول المكوّن السردي "لأيّام العرب" في العنصر المخصّص "للملامح السرديّة" « *les traits narratifs* » (ص364-367) والذي ينتهي فيه إلى أنّ "اليوم" يتشكّل بالانتقال من وضع أصليّ إلى وضع نهائيّ مرورا بأزمة (انظر ص364-365). غير أنّنا نشير في هذا المقام إلى أنّ الوضع الأصليّ، وضع الهدوء وتوازن الفاعلين المتضادّين غالبا ما يظهر بصورة ضمنيّة في "اليوم"، إذ أنّ منطلَقه هو بدء التوتّر في الغالب.

1- وإن كان محمّد القاضي يذهب إلى أنّ الأحداث تتجمّع غالبا في المقاطع الفرعيّة، ونادرا ما تُكوّن مقاطع تامّة في تشكيل البنية الحدثيّة "لليوم" (انظر القاضي 1999.ص364.). وقد سلف أن أشرنا إلى أنّ إجراءنا لمفهوم "المقطع" لا يخضع ضرورةً لشرط التمام الذي أقرّه تودوروف، وإنّما نحن نقصد به القسم من القول الذي يحوي معنى فرعيّا يمكن أن تتجمّع فيه جملة من المقاطع الفرعيّة دون ضرورة ضبطٍ لوظائفها.

حالفهم من العرب. وقد تمثّل السبب في "يوم شراحيل"[1] في خرق اتّفاق كان بين شراحيل وبني عامر. إذ نقض شراحيل العهد الذي يصله ببني عامر وغزاهم بعد أن اتّفق معهم على عدم غزوهم. لذلك فإنّ السبب قد تحكّمت فيه ثنائيّة المعاقدة وخرق المعاقدة. وهي ذات الثنائيّة التي غلبت على سبب "يوم الصفقة"[2]، وسبب حرب "داحس والغبراء"[3]،وسبب "يوم أوارة"[4].

فذكر سبب الواقعة[5] يمثّل ثابتا من ثوابت هيكل البنية الحدثيّة في أخبار الأيّام، وفيه بيان للإرباك الحاصل بين الفاعلين، وعن هذا التوتّر ينتج "اليوم" (الواقعة). فاليوم يُعلِن أو يُضمر وضع تصالح أو اتّفاق بين فاعليه، ومن خرق هذا الاتّفاق تكون الواقعة. فاليوم لا يكون إلاّ بضبط علاقة التوتّر الحاصلة بين الفاعلين، ولذلك فإنّ السبب ينحصر أساسا في "الاتّفاق وخرقه" أو في "الطلب ورفضه". وقد يتوسّع رواة الأيّام

1- *كتاب الأغاني*":5/ 17. "قال: وأمّا يوم شراحيل بن الأصهب الجعفي فإنّه يوم مذكور تفتخر به مضر كلّها. وكان شراحيل خرج مغيرا في جمع عظيم من اليمن، وكان قد طال عمره، وكثر تبعه وبعد صيته واتّصل ظفره، وكان قد صالح بني عامر على أن يغزو العرب مارّا بهم في بدأته وعودته لا يعرض أحد لصاحبه، فخرج غازيا في بعض غزواته فأبعد..."

2- م.ن:17/ 237. "كان من حديث يوم الصفقة أنّ باذام عامل كسرى باليمن بعث إلى كسرى عيرا تحمل ثيابا من ثياب اليمن ومسكا وعنبرا وخرجين فيها مناطق محلاّة، وخفراء تلك العير فيما يزعم بعض الناس بنو جعيد المراديون، فساروا من اليمن لا يعرض لهم أحد، حتّى إذا كان بحمَض من بلاد بني حنظلة بن يربوع وغيرهم أغاروا عليها فقتلوا من فيها من بني جُعيد والأساورة واقتسموها...".

3- م.ن: 17/ 116.

4- م.ن: 22/ 186. "كان من حديث يوم أوارة أنّ عمرو بن المنذر بن ماء السماء (...) أنّه كان عاقد هذا الحيّ من طيّئ على ألاّ ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا، وأنّ عمرو بن هند غزا اليمامة فرجع منفضا، فمرّ بطيّئ، فقال له زرارة (...) أبيت اللّعن، أصب من هذا الحيّ شيئا، فقال له: ويلك إنّ لهم عقدا، قال: وإن كان. فلم يزل به حتّى أصاب نسوة وأذوادا."

5- لقد أشار محمّد القاضي (1999) إلى أنّ أحداث اليوم تتركّز في السبب والنتيجة أكثر من تركّزها في الواقعة. يقول ص365 "*Les événements portent moins sur le combat que sur ses causes et ses résultats.*"

في ذكر السبب حتّى يعلو شأنه على الواقعة في حدّ ذاتها –وهو الغالب–. ولذلك فقد آثرنا أن نُظهر حضور هذا الركن الثابت في جلّ أيّام العرب في الجاهليّة.

- **التهيّؤ لليوم**: ويكون التهيّؤ عبر عدد من المظاهر المختلفة، غير أنّا نسجّل جملة من الأفعال المشتركة في جلّ الأيّام، وقد بيّنا حضورها في اليومين المذكورين أعلاه، وهي:
  - طلب المناصرة.
  - دور السيّد.
  - الخطّة القتاليّة.
  - الحيلة.

وهي أفعال تحضر بصورة مجموعة أو يحضر بعضها في اليوم. ونشير في هذا المقام إلى دور فعلين مُمَيَّزين غالبا ما يحتفي بهما الرّواة، وهما فعل السيّد الذي قد يشكّل مقطعا فرعيّا تامّا ضبطا لصورته ولدوره في إقرار الحرب أو السلم أو الفرار، وفعل الحيلة الذي يُنتجه مقام التنازع وانعدام التوازن بين القوّتين المتصارعتين.

- **اليوم/ الواقعة**: وهو القسم من القول الذي يُصوّر الواقعة في حدّ ذاتها تلاقيا بين الطرفين المتقاتلين. وفيه تظهر الحيلة فعلا يُجرى في ساحة القتال، وتظهر الخطّة القتاليّة. وغالبا ما يكون هذا القسم موجَزا مقتَضَبًا.
- ويكون القسم الأخير الذي غالبا ما يمثّل المقطع الذي تُختَم به الواقعة فعلَ **حصاد "اليوم"** بيانا لمغانم المنتصر ولأحوال المنهزم وتتبّعا لنتاج اليوم وآثاره.

تلك هي إذن جملة الأقسام التي يمكن أن يتكوّن منها اليوم فتبني مختلف مقاطعه وعناصره، وهي أقسام حاولنا أن نضبط حدودها العامّة. ذلك أنّه من العسير أن نحدّد هيكلا شكليّا تامّا تخضع له البنية الحدثيّة في "الأيّام".

ويُمكن أن نواصل تعميق النظر في بنية الخبر الحدثيّة نظرا في محور غرضيّ مشابه لسالفه، وفي مدوّنة مغايرة نسبيّا للأيّام، وهي مدوّنة أخبار الصعاليك، علّنا أن نُدرك منها ما يُضيء لنا ما به نهتدي لخصوصيّة بناء أحداث أخبار الجاهليّة.

أخبار الصعاليك.

تُمثّل أخبار الصعاليك مادّة مهمّة من مجموع موادّ أخبار الجاهليّة الواردة في "كتاب الأغاني". وهي أخبار توفّر مجال قصّ يُمكّن الرّواة من شتّى التصاريف في حياكة أحداثها ووقائعها. فالنّواة الأساسيّة لهذه الأخبار نواة طيّعة ممكنة التوليد منفتحة على الممكن السردي. ذلك أنّ مواضيع الحيلة والمغامرة والإقدام وقهر العدد والقوى الأسطوريّة تمثّل مجالات قابلة للتصريف الحكائي. إضافة إلى أنّ هذه الجماعة -في صورتها المفردة أو المجتمعة- قد شكّلت نحلة مارقة عن ضوابط العشائر والقبائل، ممّا أطلق أعمالها وحقّق "القبول الحسن" الذي تأكّد أيضا بتعلّق المروي له بطبعه -على تغاير محالّه- بسِيَر المارقين وبحكايات "المغامرات" التالدة.

ودراسة المقاطع المكوّنة لأخبار الصعاليك قسم من المبحث الذي نسعى فيه إلى بيان الخصائص التركيبيّة لهذه الأخبار. وقد سلف أن ضبطنا صورة للبنية الحدثيّة الخاصّة بأيام العرب، وها نحن في هذا العنصر نصرف مجال الاهتمام إلى موضوع استقطب عددا مهمّا من أخبار الجاهليّة، ومثّل مجالا وسيعا للحكاية، وهو أخبار الصعاليك، علّنا ندرك سماته الحدثيّة الكبرى التي يمكن أن تُجرى على الخبر بصورة عامّة.

ولقد جمعنا هذه الأخبار ونظرنا فيها وفي البنية الحدثيّة التي تتكوّن منها وحاولنا أن نستخلص سماتها، فوجدنا أنفسنا بين طريقين يعسر أن نقطع أيّا منهما، فإمّا أن نقف عند حدّ الإطلاق الذي يمكن أن تجتمع فيه أخبار الصعاليك وغيرَها بيسر ضبطا لوضع أوّليّ يقع خرقه أو ضبطا لتوازن يختلّ، بلوغا إلى وضع نهائيّ يُستعَادُ فيه التوازن أو هو يُقرّ توازنا جديدا. وإمّا أن نتتبّع خصائص المدوّنة فنقع في مهالك الشتات بسبب من تعدّد هذه الأخبار وتغاير بعضٍ من منطلقاتها المؤثّرة على أحداثها وبناء وقائعها. فكان أن خرجنا من هذين الوضعين بضبط الحدود الكبرى المميّزة لأخبار الصعاليك التزاما بأحداثها -مثلما فعلنا في أخبار الأيّام- ودون تقيّد بهاجس البحث عن بنية شكليّة جامعة تخضع لها هذه الأخبار، واستخلصنا جملة من المقاطع الكبرى أو من العناصر الحدثيّة الواسمة لهذه الأخبار، وأسقطنا منها عددا نزرا لا يخضع لهذه البنية، وإنّما أغلبه منصرف إلى بيان الحال أو إلى تقديم شخصيّة الصعلوك وصفا لها، وركّزنا على الأخبار التي تُصوّر أفعال هذا

النموذج الجاهلي، وهي الأخبار التي صدرنا عنها في ضبط البنية الحدثيّة الخاصّة بأخبار الصعاليك، وأغلبها يدور حول إظهار قدرة الصعلوك على الغارة والنفاذ، وهي قدرة ناتجة عن وجوده فردا أو في عصبة قليل عددها أمام قبيلة بتمامها أو قوّة تُعجِز الفرد وتقهر الجماعة التي يكون فيها.

وقد اجتهدنا في رصد المقاطع الكبرى التي تُشكّل الخبر وتُكوّن أحداثه نظرا في ما تُحقّقه هذه المقاطع من معان وفي تضامّها مع المقاطع الأخرى. وكانت حصيلة دراستنا ضبط مراحل حدثيّة ثلاث مثّلت محاور كبرى داخل الخبر، وهي:

- فعل الخروج إلى الغارة: وهو فعل ثابت في أغلب أخبار الصعاليك، فيه تُرصَد الشخصيّة، وتتحدّد الأوضاع الأصليّة ضبطا للفاعل والفعل والضحيّة أو الهدف.
- فعل الغارة: وهو مركز الأحداث وقطبها، وهو يحتوي عددا من الأفعال المبينة ن غارة الصعلوك وكيفيّة القيام بها، رصدا للخطّة المعتمدة والحيلة التي يُجابه بها الفاعل الجمع، ورصدا أيضا للمطاردة وما تحويه من أفعال.
- فعل الانصراف: وهو يشكّل مقطعا مهمّا قد يحوي أحداثا عديدة، ذلك أنّ غارة الصعلوك لا تكتمل إلاّ بانصرافه ضافرا.

■ فعل الخروج إلى الغارة.

يتحدّد في مقطع الخروج إلى الغارة فعل مهمّ بمقتضاه تُنقَل الشخصيّة الفاعلة من وضع سلب الفعل إلى وضع إيجاب الفعل أي من حال السكون إلى حال الحركة. فهل أنّ حال ما قبل الخروج أي حال ما قبل طلب الفعل هي حال أصليّة أو هي حال توازن الشخصيّة وتوازن الأحداث؟ أم أنّ هذا الوضع الأوّليّ –وفق الإعلان النصّي– الذي تصدر عنه الأفعال اللاّحقة وحوادثها هو الذي يمثّل التوازن؟

يجوز لنا في هذا المقام أن نتحدّث عن توازن كائن في الفعل، إذ أنّ التوازن لا يظهر في الهدوء واستقرار الحال، وإنّما هو حاصل في بدء فعل التحوّل، ذلك أنّ توازن الشخصيّة

وتوازن الأحداث المُسنَدة إليها كائن في حركتها، وخرق هذا التوازن أو انعدام التوازن ظاهر في فقدانها الحركة أو في قعودها عن الخروج إلى الغارة بسببٍ من أنّ وضعها الأصليّ الذي تعوّدته ودرجت عليه، متمثّل في دوام الغارة التي أصبحت حركة الشخصيّة "العاديّة". فوضع "الخروج" إذن هو وضع التوازن أو هو الوضع الأصليّ، لأنّ القعود مجاف لطبيعة حركة الصعلوك، وبذلك فإنّنا إزاء وضع تنمو أحداثه نحو وظيفة مهمّة يحقّقها المقطع اللاّحق وهي **الحيلة** التي بها ينفذ الصعلوك إلى **الهدف**.

إنّ أهمّ حدث يثبت في هذا المقطع الأوّل ويتحدّد فيه الفعل المولّد لباقي الأحداث، كما تتحدّد فيه الأطراف الفاعلة وموضوع الفعل هو حدث "طلب الغارة". ذلك أنّ أغلب هذه الأخبار تُستهلّ بإعلان فعل الخروج إلى الغارة[1]، وكأنّ الحركة الدائمة "للصعلوك" هي البحث عن الغارة، والقعود عنها هو وضع مخالف لطبيعته. وفعل طلب الغارة يُساهم في تحديد عدد من المواضع التي تُثبَت في أوّل الخبر، وهي المواضع المساهمة في تشكيل بنية الخبر الحدَثيّة، وهي:

* الفاعل = المغير= طالب الغارة = الصعلوك: ويُحَدَّد عادة في صورتين، صورة مفردة، يكون فيها طالبا للفعل، دون صاحب يلزمه في تأدية فعله، وصورة جمعيّة أو صورة العصبة التي تتجمّع أو تُقدَّم مجموعة تطلب الفعل.
* الفعل = الغارة: على مستوى الطلب وقبل التحقيق.
* المفعول به = الضحيّة = الهدف: وهو الجهة التي يرمي إليها الفاعل لتكون مسرحا لفعله. وهو عادة ما يُحَدَّد قبيلةً يضبطها الفاعل قبل خروجه أو في إطار حركته. ونشير إلى أنّ لكلّ صعلوك مجالا قبليّا هو متحرّك فيه أو هدفا مرصودا هو جاعله قِبلَته الدائمة لتحقيق فعله.

1- انظر مجمل فواتح أخبار الصعاليك، فهي تُستهلّ في أغلب الأحيان بفعل واحد هو "خرج (س) يريد الغارة على(ز)"، ولك في ذلك عدد من الأمثلة في *كتاب الأغاني*: 21/ 162.163 . 165. 166. 169. 171. 173. 178. 181. 184. 186. 187. 191. 216-و3/ 72.78. 79. .

فتتحدّد في هذا المقطع الأوّل المكوّنات الرئيسيّة التي يُبنَى عليها الخبر، ومنها تنطلق أحداثه. وقد يُتوسّع في هذا المقطع وقد تُقتَضَبُ أحداثه وهو الغالب، اكتفاءً بتحديد هذه العناصر دون إفاضة أو اقتصارا على ضبط طلب الغزو والخروج إليه وتحديد الفاعل وهدفه.

ونقدّم ثلاثة أمثلة عمّا كنّا بصدد بيانه، تُظهر الحدث الأوّل أو المقطع الأوّل الذي يُمثّل فاتحة أخبار الصعاليك:

م1: "قال: وخرج تأبّط غازيا يريد الغارة على الأزد في بعض ما كان يغير عليهم وحده..."[1]

م2: "قال: وخرج تأبّط شرّا في سريّة من قومه، فيهم عمرو بن برّاق ومرّة بن خليف والمسيّب بن كلاب وعامر بن الأخنس، وهو رأس القوم، وكعب بن جدار وريش لغب والسمع وشريس بنو جابر إخوة تأبّط شرّا، وسعد ومالك ابنا الأقرع، حتّى مرّوا ببني نفاثة بن الديل وهم يريدون الغارة عليهم.."[2].

م3: "ذكروا أنّ تأبّط شرّا خرج ومعه مرّة بن خليف يريدان الغارة على الأزد، وقد جعلا الهداية بينهما، فلمّا كانت هداية مرّة نعس، فجار عن الطريق ومضيا حتّى وقعا بين جبال ليس فيها جبل متقارب، وإذا فيها مياه يصيح الطير عليها وإذا البيض والفراخ بظهور الأكم.."[3].

لقد تحدّد في هذه الأخبار الوضع الأوّليّ بتمام عناصره، فنلحظ في المثال الأوّل ظهور الخارج مفرَدًا دون رِفقةٍ وظهور فعلِ الغارة وتحديد الجهة المقصودة أو الهدف. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المثال الثاني وجودا لذات الهيكل، ونعني بذلك: الفاعل + الفعل + المفعول به (الهدف)، والتغاير بين المثالين حاصل في صورة الفاعل التي تكون في هيئة مفردة في المثال الأوّل فتصبح في المثال الثاني جمعا، إذ يُرافَق الفرد

1- م.ن: 21/ 173.

2- م.ن: 21/ 184.

3- م.ن: 21/ 178.

المعلَن والمُظهَر بدءا وكأنّه رأس القوم بصحب يأزرونه، ويُحَدَّد رأس هذه الجماعة طرفا مغايرا للفاعل المُسنَد إليه الخبر في جلّ فعاله. أمّا المثال الثالث فهو يقدّم لنا صورة عن إمكان تعقّد الوضع الأوّليّ ممّا يُولّد حدثين أو فعلين في إطار المغامرة. وقد تحدّد في هذا المثال نفس الهيكل الذي ضبطناه في المثالين السابقين أي: فاعل + فعل + مفعول به. إلاّ أنّ أمرا يحدث يعدل بالفاعل عن هدفه ويضعه في موضع لم يكن في الحسبان. وهذا العدول الحاصل في المقطع الأوّل مؤثّر في لاحق المقاطع.

■ فعل الغارة

وهو عادة ما يتشكّل من عدد من المقاطع الفرعيّة التي تحضر بدرجات متفاوتة أي بتمامها أو بوجود بعضٍ منها دون الآخر، غير أنّها في الصورتين تنضوي تحت فعل يشكّل مقطعا تامّا وهو فعل الغارة الذي مهّد له فعل سابق أطّره وضبط عناصره وهو فعل الخروج إلى الغارة، وهذه المقاطع الفرعيّة التي لاحظنا وجودها في هذا المقاطع هي:

- الخطّة المعتَمَدة في الغزو = الحيلة[1]، وعادة ما ترد قولا على لسان إحدى الشخصيّات.
- تحقيق الخطّة = تحقيق الحيلة = تحقيق الغارة[2].
- المطاردة[3].
- الحيلة المضادّة[4].

1- إنّ الحيلة قد تقع في "الغارة" وقد تظهر في فعل "المطاردة"، وقد تظهر فيهما معا. انظر *كتاب الأغاني*: 21/ 158-160- 150.

2- انظر م.ن: 21/ 181: "فمضوا حتى أغاروا على العوص". و21/ 179: "ففعلا".

3- م.ن: 13/ 215 "إذ أحاطت به (حاجز) خثعم..و20/ 353 "..وطارداه (السليك بن السلكة) سحابة يومه..." و 21/ 153 "فتبعه بعضهم على خيل وبعضهم على رحّالة..." و 3/ 83 "..فاتّبعه (عروة بن الورد)، قال فاتّخذا وعالجه، قال: فضرب به الأرض فيقع قائما، ثمّ واثبه فضرب به وبادره..."

4- م.ن: 21/ 173: "فكمنوا له مكمنا.." و 21/ 168: " وذكروا أنّ ناسا من الأزد ربئوا لتأبّط شرّا ربيئة، وقالوا: هذا مضيق ليس له سبيل إليكم من غيره، فأقيموا فيه حتّى يأتيكم.."

-فشل الحيلة المضادّة[1].

فالحيلة التي تُحدَّد لتأدية الفعل تمثّل الحدث الفرعي الأوّل الذي يُجرَى في مقطع الغزو، ومنها ندرك الوسيلة التي يعتمدها الفاعل لمجابهة العدد. ذلك أنّ "الصعلوك" في حاجة دائمة إلى خطّة في غزوه، أو هو بالأحرى في حاجة إلى الحيلة بغاية الظفر بما يرومه. وحاجته إلى الحيلة صادرة عن انعدام التوازن الكمّي أو العدديّ بينه وبين ضحيّته. ومثاله فعل تأبّط شرّا وصاحبه في إحدى الغزوات، "قال تأبّط شرّا (... فأت الحيّ من طرف وأنا من الآخر، ثمّ كن ضيفا ثلاثا فإن لم يرجع إليك قلبك فلا رجع، ثمّ اغز على ما قبلك إذا تدلّت الشمس فكانت قدر قامة."[2]، أو حيلة السليك في الاستخبار عن حال القوم الذين يريد غزوهم[3]. وتحقيق الحيلة أو الخطّة يمثّل المقطع الفرعي التالي لضبطها، وهو المقطع الخاصّ بفعل الغزو تطبيقا لما هيّئ سلفا، وغالبا ما يرد هذا المقطع مقتضَبا، موجَزا، فقيمته ليست كامنة في التوسّع في ذكر أحداث الغارة وإنّما الأهمّ هو الأحداث التي تلحق فعل الغارة. ولذلك فإنّا نلحظ أنّ الحدث/ الغارة، يُذكَر دون تفصيل، في حين يقع التركيز على المطاردة وما ينتج عنها من أفعال. فهي قِبلة السرد باعتبارها تُظهر قوّة الصعلوك وقدرته على النفاذ من الشراك التي تُنصَب له. ففعل المطاردة -وهو يظهر عادة في مقطع فرعي يلي الغارة، وقد يفعل فعله في إبطالها إن كان سابقا للغارة، بوجود "النذير" الذي يفطن لفعل الصعلوك قبل حدوثه- قد يفضي إلى إنتاج "الحيلة المضادّة"، ونقصد بها الحيل التي يؤتى بها لمجابهة فعل الصعلوك باعتباره فاعلا يعسر الظفر به ويأتي من الأفعال و الحيل ما لا قِبَل لهم به. إضافة إلى السمة الثابتة في أفعال الصعاليك والتي تجعلهم قادرين على النفاذ من العدد، وهي سمة جامعة تقريبا لكلّ الصعاليك ومعجزة لآخذيهم عن الظفر

1- 21/ 167: "فلمّا دنا من القوم توجّس ثمّ انصرف ثمّ عاد..." و 21/ 173: "...ويأبى (تأبّط شرّا) إلاّ الحذر والأخذ بالحزم، فمكث ساعة وقد هيّأ سهما على كبد قوسه، فلمّا أحسّوا نومه أقبلوا ثلاثتهم يؤمّون المهاد الذي رأوه هيّاه، فيرمي أحدهم فيقتله، وجال الآخران..."

2- م.ن: 21/ 179.

3- م.ن: 20/ 350.

بهم، وهي قدرتهم العجيبة على العدو، وهي صفة تساعد بشكل بيّن على إبطال الحِيَل المضادّة وإفشالها.

وعلى هذه الهيئة، فإنّ خبر الصعلوك لا ينبني على طلب الغارة ثمّ الغارة فالانصراف، وإنّما هو يتكوّن أساسا من تولّد الأفعال المُعدّدة لمقاطعه الفرعيّة، لتتّخذ الشكل التالي:

طلب الغارة← الغارة← المطاردة← الصدام[1]← الظفر ← الانصراف.

ونظرا لقيمة هذه العناصر المكوّنة لفعل الغارة نقدّم خبرين يخصّان تأبّط شرّا، تظهر فيهما مختلف الأفعال التي ضبطناها، وينصرف الخبر الأوّل إلى إظهار غارته على الأزد[2]، وفيه اقتضاب لفعل الغارة وإيجاز، وكأنّه لا يشكّل فعلا مهمّا، إذ يقتصر الراوي على التعبير عنه بقوله "ففعلا" دون ذكر لحوادث الفعل إشارةً إلى انقلاب الأقوال السابقة خُطَّةً مضبوطةً إلى أفعال أتاها صاحب الفعل، وهي الأقوال التي جاءت على لسان تأبّط شرّا. ثمّ يُبعَث الفعل من جديد بعد المطاردة والطلب، وكأنّ قيمة الغارة لا تكمن في فعل الغزو وإنّما في الظفر انصرافا وهروبا من الطالبين الملاحقين. وأمّا الخبر الثاني فهو المبين عن معركته مع خثعم[3]، وفيه صورة للمعركة الحقيقيّة استنفارا وكرّا وفرّا وصداما بين المتقاتلين. ونسعى بعد إيراده إلى بيان بعضٍ من خصوصيّاته: "...**فمضوا حتّى أغاروا على العوص، فقتلوا منهم ثلاثة نفر: فارسين وراجلا وأطردوا لهم إبلا وأخذوا منهم أفراسا. فمضوا بما غنموا...**"[4]، فإلى هذا الحدّ فإنّ فعل الغزو قد تمّ غير أنّ فعل المطاردة يبعث أحداث الصدام من جديد، وهو الممثّل لقيمة الغارة والمعركة الأخيرة التي فيها يكون الظفر أو الموت "**حتّى إذا كانوا على يوم وليلة من قومهم عرضت لهم خثعم**"[5]، فمن ذلك يمكن أن ندرك فعل

1- إن اقتضى الأمر صداما.

2- م.ن: 21/ 178.

3- م.ن: 21/ 181.

4- م.ن: 21/ 181.

5- م.ن.ص.

المطاردة الذي يظهر فيه الصعلوك بحيلِهِ وبقوّته الصراعيّة وبحفاظه على مغانمه. وردّ فعله في هذا الموقع قد يكون صداما مع طالبيه كما رأينا في هذا الخبر[1]، وقد يكون حيلة يأتي بها بغاية إلحاق الضرر بهم وصرفهم عمّا يريدونه[2]. فنتبيّن إذن أنّنا إزاء مقطعين مهمّين يفضيان إلى مقطع ثالث يكون نتاجهما وهو مقطع الانصراف.

■ **الانصراف**

هو آخر مقاطع الخبر ويُوصَل بسابقه وصلا متينا حتّى يعسر الفصل بينهما. ففعل الصعلوك لا يتم ولا يكتمل معناه إلاّ بتحقيق الانصراف أو العودة ظفرا بحياته وظفرا بما غنمه من الضحيّة في درجة ثانية. فمقطع الانصراف ذو قيمة مهمّة في بناء أخبار الصعاليك، إذ هو المتوّج للفعل، المنهي له. وقد أفردناه مقطعا مستقلاّ بذاته، موصولا بسابقه بسبب قيمته إذ هو موصول بنتاج الحيلة والغارة معا، وقد ينفتح هذا المقطع (وخاصّة على الأقوال الشعريّة أو على أقوال شعريّة قد تؤسّس علاقة جديدة

1- وفي غيره من الأخبار. انظر على سبيل المثال الخبر الوارد في *كتاب الأغاني*: 21/ 179 "...حتّى إذا كان اليوم الثالث دخلا شعبا فنحرا قلوصا، فبينا هما يشويان إذ سمعا حسّا على باب الشعب، فقال تأبّط: الطلب يا مرّة، إن ثبت لم يدخل فهم مجيزون وإن دخل فهم الطلب، فلم يلبث أن سمع الحس يدخل..." وهذا الفعل الجديد لقاء بالضحيّة أدّى إلى المقاتلة أو إلى الصدام المباشر دون مخاتلة أو مراوغة أو ترصّد لإنفاذ الحيلة "...فلمّا دنا القوم أخذ مرّة بظهر تأبّط فقتل رجلا ورموه بسهم فأعلقوه فيه، وأفلتا جميعا بأنفسهما."

2- كفعل تأبّط شرّا عندما حاصره ملاحقوه من هذيل، فكانت الحيلة مخرجا له ومنفذا، إذ حاصروه في غار ونادوا عليه بالصعود، فقال: "لا واللّه لا أفعل. قال، وكان قبل ذلك نقب في الغار نقبا أعدّه للهرب، قال: فجعل يسيل العسل من الغار ويهريقه ثمّ عمد إلى الزقّ فشدّه على صدره، ثمّ لصق بالعسل، فلم يبرح ينزلق حتّى خرج سليما وفاتهم، وبين موضعه الذي وقع فيه وبين القوم مسيرة ثلاث." (انظر *كتاب الأغاني*: 21/ 158.)، أو كفعله مع بجيلة عندما لاحقته وأسَرته ولم تقدر على صاحبه عمرو بن براق، فاحتال عليها وفرّ من إسارها، انظر الخبر في المرجع نفسه، 21/ 149.

وأحداثا ناتجة عن حصيلة الغارة[1].) وقد يرد موجزا معبّرا على الفعل فحسب دون توسيع أو إفاضة، وإنّما هو مقتصر على التعبير على الفعل في حدّه الصياغيّ الأدنى[2].

فأخبار الصعاليك تتكوّن إذن من ثلاثة مقاطع[3]، مقطع أوّل يُضبَط فيه الفعل والفاعل والضحيّة، ومقطع ثان وهو الأهمّ إذ فيه فعل الغزو ويحوي عددا من المقاطع الفرعيّة التي تُثري هذا الفعل، وتُظهر قدرة الفاعل وفطنته، وفيه الحيلة والحيلة المضادّة[4] والمطاردة وفعل الغزو. وهي مقاطع فرعيّة تتضافر مجموعةً لتأدية فعل الغارة. وعن

1- انظر على سبيل المثال الخبر الوارد في "كتاب الأغاني": 21/ 184 "...وأفلت حاجز هاربا، وأخذ سلب الرجلين، وأطلق عقل الإبل وشلّها حتّى جاء بها قومه، وقال تأبّط في ذلك...". وانظر كذلك: 21/ 179 و 21/ 177...

2- م.ن: 21/ 150، "...وأفلتا جميعا.."

3- وتحديدنا لهذه المقاطع الثلاثة لا يُعَدّ شكلا يجمع كلّ أخبار الصعاليك، وإنّما هي الأخبار التي تمثّل غارات هؤلاء الصعاليك أساسا، وهي الأغلب. دون وقوف على أخبار تصف هذه الشخصيّات أو هي تبين بعض الأفعال الفرعيّة التي لا تمثّل ظاهرة مشتركة بين هؤلاء الصعاليك. ونلاحظ في هذا المجال أنّنا وجدنا أنفسنا أمام أخبار تأبّط شرّا أساسا، والتي تظهر فيها هذه المقاطع بصورة جليّة، وكأنّها مثال أخبار الصعاليك، وبعض أخبار عروة بن الورد والسليك بن السلكة وحاجز، أمّا بقيّة الأخبار فإنّنا لم نجد في أغلبها مادّة جديرة بالدراسة. فأخبار الشنفرى تنصرف إلى بيان حدث موته، وأخبار عمرو بن برّاق تحوي خبرا عن غاراته. وعلى ذلك فإنّنا نؤكّد أنّ العناصر - سواء كانت مقاطع كبرى أو مقاطع فرعيّة- التي أثبتنا وجودها في أخبار الصعاليك لا تمثّل شكلا تخضع له هذه الأخبار بصورة مطلقة، وإنّما هي تظهر جملة أو في بعض عناصرها في الخبر.

4- يمكن أن نقدّم مثلا مبينا عن الحيلة والحيلة المضادّة أي عن اعتماد المتربّصين بالصعلوك الحيلة واحتياجه هو إلى الحيلة أيضا لمجابهة حيَلهم، في خبر تأبّط شرّا وغاراته على الأزد، الوارد في "كتاب الأغاني": 21/ 173، "...فنذرت به الأزد، فأهملوا له إبلا من ذوي بأسهم (...) يتبعونه حتّى ينام فيأخذوه أخذا، فكمنوا له مكمنا..." وهي الحيلة المضادّة، إذ نُصِبَت للفاعل شراك تمثّلت في إهمال إبل بغاية رصده ساعة أخذها والتربّص له حتّى ينام، فيُؤخذ على حاله تلك، وهذا ناتج عن عجزهم عن أخذه في حالة يقظته. ومن هذا الوضع تتولّد حيلة الصعلوك، وهي حيلة أصليّة مركوزة في طباعه، تظهر في الحذر والحيطة الدائمة، إذ هو لن ينام في الموقع الذي أعدّه لنفسه، وإنّما هو يحذر دوما مترصّدا ملاحقا له، لذلك فقد عمد إلى المراوغة "...ثمّ هيّأ مضطجعا على النار ثمّ أخمدها وزحف على بطنه ومعه قوسه حتى دخل بين الإبل وخشي أن يكون رآه أحد وهو لا يعلم ويأبى إلاّ الحذر والأخذ بالحزم. فمكث ساعة وقد هيّأ سهما على كبد قوسه" وهو بذلك قد أوقع طالبيه في نفس الجبّ الذي أرادوه له.

هذا الفعل ينتج المقطع الأخير الذي يؤدّي معنى الانصراف ويحوي فعل ظفر الفاعل، وغالبا ما ينفتح هذا الفعل على القول الشعري الناتج عن الغارة.

إنّ نظرنا في محورين اتخذناهما نموذجا إجرائيّا قد مكّننا من استنتاج مسألتين مهمّتين، تخصّ الأولى تعالق الأحداث وتسلسلها، وتخصّ الثانية الاشتراك في بعض المقاطع الفرعيّة. فلقد أدركنا أنّ الخبر قائم على ثلاث مراحل حَدَثيّة أساسيّة، هي ضبط وضع أوّليّ (قد يظهر في "الخروج" أو في "السبب" أو في "الطلب") يُنتِج توتّرا (قد يكون في شكل واقعة أو حيرة أو صداما وغارة...") يُفضي بدوره إلى نتاج يستقرّ به الوضع (وقد يكون النتاج تحقيقا للطلب الوارد في الوضع الأوّل أو حصادا أو انصرافا)، وتُشكّل هذه الأوضاع العامّة عددا من المقاطع الكبرى قد تتلاقى وحدودَ هذه الأوضاع وقد تتعدّاها، غير أنّها محقّقة معنى كلّ وضع. وهي متكوّنة بدورها من مقاطع فرعيّة تبني معناها، فترابط هذه المقاطع الفرعيّة -عادة- متسلسلة متتالية، ناتج بعضها عن بعض لإخراج معنى المقطع التامّ الذي قد يُعقَد ومقاطِعَ أخرى لتشكيل معنى الوضع وقد يؤدى بتمامه هذا المعنى ليتداخل والوضعَ. وتتضامّ هذه المقاطع، إذ يتولّد اللاّحق منها عن سابق يتأسّس عليه، فيكون المقطع نتاج المقطع وتتالى الأحداث تلاحقا زمنيّا خاضعا لخطيّة وقوعها في أرض الواقع، إذ يدفع السبب إلى وقوع الواقعة، ويؤدّي الطلب إلى البحث عن تحقيقه، ويُفضي الخروج إلى الغارة إلى حدوث الغارة. وكذلك فإنّ الواقعة تُختَم بنتيجة والغارة تُتَوَّج بالانصراف، والبحث عن تحقيق الفعل ينتهي إلى تحقيقه. وهي الأوضاع التي أبنّا تتاليها وترابطها ترابطا منطقيّا وزمنيّا.

وقد نجد الاشتراك بين هذه الأخبار حاصلا في مستوى مقاطعها الفرعيّة، فمقطع الحيلة على سبيل المثال نجده في أخبار الأيّام وفي أخبار الصعاليك وفي غيرهما من الأخبار، وذلك قد يعود إلى قيمتها داخل الخبر تحقيقا للقبول الحسن وإضفاءً لقيمة مُضافةٍ إلى الفاعل، لأنّه يُوضَع في موضع يعسر أن يمرق منه إلاّ بحيلة يأتيها أو بفعل غريب مشدود بدوره إلى الحيلة يُخلّصه من الأزمة التي حِيكَت له.

غير أنّنا نشير بعد عرضنا هذا إلى ملاحظتين لا يمكن أن نغضّ الطرف عنهما في مجال بيان بنية الخبر الحدثية:

- أنّ تعميم هذا الهيكل الذي ضبطنا على كلّ أخبار الجاهليّة أمر لا جدوى منه تظهَر.

ذلك أنّا واجدون أخبارا تنشدّ إلى محور يخصّ الشخصيّة المُرشّحة دون أن تُوصَل بالفضاء الغرضي الذي تتحدّد به، ومن ذلك انشداد أغلب أخبار الشنفرى إلى حدث موته، فهي دائرة في هذا المدار الحدثي لا تبرحه، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أخبار عروة بن الورد إذ تتركّز على بيان علاقته بالمرأة، وقد انصرفت أغلب الأخبار التي خصّه بها صاحب الأغاني إلى ذكر حوادث مشدودة إلى هذه العلاقة.

- أنّ قسما مهمّا من هذه الأخبار لا ينخرط في المجال السردي، إذ يتراجع فيه المستوى السردي، ويكون قولا تقريريّا محضا.

غير أنّ هذا لا يحول دون ضبط خيوط عامّة يمكن أن تنتظم البنية الحدثيّة في الأخبار، هي التي وصلت إلى حدّها الأمثل في أخبار "الأيّام"، فشكّلت بذلك قالبا يُلزم في بناء أغلب الأيّام.

فلقد أدركنا من دراستنا جملة من البنى العامّة التي تقوم عليها أخبار محوري الصراع والقيم، فتبيّنّا جملة من المقاطع التي تُميّز كلّ محور، فهل هي عناصر متفرّقة لا جامع بينها، أم هي بنى فيها من التماثل ما يشكّل قالبا يمكن أن نجريه على كامل الأخبار؟

إنّ المقاطع التي تبيّنّا سواء في دراستنا لمحور القيم أو لمحور الصراع، قائمة على تفاوت في درجات بنائها، غير أنّ هذه البنية تصل في أخبار الأيّام إلى تقديم بنية ثابتة، تبدو فيها العناصر الحدثيّة متعاودة، وهي بنية لم تتحقّق في الأخبار الأخرى، فأخبار الأيّام تقدّم نموذجا يمكن أن يؤسّس ما يشبه الجنس بمفرده، إذ أنّ في بنيته الحدثيّة من التماثل والتشارك ما يجعلها قائمة على هيكل عامّ مشترك هو المحتَذى في تأليف الأخبار وهو ما لم نجده على نفس الهيئة في مجموع الأخبار الأخرى.

وما رصدناه من مقاطع في حدودها الكبرى أو الصغرى يمكن أن يمثّل مدخلا لدراسة صياغة هذه المادّة الأخباريّة، في مستوى توسيع العناصر الحدثيّة أو اقتضابها، وهو مدار الباب اللاّحق.

الفصل الثاني

الجاهليّة بين الاقتضاب والتوسّع

يُوسَم الخبر في صورته العامّة بالاقتصاد في السرد والاقتصار على أهمّ الحركات السرديّة التي تُكوّنه. وهو مظهر من مظاهر صياغة الخبر ينأى فيه الراوي عن توسيع المجال السرديّ ويعتصم بمبدإ التجرّد والحياد في نقل الوقائع التي يعبّر عنها. فأخبار الجاهليّة –جلّها– صادرة عن نوى أولى تُشكّل مادّة حدثيّة يجتهد الرّواة في صوغها، وقد تكون هذه النوى ماثلة في أشعار الشعراء أو في أمثال رائجة وأقوال سائرة أو في حكايات دارجة بين القوم، ومن هذه النوى تصدر تفريعات عديدة وصياغات مختلفة وفقا للمقصد الذي يُشَدّ إليه الخبر. فمسألة الاقتصاد أو التوسّع في صياغة صورة الجاهليّة موصولة بطرائق الرّواة في التعامل مع هذه النوى وبالمقامات التي تحتوي الخبر في إخراجه وروايته. ولذلك فإنّ الصياغة التي يكون عليها الخبر ليست ناتجة عن قدرة الرواة على التجميع والبحث في المظانّ تقصيًا لمختلف صنوف الأخبار وشتّى روايتها فحسب، وإنّما هي راجعة أيضا إلى قدرة الراوية الرأس على تمثّل الصورة المنقولة عن الحدث أو عن الشخصيّة، وإخراجها في صياغة تساهم في تحديد ملامحها ثقافته وقدرته التخييليّة وإمكاناته السرديّة، والمقام التخاطبي الذي يحوي إنشاء الخبر.

ولقد أقرّ محمّد القاضي أنّ الاقتضاب هو السمة الغالبة على خطاب الخبر، وأكّد هذه السمة نظرا في اجتهاد الراوي في التواري[1]، وما ينتجه ذلك من تقلّص تدخّله في إنجاز

1- محمّد القاضي (1998): ص390.

الخطاب، ونظرا في المنزلة المخصوصة التي يحظى بها فيها كلام الشخصيّات"[1]، ونظرا في البنية الزمنية للخطاب التي تتّسم باختزال زمن الحدث[2]. وهي ملاحظ منه جدّ مهمّة، مكّنته من محاصرة خطاب الخبر وبيان خِلال تخصّه وتفرده. ولن نركن في هذا المقام إلى إعادة ما بلغه القاضي أو اعتماد ذات الأدوات، وإنّما نحن ساعون إلى بيان صيغتين ساهمتا في إظهار صورة مخصوصة عن الجاهليّة تعتيما وبيانا، شفافيّة وغموضا، وهما الاقتصاد والتوسّع. وكان منطلقنا أخبارا عن الجاهليّة تعتمد السرد في حدّه الأدنى وأخرى تجنح إلى بعضٍ من التوسّع، فتكون الوقائع في المظهر الأوّل موجَزة يعسر تمثّلها، وتكون الصورة في المظهر الثاني يسيرة التمثّل ومدرَكة نسبيّا.

ويظهر الاقتصاد في السرد في اقتصار زمن الخطاب على الحدث المقصود وإن اضطرّ الراوي إلى طيّ أزمنة في الخبر مديدة بلوغا إلى لحظة تُسَجَّل أو موقف يُروى أو قول يُثبَت. وهي ظاهرة يقتضب بواسطتها الراوي الخبر ويأكل قسما من أحداثه، فيُربك الصورة المرصودة إذ يتصرّف في زمن الخبر ويُظهر منه مواقع حدثيّة يُرشّحها مجالا لروايته ويُهمل أخرى أو هو يقتضبها. فعلى مستوى النظام الزمني فقد لاحظنا في الفصل السالف أن منطق بناء الأحداث في الخطاب يُوافق –عموما– نظام انبنائها في الخبر[3]، فيتولّد الحدث من الحدث وينتج اللاّحق عن سابق يُمهّد له ويؤسّس أسباب وجوده، فالأحداث في الخطاب تُبنى بخطيّة تُشاكل خطيّة وقوعها في الكون أو في الخبر، فلا يُدخل عليها الراوي الفوضى ولا يُربكها ولا يُكثّف من اعتماد سوابق أو لواحق تُخِلّ من نظام الأحداث، وإنّما هو تراتب للأحداث وأسباب تُولّد نتائج، وهذا ما ظهر بصورة بيّنة في بناء مقاطع الخبر التي تُضبَط أساسا في أسباب تُحَدَّد وواقعة تُثبَت ونتائج تُنهى بها الأحداث. وأمّا في خصوص المدّة فإنّا نلحظ غلبة مظهرين هما المجمل والمشهدي، فأمّا المجمل فهو ظاهر في خطاب الراوي أو في الأحداث التي يضطلع الراوي بحكايتها، فلا يجنح إلى التفصيل وإنّما هي الأحداث تتجمّع وسرعان

1- م.ن ص391، يقول: "*ونعتقد أنّ جنوح الخطاب في الأخبار إلى الاقتصاد إنّما تولّد من المخصوصة التي يحضى بها فيها كلام الشخصيّات*".

2- م.ن: ص397- 398، يقول: "*فالخصيصة التي يتميّز بها زمن الخطاب في الخبر أنّه يختزل زمن الأحداث*"

3- (histoire)

ما يتخلّص الراوي من عبء حكايتها فيترك حبل الرواية إلى الشخصيّات، يُنطقها ويُسنِد إليها تكوين الخبر. فيكون السرد المشهدي الذي تتوازى فيه مدّة وقوع الأحداث في الخبر مع مدّة صياغتها في الخطاب. وغلبة السرد المجمل شاهد بيّن على انصراف الخبر في صياغته إلى الإيجاز والاختصار، ولا يُعَدُّ تمثيل الوقائع -باعتماد السرد المشهدي- دليلا على جنوح هذه الأخبار إلى الإفاضة، وإنّما قصاراه إحلال التوازن بين الخبر والخطاب على مستوى المدّة الزمنيّة، وإن كنّا نؤمن بأنّ السرد المشهدي الغالب في الأخبار يظلّ مبتورا مغمضا في غياب تأطيره ونقل الحوافّ التي ساهمت في تكوينه ورافقت تشكّله، وفي غياب ضبط دقيق للشخصيّات ولحركتها.

ويظهر المجمل في تسريع حركة السرد، وإيراد أفعال متتالية تقوم أساسا على موتيفات التضامّ[1] أو على الوظائف الأساسيّة[2] أو النوى[3]، ونجد جملة من الأخبار على هذه الشاكلة من تتالي الأفعال لتحقيق مقاصد متعدّدة هي في الغالب تُحَدَّد بإثبات مقول شعري أو التقديم له أو إثبات صفة في الشخصيّة أو فعل يُسنَد لها. ومثال ذلك خبر عن تأبّط شرّا في بيان أسباب قوله قصيدته: (من الرجز)

مَالَكَ مِن أَيرٍ سَلِيبِ الخُلَّةِ ... عَجَزتَ عَن جَارِيَةٍ رِفلَّةِ
تَمْشِي إِلَيكَ مِشْيَةَ هِركلَّةْ ... كَمِشْيَةِ الأَرخِ تُرِيدُ العلَّةْ
لَو أَنَّهَا رَاعِيَةٌ فِي ثلَّةْ ... تَحمِل قِلْعَيْنِ لَهَا قِبَلَّةْ

لصرت كالهراوة العبلة[4]

---

1 - *« les motifs associés »*. Tomachevski : « Thématique ». in *« **Théorie de la littérature. Textes des formalistes russes** »*.

2 - *« fonctions cardinales »*. Barthes Roland : *« Introduction à l'analyse structurale des récit »*. in *« **l'analyse structurale du récit** »*. Communication 8. Ed du seuil , 1981. p15.

3 - *« noyaux »*. Barthes. *« **l'analyse structurale du récit** »* P15.

4- *كتاب الأغاني*: 21/ 148-149. (ديوان تأبّط شرّا وأخباره. جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى 1984. ص271).

فيصل هذا القول بحدث مخصوص أنتجه، يقول: "**قال حمزة: وأحبّ تأبّط شرّا جارية من قومه، فطلبها زمانا لا يقدر عليها، ثمّ لقيته ذات ليلة فأجابته، وأرادها فعجز عنها، فلمّا رأت جزعه من ذلك تناومت عليه فآنسته، وهدأ ثمّ جعل يقول...**"[1] فنلحظ تسارع الأفعال وتتاليها مع تخطّي وقائع عديدة يطويها الراوية طيّا، كما نلاحظ إيراد الأحداث في حدّ أدنى من التعبير اقتصارا على الفعل الدالّ عليها تقريبا، وهي صورة من صُوَر تفاوت مدّة الخبر ومدّة الخطاب. ومن أمثلة هذا المظهر خبر الحارث بن تولب، إذ يورد فيه الراوي أفعالا متتالية، ومتواصلة دون وقوف عندها أو توسيع لها أو تتبّع لآثارها. "**وكان للنمر بن تولب أخ يُقَال له الحارث بن تولب، وكان سيّدا، معظما، فأغار الحارث على بني أسد، فسبى امرأة منهم يُقَال لها حمزة، ففركته، فحبسها حتّى استنفرت، وولدت له أولادا...**"[2].

إنّ فعل الغارة في الخبر يحتلّ زمنا هو في كلّ الأحوال أمدّ من الزمن الذي استغرقه التعبير في الخطاب عن هذا الفعل وهو يطلب أيضا أفعالا مبينة عن هذه الغارة وعن طرائقها وخططها ووسائلها. وفعلُ السبي أيضا يُضمر أفعالا ثاوية فيه تقتضي النزاع والانتصار حدّ بلوغ أخذ السبايا، ثمّ إنّ بين أفعال الفرك و الاستنفار والولادة مدّة زمنيّة تُقتَضَب بل هي تُمحى، لترد أفعال في الخطاب متلاحقة موصولة بفاء النتيجة.

كما يظهر المجمل في الاقتضاب الزمني الظاهر في خطاب الخبر، ومن أمثلة ذلك عبارة "**فطلبها زمانا**" في خبر تأبّط شرّا السابق ذكره، و "**فمكثت عنده (عروة بن الورد) بضع عشرة سنة وولدت له أولادا...**"[3] و "**فلم يزل يجمعهم سبع سنين..**"[4]، وهي عبارات تُجرى بصورة مكثّفة في أخبار الجاهلية، وتقوم شاهدا على صيغة الاقتضاب التي تميّز الخبر، وتساهم في حذف مراحل حدثية مديدة في الخبر. ولعلّ أبين مثال على

1- م.ن: 21/ 148.

2- 22/ 290.

3- م.ن: 3/ 72.73.

4- م.ن: 13/ 123.

هذه الصياغة القائمة على الإجمال الزمني يظهر في خبر يُصوّر قدوم الحبشة إلى اليمن وطردهم منها، فنلحظ الراوي يطوي أزمنة مديدة ويتخطّاها مركّزا على بدء دخول الحبشة إلى اليمن وخروجهم منها، وما بين هذين الحادثين سنوات يُعبّر عنها بقوله: **"فملك أبرهة عشرين سنة، ثمّ ملك بعج أبرهة ابنه يكسوم، ثمّ ملك بعد يكسوم أخوه مسروق بن أبرهة."**[1]

فالراوي لا يصرف جهده إلى تتبّع الأحداث زمنيّا وإنّما همّه منصرف إلى إثبات وقائع والإخبار بها. وحسبه أن يورد الأفعال الكبرى، ولذلك فإنّ أخبار الجاهليّة رغم قيامها على نظام يُراعي فيه الراوي خطيّة وقوعها في الخبر إلاّ أنّ المادّة الحدثيّة في صياغة الراوي لا تحضى بكبير عناية، وإنّما هي وسائط يعتمدها للإثبات أو للتمهيد أو للتأطير، أو هي في بعضٍ من الأحيان مقصودة لذاتها، ولكنّها تظلّ قاصرة عن مقاربة زمن حدوثها في الخبر.

ومثال سياحة الراوي عبر أزمنة طويلة وأحداث جسيمة يُعبّر عنها في مُوجَز من القول خبر يُظهر تفرّق القبائل العربية[2]، فيورد النزاع بين قضاعة ونزار ويذكر خروج قضاعة بعد حربها مع نزار وتفرّق قبائلها وما لاقته في خروجها وتفرّقها من صعاب وعوارض وحوادث تجري عليها. ويقتضب الراوي صياغة هذه المادّة الحدثية مكتفيا بذكر الأفعال السرديّة، مقتصرا على إعلان الحدث، مسارعا في إيراده، دون جهد منه يظهر لجبّ الهوّة الفاصلة بين الأحداث في وقوعها الفعلي وبين رواية هذه الأحداث وتحويل وقائعها إلى أفعال ترويها اللّغة بعدما كانت أفعالا تتحقّق معاينة وممارسة، فيغيب الوصف، وتتراجع مختلف الوسائط التي يمكن أن يعتمدها الراوي في تتبّع الحدث وتقصّي الأفعال التي رافقت نواه الأصليّة بيانا لتفرّق القبائل العربية وضبط أسبابها وحركتها وتموقعها. فهو –في نهاية المطاف– خبر يؤصّل هذه القبائل

1- م.ن: 17/ 228.

2- م.ن: 13/ 75. وانظر أيضا في نفس المجال خبرا للقيط الأيادي: 22/ 393. يُقدّم الأحداث الممتدّة زمنيّا في صياغة موجَزَة.

ويضبط أسباب حلولها في محالّها، ففيه سعي لمحاصرة البدايات التي تظهر في **كتاب بدء تفرّق بني إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام عن تهامة.**"[1]

"كان أوّل من ظعن عنها وأخرج منها قُضاعة بن معد."[2]

"...حتّى نزلوا (تنوخ) الحيرة، فهم أوّل من اختطّها."[3]

"... وهو أوّل من عمل الرحال العلافية."[4]

وبذلك فإنّه يمكن أن ننتهي إلى أنّ خطاب الخبر يقوم على إيجاز زمن الأحداث واقتضابها ليجنح إلى التعبير عنها بما توفّره إمكانات اللّغة الواصفة في حدّها الأدنى، وهي من الظواهر التي وسمت خطاب الخبر بالاقتصاد في السرد. ومن الوسائط التي تجنح بخطاب الخبر إلى تحقيق هذا الاقتصاد، عزوفه عن اعتماد الوصف وسيلةً لتوسيع الخطاب[5] ولنقل حوافّه، وأداة يركن إليها صاحب الخطاب لتقريب صورة المروي من القارئ[6]، فيتمثّل الملفوظات ويردّها إلى مجالها العيني الحركي. فالاقتصاد في الوصف من السمات الغالبة على الخطاب الأخباري، إذ يقدّم الراوية أفعال الخبر عارية من كلّ وصف يضعها في موضعها المقامي ويعين الناظر فيها على إدراك تمام الصورة، وإنّما هو يفرض عليه –وعلينا– نسقا من اللهث وراء أفعال متتالية متواصلة، فيغيب بذلك

1- م.ن: 13/ 75.

2- م.ن.ص.

3- م.ن: 13/ 79.

4- م.ن: 13/ 80

5 -Ph Hamon: « ***Qu'est ce q'une description ?*** ». Poétique , 12/1972. p466 ☐

يقول: "نستطيع أن نحدّ الوصف بصورة أوليّة من حيث هو توسيع للقصّة."

6 -J.M.Adam: « ***Le récit*** » . Presses Universitaire de France 1984 . p150

يقول: "ينبغي أيضا أن نؤكّد أنّ الوصف هو دوما نقل لمعرفة ما وتحصيل لها"

أنظره أيضا في نفس الصفحة إذ يقول: "وللوصف في هذا المضمار وظيفة متفاوتة الأهميّة على مستوى آخر: بالنسبة إلى القارئ الي يبني [بقراءته] الانسجام السرديّ ومقروئيّة الأقوال"

وصل الحوادث بالفضاء الذي يحويها زمانا ومكانا ومقاما جامعا يضمّها، أو في واقع يُقلّب معاينة بتمام تمثّله.

على أنّا لا نعدم بعض الأوصاف المتفرّقة التي تخصّ الشخصيّة أو المكان، ومنها وصف الشنفرى "**وكان من أقبح الناس وجها**"[1]، ووصف قيس بن **الخطيم** "**كان قيس بن الخطيم مقرون الحاجبين أدعج العينين أحمر الشفتين برّاق الثنايا كأنّ بينهما برقا...**"[2]، ووصف زهير "**وكان زهير في الجاهلية سيّدا كثير المال حليما معروفا بالورع**"[3]، ووصف المنخّل والنعمان "**وكان جميلا وسيما، وكان النعمان أحمر أبرش قصيرا دميما**"[4]، وهي أوصاف متفرّقة في هذه الأخبار بواسطتها تُنقَل لنا صورة خارجية خارجية جثمانية عن الشخصيّة، غير أنّ الراوي ساعة نظره إليها لا يأتي على جميع جوانبها، وإنّما هو يقدّم بعضا من الأوصاف الوظيفيّة التي تُستَغلّ في بناء حوادث الخبر، وترد هذه الأوصاف عادة في مقدّمة الخبر أو في مقاطعه الأولى. وأمّا ما خصّ المكان منها، فهو نادر ومقتضب وقاصر على جعل القارئ يتمثّل الجاهلية في مواقعها ووسطها الجغرافي، وممّا ورد منه وصف سوق بني قينقاع "**وكانت سوقا عظيمة**"[5]، فيقصر فيقصر الراوي رؤيته على وسم السوق بالعظمة دون اجتهاد في بيان حركته وهو ما يُحوّل الوصف إلى آلة تحدّ من حركة السرد، ولا تؤدّي وظيفة الإبانة وتوسيع الخطاب، ولا تخلق فضاءات للسرد متولّدة عن الوصف.

1- *"كتاب الأغاني"*: 21/ 216.

2- م.ن: 3/ 11.

3- م.ن: 10/ 318.

4- م.ن: 21/ 8. وانظر أيضا وصف بادية بنت غيلان: 13/ 201 من نفس المرجع: "...إن فتح الله عليكم الطائف فسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن يهب لك بادية بنت غيلان، فإنّها كحلاء شموع نجلاء، خمصانة هيفاء، إن مشت تثنّت وإن جلست تبنت، وإن تكلّمت تغنّت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، وبين فخذيها كالإناء المكفأ."

5- م.ن: 22/ 121.

وقد نظفر ببعضٍ من المواقع النصيّة التي يُوسّع فيها الراوي نسبيًا من دقّة نظره في المكان، على شاكلة وصفه للموقع الذي وقع فيه تأبّط شرًا ومرّة بن خليف "**حتّى وقعا بين جبال ليس فيها جبل متقارب، وإذ فيها مياه يصيح الطير عليها، وإذا البيض والفراخ بظهور الأكم..**"[1]. ومن أهمّ النصوص التي توسّع فيها الخطاب على حساب الخبر في مدوّنة أخبار الجاهليّة نصّ فريد، يُقرّ دارس تاريخ الأدب بتأخّره، وبتأليفه في مرحلة نضجت فيها آلية الكتابة النثرية عند العرب، فيه يعلو الخطاب ويتقلّص الخبر في مشهد يُصوّر فيه أبو زبيد الأسد وحاله من مَرآه[2]: "...خرجتُ في صُيّابة أشرافٍ من أفناء قبائل العرب ذوي هيئة وشارة حسنة، ترتمي بنا المهاري بأكسائها، ونحن نريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشأم، فاخروطّ بنا السير في حمّارة القيظ، حتّى إذا عصبت الأفواه، وذبلت الشفاه، وشألت المياه، وأذكت الجوزاء المعزاء، وذاب الصَّيْهَدُ، وصرّ الجندب، وضاف العصفور الضبّ وجاوره في جحره، قال قائل: أيّها الركب غوّروا بنا في ضَوج هذا الوادي، وإذا وادٍ قد بدا لنا كثير الدّغل، دائم الغلل شجراؤه مغنّة وأطياره مرنّة. فخططنا رحالنا بأصول دوحات كنهبلات، فأصبنا من فضلات الزاد وأتبعناها الماء البارد (...) وإذا هامة كالمجنّ وخدّ كالمسنّ وعينان سجراوان، وكأنّهما سراجان يقِدان، وقصرة ربِلَة، ولهزمة رِهلة، وكَتَد مغبط، وزور مفرط، وساعد مجدول، وعضد مفتول، وكفّ شثنة البراثن، إلى مخالب كالمحاجن..."[3]، وهذا النصّ مطوّل، ومنه يمكن أن نلاحظ جملة من الملاحظات:

- أنّ المقام الذي أُنتِج فيه الخبر هو مقام إسلامي في زمن خلافة عثمان بن عفّان.
- أنّ الخبر ناتج عن مقام سياسيّ فيه يكون الخليفة السائل والراوي هو المسؤول.
- أنّ الخبر أُلحِق بشعر كان في نفس الموضوع، فكأنّ الشعر عجز عن بيان أثر الأسد في ذات مُلاقيه.

1- م.ن: 21/ 178.

2- م.ن: 12/ 118← 122.

3- م.ن: 12/ 119.120.

وممّا يُؤكّد وقْع الوصف في ذات المخاطَب المُعلَن نصيًا، قوله في منتهى الخبر: "...**فقال له عثمان: اسكُت قطع اللّه لسانك ! فقد أرعبت قلوب المسلمين**" وهو مقال لم يُصرّح به عثمان بعد إنصاته إلى الشعر الذي وصف فيه أبو زبيد الطائي الأسد، "**فقال له عثمان رضي اللّه عنه: تاللّه تفتأ تذكر الأسد ما حييت. واللّه إنّي لأحسبك جبانا هدانا.**" وما بين القولين الناتجين عن التأثر بجنسين متغايرين فوارق ظاهرة، فقول عثمان بعد إصغائه إلى الشعر فيه اتّهام صريح لصاحبه بوقوعه في دائرة الجبن، فكأنّ الجماعة لم يفعل فيها القول الشعريّ فعله ولم تهتزّ لما أبانه الشاعر، ولم تتأثر بما يقوله، أي أنّه عجز عن نقل ما به من رهبة الموقف إلى سامعيه، وإنّما الخوف من الأسد ظل حصير واصفه. وأمّا القول الثاني فإنّ المتكلّم تخطّى بواسطته الخوف الذاتي من الأسد ليُشعّه على الجمع الحُضَّر، فيكون بذلك قد وسّع من دائرة التأثّر، أو قد ساهم في إشراك المخاطبين وإدماجهم في ما هو عليه، أو هو قد وضعهم في الموضع الذي صوّره لُملاقي الأسد. ومنه فإنّ الخبر قد أضحى أسْرَى في النفوس وأنفذ من الشعر.

– أنّ الوصف قد علا على الحركة السرديّة، فكلّ فعل هو مُلحَق بجملة من الأوصاف والصوَر التي يسّرت على المخاطبين تمثّل الفضاء المنقول فأصبحوا في نفس محلّ المشارك في الحدث. فالأفعال الأساسيّة التي ولّدت أوصافا وصُوَرا متلاحقة هي:

- الخروج إلى ملاقاة ملك الشام (وقد تضمّن هذا الفعل وصف الجماعة الخارجة ووصف الركائب وتحديد المقصود ووصف المسير ووصف حال الجماعة بعد أن طال بهم المسير ووصف المكان الذي اتّخذوه محلاً للراحة).
- خروج الأسد عليهم (وصف حركة الخيل استشعارا لوجود الأسد ووصف الأسد في مشيته ووصف أعضاء الأسد ووصف كرّه وافتراسه جماعة منهم).

فلنا أن نلاحظ أنّ الخطاب يتشكّل بواسطة الوصف، فيصنع في ذات المتقبّل أثرا ناتجا عن قدرة الواصف على إدماج السامع في الفضاء الموصوف وعن تمكّنه من حمله على التأثر بقوله. وهو من الأخبار الفريدة القائمة على هذه الهيئة في مدوّنة أخبار الجاهلية، إذ هو قائم على نقيض السمات العامّة لجمل أخبار الجاهلية التي تقتصر في بنيتها الخطابيّة على الموتيفات الأصليّة أو على النوى أو الوظائف الأصليّة دون توسيع أو إفاضة. ففرق بين خبر

أبي زبيد الطائي السابق، وبين خبرٍ عنه يُروَى يُمثّل نموذجا متواترا بصورة بيّنة في أخبار الجاهليّة، وهو **كان أبو زبيد الطائي ممّن إذا دخل مكّة دخلها متنكّرا لجماله.**"[1]، هذا الجمال الذي لم يُوصَف، وهذا التنكّر الذي لم يُظهَر، وكأنّ الخبر يُوجَد -على هذه الهيئة- لمحض الإخبار والإعلام. ومن هنا يمكن أن نُقرّ أنّ المقام الذي يتكوّن فيه الخبر له دور فاعل في تحديد سماته الخطابيّة، فالمقام الذي نتج فيه الخبر الأوّل مُحدّد لسماته، إذ يستدعي المتكلّم الوصف آلةً لإيقاع الرهبة في نفوس المخاطبين دفاعا عن نفسه، ويكون المتكلّم في الهيئة الثانية في حاجة إلى الإعلام بالحدث فحسب.

وقد أشار ستيفان ليدر[2] إلى هذه الظاهرة التي تُوسَم بها الأخبار وتمثّل خصيصة من خصائص بنيتها السرديّة، وهي الاقتصاد في الوصف. وهي فيما نرى مسألة على صلة بمبدأين أساسين، مبدأ يخصّ تطوّر الأجناس واكتسابها لخصائصها تاريخيّا، ومن هذا المنفذ يمكن أن نلحظ تطوير نفس النواة الأخباريّة بتبدّل مقاماتها التاريخية ومواقع منتجيها، ذلك أنّ الوصف آلة راجعة إلى قدرة الراوي على صياغة خطاب يتمثّل مجموع وقائعه ويسعى إلى تمثيلها وتصويرها، وهو ما ينتج المبدأ الثاني الخاصّ بالعلاقة التخاطبيّة، وأساسا صورة المخاطَب التي تتجلّى في حاجته إلى الوقوف عند بعض الأحداث والشخصيّات والمواقع حتّى يُدركها تمثّلَ العين بسبب من نأيه عنها أو بسبب من رغبته فيها، وصورة ثانية لمُخاطَب لا يطلب نقل الفضاء المرويّ أو هو خارج عن دائرة مأموله وتوقّعه، فهو لا يطلب إلاّ أحداثا وأطرا تتحرّك فيها الشخصيّات ويُدرك منها الوقائع.

1- م.ن: 12/ 130

2- انظر مقاله بعنوان:

Leder(Stefan), and Kilpatrick (Hilary):"classical Arabic Prose: A researchers Sketch Map". Journal of Arabic literature. Vol XXIII- 1992. Part1. March. E.J. Brill. p 11/12: « Among the common features of this kind of narrative the brevity of the descriptions and the linear organization of the plot's chronology should be emphasized. They establish a brisk tempo which does not allow lingering at particular points in the action."

وفي كلّ الحالات فإنّ الراوية يظلّ هو المتصرّف في خطابه يصوغه كيفما شاء، وفقا لمحدّدات ثقافيّة ولطرائق في التأليف سائدة ولمقام يُحدّد له طرائق الصوغ. وهو المتصرّف في زمن الخطاب، يتوارى ويترك الشخصيّات تضطلع بالإخبار فيُوازي بين زمنين يعسر أن يتوازيا، أو يُجمل زمن الخبر فيختصر مراحل في الأحداث مديدة ويقتضب منها، وهو سريع التخفّي ينأى عن التكفّل بمهامّ النقل والصياغة، أو يجنح إلى الوصف -وهو النادر- فيُضخّم الخطاب على قِصَر الخبر. ودوره يظهر في صياغة نفس النواة الأخباريّة، ونضرب في ذلك مثلين عُقِدا على فعل واحد وصدرا عن مصدر جامع، وهو قول مأثور يُضرَب ويُتّخذ منطلقا لبيان المقام الذي قيل فيه، إذ يُثبَّت في وقائع أنتجته ويوصَل بشخصيّات تجاذبت أطراف القول حتّى انتهت إليه، وهذان الخبران يخصّان لقاء غيلان بن سلمة الثقفي بكسرى. ويقوم الخبر الأوّل على ثنائيّة السؤال والجواب، إذ يتأسّس الخبر في جوهره على قول مأثور يُسنَد إلى غيلان بن سلمة في جوابه على مسألة كسرى، التي تُعلَن عارية عن المقام الذي أنتجها، وتُقدَّم دون تأطير أو تأثيث، فيغيب التوسّع عن هذا الخبر ويحضر التمثيل إيرادا لأقوال الشخصيتين، وسرعان ما ينسحب الراوي تاركا لهما فضاء الخطاب: **كان غيلان بن سلمة الثقفي قد وفد إلى كسرى، فقال له ذات يوم: يا غيلان، أيّ ولدك أحبّ إليك؟ قال: الصغير حتّى يكبر والمريض حتّى يبرأ والغائب حتّى يقدم. قال له: ما غذاؤك؟ قال: خبز البرّ. قال: قد عجبت من أن يكون لك هذا العقل وغذاؤك غذاء العرب، وإنّما البرّ جعل لك هذا العقل.**"[1]، فتُظهِر العبارة التي يضطلع الراوي فيها بتقديم الأحداث والشخصيّات صنوفا من الاقتصاد، تجعل الفعل مقتضَبا. فمن ذلك العزوف عن تأطير الشخصيتين (غيلان بن سلمة وكسرى) وتعريفهما، ومن ذلك الإضراب عن ذكر سبب الوفادة والاقتصار على الفعل مجرّدا من أيّ موضّحات أو مبينات، ومن ذلك الإعراض عن تناول بقيّة الأيّام التي قضّاها الوافد، فيختار يوما (فقال له ذات يوم) وهو يوم الحوار الدائر بينهما، والمنتج للمثل الصادر عن غيلان بن سلمة، وهو ذات المقام الذي أنتج مدحه بما فيه من خِصال إخراجا له من عامّة العرب.

1- *كتاب الأغاني*: 13/ 207.

وأمّا الرواية الثانية فإنّها متقدّمة نسبيًا على الأولى إذ تتجاوز محض الإخبار والاكتفاء بإثبات المقصد إلى التأثيث واصطناع مقام حدثيّ بلوغا إلى إيراد الأقوال التي تُتّخذ مقاصد في الخبرين أو في الصياغتين، ومنه يمكن للقارئ في الخبر الثاني أن يتمثّل الوضع الخطابيّ لإنتاج القول المأثور، ونحن نورده بتمامه بغاية بيان الفروق القائمة في الصياغة، ودور الراوية في تحديد معالم الخبر، اقتصارا على السرد في حدّه الأدنى أو وضعا للحادثة في مقام سرديّ يحويها: "خرج أبو سفيان بن حرب في جماعة من قريش وثقيف يريدون العراق بتجارة، فلمّا ساروا ثلاثا جمعهم أبو سفيان، فقال لهم: إنّا من مسيرنا هذا لعلى خطر، وما قدومنا على ملك جبّار لم يأذن لنا في القدوم عليه، وليست بلاده لنا بمتجر؟ ولكن أيّكم يذهب بالعير، فإن أُصيب فنحن براء من دمه، وإن غنم فلَه نصف الربح؟ فقال غيلان بن سلمة: دعوني إذن فأنا لها. فدخل الوادي، فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول:

لو رآني أبو غيلاَن إذ حصرت ... عنّي الأمورُ إلى أمْرٍ لَهُ طبقُ
لَقَالَ رُغبٌ ورُهبٌ يُجْمَعَانِ مَعا ... حبّ الحَيَاةِ وَهَولُ النفْسِ والشفَقِ
إمّا بَقيت عَلَى مجدٍ ومكرمةٍ ... أو أسْوَةً لَكَ فِيمَن يهلك الورق

ثمّ قال: أنا صاحبكم. ثمّ خرج في العير، وكان أبيض طويلا جعدا ضخما، فلمّا قدم بلاد كسرى تخلّق ولبس ثوبين أصفرين، وشهر أمره، وجلس بباب كسرى حتّى أذن له، فدخل عليه وبينهما شبّاك من ذهب، فخرج إليه الترجمان، وقال له: يقول لك الملك من أدخلك بلادي بغير إذني؟ فقال: قل له لست من أهل عداوة، ولا أتيتك جاسوسا لضدّ من أضدادك، وإنّما جئت بتجارة تستمتع بها، فإن أردتها فهي لك، وإن لم تُردها وأذنت في بيعها لرعيّتك بعتها، وإن لم تأذن في ذلك رددتها. قال فإنّه ليتكلّم إذ سمع صوت كسرى فسجد، فقال له الترجمان: يقول لك الملك، لِمَ سجدتَ؟ فقال: سمعتُ صوتا عاليا حيث لا ينبغي لأحد أن يعلو صوته إجلالا للملك، فعلمتُ أنّه لم يُقدم على رفع الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظاما له. فقال فاستحسن كسرى ما فعل، وأمر له بمرفقة تُوضَع تحته، فبمّا أتي بها رأى صورة الملك، فوضعها على رأسه، فاستجهله كسرى واستحمقه، وقال للترجمان: قل له: إنّما

بعثنا لك بهذه لتجلس عليها. قال: قد علمت، ولكنّي لمّا أتيت بها رأيتُ عليها صورة الملك، فلم يكن حقّ صورته على مثلي أن يجلس عليها، ولكن كان حقّها التعظيم، فوضعتها على رأسي لأنّه أشرف أعضائي وأكرمها عليّ. فاستحسن فعله جدّا، ثمّ قال له: ألك ولد. قال: نعم. قال: فأيّهم أحبّ إليك؟ قال: الصغير حتّى يكبر والمريض حتّى يبرأ والغائب حتّى يؤوب. قال كسرى: زه، ما أدخلك عليّ، ودلّك على هذا القول والفعل إلاّ حظّك، فهذا فعل الحكماء وكلامهم، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم، فما غذاؤك؟ قال: خبز البُرّ. قال: هذا العقل من البُرّ، لا من اللّبن والتمر. ثمّ اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها، وكساه وبعث معه من الفرس من بنى له أطما بالطائف، فكان أوّل أطُم بُني بها."[1]

فنلحظ فروقا بيّنة بين الصياغتين وإن اعتمدتا نفس المادّة الأخباريّة (وفود غيلان بن سلمة على كسرى- المسألة وجواب المسألة)، إذ تنفتح دائرة السرد في الصياغة الثانية، ويؤنّث الراوي المسألة وجوابها بالتوسّع بعض التوسّع في بيان سبب اتّصال الوافد بكسرى، فما عبّر عنه الخبر في الصياغة الأولى بفعل "وفد" اقتصارا عليه دون تخطّيه، كان مَحمَل أحداث في الصياغة الثانية، فصار هذا الفعل ناتجا عن أزمةٍ ومثّل عدولا عن الوجهة الأساسيّة التي قصدها التاجر، وبه تتحوّل الشخصيّة من فعل "التجارة" إلى فعل "السياسة". ومن هذا التوسّع أيضا ظهور صوت الراوي في عدد من المواطن واصفا (ولبس ثوبين أصفرين- وكان أبيض طويلا جعدا) واصلا بين حكاية الأقوال، مبينا عن أثر الأقوال والأفعال في الشخصيّات. ومن هنا يتأتّى التوسّع في الصياغة الثانية بوضع الأقوال في إطار حدثي وباضطلاع الراوي بتقديم الشخصيّات أفعالها وأقوالها وأحوالها. فندرك أنّ توسيع الخطاب أو اقتصاده على مستوى صوغ المدّة الزمنيّة ومعاضدة الأفعال بأوصاف تُبينها وتُظهرها أو هي تُعمّيها وتغمضها، وعلى مستوى ظهور الراوي أو تخفّيه، مسألة موصولة بطرائق صياغة الرواة للمادّة الحدثيّة. وندرك أيضا أنّ التوسّع الذي نُقرّه لا يكمن في صياغة الخبر في حدّ ذاته وإنّما

1- م.ن:13/ 207.208.209.

هو ظاهر في ردّ الصيغة إلى الصيغة في أخبار تُصَاغ بطرائق مختلفة منها نُدرك الاقتصاد أو التوسّع، غير أنّ الخبر متى نظرنا فيه لذاته، قائم –دوما– على الاقتصاد وإن احتوى وصفا وظهورا للراوي وحكايةَ أقوال تؤسّس المشهديّ.

ولدرجة حضور الراوي في خطاب الخبر –كما رأينا في الصياغة الثانية– الدور الرئيس في تصريف صيغ الخبر وتحديدها وتمثّل المجال الحدثيّ أو عدمه، فإن آثر التخفّي خلف الشخصيّات كانت الصياغة متّسمة بالاقتصاد وإن آثر الاضطلاع بتقديم الوقائع وعرض الأفعال ملتزما بالحركة السرديّة دون عميق توسّع في عرض فضاء الحركة كان الخروج عن العرض التقريري العاري من المكوّنات السرديّة، وكان الابتعاد النسبيّ عن السرد في حدّه الأدنى.

إنّ خطاب الخبر يخضع لما يُسمّيه قرونوفسكي بـ**"قابليّة التمطيط"**[1]، وهو ما يُجيز مختلف طرائق التشكيل الصيَغي. وعلى ذلك فإنّا نلحظ صاحب "الأغاني" يعيد نفس الخبر أكثر من مرّة، وإعادته إيّاه تظلّ محكومة بنفس المقصد ونفس الشخصيّات –في أغلب الأحيان– إلاّ أنّ الاختلاف في الروايات هو اختلاف في صياغة النواة الأخباريّة وفي درجات تأثيثها (وهو ما يُعبّر عنه صاحب "الأغاني" بـ"الرواية الأتمّ"). والأمثلة في ذلك عديدة، منها خبر عروة بن الورد مع امرأة من كنانة أصابها، فهو يُعرض في هيئتين، تُظهِر الأولى تجرّد الراوي وإن اضطلع بحكاية الأقوال والأفعال، واقتصر في هذه الصورة الأولى للخبر على أهمّ الأفعال المُخبرة عن فعل أساسيّ موصول بقول شعريّ يُرَدّ إلى الشخصيّة المركزيّة مدار الخبر. وتُظهِر الثانية توسّعا أخباريّا في ضبط جملة من الحدود وفي التوسّع في حكاية الأفعال.

- خ1: "أغار عروة بن الورد (...) فأصاب منهم امرأة من كنانة ناكحا فاستاقها ورجع وهو يقول:

تبغ عديّا حيثُ حلّت ديارَها ... وأبناءَ عوف في القرون الأوائل

فإلاّ أنَلْ أوسا فإنّي حسبُها ... بمنبطح الأدغال من ذي السلائل

1 – « La plasticité ». Daniel Grojnowski : *« Lire la nouvelle »*. Dunod , Paris 1993. p : 93.

ثمّ أقبل سائرا حتّى نزل ببني النضير، فلمّا رأوها أعجبتهم فسقوه الخمر ثمّ استوهبوها لهم، وكان لا يمسّ النساء، فلمّا أصبح وصحا ندم، فقال:

سقوني الخمر ثمّ تكنّفوني.

الأبيات. قال: وجلاها النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مع من جلا من بني النضير."[1]

- خ2: "وذكر أبو عمرو الشيباني من خبر عروة بن الورد وسلمى هذه أنّه أصاب امرأة من بني كنانة بكرا يُقال لها سلمى وتكنّى أمّ وهب، فأعتقها واتّخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة..."[2]

فالخبر الأوّل يحتوي جملة من الأفعال المهمّة التي أوجزها الراوي وعرضها في حدّ السرد الأدنى، إذ مرّت المرأة بثلاث مراحل أساسيّة، تُمثّلها أفعال مقتصرة على الدلالة على الحدث في ذاته في معرض أخباريّ يجنح إلى إعلان الفعل فحسب:

- وقوعها أسيرة في يد عروة: **"فأصاب امرأة من بني كنانة ناكحا."**
- وهْبها لبني النضير: **"ثمّ استوهبها لهم."**
- جلاها النبيّ.

وعليه فإنّنا إزاء ثلاثة أفعال مهمّة:

إصابة امرأة وهبها لبني النضير جلاء النبيّ لها.

ونحن أيضا إزاء أفعال وعناصر مشتَركة تُثبَت في الخبرين، وإن كانت الأحداث فيهما مختلفة، وهي:

بنو النضير- بنو كنانة- عروة بن الورد- الغارة الاستيهاب+ الوهب- الحيلة.

فكيف صيغت هذه الأفعال والعناصر؟

1-*"كتاب الأغاني"*: 3/ 72.

2- م.ن: 3/ 72.

لقد لاحظنا في الخبر الأوّل أنّ الراوي قدّمها في شكل موجز معبّرا عن محض الفعل دون إلحاقه بعناصر فرعيّة يمكن أن توضّح هذه الأفعال، ويختلف الأمر في الخبر الثاني: "وذكر أبو عمرو الشيباني من خبر عروة بن الورد وسلمى هذه أنّه أصاب امرأة من بني كنانة بكرا يُقال لها سلمى وتُكنّى أمّ وهب، فأعتقها واتّخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولادا، وهو لا يشكّ في أنّها أرغب النّاس فيه، وهي تقول له:..."[1]، فندرك أنّ الراوي في الصياغة الأولى قد سرّع الأحداث المرويّة أو حدث الغارة والظفر بامرأة من غارته هذه، وقد أجمل الأحداث وسرّعها في الصياغة الثانية أيضا، غير أنّه وسّع من مجال الحكاية، وأبان بعضا من التفاصيل التي رُوِيت بطريقة مجملة إلاّ أنّ لها دورا مهمّا في تأثيث الخبر.

فالخبر الثاني وإن ارتكز إلى ذات النواة الأخباريّة فهو يحوي عددا من التفاصيل أو من موتيفات التوسيع التي عمّقت من سرديّته. إذ وسّع الراوي ولم يقصر خبره على النّوى أو على الموتيفات الرابطة، ومن هذه الموتيفات الإطنابيّة نذكر تعرّضه لفعل إصابة المرأة.

خ1: أصاب امرأة العنصر المولّد/ الأصلي.

← من بني كنانة عنصر توسّع.

خ2: أصاب امرأة عنصر أصليّ./ نواة.

← من بني كنانة

← بكرا.

← يُقال لها سلمى. عناصر التوسيع.

← تُكنّى أمّ وهب.

ومن الفروق في الصياغتين أنّ فعل الحيلة، عبّر عنه الراوي في الخبر الأوّل بقوله: "**فسقوه الخمر ثمّ استوهبوها منه فوهبها لهم**" وهو محمل بيان وإخبار في الخبر الثاني.

1-م.ن: 3/ 72-73.

وهي طرائق تُعتَمَد في الصياغة فتُحوّل من وجه الخبر وتُحدِث أثرا بالغا في تشكيل الصورة الخاصّة بالشخصيّة في هذا المقام، فيُصوَّر عروة في الصياغة الأولى مُعرِضا عن النساء ولهذا السبب وهب سبيّته لطالبيها، ويكون فعل الوهْب ناتجا عن طلبٍ حاصلٍ إثر الإعجاب بالسبيّة وهو فعل يُغاير ما ورد في الصياغة الثانية، إذ يكون الوهب ناتجا عن طلب بغاية استرداد الشرف واسترجاع المأخوذ غارةً وقوّةً بالحيلة، والاتّفاق الضمنيّ بين الطالب والمطلوب، ويكون موقع بني النضير هو مقام الوسيط الذي يجمع بين طرفين لا يجتمعان. وكلّ من الخبرين وارد في مقام بيان ظروف قول الشاعر مقاله: "**سقوني الخمر ثمّ تكنّفوني**"،ولذا نلحظ أنّ الخمر فاعل حاضر في الصياغتين، إذ هو مساعد الطالب على تحقيق طلبه والواسطة المُعتَمدة لتنفيذ الحيلة.

إنّ صياغة الخبرين صادرة عن منطلق واحد ونواة تأسّس عليها الخبران مشتركة هي قول شعريّ منه صدر الخبران، وعلى ذلك فقد صيغت أحداث الخبرين وفقا لهذا المشترَك أو وفقا لعناصر فيهما ثابتة، غير أنّ الأحداث الناتجة عن هذه العناصر كانت مختلفة.

وجدير بالملاحظة أنّ الصياغتين -على ما لاحظنا من توسّع في الصياغة الثانية مقارنة بالصياغة الأولى- قامتا على اقتصاد ظاهر في التعبير عن وقائع الخبر وأحداثه. فالغالب أنّ الصورة المنقولة عن الجاهليّة تخضع أحداثها وشخصيّاتها إلى تسريع سرديّ يغلب على الأخبار ويُلاحَظ في جلّ أغراضها، وهي سمة خصّت هذه الأخبار وجعلتها على هيئة تُماسّ فيها محض الإخبار حينا ويعلو فيها المستوى السرديّ أحيانا فتتمّ القصّة بأركانها.

إنّ أخبار الجاهليّة تنشدّ إلى نواة تؤسّس المحور السرديّ الناظم لمختلف توجّهاتها، فالخبر يتأسّس على نواة تخضع إلى مختلف الممكنات السرديّة وإلى درجات متغايرة في السرد.

ومن مظاهر الاقتضاب تراجع الراوي أو اقتصاره ساعة يتحمّل السرد على الأفعال الرئيسيّة أو هو يترك الشخصيّات تتحادث، فكلام الشخصيّات هو الغالب على صياغة الخبر. وقد عرض القاضي إلى مسألة قيام خطاب الخبر في صورته العامّة

على أسلوب التمثيل باعتباره كلاما منقولا/ ثمّ يورد السرد المسنَد إلى الراوي ولا يلبث الأمر أن ينقلب تمثيلا إلاّ ما ندر من تدخّل الراوي، ومثال ذلك خبر زواج الحارث بن عوف ببهيسة بنت أوس، إذ يقوم في أغلبه على رواية الأقوال، ويظهر الراوي فيه للربط بين هذه الأقوال بأفعال يُوردها موجزة، مُقتَضبة[1]. وفي قولة للزبير بن بكّار بيان لطرائق التصرّف في الأخبار وفي أيّام العرب في الجاهليّة أساسا، إذ تُتّخذ متّكأ لشتّى التصاريف، وهو ما ينعته اليعلاوي بالتضخيم[2]، يقول الزبير: "لم تكن بينهم في هذه الأيّام حروب إلاّ يوم بعاث، فإنّه كان يوما عظيما، وإنّما كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب."[3] والحال أنّ الرواة قد صوّروا لنا نزاعا شديدا وقتالا مديدا ومريرا. ونحن في هذا المجال لا نحاجّ طلبا للحقائق التاريخيّة وإنّما نُظهر قدرة الرّواة على الانطلاق من نواة أخباريّة لصياغة أخبار لا تُجانس الواقع وإن أوهمت بذلك، وإنّما هي تتمثّله وتتصوّره وتصطنع له مقامات قوليّة قد تكون في أغلب الأحيان ناتجة عن تضخيم قول شعريّ داخل مقام المفاخرة أو المنافرة، ومثاله الواضح ظاهر في هذا الخبر، "قال الزبير: وأنشدت محمّد بن فضالة قول قيس بن الخطيم:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأنّ يدي بالسيف مخراق لاعب

فضحك، وقال: ما اقتتلوا يومئذ إلاّ بالرطائب والسعف."[4]

وعليه فإنّا نتبيّن صورة الراوي في صياغة النواة الأخباريّة تتبّعا لما هو وارد في الشعر أو اكتفاء بالعناصر الأساسيّة المشكّلة للخبر أو اعتماد بعض الإضافات التي تُبعّد الخبر عن الالتزام بنقل الأفعال والأقوال "بحياد".

1- م.ن: 10/ 305.

2- اليعلاوي: ص115.

3- *كتاب الأغاني*: 3/ 9.

4- م.ن: 3/ 9-10.

وتُتَّخذ السمة المميّزة لبعضٍ من شخصيّات الجاهليّة منطلقا أو نوى منها المنطَلَق لصياغة أخبار تدور في مدار إظهار هذه السّمة، وهي صياغة قائمة على هاتين الواسطتين في تعبير الراوي عن خصال الشخصيّة. ففي أخبار أبي خراش[1] -على سبيل المثال- نجد انصرافا بيّنا من الراوي لإثبات قوّة عدوه، وهي سمة اتُّخذت مدارا عليه تُدار جلّ الأخبار المرويّة، ومنه يُهيّأ الفضاء السرديّ بلوغا إلى إثبات هذه السمة، غير أنّ طرائق الإثبات تختلف من خبر إلى آخر، ففرق ظاهر بين إثبات هذه الخصيصة في خبر يقتصر فيه راويه على الأفعال الأساسيّة أو على النوى دون توسّع أو نقل لفضاء الأحداث، بل هو يُخبر بالحادثة فقط: "دخل أبو خراش الهذلي مكّة وللوليد بن المغيرة المخزومي فرسان يريد أن يُرسلها في الحلبة، فقال: ما تجعل لي إن سبقتهما؟ قال: إن فعلتَ فهما لك، فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما فأخذهما."[2] وبين خبرٍ ثان فيه يُظهر الراوية شدّة عدو أبي خراش ولكن باصطناع مقام قصصيّ تحضر فيه الحيلة والحيلة المضادّة والتراوح بين حكاية الأفعال وحكاية الأقوال، وهو خبر طلب بني الديل لأبي خراش، فينفذ من بين أيديهم ويعجزهم طلبا[3].

فلا ريب أنّ مسألة الصياغة ودرجة تدخّل الراوية موصولة برحلة الخبر التاريخيّة وتقلّبه في ألسنة الرّواة، إذ تتغاير المقامات التخاطبيّة، وموصولة أيضا بتحوّل المتكلّم زادا معرفيّا، وكذلك تحوّل المخاطب نأيا عن الفضاء الذي دارت فيه الأحداث. وتبدّل المقام إعلاما أو سمرا ومتعةً له الدور الفاعل في وسم الخبر بصيغ تخصّه وتُفرده اقتصارا على الأفعال أو النوى أو وضعا لها في إطار قصصيّ يحويها. ومن بين هذه المقامات يمكن أن نشير إلى مقام مهمّ عمّق صلة الأخبار بالاقتصاد في السرد، وهو مقام التقديم للأقوال الشعريّة وتأطيرها، ومثاله خبر وعلة الجرمي: "قتلت نهد أخا وعلة الجرمي، فاستعان بقومه فلم يعينوه، فاستعان بحلفاء بني نمير، كانوا له حلفاء وإخوانا، فأعانوه حتّى أدرك بثأره، فقال في ذلك:

1- م.ن: 21/ 231.
2- م.ن: 21/ 233.
3- م.ن: 21/ 231.

سَائِلْ مُجَاوِرِ جرم هل جَنَيْتُ لَهَا
حَرْبًا تُزَيِّلُ بَيْنَ الجِيرَةِ الخُلُطِ."[1]

فنلحظ تسريعا بيّنا للسرد بلوغا إلى القول الشعري، وما السرد السابق للشعر إلاّ وضع له في إطار حدثيّ مخصوص. ومنه نتبيّن وجود عدد من الأخبار تُقَدّ لغاية تأطير الأشعار أو الأمثال، فتغلب الأفعال العارية عدوا بالسرد إلى بلوغ المقول الشعري أو المثلي. ومثال العدو بالسرد إجمالا واقتضابا وضمّا للأفعال الأصليّة: "قال أبو عبيدة: كان شريح بن ضُبيعة غزا اليمن في جموع جمعها من ربيعة، فغنم وسبى بعد حرب كانت بينه وبين كندة أُسِر فيها فرغان بن مهدي بن مَعد يكرب عمّ الأشعث بن قيس، وأخذ على طريق مفازة فضلّ بهم دليلهم ثمّ هرب منهم، ومات فرغان في أيديهم عطشا، وهلك منهم ناس كثير بالعطش وجعل الحُطَمُ يسوق بأصحابه سوقا عنيفا حتّى نجوا ووردوا الماء، فقال فيه رُشيد: (من الرجز)

هَـذَا أَوَانُ الشَّـدِّ فَاشْـتَدِّي زِيَـمْ لَـيسَ يرَاعِـي إِبِـلٍ وَلاَ غَـنَمْ
وَلاَ بِجَـزَّارٍ عَلَـى ظَهْـرِ وَضَـمْ نَـامَ الحُـدَاةُ وابْـنُ هِنْـدٍ لَـمْ يَـنَمْ
بَائِـتْ يُقَاسِـيهَا غُـلاَمٌ كَـالزُّلَمْ خُـدَلَّجُ السَـاقَيْنِ خَفَّـاقُ القَـدَمْ

*قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ *"[2]

وقد يغيب الشعر عن الأخبار غير أنّ الاقتصاد في السرد يظلّ ملازما لصياغة الخبر، إذ يعتمد الرّواة الحدّ الأدنى من السرد، سواء أُسندت لهم الحكاية أو تركوا الشخصيّات تروي حكايتها، ومثال ذلك، خبر أبي الطمحان القيني، إذ تُقَدّم الأقوال فيه بصورة متسارعة، إيجازا لوقائع الخبر: "بلغني أنّ أبا الطمحان القيني قيل له، وكان فاسقا خاربا، ما أدنى ذنوبك؟ فقال: ليلة الدير. قيل: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت بديرانيّة فأكلت عندها طفيشلا بلحم خنزير وشربت من خمرها وزنيت بها وسرقت كساءها ثمّ انصرفت عنها."[3]

1- م.ن: 22/ 223-224.
2- م.ن: 15/ 199.
3- م.ن: 13/ 6.

فتضطلع الشخصيّة بتقديم الأحداث، وتكتفي في رواية الأحداث بالأفعال التي أتتها دون تفصيل أو بيان منه يُدرك القارئ صورة عن الواقعة وعن صاحبها وعن الأطراف المشاركة فيها والفضاء الذي فيه دارت، وإنّما هو وصفٌ مُجمَلٌ أو سِمَةٌ للشخصيّة تُحَدَّد بها (وكان فاسقا خاربا). فتتواتر النوى موصولة دون إحداث شروخ ضروريّة لبيان فضاء الأحداث، وكأنّ الخبر لا يُقصَد لذاته، وإنّما هو موصول بغاية أو هدف يرمي إليه الراوية وهو أهمّ عنده من صياغة أحداثه، وهي سمة أُلصِقت بالشخصيّة فتحدّدت بها، وكلّ ما هو يرد لاحقا إنّما هو لغاية تثبيت هذه السمة. فالخبر قد قدّم عددا من الأفعال يغيب فيها التأطير والتأزيم والتعقيد، وإنّما الجمل السرديّة المتواترة قد أبانت ثلاث مراحل: وضع أوّليّ تحدّدت به الشخصيّة وجملةُ من الأفعال المتتالية عبّرت عن هذا الوضع، ووضع نهائيّ ظهر في الانصراف. وهي صورة قد تُظهِر لنا الخبر في هيئته الأولى قبل أن تدخل عليه أيادي الصائغين للنوى الأخباريّة بوضعها في أطر سرديّة تحويها، إذ تتضامّ الوحدات الأصليّة وتتراجع وحدات التوسّع، ومن هذا القبيل خبر زيد بن عمرو: "بلغنا أنّ زيد بن عمرو كان بالشام، فلمّا بلغه خبر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أقبل يريده فقتله أهل ميقعة."[1]، فتتضامّ الوحدات الأصليّة، ويبدو الراوي منفلتا. وبالإضافة إلى وضع تخفّيه خلف الشخصيّات، فإنّا نلحظ اقتصاده في السرد إلى حدّ أدنى ساعة يُغَيِّب كلام الشخصيّات، وهي ظاهرة بيّنة في صياغة الأخبار يسمّيها ليدر بـ**صيغ السرد غير المنحازة** (neutral mode of narration)[2] التي بمقتضاها يتخفّى السارد كلّيّا. وقد بيّنا في الفصل السابق أنّ الاقتصاد حاصل في أجلى مظاهره في المقاطع التي تُعَدُّ محور الخبر ومنتهاه أي في مقاطع المقاتلة أو المعركة أو الصدام، وهي المقاطع التي ينسحب فيها الراوي تاركا مجال الحكاية للشخصيّة أو يُعبِّرُ عن الفعل بصورة موجَزة على شاكلة "ففعل" مضربا عن الموسّعات والمبينات. ويردّ ليدر ظاهرة الاقتصاد في السرد إلى سعي الرواة إلى الالتصاق بالواقع اليوميّ[3].

1- م.ن: 3/ 10.

2 -S. Leder. *"Classical arabic prose"*. p.11.

3- S. Leder: *"Classical arabic prose"* p11. □

فنتبيّن من كلّ ما ذكرنا سلفا أنّ الجاهليّة أحداثها ووقائعها تُصَاغ في وجيز من اللّفظ ومُقتَضَب من العبارة. وهي ظاهرة تُبين لنا منزلة الراوي في صياغة خطاب الخبر، فهو القادر على حجب الرؤية أو توضيحها، وهو القادر بما يتوسّط به من طرائق في الوصف على صياغة صورة شافّة أو صياغة صورة ضبابيّة إن جنح إلى الاقتضاب والإيجاز، وهو الغالب. فهو يسعى إلى الانفلات من دور تقديم الوقائع ويُرخي السرد للشخصيّات تُنتج القول وتتحادث فيما بينها في حين يكون تدخّله لوصل هذه الأقوال أو للربط بينها أو لتقديمها. ومن هذه المنزلة التي يُجهِد الراوي فيها نفسه ركونا إلى "الحياد" والتواري خلف شخصيّات وإن كانت "مرجعيّة" "تاريخيّة" فهي صنيعته وخلقه. تتأسّس صياغة الاقتصاد أسلوبا غالبا على الخبر، لا ينصرف إلى القول المُحَسَّن المُفَخَّم بقدر انصرافه إلى الإثبات والإحالة.

يُنطق الراوي الشخصيّات ويُحرّكها، فتنحسر الحركة السرديّة ويغلب التمثيل مظهرا مهيمنا على خطاب الخبر، ومنه تُدرك الوقائع والعلاقات وتُقَدَّم الأفعال غير أنّه في فعله هذا يعجز عن مطلق التواري فيظهر في مواقع مختلفة من الخبر يصل الأقوال ويختزل الأفعال ويُقدّم الأحداث والشخصيّات. وما سلف أن عبّرنا عنه بالتوسّع داخل في باب الإيجاز إذا ما عدلنا عن نهج المقايسة الذي سلكناه بين الأخبار. فالخبر في صورته العامّة لا يُبنَى على التوسّع حدّا يغلب فيه الخطاب على الخبر، وإنّما هو يُصَاغ على هيئة من الاقتصاد تُوافق طبيعةً فيه تَخصّ جنسه ولا ترجع ضرورة إلى وصلها ببدء نشوء السرد العربي –وإن كان الأمر لا ينأى عن الحقيقة– ذلك أنّ مقاصد الخبر تختلف. فأخبار الجاهليّة تُروى في مواضع متغايرة وفي مقامات مختلفة،

« texts which are entirely constructed a saying or a quotation of poetry, and where the narrative element is reduced to a minimum, can also be found among the Akhbâr. Since the quotations appear to reproduce the words of actual people, these narratives also give the Impression of factuality, this purported relation to reality is suggested by the term akhbâr, which means "news", and the Impression is strengthened by the fact that the narratives as ascribed to eye-witnesses or reporters close to the events in question. »

ومقاماتها هي المحدّدة لطبيعة صياغتها. فخبر امرئ القيس الذي يرويه عبد الملك بن عمير في مقام فيه يطلب ابن هبيرة من رواة الكوفة السمر بتقديم أحدوثة يُشترط فيها الصدق[1]، يختلف عن مقام يُقدّم فيه الراوية الخبر خادما للشعر أو مبينا عن مثل سائر بين الناس.

إنّ سمة الاقتضاب الغالبة راجعة إلى ثقافة عصر وإلى دُرجة في التأليف وإلى جنس ما زال يحبو خطواته الأولى وإلى ذهنيّة تقبّليّة وإنتاجيّة تُركّز على الفعل الذي تطلبه دون حوافّه. فالقول مُقَدَّم على الصياغة وإن كنّا نلحظ في خطاب الأغاني الأخباريّ أصداء لأصوات متعدّدة من عصور مختلفة تنمّ عن تطوّر في مستوى صياغة الخبر. وغلبة الاقتضاب قد جعلت الأخبار قاصرة عن نقل صورة يحسن تمثّلها وإدراكها، إذ يغلب الإعلام على التأثير، وتظلّ الشخصيّات بسببٍ من ذلك باهتة غائمة. وهي مسألة تُدخل أخبار الجاهليّة فيما دخل فيه شكل الخبر في صياغة تخصّه قوامها الاقتصاد في السرد.

إنّ إثارة مسألة صياغة الخبر على هيئة من الاقتصاد، وإثبات قصور الخبر على تمام بيان الصورة المنقولة عن الجاهليّة، قد يمثّل مدخلا لدراسة تفاعل الأخبار وضمّ بعضها إلى بعضٍ بغاية تمام بناء الصورة التي تظلّ مبتورة في النظر إلى الخبر بحدود شكليّة تفصل بين الأخبار بدايتها السند الذي يُعلن الشروع في خبر جديد.

1- *كتاب الأغاني*: 9/ 97.

الفصل الثالث

تفاعل الأخبار

إنّ الخبر في صورته التي عرضنا لها في الفصل السابق من حيث هو وحدة سرديّة لها مقوّماتها الشكليّة وشروط تميّزها عمّا جاورها لا يستقلّ تمام الاستقلال عن الفضاء النصّي الذي يحتويه، ولا يعدّ حدّا نهائيّا للصورة المرصودة، وإنّما قدَره أن يظلّ دوما منفتحا قابلا للزيادة والنقصان وكأنّ طبعه الخضوع لإعادة الإنتاج ولتبديل الصياغة، يُدَار بين الرّواة، وفي دورانه حياة تتجدّد وبعث له قد يمحو أصل بعثه الأوّل. إذ ندرك أنّ تقديم الخبر في صياغات متعدّدة يُوحي بوجود نوى أولى يصدر عنها الرواة ولا نكاد نظفر بها، وما إقرارنا لهذه النوى إلاّ بسبب من وجود ملامح ثابتة تلازم الخبر وإن تنوّع رواته واختلفت محالّهم ومواضعهم ومصادرهم.

لقد لاحظنا في بناء أخبار الجاهليّة تعالقا بينها وتفاعلا في إخراج الصورة الواحدة حتّى لتعدّ الأحداث المرصودة في تتابعها وتردّدها أوكد من الانصراف إلى مراعاة حدودٍ للخبر شكليّة بها تتفاصل ليُنهى الخبر ويُستهلّ الآخر. وملحظنا هذا راجع إلى اعتماد مؤلّف "الأغاني" طريقين في التأليف يفضيان إلى تفسّخ هذه الحدود ويقضيان بامّحاء الفواصل الشكليّة التي تتحوّل وفقا لهذين الطريقين إلى صيغة في الحكاية يحرّك بواسطتها المؤلّف رواته وأصحاب الرؤية ويقارب الأحداث من زوايا نظر تبدو متغايرة وإن كانت عادة ما تُعقَد على مقصد واحد. وهذان الطريقان هما: طريق أولى يتركّز فيها السرد على محور حدثيّ أو على حدث يُنتقى من مجموع الأحداث التي أتتها الشخصيّة فيُدير عليها الراوية الأعظم أو كبير الرّواة[1] جملة من الروايات، فيُقدّم لنا بذلك أخبارا عديدة تصوّر الحدث الواحد أو الواقعة الواحدة (

1- هو المتصرّف الأخير في ما انتهى إليه من روايات وصاحب توزيع الأدوار الروائيّة ومنتقي الأحداث ومنضّدها على هيئة نهائيّة هي الهيئة التي نقرأ منها الخبر، فله الدور الأجلّ وله المقام الأعلى إذ يُجمّع الرّواة متى طاب له ذلك ويُفرّقهم إن رام الفصل بينهم. وهو ما ننعته لاحقا بالمتكلّم.

وهو داخل في باب السرد الإعادي[1]، كأن يعيد نفس المادّة الأخباريّة بروايات متعدّدة بحثا عن تفسير شعر أو بيانا لحدث مرصود. وطريق ثانية تخالف الأولى وتخرج عنها وإن كانت على صلة بها من حيث اعتماد نفس النهج بتنويع مصادر الرواية وتحويل مواقع الرواة، وتبديل زوايا النظر وتوزيع أدوار الرواية بشكل يُظهر قدرة الراوية المؤلّف[2] على تمثّل ما انتهى إليه -إن كان فعلا منتهيا إليه- من أخبار وإعادة تنضيدها وترتيبها بما يخدم وجهة مصنّفه وما يوافق تصوّره، وهي طريق يعتمد فيها المؤلّف على جملة من الروايات الخاصّة بالحدث الواحد إلاّ أنّه لا يعرضها على اختلافها أو اتّفاقها وإنّما هو يوازن بينها ويوازي ويعيد صياغة الخبر ببناء أحداثه بناء تواصليّا مع المحافظة على مواطن الاختلاف والنقص إذ يدير الراوية الأدوار الروائيّة ويوزّعها، فينتقل من راوية إلى آخر دون أن يقطع التواصل الحدثيّ للخبر فتبديل الرّواة في هذه الطريق لا يعني إنهاء الخبر واستئناف خبر جديد وإنّما هو يُبدّل زاوية النظر ويتمّم ما كان قد بدأه من أحداث مناوبةً وترميما لها بما يبدو للمؤلّف منقوصا أو مبتورا. ففي الطريق الأولى يظلّ الخبر محافظا على حدوده الشكليّة، مستقلاّ بذاته، وفي الطريق الثانيّة تتداخل الأخبار وتتشابك وتمّحي الحدود الشكليّة الفاصلة بينها، فلا يفتتح السند في هذه الطريق خبرا جديدا وإنّما هو يُواصل على مستوى بنيته الحدثيّة خبرا سابقا.

ومن أجل ذلك فقد أثرنا مسألة التفاعل في صورتين؛ صورة تتفاعل فيها الأخبار محافظة على حدودها الشكليّة عبر عدد من المظاهر لعلّ أبينها إدارتها على حدث واحد تتعاضد لتصويره إضافة ونقصانا باختلاف مراكز الرواية، وضمن هذه الصورة تُثار مسألة الإحالة والمراجعة وإنباء الخبر بالخبر وتكملة الخبر للخبر. وصورة ثانية هي للأولى عضَدٌ، ويظهر فيها تكامل الأخبار وتفاعلها بشكل أبين، وكذا إدارة المؤلّف تبلغ ذروتها فيعلو دوره ويكشف حجابا طالما ستره وينضو تجرّدا وتراجعا

1- "récit répétitif" : انظر في ذلك:

- Gerard Genette : « Figures III ». collection poétique. Ed. du Seuil. Paris. 1972.p : 147.

2- هو الصوت الذي تنتهي إليه مختلف الأصوات فيُؤالف بينها ويجمع وهو الطرف المسؤول عن القول.

أوْهَم بهما القارئ حتّى عُدّا من خصال الخبر الثابتة. إذ تمّحي في هذه الصورة وظيفة السند من حيث هو محدّد شكليّ لبدء الخبر ومنتهاه ويحلّ التواصل الحدثيّ بوجود تكسّرات داخل الخطاب لا تؤدّي وظيفة إعلان الشروع في الإخبار وإنّما هي دالّة على تبديل الصوت وتحويل الرؤية –مبدئيّا– مع مواصلة الحدث المرويّ دون تقديمه كما هو في الصورة الأولى بصياغة مغايرة. ولنا بعد كلّ هذا أن ننظر في مدوّنة أخبار الجاهليّة من حيث هي مدوّنة متعالقة أخبارها متضامّة، وإن بدا الشتات غالبا عليها، وهو ما أراده المؤلّف اختيارا[1] وإن كان الوصل بينها ثابتا في ذهنه يبدو جليّا من خلال عديد الإشارات، وهو ما يفضي بنا حتما إلى البحث في صورة المتكلّم الذي يشتّت منطق الأحداث ويعلن وعيه بهذا الشتات فيصل بين الحدث والحدث ويومئ إلى وسائط القربى بينها.

وقد آثرنا في هذه المقاربة أن نستفيد بقسط يسير من بعض المفاهيم التداوليّة في تحليل الخطاب في ما يخصّ تعدّد الأصوات والبحوث التي تركّزت في مسألة الذات المتحدّثة وما يتشقّق عنها من متكلّم وقائلين، بغاية تطعيم المقاربة السرديّة وبسبب من اعتقادنا بأن هذه الأدوات التي نُجريها يُمكن أن تُيسّر النظر في هذه البنية الروائيّة المعقّدة للخبر. ومن أجل ذلك فإنّا نعرض المفاهيم التي نستعملها ونسعى إلى إظهار معانيها قبل إجرائها:

1- انظر في ذلك مقدّمة كتاب الأغاني: 1/ 15. يقول: "...وكذلك تجري أخبار الشعراء، فلو أتينا بما غُني به في شعر شاعر منهم، ولم نتجاوزه حتّى نفرغ منه، لجرى هذا المجرى، وكانت للنفس عنه نبوة وللقلب عنه ملّة، وفي طباع البشر محبّة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مستجدّ، وكلّ منتقَل إليه أشهى إلى النفس من المنتقل عنه، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود. وإذا كان هذا هكذا فما رتّبناه أحلى وأحسن ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصّة إلى سواها ومن أخبار قديمة إلى محدثة، ومليك إلى سوقة وجدّ إلى هزل، أنشط لقراءته وأشهى لتصفّح فنونه.."

- القائل[1]: هو المسؤول عن الأفعال داخل المقول وهو شبيه في علاقته بالمتكلّم بالشخصيّة في علاقتها بالسارد[2]. وهو الشخصيّة التي يتخفّى خلفها المتكلّم فيُقدّم نفسه على أساس أنّه عارض رؤيتها وقولها. ونحن نخصّ الرّواة الذين يعرضهم المتكلّم من حيث أنّهم أصحاب القول بهذه التسمية، فهم يمثّلون شخصيّات داخل الخطاب.
- المتكلّم[3]: هو المسؤول عن القول وهو كائن خطابي، يعود إليه ضمير المتكلّم عادة، وهو صاحب الخطاب ومنزلته تُضارع منزلة السارد في الخطابات القصصيّة، إلاّ أنّه في بعض مراحل الخطاب يمكن أن يتوحّد بالكائن التاريخي الذي أنتج الخطاب، وهو السبيل الذي يعنينا أساسا من توظيفنا لهذه المفاهيم.
- الذات المتكلّمة[4]: تختلف الذات المتكلّمة عن المتكلّم إذ هي كائن تاريخيّ، وهي المنتج الفعلي للقول، هي المؤلّف الذي يُرَدّ إليه الأثر إنتاجا في مقام مخصوص وهو طرف مهمّ يُظهره القول. وهو في ما نحن فيه صاحب هذه الأخبار الذي يعسر عزله عن مقام أثّر فيه فأنتج خطابه على هذه الهيئة.

---

1 -énonciateur.

2 -Maingneau : *« Nouvelles tendances en analyses de discours »*. p55.

« l'énonciateur c'est un peut au « locuteur » ce que le personnage est à l'auteur dans une fiction. Les « énonciateurs » sont ces être dont les voix sont présentes dans l'énonciation sans qu'on puisse néanmoins leurs attribuer des mots précis, ils ne « parlent » donc pas vraiment, mais l'énonciation permet d'exprimer leurs points de vue. C'est dire que le locuteur peut mettre en scène dans son propre énoncé des positions distinctes de la sienne. »

3- Locuteur.

4- sujet parlant.

ويجدر أن نشير أنّنا في ما نُجريه من هذه المفاهيم لا نلتزم مطلق الالتزام بحدودها وإنّما هي بالنسبة إلينا أدوات إجرائيّة حسبنا الاستفادة منها، ويبقى الأثر هو المُقَدّم نُراعي خصوصيّته ومواطن تميّزه.

أ - الصورة الأولى: التفاعل الإعادي.

إنّ ما نعتناه بالتفاعل الإعادي[1] هو تضامّ جملة من الأخبار تدور في مدار حدثيّ واحد، تتعاضد لتصويره، وتتكاثف للتعبير عنه، إذ لا يقتصر المؤلّف على الصياغة الواحدة ولا على الرؤية الواحدة ولا على الصوت الواحد في تعبيره على الحدث الواحد، وإنّما هو يعدّد الصيغ الصادرة عن نواة حدثيّة أمّ تتولّد عنها أخبار متعدّدة، وبتعدّدها واختلافها تتعدّد الأصوات وتتنوّع الرؤى. فالجاهليّة في كتاب الأغاني" لا تُرصَد من زاوية نظر مفردة ولا تُنقَل بصوت واحد، وإنّما صُوَرها مأخوذة من مواقع متعدّدة وبأصوات متداخلة، وواحد هو جامعها وناقلها ومنتهاها، إذ تتجمّع لديه فيمسك رأس الخيط ويعيد توزيعها على شاكلة دمى متحرّكة عدد أسبابها وواصلها واحد[2].

ونحن واقفون على عدد من الأخبار التي تصدر عن نواة واحدة يُنظر إليها من زوايا مختلفة وتُقدّم بأصوات متغايرة . ومثال ذلك خبر حاتم في إقرائه الناس ميتا[3]. وهو النواة المنطلق التي تأسّس عليها مجال روائيّ قدّم لنا منه المتكلّم صياغتين لهذه النواة، اجتمعتا على ذات الحدث. وقد حافظ المتكلّم في الصياغتين على نفس سلسلة الإسناد ولا يمسّ التغيير سوى تبديل الراوية المصدر أو الراوية الأوّل للخبر. إذ تتماثل الأصوات وتتلاقى لنقل نفس النواة ويُحصر الخلاف في الصياغتين في تغيير الصوت

1- وهو واسطة من الوسائط التي تعتمدها الذات المتكلّمة لغاية تمام الصورة ومزيد بيانها.

2- وهي سمة من سمات الخبر الثابتة فيه. واعتماد هذه الظاهرة في دراسة أخبار الجاهليّة يرجع إلى قدرة هذا النمط التفاعلي على تمام تشكيل الصورة المرصودة، وسعي الذات المتكلّمة إلى محاصرة أكثر الأخبار فيما تعرض له من شخصيّات، وتوجيهها وجهة السمة العامّة المرصودة للشخصيّة، أو وجهة الحدث الذي عليه مدار الأخبار.

3- *كتاب الأغاني*: 17/ 287. و 17/ 300.

الأوّل المنتج للخبر، فنجده في الخبر الأوّل راجعا إلى محرز بن أبي هريرة وفي الخبر الثاني إلى "رجل من القوم" لا تُحدّد هويّته ولا يُذكر اسمه ويتحوّل في هذه الصياغة من كان مصدرا في الأولى إلى ناقل يأخذ القول عن سالف، فليس هو المسؤول عن القول وإنّما هو رجل من القوم. فالعامل الوافد المغيّر في الصياغة يتمثّل في تبديل الراوية الرأس[1] منتج الخبر وفق معلن السند، وفي تغييره وتبديل الصياغة تحويلٌ لجملة من المعاني الموجودة في الخبر، يمكن أن نلحظها في ضبطنا لجدول مبين عن التغيير الحاصل في الخبرين:

1- انظر الباب الأوّل من هذا العمل.

	خ1	خ2
م1	كان رجل يقال له أبو الخيبري مرّ في نفر من قومه بقبر حاتم وحوله أنصاب متقابلات من حجارة كأنّهنّ نساء نوائح فنزلوا به.	أنّ نفرا من بني أسد مرّوا بقبر حاتم
م2	فبات أبو الخيبريّ ليلته كلّها ينادي: أبا جعفر اقر أضيافك، فيُقال له مهلا ما تُكلِّم من رمّة بالية، فقال: إنّ طيّئا يزعمون أنّه لم ينزل به أحد وهو ميت إلاّ قراه.	فقالوا: لنبخلنّه ولنخبرنّ العرب أنّا نزلنا بحاتم فلم يقرنا. فجعلوا ينادون: يا حاتم ألا تقري أضيافك؟ وكان رئيس القوم رجل يقال له أبا الخيبري.
م3	فلمّا كان آخر اللّيل نام أبو الخيبري حتّى إذا كان في السحر وثب فجعل يصيح: واراحلتاه، فقال له أصحابه: ويلك مالك؟ قال: خرج واللّه حاتم بالسيف وأنا أنظر إليه حتّى عقر ناقتي. فقالوا: كذبت، قال: بلى. فنظروا إلى راحلته فإذا هي مختزلة لا تنبعث، فقالوا: قد واللّه قراك، فظلّوا يأكلون من لحمها، ثمّ أردفوه فانطلقوا.	فإذا هو بصوت ينادي في جوف اللّيل: أبا خيبري وأنت امرؤ ظلاّم العشيرة شتّامها.إلى آخرها. فذهبوا ينظرون فإذا ناقة أحدهم تكوس على ثلاث أرجل عقيرا. قال فعجب القوم.
م4	فساروا ما شاء اللّه، ثمّ نظروا إلى راكب فإذا هو عديّ بن حاتم، راكب جملا قائد جملا أسود فلحقهم، فقال: أيّكم أبو الخيبري؟ فقالوا: هو هذا، فقال: جاءني أبي في النوم فذكر لي شتمك إيّاه وأنّه قرى راحلتك لأصحابك، وقد قال في ذلك أبياتا وردّدها حتّى حفظتها وهي: أبا الخيبري وأنت امرؤ ظلوم العشيرة شتّامها. (إلى آخر الأبيات). وقد أمرني أن أحملك على جمل، فدونكه، فأخذه وركبه وذهبوا	

فالخبران قائمان على أصل واحد أو على نواة مصدر واحدة دخلت عليها آلة الرواية فصاغتها بطريقتين. ومن هذه الثوابت أنّ النواة المصدر ماثلة في الانطلاق من صورة عن حاتم راجت حتّى غلبت وهي صورة جامع الكرم الموغل فيه، حتّى ليأتي بكرم الخوارق والعجائب. ومن هذه العجائب مقولة ينبغي أن تسُنَد بأخبار داعمة وهي إقراؤه النّاس حيّا -ولا غرابة في ذلك- وميتا -وهو مأتى الغرابة-. فالثابت إذن وجود حاتم شخصيّةً تمثّل الكرم في صورته المطلقة، وكذلك وجود شخصيّة أبي الخيبري التي تتحدّد لها صورة طالب الكرم الحاتميّ، وطَلَبُها هو معقد الإشكال إذ جمع الطلب بين صفتين يستحيل التواصل بينهما -عقليّا ومنطقيّا- فالطالب حيّ يُرزق يعيش حياة العالم الصائر إلى فساد وانـدثار، والمطلوب ميت قد عَبَر حياة الأحياء وانتقل إلى عالم آخر يستحيل منه النفاذ إلى تحقيق الطلب. ويُعَدّ تحقيق الطلب من العناصر الثابتة في الخبرين، غير أنّنا ثني هذه الجوامع الحدثيّة نجد صياغتين متباينتين تُنتجان معاني قد تؤسّس اختلافا بينهما وإن اتّحدت في مستوى المقصد الجامع. فقد أظهر التباين جنوح الصياغة الأولى إلى بعضٍ من توسيع المجال الحدثي وركون الثانية إلى الإجمال والاقتضاب، ويبدو كما سلف أن أثرنا أنّ صاحب الخبر يسعى إلى إحاطة القول الشعري المردّد في الصياغتين بإطار حدثيّ يظهر فيه الشعر ناتجا عن واقع بنته وأفضت إلى إنتاجه. ومن بين مظاهر التباين التي أسّست المظهر الأوّل توسيع رؤية الراوية الرأس الأوّل واقتصار الثاني على محض الإخبار. إذ يبدو الراوية الثاني أقرب إلى الإيهام "بالموضوعيّة" فتتراجع الدلائل المحيلة إلى المتكلم[1] ويبدو أنّ تضييق الرؤية والجنوح إلى الإيجاز في الثاني راجع إلى مبدأ الاقتصاد الذي كنّا قد أثرناه في الفصل السابق، وهذا المبدأ المحكوم بسياق نصي جامع والمحيل إلى حضور المتكلّم بصورة بيّنة، يظهر في عدد من المواطن لعلّ أهمّها أنّه المتحكّم فيما يرد من أخبار فيُقدّم هذا ويؤخّر ذاك ويقرّ الخبر وينفي الآخر، وعلى هذا الأساس فإنّ المتكلّم صوت يُظهر ويُضمر موقفا ورؤية يعسر أن يُحجبا. وفي خبر حاتم الطائي يُقدّم المتكلّم الخبر المُفصّل الموسّع بدءا ثمّ يُلحقه بآخر موجز مقتضب وقد حذف منه عناصر ووظائف احتواها الخبر

الأوّل، بل إنّ الصدور عن نفس النواة لا يعدم تباينا في الوظائف بين هـذين الخبرين، ومن ذلك أنّ نيّة الإساءة تُسنَد إلى الجماعة في الخبر الثاني ويختصّ بها فرد في الخبر الأوّل. وكذلك فإنّ الطلب الذي مثّل الإساءة يُسنَد إلى الفرد في الخبر الأوّل وإلى الجماعة في الخبر الثاني، فيصير فعل الإساءة صادرا عن سلوك فرد أراد اختبار قول أو أراد محض المزاح في الخبر الأوّل، ويكون الطلب -الإساءة- في الخبر الثاني فعلا مقصودا صادرا عن الجماعة، أُريد منه التعريض بحاتم وآله "فقالوا: لنبخلنّه ولنخبرنّ العرب أنّا نزلنا بحاتم فلم يقرنا". ومن مظاهر التباين أيضا تواصل الأحداث في الخبر الأوّل وانقطاعها في الخبر الثاني. إذ تدخل شخصيّة ثالثة "ابن حاتم" لتُكمِل الصورة، وتواصل بيان الكرم الحاتمي حتّى في موته ومع من أساء إليه.

لقد تبيّنا في هذا الخبر أنّا إزاء وظائف مشتركة جعلت الخبر يصدر عن نفس النواة، وتبيّنا أيضا وجود تباين ثني هذا الاشتراك راجع إلى طرائق صياغة النواة ومسالك الرواة في التأليف.

ونعرض في ذات المقام خبرا ثانيا قُدّم في صورتين أو في صياغتين. وهو خبر قيس بن الخطيم[1] الذي يُعقد على حدث تتعاضد الأخبار الواردة في الفصل الخاصّ به لدعمه وتأكيده، وهو الأخذ بثأر أبيه وجدّه. وقد ورد الخبران المؤسّسان لهذا المقصد والمبينان عن هذا الفعل متلاحقين، فكأنّ الخبر الثاني جاء داعما للخبر الأوّل مضيفا إليه، منيرا بعضا ممّا بان فيه غامضا. فيُقدّم المتكلّم رواية أولى للخبر تُسنَد إلى المفضّل توسّم بالإيجاز والاقتضاب اقتصارا على الإخبار بالسبب الذي من أجله اندلعت حرب الأوس والخزرج، ذلك أنّ طلب قيس بن الخطيم بثأر آله قد كان السبب في اشتعال العداوة بين الأوس والخزرج "وكان أبوه الخطيم قُتل وهو صغير، قتله رجل من بني الحارثة بن الحارث بن الخزرج، فلمّا بلغ قتل قاتل أبيه، ونشبت لذلك حروب بين قومه وبين الخزرج وكان سببها."[2] وهو يعرض أيضا رواية ثانية أو صياغة ثانية لنفس النواة قائمة على بعضٍ من التوسيع مقارنة بالرواية الأولى، فإذا ما وازنّا بين

1- *كتاب الأغاني*: 3/ 4. 5.6. 7. 8.

2- *كتاب الأغاني*: 3/ 4.

الصياغتين وجدنا أنّ الاختلاف بينهما حاصل على مستوى صياغة ذات النواة الأخباريّة، إذ أنّ المصدر الذي تأسّست عليه الصياغتان واحد، والاشتراك في الوظائف الأساسيّة المؤسّسة للخبر حاصل ولنا أن نظهر المشترك والمختلف في هاتين الصياغتين بضبطنا للجدول التالي:

خبر1	خبر2
م1: كان سبب قتل الخطيم أنّ رجلا من بني حارثة ابن الحارث بن الخزرج يقال له مالك اغتاله فقتله، وقيس يومئذ صغير وكان عديّ أبو الخطيم أيضا قُتل قبله قتله رجل من عبد القيس. م2: فلمّا بلغ قيس بن الخطيم وعرف أخبار قومه وموضع ثاره	م1 كان من حديث قيس بن الخطيم أنّ جدّه عديّ بن عمرو قتله رجل من بني عمرو بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يُقال له مالك، وقتل أباه الخطيم بن عديّ رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر، وكان قيس يوم قتل أبوه صبيًا صغيرا، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عديّ. م2: فخشيت أمّ قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجدّه فيهلك، فعمدت إلى كومة من تراب عند باب دارهم، فوضعت عليها أحجارا وجعلت تقول لقيس: هذا قبر أبيك وجدّك، فكان قيس لا يشكّ أنّ ذلك على ذلك. ونشأ أيّدا شديد الساعدين فنازع يوما فتى من فتيان بني ظفر، فقال له ذلك الفتى: واللّه لو جعلت شدّة ساعديك على قاتل أبيك وجدّك لكان خيرا لك من أن تخرجها علي، فقال: من قاتل أبي وجدّي؟ قال :سل أمّك تخبرك. فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذبابه بين ثدييه وقال لأمّه: أخبريني من قاتل أبي وجدّي؟ قال: ماتا كما يموت الناس، وهذان قبراهما بالفناء، فقال: واللّه لتخبرينني من قتلهما أو لأتحاملنّ على هذا السيف حتّى يخرج من ظهري، فقالت: أمّا جدّك فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة، يقال له مالك، وأمّا أبوك فقتله رجل من عبد القيس ممّن يسكن هجر، فقال: واللّه لا أنتهي حتّى أقتل قاتل أبي وجدّي، فقالت: يا بنيّ إنّ مالكا قاتل جدّك من قوم خداش بن زهير، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر، فأته فاستشره في أمرك واستعنه يُعنك

فندرك قيام الخبرين على نقاط حدثيّة مشتركة، هي:

- مطالبة قيس بن الخطيم بدم أبيه وجدّه.
- ثأر قيس بن الخطيم لأبيه وجدّه.
- المساعد على أخذ الثأر هو خداش بن زهير.

وهي النقاط الجامعة التي صدر عنها القائلون وانطلق منها المتكلّم، والاختلاف حاصل في طرائق التعبير عن الأحداث-الأصول، إذ أفاض القائل في الصياغة الثانية وأجمل القائل في الصياغة الأولى، فالتعبير عن الوقائع قد اختلف باختلاف القائلين، وهي مسألة راجعة إلى قدرة الصائغ على بيان الأحداث وانتقاء ما يراه جديرا بتركيز النظر والقول والغضّ عمّا بدا له غير جدير بالحديث، ومن هنا يتأتّى الفاصل بين رُواة قائلين اهتمّوا بالصياغة وتأثيث الأحداث ورُواة آخرين كاد الخبر معهم أن يقتصر على محض الإخبار والإعلام. فقول المفضّل في المقطع الأوّل من الخبر معلنا السبب الذي حدا بابن الخطيم إلى أن يطلب دم أبيه وجدّه هو قول عارض إذ الرئيس بالنسبة إليه إعلان أخذ الشخصيّة بثأرها من قتلة آلها، يقول: "فلمّا بلغ قيس بن الخطيم وعرف أخبار قومه وموضع ثأره..."[1]، وهو ما مثّل مجالا للحكاية في الرواية الثانية لا تختلف في الوظيفة عن الأولى غير أنّها قائمة على التوسيع بيانا للطريقة التي بها عرفت الشخصيّة أخبار آلها وإظهارا للسبب الذي دفعها إلى طلب هذه الأخبار[2]. وكذا الاختلاف في كامل مقاطع هذا الخبر، إذ هو راجع إلى صياغة المادّة الموحّدة أو المشتركة. فمن هو صاحب اللّفظ أو صاحب الرواية، ومن صائغ الأحداث، هل هو المتكلّم الذي لا نعدم لفظا له وصوغا يُعلنه في عدد من المواطن؟ أم هو القائل مُمثّلا في الراوية الرأس؟ أم هي رحلة الخبر كلّ له ضلع في صوغه زيادة ونقصانا يأخذه الراوية المصدر عن شيوع ورواج ويشذّبه ويهذّبه وينتقل عبر الرؤوس والنقلَة كلّ يخضعه للمقام الذي زُجَّ به فيه انتهاءً إلى المتكلّم الذي يضعه موضعه من السياق النصّي؟

1- م.ن.ج.ص.

2- انظر المقطع الثاني من الجدول أعلاه.

ومن هنا فإنّ تداخل الأصوات أمر شائك في بنية الخبر وخصيصة تجعله عديم الصاحب فلا يمكن أن نثبت طرفا مطلق الإثبات ولا يمكن أن ننفي دوره أيضا مطلق النفي. فإذا كانت الرؤية هنا هي رؤية القائلين يعرضها المتكلّم بصوته فلِم هذه الصياغات وقد أدركنا الاشتراك التامّ تقريبا بين معاني الخبرين على مستوى صدورهما عن نواة أخباريّة واحدة؟ وإذا كان المتكلّم محض ناقل لأخبار الآخرين فلِم يُورد الموجَز والمفصّل، والثاني أوفى وأوضح؟ وهل يمكن أن يحتلّ هذا المحلّ نقلا للأقوال دون أن يكون له فيها نظر أو موقف أو استدعاء لمعنى أو تصرّف في الصياغة؟

إنّ خبر قيس بن الخطيم الذي ذكرنا ما هو إلاّ نموذج لجملة من الأخبار التي تُروى بأكثر من صياغة، يعرضها المتكلّم ويقف منها موقف المحايدّ غير أنّ أوضاعا أخرى قد تُظهر لنا المتكلّم على وجهه الحقيقيّ من حيث هو المسؤول عن فضائه الخطابي وما يورده من شخصيّات قائلة هو في نهاية المطاف ضرب من ضروب توظيف المادّة الخبريّة وتوزيعها على هؤلاء القائلين. ونعرض إلى خبر آخر اعتمد فيه المتكلّم على السرد الإعادي انطلاقا من نواة أخباريّة واحدة وتقديما لعدد من الصياغات وهو خبر أميّة بن أبي الصلت في ترديد مقولة: **لبّيكما لبّيكماهاأنذا لديكما.**

في مواقع مختلفة، إذ تمثّل منقولا شعريّا عن الشخصيّة يشكّل نواة أخباريّة يسعى الرّواة إلى حياكة مقاماتها بطرائق مختلفة، تروى في خبر أوّل في معرض اتّصال النبوّة به ولفظ قلبه لها[1]، وتُروى في خبر ثان في معرض موته[2]، وهو نفس مدار الخبر الثالث[3].

فتتبيّن صلةٌ بين هذه الأخبار تجعل هذه الصيَغ المختلفة صادرة عن أصل واحد هو الذي تحكّم في مختلف مناحيها فوفّر للقائلين مادّة أساسيّة حاكوها بطرائق متغايرة، وكان المتكلّم في كلّ ذلك الرأس الذي يصرّف هذه الروايات ويرشّح بعضها ويُغلّب البعض

1- م.ن: 4/ 131.
2- م.ن: 4/ 135.
3- م.ن: 4/ 136.

الآخر ويُقصي منها ما بدا له جديرا بالإقصاء. ويُظهر خبر أميّة بن أبي الصلت هذه العلاقة بين الأخبار التي تبدو على درجة من الغرابة إذ يَعرض المتكلّم عددا من الأخبار الدائرة في ذات المدار، وهو مدار صلة هذه الشخصيّة بالفضاء الغيبي الظاهرة عبر أقوال تردّدها وتظلّ ملازمة لكلّ الصيغ المقدّمة. ففي الخبر الأوّل يظهر المتكلّم متقبّلا لقول يبلغه عن جملة من الرواة الذين يمثّلون شخصيّات قوليّة داخل الفضاء الخطابي، إذ هي أدوات المتكلم وصنائعه يُصدرها قولا ويُسنِد إليها إصدار القول، فهو ناظر فيما توفّره له من أقوال، وهي أيضا ناقلة لما انتهى إليها من قول في الشخصيّة المرشّحة للحكاية، فهؤلاء هم الرواة بما لهم من دور يسير في الحكاية إذ يُسندون فعل الحكاية في شقّ كبير منه إلى شخصيّة داخلة في فضاء الحكاية الفعليّ لا في فضاء الرواية الذي حدّد جملة من المصادر التي نقلت الخبر وساهمت في إنتاجه. فتصبح الشخصيّة المرويّة راوية رائيّة دون سابق تمهيد أو إعلام. فإن حدّدنا هذه المراتب الروائيّة في هذا الخبر حتّى تتجلّى لنا الصورة على ما فيها من تعقيد لألفينا المراتب التالية:

المتكلّم: وهو الذات الخطابيّة التي أنتجت الخطاب فأُسنِد إليها في مختلف تصاريفه. وصوته ظاهر في هذا الخبر في المقاطع التي تحمّل فيها إنتاج القول وإن كانت المسألة معقّدة نسبيّا باعتبار أنّ القول الذي يُنتجه هو دوما مسند إلى شخصيّة قائلة، من حيث أنّ الأخبار في صورتها العامّة هي حكاية أقوال. وهذا ما يؤدّي بنا إلى المنزلة الثانية وهي منزلة القائل.

القائل: وهو الشخصيّة التي تتكفّل برواية الأقوال والأفعال، وهي في هذا المقام شخصيّة من ورائها شخصيّات، هي أساسا شخصيّة أخت أميّة بن أبي الصلت التي تُنقَل أقوالها عبر عدد من الشخصيّات.

وفي هذا الخبر نلحظ ظهور الرائي المغاير للراوي فما تنقله أخت أميّة بن أبي الصلت هو المشهد الذي كانت فيه طرفا حاضرا وفاعلا وكانت تعاين ما يحصل لأخيها بل كانت تعلم عن الشخصيّة ما لا تعلمه هي وتروي ما لم تره الشخصيّة فهي أعلم منها وأدرك. وهي –وفقا لخطّة الرواية– التي أخرجت الحكاية، الراوي الرائي وإن كان محلّها من الحكاية محلّ الشخصيّة.

يُسنَد الشقّ الأوّل من الخطاب إلى جملة من القائلين الذين أخذوا أصل الخبر عن الزهري : "دخل يوما أميّة بن أبي الصلت على أخته وهي تهيّع أدما لها، فأدركه النوم فنام على سرير في ناحية البيت." ثمّ بعد هذا المقطع التقديميّ تتسلّم الشخصيّة عهدة الحكاية، فتروي ما رأته من فعال وما صدر من أقوال، فيتبدّل الراوي ليُسنَد فعل الحكاية إلى الأخت الحاضرة طرفا مساهما في الأحداث، "قالت". ويعسر في هذا الخبر وفي غيره من الأخبار أن نتتبّع صورة المتكلّم في الخطاب بسبب من غياب الوصف، وندرة العلامات الدالّة عليه التي لئن توفّرت فإنّها تكون في صورة مطلقة عامّة، كالتحديد الزمنيّ في هذا الخبر "يوما" وكوصف حال الأخت "وهي تهيّع أدما له".

وعلى غير هذه الهيأة يُقَدّ الخبر الثاني إذ هو متأسّس على ذات النواة التي تأسّس عليها الخبر الأوّل إلاّ أنّه يُعرَض في معرض مختلف وفي مقام مغاير. فالخبر الأوّل موصول بالتمهيد للنبوّة، في حين يتوجّه الخبر الثاني لبيان ظروف موت الشخصيّة.

ويُحافظ الراوي في هذا الخبر على ذات أقوال الشخصيّة ويُدخله في غيبوبة لا نعلم ما يحدث فيها إلاّ ما بدا من قول الراوي، وما وفّرته الخطّة الروائيّة في الخبر الأوّل لم تتوفّر في الخبر الثاني من إيجاد شخصيّة تروي ما تراه وما يراه ابن أبي الصلت. فظلّت الرؤية أسيرة رؤية الشخصيّة وظلّ الراوي ملازما له لا يروي إلاّ ما تعاينه الشخصيّة.

ويورد المتكلّم صياغة ثالثة لهذه المادّة الأخباريّة تحافظ على المقام الذي ورد فيه الخبر الثاني وتعدل عن الأقوال التي جمعت بين الصياغتين إلاّ من ظلال تحيل إلى وجود هذه الأقوال، فمن الملاحظ أنّ بعضا من أقوال الشخصيّة مثّلت لازمة ثابتة في الصياغات المختلفة لهذه النواة، ومنها قوله: "لا بريء فأعتذر..."، وغيرها من الأقوال التي تبلغ درجة التناظر المطلقة في الصياغة الأولى والثانية، وتثبت ظلالها في الصياغة الثالثة.

إنّ الخبر يُعرَض في صورته الأتمّ في الصياغة الأولى ويذبل مرحليّا حذفا لعناصره ولشقّ من أحداثه، غير أنّ هذا الذبول يمكن أن يُدرك في وعي المتكلّم بأنّه يعيد ما سبق أن ذكره فيقصر أمره على التذكير به دون أن يعيد الأقوال بتمامها بنفس

الصيغة التي أورد عليها هذه الأقوال في الخبر الأوّل. وهو تكرار محكوم في الغالب برؤية تحدّد وِجهة هذا الخبر أو ذاك، والرؤية في هذه المادّة الحديثيّة لم تكن واحدة متماثلة وإنّما هي متنوّعة متعدّدة، ويعسر أن تحيل على رؤية المتكلّم وإن كان له القسط الأوفى والأوفر فيها.

إنّ الجامع بين الخبرين الأوّلين هو التناظر القولي وإن كان هنالك اختلاف في المقام الذي أفضى إلى إنتاج القول، والجامع بين الخبر الثاني والثالث هو التناظر المقامي، وإن لم نعدم علاقة وصل بينه وبين الخبر الأوّل. فهل الرؤية في هذه الروايات المختلفة راجعة إلى الذات المتكلّمة بما لها من صفات حدّدناها سلفا؟ أم هي محيلة إلى ذات خطابيّة تنظر فيما ينتهي إليها من أقوال وتُغلّب رؤيتها للظواهر والأشياء؟ أم كلّهم براء من الرؤية، محض نقلة، وإنّما الذوات المرويّة -القائلون- هم أصحاب الرؤية، يوجّهون الخطاب وجهتهم، ويُصرّفونه وفقا لهواهم، وما الذوات الأخرى إلاّ أدوات لنقل الخطاب دون فعل فيه أو أثر منها يُلمَح؟

ومثاله أيضا خبر المحلّق مع الأعشى الذي يُقدّمه المتكلّم في ثلاث صيغ[1]، تُقدَّم بروايات متغايرة ومن زوايا نظر مختلفة وإن كانت صادرة عن نفس النّواة ومحقّقة نفس المقاصد. ومدار هذه الأخبار اتّصال المحلّق بالأعشى بغاية الإعلاء من شأنه في شعره حتّى يتمكّن من تزويج بناته أو أخواته. ومنطلق الصياغات قول شعريّ يذكر فيه الأعشى المحلّق.

وهذا ما يزيد من قناعتنا بأنّ الخبر يُطلَق نواةً ويظلّ في مراحل روايته المختلفة مهيّئا لممكن ملء فراغاته وفقا لخطّة قوليّة تراعي جملة من الحوافّ المقاميّة المؤثّرة في إنتاج هذه الأخبار وفي إعادة إنتاجها.

فنقرأ هذه الأخبار وفق توجيه الذات المتكلّمة وتصريفها لها فهي ناظرة في هذه الأقوال أو هي تقدّم رؤيتها لها، والخطّة المعتمَدة في تقديم هذه الصياغات قد قامت على التدخّل في المنقول ترجيحا وتصديقا وتكذيبا.

1- م.ن: 9/ 110. 9/ 112. 9/ 114.

يُسنِد المتكلّم الخبر الأوّل في معاينته ونقله الأوّل إلى شخصيّة لا تُذكَر تسمية وإنّما هي تُقَدّم بصفتها انتماء إلى قيس عيلان ويتكفّل المتكلّم بنقل الأقوال والأفعال عن الشخصيّة المذكورة التي تدخل فيما يدور بين الزوج والزوجة من مسارّة ومن حديث دائر في اختلائهما، وعنها أخذ بقيّة القائلين القول.

ويُسنَد الخبر الثاني إلى قائل هو مصدر الخبر المعلَن، وهو يكتسب وجوده ونفاذه من انتمائه إلى البادية، "عن بعض الكلابيين من أهل البادية".

ولا يُوصل الخبر الثالث برواة البادية وإنّما هو ينتهي إلى أبي بكر الهلالي.

وما يجمع بين هذه الأخبار على اختلاف صياغاتها باختلاف رواتها هو محور الطلب في علاقة المحلّق الكلابي بالأعشى، ويتحقّق هذا الطلب في الصياغات الثلاث عبر خصال ثابتة في الشخصيتين و أوضاع فيهما لا يمسّها الفساد و إن كان الكون المحيط بهما من شخصيّات مجانبة وأفعال فرعيّة قابلا للتغيير ولمختلف التصاريف. ويمكن أن نتبيّن ذلك في الجدول التالي:

	خ1	خ2	خ3
الطالب	المحلّق الكلابي	المحلّق الكلابي	المحلّق الكلابي
المطلوب	الأعشى	الأعشى	الأعشى
موضوع الطلب	تزويج بناته	تزويج أخواته	طلب المجد
الدافع	الإملاق	الإملاق	الحاجة إلى الذكر
المساعد	امرأته	عمّته	أمّه

فالملاحظ في بنية هذا الخبر أنّنا إزاء عناصر ثابتة وأخرى متغيّرة، فأمّا العناصر الثابتة فتمثّل الأركان الرئيسيّة في بنية الخطاب وأمّا العناصر المتغيّرة فهي حوافّ هذه الأركان ومتمّماتها، ولذلك فإنّها تشكّل خانات فارغة ممكنة الملء، تمثّل -فيما نرى اجتهادا- المساحات السرديّة التي يجول فيها الرّواة بمطلق الحريّة في حين أنّه من العسير "تحريف" العناصر الأصليّة للخطاب، وهي العناصر المتأسّسة في النواة الأصليّة التي تضمّنها القول الشعريّ. ذلك أنّ هذه الأخبار تعرض لذاكرة أمّة ولتاريخ حضارة لها

في الأذهان أصوات وأصداء يعسر أن تُخرَق أو أن تُعمل فيها آلة للتخيّل خارجة عن النظام الذي يحويها، ولذلك لاحظنا وجود صور ثابتة لبعض الشخصيّات، وصور لأحداث تُعمّق وتركّز بسبب من أحداث مزامنة لإنتاج الخطاب ظلّت متحكّمة في مختلف مناحيه[1].

إنّ الثابت في مختلف صياغات خبر المحلّق الآنف الذكر هو اتّصاله بالأعشى طالبا ذكره في شعره، بوصله بما له من مال ومتاع على حاجته، والمختلف ظهر في ظروف اللّقاء وفي الشخصيّات المرافقة للشخصيتين الثابتتين وفي طريقة الوصل..وهي المسائل التي تعود إلى تصرّف الرّواة فيما وصلهم من نواة تظهر في العناصر الثابتة والأصليّة للخطاب. ومن دلائل ظهور صوت الراوي فيما يصوغه اعتماده الإيجاز واسطة من الوسائط الثابتة في بنية الخبر والتركيز على الفعل إعلانا دون تفصيل أو توسيع كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كلّ سنة وكان المحلّق الكلابي مثناثا مملقا، وقد بانت المراوحة بيّنة في الخبر الأوّل بين رواية الأقوال ورواية الأفعال مع ندرةٍ لرواية الأحوال، واجتهادٍ من الراوي أن يظلّ قدر الإمكان بعيدا عن تصاريف الخطاب بوصله بين الأقوال وصلا لطيفا خفيفا. وإن كان يكشف صوته وصوغه في الخبر الثاني بطريقة بيّنة فيما يُسنده إلى الشخصيّات من قول. ويظلّ الخطاب على تغاير قائليه واختلاف مراتبهم ومصادر معارفهم واحدا متشاكلا في جلّ هذه الأخبار، ومن أمارات هذا التشاكل ما ورد من قول على لسان شخصيتين متغايرتين، متباعدتين، متنافرتين، هما الأعشى وعمّة المحلّق، إذ هو قول واحد في صياغته، يصدر عن العمّة في معرض التحريض والحثّ على ضرورة الاتّصال بالأعشى، فتقول: "...فواللّه لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفه ونظر إلى عطفيه في البردين ، ليقولنّ فيك شعرا يرفعك به"[2]، ويصدر عن الأعشى بعد أن وُصِل وبَلَغته هديّة المحلّق، فيقول: "والله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفي لأقولنّ فيه شعرا لم أقل قطّ مثله."[3] فهل من قبيل

1- وهو ما أظهرناه في أثر الواقع السياسيّ وواقع النزاع القبليّ في إنتاج أخبار الجاهليّة، وفي بنائها.

2- م.ن: 9/ 112.

3- م.ن: 9/ 113.

الصدف أن تنطق الشخصيّات مختارة ذات الألفاظ وذات الصياغة، أم هو المتكلّم يُنطق شخوصا ولا يحترم تغايرها، فيأخذ ممّا تقوله ما يمكن أن يصدر عنها ويحافظ على قوله هو وعلى اختياره اللّفظيّ؟ إنّ تبصّر العمّة بما يُمكن أن تُحدثه هديّة ابن أخيها لا يشفع لها بإنتاج قول يماثل قول الأعشى الذي يصدر عنه بعدا، بل هو الراوي يُغلّب صوته وإن أوهم بالتراجع والابتعاد عن فضاء الخطاب، بل إنّ صوته ليعلو بشكل سافر في منتهى ما يورده من خطاب مكلّما القارئ ساعة يُرجّح الرواية الأولى عن مجموع الروايات التي قدّمها: "والرواية الأولى أصحّ"[1]، ولنا في ذلك ملاحظات نسوقها عرضا ونثيرها بتوسّع في الباب الثالث من هذا العمل:

- المتكلّم يحافظ على صلته بالمخاطب على وجهين صلة الجمع وصلة المنع، فأمّا صلة الجمع فظاهرة في صورة يجهد النفس في رصدها وبثّها في أذهان المخاطبين وهي صورة المتتبّع للأخبار، جامعها على اختلاف مصادرها وتغاير مقاماتها، وما له في ذلك لا قول ولا أثر -في أغلب الأحيان-، وأمّا صلة المنع فماثلة فيما يُبديه من مواقف في منتهى الروايات التي يُقدّمها والتي تلجم المخاطب وتحدّ من إمكاناته في تمييزه الصحيح من الفاسد.
- أنّ هذا الصوت البادي في منتهى الروايات يحيلنا إلى ذات قد تعلو على المتكلّم أو هي نقطة التقاء المتكلّم في صورة من صوره بالذات المتكلّمة، كيانا له وجود خارج الخطاب وهو ناظر فيه وفي مختلف تصاريفه ومقدّم رأيه فيما يمكن أن يُرجّح منها.
- أنّ رأي المتكلّم ليس راجعا إلى مطابقة الأقوال بالوقائع، ورفعه للرواية الأولى وترجيحه لها لم يُبرّر وإنّما حسبه الصدح برأي استند -في أغلب الظنّ- إلى النظر في القول ومدى تماسكه، وفي مدى إمكان مطابقته.
- أنّ هذا القول الصادر عن المتكلّم هو قول تأثيريّ، به يُوصل بالمخاطب، وقد نضا ستارا طالما حجبه حتّى ليظنّ القارئ أنّ الخطاب من عدد أصحابه بلا صاحب،

1-م.ن: 9/ 114.

ومن وفرة مَلَكَتِهِ المتخلّين عن ملكيّته دارج لا قَدَّ فيه ولا صنعة ولا ذات تصوغه وتُغلّب صوتها وإن علا ضجيج الأصوات المُعلَن في مبتدأ الخبر.

ويدخل خبر حسّان بن ثابت في نفس هذا الباب، وهو الخبر الذي يُصوّر دخوله على النعمان ويبين علاقته بالنابغة التي حيكت على عدد من الهيئات والصور، وصدرت عن مصادر متباينة إلاّ أنّها في منتهى الرحلة بالغة محلاّ واحدا هو الناظر فيها والمفاضل بينها والفاصل فيها.

يأخذ المتكلّم الخبر الأوّل[1] عن مصدرين وقناتين متغايرتين إلاّ أنّه يقدّمه مؤتلفا وصوتا واحدا، يرفع المصدر الأوّل إلى المدائني ويرفع الثاني إلى حسّان بن ثابت وهو المصدر المعتمَد وإن كان المتكلّم أشار إلى أنّه يعتمد أساسا رواية المدائني وأنّ ما بلغه من المصدر الثاني هو بعضٌ من الخبر. وفي هذا السند يبدو المتكلّم جامعا لرؤيتين يُقدّمهما بصوته هو، وإن كان يُقدّم شخصيّة من الخطاب راوية لأحداثه ووقائعه، هي طرف في مكوّنات الخطاب وراوية له في ذات الآن داخل خطّة الخبر التي تقوم على رواية القول غلبةً مطلقةً، ولذلك فإنّ كلّ الخبر يُسنَد في روايته إلى هذه الشخصيّة ويغلب ضمير المتكلّم الراجع إليها، وكذلك كانت الخطّة في الخبر الثاني[2] المردّد للأوّل في هيئة مغايرة نسبيّا، إذ اضطلعت الشخصيّة فيه برواية أقواله وأفعاله وأحواله. وما يُلاحظ في هاتين الروايتين هو صدورهما كما أظهرنا في الأخبار الآنفة عن ذات النواة الأخباريّة بيانا لعلاقة النعمان بن المنذر بالنابغة وتركيزا على حدث مخصوص هو المصالحة بينهما بعد الفُرقة، وتُقدَّ م هذه العلاقة ثني علاقة أكبر يتركّز عليها الخطاب هي علاقة الشخصيّة الراوية –حسّان بن ثابت– بالنعمان، ومنها يقع النفاذ إلى محلّ النابغة من النعمان.

إنّ الخبرين يشتركان في انشدادهما إلى ذات المحور الغرضيّ وفي الخطّة التي بُنيَا عليها، فقد قاما على ثلاث مراحل مثّلت المقاطع الكبرى فيه: المرحلة الأولى هي

1- م.ن: 11/ 23.

2- م.ن: 11/ 33.

اتّصال حسّان بن ثابت بالنعمان، وهي مرحلة الوضع الأوّليّ وتحوي هذه المرحلة الحدثيّة جملة من الأفعال التي تأسّست عليها هذه العَلاقة. المرحلة الثانية، هي مرحلة دخول الوافد وما يُلحِقه من أثر في العلاقة الأولى، والمرحلة الثالثة هي نتاج هاتين المرحلتين وتحوّل من ذكر علاقات كان النعمان فيها هو الطرف الرئيس إلى إثبات علاقة ثالثة تقوم بين الطالبين، أي بين حسّان بن ثابت والنابغة، إذ يكون الحسد هو فعل المنتهى الذي يُقفَل به الخبر. وعلى ذلك فقد لاحظنا في الخبرين مقاطع متماثلة وأفعالا متشاكلة، فمقطع السؤال والجواب في معرض تعرّف "المساعد" على الشخصيّة كان واحدا تقريبا في الخبرين، إذ ورد في الخبر الأوّل: "فأتيتُ حاجبه عصام بن جليل فجلست إليه، فقال إنّي أرى عربيّا، أ فمن الحجاز أنت؟ قلت: نعم. قال: كن قحطانيّا. فقلت: أنا قحطانيّ. قال: فكن يثربيّا. قلت فأنا يثربيّ. قال: فكن خزرجيّا. قلت: فأنا خزرجيّ. قال: فكن حسّان بن ثابت. قلت: أنا هو."[1] ووردت نفس هذه الأسئلة بنفس الطريقة في الخبر الثاني المكرّر للأوّل، ممّا يجعل أمر تغيّر الرواة النقَلة لخطاب القائل غير فاعل فيه بشكل ظاهر، ولعلّ الأقرب فيما نتجّه إليه من البحث أنّ الأصل الذي يُنوّع الرواة ويُفرّعهم يحافظ دوما على صوته. "خرجت إلى النعمان بن المنذر فلقيت رجلا... فلمّا رآني قال: كن يثربيّا، فقلت: الأمر كذلك. قال: كن خزرجيّا، قلت: أنا خزرجيّ. قال: كن نجّاريّا، قلت: أنا نجّاريّ. قال كن حسّان بن ثابت، قلت: أنا هو."[2]. إضافة إلى وجود علاقات واحدة بين أطراف وإن تغايرت فهي تؤدّي نفس الوظائف:

- العلاقة الأولى تظهر بين الطرفين الرئيسيين في الخطاب، بين من أدّى المحلّين محلّ فعل الرواية ومحلّ الشخصيّة التي تُظهَر أفعالها وأحوالها وأقوالها، وبين من تُشَدّ إليه الرحال ويقصد إليه الشعراء، النعمان بن المنذر، والعلاقة بينهما هي علاقة الطلب، إذ يقصده الطالب بغية الإجازة والهبة والصحبة، وهي مطمع الشعراء من الملوك.

1- م.ن: 11/ 24.

2- م.ن: 11/ 33.

وهي من العلاقات الثابتة في الخبرين ومتى أُخلّ بها أو أُبدل طرف من أطرافها تزعزعت أركان الخبر، ولذلك فإنّ وجود خبر في نفس هذا المجال يحافظ على ذات العناصر الحدثيّة، إلاّ أنّه يُبدّل النعمان بن المنذر بجبلة بن الأيهم يُرَدّ ويُخطّأ[1].

- العلاقة بين الطالب والمساعد، وشخصيّة المساعد حاضرة في مختلف تنويعات الخبر، فهي في الخبر الأوّل "عصام" حاجب النعمان بن المنذر، وهي في الخبر الثاني على وجهين وفقا لاختلاف الرواة في تحديدها فهي "رجل" على الإطلاق، وهي "صائغ من أهل فدك" في رواية اليزيدي. غير أنّ مختلف تحديداتها لا يُغيّر من الدور الذي تؤدّيه في بنية الخبر إذ هي الناصح الذي يزوّد الطالب بما به يحقّق طلبه.
- العلاقة بين الطالب المذكور وطالب أصليّ مطلوب متى حلّ تهافت كلّ الطالبين وبُخسوا ما لهم من حقّ، لأنّ وجوده ينفي وجودهم ولأنّه كما ذكرنا مرغوب فيه من قِبل المطلوب الطالب أي النعمان بن المنذر. ولذلك فقد لاحظنا مقطعا أخيرا يتكرّر في الخبرين ومفاده حسد حسّان بن ثابت للنابغة، بسبب من جودة ما يقوله من شعر وبسبب ممّا يلاقيه من حظوة لدى النعمان.

فتتحكّم هذه العلاقات في الخبرين لتقدّ معنى مشتركا وصورة متماثلة تنتج عنهما، والمتكلّم في هذا المحلّ لا يُبدّل من رؤيته في المادّة الأخباريّة وإنّما التبديل يلحق صيغا تتغاير بتغاير الرواة، وإن كانت في نهاية المطاف عائدة إلى من يُؤالف بينها ويؤاخي فلا تتجافى ولا تتنافر، وإنّما هي صيغ راجع بعضها إلى بعض، تلمح فيها أصداء متعاودة، بالرغم من تعدّد الأصوات الذي يُعلَن في مبتدأ الخبر.

لقد كان حسّان بن ثابت هو الرائي في هذا الخبر على اختلاف صياغاته، وهو الذي أخرج المادّة الأخباريّة من الحركة الفعليّة العينيّة إلى الحركة اللّغويّة بكلّ متاحاتها وممكناتها التعبيريّة، وما بقيّة الرّواة وفقا لظاهر السند إلاّ نقلة لما رواه، وهو أمر –وإن أوهمت به صياغة الخبر– بعيد عمّا يُحقّقه الخطاب الأخباريّ في تشكّله من خصوصيّة في الرواية فريدة. فلقد أثبتنا أنّنا إزاء مادّة أخباريّة واحدة وأنّنا أيضا إزاء راوية مشارك

1- م.ن: 11/ 34.

في الأحداث شاهد عليها يُثبَتُ في الخبرين بنفس الاسم ونفس الصفة وله مرجعيّة مخصوصة في أذهان القرّاء باعتباره شاعر الرسول والناطق الأدبيّ الرسميّ للدعوة الإسلامية بدء ظهورها.

إنّ تكثيف الصياغات لا يؤدّي فحسب صورة لمتكلّم يُوهم بتقصّي الحقيقة، وبإثبات ما انتهى إليه دون تصرّف أو تحريف، وإنّما هو محيل إلى ذات تسعى جاهدة في إثبات صورة ما عن الشخصيّة مدار الحكاية، والشخصيّة في هذه الأخبار ليست حسّان بن ثابت وإن تركّز الخبر عليها وإنّما هي النابغة الذبياني في علاقته بالنعمان، وفي جودة شعره وما يتحقّق بهذا الشعر من شرف.

إنّ إثبات هذه الصيغ المتغايرة هو خير دليل على وجود أصوات صائغة عديدة، منتهاها هو المتكلّم، الذي تُسنَد إليه هذه الصياغات وإن ألقاها على عاتق آخر يُحمّله الرواية. فصوت المتكلّم يظلّ حاضرا في مختلف مراحل الترشيح والانتقاء النهائيّ والتعديل والتقويم والجمع والمؤالفة، لأنّ الأساسيّ بالنسبة إليه هو المحافظة على المعنى لا على الصياغة والإسناد في هذا المحلّ هو إسناد معنى لا طرائق قول. وعلى هذا الأساس فهو لا يجد حرجا في تجميع عدد من الروايات وترشيح واحدة منها هي التي يختارها مؤدّية بلفظها التامّ لجلّ المعاني الواردة في الروايات الأخرى، وهو ما ظهر في إسناد الرواية الثانية لهذه المادّة الأخباريّة[1]، إذ يقول المتكلّم بعد ذكر أسانيد متداخلة ومتعدّدة لنفس الخبر أي بعد ذكر مصادر مختلفة له "وقد جمعتُ رواياتهم وذكرتُ اختلافهم فيها، **وأكثر اللّفظ للجوهريّ**"

حتما إنّ وراء هذا التجميع والتكثيف صاغة يتصرّفون في مادّة مشتركة كلّ منهم يخرجها على الهيئة التي توافق منطلقا يصدر عنه وثقافة يتحرّك فيها وموقعا حضاريّا هو متحكّم في مختلف مناحي الخطاب، وبالتالي فإنّ وراء هذه الصياغات المتعدّدة لذات النوى طبقات روائيّة تختلف محالّها ومنازلها ولها الدور الأكبر في وسم الخبر بسمات فيه تخصّه وتميّزه. غير أنّا قبل تعرّضنا إلى منزلة الراوية ودوره في تصريف

1- م.ن: 11/ 33.

النواة الأخباريّة ينبغي أن ننتهي من صورة ثانية أو خطّة ثانية يعتمدها رواة الأخبار في رصد صورة الجاهلية، وهي اعتماد التواصل الأخباري، وهو مدار المستوى الثاني من هذا التحليل.

ب- الصورة الثانية: التواصل الأخباري في رصد صورة الجاهلية.

إنّ وقوفنا على هذه الخطّة راجع إلى ما تمثّله من أهمية في تجاوز حدود الخبر الضيّقة واعتماد تحويل الرواة في تبديل زاوية النظر وفي مواصلة أحداث الخبر، وهي خطّة تقوم على غير النهج الذي قامت عليه الخطّة في الصورة الأولى، إذ أنّ تحويل الرّواة في هذا الصنف من الأخبار لا يقطع تسلسل الخبر ولا يستأنف خبرا جديدا وإنّما هو يُعتَمَد لأجل تحويل مواقع النظر. وفي هذه الخطّة يروي المتكلّم الخبر الواحد باعتماد أصوات عديدة يُجمّعها ويُرشّح منها الأكمل والأوفى، ليُخرج خبرا راجعا في أصل إسناده إلى مجموعات متغايرة من القائلين، غير أنّ ترتيبه وتنظيمه وضبط عناصره مسائل تخصّ المتكلّم، باعتبار أنّه يجول في روايته من رواية إلى أخرى أو هو يتّخذ منطلقا له روايات متعدّدة ليروي مقطعا من هذه الرواية وآخر من رواية أخرى وهكذا دواليك إلى أن يتمّ الخبر في صورته النهائيّة وقد رُمِّم وهُذِّب واكتمل.

إنّ ما نعتناه بالتفاعل التواصليّ هو ضربٌ ثان من تعاضد الأخبار وتراكبها لإنتاج الصورة الواحدة التي تظهر فيها صورة المتكلّم بشكل بيّن، منسّق بين الروايات، مدير لها، في إخبار لا يستند إلى تجديد الخبر بتبديل حلقة الرواية وإنّما هو متى أضرب عن رواية وأتى بأخرى يُواصل الأحداث من المحلّ الذي انتهى إليه في الرواية الأولى.

وتظهر هذه الخطّة الروائيّة في عدد من الأخبار نتّخذ منها خبرين مطوّلين نموذجا لدراستنا وهما خبر عديّ بن زيد[1] وخبر حرب البسوس[2].

ففي خبر عديّ بن زيد نلحظ تجميعا لمجموعات من الرواة منها استقى المتكلّم هذا الخبر:

1- م.ن: 2/ 80.

2- م.ن: 5/ 29.

- المصدر الأوّل: عليّ بن سليمان الأخفش ← السكّري ← **محمّد بن حبيب** ← ابن الأعرابي.
- المصدر الثاني: **هشام بن الكلبي** ← أبوه.

وبهما يستهلّ المتكلّم خبره، ويُرشّح منهما رواية ابن الكلبي فيتّخذها منطلقا لروايته ومبتدأ، ثمّ بعدا هو يجمع بين عدد الأصوات المعروضة في السند ليُتمّم ما كان قد بدأه. منها ابن حبيب وهو الواقع في محلّ الناقل للخبر عن ابن الأعرابي، وهشام بن الكلبي عن إسحاق بن الجصّاص وحمّاد الراوية وأبي محمّد بن السائب. وبالرغم من أنّ المتكلّم يُعلن في هذه البداية أنّه يصدر عن روايتين أساسيتين يُراوح بينهما، وهما ابن حبيب وهشام بن الكلبي، إلاّ أنّا نلحظ التجاءه إلى راوية رأس ثالث هو المفضّل الضبّي الذي يدخل فضاء الرواية دون سابق إعلام.

ويُبدي الخبر بتجميع هؤلاء الرّواة-القائلين صورة للمتكلّم تختلف ملامحها عمّا أظهرناه من طرائق مؤالفة بين الأخبار في الشق الأوّل من هذه المباشرة، فهو قائم على خطّة في الصياغة تجعل صورة المتكلّم سافرة في شتّى تصاريفه وإدارته لمناحي الخطاب وفي توزيعه لمواقع الرؤية في بناء خبر يقوم على التواصل الحدثي وإن تبدّلت فيه حلقات الرواية.

فالمتكلّم يجمع عددا من الرّواة الأصول أو المصادر يذكرهم تباعا، وهو في كلّ ذلك يجول بين الجمع والإفراد وبين الترشيح والإقصاء. فينطلق من إثبات عدد من المصادر التي استقى منها الأحداث، غير أنّه لا يكتفي بهذه المصادر وإنّما هو متّكأ في لاحق الخبر إلى عدد آخر من الرّواة الذين مثّلوا مصادر له نوّع بها من الأصوات المتكلّمة ومن الزوايا التي منها يُنظَر إلى الحدث. فالمتكلّم لم يُركّز الرؤية على عديّ بن زيد وإنّما هو انطلق باحثا في أصوله وفي الممهّدات التي انتهت به إلى الحدث المقصود، فعديّ بن زيد كان نتاج جملة من العلاقات التي نُظهرها في الجدول التالي:

دائرة عديّ بن زيد	دائرة المعاداة	دائرة المصاحبة	دائرة المصاهرة
أيوب	آله باليمامة	- زيد بن قلاّم. - ملوك الحيرة	نسب مع زيد بن قلاّم
زيد	رجل من بني امرئ القيس.	آل قلاّم.	امرأة من آل قلاّم.
حمّاد	----------	فـرّوخ ماهـان أحـد الدهاقين.	امرأة من طيّء.
زيد	---------- ---------- ---------- ------	- فـرّوخ ماهـان وابنه شاهان مرد. - كسرى. - أهل الحيرة. - المنـذر بـن مـاء السماء.	نعمـة بنـت ثعلبـة العدويّة.
لا	- ابن مارينا. - الأسود بن المنذر. - النعمان بن المنذر.	- المنـذر بـن مـاء السماء. - النعمان بن المنذر. - كسرى.	هند بنت النعمان.
زيد.	- النعمان بن المنذر.	كسرى.	

تؤسّس مجمل هذه العلاقات الخبر في تواصله وامتداده، فالمتكلّم لم يقصر حديثه على عديّ بن زيد، وإنّما هو وسّع مجال الإخبار، أي أنّه قد وسّع مجال الرؤية فلم يقصر نظره في الشخصيّة المُرَشَّحة مركزا للتبئير[1] وإنّما هو تعدّاها إلى شخصيّات

1- "*Focalisation* ». Jean-François Jeandillou : « ***L'analyse textuelle*** ». Armand Colin/Masson, Paris 1997. p118.

أخرى على صلة مباشرة أو غير مباشرة بهذه الشخصيّة مثّلت مراكز رؤية المتكلّم والقائلين.

يستهلّ المتكلّم خبر عديّ بن زيد بتتبّع أصوله والأحداث العالقة بأجداده، فيكون الحدث المنطَلَق بيان سبب استقرار آل عديّ بالحيرة وما نتج عن ذلك من أفعال، ثمّ يُتدرَّج بالأحداث حدّ بلوغ إلى قصّة عديّ وآثارها.

ونتبيّن من كلّ هذه الملاحظات الدور المهمّ للمتكلّم التي تناول عددا من القائلين ووزّع عليهم أدوار الرواية، فلقد أسند المتكلّم رواية وقائع أيّوب بن محروف وزيد بن أيّوب وحمّاد بن زيد وزيد بن حمّاد وبداية قصّة عديّ بن زيد إلى صوتين وحّد بينهما وهما: ابن الأعرابي وابن الكلبي، ولم يشر المتكلّم إلى ما يمكن أن يكون بينهما من اختلاف في الرواية، فجمع بين صوتيهما وأخرج هذه الأحداث في صياغة واحدة، فيها سلّط الرؤية على آل عديّ بن زيد نظرا في أسباب حلولهم بالحيرة وقصّةً مجملةً لتقلّبهم في عدد من العلاقات التي مهّدت لعديّ بن زيد أن يكون على الهيئة التي أُخرج عليها. ولذلك نلحظ أنّ رواية القائلين المُعلَنين قد تركّزت على متابعة الأحداث الكبرى لهرب أيّوب بن محروف من اليمامة إلى الحيرة بسبب دم كان يُلاحقه ووصله جملةً من العلاقات في المكان الذي وفد عليه تمهّد لحسن معاش أبنائه ومجمل خلفهم، وقد ختم القائلون هذا الحدث بعبارة تصل السابق بلاحق هو نتاجه وحصيلته، وهي "وقد كان أيّوب اتّصل قبل مهلكه بالملوك الذين كانوا في الحيرة وعرفوا حقّه وحقّ ابنه زيد ابن أيّوب، وثبت أيّوب فلم يكن منهم ملك يَملِكُ إلاّ ولولد أيّوب منه جوائز وحُملان"[1].

وما نلحظه في هذه الرواية أنّ القائلين قد ركّزوا مجال الرواية على حدث مهمّ هو المدار الجالب لمختلف الأحداث، وهو تركّز آل عديّ بالحيرة ووصلهم بعلاقات سياسيّة تضمن لهم حسن البقاء، فكانت هذه الأحداث المنجبة لعديّ بن زيد بمثابة التمهيد لخبره، وهو تمهيد محكم البناء لبذره أحداثا تُمكّن عديّ بن زيد من جملة

1- م.ن: 2/ 81.

الأفعال التي يأتيها لاحقا. وقد كان المتكلّم الجامع[1] لمختلف الروايات على وعي تامّ بأنّه يبني خبر عديّ بن زيد ولذلك جاءت أخبار آله متسارعة يغلب عليها الإجمال، مع اختيار بعض المواقع الحدثيّة التي رشّحها في روايته هذه وهي المواقع الخاصّة أساسا بعمليّة التوالد بلوغا إلى إيجاد الشخصيّة التي يُراد الحديث عنها موصولة بحدث مخصوص. ومن هذه المواقع المُرشّحة بيان المراحل التي قطعها أيوّب جدّ عديّ بن زيد للحلول بالحيرة واتّخاذ مركز مهمّ فيها يُحقّق الشرف له ولآله من بعده[2]، وكذلك إظهار الأخذ بالثأر من زيد بن أيّوب على يد رجل من بني امرئ القيس، القوم الذين هرب منهم أيّوب خوفا من دم يُلاحقه[3]، وقد أورد القائل الحوار الدائر بينهما وبعضا ممّا اختلج في نفسيهما وكأنّه كان بينهم أو كأنّه كان داخلا فيهما معا، من ذلك صوت المتكلّم وقد ظهر متخلّلا حكاية القول: "فقال –وقد عرف فيه شبه أيّوب–"[4]، ومن ذلك أيضا قوله واصفا حال زيد بن أيّوب بعد أن ارتاب من أسئلة صاحبه: "واستوحش من الأعرابي وذكر الثأر الذي هرب أبوه منه"[5]، فهي مواقف كان للمتكلّم فيها الدور المهمّ، فما يبدو على مستوى سطح الأخبار تجرّدا من المتكلّمين أو القائلين هو في العمق دخول في ذوات الشخصيات وملازمة لها في مواقف لا شاهد فيها و لا ناقل وإنّما ما حدث بين هاتين الشخصيتين قد حدث في انعزالهما وانفرادهما، فمن أدرى القائل ومن ورائه المتكلّم أنّ هذا القول المنقول هو القول الدائر بين زيد بن أيّوب وصاحب الثأر، ومن أدراه أنّ ما دار في خلد زيد بن أيّوب من شكّ وريبة قد حصل بالفعل، بل إنّ تدخّل هذا الصائغ لظاهر فيما ينتقيه من عبارات للتعبير عن الفعل،

1- انظر ديكرو في حديثه عن صورة من الصور التي يكون عليها المتكلّم من حيث هو "مجمع" *collectivité* أصوات.

- Oswald Ducrot : « ***La notion de sujet parlant*** » in « *Recherches sur la philosophie du langage* ». n°2. 1982.p74.

2- *كتاب الأغاني*: 2/ 80. 81.

3- م.ن: 2/ 81. 82.

4- م.ن: 2/ 81.

5م.ن: 2/ 82

فقوله: "ثمّ إنّ الأعرابي اغتفل زيد بن أيّوب فرماه"[1] دالّ على أنّ صاحب الثأر لم يواجه أيّوب بن زيد وإنّما هو قد غافله لتحقيق فعله، فعيْن من هذه التي ترقب هذه الوقائع وتنقلها؟ وأذن من هذه التي تنصت الأقوال والأفكار وتعبّر عنها؟ إنّا حتما إزاء فعل الحكاية وسلطان الراوي المتكلّم.

إنّ هذه العين الراقبة لا ترى من الأشياء إلاّ ما يُمهّد السبيل لظهور عديّ بن زيد لأنّه محلّ التبئير الأصليّ وكلّ ما عداه متفرّع عنه راجع إليه. ومن هذه المواقع الحدثيّة التي يُركّز عليها المتكلّم المبئِّر[2] نظره فيسعى إلى تفصيل القول فيها على عَدوه المتسارع في طيّ مراحل حدثيّة وزمنيّة متباعدة والغضّ عن عدد من الأحداث الموصولة بالشخصيّات المذكورة، بيان تدرّج سلف عديّ بن زيد في مراتب العلم كتابة وقراءة للعربيّة والفارسيّة حدّ بلوغ أعلى المراكز وذكر الوسائط التي حقّقت لهم ذلك وأهمّها شخصيّة "فرّوخ ماهان"[3]، هذا الدهقان المرزبان الذي يُوصَل بحمّاد بن زيد بن أيّوب فيكون الأداة التي تبلّغ أبناءه وأبناءهم محلاً من كسرى محمودا. وما عدا ذلك فإنّ كلّ هذه الشخصيّات السابقة لقصّة عديّ بن زيد تُطوى أحداثها ووقائعها ولا يُبقي منها المتكلّم إلاّ زواجا منه يكون الخلف وهكذا دواليك حتّى بلوغ الخلف الأخير وهو زيد بن عديّ بن زيد آخذُ ثأر أبيه من النعمان بن المنذر، وفي هذه العلاقات بين الشخصيّات شبكة شائكة نفصّل القول فيها في الفصل التالي.

وإلى هذا الحدّ من الإخبار تجتمع الأصوات في صياغة واحدة ورؤية مشتركة، وبداية من تدخّل عديّ بن زيد في تنصيب النعمان ملكا على الحيرة يظهر الخلاف في صياغات الرواة ويستعمل المتكلّم أدواته لإظهار هذا الخلاف بغاية إثراء الخبر وإن كانت بنية الحدث الهيكليّة واحدة. فتُثبَت روايةٌ عدد أصواتها فهو ذاكرٌ ابن حبيب[4] والرواية ليست له وإنّما هو القناة المبلّغة لصوت ابن الأعرابي، ويأخذ رواية هشام ابن

1- م.ن.ص.

2- *Focalisateur*".

3- *كتاب الأغاني*: 2/ 83.

4- م.ن: 2/ 78.

الكلبي وقد قام فيها بتجميع عدد من الرّواة هم إسحاق بن الجصّاص وحمّاد الراوية وأبو محمّد بن السائب ألف بين أصواتهم وأخرجها صياغةً واحدة يأخذها المتكلّم فيجمعها مع رواية ابن الأعرابي ليُخرجها هو أيضا في صياغة موحّدة[1]. ويكون تحويل زاوية النظر في هذا الحدث بالذات دون غيره ليُركّز المتكلّم صوتا آخر ورؤية مخالفة بعض الشيء هي رؤية المفضّل الضبّي "وأمّا المفضّل الضبّي فإنّه ذكر أنّ عديّ بن زيد..."[2] وكانت الإضافة في رواية المفضّل الضبّي متمثّلة في إيجاد جهة تُموّل حملة النعمان في بلوغه إمارة الحيرة، ولذلك فإنّ المتكلّم يُضيف هذه الحادثة من رواية الضبّي غير أنّه لا يعيد باقي الأحداث وإنّما هو يُثبت مماثلتها لرواية ابن الكلبي السابقة الذكر "ثمّ ذكر من قصّة النعمان وإخوته وعديّ وابن مرينا مثل ما ذكره بن الكلبي"[3]. وهو يُفرد أيضا رواية المفضّل الضبّي في بيان سبب سجن النعمان لعديّ بن زيد، ثمّ يعود بعد ذلك إلى تجميع الأصوات في رؤية تواصليّة لا يُقطع فيها الخبر وإنّما ما اجتمع من أصوات راوية هي مُكمّلة لما كان المتكلّم قد ابتدأه استنادا إلى الضبّي. فبعد أن كان الصوت الراوي مفردا "قال" يصبح جمعا وتتوحّد الأصوات المعلنة في رواية هذا الخبر لبيان ما صدر عن عديّ بن زيد في سجنه وما لاقاه من مكائد، ولبيان السعي إلى إخراجه ممّا هو فيه والفشل في ذلك بلوغا إلى موته.

ويجد المتكلّم في رواية حمّاد الراوية بيانا لاستجارة النعمان بقبائل العرب لإيوائه بعد أن كاد له زيد بن عديّ عند كسرى ثأرا لأبيه، فيُرده راويةً ويُخرج صوته من جمع الأصوات. ثمّ أخيرا يقع تفصيل الأصوات في حدث موت النعمان فيثبت المتكلّم عددا من الروايات، رواية حمّاد الأولى التي تنتهي بإثبات موت النعمان في سجنه بخانقين وهو المكان الذي خنق فيه النعمان عديّ بن زيد حتّى قتله، وإلحاق حمّاد بالكوفيين الذين يذهبون إلى إقرار موته بساباط في سجنه، ورواية ابن الكلبي الذي يذهب إلى أنّ موته كان تحت أرجل الفيلة بأمر من كسرى. ويفتح هذا الخبر بتعدّد

1- م.ن.ص.

2- م.ن: 2/ 95.

3- م.ن.ص.

رواياته جملة من الأخبار العالقة به أو التي يستدعيها مقام التوضيح والبيان، فالكلام يدعو بعضه البعض والأخبار تتضايف، فمن ذلك الحديث عن ترهّب هند بنت النعمان وإيراد أخبار في سبب هذا الترهّب، والبحث في علاقة هند بالنعمان هل هي ابنته أم أخته.

إنّ العين الراصدة في هذا الخبر ليست عين ابن الأعرابي ولا هي عين ابن الكلبي ولا هي عين ابن حبيب ولا هي عين غيرهم من الرّواة المذكورين أصولا لإنتاج الخبر وإخراجه من فضاء الإمكان أو الحدوث العيني إلى فضاء التحقّق اللّغوي وإنّما هي عين المتكلّم ترصد الوقائع وتجمّعها وتُحقّق فيها وتُمعن النظر وتتخطّى هذا الحدث وتُركّز النظر على الآخر، وكذا الصوت إذ يعود إليه باعتبار أنّه جامع أصوات مختلفة، يُخرجها في نهاية المطاف صوتا مُوَحّدا مجموعا. إنّ العين الراصدة لهذه الوقائع على تغاير مواقعها وأزمنتها هي عين عليا لا تنظر الأحداث في ذاتها وإنّما هي ناظرة في روايتها، فهي عين تُسَلّط على طبقات من الروايات تتراكم فيها الرؤية وتتداخل الأصوات حدّ فقد الرؤية الأولى والصوت الأوّل، فيحتلّ المتكلّم بذلك مركز منتهى الرّواة أو هو في محلّ الراوي المنتهى الذي يُغلّب صوته على مُجمل الأصوات المُستَحضرة ويُركّز رؤيته بإعادة تنضيده للمادّة الخبريّة وبالجمع في صياغتها بين عدد من الأصوات والرؤى لا مُوحّد بينها ولا جامع سواه.

إنّ في خبر عديّ بن زيد صنوفا من الحكاية مميّزة وطرقا في القصّة تُعلي من شأن الخبر وتخالف ما تأسّس عليه في صورته العامّة من بساطة في السرد وتسارع في بناء أحداثه. إنّه الخبر في أوج نضجه، يتبوّأ فيه المتكلّم موقعا بيّنا ويتّخذ له صوتا مع مجموع الأصوات الموجودة.

ويمكن أن نتبيّن نفس الظاهرة بطريقة أجلى وأوضح في خبر ثان قام على ما قام عليه الخبر الأوّل من تجميع لأصوات الرّواة ومن مناوبة للإخبار ومن قيام الخبر على التواصل الحدثي وإن تبدّل رُواته، وهو خبر حرب البسوس[1]، إذ لا يجد المتكلّم

1- م.ن: 5/ 29

حرجا في رواية المعنى وإسناده إلى مصادره والتصرّف في اللّفظ، وهي ظاهرة فريدة تُسنَد فيها الأقوال إلى رُواة يتحمّلون معناها دون اللّفظ. وفي هذا الخبر يظهر صوت المتكلّم جليّا إذ هو الرأس الذي يُوزّع أدوار الرواية، وهو يراوح في الإسناد بين راويتين هما أبو برزة ومقاتل وهما القائلان الأكثر حضورا والأغلب اعتمادا، إذ يستند إليهما المتكلّم روايةً بالتناوب في تصوير هذا اليوم. ولقد أثبتنا الخطّة المعتمَدة في توزيع أدوار الرواية على الشخصيّات القائلة في هذا الخبر في جدول خاصّ.

تبديل الرّواة	نوع السرد	المقطع
أبو عبيدة عن مقاتل الأحول بن سنان بن مرثد بن عبد بن عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد أخي بني قيس بن ثعلبة. رواية ابن الكلبي ← أخبرنا محمّد بن عبّاس اليزيدي عن عمّه عبيد اللّه عن ابن حبيب عن ابن الأعرابي عن المفضّل 1.	أصل الرواية المُعلَن في بداية الخبر.	تقديم الوضع الأوليّ وتركيز الحديث عن موضع كليب وما بلغه من سيادة.
قال أبو عبيدة: قال أبو برزة القيسي 2:	سرد إعادي. 1	ضبط الوضع الأوليّ وتحديد مواقع الشخصيّات الأساسيّة أي كليب وجسّاس.
وقال مقاتل وفراس 3:	سرد تواصلي	أمّ جسّاس.
وقال أبو برزة 4:	سرد تواصلي.2	نزول خالة جسّاس (البسوس) على جسّاس.

1- م.ن.ج.ص.
2-م.ن.ج.ص.
3- م.ن:5/ 30.
4- م.ن.ج.ص.

تبديل الرّواة	نوع السرد	المقطع
أخبرني عليّ بن سليمان قال قال أبو برزة 1:	سرد تواصليّ.3	بدء التوتر في الأحداث وهو توتر ناتج عن السؤال وجوابه. وفيه ضبط لعلاقة المصاهرة بين جسّاس وكليب ونقل للحديث الدائر بين كليب وصاحبته.
وزعم مقاتل 2	سرد إعاديّ	تفصيل بدء التوتر أو ضبط السبب الأساسي للنزاع بين كليب وجسّاس.
قال فراس 3	سرد تواصليّ	إصابة كليب ناقة البسوس وهو يواصل حديثا كان مقاتل قد ابتداه.
قال مقاتل 4	سرد تواصليّ	قتل كليب.(قتله عمرو بن الحارث)
وقال أبو برزة 5	سرد تواصلي/ إعادي. 4	فيه مواصلة ما كان قد ابتدأه من إخبار عن حديث كليب مع صاحبته. محاصرة كليب لجسّاس وآله. وقتل جسّاس له.
قال أبو برزة 6	سرد تواصلي. 5	عطف المزدلف على كليب.
وأمّا مقاتل فزعم 7	سرد إعادي.	البحث في قاتل كليب.

1- م.ن.ج.ص.
2- م.ن.ج.ص.
3- م.ن: 5/ 31.
4- م.ن.ج.ص.
5- م.ن.ج.ص.
6-م.ن: 5/ 32
7- م.ن.ج.ص.

تبديل الرّواة	نوع السرد	المقطع
قال أبو برزة 1	سرد تواصلي6.	عودة جسّاس لأله بعد قتله كليبا.
وزعم مقاتل 2	سرد تواصلي	محاورة شعريّة بين جسّاس وأخيه بعد مقتل كليب.
قال أبو برزة 3	سرد تواصلي. 7	موقف همّام أخي كليب.
وزعم مقاتل 4	سرد تواصلي/ إعادي.	موقف همّام من قتل أخيه.
وقال المفضّل في خبره 5	سرد تواصلي.	آثر قتل كليب (ابتدأ المفضّل خبره حيث انتهى مقاتل وأبو برزة).
قالوا جميعا 6	سرد تواصلي.8	وصف الحرب ومدّتها في وحدة مجملة تؤسّس لبيان أيّام هذه الحرب.
قال مقاتل 7	سرد تواصلي.	يوم واردات ومقتل بُجير.
قال أبو برزة 8	سرد تواصلي.9	يوم واردات.
قال مقاتل 9	سرد تواصلي	يوم القصيبات.
قال مقاتل 10	سرد تواصلي.	يوم قِضَة.

1- م.ن: 5/ 33.
2- م.ن.ج.ص.
3- م.ن.ج.ص.
4- م.ن.ج.ص.
5- م.ن: 5/ 34.
6- م.ن:ج.ص.
7- م.ن: 5/ 35.
8- م.ن.ج.ص.
9- م.ن: 5/ 36.
10-م.ن.ج.ص.

تبديل الرّواة	نوع السرد	المقطع
قال أبو برزة 1	سرد إعادي/ مفصّل.10	يوم قِضَة.
وأمّا مقاتل فزعم أنهم قالوا 2 قالوا 2	سرد إعادي/ توضيحيّ.	التحالق (وهو قسم من رواية مقاتل بحثا عن سبب تسمية يوم قِضة بيوم التحالق).
وزعم مقاتل 3	سرد تواصلي/ استرجاعي.	مقتل همّام بن مرة بن ذُهل بن شيبان.
عامر بن عبد الملك المسمعي 4 المسمعي 4	سرد تواصلي	رئاسة بكر.
قال فراس 5	سرد إعادي	رئاسة بكر
وقال مقاتل 6	سرد تواصلي لما أقرّه فراس في روايته السابقة عن رأس القوم في يوم قضة.	سبب دخول الحارث بن عبّاد الحرب.
وقال أبو برزة 7	سرد إعادي.11	مقتل بجير ابن الحارث.
وزعم أبو برزة 8	سرد إعادي.11	سبب دخول الحارث الحرب

1- م.ن:.ج.ص.
2- م.ن.ج. ص38.
3- م.ن.ج. ص.
4-م.ن: 5/ 39.
5- م.ن.ج.ص.
6- م.ن.ج.ص.
7- م.ن: 5/ 40.
8- م.ن: 5/ 41.

تبديل الرّواة	نوع السرد	المقطع
قال مقاتل 1	سرد تواصلي.	خاتمة تخصّ الأدوار الحربيّة يوم قضة.
وقال فراس 2	سرد إعادي.	الاختلاف عن رأس القوم.
قال مقاتل 3	سرد تواصلي.	حيلة المهلهل للهروب من الحارث.
وزعم حجر أنّ 4	سرد إعادي	حيلة المهلهل للهروب من أسر الحارث.
وأمّا مقاتل فقال: 5	سرد إعادي.	جزء من المقطع.
قال مقاتل: 6	سرد تواصلي.	قتل جحدر لعمرو وأخيه عامرا.
قال عامر بن عبد الملك المسمعي حدّثني رجل عالم قال: 7	سرد إعادي	قتل جحدر لعمرو وأخيه عامرا.
قال مقاتل: 8	سرد تواصلي.	خروج المهلهل من الحرب ومغادرته إلى أرض اليمن.
قال مقاتل: 9	سرد تواصلي.	بيان المشاركين في الحرب.

1-م.ن.ج.ص.
2- م.ن.ج.ص.
3- م.ن.ج.ص.
4- م.ن: 5/ 42.
5- م.ن.ج.ص.
6- م.ن.ج.ص.
7- م.ن.ج.ص.
8- م.ن:5/ 43
9- م.ن: 5/ 44.

تبديل الرّواة	نوع السرد	المقطع
وقالوا جميعا: 1	سرد تواصلي.12	موت جسّاس.
قال عامر بن عبد الملك: 2	سرد تواصلي/ استرجاعي.	القتلى.
أخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال أخبرنا الحسن بن الحسين السكّري قال حدّثنا محمّد بن حبيب عن ابن الأعرابي عن المفضّل عن أبي عبيدة: 3	سرد إعادي/ إفراد مقطع خاصّ لبيان موت جسّاس. وكان قد ذُكِر قبلا.	موت جسّاس.
قال أبو الفرج أخبرني محمّد بن الحسن بن دُريد قال حدّثني عمّي عن العبّاس بن هشام عن أبيه عن الشرقي بن القطامي قال 4	سرد تواصليّ/ استرجاعيّ.	آثار مقتل كليب في وجنه/ أخت قاتله.

ولقد بان لنا من هذا الجدول أنّ المتكلّم يُسخّر أصواتا عديدة في بناء خبره، فلا هو يضطلع بالإخبار بصوته فردا ولا هو يُطلق العنان للرُّواة يُعبّرون عن الأحداث مُثبتا تجرّده عنها، فله الدور الرئيس في بناء الخبر على مستوى ترتيب الأحداث واختيار المقاطع وتسوية الروايات، وترميم الأحداث التي تبدو له في حاجة إلى مزيد بيان، وإن استعان بقائلين هم في نهاية المطاف التُكأة التي يستند إليها. ونلاحظ فيما

1- م.ن: 5/ 45.
2- م.ن. ج. ص.
3- م.ن: 5/ 52.
4- م.ن: 5/ 53.

تقدّم من صياغة لأحداث الخبر أنّ المتكلّم إضافةً إلى مداولته الإخبار بين عدد كبير من القائلين يتصرّف في الترتيب الزمني للخبر ليُخرج الخطاب على هيئة بيّنة من التداخل وعدم الالتزام بالبنية التراتبيّة التي كانت عليها الأحداث اتّصالا للاّحق بسابق ينتج عنه ويتأسّس عليه، فنرى أنّه يعود في مراحل حدثيّة عديدة إلى رواية أحداث سابقة في الزمن[1] أو هو يستبق[2] بعضا من الأحداث فيوردها قبل حدوثها، وله في ذلك الدور الواضح تجليّا وظهورا في تصريف أحداث الخبر.

تبدو صورة المتكلّم منذ مبتدأ الخبر في إعلانه الاستناد إلى جملة من الرواة يستقي منهم مادّة الخبر دون اللّفظ "فجمعتُ من روايتهم ما احتيج إلى ذكره مختصر اللّفظ كامل المعنى"[3]، ويورد المقطع الأوّل من الخبر وقد جمع فيه بين هذه الأصوات المتباعدة، ولذلك فهو لم يورد قولهم وإنّما أعلن تصرّفه فيه باعتماده نقلا غير مباشر لأقوال القائلين، فأثبت بذلك الوضع الأوليّ في هذا الخبر بذكره للحال التي كان عليها كليب من عزّ، غير أنّ فيه من الإجمال ما يختصر جلّ الخبر بإعلانه في منتهى التقديم موت كليب "فقتله جسّاس بن مرّة"[4] وهي عبارة تسوّغ لفعل الحكاية عن سبب القتل وطريقته وآثاره ونتائجه، إذ هي تُمثّل سبقا سرديّا يجاوز به المتكلّم الأحداث ويتّخذ موقفا قبل الأوان بإقراره أنّ قاتل كليب هو جسّاس والحال أنّه في ما يعتمده من روايات يُظهر خلافا حول قاتل كليب. وقد أبنّا في الجدول المثبَت أعلاه ما اعتمده المتكلّم في رواية الأحداث من سردٍ إعادي بروايته للحدث الواقع مرّة واحدة في عدد

1- نشير أساسا إلى وفرة إحالات الأصبهاني إلى أحداث مذكورة في أخبار سابقة وهو بذلك على وعي تمام بالعلاقات الحاصلة بين هذه الأخبار. انظر على سبيل المثال، "كتاب الأغاني": 5/ 22: "وقد مضى خبره مشروحا في أخبار عديّ بن زيد.."

2- يعمد الأصبهاني في أخبار عديدة إلى تقديم مجمل لبعضٍ من الأحداث التي يعرض لها لاحقا، انظر على سبيل المثال، "كتاب الأغاني": 5/ 32. "وقال العبّاس بن مرداس السُّلميّ يُحذّر كليب بن عهمة السّلميّ ثمّ الظفريّ لمّا مات حرب بن أميّة وخنقت الجنّ مرداسا وكانوا شركاء في القرية فجحدهم كليب حظّهم منها – وسنذكر خبر ذلك في آخر هذه الأخبار إن شاء الله تعالى-".

3- م.ن: 5/ 29

4- م.ن.ج.ص.

من الصياغات هي في الغالب محافظة على نفس النواة الأخباريّة ولذلك نلاحظه يُحدِث تفاعلا بين الرّواة وبين الروايات إذ يُكمّل الحدث المسند إلى "مقاتل" الحدث المسند إلى "أبي برزة" ولا قطيعة بينهما وكأنّه واضع أمامه الروايتين يأخذ من هذه تارة ومن تلك طورا.

ولقد حاولنا في الجدول[1] الذي رصدنا فيه خطّة المتكلّم في سرد الخبر وطرائق تصريفه للمادّة الخبريّة باعتماده المراوحة والمعاودة أن نقف عند دور لا يقتصر على هذا الخبر أو ما شاكله وإنّما يُمكن أن يُجرى على كامل كتاب الأغاني من حيث أنّ صوت المتكلّم فيه لا يخبو وإن وظّف مادّة أخباريّة منقولة عن كتب سابقة أو مرويّة عن رواة اتّخذهم مصادره. فالحدث في هذا الخبر هو حرب البسوس وقد قام بناؤه على ثلاثة مقاطع أساسيّة هي البحث في سبب هذه الحرب والحديث في وقائعها ثمّ أخيرا بيان نتائجها وقد وردت هذه المقاطع على هيئة من التداخل وعدم الالتزام بالترتيب الزمني الذي يصل الوقائع، إذ أنّ المتكلّم سعى جاهدا أن يُدخل على هذا النظام جملة من السوابق[2] واللّواحق[3] خرجت به عمّا ألفناه في الأخبار المستقلّة بذاتها القائمة على مشاكلة الخبر للخطاب، وجنوح المتكلّم إلى هذا التداخل كان بسببٍ من هذه الأصوات المتعدّدة التي استدعاها للاستناد عليها في تقديم مادّته الخبريّة وبسبب من كثافة المادّة الحدثيّة التي لديه، فإن تمعنّا جليّا أدركنا أنّ المتكلّم قد اعتمد في هذا الخبر وفقا لما أعلنه هو على:

- رواية أبي عبيدة التي يستند فيها إلى مقاتل الأحول بن سنان بن مرثد بن عبد بن عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد أخي بني قيس بن ثعلبة.
- رواية أبي عبيدة التي يستند فيها إلى أبي برزة القيسي وهو من ولد عمرو بن مرثد.
- رواية الكلبي.

1- انظر الجدول رقم 4 الوارد في الملحق ص؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟.

2 -« *analepses* ». Gerard Genette : « ***Figures III*** ». p : 90.

3 -« *prolepses* ». Gerard Genette *:* « ***Figures III*** ». p : 105.

- رواية المفضّل.
- رواية فراس بن خندق.
- رواية عامر بن عبد الملك المسمعي.
- رواية حجر.
- رواية الشرقي بن القطامي.
- رواية المفضّل عن أبي عبيدة.

لقد وظّف المتكلّم هذه الأصوات لبناء خبره فبان وكأن لا فضل له فيه والحال أنّه راجع إليه بقدر مهمّ على مستوى الترتيب والاختيار وبناء المقاطع والموازنة بين الروايات، وعلى مستوى الصياغة أيضا في بعضٍ من الأخبار التي يجمع فيها بين عدد من الروايات ويقرّ بإجمالها وإخراجها بصوته. فهو يُوزّع الأدوار وينتقي الأحداث، وقد كان صوته حاضرا منذ البداية اضطلاعا بإجمال الوقائع وإنتاج خلاصة اتّخذها منطلقا لتقديم هذه الروايات وهو جامع فيها بين إظهار هذه الأصوات ساعة يُفرّق بينها ويُميّز فيظهر الخلاف القائم بين هؤلاء في رؤيتهم لحدث مخصوص وهو الجامع بينهم إذ يصل حديث الواحد منهم بحديث الآخر وكأن رواية الأوّل لا تكاد تختلف عن رواية المُكمّل، وهو جامع بينهم أيضا في تجميع أقوالهم في صياغة واحدة والتعبير عنها بفعل "قالوا" فهل قالوا نفس اللّفظ أم قالوا نفس المعنى؟ إنّ الجواب على هذا السؤال بسيط باعتبار أنّ المتكلّم قد أظهر منذ المبتدأ أنّه يروي المعنى ويتصرّف في الصياغة. فإذا كان الإسناد فيما أثبتنا هو إسناد معنى أو هو إسناد مصدر تُستَقى منه المادّة الحدثيّة فإنّا بذلك إزاء خطاب يتشكّل ويتحمّل فيه صانعه مسؤوليّة إنشائه وتوجيه الرؤية فيه وما هذه الأسماء التي يُكثّف من وجودها إلاّ أدوات لإنجاز الخطاب تتكوّن داخله فهي شخصيّات مقولة قد أنتجها المتكلّم وأسند إليها الأقوال وهي في منتهى المطاف راجعة إليه فهو الذي يُرشّح من الروايات أو من أقوال هذه الشخصيّات ما بدا له خادما للمقام الذي بنى فيه خبره، فهو لا يُورد رواية أبي عبيدة أو الضبّي كاملة بل هو يأتي من الأسماء ما لا نعلم له مأتى إذ يُسمّي داخل المتن رُواة لم يَذكرهم في عرضه للروايات التي اتّخذها مصدرا لخبره ومن هؤلاء المذكورين عرضا

داخل الخطاب عامر عبد الملك وحجر والشرقي بن القطامي وفراس بن خندق فهؤلاء الرّواة قد اقتضاهم المقام الخطابي في اعتماده خطّة التنويع وعدم الإتيان بالرأي الفصل وكأن الخبر مكتسب لشرعيّة وجوده ممّا يُوجد فيه من اختلافات بين الرّواة، وفي هذه الحال يتنصّب المتكلّم قيّما على هذه الروايات يُوازن بينها ويُقارن فيأخذ من هذه قسما ومن تلك عبارة ليُخرج خطابا لا هو برواية هذا ولا ذاك وإنّما هو من صياغته هو، من حيث بناء الأحداث فيه وإن حافظ على العبارة في عدد من المواطن، لأنّه يشير إلى العبارات متى تفارقت واختلفت ويذكر الرواية بلفظ صاحبها.

لقد حاولنا في هذه المقاربة الوجيزة أن نبين دور المتكلّم في صياغة الخبر والمحلّ الذي يحتلّه ممّا يرويه باعتبار أنّنا إزاء طريقة في التأليف مخصوصة تتكاثف فيها الأصوات والرؤى، حدّ التعمية، وعلى ذلك كان فصلنا الإجرائيّ بين هذه الأصوات إلى متكلّم يتحمّل مسؤوليّة قوله وإن أوهم بتجرّده منه، وقائلين هم في محلّ الشخصيّات القائلة إذ ينتجها المتكلّم ويُحلّها في مواضع مختلفة إلاّ أنّها تظلّ داخلة في فضاء الخطاب يتصرّف فيها المتكلّم وفقا لخطّة في القول ينتهجها فيُصمتها أو يُنطقها ويُطلق لسانها بالقول متى شاء ويجمله أو يختصره إن لم ير من عرضه فائدة، وتلك هي رؤية المتكلّم المتحكّمة في بنية الخطاب وفي رصد صور الأحداث.

ووراء هذا الكون الخطابي الذي تتحرّك فيه هذه الكائنات ذات متكلّمة يظهر صوتها من وراء هذه الأصوات، فالمتكلّم راجع بالنظر إلى هذه الذات التي قد تحلّ فيها فتنكشف، وقد تنأى عنها فتتخفّى بها وهي في الحالتين الأصل والمصدر.

إنّ الذات المتكلّمة قد تقبّلت عددا من روايات هذه الأخبار -تاريخيّا- فصنّفتها وصفّفتها وابتكرت لها متكلّما قد تشقّق عنها فكان صورتها الخطابيّة، فما نُقِل من صور عن الجاهليّة يعود بالنظر إلى هذه الذات التي صنعت "كتاب الأغاني" وكانت حصيلة عصرها في التأليف ونتيجة زمانها في الرؤية، ولذلك فإنّها من موقعها الزمني هذا تُجمّع من الروايات مختلفها وتصنع خطابها بأصوات الآخرين، وهو خطاب وإن قام على استدعاء أصوات قائمة عليه راجع بالنظر إليه. ودليلنا على انتساب الصورة في إنشائها وتوجيه مقاصدها إلى الذات المتكلّمة أنّها حاضرة في القول، فيما تختاره من

الأصوات وفيما تُثبّته من شخصيّات، وفي إحلالها القائلين المحلّ الذي تراه. ونحن نستدلّ على ذلك بنظرنا في ما وظّفته الذات المتكلّمة من أخبار سابقة، باستدعائنا لآثار مغايرة مثّلت مصادر الذات المتكلّمة في "كتاب الأغاني".

لقد أقرّت الذات المتكلّمة في "كتاب الأغاني" أنّها تنقل قسطا من خبر حرب البسوس عن أبي عبيدة[1]، ومتى نظرنا في هذا الخبر وجدناه موحّد الصوت يُروى على لسانها وبصياغتها، وفيه من الإيجاز ما لم يظهر فيما أسندته الذات المتكلّمة إليه في خبر "الأغاني"، فبرجوعنا إلى الأصل[2] الذي أخذ منه صاحب "الأغاني" نتبيّن أنّه فعلا قد نقل عن أبي عبيدة قسطا من خبر حرب البسوس غير أنّ نقله هذا يؤكّد حضوره ذاتا فاعلة في القول، ولها رؤية مخصوصة للأحداث من خلال عدم المحافظة على وحدة هذا الخبر المنقول إذ تمّ تقسيمه إلى أجزاء فتشتّت وحدته العضويّة وغابت منه صياغة صاحبه الذي نضّد أقسامه وبنى مقاطعه على هيئة مخصوصة، ومن ذلك أنّه قد تصرّف في هذا المنقول بالزيادة والنقصان فحذف منه بعضا من الألفاظ والعبارات وأضاف إليه ما بدا له فيه منقوصا فسوّغ لنفسه بذلك أن يُدخل صوته ويُضيف معجمه إلى هذا الخبر، على شاكلة استبدال لفظة "فضمزت"[3] التي يستعملها أبو عبيدة بشرحها "فصمتت"[4]، أو تخلّيه عن بعض موتيفات التوسيع الموضّحة للحدث، كحذفه لعبارة تفيد ترديد الفعل أكثر من مرّة "...في سؤاله إيّاها مرّة بعد الأخرى"[5].

إنّ ما أدخلته الذات المتكلّمة على هذا الخبر من تغييرات وتحويلات جزئيّة وتصرّف في موتيفات التوسيع يجعل القول في منتهى المطاف راجعا إلى "الناقل" الذي لم

1- انظر الخبر في *كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق* لأبي عبيدة. مطبعة بريل. ليدن. 1908-1909. ج: 2- ص905-906-907.

2- م.ن.

3- *"كتاب النقائض"*: 2/ 905.

4- *"كتاب الأغاني"*: 5/ 30.

5- *"كتاب النقائض"*: 2/ 905.

يعد ناقلا وإنّما صاحب قول، يتصرّف في مادّة خبريّة قوليّة فيرتّبها وفقا لخطّة شدّ إليها كامل خطابه.

إنّ كلّ ذات متكلّمة لها مقاصد ممّا ترويه من أخبار ويبدو إلى هذا الحدّ أنّ الأخذ في هذا الفضاء الثقافيّ هو أخذ المعنى دون اللّفظ[1]، وإن لم نعدم فيما قمنا به من مقارنة لما توفّر لدينا من نصوص منقولة أخذا للفظ، غير أنّه أخذ محكوم دوما بالتبديل والتحوير والتحويل. فما قامت به الذات المتكلّمة في القول الناتج عن خطاب "الأغاني" من حذف واختصار[2] وتصرّف في بنية الخطاب هو دليل قائم على طريقة الأخذ في حال وجوده، إذ ساعة تُعلن الذات المتكلّمة أنّها تخرج من الخطاب وتترك المجال فسيحا للقائل يُعبّر عن قوله تنهض قيّمة على هذا الخطاب، وما الإسناد في هذا المقام إلاّ إظهار للنصّ المنطلق أو للمصدر الذي استقت منه هذه الذات الحدود الكبرى للخبر[3].

غير أنّ ما أثبتناه من دور الذات المتكلّمة في "كتاب الأغاني" في صياغة العناصر التركيبيّة للخبر والتصرّف في بعض الألفاظ بيانا وتوضيحا، لا ينفي دورا يمكن إدراكه بردّ النصوص بعضها إلى بعض، فمن خلال مقارنتنا للأخبار التي روتها هذه الذات ورفعتها إلى أبي عبيدة والأخبار التي وجدناها في "كتاب النقائض"، أدركنا وجها لهذه الذات فيه تكون ناقلة لهذه الأخبار، فالتصريف لاحق توزيع المقاطع وتنويع مصادر

1- ولعلّ هذه الظاهرة التي نُثبتها في بناء الخبر لا تعدم صلة تُلمّح بينه وبين الشعر في حديث النقد العربي القديم على أنّ السرقة واقعة في أخذ المعنى، مع اختلاف مهمّ أنّ ما عُدّ عيبا في الشعر يُعَدّ في هذا المقام خصيصة مهمّة بل هو من مقوّمات تكوّن الجنس، إذ أنّ الاتكاء على سابق يستند إليه صاحب الخبر من أوكد العناصر الواجب وجودها حتّى يتحقّق الجنس.

2 -يمكن أن تنظر في ذلك في عدد من المواقع النصيّة التي أوجز فيها صاحب خزانة الأدب مقاطع عديدة من الخبر الوارد في الأغاني، ومنها: كيفيّة تعلّم حمّاد بن أيّوب الكتابة (*كتاب الأغاني*: 2/ 82 – *الخزانة*: 1/ 368)، وحذف عديد العبارات من حديثه عن اتّصال عديّ بكسرى (*كتاب الأغاني*: 2/ 84 –الخزانة: 369) إضافة إلى عدد مهمّ من التحويرات إيجازا أو تبديلا في العبارة.

3- نستعمل الخبر هنا بالمعنى الذي يجريه الإنشائيّون في تحليل الخطابات السرديّة، وهو تعريب لـ histoire

الأخذ أمّا بنية العبارة فهي منقولة عن الأصل مأخوذة منه، ويمكن أن ندرك ذلك في ما نقلته هذه الذات من خبر "حرب بكر وتغلب"، فالمقاطع التي رُدّت إلى أبي عبيدة في أغلبها موجودة في "كتاب النقائض". وكذلك الأمر بالنسبة إلى رواية "يوم أوارة" فكلّ من أبي عبيدة[1] والأصبهاني[2] قد اتّكآ على راوية أصل هو "هشام بن الكلبي" ونجد الخبرين متشابهين في أغلب العبارات المرويّة وفي أغلب الأحداث. ويمكن أن يُشكّل هذا الموضوع بحثا قد يُساعدنا على تبيّن طرائق انتقال المعرفة في الثقافة العربيّة، ومنه يمكن أن نتبيّن أيضا أدوار الرواية ومواطن التحويل فيها.

إنّ بيان هذه المنزلة التي تحتلّها الذات المتكلّمة يُعقّد من مسألة بيان المقام الذي صيغ فيه الخبر، إذ تتكاثر الذوات المتكلّمة وتتوافر من ورائها مقامات متعدّدة مختلفة ساهمت في إنتاج الخبر وصياغة ملامحه، يعسر ضبطها وتحديدها.

إنّ ما قمنا به من رصد لرحلة الخبر من أثر إلى آخر راجع إلى غاية نقصد بلوغها وهي إدماج هذه الذات التاريخيّة في صناعة الخطاب انطلاقا من الموقع الذي تصدر عنه، وما أبنّاه من دور بيّن للمتكلّم في ضمّ الأخبار بعضها إلى بعض وتقديم صور عديدة للحدث الواحد في ما نعتناه بعلاقة التواصل القائمة على السرد الإعادي، أو في شدّ هذه الأقوال الصادرة عن عدد من القائلين إلى وحدة نصيّة جامعة يجعل بمقتضاها المتكلّم الصورة مشكّلة ممّا يُثبته من شظايا الأحداث وقد وائم بينها وعالق، فيما وصفناه بالسرد التواصلي، أو السرد القائم على مواصلة الأحداث إذ يُداخل المتكلّم بين هذه الأصوات ويجعلها على اختلافها وتغاير مواقعها صوتا واحدا فيأخذ من هذا تارة ومن ذاك طورا ليُكمّل الحدث والحال أنّ مختلف هذه الروايات تامّة اعتمادا على خطّة مداولة الحكاية[3] بين القائلين، هو داخل في هذا الباب الذي يتركّز فيه دور الذات المتكلّمة إذ أنّ ما يقوم به المتكلّم في خبر مخصوص تقوم به الذات المتكلّمة في كامل الأثر ومن هنا يمكن أن نشير إلى وحدة بيّنة بين مختلف هذه الأخبار

1- "*كتاب النقائض*" 2/ 1081.

2- "*كتاب الأغاني*": 22/ 168.

3- نستعمل عبارة الحكاية قصدا في هذا الموضع.

إذ تعي هذه الذات ما تقدّم وما تأخّر ولذلك فإنها تكتفي إلى الإشارة إلى الحدث في بعض المواطن إن سبق ذكره أو إن كان يزمع عرضه في مقبل الأخبار[1].

وبذلك فإنّ الصورة التي يريد المتكلّم أن يظهر عليها في إيراده أخبارا هو في حِلّ من تحمّلها سرعان ما تتهاوى، فمن الجليّ البيّن أن الذات المتكلّمة لا تعكس صوتها فردا في عزلة عن أصوات عديدة هي ماثلة فيها وقابعة داخلها، وصورة الخبر على هذه الهيئة شبيهة بصورة الوثيقة التي يتسلّمها التلميذ من المعهد الذي يدرس فيه، فيحملها إلى والده ليُمضي فيها، ويكون نصّها: "إنّي المضي أسفله، والد التلميذ....ألتزم....." فهي وثيقة خطّتها إدارة المعهد، ويمضي فيها الوالد، وقد يُزوّرها التلميذ فيُمضي عوضا عن والده، فضمير المتكلّم هنا يرجع إلى أيّة جهة؟ فهو راجع إلى الإدارة التي خطّته، غير أنّ المضي على الوثيقة يتحوّل بمقتضى تعاقد مخصوص إلى ذات متكلّمة في هذه الوثيقة[2]. والخبر فيما نعتقد على هذه الهيئة وأشدّ تعقّدا، ويعسر أن نضبط فيه صورة واضحة لذات متكلّمة مخصوصة.

إنّ الذات المتكلّمة –على تعدّدها واختلاف مقاماتها– بمجرّد تعبيرها عن هذه الوقائع قد كانت مساهمة بدرجة أو بأخرى في تحديد معالمها، وضبط صورتها[3]، ويعسر أن يكون هذا الضبط في مثل هذا المقام موضوعيّا. ويتشقّق منها متكلّم هو قائم بجملة من الأدوار داخل الخطاب، وهو ذات حاضرة في أغلب مراحل إنجاز الخطاب،

1- ومن ذلك ما ورد في خبر "حرب بكر وتغلب" عند تعرض الذات المتحدثة إلى مختصر حروب أميّة ومرداس عندما جحدهم كليب حظّهم، تقول: "وسنذكر خبر ذلك في آخر هذه الأخبار إن شاء الله تعالى" كتاب الأغاني: 5/ 32. ومن ذلك أيضا ما ورد أخبار كعب ونسبه ومقتله من إرجاء لتفصيل أخباره "وكان شاعرا فارسا وله مناقضات مع حسّان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج تُذكَر في مواضعها إن شاء الله تعالى.." م.ن: 22/ 125.

2- لقد قدّم ديكرو هذا المثال في مقال بعنوان "*معيار الذات المتكلّمة*" ص75..

3- تذهب آن بامفيلد إلى أنّ التعبير عن الوقائع يؤدّي إلى وجود زاوية النظر. انظر في ذلك كتابا مهمّا في هذا الشأن كنّا نتمنّى أن نُعمّق استفادتنا منه إلاّ أنّ هذا المسلك يأكل من الزمن قسطا مديدا،

Ann Banfield : « ***Phrases sans parole Théorie du récit du style indirect libre*** » . SEUIL 1995. p36.

فإليه يُردّ ترميم الخبر وتجميع عناصره وترشيح ما بدا له من الروايات تامّا وافيا بالغرض، ليُخرج خبرا راجعا إليه في منتهى المطاف في ضمّ متفرّق المقاطع والأقسام، وفي عرض الوقائع بعضها على بعض، وفي الإضراب عن إعادة الرواية متى بان له تناظرها مع روايات عرضها، مثلما فعل مع رواية المفضّل الضبّي في توافقها مع رواية ابن الكلبي، في روايته لقصّة "النعمان وإخوته وعديّ وابن مرينا"[1]، إذ اكتفى بالإشارة إليها دون عرضها.

ويمكن أن ننتهي من هذه الإشارة – ولنا إليها مآب- التي أردناها بغاية بيان الدور الذي تتحمّله الذات المتكلّمة في إدارة الخبر وتصريف مختلف مناحيه في محافظتها على النّواة التي يعسر خرقها وتبديل ما يمكن أن يتبدّل وفقا للمقام الذي ورد فيه الخبر ووفقا للمقام العامّ الذي أُنتج فيه الخبر، وبذلك فإنّ صورة الجاهليّة وهي مقصدنا لم تُرصَد من زاوية نظر واحدة بل هي لم تكن نتاج موقف واحد وإنّما تراكمت في رصدها أصوات ومواقع عديدة، وساهمت فيها ذوات متكلّمة صادرة عن مقامات مختلفة في صياغاتها، تحوّلت بدورها إذ احتوتها الذات المتكلّمة الأخيرة إلى شخصيّات قائلة. فصاحب "الأغاني" هو مُقدّم لصوته صياغة لهذا الخبر أو ذاك، وهو في ذات الآن عاجز عن حجب أصوات أولى تظلّ حاضرة في بنية الخطاب، وكأنّه الطرس[2] تُلمح من ظاهر خطّه خطوط سابقة تظلّ معالمها بيّنة الآثار وإن اجتهد الخاطّ الأخير في محوها. وهو ما نسعى إلى توسيع القول فيه في الباب الثالث من هذا العمل إظهارا لتوظيف مختلف هذه الوسائط لرصد صور عن أحداث الجاهليّة وشخصيّاتها. وهي مسألة يمكن أن تشكّل مدخلا لدراسة أخبار تقدّم صورا متعارضة في معانيها متضاربة.

1- *"كتاب الأغاني"*: 2/ 95.

2 -"palimpseste » □

الباب الثالث

سمات المجال الجاهليّ

الباب الثالث

سمات المجال الجاهليّ

لقد آن لنا وقد بلغنا هذا المستوى من البحث أن نَعْرِض إلى عناصر الصورة الخاصّة بالجاهليّة، وأن نُبين بعضًا من مظاهرها في الأخبار التي ندرس. فبعد أن عملنا في البابين السابقين على بيان العوامل المؤثّرة في إنتاج أخبار الجاهلية، والوقوف على خصائص هذه الأخبار البنائيّة، الفاعلة في إخراج صورة ما عن الجاهليّة، نُثير في هذا الباب سمات المجال الجاهلي، وهو مبحثٌ معقود على سالفه، موصول أساسا بالمقامات التي ساهمت في إخراج أخبار الجاهليّة. وقد قسّمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول سعينا منها إلى بيان خصائص الصورة المرصودة للجاهليّة. فأفردنا فصلا للصورة المرغّبة وفصلا للصورة المنفّرة. ذلك أنّ الجاهليّة في صياغة ملامحها قد كانت جامعة بين هذين الضدّين، فهي في آن مصدر للقيم الأخلاقيّة والفنيّة، وقد حَوت شخصيّات مثاليّة يُضرَب بها المثل، وكانت بسببٍ من ذلك مرجع اللاّحقين، وفي ذات الآن مثّلت أيضا فضاء مُنكَرا يحوي عددا من المظاهر المردودة. وقد وقفنا في ضبط الصورة الأولى على حضور الشخصيّات النموذجية بما تأتيه من أفعال، بُطولةً كانت أو أخلاقا فاضلة بها تتميّز الشخصيّة، وبما تأتيه من أقوال، ذلك أنّ الشخصيّة النموذجيّة ليست الشخصيّة الفاعلة فحسب، وإنّما تُرفَق أفعالها بأقوال هي في ذاتها مدار عدد مهمّ من الأخبار. كما وقفنا على مظاهر الحياة الجاهليّة الباهرة بيانا لحركة الجاهلي ولوضعه داخل فضائه، ولما تميّز به من معتقدات حُبِّبت في الفضاء الإسلامي ورواها الرواة وأفاضوا فيها.

وقد سعينا أن نقف على نفس العناصر في ضبط الصورة الثانية، ولكن باعتماد الوجه الثاني، المنفّر، ومنه نظرنا في الشخصيّة النموذجيّة إنكارا وردّا لفعالها واعتمادها نموذجا لبيان حياة الفوضى التي كانت –وفق هذا التصوّر– تسود الجاهلية، كما نظرنا في مظاهر الحياة المنفّرة في إظهار وضع ملؤه التناحر والنزاع وسيادة القوّة والبطش.

غير أنّه من الجدير بنا أن نشير إلى أنّا قد وجدنا عسرا في الفصل بين الصورتين بسبب من تداخلهما في الخبر الواحد والمظهر الواحد والفعل الواحد، وإن تركّزت الجداهليّة على هاتين الصورتين. ولذلك فإنّا نشير إلى أنّ فصلنا في مظاهر عديدة كان فصلا إجرائيا لغاية بيان اشتغال الصورتين معا في وسْم المجال الجاهلي. كما نشير إلى أنّ عرْضَنا لهذه السمات كان عرْضا مُوجَزا وليس تأريخا للحياة الجاهليّة، وقد وجدنا عُسرا في ضبط هذه العناصر بسببٍ من تفرّق المواضيع وتشتّتها.

وخصّصنا الفصل الأخير لبيان وجهتين في التعامل مع الأخبار، وجِهة تراها وثيقة تاريخيّة تُعتَمَد في ضبط التاريخ الجاهلي، وهي وجهة لا تعنينا في ذاتها، فحسبنا الإشارة إليها وبيان ما وقعت فيه من تهافت، ووجهة هي منطلقنا، وهي التي تعتمد الخبر صورة خاضعة لمختلف المقامات المؤثّرة في بناء عناصرها. وقد خلصنا بها إلى توثيق صلة الخبر بالتصوير دون التأريخ، من خلال ما بنيناه في الفصلين السابقين، بيانا لغلبة حاضر الإنتاج على بناء ملامح الصورة وضبط عناصرها وتحديد مقاصدها.

الفصل الأوّل

الصورة المرغّبة

إنّ الجاهليّة لم تمثّل فضاءً منكَرا مطلق الإنكار، وإنّما كان جزء مهمّ من الصورة المرصودة لها قائما على تركيزها منبع البطولة والفضائل، والزمن الأوّل الذي حوى أصول الفعال الجليلة ونماذجها المطلقة التي صارت مضرب الأمثال. وتقبّل الجاهليّة هذا القبول الحسن موصول بجملة من المقامات المتداخلة التي يعسر بيانها بصورة جازمة فاصلة، وإنّما حسبنا أن نتبيّن أهمّها، ومن هذه المقامات الفاعلة في إنشاء صورة عن الجاهليّة باهرة، المقام الإسلاميّ، الذي استند إلى بعضٍ من نماذج الجاهليّة واحتفى بها، فقد كان للرسول قول حسن في بطولة عنترة، وكان أيضا يثني على كرم حاتم الطائي، إضافة إلى وقوفه عند بعضٍ من المعاملات الجاهليّة في العلاقات الواصلة بين القبائل أحلافا تُعقَد، هو ذاكرها ومنتصر لها، على هيئة ثنائه على حلف الفضول[1]، "...فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول: لقد شهدتُ حلفا في دار ابن جدعان ما أحبُّ أنّ لي به حُمرَ النَّعَم، ولو دُعيتُ به لأجبت"[2]. وقد مثّل هذا الثناء مدخلا من المداخل المسوّغة لصياغة صورة عن جاهليّة محبّبة إلى النفوس، وهو ما يُسوّغ أيضا الاحتفاء بذكر أخبار حلف الفضول وبيان طرائق عقده وأسباب قيامه والعناصر القيّمة عليه. وفي نفس هذا المقام أيضا يمكن أن نشير إلى اهتمام الرسول بيوم من أهمّ أيّام العرب في الجاهليّة وهو "يوم ذي قار"[3]، وردّ انتصاف العرب فيه من العجم إلى وجود الرسول إذ رافقهم بالدعاء وهو الأمر الذي يُختَم به الخبر، "قال: وكانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه

1- "*كتاب الأغاني*": 17/ 210.

2- م.ن: 17/ 211.

3- م.ن: 23/ 220.

وسلّم بالمدينة، فلمّا بلغه ذلك قال: هذا يوم انتصفت فيه العرب وبي نُصِروا... وروي أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مُثّلَت له الوقعة بالمدينة، فرفع يديه فدعا لبني شيبان أو لجماعة ربيعة بالنصر، ولم يزل يدعوا (كذا!) لهم حتّى أُري هزيمة الفُرس[1]. وإضافة إلى هذا العامل الفاعل يمكن أن نشير إلى مقام ثان لا يقلّ أهميّة عن المقام الأوّل وهو مقام افتخار القبائل بمآثرها وتحويل الفضاء الجاهليّ إلى مجال فيه يكون التفاخر بيانا للأمجاد الأولى وما به تشرف القبائل قيما أخلاقيّة فاضلة أو بطولات تُذكَر.

وعلى ذلك فإنّ هذين المقامين قد كان لهما عميق الأثر في إنشاء صورة عن الجاهليّة تختصّ بالإبهار والترغيب، وهي الصورة التي تحوي شخصيّات مثاليّة تركّزت نماذج لما تؤدّيه من أفعال وما تختصّ به من خلال، وتحوي أيضا جملة من المظاهر التي بها تشرُف الجاهليّة وتعلو، من حيث هي أصلٌ يُقتَدى ونموذج يُحتَذى.

1- م.ن: 23/ 236.

1- صورة الشخصيّة النموذجيّة

تنطلق الذات المتكلّمة من الشخصيّة المرشّحة مجالا للأخبار، تعلق بها وتدور عليها أو تتّصل بأحداث وشخصيّات تُدعى في معرضها. فتُرصَد الجاهليّة في شخصيّاتها وما يُسنَد إليها من أفعال وخلال، وهي -في الغالب الأعمّ- شخصيّات- نماذج ثابتة[1]، لا يمسّها التغيير والتحويل، وإنّما هي واقعة تحت أثر التوسيع، صدورا عن سمة تُفردها وتخصّها تُوسَم بها كرما أو شجاعة أو مطالبةً بثأر أو إباءً للضيم... وتكون هذه السمة هي المدار الجامع لأخبار الشخصيّة. وتمثّل هذه السمات التيمات أو الأغراض الكبرى التي بها تختصّ الجاهليّة من حيث هي ماضٍ يُقرَأ ويُنظر إليه من زوايا متغايرة.

وهي في ذات الآن شخصيّات مرجعيّة[2] لها ظلال في أذهان المخاطبين وقد استقرّت ركنا من أركان "تاريخ الجاهليّة"، استدعاها خطاب الخبر وصاغها متحرّكا في مجالها[3]، أو هو يوهمنا بهذا الفعل. ومن هذا المنطلق -ونظرا في عدد من المسائل العالقة بقضايا الخبر في الموروث الأدبي والتاريخيّ العربيّ- يعسر أن نقصر أمر الشخصيّة على كيانها الورقيّ[4] وننظر فيها على أنّها كيان نحويّ يُقَدّ داخل الخطاب ولا مصرف له

---

1 - Todorov : " personnage" in*"Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage"*. Ed. seuil 1972. p289.

2- من المقولات الثلاث التي يضبطها "هامون" للشخصيّة، نجد الشخصيّة الإحاليّة أو المرجعيّة *les personnages- référentiels.* وهي الشخصيّات المحيلة إلى مداليل مؤكّدة ومعلومة آنيّا. إضافة إلى الشخصيّات الإحالية *les personnages anaphores* والشخصيّات الواصلة *les personnages embrayeurs* . انظر:

- Philippe Hamon *« Pour un statut sémiologique du personnage »*. in « *Poètique du récit* ». Edition du seuil , 1977. p122. 123.

3 - Todorov: "personage" in D.E.D.SC. L p286.

4- وهي مقولة الإنشائيين الذين يحدّدون الشخصيّة من حيث هي كائن ورقيّ "*être de papier*" انظر جوف ص9.

عنه، فشخصيّات الجاهليّة عالقة بـ"الخارج"، موصولة بـ"الواقع" في إرجاعها أو في إنتاجها، وإن كانت صنيعة الخبر، ناشئة من جموح خيال صانعيه، تُحاك داخل الخطاب[1] بوسائله ووسائطه.

هي شخصيّات- أبطال، منها ما ينتمي إلى البطولة الملحميّة، ومنها ما هو داخل في بطولة قيميّة يتحقّق بها ومنها ما يتحقّق نموذجا أو مثالا يُضرَب.

وإذا كان البطل الملحميّ في الموسوعة الكونيّة[2] يتطلّب خصالا تمكّنه من مقاومة الطبيعة والقدر ومحاربتهما، فإنّ من أبطال الجاهليّة من يسخّر قوّته لمصارعة كائنات الطبيعة وما بعدها، بحثا عن القوت وعن البقاء وعن الوجود، وما يخوضه الجاهليّ من هذه النزاعات والحروب موصول بهذه المسائل. ولعلّ صورة تأبّط شرّا وهو يصارع مدى الليل الغول أو سبعا من سباع الجنّ[3] أن تُظهر لنا شبها بينه وبين أبطال الإغريق وأنصاف آلهتهم في مقاومتهم للآلهة ولرموز الشرّ.

1- يذهب "فانسون جوف" إلى أنّه من المحال أن لا تعلق الشخصيّة في صناعتها بالموضوع الذي تقاربه. يقول: "ويستحيل على النصّ بناء شخصيّات مغايرة تماما للشخصيّات التي نعاشرها في الحياة اليومية، وحتّى أغرب الشخصيّات في روايات الخيال العلمي، فإنّها تحتفظ مع ما فيها من أوجه متفاوتة الغرابة بخصائص مأخوذة مباشرة من أشخاص العالم "الحقيقي".

Vincent-Jouve : « L'effet- personnage dans le roman ». PUF. 1er édition. 1992. P28.

2- انظر:

« Encyclopédie universalis » France. S.A. 1995. 11/373. « Le héros épique est le symbole de la lutte gigantesque de l'homme contre la nature vue sous les traits du destin »

3- *"كتاب الأغاني"*: 21/ 146: "وإنّما سمّي تأبّط شرّا فيما حكي لنا لقِيَ الغول في ليلة ظلماء، في موضع يقال له رحى بطان، في بلاد هذيل، فأخذت عليه الطريق، فلم يزل بها حتّى قتلها، وبات عليها، فلمّا أصبح حملها تحت إبطه، وجاء بها إلى أصحابه..". وانظر أيضا الخبر، 21/ 152: "كان تأبّط شرّا يعدو على رجليه، وكان فاتكا شديدا، فبات ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد في قاع يقال له مرحى بطان، فلقيته الغول، فما زال يقاتلها ليلته إلى أن أصبح وهي تطلبه، قال: والغول سبع من سباع الجنّ، وجعل يراوغها وهي تطلبه وتطلبه وتلتمس غرّة منه، فلا تقدر عليه إلى أن أصبح.."

وبسبب من هذا الموقع المهمّ للشخصيّة في بنائها وتثبيت سماتها وتركيزها قطبا تدور عليه الأخبار، فقد حاولنا جمع هذه الشخصيّات ضمن أصناف تُعَدُّ هي الغالبة على أخبار الجاهليّة، وإن كانت تجتمع في سمة إنتاج الشعر، غير أنّ الذات المتكلّمة لا تصرف الأخبار إلى بيان علاقة الشخصيّة بالشعر وإنّما هي عارضة إلى سمة من سمات هذه الأصناف – عامّة- وإن كانت هنالك شخصيّات تظلّ خارجة عن هذه الصنافة.

فنثير في مبحث الشخصيّة النموذجيّة، أو البطل النموذجيّ الذي تُصوِّره الأخبار صورة السيّد وصورة البطل الملحميّ وهو الشخصيّة التي تُصنَع لها صورة الإقدام والشجاعة والعلم بفنون القتال وخوض الحروب والظفر فيها، وصورة البطل الهامشيّ إفرادا لصنف من الشخصيّات البطوليّة، كان يُحقّق بطولته خارج مجال القبيلة، وكان يُعَدّ على هامش المجتمع الجاهليّ. وأخيرا نثير مسألة القيم الجاهليّة ونعرض لشخصيّات عُدّت المثال في فضائل ميّزت المجال الجاهليّ، وهي الكرم والجوار وحماية الظعائن....

أ- صورة السيّد.

لقد كان لمقام إنتاج أخبار الجاهليّة دورٌ مهمّ في تحديد صورة السيّد من حيث هو شخصيّة تتكوّن داخل الخطاب الأخباري، فتتحدّد به خلاله وخصاله وما به يتركّز سيّدا نموذجيّا مثاليّا جامعا بين القيم الأخلاقيّة الفاضلة والرأي الحكيم والبطولة والبأس في الحروب والنزاعات. فالصورة المرصودة للسيّد موصولة بجملة النزاعات القبليّة التي تفخر بها كلّ قبيلة بسادتها من جهة، وموصولة أيضا بصفات في السيّد مرجوّة، تُطلَب في راهنٍ غابت فيه السيادة الحكيمة وغلبت عليه الفتن والنزاعات.

نظفر في الأخبار بمقاطع عديدة تنصرف لبيان صورة السيّد في الجاهليّة ومقامه من الجماعة التي يرأسها[1]. ولقد أدركنا من هذه الصورة أنّ السيّد هو شخص من

1- مصطفى أبو ضيف أحمد: **دراسات في تاريخ العرب** منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين. مؤسّسة شباب الجامعة. الإسكندرية. الطبعة الأولى. 1983. ص67. "وسيّد القبيلة الرئيس

القبيلة يُؤمّر على عشيرته أو على عشائر متعدّدة يجمع بينها الجوار أو القرابة الدمويّة، وهو يحتلّ هذا المحلّ لصفتين أساسيتين فيه إن لم تتوفّرا معا فحسبه أن يتحلّى بواحدة منهما تميّزه من غيره وتفرده. فأمّا الصفة الأولى التي يصير بها السيّد إلى هذا المحلّ فتتمثّل في الشجاعة والقدرة القتاليّة، ممّا يجعله قادرا على حماية نفسه وآله من جهة وحماية القبيلة والأجوار في ساعات الحرب من جهة ثانية، وهي مكوّن مهمّ في صورة السيّد الجاهلي، وأمّا الصفة الثانية فتظهر في صورة السيّد الحكيم الذي يترأس القوم بسبب من عمق تجربته وسداد رأيه[1]، ويحافظ عليه آله إلى آخر نفس فيه فهم دوما في حاجة إلى هذه التجربة وإلى الرأي الذي يعتصمون به عادة مطلق الاعتصام بسبب من الوضع النزاعيّ الذي صُوِّرت عليه المجموعات العربيّة لأسباب متعدّدة. وتظهر قيمة هذه الشخصيّة في المواقف العصيبة التي تواجهها القبيلة فيكون هو الملجأ الذي ينتهون إليه. غير أنّ صورة السيّد وإن اعتمد الرواة على بعض النوى المحدّدة لسماتها تظلّ خاضعة في تكوينها وتحديد ملامحها إلى المقام الإنتاجي وإلى آفاقٍ يصبو صاحب الخبر إلى معانقتها.

ولقد كانت هذه الشخصيّة بوجهيها حكمةً وقدرةً على القتال فاعلة في المجال السرديّ وباعثةً للأحداث ومدارا تدور فيه شخصيّات عديدة، شكّلت بحضورها وانصراف الرّواة إلى الاحتفاء بها جانبا من هذه الصورة المرصودة للجاهليّة، لم تخضع

=

والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب، يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة إن احتاجوا إلى حاجة، وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، ويترأسها...".

1- م.ن.ص. يذكر مصطفى أبو ضيف جملة من الصفات التي يسود بها السيّد، يقول: "ويذكر أهل الأخبار أنّ أهل الجاهليّة كانوا لا يسودون إلاّ من تكاملت فيه ستّ خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان." ويذكر خليل عبد الكريم هذه الصفات التي تميّز سيّد القبيلة، انظر كتابه: **قُريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة**. مؤسّسة الانتشار العربي. بيروت. دار سينا للنشر. مصر. الطبعة الثانية. 1997. ص291. يقول: "أمّا حكم القبيلة فهو موكول إلى شيخها أو رئيسها أو سيّدها، ويشترط فيه أن يتميّز بصفات معيّنة منها: الكرم والشجاعة والحلم الدهاء وسعة الصدر والحكمة والفصاحة..."

بتمامها إلى التشويه أو إلى المبالغة والأسطرة وإنّما كانت في جانب مهمّ منها مشاكلة لما يمكن أن تكون عليه السيادة في مجال رعويّ بدويّ قبليّ ثابت أو متنقّل، وهي في أغلبها تمثّل نماذج عليا يُضرب بها المثل في صفة من إحدى الخلّتين شجاعةً قد تؤدّي إلى الكرم وحسن الجوار والاستماتة دفاعا عن المحتمين بهذا السيّد، أو حكمةً ورأيا قد يؤدّيان إلى الخروج بالقبيلة من مآزق عديدة، وتشدّ إلى هذا السيّد الرحال للفصل بين النزاعات إذ تعدّت حكمته ومعرفته بالأشياء حدود القبيلة لتشعّ على باقي القبائل والعشائر.

ولقد رأينا أنّ الأخبار تركّز في رصدها للجاهليّة على هذه الصورة في ركنها الباهر، إذ تحتفي بها وتُبرّز من الفضاء الجاهليّ شخصيّات-نماذج على مستوى إدارة القبيلة وضبط أمورها. فلِمَ كان هذا الاحتفاء بصورة السيّد في الجاهليّة؟ وهل المسألة تخصّ طلب الحقيقة التاريخيّة أم أنّ الرغبة كانت حاصلة في نفوس الرواة لرفض واقع ساد فيه الجور والظلم؟ أم أنّ المسألة داخلة في الصراع السياسيّ الذي تدّعي فيه كلّ عشيرة سيادةً لها في الجاهليّة جامعة بين القيم الفاضلة والحكمة في الرأي والشجاعة في الحروب؟

تُسنَد إلى السيّد في الأخبار سمات عديدة محدّدة لما يصدر عنه من أفعال، ويُسلّط عليه المتكلّم نظره بيانا لهذه السمات أو رصدا لأفعاله وإيرادا لأقواله، فهو مركز من مراكز انفتاح المجال السردي. وتتحدّد صورة السيّد أساسا ممّا يصدر عنه من أقوال تُمتّن صلة الصورة بالخطاب، ذلك أنّ رواية الأقوال من شأنها أن تحدّ من درجات "موضوعيّة" الخبر.

ففي خبر طعبد يغوث" في يوم الكلاب الثاني تُرصَد للسيّد صورة القاضي الحاكم بالسلم أو بالحرب، إذ تسأل سعد والرباب من بني تميم "أكثم الصيفي"، وهو قاضي العرب" أمر الحرب التي هم على أهبتها بعد قدوم مذحج وأنصارها لمواجهتهم، فكان نتاج مشورته نصحا يأتزرون به ويهتدون، "أقلّوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أنّ كثرة الصياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة. يا قوم تثبّتوا فإنّ أحزم الفريقين الرّكين، ورُبَّ عَجلة تُهب ريثا واتّزروا للحرب، وادّرعوا اللّيل فإنّه أخفى للويل، ولا جماعة لمن اختلف"[1]. فكان قوله

1- *كتاب الأغاني*: 16/ 155.

هذا مباركة للحرب وموافقة عليها، فانصرف الجماعة من عنده متهيّئين للحرب. ويُمكن أن نلحظ ما في قول السيّد صاحب المشورة من حكمة ظاهرة وعناية بادية بصياغة أقوال يُمكن أن نلمح صلتها بزمن الإنتاج، وأن نُدرك منها آثار حاضر تغلب عليه الدعوة إلى الجماعة وإلى كفّ الخلاف والاعتصام بالسلطان.

إنّ القول الصادر عن قاضي العرب في مقام استشارة هي أشبه بالاستخارة، محيلٌ إلى فضاء إسلامي تبدو فيه الدعوة واضحة إلى اعتماد الجماعة والاعتصام بالسلطان، "أقلّوا الخلاف على أمرائكم"، "لا جماعة لمن اختلف". فهي أقول تُضمر قيما صبا إليها المجتمع الإسلامي ونادى بها، أو هي قيم افْتُقِدَت زمن إنتاج هذه الأخبار. فصورة السيّد بهذا المعنى ليست وصفا لما هو حاصل في ماضي الزمن وإنّما هي مجال لبيان صورة للسيّد مرغوب فيها، مطلوبة، يُبحَث فيها عن معان جامعة بين القيم الأخلاقية الفاضلة والقيم البطوليّة. وهو الأمر الذي ظهر بصورة بيّنة في ثبات صورة "عبد اللّه بن جدعان" من حيث هو نموذج السيادة القائمة على رجحان العقل وعلى القيم الأخلاقيّة الفاضلة، فقد مثّل شخصيّة مهمّة في هذا المقام استدعت أخبارا عديدة دائرة في مدارها، وهومتى وُجد في خبر مثّل قطبا جاذبا، يحظى من جميع الشخصيّات المجانبة باحترام بالغ، وتُسنَد إليه في الأخبار أفعالٌ جليلة، وقد كان له الدور الرئيس في بعث حلف الفضول نُصرة للحقّ واجتماعا للأخذ بحقّ المظلوم وقد ركّزت الأخبار هذا الدور في مجمل الأخبار التي عرضت لهذا الحلف[1] وهو من أهمّ أسياد القبائل الجاهليّة وأكثرهم فعلا، وقد حافظ على هذا المركز حتّى بعد أن شاخ وعجز، وله موقع في آله، إجلالا وتعظيما، وقد صُوّر في خبره جالسا تُقدّم له الإتاوة من أحياء العرب في عكاظ، ولمّا همّ سمير بن سلمة القشيري بإزاحته من موقعه ذاك وإذلاله والحلول محلّه، منعه من ذلك رجل خليع، "فجاء رياح بن عمرو بن ربيعة بن عقيل- وهو الخليع، سمّي بذلك لتخلّعه عن الملوك لا يعطيهم الطاعة- فقال للقشيري: مالك ولشيخنا تنزله عن إتاوته ونحن هاهنا حوله!. قال القشيري: كذبت ما هي له! ثمّ مدّ

1- م.ن: 17/ 212. 211. 214. 215. 219.

القشيري رجله فقال: هذه رجلي فاضربها إن كنت عزيزا، قال: لا! لعمري لا أضرب رجلك، فقال له القشيري: فامدد لي رجلك حتّى تعلم أأضربها أم لا، فقال: ولا أمدّ لك رجلي، ولكن أفعل ما لا تنكره العشيرة، وما هو أعزّ لي وأذلّ لك، ثمّ أهوى إلى رجل القشيريّ فسحبه على قفاه فنحّاه، وأقعد عبد اللّه بن جعدة مكانه"[1]. ويبدو أنّ مسألة الجلوس في عكاظ ومدّ الساق دلالة على المناعة والشدّة وقوّة الأنصار، فهو فعل متكرّر في أخبار الجاهليين.[2]

وقد تركّزت صورة ابن جدعان في مجمل الأخبار من حيث هو نموذج السيّد العادل صاحب الحكمة والرأي والبأس، فتحدّدت له بذلك جملة من السمات الفاضلة، وهي سمات داخلة في هيبة القبيلة وصورتها الرائجة بين القبائل، كحسن الجوار والدفاع عن المظلوم وكفّ الأذى، والعفو عند المقدرة..[3] وتتوضّح هذه الصورة المرصودة له في دفاعه عن المظلوم وردّه ظلم الظالم، ولقد بان هذا الدور في عدد من الأخبار التي اهتمّت بحلف الفضول[4]. وإنّنا نعتقد أنّ وفرة الاهتمام بالمحلّ الرفيع لهذه الشخصيّة راجعٌ إلى الدور الرئيس والثابت الذي أدّته في تأسيس هذا الحلف، ناهيك

1- م..ن: 5/ 21.

2- فما فعله القشيري في الخبر السالف بعد أن احتلّ مكانة عبد اللّه بن جعدة نجده في خبر أوّل أمر الفجار في تصوير صورة السيّد المنيع في قومه، في حديثه عن بدر بن معشر الغفاري أحد بني غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة "كان رجلا منيعا مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ، فاتّخذ مجلسا بسوق عكاظ، وقعد فيه وجعل يبذخ على الناس...وبدر بن معشر باسط رجله يقول: أنا أعزّ العرب، فمن زعم أنه أعزّ منّي فليضربها بالسيف فهو أعزّ منّي، فوثب رجل من بني نصر بن معاوية، يقال له: الأحمر بن مازن بن أوس بن النابغة فضربه بالسيف على ركبته فأندرها.." م.ن:22/ 61.

3- انظر على سبيل المثال صورة أبي قيس بن الأسلت ساعة ظهر على الخزرج وغلبهم على أمرهم، إذ دعا قومه إلى المحافظة على البقيّة الباقية منهم وعدم إبادتهم وهو يُطلق شقّا من الأسرى، بالرغم من غضب آله لفعله هذا وجنوحهم إلى القضاء نهائيّا على عدوّهم. م.ن: 17/ 75.

4- م.ن: 17/ 212.

أنّ الرسول قد أثنى على هذا الحلف وعدّه من الأمور التي تعلو بها الجاهليّة وتشرف[1]، ومن هذا الموقع مثّل قطب اهتمام الرواة ومجمع الفضائل. وقد كانت تُوضَع عنده أسلحة العرب عند قدومهم عكاظ حتّى يفرغوا من أسواقهم ثمّ يردّها عليهم إذا ظعنوا، وكان سيّدا حكيما مثريّا من المال[2] وقد كان طرفا معنيّا بالحرب إذ قامت بين هوازن وقيس بسبب من استجارة البراض بحرب بن أميّة.

إنّ صورة ابن جدعان المتوزّعة في الأخبار تُؤسّس لنموذج في السيادة مثاليّ قائم على الاتّزان في الفصل بين القبائل المتخاصمة والأفراد المتنازعين. وهي صورة ناتجة عن مقام قوامه التنازع القبلي والافتقار إلى الحكمة والرشاد في معالجة الأمور، وبذلك فإنّ هذه الصورة تحمل من آثار هذا المقام الشيء الكثير، فالمقام الإنتاجي بما فيه من عناصر متداخلة شائكة له ضلع في صياغة صورة ابن جدعان أو في صياغة صُوَر غيره من سادة الجاهلية الذين رُصِدت لهم صُوَر مثاليّة.

ومن هذا المنطلق كان الاحتفاء بصورة عامر بن الظرب العدواني بيانا لسيادة الرأي أو السيادة بالرأي الحسن وتحكيم العقل فيما يَعرض له السيّد من أمور تخصّ القبيلة. ونجد أخبارا عديدة تُقَام في بنائها على اتّخاذ شخصيّة السيّد مركزا لتبئير الراوي بغاية بيان خلال فاضلة وأفعال إذ تُؤثّى تُحمَد، فتُبنَى أقسام خطاب الخبر على إظهار هذه الصورة التي تشعّ داخل الخطاب وتأخذ حيّزا من القول مهمّا في الخبر في صورته التامّة وفي الأخبار وقد تضامّت وتعالقت لبيان هذه الصورة.

وقد كان عامر بن الظرب العدواني من الشخصيّات النماذج التي اختصّ بها الفضاء الجاهليّ، إذ تعاود ذكرها في أكثر من موقع واتّخذت هيئة ثابتة وسيادة قوامها

1- م.ن: 17/ 215. قال الزبير: وحدّثني عليّ بن صالح عن جدّي عبد الله بن مصعب عن أبيه. أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: والذي نفسي بيده لقد شهدت في الجاهليّة حلفا يعني حلف الفضول، أما لو دُعيت إليه اليوم لأجبت، لهو أحبّ إليّ من حمر النعم، لا يزيده الإسلام إلاّ شدّة.

2- م.ن: 22/ 66.

رجحان العقل، فقد علا شأنه وضُرب به المثل في السيادة بحسن الرأي وعمق الحكمة[1]، وقد كانت القبائل تسير إليه لينظر في أمورها ويحكم في نزاعاتها، فلم يقتصر أمره على حكومة قبيلته وإنّما كان حكما للعرب[2]، ومركزه هو مركز أخلاقيّ إذ أنّ سيادته راجعة إلى ما يمتلكه من رجاحة العقل والقدرة على البتّ في الحوادث الجليلة. ولقد وُصل ذكره بحدث كان مدار أخبار عديدة وهو حدث قرع العصا. وقد تردّد هذا الفعل في عدد من الأخبار المصوّرة للجاهليّة، وهو فعل يأتيه أحد المقرّبين من الحكيم إذا شاخ واختلطت عليه الآراء يُرَدّ به إلى الصّواب إذ تقرَع له العصا دون أن يعلو صوت ينبّهه إلى خطئه، وهي علامة دالّة على قيمة السيّد في آله واحترام موقعه، فبالرغم من وجود أصحاب رأي قادرين على البتّ في الأمور إذ تمثّل آراؤهم العيار فيقبلون رأيا ويخطّئون آخر،غير أنّهم يحافظون على رمزهم، "قال أبو الرياش: قرع العصا مثل تدّعيه دوس، وهم من أزد...لعمرو بن حُممة، وتدّعيه قيس لعامر بن الظرب العدواني، وتدّعيه بنو قيس بن ثعلبة لسعد بن مالك بن ضبيعة."[3]. ولذلك تمّ اللّجوء إلى هذا الفعل رمزا بين صاحب الرأي والباتّ فيه أو قارع العصا. وقد كانت ابنة عامر ذي الحلم تقرع له العصا إذا سها في الحكم[4] وقد كان عامر واعيا وفقا لما صوّرته لنا الأخبار بأنّ رأيه لم يعد دائم الصّواب فاتّخذ لنفسه منبّها ومرشدا[5]. وبسبب من تعاود هذه الظاهرة وتكرارها في الأخبار يذهب صاحب "الأغاني" إلى البحث عمّن

1- يُصنّفه ابن حبيب من حكّام قيس. انظر: أبو جعفر محمّد بن حبيب (ت 245 هـ) في *كتاب المحبّر*. ص 135.

2- *كتاب الأغاني*: 3/ 86.

3- م.ن: 23/ 562. في ذكر أخبار المتلمّس.

4- م.ن: 5/ 4.

5- حدّثنا محمّد بن العبّاس اليزيدي عن محمّد بن حبيب قال: قيس تدّعي هذه الحكومة وتقول: إنّ عامر بن الظرب العدواني هو الحكم وهو الذي كانت العصا تقرع له، وكان قد كبر فقال له الثاني من ولده: إنّك ربّما أخطأت في الحكم فيحمل عنك، قال: فاجعلوا لي أمارة أعرفها فإذا زغت فسمعتها رجعت على الحكم والصواب، فكان يجلس قدّام بيته ويقعد ابنه في البيت ومعه العصا، فإذا زاغ أو هفا قرع له الحفنة فرجع إلى الصواب." م.ن:3/ 86.

استحدث هذا الفعل وأوّل من استنّه، يقول: "إنّ أوّل من قرع العصا سعد بن مالك، أخو بني كنانة حين أتى الملك المنذر بن النعمان"[1]. فنتبيّن من هذه الصورة الأولى محافظة القبيلة على زعيمها وإن شاخ وعجز ويظلّ رأيه مسموعا، مقبولا، وهو من حكمته وسداد رأيه يتّخذ لنفسه من آله أو من المقرّبين من يُنبّهه إن أخطأ.

وتظهر هذه الصورة بشكل بيّن في خبر يوم "شعب جبلة"[2] إذ يكون الأحوص مركزا للنظر، ومحلاّ للتبئير، تتركّز عليه رؤية الراوي رصدا لأفعاله وأحواله وحكايةً لأقواله. فيُقدّم الراوي صورة عن حاله وقد شاخ: "شيخ كبير قد وقع حاجباه على عينيه..." ويحدّد له وضعا أوّليّا وسِمًا وبيانا لمقامه: "وكان مجرّبا حازما ميمون النقيبة..." وخبره يُصوِّر لنا من خلال الأقوال والأفعال والأحوال -على ندرتها- وضع السيّدوضع السيّد صاحب الرأي في قومه وطريقة تعامله مع الحوادث بعد أن تقدّمت به السنون واختلطت عليه الأمور، إذ يُواجَه قومه بما لا قبل لهم به، فيعرضون أمرهم على الأحوص وهو سيّدهم وحكيمهم فيكون منه من الفعال ما يحلّه محلّ النموذج لرئيس القوم الذي يُخشى على عشيرته وينصت إلى آراءهم ويقبلها حتّى وإن خالفته، وقد كان هذا الحادث في يوم "شعب جبلة": "فلمّا سمعت عامر بمسيرهم اجتمعوا إلى الأحوص بن جعفر، وهو يومئذ شيخ كبير قد وقع حاجباه على عينيه وقد ترك الغزو غير أنّه يدبّر أمر النّاس، وكان مجرّبا حازما ميمون النقيبة، فأخبروه الخبر. فقال لهم الأحوص، قد كبرتُ فما أستطيع أن أجيء بالحزم وقد ذهب الرأي منّي، ولكنّي إذا سمعت عرفت، فأجمعوا آراءكم ثمّ بيتوا ليلتكم هذه، ثمّ اغدوا عليّ، فأعرضوا عليّ آراءكم، ففعلوا. فلمّا أصبحوا غدوا عليه، فوُضعت له عباءة بفنائه فجلس عليها، ورفع حاجبيه على عينيه بعصابة، ثمّ قال: هاتوا ما عندكم. فقال قيس بن زهير العبسيّ: بات في كنانتي الليلة مائة رأي. فقال له الأحوص: يكفينا منها رأي واحد حازم صليب مصيب، هات فانثر كنانتك. فجعل يعرض كلّ رأي رآه حتّى أنفد. فقال

1- م.ن: 23/ 565.

2- ويقرّ ابن حبيب في "المحبّر" بمنزلة الأحوص ويركّز صورته سيّدا من قليل السادات العظماء، إذ يُصنّف واحدا من الأربعة الذين اجتمعت عليهم هوازن كلّها في الجاهليّة ولم تجتمع على غيرهم. ص 254.

له الأحوص: ما أرى بات في كنانتك الليلة رأي واحد! وعرض النّاس آراءهم حتّى أنفدوا. فقال: ما أسمع شيئا وقد صرتم إليّ، احملوا أثقالكم وضعفاءكم، ففعلوا، ثمّ قال احملوا ضعنكم، فحملوها، ثمّ قال اركبوا فركبوا، وجعلوه في محلّة، قال انطلقوا حتى تعلوا في اليمين، فإن أدرككم أحد كررتم عليه، وإن أعجزتموهم مضيتم. فسار النّاس حتّى أتوا وادي بحارٍ ضحوة، فإذا الناس يرجع بعضهم على بعض. فقال الأحوص: ما هذا؟ قيل: هذا عمرو بن عبد اللّه بن جعدة في فتيان من بني عامر يعقرون بمن أجاز بهم ويقطعون بالنساء حواياهنّ. فقال الأحوص: قدّموني، فقدّموه حتّى وقف عليهم، فقال: ما هذا الذي تصنعون؟! قال عمرو: أردت أن تفضحنا وتخرجنا هاربين من بلادنا ونحن أعزّ العرب، وأكثرهم عددا وجلدا وأحدّهم شوكة! تريد أن تجعلنا موالي في العرب إذ خرجتَ بنا هاربا! قال: فكيف أفعل وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به! فما الرأي؟ قال: نرجع إلى شعب جبلة فنحرز النساء والضعفة والذراري والأموال في رأسه ونكون في وسطه ففيه ثمل (أي خصب وماء). فإن أقام من جاءك أسفل أقاموا على غير ماء ولا مقام لهم، وإن صعدوا عليك قاتلتهم من فوق رؤوسهم بالحجارة، فكنتَ في حِرز وكانوا في غير حِرز، كنت على قتالهم أقوى منهم على قتالك. قال: هذا واللّه الرأي، فأين كنت حين استشرت النّاس؟ قال: إنّما جاءني الآن. قال الأحوص للنّاس ارجعوا فرجعوا."[1]

فنتبيّن من هذا الخبر جملة من المسائل المهمّة التي تتواتر بشكل أو بآخر في مجمل الأخبار، وهي:

- المكانة التي كان يحظى بها الأحوص في آله بالرغم من شيخوخته وكبر سنّه وقعوده عن الغزو، فقد بقي مدبّر القبيلة تستشيره في أمورها، ولا تقطع رأيا إلاّ بأمره.
- وعي الأحوص عسر ما عُرض عليه، فردّ الأمر للقبيلة تعرض عليه الآراء فيقبلها ويُجيزها إن رأى فيها صوابا، ويردّها فلا يُعمل بها إن بان وهنها وقبحها.

1- كتب *الأغاني*: 11/ 129. 130.

- أمر الأحوص النافذ الذي يُجرى دون سؤال أو طلب بيان، فساعة أمرهم بالرحيل همّوا به أمرا لا يُرَدّ. ويظهر لنا من الخبر أنّ سلطان الأحوص هو سلطان أخلاقيّ، فهو ليس بالكاهن المنغرس في نفوس العباد كما نرى في أخبار لاحقة، وإنّما نفاذ رأيه يتأتّى من الاعتقاد في أنّه يرى ما لا يرونه، وهو ليس بصاحب البأس والبطش يستعبد الناس بالقوّة فينفذ فيهم الرأي، وإنّما هو يحظى بثقة آله وباعترافهم بتجربته وصواب رأيه، ومن ذلك كان الانصياع لرأيه في الهرب من الحرب بسبب من قوّة ما هو آت عليهم وعدم قدرتهم على المقاومة.
- قبوله للرأي المخالف له حتّى وإن أسقط أمره وردّ رأيه، وهو ما ظهر في العدول عمّا سيّر النّاس فيه وقبول رأيٍ لمّا سمعه بَدَت له وجاهته وصوابه.

وهي صورة تُعلي من شأن سيّد القبيلة، وتُذهِب رأيا ساد وغُلِّب عن استبداد الأسياد في الجاهليّة وهمجيتهم. يُظهر الخبر سماحةً وحسن إنصات للعامّة وتشريكا لهم في أمور جليلة في تسيير شؤون القبيلة. وممّا ركّز وضعه هذا، قدرته على فكّ المغلق من الرموز وتبصّره العميق بالظواهر وحسن رأيه. فتصوّره الأخبار عمادا بانقضائه يُقضى على آله، فهو صاحب الرأي إذ فكّ مغلق رموز النذير الذي أخذ عليه الأعداء المواثيق حتّى لا يكشف أمرهم، فصمت وعبّر بالإشارة التي أدركها السيّد وحلّ شفرتها فتمكّن من تحديد مواقع الغازين وعددهم ووجوههم وعدّتهم[1].

غير أنّ صورة السيّد النموذجيّة لا تتحدّد بحكمته وحسن رأيه وفطنته فحسب، وإنّما قد نجد تداخلا بين صاحب الرأي وصاحب السيف، ليجمع السيّد بين القدرة على القتال والقدرة على سياسة النّاس، ذلك أنّ قسما مهمّا من أحداث يوم "ذي قار" قد تخصّص لبيان انتظار القوم لسيّدهم، وكأنّما هم ينتظرون من أمرهم يقينا به يتحدّد موقفهم من حربهم مع الفرس، وبيانُنا لهذه الصورة داخلٌ في تفاعل جملة من الملامح لأجل إخراج صورٍ عن الجاهليّة محبّبة إلى النفوس. وخير مثال على هذه الصورة ما ظهر في خبر قيس بن الأسلت الذي مثّل شخصيّة تسود قومها ببذل النفس وترك المال والأهل دفاعا عن القبيلة

1- م.ن: 11/ 132.

وخوضا في معاركها، إذ تُسند إليه الأوس الرياسة[1] فتتغيّر حاله بعد أن فرغ إلى الحرب، وترصُد له الأخبار صورة السيّد المقاتل المحارب الذي يبذل نفسه وآله دفاعا عن قبيلته[2]. وهو رأس القوم في زمن الحرب أو هو أصبح سيّدا لهم في حال طارئة وقد رأّسوه ظرفيّا، فهو نموذج السيّد الذي يُؤتى به لحال مخصوصة أو هو صالح لأمر معلوم متى انقضى انقضت رياسته عليهم، غير أنّ مكانته محفوظة ومقامه من القبيلة مقام العليين، وهي ظاهرة تؤكّدها الأخبار، إذ الرياسة ليست مطلقة في كلّ الأحوال، فيُؤتى بصاحب الرأي زمن الرأي، ويُؤتى بصاحب الحرب زمن الحرب. ففي حرب الأوس والخزرج تتحوّل الخزرج طائعة لشخصيّة حربيّة تتولّى أمورها وهي شخصيّة عمرو بن النعمان البياضيّ[3] ويُرَأّس على الأوس أبو قيس بن الأسلت[4].

كما تظهر هذه الصورة في "يوم ذي قار" إذ تظلّ بكر بن وائل تنتظر سيّدها دون أن تقطع فيما عُرض لها من أمر كسرى بعد أن أرسل إليهم جيوشه ووسيطا يأمرهم بالطاعة وقطع الحرب إن شاؤوا، وهو أمر بمقتضاه يسلّموا رهنا من أبنائهم وحلقة النعمان التي أودعها عندهم، فلم يردّوا الجواب حتّى وفد سيّدهم، "ثمّ رُفعت لهم أخرى أكبر ممّا كان يجيء فقالوا: لقد جاء سيّدنا، فإذا رجل أصلع الشعر عظيم البطن مشرب حمرة، فإذا هو حنظلة بن ثعلبة بن سيّار بن حيَيّ...فقالوا: يا أبا معدان، قد طال انتظارنا، وقد كرهنا أن نقطع أمرا دونك، وهذا ابن أختك النعمان بن زرعة قد جاءنا، والرائد لا يكذب أهله، قال: فما الذي أجمع عليه رأيكم واتّفق عليه ملؤكم؟ قالوا: قال: إنّ اللّخيَ أهون من الوهي، وإنّ في الشرّ خيارا، ولأن يفتدي بعضكم

1-- م.ن: 17/ 67. "وكانت الأوس قد أسندت إليه حربها، وجعلته رئيسا عليها، فكفى وساد."

2- م.ن: 17/ 67. "قال هشام بن الكلبي: كانت الأوس قد أسندوا أمرهم في يوم بعاث إلى أبي قيس بن الأسلت الواثلي، فقام في حربهم وآثرها على كلّ أمر حتّى شحب وتغيّر، ولبث أشهرا لا يقرب امرأة، ثمّ إنّه جاء ليلة فدقّ على امرأته(...) ففتحت له، فأهوى إليها بيده، فدفعته وأنكرته، فقال: أنا أبو قيس، فقالت: واللّه ما عرفتك حتّى تكلّمت..."

3- م.ن: 17/ 70: "واجتمع كلام الخزرج على أن رأّسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضي وولّوه أمر حربهم."

4- م.ن: 17/ 71: "وعقد الأوس لأبي قيس بن الأسلت."

بعضا خيرا من أن تصطلموا جميعا. قال حنظلة: فقبّح اللّه هذا رأيا، ولا تجرّ أحرار فارس غرلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع الصوت. ثمّ أمر بقبّته فضربت بوادي ذي قار، ثمّ نزل ونزل النّاس فأطافوا به..."[1]. وكان ذلك أمارة على بدء الحرب وكانت وقعة ذي قار.

لقد أردنا في إطار تتبّعنا لصورة الجاهليّة كما رصدتها الأخبار أن نهتمّ بصورة السيّد، وهي صورة كان لها عميق الأثر في حياة الجاهلية، بحكم أنّهم يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، فهو صاحب الأمر إن أراد الجنوح إلى السلم، وهو صاحب الحرب إن أعلنها. ولقد أفضى بنا جردنا للمدوّنة إلى أنّ صورة السيّد لم تكن سلبيّة دوما، بل هي في أغلب الأحيان صورة قائمة على الجمع بين رجحان العقل والقدرة على الدفاع على القبيلة أو الفرع الذي يمثّله. ولقد كانت وظيفة سيّد القبيلة وظيفة مهمّة، إذ هو الذي ينزلهم منازلهم وهو الذي يرحّلهم ويختار بأمره المواقع التي تحلّ فيها القبيلة.

إنّ موقع السيّد موقع مهمّ في بنية الجماعة الجاهليّة، يقتضيه الاجتماع البشريّ، بدويّا كان أو مدنيّا، إذ أنّ هذا الاجتماع في حاجة دوما إلى من يسيّر أموره ويأخذ القرار في الحوادث التي يعرضون لها ويكون ممثّلا لهم في مختلف الحالات. ولا غرابة أن تحمل لنا الأخبار في إطار تصويرها للجاهليّة صورا شتّى عن هذا السيّد أو زعيم القبيلة وصاحب أمرها، إذ أنّ وضعه داخل في إطار هذه الصورة، وهو نموذج أو مثال للهيئتين أو الصفتين المطلوبتين في تسيير شؤون هذه الجماعة، فإن كان فارسا شجاعا ذا عزّة في قومه فهو محتلّ الإمارة بين النّاس والسيادة عليهم لغلبته في هذا الأمر، وإن كان حكيما ذا رأي نافذ فهو محكّمٌ فيهم لهذا السبب.

إنّ ما قدّمنا من نماذج يُظهر جانبا من الصورة الباهرة للمجال الجاهليّ إثباتا لشخصيّات نموذجيّة يُؤسّسها خطاب الخبر، تُرغّب في الجاهليّة، وتصرف الرواة إلى رواية مآثرها. وممّا يقوّي من هذا الانصراف إلى تقصّي هذه الأخبار عدم تعارضها مع المبادئ التي دعا إليها الإسلام، ولذلك فإنّ هذه الصورة شأنها في ذلك شأن بقيّة

1- م.ن: 23/ 229.

الصور التي نُظهرها لاحقا، قد مثّلت مجالا مهمّا للأخبار منها تظهر الخلال الحميدة، عدلا ورأيا وحسن سياسة. ولكن ينبغي أن نشير في هذا المعرض عقدا لهذه المسألة بما سبق أن أظهرناه في الباب الأوّل من دور بيّن للسائد السياسيّ في إنتاج صورة الجاهليّة، إلى أنّ ضبط صورة السيّد على هذه الهيئة داخلٌ في باب النزاع القبليّ والتفاخر بين رواة القبائل، وهي من الآثار الباقية في الأخبار. فتخصيص مقاطع لتثبيت صورةٍ للسيّد باهرةٍ، تجمع بين رجحان العقل والبطولة والشجاعة الخالية من البطش والظلم والعدوان، مسألة موصولة بمقام إنتاجي حفز على رصد هذه الصورة، وهو مقام ظاهر في صياغة صورة عبد الله بن جدعان، الذي تفخر به قريش سيّدا من ساداتها الفاضلين، وهو مستمِدّ لجملة الخلال المسنَدة إليه من دوره الثابت في تأسيس "حلف الفضول". وهو مقام ظاهر أيضا في رصد صورة الأحوص، مثالا للحكمة ورفض الاستبداد بالرأي. وهي في ذات الآن شخصيّات تتجاوز حدّ النزاع القبلي لتدخل في مقاصد، منها ما يؤسّس علاقة الخبر بالفكري والسياسي على مستوى الاستشراف والتطلّع إلى مقبل أفضل ممّا هو كائن. فالعودة إلى الجاهليّة تتضمّن بعضا من هذه المعاني التي يُتّخذ فيها الماضي شكلا لمضمون يرمي إلى معانقة مُقْبلٍ أفضل. ومنها ما يجعل الخبر محتميا بالماضي مجالا لانتقاد الحاضر. وبذلك تأسّست نماذج يُفتَخَر بها، هي لا تنقل واقعا تاريخيّا بقدر ما تحيل على واقعٍ إنتاجيّ يصبو أصحابه إلى انتقاد حقيقة الساسة بصُوَرٍ لساسةٍ تكون الجاهليّة مجالهم. فتتداخل المقاصد والمقامات، غير أنّ آثارها ظاهرة في ما يُسنَد إلى هذه الشخصيّات من خِلال، وفي ما يُرَدّ إليها من أقوال هي من قبيل الأمثال السائرة بين الناس، وفي ما صُوِّرت عليه من مواقف إن ذُكِرَ تُعلي من شأن السيّد.

إنّ صورة الشخصيّة النموذجيّة المُثلى والباهرة لا تتضمّن صورة السيّد الفاضل، العادل فحسب وإنّما هي تحوي أيضا شخصيّات بطوليّة نموذجيّة، عُرِفَت بأفعالها التي جعلتها أصولا للشجاعة والإقدام ومثالا للدفاع عن النفس وعن مضارب القبيلة بما تتحلّى به من بأس وقوّة.

ب- صورة البطل الملحمي[1].

تُصوّر الذات المتكلّمة البطل الجاهلي وتنصرف إلى بيان فعاله وخصاله وحركته في مجالٍ تحُدُّه وإطارٍ تقدّه، إنّها صورة تستند فيها هذه الذات إلى ما هو مغروس في الأذهان وإلى ما هو رائج وسائد، وتستعمل الخبر واسطة لضبط هذه الصورة وتمامها. فلِمَ هذا الاحتفاء بصُورٍ مثاليّة لأبطالٍ في الجاهليّة؟ إنّ ضبْط هذه الصور داخلٌ لا ريب في ظلّ هذا الصراع القبلي الذي ساد في الإسلام والذي تفخر فيه كلّ قبيلة بأبطالها، وقد كان لرواة القبائل دور مهمّ في تركيز جملة من النوى التي انطلق منها الرواة العلماء في وسْم الأبطال، وهو داخلٌ أيضا في البحث عن قيم مثاليّة وبطولات نموذجيّة تُحقّق مقاصد عديدة، فهي مطلب نوع من المخاطبين يبحث في الأخبار عن هذه البطولات الحاصلة في ماضي الزمن، وهي واسطة لبناء بطولة نموذجية مُفتَقَدة في واقع الحال. ولهذه الأسباب فإنّ مقامات عديدة تحكّمت في صياغة هذه الصورة، منها ما هو موصول بالصراع القبلي، ومنها ما هو موصول بمقتضى الحال من علاقات تخاطبية، ومنها ما هو موصول برغبة الشعوب في تمجيد أبطال ماضيها.

لقد حَوَت المدوّنة صُوَرا عديدة لأبطال الجاهليّة، وهي صُوَر حاصلة داخل الخطاب ونامية فيه، منها تتشكّل وتتحدّد ملامحها. والاحتفاء بنماذج بعينها، تدور عليها الأخبار يحيلنا إلى مراكز بطوليّة حدّدتها الصراعات القبليّة وحدّدتها أيضا الثقافة الإسلامية، تبئيرا لنماذج وإهمالا لأخرى. وتلحق هذه الصوَر ما يلحق الخبر في صورته العامّة من إيجاز واقتضاب، إذ تظلّ ملامحها غائبة، ويقع التركيز على بيان أفعالها بصورة متسارعة.

إنّ أخبار البطولة تمثّل شقّا مهمّا من المدوّنة وهي مجال سرديّ مهمّ لا يتركز فيه السرد غالبا على الالتفاف حول الشخصيّة وصفا لها ووسما وإنّما ينصرف المتحدّث إلى بيان الأفعال بطريقة مقتضبة، مقتصرا على ذكر الفعل، أو القول دون

1- نقصد باستعمالنا لمفهوم البطل الملحميّ الشخصيّة المقاتلة المحاربة، المتّسمة بصفة الشجاعة والإقدام، المشاركة بدور فاعل ومؤثّر في حروب القبيلة، الذائد عنها غزو الغزاة ونهب الناهبين الغائرين.

الحال والتوسّع في إظهار الخلال. غير أنّه بالرغم من ذلك فإنّا نتبيّن أسماء متعاودة في أغلب الوقائع والنزاعات، وهي أسماء أبطال تميّزت بهم الجاهليّة، وقد كان الشقّ الأكبر منهم منخرطا في ما ساد من حال نزاع مدافعا ذائدا عن آله محافظا على كيانه. وقد صُوِّر القتال جزء من الحياة اليومية لضمان البقاء.

تُعَدّ الفروسيّة والقدرة على القتال والثبات في حالات الحرب والتحلّي بأخلاق المقاتل وصفاته المثاليّة من القيم الثابتة في تصوير شقّ كبير من الشخصيّات الجاهليّة، إذ هي تتحدّد في بيان أفعالها وخلالها بهذه القيم التي تُمثّل أكثر الصفات اشتراكا بين الشخصيّات. وقد تبيّنّا غلبة هذه الصورة في وسم شخصيّات الجاهليّة[1] وتركيز الذات المتكلّمة ومن ورائها الرّواة الرؤوس على إخراج صورة لأبطال "مثاليين" قادرين على النفاذ من المآزق التي يقعون فيها، أشدّاء ساعة اشتعال المعارك، نُزع الخوف من قلوبهم. وهي شخصيّات وإن لم تُمثّل مركز رؤية ومحطّ تبئير ذكرا لخلالها وخصالها وتوسّعا في رصد حركتها فإنّ وجودها بصفاتها المجملة وما تأتيه من أفعال مختصرة الذكر قد شكّل جانبا قارّا من جوانب صورة الجاهليّة. فكان الشقّ الأكبر من

1- 1- انظر على سبيل المثال جملة من السمات التي تحدّد بها الذات المتكلّمة بعضا من شخصيّاتها:

- خفاف بن ندبة "وهو شاعر من شعراء الجاهليّة وفارس من فرسانهم".الأغاني: 18/ 22.
- عمرو بن معد يكرب "فارس اليمن، وهو مقدّم على زيد الخيل في الشدّة والبأس" م.ن: 15/ 162.
- قيس بن عاصم "وهو شاعر فارس حليم كثير الغارات، مظفّر في غزوانه." م.ن: 14/ 66.
- ربيعة بن مكدم "أحد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين." م.ن: 16/ 24.
- دريد بن الصمة "فارس شجاع." م.ن: 10/ 3.
- عنترة بن شدّاد "فارس" وإن لم يُوسم في بداية تقديم أخباره. م.ن: 8/ 235.
- الفند (سهل بن شيبان) "وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين، وشهد حرب بكر وتغلب، وقد قارب المائة السنة، فأبلى بلاء حسنا." م.ن: 23/ 253.
- الحارث بن الطفيل "شاعر فارس" م.ن: 13/ 220.
- زهير بن جناب "كان سيّد بني كلب وقائدهم في حروبهم، وكان شجاعا مظفرا ميمون النقيبة في غزواته." م.ن: 18/ 301.

مدوّنة أخبار الجاهليّة متركّزا على بيان بطولة الشخصيّة، وقد ظهرت هذه البطولة أساسا في ما تعرض له الشخصيّات من مواقف إمّا بصورة منفردة معزولة أو صحبة جمع القبيلة. وقد مثّلت الأيّام الصورة المثلى للبطولة، فلقد كانت أرضا خصبة لبيان فعال هذه الشخصيّات وذكر بطولاتها وأمجادها، فالأيّام لها أبطالها الفاعلون المحقّقون لانتصارات قبائلهم، تظهر صورتهم في المعارك التي يخوضونها، وفيما يبدونه من بأس وشدّة، ومن ذلك ما رصده لنا الرّواة لجملة من الشخصيّات التي برزت في هذه المعارك وكان لها الشأن الأكبر والدور الأجلّ في تحقيق الظفر أو في الاستماتة صمودا.

وهي صورة من الصور التي يتأسّس فيها رصد فضاء جاهليّ يحوي أمجاد البطولات ونماذج الفروسيّة والشجاعة المطلقة، إذ تقدّ الأخبار بتفاعلها واستقلالها شخصيّات قادرة على الذود عن قبائلها، وهي شخصيّات تجمع بين هذه القدرة القتاليّة وبين قيم أخلاقيّة فاضلة.

ونضرب على ذلك مثلا صورة لُقيط بن زرارة الّتي توزّعت في عدد من الأخبار واستقطبت المجال السردي الأخباريّ وحامت حولها أخبار عديدة تبرز مختلف حالاتها ومواقفها وأفعالها، فهي صورة لشخصيّة تشارك مشاركة الفاعل في "يوم أوارة" وفي "يوم رحرحان الثاني" وفي "يوم شعب جبلة". فتُفرَد صورته في ما يلي يوم أوارة أو ما يتبعه من نتاج يُلحقه الرّواة وتستقطب مجالا سرديّا، لتنمو هذه الصورة داخل الخطاب وتتعاضد الأخبار راصدة لها، وهي صورة البطل الوفيّ لنذره المحقّق لأقواله، إذ تتأسّس الصورة من تحدّ يفضي إلى أن يأخذ البطل على عاتقه تحقيق ما تعهّد به، "فقال له زرارة: لقد أصبحت تصنع صنيعا كأنّما جئتني بمائة من هجان المنذر بن ماء السّماء أو نكحت بنت ذي الجدّين قيس بن ضالّة، قال لقيط: للّه عليّ ألاّ يلمس رأسي غسل ولا آكل لحما ولا أشرب خمرا حتّى أجمعهما جميعا أو أموت"[1]. وكان له ذلك إذ حقّق العهد الذي قطعه على نفسه أمام والده، وكان في مستوى التحدّي الذي ضربه أبوه إعجازا له. وفي إطار تبادل أدوار الحكاية ومزيدا في إحداث الأثر في الذوات المخاطَبة

1- م.ن: 22/ 195.

يُسنِد المتكلّم القول إلى شخصيّة راوية هي زوجة لقيط، ومن وَسْم زوجها وتعداد خلاله الفاضلة يتأسّس جانب من صورة الشخصيّة البطوليّة. فهي ترصد صورته في موقف معها إذ تكثر من ذكره بعد أن مات وتزوّجت من رجل من قومها "قالت: خرج في يوم دَجنٍ، وقد تطيّب وشرب، فطرد البقر فصرع منها، ثمّ أتاني وبه نضح دماء، فضمّني ضمّة وشمّني شمّة، فليتني متّ ثمّة، فلم أر منظرا كان أحسن من لقيط". فيجمع هذا القول أفعالا عديدة تأتيها الشخصيّة من تطيّب وشرب وطرد للبقر وتزيّن بالدماء..تجعل المرأة مقبلة عليه راغبة فيه. ولمّا أراد زوجها أن يكون على هذه الهيئة علّه يلقى منها ما لقي لقيط أو علّه بما يفعل ينسيها ذكر لقيط، "قالت: ماء ولا كالصدّاء ومرعى ولا كالسَّعدان"[1].

وهو يخرج في "شعب جبلة" مطالبا بدم أخيه "معبد" مناصرة لبني ذبيان وهو من رؤساء بني تميم[2]. فيُبرّزه الراوي من جملة المقاتلين، ويخصّه بالتتبّع بيانا لشدّة قتاله ولحثّه النّاس على البقاء والصمود بعد أن فتروا، فتتركّز عليه الرؤية وهو يقاتل بشدّة ويعد بخمسين ناقة لمن يكرّ، ويكرّ هو فيطعنه شريح فيموت[3] "وجعلت بنو عبس يضربونه وهو ميّت" نقمة وكرها له بما فعله بهم[4].

فعلى "لقيط بن زرارة" من حيث هو شخصيّة بطوليّة تُقَام أحداث عديدة، هو آتيها وصاحبها، وتتحدّد له جملة من الخلال التي تُركّزه في هذا الوضع وتصرف الرواة إليه.

وينصرف المجال السرديّ في يوم "ذي قار" في قسم مهمّ منه إلى بيان صورة السيّد الحكيم الفارس صاحب الرأي، وهي خصال متى اجتمعت في صاحبها بوّأته المكانة العليا من القبيلة، وقد ظهرت هذه الصورة في شخص "حنظلة بن ثعلبة" وهو السيّد المنتظر الذي كانت الحرب بأمره إذ نراه يجنح إلى فعل دالّ على بطولته التي لا تظهر في حسن القتال والقدرة الجسديّة فحسب وإنّما هي ظاهرة فيما يتّخذه من مواقف بطوليّة

1- م.ن: 22/ 198.
2- م.ن: 11 / 127.
3- م.ن: 11/ 136. 137.
4- م.ن: 11/ 137.

تبين إقدامه وإقباله على الحرب إقبال الراغب فيها، الباذل كلّ ما يملكه فيها، فبالإضافة إلى القرار الذي اتّخذه بمواجهة الفرس وإعلان الحرب على كسرى، نجده يقطع وضين امرأته ثمّ بعد ذلك يقطع وُضن الظعن لئلاّ يفرّ عنها الرّجال وكان صاحب الخطّة الحربيّة إذ أمر بالعجلة في اللّقاء والبدء بالشدّة اتّقاء لنشاب الأعاجم[1]. وهو بذلك يؤسّس صورة البطل النموذجيّ الفعّال في إطار رصد جاهليّة حقيقة بالافتخار.

ويصوّر لنا الرّواة في خبر حرب البسوس حالة بطل من أبطالها، وهو جسّاس قاتل كليب بن وائل، إذ يظهر على حالة مميّزة ساعة يأتي فعلا عظيما، "فلمّا قتله أمال يده بالفرس حتّى انتهى إلى أهله. قال: وتقول أخته حين رأته لأبيها: إنّ ذا لجسّاس أتى خارجا ركبتاه، قال: والله ما خرجت ركبتاه إلاّ لأمر عظيم![2] فيدرك والده من إقباله عليه بهذه الهيئة أنّه قد قتل كليبا. وهي ذات الهيئة التي يراها عليه أخوه همّام فيعلم أنّه أتى أمرا عظيما[3].

وتُخصّ الذات الرائية في هذا اليوم شريح بن الأحوص ليكون مركز الرؤية في مقطع من مقاطع الخبر تُرصَد أفعاله وهو يصيب رؤوس القوم وفرسانهم ومنهم لقيط بن زرارة وحسّان بن عامر بن الجون وحوشب[4].

وتتوضّح لنا هذه الصورة فيما يعتمده الرواة من وسائط بغاية تركيز قيم البطولة في الجاهليّة ومزيد التأثير في المخاطَبين،إذ يُتّكأ على عمرو بن معد يكرب تثبيتا لبطولاته، ويتحدّد له وضع البطولة من خلال بيان أفعاله، ويكون في ذلك هو مركز نظر الراوي ومحطّ التبئير، ثمّ يقع توظيفه بعد ذلك أداة من أدوات الخطاب، إذ يتحوّل من محلّ الشخصيّة المبأّرة إلى محلّ الشخصيّة المبئّرة، ومنه تُعرض نماذج البطولة المطلقة في الجاهليّة. ففي خبر عمرو بن معد يكرب صورة عن شدّة قتاله في أوّل بروزه،

1- م.ن: 23/ 230.231.

2- م.ن: 5/ 33.

3- م.ن: 5/ 34.

4- م.ن: 11/ 140.

"فركب ثمّ رمى خثعم بنفسه حتّى خرج من بين أظهرهم ثمّ كرّ عليهم وفعل ذلك مرارا، وحملت عليهم بنو زبيد فانهزمت خثعم وقهروا، فقيل له يومئذ فارس زبيد"[1]. وقد كانت قبيلته آنذاك راجعة من حربها مع خثعم وقد انهزمت، فأظهر هذا البأس وعرض للقوم مفردا فقلب الهزيمة انتصارا ولم يكن آنذاك يُعرف بهذه الشدّة.

ثمّ تنقلب الشخصيّة بحكم ما وضعها البطوليّ إلى تبئير شخصيّات أخرى يُشهَد لها بمضارعة الشخصيّة المبئّرة و بالتفوّق عليها. ويظهر ذلك في تصوير عمرو بن معد يكرب لأبطال الجاهلية وفرسانها في الخبر الذي يعرض فيه للأبطال الذين يشكّلون خطرا عليه أو أنّ مواجهتم قد تفضي به إلى الهزيمة "قال معد يكرب: لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلّها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقني حرّاها وعبداها، فأمّا الحرّان فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وأمّا العبدان فأسود بني عبس يعني عنترة، والسُليك بن السّلكة، وكلّهم قد لقيت، فأمّا عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت، وأمّا عتيبة فأوّل الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت، وأمّا عنترة فقليل الكبوة شديد الجلَب، وأمّا السليك فبعيد الغارة كاللّيث الضاري."[2]

وهذا الخبر يتمّم الصورة فيرصده في الإسلام وقد شاخ وتعدّى المائة سنة، يرمي بنفسه في حرب القادسيّة، فيُؤتى بالفرس الأوّل والثاني حتّى يركبه للغزوة فيقعي الفرس ولا يطيق حمله، وهو يأخذ برجل فرس رجل من العجم فيعجزها عن الحركة حتّى يتركها راكبها ويلوي فارّا[3].

هذا الذي يحافظ على قوّته حتّى بعد أن عجز وشاخ في خبر يروي محاولة أحدهم أن يختبر ما بقي من قوّة أبي ثور عمرو.. فيدخل يده بين الساق وبين السرج فيفطن عمرو به ويضمّها عليه ويحرّك فرسه ويجرّه ثمّ يقول "يا ابن أخي إنّ في عمّك لبقيّة بعد"[4]

1- م.ن: 15/ 162.
2- م.ن: 15/ 167.
3- م.ن: 15/ 169.
4- م.ن: 15/ 173.

ويُذكَر دريد بن الصمّة في أكثر من موضع فارسا شجاعا[1] يُلاقي أبطال الجاهليّة ويشتدّ في مقاتلتهم، وقد كان شخصيّة فطنة حكيمة ساعة الصراع والمقاتلة، وتظهر هذه الحكمة في اختيار المواقع التي منها يُقاتل وفي كيفيّة استعداده للحرب وتهيّئه لها[2].

وقد تركّزت بطولاته على تحقيق هدف دارت عليه أخباره، وهو الأخذ بثأر إخوته وأبيه وابن عمّه، فكانت جملة حروبه متوجّهة لتحقيق هذا الهدف. فالثأر هو الدافع الرئيس لبروزه بطلا في الحروب، يغير على بني عبس فيقتّل ويأسر، إمّا في مشاهد يُرصَد فيها فردا يتتبّع أعداءه، أو هو يُبرَّز داخل الصراع القبليّ الجماعيّ كما هو الشأن في غارته على بني عبس ثأرا لأخيه في "يوم الغدير"[3].

وتُصوّر الأخبار حاله وقد شاخ، فتصف فارسا قد تركت الخيل آثارها في جسده، دلالة على دوام ركوبه الخيل. فيُصوَّر ساعة موته على لسان قاتله وقد بانت فيه هذه الآثار "لمّا ضربتُه بالسيف سقط فانكشف فإذا عجانه وبطن فخذيه مثل القراطيس من ركوب الخيل أعراء."[4]

وهؤلاء الأبطال بما يتميّزون به من شِدّة قتاليّة وإقدام، لهم القدرة على ضمان النصر قبل بدء المعارك، وخير مثال على ذلك أنّ بني حنيفة تُرسل عضدا لبني شيبان في حربها مع بني تغلب سبعين رجلا ومعهم الفند الزماني عدًّا، وتعلن أنّها أرسلت ما قيمته ألف رجل بسبب من مكانة الفند الزماني وصحبه وقدرتهم على القتال[5].

1- م.ن: 10/ 3.
2- م.ن: 10/ 30.
3- م.ن: 10/ 11.
4- م.ن: 10/ 32.
5- م.ن: 23/ 254.

ولهؤلاء الأبطال خصال أخلاقيّة تنضاف إلى قوّتهم القتاليّة، فالشخصيّة البطوليّة لا تكتسب قيمتها من شجاعتها وفروسيّتها فحسب وإنّما هي تتحلّى بصفات تُكمّل الصفة الأساسيّة، مثل العفو عند المقدرة وإيواء المستجير والحلم ...ومثال هذه الصورة شخصيّة "قيس بن عاصم" وهو شاعر فارس شجاع حليم كثير الغارات، مظفّر في غزواته."[1] ومن سماته الكرم إذ هو في اليوم الثاني من زواجه يسأل زوجته عن أكيله إذ تضع له العشاء[2]. وحسن الجوار إذ جاوره أحد فهو حاميه وذائد عنه. ومن ذلك الخبر الذي يروي مجاورة رجل من القين من قضاعة له ومدح العبّاس بن مرداس لقيس بن عاصم بسبب من حسن الجوار[3]. والحلم في أشدّ المصائب عندما قتل ابن أخيه ابنا له وجاؤوه بالقاتل مكتوفا، "فقال: ذعرتم الفتى. ثمّ أقبل عليه فقال: يا بنيّ، نقصت عددك، وأوهيت ركنك، وفتّت في عضدك، وأشمتّ عدوّك، وأسأت بقومك. خلّوا سبيله، واحملوا إلى أمّ المقتول ديّته، قال: فانصرف القاتل وما حلّ قيس حبوته، ولا تغيّر وجهه."[4]

وهذا ما أدّى إلى أن تُنقَل عنه صورة الشخصيّة الجاهليّة المثاليّة التي ينصرف إليها الأخباريّون تتبّعا لأفعالها ولحركتها، وقد كان قيس يحظى بمنزلة مهمّة عند الرسول بعد أن دخل الإسلام بالرغم من أنّه قد أتى فعالا في الجاهليّة نكرها الإسلام ورفضها، فكان أهمّ شخصيّة أسند إليها فعل وأد البنات في الجاهليّة. فكان إذا دخل على الرسول قال: "هذا سيّد أهل الوبر."[5]

ومن أسباب الانصراف إلى ذكر أخباره والاحتفاء به شخصيّةً بطوليّة مثاليّةً لها الدور الفاعل في الجاهليّة، وتحظى بالاحترام في الإسلام، جنوحه إلى تحريم الخمر[6] على

1- م.ن: 14/ 67.

2- م.ن: 14/ 68.

3- م.ن: 14/ 69.

4- م.ن: 14/ 70.

5- م.ن: 14/ 71.

6- م.ن: 14/ 71. 79. 80.

على نفسه قبل الإسلام وقد أدرك ما تفعله بالمرء من سوء. فكانت هذه القيم والصفات المسندة إلى الشخصيّة مبينة عن تصوّر الرّواة المسلمين للنماذج البطوليّة الجاهليّة، وقد جمّعوا في شخص قيس بن عاصم جملة القيم المثلى والأخلاق الحسنة، سيادةً وحسن جوار وعفوا وحلما وكرما وشجاعة وغزوا وظفرا.

فالبطل الجاهليّ له -في الغالب- صفات حميدة يتحلّى بها فهو لا يطلب الدم لأجل سفكه، وإنّما هو داخل في حروب متى تأكّد من نصره عفّ عن القتل وانتهى. وقد كانت هذه صورة أبي قيس بن الأسلت الذي يعطي تعاليمه لآله عند الحرب وبعد أن تيقّن من غلبته "اقتلوهم حتّى يقولوا بزا بز"[1]، وهي كلمة كانوا يقولونها إذا غلبوا بالرغم من وجود معارضين أو من وجود أصوات تنادي بضرورة القضاء نهائيّا حد الفناء في حربهم مع الخزرج. وهو يبلغ حدّا يخالف فيه آله عندما يأسر مخلّد بن صامت الساعدي ويطالبه ناس من قومه بقتله فيخالفهم ويخلّي سبيله[2].

تؤسّس الأخبار صورة البطل الملحمي النموذجيّ الذي يصارع الموت ويصرع الأبطال المشاكلين له[3] ويُرهب باسمه وقوّته الأعداء. ويظهر هذا البطل في النزاعات القبليّة، وموقعه موقع ضروريّ في بنية الاجتماع الجاهليّ، فلكلّ قبيلة أبطالها وفرسانها المذكورون الرائجة أخبارهم، تُصاغ صورة البطل الأسطوري بوسائط السرد إذ تورد الذات القائلة مجمل أفعاله، وتصور وقع أثره في الفضاء الجاهلي، ولا ريب أنّ الجاهلية شأنها في ذلك شأن كلّ الحضارات قد حوت أبطالا قد التبست أخبارهم بالأسطوري. فالشخصيّة البطوليّة تنمو داخل الخطاب عبر سرد الأحوال والأفعال لتتّخذ هيئة الشخصيّة التي لا تُقاوَم. ويحوي سرد الأحوال في بعضٍ من المقاطع تصويرا لهذه الشخصيّة التي تخرق العاديّ على هيئة ما بدت عليه شخصيّة "حضير في "يوم بعاث" من

1- م.ن: 17/ 71.

2- م.ن: 15/ 75.

3- تصوّر الأخبار في عدد من المواضع لقاء الأبطال، على شاكلة لقاء عمرو بن معد يكرب في رواية له مع ربيعة بن مكدم، فيصفه خير وصف ويجلّ فروسيّته وشجاعته، ويُغلّبه.م.ن: 16/ 34. 16/ 36.

تصوير الراوي لجسده الذي يتحوّل وفقا لانفعالاته رغبةً في الحرب ونفورا من الجُبن، "وقد بدت خصيّاه من تحت البرد، فإذا رأى منهم ما يكره من الفتور والتخاذل تقلّصتا غيضا وغضبا، وإذا رأى منهم ما يحبّ من الجدّ والتشمير في الحرب عادتا لحالهما"[1]. وهو بسببٍ من هذا المهاد المبين عن حاله اندفاعل إلى الحرب وغضبا من تركها والعزوف عنها، يُمثّل مركزا داخل الخطاب يرصده الراوي في مختلف حالات حربه، وهو متى رأى من أهله فرارا طعن فخذه وبقي محلّه حتّى يجبرهم على ملازمة ساحة الوغى[2]. وتحوّل اللاّحق بالبنية الجسديّة للشخصيّة البطوليّة أمر متعاود في أخبار الجاهليّة، وخذ مثالا ثانيا على ذلك ما بدا من حال جسّاس في بدء حرب البسوس ساعة قتل كليبا إذ أتى على أهله "خارجا ركبتاه"[3] وهي فيما تذكره الشخصيّة في قولها تُلازم جسّاسا إذا ما أتى أمرا عظيما[4].

وكثيرا ما نلحظ في إطار تصوير الشخصيّة البطوليّة بيانا لقدرتها على مقاومة الجمع وهي منفردة، ومن ذلك ما صُوِّر عليه عمرو بن معد يكرب من حال غريبة فيما يأكله، فهو يأكل فرقا من ذرة وعنزا، وهو أيضا في إطار ضبط هذه الصورة يكرّ على خثعم منفردا بعد هزيمة قومه فيخرج من بين أظهرهم ويعاود الكرّ عددا من المرّات حتّى يقلب هزيمة قومه نصرا[5]. وهي نفس الأفعال التي أتاها عنترة بصورة منفردة أيضا إذ يكرّ ويستنقذ نعم قومه[6]، ويقلب هزيمة قومه أكثر من مرّة فوزا[7].

والجدير بالملاحظة أنّنا نظفر بهذا الاحتفاء بالفرد البطل إعلانا لبطولاته ولقدرته القتاليّة، ولكنّ عين الرائي لا تُسلَّط عليه لإتمام صورته ولا تتبّعه في مختلف

1- م.ن: 17/ 71.
2- م.ن: 17/ 72.
3- م.ن: 5/ 33.
4- م.ن: 5/ 33.
5- م.ن: 15/ 162. 163.
6- م.ن: 18/ 238.
7- م.ن: 18/ 238.

حالاته وخاصّة منها تلك التي تجسّد بطولاته، وإنما هي ذاكرةٌ ظفره وبعضا من الأفعال التي يأتيها دون تعمّقٍ النظر فيه أو عليه، فأغلب الشخصيّات المذكورة في المدوّنة تتحدّد بفروسيّتها وكأنّ الفروسية والقدرة القتاليّة ميزة ثابتة لدى أغلب الجاهليين. وهي مسألة موصولة ببنية الخبر الحدثيّة، ففي أخبار الأيام -على سبيل المثال- كنّا قد لاحظنا توسّعا ظاهرا في بيان الأسباب التي أدت إلى اليوم وطرائق الاستعداد له وهو المقطع المهمّ في البنية الحدثيّة لليوم غير أنّ المقطع المتعرّض للحرب أو للالتحام بين الجماعتين المتصارعتين يكون متسارعا معلنا عن الفائز والمنهزم وهو ما جعل العين الراقبة تُهمل تتبّع أبطال هذه الأيام، لتحتفي ببطولة القبيلة.

ليست ميزة في الجاهلية أن وجد هؤلاء الفرسان ولا خصيصة تفرد هذا الفضاء كما نجد ذلك في أغلب الكتب التي آثرت أن تثير حياة الجاهلية وتعرض لأبطالها، بل أغلب الظنّ أنّ شقّا مهمّا من هذه البطولات قد أذهبته المصفاة الإسلاميّة وغضّت عنه الطرف في مراحل التدوين والجمع المختلفة، ولا نحتاج لهذه المآثر والأمجاد لغاية الإثبات التاريخي، وإنّما لغاية الوقوف على الطرائق المعتمدة في بناء صور أبطال الجاهلية الذين ظلّوا في المدوّنة التي نعتمد مشدودين إلى وقائع هي الأهمّ فوُصِلوا بالأيّام ولم تظهر بطولاتهم إلاّ في مقامات نادرة.

إنّ ما أظهرناه من شخصيّات بطوليّة داخل في إطار ضبط صورة عن الجاهليّة باهرة هي في جانب كبير من رصد ملامح شخصيّاتها مشدودة إلى عاملين أساسيين، عامل الصراع القبلي في الإسلام الذي بعث هذه الشخصيّات من رمادها في مقام الافتخار، وعامل تقبّل الإسلام لهذه الصور وبعثه لها، فنحن نجد على سبيل المثال أنّ صورة عنترة البطل الجاهليّ الذي تؤسّس الأخبار صورته لتُقام فيما بعد سيرته، وفقا للملامح العامّة التي ضبطتها الأخبار ومنها كان المنطَلق لتأسيس شخصيّة أعلق بالأسطوريّ منها بالواقعيّ، قد حظيت بتقدير الرسول لها، إذ يقول «ما وُصِف لي أعرابيّ قطّ فأحببت أن أراه إلاّ عنترة»[1]. إضافة إلى اهتمام بعضٍ من الصحابة بالنماذج

1- م.ن: 8/ 240.

البطوليّة الجاهليّة وسؤالهم عن طرائق حربهم وعن مدى مطابقة القول الذي يروج عنهم بالواقع[1]. وجزء كبير من صورة عمرو بن معد يكرب البطوليّة مستمدّة من اتّصاله بالرسول ودخوله الإسلام ومحاربته مع المسلمين، ولذلك كان في حالات عديدة هو الشخصيّة الراوية التي تُعتَمد لتصوير أبطال الجاهليّة.

غير أنّ الصورة الباهرة لا تُقصَر على ما تميّزت به الجاهليّة من أبطال نموذجيين مثاليين، وإنّما هي تشمل أيضا جملة من الشخصيّات الفاضلة التي عُدّت أصول القيم الأخلاقيّة وأمثلتها المطلقة، وهو ما نعرض له في العنصر التالي من هذا الفصل.

ج- صورة الشخصيّة الفاضلة.

إنّ صورة الجاهليّة تتأسّس على جملة من المواضيع الكبرى التي يختصّ بها هذا الفضاء، من حيث أنّه أصل الفضائل ومنبعها، ومن حيث احتواؤه لنماذج أولى برزت في تحلّيها بقيَم أخلاقيّة قبلتها الذائقة الإسلاميّة ووظّفها في مقام التنازع القبليّ في مجاله، فالافتخار لم يقتصر على الاحتفاء بنماذج البطولة والشدّة والبأس وإنّما شمل أيضا التباهي بالانتماء إلى نماذج كان لها الحضور الفاعل من حيث اتّسامها بقيَم فاضلة. وعلى ذلك فإنّنا نلحظ انصراف الأخبار إلى تتبّع هذه النماذج التي اختصّت بقيمة من القيم الفاضلة كرما أو إباء ضيم أو دفاعا عن الظعائن أو وفاء..وهي تيمات قد مثّلت مجالا اختصّت به الجاهليّة باحتوائها لنماذجها الأولى والنموذجيّة التي تحولت إلى مضرب مثل، واستفطبت اهتمام الرواة.

فالجاهليّة تُعَدُّ زمن الفضائل الأولى، ذلك أنّ المجال الجاهليّ قد حوى عددا من النماذج التي تصدر عنها قيمٌ إذ تُوتى تُعلي من شأن صاحبها وترفعه وآله، وإذ تُترك تحطّ من

1- م.ن: 18/ 242 "قال عمر بن الخطّاب للحطيئة: كيف كنتم في حربكم؟ قال: كنّا ألف فارس حازم. قال: وكيف يكون ذلك؟ قال: كن قيس بن زهير فينا وكان حازما فكنّا لا نعصيه. وكان فارسنا عنترة فكنّا نحمل إذا حمل ونُحجم إذا أحجم. وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأي فكنّا نستشيره ولا نخالفه. وكان فينا عروة بن الورد فكنّا نأتمّ بشعره. فكنّا كما وصفتُ لك. فقال عمر: صدقت".

قدره وتنزّله أسفل المراتب. وقد مثّلت هذه الفضائل شخصيّات كانت مراكز رؤية المتكلّم ومدارا لعدد من الأخبار ومحاور حدثيّة استقطبت مجالا سرديا مهمّا.

ومن هذا المنطلق كان انصرافنا في إطار تتبّع ملامح الصورة الباهرة إلى بيان هذه النماذج وإظهار طرائق بنائها في الأخبار، وقد كان احتفاء الرواة بقسم مهمّ من هذه الشخصيّات المثالية راجعا إلى دفاع الإسلام عنها وتأسيسه لما اختصّت به من قيم، وإلى دخولها مجال النزاع القبلي والشعوبي واتّخاذها مستندا للمفاخرة.

وقد آثرنا أن نعرض لهذا المجال دون كبير توسّع بغاية الوقوف على أهمّ سماته، وما كان فيه غالبا من قِيَم ميّزت الجاهليّة وبعثت فيها نماذج عليا تُرَدّ إليها هذه القيم وتمثّل مطلق تجسيدها.

◈ **الإجارة.**

يتمثّل الجوار[1] في اللّجوء إلى جهة معيّنة تُمكّن طالبه من حقّ بمقتضاه يجري على المستجير ما يجري على المجير، إذ يدخل في آله، يحميه ممّا يحمي منه نفسه، ويُطالب بدمه إن قتل، ويؤدّي له الديّة ويُناصره ويعضده. فالأعشى -على سبيل المثال- يطلب مجيرا يجيره من الإنس والجنّ ومن الموت، وهو ظافر بعد بحث وطلب بمن يحلّ هذا اللّغز، ويقبل إجارته[2]. فالمجير في الفضاء الجاهليّ من حقّه أن يُطالب بدم جاره وأن يُؤدّي ديّته إن عجز عن ذلك[3].

ومن سمات السيّد الجاهليّ الشريف أن يُذكَر بحسن جواره وحمايته لطالب الجوار، وأن يُدخله في ما تدخل فيه القبيلة.

وهنالك مظهر ثان للجوار، يتمثّل في الاستجارة من القتل والإبادة زمن الحرب، ومنه إجارة سعد بن معاذ الأشهليّ لبني سلمة في حرب الأوس والخزرج، إذ

1- للتوسّع انظر: حسين الحاج حسن: *حضارة العرب في عصر الجاهليّة*. المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1984. ص104.

2- *كتاب الأغاني*: 9/ 117.

3- م.ن: 3/ 20.

ظهرت الأوس وغلبت وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها، فخرج سعد بن معاذ الأشهليّ حتّى وقف على باب بني سلمة وأجارهم وأموالهم جزاء لهم بيوم الرَّعَل، وكان للخزرج على الأوس يوم، يُقال له مغلّس ومضرِّس، وكان سعد بن معاذ حُمل يومئذ جريحا إلى عمرو بن الجموح الحرامي فمنّ عليه وأجاره وأخاه يوم رعَل وهو على الأوس، من القطع والحرق، فكافأه سعد بمثل ذلك يوم بعاث"[1]. ومنه أيضا إجارة امرأة دريد بن الصمّة عندما أُسِر في غزوة لبني فراس على رهط دريد (بنو جشم)، فتنقذه، وتطلق أسره، بسببٍ من فعل سابق أعان فيه ربيعة بن مكدّم على حماية ظعائن قبيلته، وأعطاه رمحه، واحتال له على رهطه، فأجارته لفعله هذا، واستعانت ببعض من قومها لفكّ أسره ومكافأته بنعمته على دريد[2].

فالإجارة بهذه الصيغة موصول بالمكافأة والمجازاة في حالات الحرب أساسا. ويدخل في هذا الباب أيضا ما صوّرته أخبار اليوم الرابع من أيّام الفجار من إجارة سبيعة لقومها من قيس عندما غلبت قريش قيس عيلان وظهرت عليها، فأجار لها حرب بن أميّة جيرانها وأمّن من دخل خباءها، وهو ما أصبح يُسمّى بـ"مدار قيس" دلالة على استجارتهم بسبيعة وهروبهم إليها[3]، وقد مثّل "مدار قيس" منطلقا لصياغة أخبار عديدة تدور في مداره بيانا لقصّته. وهي صورة ثانية للإجارة تُضارع الأمان والكفّ عن الأذى ولا تعني المفهوم الغالب المتمثّل في إقامة المستجير بجوار المجير طلبا للنصرة والعون.

ويكون طلب الجوار حلاّ بالنسبة إلى الخلعاء والمطلوبين لأجل ثأر، أو بالنسبة إلى قبائل بتمامها تهجر مواقعها وتلجأ إلى قبائل أقوى، في إطار حياة تعجز فيها القبائل الواهنة عن البقاء معزولة، وإنّما هي في حاجة إلى من يحميها، ويظلّها.

1- م.ن:17/ 73.

2- م.ن:16/ 30.

3- م.ن: 22/ 74.

ومن أمثلة استجارة الخلعاء، وبحثهم عمّن يحميهم ويقبل إيواءهم، لجوء البراض بن قيس، وقد كان سكّيرا فاسقا، خلعه قومه وتبرّءوا منه.."[1]، إلى حرب بن أميّة طالبا الحلف والجوار، "فحالفه وأحسن جواره"[2] بالرغم من إساءة البراض إلى مجيريه، وقد كان قبوله جارا سببا في اندلاع حروب الفجار. ومن أمثلة ذلك أيضا مُجير أيّوب بن محروف جدّ عديّ بن زيد، إذ لجأ إليه هربا من دم أصابه في قومه، وهو أوس بن قلاّم أحد بني الحارث بن كعب بالحيرة فأكرمه وأقطعه منزلا له ولآله[3]. وهي صورة منتشرة في أخبار الجاهليّة تنمّ عن حركة الجاهليّ إذ يُغادر محلاّ ويركن إلى آخر، وعمليّة دخول قبيلة حديثة والإقامة بها تحت عنوان الجوار تقتضي وجود طرف يقبل جوار الوافد.

وأمّا في ما يخصّ جوار القبائل[4] فإنّ المثال الأوضح على هذه الصيغة ظاهر في بداية أحداث "يوم شعب جبلة"، وتحديدا في المقطع الباحث في سبب وقوع اليوم، ولجوء بني عبس بن بغيض حين هربوا من بني ذبيان إلى بني عامر، فكانوا ملجأهم وحمايتهم وأنصارهم في حربهم، إذ أدخلوهم في نُصرتهم وقبلوا جوارهم[5]، على علمهم بما يحمله هذا الجوار من حرب مقبلة شديدة عليهم[6] قد تطردهم من مضاربهم. ويكفي أن يقبلهم أحد أعضاء القبيلة حتّى يُقبَل جوارهم ويصير ملزما لكامل القبيلة، وذلك ظاهر في قول الأحوص بن جعفر سيّد بني كلاب، إذ خاطب ربيعة بن شكل، وهو

1- م.ن: 22/ 63.

2- م.ن.ص.

3- م.ن:2/ 81.

4- مصطفى أبو ضيف احمد: "*دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين*" ص68: "والجوار جواران: جوار جماعة كجوار بيت أو فخذ أو بطن أو ظهر أو عشيرة أو قبيلة. وجوار أفراد. وللجوارين حرمة وقدسيّة ليس أحدهما دون الآخر في الحرمة والوفاء."

5- "*كتاب الأغاني*": 11/ 126.

6- م.ن: 11/ 126. إذ يُعلن الأحوص بعد إجارته القوم "يا بني عبس، شأنكم جليل، وذحلكم الذي يطلب منكم عظيم، وأنا أعلم والله انّ هذه الحرب أعزّ حرب حاربتها العرب قطّ."

الطرف الذي لجأت إليه بنو عبس، "أظلّلتهم ظلّك وأطعمتهم طعامك؟ قال: نعم. قال: قد واللّه أجرت القوم! فأنزلوا القوم وسطهم بحبوحة دارهم"[1]، وقد أخذ الأحوص على عاتقه أن يجيرهم ممّا يجير منه نفسه[2]، وبسبب من ذلك دخلت بنو عامر حربها يوم شعب جبلة مع بني ذبيان ومن ناصرها من العرب، وكادت أن تُغادر مواضعها وأن تهرب من هذه الحرب[3].

إنّ الإجارة وفقا لهذه الصورة من فضائل قيم الجاهليّة نُصرةً للمظلوم وللمستجير الباحث عن مجير، وحماية للمخلوع المطرود من قومه، وإيواءً للضعيف التائه. وهو ضرب من ضروب العقود الضمنيّة الداخلة في المنظومة الحياتيّة الجاهليّة، أو هو من قبيل المعاهدات الضمنيّة بين القبائل، إذ لا يبقى المطرود المخلوع، الضعيف، المطلوب دون إيواء أو حياة داخل القبيلة، وإنّما هو قادر على ضمان حليف يُناصره، وعضد يسنده ما دام في حمايته. ولا يُعَامَل طالب الجوار معاملة الدخيل، وإنّما يُحتَفى به ويُسعى إلى إكرامه وإرضائه، لأنّ ذلك يدخل في محاسن صورة القبيلة وما يروج عنها من قدرة على الحماية واستطاعة على الذود عن المستجيرين بها، فالجوار من مظاهر كرم القبيلة وقدرتها وقوّتها[4].

لقد مثّلت الإجازة مركزا حدثيّا مهمّا، وسمة أساسيّة لعددمن الشخصيات الجاهليّة، والاحتفاء بهذه الصورة راجع إلى مقصد تحكّم في إنتاج الأخبار وتوجيه معانيها، وقد تمثّل هذا المقصد في إخراج جاهليّةٍ سعيدة تحوي شخصيّات–نماذج

1- م.ن: 11/ 126.

2- م.ن.ص.

3- م.ن: 11/ 127.

4- انظر مصطفى أبو ضيف أحمد: "**دراسات في تاريخ العرب** منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين" ص68، يقول: "أمّا الجوار فله صلة كبيرة بالنسب وبالعصبيّة عند العرب، فقد يتوثّق الجوار– وتتقوّى أواصره فيصير نسبا، فيدخل عندئذ نسب المستجير بنسب المجير، ويصير وكأنّه نسب واحد، وهو نسب المجير، وهو من السنن التي حافظ عليها الجاهليّون واعتدوها كالقوانين"

فاضلة، هي في جانب من تكوينها تحوي المفقود في الراهن وتحمل في ثناياها المطلوب المرغوب فيه أكثر من إحالتها على واقع حاصل في ماضي الزمن.

فمن هذه الزاوية يمكن أن ندرك الاحتفاء بصُورة شخصيات أدّت فعل الإجازة ورسمت جاهليّة مثاليّة في علاقات الأفراد والقبائل. ذلك أنّ مقام الإنتاج قد شهد مداخلة العجم للعرب وبروز ظاهرة الموالي المنتسبين إلى قبيلة من القبائل العربيّة، وقد شهد أيضا إثبات العرب لأفضالهم في ظلّ جمع الإسلام بينهم وبين شعوب أخرى. وقد نتجت عن هذا المقام الذي اجتمع فيه الصراع القبليّ مع الصراع الشعوبيّ أخبار عديدة فيها إظهار لصورة العربيّ المجير أو الكريم أو رافض الظلم.

◈ الكرم.

يُمثّل الكرم قيمة فرديّة من شأنها أن تصنع صورة للقبيلة تُذكَر فتُشكَر، وتُحسّن من موقعها بين القبائل. ذلك أنّ القبيلة لا تستمدّ قوّة حضورها من كثرة فرسانها وقوّتهم فحسب، وإنّما من موقعها ودورها الذي تؤدّيه داخل هذا الاجتماع القبليّ، ومن وفرة قيمها أيضا واحتوائها لنماذج هذه القيم يروج ذكرها بين القبائل. والكرم في هيئة إقراء الضيف وإطعام الجائع قد مثّل جانبا من صورة الجاهليّة، وقد ركّزت الأخبار على نموذجه الأعلى، وهو حاتم الطائي، فسعت إلى رصد مختلف مظاهر الكرم عنده.

وقد مثّل الكرم قيمة بدويّة مهمّة، بها يكون الافتخار وبانعدامها وافتقار القبائل لها يكون الذمّ. وقد أُجريت هذه القيمة على هذين الوجهين سمة ترفع الرجل أو تنقص منه وتحطّ من شأنه. وقد يعلو صيت الكريم فيتعدّى بذلك محض الافتخار الفرديّ إلى الإعلاء من شأن القبيلة ورفعها بين القبائل. وتظهر هذه السمة في الخبر الذي دُعي فيه حاتم الطائي للمخايلة والمفاخرة في سوق الحيرة الذي تجتمع فيه العرب كلّ سنة، إذ يدعوه بنو لام إلى المماجدة في السوق بين العرب، ويُضبَط الرهان في تسعة أفراس. ويبين الخبر معاضدة آل حاتم له حتّى لا يُفضَح ولغاية تغليبه إذ راهن على أنسابهم وأمجادهم، فسارت إليه النّعم من كلّ مكان، وهو يقصد ابن عمّ له قد انقطع عنه بسبب خصومة واقعة بينهما، فيُعلمه أنّه قد خاطر على حسبه، فيضع كلّ إبله

تحت إمرته، ويراهن بها عارضا نفسه للافتقار أو إصابة المراد من الرهان[1]، والمراد حسبٌ يفتخر به وذكر بين العرب رائج. وهي صورة منها ندرك أنّ الكرم داخل في حركة المفاخرة التي كانت تسم النزاعات بين القبائل العربيّة، وداخلة أيضا في إثبات الذات ورصد صورة للقبيلة وترويجها بين العرب، تُميّزها وتُفردها.

وينصرف المجال السرديّ لإثبات سمة الكرم ، إذ تدور أخبار حاتم الطائي على تثبيتها في مقامات مختلفة وعلى هيئات متغايرة. ذلك أنّ قرن الكرم بحاتم الطائي قد دفع الرواة إلى طلب أخبار له تبين عن هذه السمة وتؤكّدها. وعلى لك فإن تأسيس صورة الشخصيّة الكريمة لم يكن تأريخا لها أو بيانا لمظاهر كرمها، وإنّما تظهر هذه السمة في أخبارٍ فيها من متع القصّ الشيء الكثير، عقدا لإشكال وفكّا له وإيجادا لشخصيّات تُساهم في إنشاء فضاء الخطاب إنجازا قوليّا أو فعليّا.

ولقد سلف أن أظهرنا أنّ أخبار القيم الفاضلة قائمة على ثنائيّة أساسيّة تتأسّس عليها هي ثنائيّة الطلب وتحقيق الطلب، وتكون الشخصيّة الفاضلة في هذه الثنائيّة هي المطلوبة، وهي محقّقة الطلب، وغالبا ما يكون موضوع الطلب عصيّ التحقيق، ومنه تظهر صورة هذه الشخصيّة وقد تمكّنت من تخطّي الصِعاب.

لقد ركّزت أخبار حاتم الطائي صورة الجاهليّ المتخلّق بقِيَم فاضلة، فهو لا يُردّ طالب الحاجة، ويُطعَم الجائع، وقد مثّل بهذه الخصال نموذجا أعلى ومضرب مثل بما أتاه من أفعال جليلة أُسندت إليه ومثّل مركزها. فترصد الذات المتكلّمة في بعثها لصورة حاتم البدايات الأولى له ولجذوره، فتوسَم أمّه بالكرم، وتُخبَر عن ميلاده، وتُخيَّر في المنام وهي حبلى وقد أُتيت، بينه باسمه وبين "عشرة غلمة كالنّاس ليوث ساعة الباس، ليسوا بأوغاد ولا أنكاس"[2]، فتختار حاتما. وهو سبيل به يُمهّد المتكلّم لفعال هذه الشخصيّة إذ تُخرجها من المجال المألوف إلى مجال الخارق، غرسا للكرم في أصوله، وبيانا لما يمثّله المولود من قيمة آتية، ولذلك تُؤتى أمّه إعلانا بميلاد شخص جليل.

1- *كتاب الأغاني* 17/ 283. 286.

2- م.ن: 17/ 281.

فصورة الشخصيّة تتأسس داخل خطاب الخبر أجزاءً متناثرة تكتمل بتضامّ الأخبار وتعالقها، فالصورة لا تكتمل إلاّ بتمام أخبار الشخصيّة، وهو ما عبّرنا عنه بالتفاعل بين الأخبار لرصد الصورة الواحدة. وعلى ذلك فقد رُصِدت الشخصيّة في مراحل من حياتها مختلفة وفي مواقع متعدّدة، فتكون بذلك مركز تبئير المتكلّم. وقد ارتبطت مختلف أفعالها وأحوالها وأقوالها، بصفة تعلو في القيمة وتغلو على غيرها من الصفات والسمات، وبها تكتمل السمات الأخرى وتثبت، وهي سمة الكرم.

فمن مظاهر الكرم الذي يمثّله حاتم الطائي أنّه كان يهلك ماله نفقةً على عابري السبيل وطالبي الضيافة، وهو يأبى الأكل دون ضيف يُقاسمه أكله، وهو سلوك كان فيه منذ يفاعته وترعرعه، وبسبب من فعله هذا، تحوّل عنه أبوه وأقسم أن لا يُساكنه بلادا أبدا[1]. وتُورد الذات المتكلّمة عددا من الأخبار المبينة عن هذه السمة، فحاتم الطائي هو المثال أو النموذج إذا ما ذُكر الكرم فهو قرينه ومضرب المثل فيه[2]، وقد حامت حوله أخبار عديدة ممكنة الوقوع ، فهي في حياكتها وبناء أحداثها وشخصيّاتها قائمة على ما يُمكن أن يكون من إنسان يعيش حياة البداوة ويفرط في إقراء النّاس، ويُؤثر الضيف على نفسه وعلى عياله وإن كانت به وبهم خصاصة، وأخبار أخرى تخرج عن حدود الممكن لتعانق المعجز والأسطوريّ، على شاكلة خبر إقرائه النّاس ميتا[3]. والكرم الذي وُسِم به حاتم الطائيّ قد أخذ صورا شتّى من الفضائل وتعدّى حدّ الالتزام بإطعام الجوعى وعابري السبيل، إلى المساهمة في عتق الأسرى، وإلى الصدق في القول. فأمّا كرمه في المساهمة في عتق الأسرى وإن لم يكن آسرا فقد ظهر عندما أسر بعض من عشيرته فقصد النعمان بن المنذر ليُطلقهم، وهو يعتصم برفض الطعام والشراب حتّى يتحقّق هدفه[4]، وأمّا الصدق في القول فهو سمة ظاهرة في إخراجه على هيئة بها تتحقّق أقواله، ويُعبّر في شعره بما هو حاصل دون تزيّد أو تضخيم، وهو

1- م.ن: 17/ 281. 282.

2- فهو يُذكَر عند معاوية مثالا للجود: م.ن: 17/ 291.و 17/ 300.

3- انظر الخبر في صياغتيه: م.ن:17/ 300. و 17/ 287.

4- م.ن:17/ 288. 290.

يُختَبر لبيان هذا الصدق، فيُرشَّح زوجا لماوية بنت عفزر بسبب من هذه الخصال المتوفّرة فيه[1].

ويتعدّى الكرم حاتما ليشمل آله ومن اتّصل به بأسباب القرابة الدمويّة مثل ابنه أو ابنته، "وكانت سفّانة بنت حاتم من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الصرمة بعد الصرمة من إبله فتنهبها وتعطيها النّاس، فقال لها حاتم: يا بنيّة إنّ القويين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإمّا أن أعطي وتمسكي أو أمسك وتعطي، فإنّه لا يبقى على هذا شيء[2]، وقد كافأها الرسول ساعة أُتي بها في أسرى طيء، فمنّ عليها بما كان يأتيه أبوها[3]. وكانت أمّه أيضا بمنزلته في الجود[4].

إن الصورة المرصودة لحاتم الطائي تشعّ على كامل أخباره، ليرصده المتكلّم في مواقع عديدة وأحداث مختلفة، منتهاها إثبات خصاله الفاضلة، وكذا علاقاته وصلاته، فهي مشدودة بدورها إلى هذا المعنى. فالأخبار تتركّز على نواة أولى في وسم الشخصيّة ومنها يكون المنطلق لتوسع الدائرة الحدثيّة، ولوصل الشخصيّة المركزيّة بعلاقات عديدة. فنتبيّن أنّ حاتم من حيث هو شخصيّة مُبَأَّرة مثّلت محطّ رؤية المتكلّم، قد رُصِد في حالات متعدّدة، ولم يقصر المتكلّم نظره في أخباره على حدث مخصوص، وإنّما السمة هي المنطلق، فقد رُصِد في ولادته ونشأته وفي علاقاته بآله وزوجته وفي علاقاته بالآخرين كرما ومنافرةً على الحسَب.

إنّ الكرم سمة من سمات المجال الجاهليّ وإن ظهرت بصورة مباشرة في أخبار حاتم الطائي من حيث هو شخصيّة نموذجيّة، فإنّ أفعاله تتعدّى شخصه ليكون نموذج

1- م.ن: 17/ 291. 296.، في قصّته مع ماويّة بنت عفزر، وقد كانت ملكة وكانت تتزوّج من أرادت، إذ يظهر محقّقا لشعره، فاعلا لما يرد فيه من قول. وقد كان امتحان الزواج بحثا في المترشّحين وهم النابغة ورجل من الأنصار من النّبيت وحاتم عن أكرمهم وأشعرهم، فتمّ الاختيار على حاتم نظرا لتوفّر هذه الخلال فيه.

2- م.ن: 17/ 281.

3- م.ن: 17/ 278. 279.

4- م.ن: 17/ 279.

مجال وصورة لقيم أُريد تثبيتها في مرحلة من الزمن. وقد ذكرت هذه السمة في تحديد شخصيّات جاهليّة أخرى وإن لم تظهر بذات التوسّع والاقتصار عليها، كما كان الأمر في أخبار حاتم، ومن هؤلاء الذين وُسموا بالكرم ذكرا عارضا النمر بن تولب، الذي يُوسَم في تصدير أخباره بأنّه "أحد أجواد العرب المذكورين من فرسانهم"[1]. وهي سمة ثابتة في ضبط صورة عروة بن الورد يكاد بها في بعضٍ من الروايات أن يتفوّق على النموذج والمثال أي على حاتم الطائي[2].

إنّ صورة الشخصيّة الفاضلة موصولة بشكل مباشر أو غير مباشر بما ساد في واقع إنتاج الأخبار من نزاع بين العرب والأمم الأخرى، ممّا حدا بالعرب إلى توسيع الحديث عمّا يمتاز به العربي من خصال أخلاقيّة تميّزه من بقيّة الأمم الأخرى وخاصة قيمة الكرم، وهي المسألة التي يدخل في إطارها "كتاب البخلاء" لأبي عثمان الجاحظ. ومن هذا المنطَلق كان الاحتفاء بجاهليّة تحوي نماذج القيَم الأخلاقية الفاضلة، وتُتّخذ مجالا للفخر. فالتفرّغ إلى إثبات قيمة الكرم راجع إلى مقام إنتاجي به تفخر القبائل بما أصبح للعرب ميزة وخصلة بها تُجابه خصال الأمم الوافدة الداخلة في الإسلام.

إنّ الأخبار تنحو منحى دعم صورة الجاهليّ الكريم، فتؤسّس بذلك مجالا خارجا عن إراقة الدماء والصراع الدائم من أجل البقاء، لضبط صورة شخصيّة مشدودة إلى كون إنسانيّ تغلب فيها الفضائل وتسود.

◈ حماية الظعائن

نعرض في آخر هذا المبحث الوجيز لبعضٍ من القيم الغالبة على أخبار الجاهليّة إلى قيمة داخلة في علاقة الفارس الشجاع بالمرأة، حمايةً لها وذودا عنها، لأنّها بالنسبة إليه جانب مهمّ من صورته بين القبائل والأفراد، ومحافظته عليها محافظة على كرامته وعلوّه، والاعتداء عليها مسّ مباشر به وبشموخه وطعن في شرفه وحطّ من صورته. ويظهر في هذه القيمة الجمع بين القدرة القتاليّة والتحلّي بأخلاق رفيعة تجعل

1- م.ن: 22/ 286.

2- م.ن: 3/ 71 "ويُقال: إنّ عبد الملك قال: من زعم أنّ حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد"

الشخصيّة الفاضلة تُسخّر قدرتها وجماع طاقتها للذود عن ظعائن القبيلة. ولقد مثّلت شخصيّة ربيعة بن مكدّم الشكل الجامع لممكن الأفعال التي تُؤتى في هذا الغرض، فقد حصر الرّواة أخباره في بيان وقائع بطوليّة له لأجل حماية ظعائن قبيلته، حتّى لا ذكر له خارج هذا المجال، فهو بذلك يمثّل النموذج الأعلى لهذه القيمة ومضرب المثل فيها. وقد نوّع الأخباريّون في رصد الأحداث التي تؤكّد هذه الصورة وتدعّمها، فصوّر من فرط رواجه مثالا مدافعا عن الظعائن يبذل نفسه لأجل إنقاذ نساء قبيلته، فكان مشهد موته في سبيل تحقيق هذا الفعل مبينا عن شخصيّة بطوليّة ذات أخلاق سامية، فهو يقف فردا أمام جمع الغازين، الراغبين في سبي نساء بني كنانة، ويذود عنهم الخطر، ويعتمد على رمحه بعد أن أصيب ليوهم الغازين بأنّه ما يزال حيّا وقادرا على حماية نسائه والحال أنّه قد فارق الحياة، فيكون بذلك مثالا مطلقا للبطل الذي يحمي نساء قومه حيّا وميتا، وهي صيغة تُماثل الصيغة التي أخرج عليها حاتم الطائي في إكرامه طالبي الضيافة حيّا وميتا أيضا.

ومن أجل تثبيت هذه الصورة فهو يُوضَع في مواجهة فرسان عُرفوا في الجاهليّة بصلابتهم وشدّة مقاتلتهم، فينتصر عليهم ويردّهم على أعقابهم ويهزمهم شرّ هزيمة، إذ يمنعهم من سبي نسائه وأخذهم. ومن أمثلة ذلك أنّه يُوضَع في مواجهة دريد بن الصمّة فيقهر فرسانه إذ راموا استلاب ظعينة كانت معه، ويقتلهم الواحد بعد الآخر، الأمر الذي جعل دريدا يتعجّب من أمره ويكبر فعله ويجلّه[1].وكذا الأمر بالنسبة إلى عمرو بن معد يكرب الذي يسعى في أخذ نسائه غير أنّه يُواجَه ببطل فارس ذي قدرة فائقة على القتال، وهو الذي ساهم في ترويج صورته في الإسلام، إذ تُسنَد إليه رواية أخباره معه أمام عمر بن الخطّاب، عندما يسأله عمر عن أشجع النّاس في الجاهليّة فيجيبه بخبره مع ربيعة بن مكدّم وشهادته له بالإقدام والشجاعة حدّ التفوّق عليه[2].

إنّ قيم الجاهليّة عديدة، يعسر أن نقف عندها، وحسبنا منها ما ذكرنا مظهرا من مظاهر الحياة في الجاهليّة وجملة من السلوكات الموصولة بطبيعة الحياة الجاهليّة على

1- م.ن: 16/ 31.

2- م.ن: 16/ 53. 36.

المستوى الفردي أو الجماعيّ، وهي قيم تنظّم بطريقة غير مباشرة طبيعة الحياة الجاهليّة وتُؤالف بين أناسها، وهي أيضا قيم تُساهم بقسط وافر في التخلّص من صورة سائدة في وسم جاهليّة قائمة على النزاع والصراع، وكأنّ الصراع خصيصة القبائل العربيّة في الجاهليّة فحسب.

إنّ جملة هذه القيم من كرم أو حسن إجارة وجوار أو حماية للظعائن أو غيرها من القيم الفاضلة التي وردت متفرّقة في الأخبار، تمثّل مجالا مهمّا اتكأ عليه الرواة، وانطلقوا من جملة من النوى في وسْم الشخصيّات لبناء نماذج على صلة فيما يُرَدّ إليها من أحداث وخلال بزمن الإنتاج وبما كان سائدا من نزاع بين القبائل من جهة، وبين العرب ومَن داخَلهم من العجم من جهة ثانية .

د – صورة الشخصية النموذجيّة القوّالة .

يُقرَن الفعل القوليّ بالشخصيات الجاهلية، فتتحدّد به وتستمدّ سلطان حضورها في الأخبار من هذه القدرة على إنتاج الأقوال مهما كانت أشكالها ، فالشخصيّات فعّالة فحسب وإنّما هي أيضا شخصيّات قوّالة، بل إنّ هذه السمة في تحديد الشخصيّات هي الأغلب، ومنها عُدّت الجاهلية مصدر القيم الفنيّة القوليّة في الإسلام .

إنّ شقّا مهمّا من الصورة الباهرة التي تكوّن الشخصيّة عائد إلى ما يصدر عنها من أقوال عُدّت للعرب مآثر ، سواء على مستوى الأوليّة في قول الشعر وتنصيبه النموذج الأوفى والأكمل أو على مستوى ماتُجريه الشخصيّات من أقوال تصبح بعمق التجربة وثرائها أقوالا مأثورة وأمثالا سائرة بين الناس.

ومن هذه الزاوية فإنّ الشخصيّة البطولية الجاهليّة هي شخصيّة جامعة بين ما تأتيه من أفعال تميزها وبين ما يصاحب هذه الأفعال من أقوال تتخذ هيئات متعددة، وتشكّل سمة أساسيّة عليها تُبنَى الشخصيّة النموذجيّة .

تُوسَم الشخصيّة الجاهلية بسمتين أساسيتين، سمة البطولة أداءً فعليّا وبروزا في المقاتلة والشجاعة وقهر العدوان، وسمة الإنتاج القولي، سواء كان القول شعرا،

أصبح فيما بعد هو النموذج الأوفى الذي عليه تُعرَض الأشعار اللاّحقة فتكتسب قيمتها من مدى وفائها لهذا النموذج، أو نثرا يظهر فيما تمّ توارثه من أمثال يهتدى بها وتختزل تجارب عميقة وتتضمن في ثناياها أحداثا جمّة تفضي إلى تركيب المثل، كما يظهر في الأقوال المأثورة، وهي أيضا حصيلة تجارب بعض الشخصيّات في وسْم حال من الأحوال أو تقديم رؤية عن مظهر من مظاهر الحياة. ولذلك فإننا إزاء شخصيات قوّالة فعّالة، إذ تجتمع السمتان في وسْم شخصيّات الجاهليّة في أغلب الأحيان .

لقد وفّر المجال الجاهليّ عددا مهمّا من الأمثال التي سارت بين النّاس واعتمدها الرواة لبناء أخبار دائرة في مدارها، ففكّكت الأخبار هذه الأمثال وأدمجتها في مجال حدثّي صارت الأمثال بمقتضاه نتاج أفعال وخلاصة وقائع .

وعلى هذا فقد استمدت الشخصيّات قسطا من أسباب وجودها نماذج في الجاهليّة ممّا أنتجته من أقوال مثليّة، وخذ على ذلك مثالا أخبار "بيهس"[1]، فأغلب أخباره دائرة على ردّ ما نتج عنه من أمثال إلى مقامات حدثّية مثلت الدافع إلى قول المثل، فالشخصيّة تستمد وجودها داخل الأخبار ممّا وفرّته من أمثال لها قيمة في الموروث العربيّ . فالخبر لا يقتصر على ردّ المثل إلى صاحبه وإنّما هو راصد للشخصيّة في مواقع متعدّدة وسارد لجملة من الوقائع الحادثة، وتنتهي هذه الأحداث بـ"قفلة" هي المثل الذي يكون تتويجا لمسار حدثيّ مخصوص ونتاج وقائع مهّدت لكونه.

تمثل شخصيّة "بيهس" نموذج الشخصيّات القوّالة التي يتحوّل أغلب ما يصدر عنها من أقوال إلى أمثال تسير بين الناس، بالرغم من أنها وُسمت بأنها حمقاء[2]، ومن حمقها يكون بروزها في إنشاء أقوال جرت أمثالا واتخذها الناس مضربا للمثل، ومن هذه الأقوال التي صدرت عنه وفرغ إليها الرواة بيانا للأحداث التي كانت سببا في إنتاجها:

1 - "كتاب الأغاني": 23/ 533.

2 - م.ن. ص. "وكان يحمق:

- "لكن بالأثلاث لحم لايضلّل"[1]
- "لوخيرك القوم لاخترت"[2]
- "ألبس لكلّ عيشة لبوسها إمّا نعيمها وإمّا بوسها"[3]
- "مكره أخوك لابطل"[4]

إنّ جملة هذه الأمثال قد شكّلت مراكز حدثيّة سعى الرواة إلى تأثيثها وبيان أسباب قولها، وقد وقع التركيز أساسا على مثل كان كثير الاعتماد وجرى بين الناس وشاع وهو "مكره أخوك لابطل"[5]، وبسبب من ذلك فقد اهتمّ به المتكلّم وأورد مختلف الروايات المبينة عن الوقائع المفضية إلى قوله.

وتدخل بعض الأخبار عبيد الأبرص[6] ضمن هذا الباب، فإضافة إلى صورته شاعرا مبرّزا فقد أسندت إليه جملة من الأمثال التي كان أصل إنشائها، وقد نتجت هذه الأمثال عن مقام مخصوص فيه اجتمع عبيد بالمنذر عند الغريّين، وهو لقاء مفجع، إذ كان وفود عبيد على النعمان وفودا لحتفه، وقد عزم النعمان على قتل أوّل وافد عليه يوم نحسه، وكان الوافد عبيد الأبرص، ولمّا أدرك أنه ميّت لا محالة صدرت عنه في محاورته مع قاتله أمثال هي نتاج هذا الموقف. فصوّرت هذه الحصيلة باعتماد وسائط قوليّة مثليّة، ومن هذه الأمثال التي صدرت عن عبيد في هذا الموقف[7]

- "أتتك بحائن رجلاه".
- "حال الجريض دون القريض".
- "لا يرحل رحلك من ليس معك".

---

1 - م.ن.ص.
2 - م.ن.ص.
3 - م.ن: 23/ 534.
4 - م.ن. 23/ 536.
5 - م.ن. ص.
6 - م.ن: 23/ 411.
7 - م.ن.ص.

- "المنايا على الحوايا".
- "من عزّ بزّ".

فكانت كلّ أجوبة عبيد على مسائل النعمان أقوالا أرسلت أمثالا، ونلحظ تغايرا بيّنا بين صورة "بهيس" منتجا للأمثال، وبين صور عبيد الأبرص، فقد تخصصّت أخبار بيهس على بيان الأحداث التي تولّدت عنها الأمثال، في حين أنّ عبيد بن الأبرص لايختصّ وجوده داخل الأخبار بما أسسّه من أقوال مثلية، وإنّما الأمثال كانت نتاج موقف مخصوص، داخل المحاورة التي دارت بينه وبين النعمان.

إنّ الأقوال المثليّة تشكّل جزاء من مكونات الشخصيّة الجاهليّة، وهي في ذات المقام جزء من أجزاء الصورة الباهرة التي تركّزت في الجاهلية وصارت معتمدا ومضرب مثل.

ويدخل في هذا الإطار أيضا ما يصدر عن الشخصيّات من أقوال مأثورة، دالّة على عمق التبصّر أو على شدّة اختبارها للحياة، وقد شكّلت هذه الأقوال على اختلاف مآتيها مآثر تُذكر عن الجاهلية. فمن ذلك ما يُرَدُّ إلى الكهنة من أقوال شكّلت جنسا نثريا تختصّ به الجاهليه وهو "سجع الكهّان"، وهو قول مُوقَّع قائم على اعتماد الموازنة في بناء العبارة، ويُبين هذا القول عن ثراء الزاد القوليّ الجاهلي. وخذ على ذلك مثالا مبينا، قول الزرقاء في إحلال آلها الحيرة، وهو حلول ناتج عن تبصرها وقدرتها على صياغة هذه الرؤيا نثرا فيه من إيقاع العبارة وثراء الصورة مابه يضارع الشعر، وهو ناتج أيضا عن إيمان آلها بهذا القول المختار عبارةً وصورةً: "فقالوا لها: فما ترين يا زرقاء؟ فقالت: مقام وتنوخ ما ولد مولود وأنفقت فروخ، إلى أن يجيء غراب أبقع، أصمع أنزع عليه خلخالا ذهب، فطار فألهب، ونعق فنعب، يقع على النخلة السحوق، بين الدور والطريق، فسيروا على وتيرة، ثم الحيرة، الحيرة"[1].

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ أقوالا عديدة تصدر عن شخصيّات الجاهليّة وتؤثر عنها، نتاج تجاربها واختبارها الحياة، فتتميّز الشخصيّات بما يصدر عنها من هذه الأقوال، ومثال ذلك شخصيّة غيلان بن سلمة التي تستمد خصوصيّتها من قدرتها

1 - م.ن: 13/ 78.

على إنتاج أقوال بها تنفذ من عسير المآزق وصعاب الأوضاع، وقد دارت أخباره على هذا المعنى الذي أسّس صورة مميّزة له، وخاصّة في إتّصاله بكسرى وتقرّبه منه وحُسن محادثته له وبروزه في الجواب على مسائله بأقوال شدّت إليه كسرى إعجابا، وقد تمكّن غيلان بسببٍ من امتلاكه القول الرشيد الحكيم من إنفاذ تجارته وتجارة صَحْبه[1].

وتظهر هذه القدرة القوليّة التي تتأسّس عليها الشخصيّة في مقام آخر، في وصيّتها لأبنائها، والوصيّة هي خلاصة تجارب الشخصيّة، ومنها تورّث الحكمة في اختبار الأشياء، "لمّا حضرت غيلان الوفاة، وكان قد أحصن عشرا من نساء العرب في الجاهليّة، قال: يابني، قد أحسنت خدمة أموالكم، وأمجدت أمّهاتكم، فلن تزالوا بخير ما غذوتم من كريم وغذا منكم، فعليكم ببيوتات العرب، فإنها معارج الكرم، وعليكم بكلّ رمكاء مكينة ركينة، أو بيضاء رزينة، في خدر بيت يتبع أو جدّ يرتجى، وإيّاكم والقصيرة الرطلة، فإن أبغض الرجال إليّ أن يقاتل عن إبلي أو يناضل عن حسي القصير الرطل"[2] ومن هذا القول نتبيّن رؤية للمرأة – الزوجة وما يفترض فيها من صفات بها يشرف أبناؤها، وقد مهّد المتكلم لنفاذ هذا القول وتركيزه حصيلة تجربة واختبار ببيان وفْرة زيجات غيلان. وهي أقوال تتردّد في أخبار الجاهليّة بيانا لشخصيّات جرّبت النساء فتمكنت من تحديد مراتبهنّ وما يصدر عنهن من مختلف الأفعال، وهو الموضوع الذي تدور عليه أغلب أخبار "المغيرة بن شعبة"[3]، فقد صدرت عنه أقوال مأثورة هي نتاج كثرة معاشرته لأنماط مختلفة من النساء، إذ يتركّز وضعه الأوّليّ على أنّه "من دهاة العرب وحزمتها وذوي الرأي منها والحيل الثاقبة، وكان يقال له في الجاهليّة والإسلام: مغيرة الرأي. وكان يقال: ما اعتلج في صدر المغيرة أمران إلا اختار أحزمهما"[4]، وعلى أنّه أيضا رجل مطلاق[5]، وتوفّر هذه الصفة يقتضي أن يكون مزواجا أيضا، وعلى ذلك فقد صدرت عنه أقوال عديدة في وصف النساء وبيان طبائعهنّ،

1- م.ن: 13/ 209.
2- م. ن. 13/ 206.
3- م. ن. 16/ 42.
4- م. ن. ص.
5- م. ن: 16/ 48.

وهي أقوال ناتجة عن هذا الوضع الأصليّ الذي تحدّد له من حيث اجتماع الصفتين فيه، الرأي وصوابه وكثرة زواجه. فهو يقسّم النساء على القبائل، مميزا بينهنّ، مبينا ما تختصّ به كل منهنّ، وهو قول وإن كان في ظاهره قائم على تفصيل أنواع النساء ومختلف طباعهنّ فإنه في باطنه يميز بين القبائل في إطار المنافرات القبليّة التي سادت في الإسلام، وقد كان المغيرة بن شعبة شخصية مخضرمة عايشت الجاهليّة والأسلام، "قال أبو زيد: وبلغني أنّهم ذكروا النساء عند المغيرة بن شعبة فقال: أنا أعلمكم بهنّ، تزوّجت ثلاثا وتسعين امرأة، منهن سبعون بكرا، فوجدت اليمانية كثوبك، أخذت بجانبه فاتّبعك بقيته، ووجدت الربعيّة أمَتك، أمرتها فأطاعتك، ووجدت المضرية قرنا إن ساورته غلبته أو غلبك"[1]. وهو بسبب من هذه التجربة في الحياة قادر على تقديم قول فيه يضبط مختلف العلاقات الرابطة بين الرجل والمرأة وبه يفصل بين مختلف الطبائع الخاصة بهما، فقد كان يقول قولا يؤثر عنه: "النساء أربع والرجال أربعة: رجل مذّكر وامرأة مؤنثة، فهو قوام عليها، ورجل مؤنث وامرأة مذكّرة، فهي قوامة عليه، ورجل مذّكر وامرأة مذّكرة، فهما كالوعلين ينتطحان، ورجل مؤنث وامرأة مؤنثة، فهما لا يأتيان بخير ولا يفلحان"[2].

إنّ هذه الشخصيّات بما يصدر عنها من أقوال تمثّل مدارا حدثيّا لأخبارها، تقدّ ركنا من أركان الصورة الباهرة التي ركّزت الجاهليّة مصدرا لقيم متوارثة، فقد كانت الجاهليّة في وجه من وجوهها مصدر التجارب المثلى الظاهرة في أقوال محكمة الصياغة يعتمدها اللاّحقون ويصدرون عنها.

غير أنّ أهمّ ما احتواه الفضاء الجاهليّ من إنتاج قوليّ مثل مصدر القيم الفنيّة هو الشعر الجاهليّ الذي ظهر في أقوال أغلب الشخصيّات الجاهليّة التي عبّرت عما يعتريها من أحوال وعمّا تعايشه من أحداث بواسطة الشعر. فقد تركّزت الأوضاع الرئيسيّة للشخصيّات الجاهليّة من حيث نتاجها للشعر، وكان هذا الفعل سمة رئيسيّة

1- م. ن: 16/ 49.

2- م.ن: 16/ 48.

في تقديم أخبارها ونقل أقوالها، حتّى صُوِّرت الجاهليّة مجالا فيه يسود الشعر وسيلةً حاضرة في مختلف الأحوال، وواسطةَ تعبير كلّ الشخصيات حتّى وإن انتمت إلى الجاهليّة المغرقة في القِدَم. وبسببٍ من هذه المنزلة التي تركّزت للجهليّة اتّصالا بالشعر وعلوقا به، فقد احتوت الأخبار عددا مهمّا من الأشعار الصادرة عن شخصيات الجاهليّة، وقد مثّلت هذه الأشعار أرضا خصبة تدور عليها الأخبار بيانا لأسباب قولها أو تفكيكا لعناصرها أو إدماجا لها ضمن فضاء حدثيّ يحتويها.

ويمكن أن ندرك صورة عن هذه المنزلة التي وُضِع فيها الشاعر الجاهليّ من قولة ابن رشيق في وسْم طرائق احتفال عرب الجاهليّة بنبوغ شاعر فيهم، يقول: "كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم"[1]. ومن هذه المنزلة تستمدّ الشخصية الجاهليّة القوّالة تأثيرها وفعلها، إذ هي تؤدّي وظيفة جدّ مهمّة في الحياة الجاهلية وتمتلك أداة بها تذود عن نفسها وعن آلها وعن قبيلتها، لا تقلّ أهميّة عن البطولة الحربيّة والفروسيّة، بسبب من أثر القول واعتماده واسطة لترويج صورة عن القبيلة تسير بين الناس وتحدّد وضعها.

لقد ركّز المتكلّم في ضبطه لأوضاع الشخصيّات الأوليّة في "كتاب الأغاني" على بيان منزلة الشاعر في القبيلة ومقامه من الحركة الشعريّة أوليّةً وبروزا وافتتاحا لمجالات في القول الشعريّ مغلقة، ومنه كان اعتماد الشاعر الجاهليّ أصلا يُرَدُّ إليه ما نتج من شعر لاحق، فما قاربه تُقُبِّل وما ابتعد عنه كان موضع خلاف. وبسبب من ذلك وُسِم المجال الجاهلي بأنّه مجال الشعر تعتمده الشخصيّات في كلّ الأحوال التي تعتريها تعبيرا عمّا يعرض لها من الأمور وبيانا لمختلف أحوالها، فاحتوى تحديد الوضع الأوليّ

1- ابن رشيق (أبو علي الحسن): "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده". تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت. لبنان. الطبعة الخامسة. 1981. ص: 65.

لأغلب الشخصيّات الجاهليّة وسْما لها بإنتاج الشعر والبروز فيه. ويمكن أن نقدّم بعض الأمثلة على تقديم هذه الشخصيّات قبل تتبّع أخبارها وعرضها:

- "المتلمس" يُوسَم في بداية عرض أخباره بأنّه "شاعر ربيعة في زمانه" وقد "كان أشعر أهل زمانه"[1].

- "كان الأفوه (الأودي) من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية، وكان سيّد قومه وقائدهم في حروبهم، وكانوا يصدرون عن رأيه، والعرب تعدّه من حكمائها، وتعدّ داليته: (من البسيط)

مَعَاشر مَا بَنَوا مَجْدا لقومهم وإن بَنَى غَيْرُهم أفْسَدُوا عَادُوا

من حكمة العرب وآدابها"[2].

- عبيد الأبرص، يصفه المتكلّم في بداية عرض أخباره بأنّه "شاعر فصيح من شعراء الجاهليّة"[3].

فتتركز رؤية المتكلم على هذه الشخصيّات بيانا لاتّصالها بالقول الشعريّ وقوفا على مقامات إنتاجه وبحثا في مختلف الظروف الحافّة بظهور هذا الشعر، فشكّلت الرؤيةُ في هذا المدار قسما مهمّا من الأخبار الجاهليّة. ومن ذلك –على سبيل المثال أنّ المتكلّم يركّز في أخبار "عبيد بن الأبرص"[4] على الأحداث التي أفضت إلى امتلاكه أداة الشعر حتّى يتمكّن من الذود عن نفسه، فيُرصَد وقد تحوّل من حال افتقاد الشعر إلى حال امتلاكه، وقد تأتّأه في حال من أحواله، ومنه تظهر وظيفة هذه الهبة في المجال الجاهليّ، "... فرفع يديه ثمّ ابتهل، فقال: اللّهم إن كان فلان ظلمني ورماني بالبهتان فأدلني منه – أي اجعل لي منه دولة- وانصرني عليه. ووضع رأسه ونام ولم يكن قبل ذلك يقول

1- "كتاب الأغاني". 23/ 559.

2- م. ن: 12/ 165.

3- م. ن: 23/ 404.

4 - م.ن: 23 / 405.

الشعر، فذُكِر لنا أنّه أتاه آت في المنام بكبّة من شعر حتّى ألقاها في فيه، ثمّ قال: قم، فقام وهو يرتجز (...) فكان شاعر بني أسد غير مدافع[1]. فبسبب هذه القدرة الشعريّة الفائقة لعبيد توجّهت الأخبار إلى رصد واسطة غيبيّة منها استقى الشعر، وهي مسألة داخلة في بنية الثقافة العربيّة وتصوّرها للإبداع، إذ هي لا تراه نتاج الفرد البشريّ وإنّما هو راجع إلى قوى غيبيّة تُمكّن المبدع من التميّز من سائر النّاس وترفعه عنهم.

وبذلك فإنّ الشخصيّات القوّالة إنتاجا شعريّا تغلب على الفضاء الجاهليّ وتستقطب عددا مهمّا من الأخبار، في تصوير أحوالها أو في بيان أقوالها، ويصوّر المتكلّم في هذا الإطار الحال الشعريّة على أنّها حال خارجة عن حدود الإدراك، في خبره عن الحارث بن حلّزة وقد جُذب في مقام حدثيّ مخصوص أفضى به إلى قول قصيدة بتمامها دون أن يشعر وقد امتلكه الغضب[2]... وقام الحارث بن حلّزة فارتجل قصيدته هذه ارتجالا، توكّأ على قوسه وأنشدها وانتظم كفّه وهو لا يشعر من الغضب حتّى فرغ منها[2]. فقيمة ما تأتّى الحارث من قول راجعة إلى أنّه كان خارجا عن دائرة الشعور، وكأنّه دخل في حال من الغيبة وعاد منها بعد تمام شعره، وهو قول يدعم ما سلف أن بيّنّاه من الرؤية السائدة للإبداع.

إنّ الجاهليّ يختصّ -وفقا لما هو ظاهر في الأخبار- بخصال فيه ثابتة يُعبّر بها عن الحال وعمّا يعتريه من حوادث بالشعر، وتُظهر أمثلة عديدة من الأخبار تركيز هذه الشخصيّة النموذجية القوّالة القادرة على قول الشعر -من حيث هو موروث يُعتَمد أصلا ومصدرا- في أحوال مختلفة، فـ"عمرو بن معد يكرب" يندم على مفارقته امرأة وقد قيل له أنّ بها وضحا، فيصدر عن ندمه هذا شعر يُذكَر، ويتحدّد موضوعه وحال قوله: (من الوافر).

"أمِن رَيْحَانة الدّاعي السميع يُؤرِّقُني وَأَصْحَابي هجُوع"[3]

1 - م.ن: 23/ 405. 406.

2- م.ن: 21/ 38.

3- م.ن: 15/ 176.

وتُعبِّر "الخنساء" بالقول الشعريّ عن رفضها الزواج بدريد بن الصمّة إذ جاءها خاطبا، وهو أداتها لبيان رفضها، ويكون جوابه على جوابها شعرا أيضا فيه من الهجاء الشيء الوفير[1]. ويُعبّر عنترة عمّا لاقاه من زوجة أبيه من أفعال أدّت إلى إهانته وسوء حاله بواسطة الأقوال الشعريّة[2]. ويُصوّر دريد بن الصمّة ما عرض له من حوادث الدهر شعرا[3]. فقد صُوّرت الشخصيّات الجاهليّة شخصيات قوّالة تُوصَل برابطة متينة بالشعر من حيث هو واسطة تعبير عن الحال وعن الحوادث.

غير أنّ الصورة التامّة لهذه الشخصيّات النموذجيّة هي الصورة الجامعة بين البروز في قول الشعر والبروز في الفروسيّة. فقد رُصِدت الشخصيّة النموذجيّة في هذا المجال جامعة بين الأداء الفعليّ والأداء القوليّ. والأداء القوليّ في هذا المقام ليس داخلا في إطار وصفي، وإنّما جانب من الصورة، يكون فيها القول وسيلة حرب ودفاع وأداة منازعة ترافق النزاع الفعليّ. فالشخصيّة الجاهليّة لا تتركّز في موضعها بُطولةً أو نماذج عليا للقيم الفاضلة، إلاّ إذا تم لها القول الشعريّ، فهو عنصر ثابت في تحديد ملامح الصورة.

وتتضّح هذه الصورة في بيان الشخصيّات النموذجيّة البطوليّة التي لا تستمدّ بطولاتها من أفعالها فحسب وإنّما ممّا يصدر عنها من أقوال هي داخلة في باب الافتخار الذي يؤثّر في العدوّ ويوهن من قواه، وداخلة في باب التحميس ورفع الهمم. وخذ مثالا على ذلك النزال القوليّ بين عمرو بن معد يكرب وربيعة بن مكدم المصاحب للنزال الفعليّ: فحمل عليّ (عمرو بن معد يكرب) وهو يقول:

أهُنْ نُضْرُ العَيْشِ في دَارِ نَدَمْ أُفِيضُ دَمْعاً كُلَّمَا فَاضَ الْسَجَمْ
أنَا ابْنُ عَبد اللَّهِ مَحْمُود الشِّيَمْ مُؤْتَمَنُ الغَيبِ وَفِيٌّ بِالذِّمَمْ

1- م.ن:10/ 23.
2 -م.ن: 8/ 235.
3 -م.ن: 10/ 3.

أُكْرَمُ مَن يَمْشِي بِسَاقٍ وقَدَمْ كاللَّيْثِ إِنْ هَمَّ بِتَقْصَامٍ قَصَمْ

فحملتُ عليه وأنا أقول:

أنا ابْنُ ذِي التَقْلِيدِ في الشَّهْرِ الأَصَمْ

أنا ابْنُ ذِي الأَكَّالِ قَتَّالِ البُهَمْ

مَنْ يَلْقَنِي يُودِ كَمَا أَوْدَتْ إِرَمْ

أَتْرُكُهُ لَحْماً عَلى ظَهْرِ وَضَمْ

فحمل عليّ وهو يقول:

هَذا حِمَى قَدْ غَابَ عَنْهُ ذَائِدُهْ المَوْتُ وِرْدٌ والأَنَامُ وَارِدُهْ.

وحمل عليّ فضربني فرُغتُ وأخطأني...[1].

وهو نفس الأمر الذي يظهر في العلاقة الواصلة بين خفاف بن ندبة والعباس بن مرداس[2]، إذ مثّل النزال القوليّ واسطة نزاع أساسيّة غلبت على النزال الفعليّ حربا ومقاتلة، وقد أدّى هذ الصراع القوليّ عبر الشعر إلى اندلاع الحرب بين الحيّين، "قال العبّاس: قد آذنت خفاف بحرب، ثمّ أصبحا فالتقيا بقومهما فاقتتلوا قتالا شديدا يوما إلى الليل"[3]، وهو قتال ناتج عمّا دار بين الشخصيّتين من مهاجاة شعريّة، ولذلك فإنّ كفّ الحرب كان مقرونا بإسكات الشاعرين وكفّهما عن الصراع القوليّ، وهو ما فطن إليه الوسيط الذي سعى صلحا بين المتنازعين، "فكفّوا صاحبيكم عن لجاج الحرب وتهاجي الشعر"[4].

فنماذج الجاهليّة هي نماذج قوّالة، يصاحبها القول في مختلف الأحوال والأوضاع فيكاد لا يخلو خبر من شعرٍ يُرَدّ إلى الشخصيّة، فيه وصف للحال أو بيان

1 - م.ن: 16/ 39.

2 - م.ن: 18/ 24.

3 - م.ن: 18/ 28.

4 - م.ن:18/ 26.

للأحداث أو إيذان باشتعال جذوة العداوة بين طرفين متنازعين، أو غيرها من المواضيع التي تُعايش الجاهليّ[1].

إن صورة الشخصيّة القوّالة هي صورة غالبة على الأخبار الجاهليّة، وبها يتميّز هذا المجال، وهو الأمر الذي ركّز الجاهليّة مصدرا للقيم الفنيّة إذ حوى المجال الجاهليّ نماذج الشخصيّات القوّالة، وأعلاها قدرا، تلك الشخصيّات التي تختصّ أساسا بقول الشعر، والتي تحوّلت أشعارها ومختلف أغراضها التي تقاربها نماذج يُقتَدى بها وأصلا يُحتَجُّ به ولا يُحتَجّ عليه وعيارا تُعرَضُ عليه الأشعار اللاّحقة، فما وافقها تُقُبِّل القبول الحسن، وما خرج عنها رُدَّ وأُنكِر.

إنّ الاحتفاء بالشخصيّة النموذجيّة القوّالة راجع فيما نعتقد إلى سببين، سبب أوّل يعود إلى اقتداء الخلف بالسلف باعتماد أقوال تروج وتسير بين النّاس أمثالا وأقوالا تحوي الحكمة والنصيحة والوعظ، وهي مسألة داخلة في الخصائص الثقافيّة للشعوب، إذ تتّخذ من ماضيها قدوة ورشادا، وتستمدّ منه أقوالا تعتمدها وتهتدي بها. وسبب ثان خاصّ بطبيعة الثقافة العربيّة التي ترى نماذجها القوليّة حاصلة في الماضي، وعلى الآتي أن يسير في ركابها وأن يصدر عنها. وعلى ذلك عُدّ الشعر

1 - وهذا ما يفتح مجالا لدراسة هذه النماذج البطوليّة ومضارعتها بأبطال الملاحم القديمة، فملحمة جلجامش (السوّاح(فراس):"جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة" دار علاء الدين دمشق الطبعة الأولى 1996.) على سبيل المثال، جامعة في تكوين الشخصيّة البطوليّة بين هاتين السمتين أي الأداة الفعليّ البطوليّ بيانا لأفعالها وتتبّعا لبطولاتها ونقلا لأقوال عنها تصدر، فتكون الشخصيّة قوّالة فعّالة، فجلجامش لا تُرصَد أفعاله فحسب وإنما هو صاحب أقوال تُميّزه وتُفردهن وكذلك الأمر بالنسبة إلى البطل المصاحب، أنكيدو الذي يقول مبينا عن قوّته وقدرته:

"سيجلجل صوتي في أوروك: "أنا الأقوى".

نعم أنا من سيغير نظام الأشياء

من ولد في البراري هو الأقوى".

وهو مدخل أردنا الإشارة إليه وإن كان حقيقا بالاهتمام، فكأنّ الشخصيّة البطوليّة في تحديدها العامّ لا تكتمل صورتها ويظهر أثرها بإنطاقها وإسناد أقوال إليها، بها تبرز وتتميز.

الجاهليّ نموذجا يجتهد الشعراء اللاّحقون في الاقتراب منه، ومن هذه المسألة كان الصراع بين أنصار القديم وأنصار المحدث.

2- مظاهر الحياة الباهرة.

أ- المجال الاجتماعي والسياسيّ.

لقد تأسّست الصورة الباهرة للجاهليّة على بناء شخصيّات عُدّت نماذج فيما اختصّت به من سمات، وفي معرض هذه تحديد ملامح هذه الشخصيّات وفعالها تنقل لنا الأخبار صورة عن المجال الاجتماعي الجاهلي، فيه من الإيجابيّ ما يغلب على الوسم السلبيّ، ولقد أردنا أن نعرض إلى هذه الصورة الخاصّة بالمجال الاجتماعي والسياسي –وإن عرضا– لتمام رصد الصورة وبيانِ شقّ من حياة الجاهليين وطرائق تعاملهم.

ولقد تخصّص الجانب الاجتماعي للجاهليّة في التركيز على حياة البداوة والصراع على مصادر الريّ والخصوبة، فهو مجتمع رعويّ متنقّل في أغلب الصور المنقولة عنه. ونسعى في هذا الجزء من العمل إلى تبيّن بعضٍ من خصائص هذه الصورة الباهرة التي نقلتها الأخبار وصاغت ملامحها فتركّزت أصلاً من أصول إدراك الجاهليّة. ونشير إلى أنّه من العسير تقصّي الحياة الجاهليّة في مظاهرها الاجتماعيّة، بسبب من هذا الإجمال السرديّ الغالب على الأخبار. ذلك أنّ الأخبار تفتقر إلى تصوير مظاهر الحياة الجاهليّة ووصف سماتها من معاش وملبس وحركة يوميّة تبين عن طرائق تعامل الجاهليّ مع محيطه ومع أشيائه وخواصّه، فتخرج صورة المجتمع غائمة تكاد لا تُلمَح، بسبب من تركّز الأخبار على الأفعال دون الأحوال ونقل المشاهد، وبسب من إجمال السرد اقتصارا على الأفعال الكبرى دون إفاضة. فالتوسيعات هي مجال لإدراك صورة الحياة، ومن دقائق السرد وما يتفرّع عن أفعاله الكبرى من "ترف"[1] يمكن تمثيل مظاهر هذه الحياة. ومن اليسير في هذا المجال أن نسم الحياة الجاهليّة بما هو موزّع من سمات

1- انظر بارط : *« L'effet de réel »* in ***Littérature et réalité*** p82.

في مصنّفات "التاريخ" وفي كتب الأدب التي تتناول العصر الجاهليّ بالدرس، غير أنّا أردنا أن نتتبّع هذه المظاهر من داخل الأخبار التي صدرنا عنها، فاعتمدناها أصلا لبيان جزء من الحياة الجاهليّة، وركّزنا في ذلك على نقاط، تخصّ العلاقة التي كانت تشدّ الجاهليين إلى الحواضر والممالك الكبرى، وموقع المرأة في الاجتماع الجاهليّ ومنزلتها منه، وهي إشارات ترد في الأخبار عرضا ولا تُقصَد في الغالب لذاتها وإنّما هي داخلة في معرض ضبط حركة الشخصيّة وتحديد مجالها.

لقد صُوّر المجال الجاهليّ في جانب منه، من حيث هو مجال قائم على سيادة الرأي وحسن الاعتصام بسادة القبائل، وعلى غلبة القيم الأخلاقية الفاضلة. ومن ذلك يمكن أن نستخلص صورة عن حياة العرب في جاهليّة متماسكة أعضاؤها متناسقة أعضادها. فالقبيلة لها مرجع نظر تعود إليه فيما يعرض لها من أمور، ولها أبطالها الفرسان الذين يذودون عنها في ساعات الخطر. وقد أثرنا هذه المظاهر في معرض تحليلنا لبنية الشخصيّة النموذجيّة ووصلناها بواقع الإنتاج من حيث هو واقع مؤثّر في صياغة جاهليّة محبّبة إلى النفوس. ويبقى أن نشير إلى مسألتين على قدر من الأهميّة، تخصّ الأولى منزلة المرأة من الاجتماع الجاهليّ، وتخصّ الثانية صلات الجاهليّ التي يعقدها بالأمم والحواضر المجاورة، وهما مسألتان ناتجتان في صياغة ملامحهما عن واقع إنتاجيّ أثّر في رصد صورة مخصوصة عن الجاهليّة، فالمرأة تمثّل موضوعا وعظيّا وتخاطبيا مهمّا فيما يبدو منها من مواقف وفيما ينتج عنها من أحداث وفيما تُوصل به من علاقات. فصورة المرأة قد اعتمدت مستَندا لنقد واقع أصبحت فيه المرأة سلبية خصال ترفع من شأنها، ومن ذلك كان رسم صورة المرأة الحكيمة الراشدة، وكان الاحتفاء بصورةٍ للمرأة مثاليّة فيما يصدر عنها من أفعال وأقوال. وصلات الجاهليّ بالأمم والحواضر المجاورة قد شكّلت موضوعا وجد فيه أنصار الصراع الشعوبيّ أرضا خصبة لمختلف توجّهاتهم، فقد اعتمده الفرس لإظهار غلبة كانت للفرس في ماضٍ من الزمن، ومنه وقع بيان الوسائط التي اعتمدها العرب للتقرّب من هذا الغالب وقد اعتمده العرب في وجه ثان لبيان نُصرتهم على الفرس وغلبتهم عليهم المتأصّلة في عمق الجاهلية.

❑ وضع المرأة.

لقد كانت صورة المرأة حاضرة في الجاهليّة، ولم تكن هذه الصورة في كلّ أحوالها سلبيّة، وإنّما كانت خاضعة لمختلف التشكيلات وفقا لمقتضيات مسار الأحداث أو وفقا للصورة المنطلَق للمرأة إن استقلّت شخصيّةً تدور عليها الأخبار.

ولم تُقدّم لنا صور ضافية عن حياة المرأة في الجاهلية، وإنّما هو بعضٌ من الشتات الموزّع في الأخبار حاولنا تقصّيه وجمعه، وشدّ بعضه إلى بعض بغاية تبيّن علاقة الصورة بنظر اللّاحقين للمرأة الجاهلية. لقد أحسن الرّواة في بعض المواضع رسم صورة المرأة وأخرجوها على هيئات متعدّدة، فبالإضافة إلى ما نحته الشعر الجاهلي من ملامح المرأة نجد الأخبار تجاوز حدّ المرأة المعشوقة، أو الموصوفة جسدا لضبط صورة المرأة الحكيمة صاحبة الرأي، والمرأة الفاعلة في الحياة، والمرأة التي تنعم بقسط مهمّ من الحريّة في اتّخاذ القرار، والمرأة الحكيمة التي يخطبها فارس هوازن وسيد بني جشم دريد بن الصمة فترفضه بسبب من كبره وشيخوخته[1]. فالمتكلّم يقرن في رصد هذه الصورة بين المرأة وبطل من أبطال الجاهليّة، وعن هذه العلاقة تتكوّن صورة المرأة الحكيمة أو صاحبة العقل الرشيد. فالخنساء ترفض الزواج من دريد بن الصمّة، وهو من هو في الجاهلية بأسا واقتدارا ونُصرة وصيتا، إذ تختبره، وتجرّب أمره قبل الموافقة على الزواج ولمّا ترى فيه عدم القدرة على الزواج تردّه، "لمّا خطبها دريد بعثت خادمة لها وقالت: انظري إليه إذا بال، فإذا كان بوله يخرق الأرض ويخدّ فيها ففيه بقيّة، وإذا كان بوله يسيح على وجهها فلا بقيّة فيه، فرجعت إليها وأخبرتها فقالت: لا بقيّة في هذا، فأرسلت إليه: ما كنت لأدع بني عمّي وهم مثل عوالي الرماح وأتزوّج شيخا."[2] وهذه الصورة التي تظهر عليها الخنساء من حسن رأي وشجاعة وحكمة لا تردّ فحسب إلى ما تمثّله الخنساء في الذهنيّة العربيّة بسبب من رواج شعرها الذي تندب فيه أخاها وإنّما هي صورة كثيرة التواتر في أخبار الجاهلية،، وهذا يظهر جليّا في قصّة طريفة لامرئ

1- م.ن: 10/ 23.

2- م.ن: 5/ 61.

القيس إذ يشترط في المرأة التي يتزوّجها أن تجيبه على مسائل هو باسطها عليها، ولمّا ظفر بمن تجيبه على مسألته، تطرح عليه هي بدورها مسألة ينبغي الجواب عليها قبل أن تقبل الزواج منه[1]، وهي تبدي بعد ذلك من العقل والفطنة ما يؤكّد تميّزا فيها، وبالرغم من أنّ الخبر ظاهر الصنعة والحياكة فهو ينصرف لتأكيد هذه الصورة، إذ تجهل المرأة في موقف سرديّ لاحق طالبها وراغب الزواج بها بالرغم من أنّهما قد التقيا سابقا وكان ما كان بينهما من مسائل متبادلة. وتخرج المرأة من حالة الجهل هذه بفعل الاختبار، إذ تمتحن الوافد عليها، وكأنّها على علم بأنّ العبد قد انقلب على سيّده وحلّ محلّه في طلب الزواج وعلى هذا فإنّ المرأة الجاهلية كان لها شأن جليل في الصورة التي رُصدت لها، ويكون الكلام بين امرئ القيس والمرأة أحاجي وألغازا، يفهمانها ولا يدركها العبد الذي ينقلها، وفي الخبر مواقف عديدة تظهر فيها فطنة هذه المرأة وقدرتها.

كما تظهر صورة المرأة الحكيمة الراشدة صاحبة العقل التي يوضَع أمرها بيدها ساعة طلبها الزواج وتبدو الحكمة منها والرأي الصائب في مواقف متعدّدة في خبر الحارث بن عوف وقصّته مع بُهيسة بنت أوس. وتظهر هذه الصورة في حكمة زوجة أوس بن حارثة عندما طلب الحارث من أوس أن يزوّجه إحدى بناته فرفض ذلك دون تفكير فردّته زوجته وأرشدته "فإذا لم تزوّج سيّد العرب فمن؟"[2]. وقدّمت له الحلّ في استرجاع طالب الزواج وإرضائه، وتظهر الصورة الثانية في رأي بناته وحكمتهنّ إذ يرفضن الزواج من الحارث لبعده عنهنّ قرابة وسكنا وخوفا من أن يطلّقهنّ وفيهنّ من العيوب ما يجعله يفعل ذلك إلاّ واحدة هي بهيسة تقبل الزواج منه لكمالها وتمامها،"لكنّي والله الجميلة وجها، الصنّاع يدا، الرفيعة خلقا، الحسيبة أبا، فإن طلّقني فلا أخلف الله عليه بخير"[3]. وتظهر حكمتها بعد الزواج إذ ترفض دخوله عليها في مناسبات عديدة لعلّ أهمها اشتراطها أن يصلح بين العرب (أيّام حرب عبس وذبيان) "قال: دخلت عليها أريدها، وقلت لها قد أحضرنا من المال ما قد ترين، فقالت والله

1- م.ن: 9/ 99.

2- م.ن: 10/ 304.

3- م.ن: 10/ 305.

لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها! (وذلك في أيّام حرب عبس وذبيان). قلت: فيكون ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثمّ ارجع إلى أهلك فلن يفوتك[1] فكان أن أصلح بينهم. فصورة بهيسة تتكونّ ممّا صدر عنها من أقوال في معرض طلبها ببزواج وبعد زواجها، وهي أقوال على اختلاف مقاماتها مبينة عن صورة امرأة راجحة العقل. وهذه الأقوال تُبعّد الخطاب عن مطابقة الواقع، فهي التي تمتّن صلة الصورة بالخطاب، إذ يضطلع المتكلّم بعرضها بتمامها في مواقع يغيب فيها الشاهد والناقل.

وتقدّم لنا الأخبار في أكثر من موضع صورة مهمّة عن عمرة بنت عامر بن الظرب الذي تعرّضنا له سابقا، وقد عرفت عمرة بصواب رأيها فيما يلحق القبيلة من أحداث وبإعانة عامر ذي الحلم في عرض الرأي الصواب وهي التي كانت تقرع له العصا[2] إذا ما تبيّنت وقوع والدها الحكيم في الخطأ. فهي وفقا لرواية الجاحظ "من حكيمات نساء العرب حتّى جاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان، وهند بنت الخسّ، وجمعة بنت حابس بن مليل الإياديين."[3].

فالمرأة لم تُصوَّر في الجاهلية متاعا لا قيمة له أو ملكا مشاعا يمكن أن يأتيه من أراده دون قيد أو شرط وإنّما هي ظهرت كيانا له أثره في البناء الاجتماعي والسياسيّ والفكريّ للقبيلة، ولها دور مهمّ في الحياة التي تحياها.ولعلّ الصورة المثلى التي تظهر لهذه المرأة المطلوبة المرغوبة بصفاتها هذه، تتشكّل في هيئة امرأة من نساء عديّ بن النجّار كانت عند أحيحة وهي أمّ عبدالمطّلب بن هاشم، خلف عليها هاشم بعد أحيحة" وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال إلاّ وأمرها بيدها، إذا كرهت من رجل شيئا تركته[4] وسمّاها قومها المتدليّة لتدلّيها من رأس الحصن. إذ كانت وفيّة لقومها

1- م.ن: 10/ 306.
2- م.ن: 5/ 4.
3- م.ن: 23/ 565.
4 م.ن: 15/ 40.

ودبّرت أمرها حتّى تفارق بيت زوجها دون أن يعلم بها وتنذر آلها بما هم مصبحون عليه.

إنّ صورة المرأة في الأخبار تتكوّن ممّا ينتج عنها من أقوال وأفعال وما يُسنَد إليها من أحوال مبينة عن منزلة للمرأة قائمة على الحكمة والفطنة والدراية. وهي صورة مثاليّة تعمّق من رصد جاهليّة تسودها الحكمة في مختلف مظاهرها.

ونظفر بصورة ثانية للمرأة ترصَد في أخبار الجاهلية وإن لم يكن حضورها بذات درجة الصورة الأولى التي غلبت، وهي المرأة العاشقة والشبقة الراغبة، ونجد في ذلك أخبارا قليلة ومتفرّقة، فمن ذلك ما هو موزّع في بعض الأخبار من عشق زوجة الأب لابن زوجها، وهو في الغالب رافض متمنّع تصدّه أخلاقه عن هذا الفعل، وهو ما بدا واضحا في كيد امرأة عمّ عمرو بن قميئة إذ تراوده عن نفسه فيأبى فتحتال له وتخرجه مطرودا من آله مغضوبا عليه[1]. أو في كيد امرأة داود الإيادي لابنه بعد أن أولعت به[2]. أو في تحرّش زوجة والد عنترة به[3].

ونجد صورة المرأة الشبقة مقرونة بصورة الرجل المخصب وهي صورة تؤسّس مجالا للفخر، ذلك أنّ إيادا تفخر بأنّ فيها أنكح النّاس وهو ابن ألغز. "كان ابن ألغز أيّاريًا، فكان إذا أنعظ احتكّت الفصال بأيره، قال: وكان في إياد امرأة تستصغر أيور الرجال، فجامعها ابن ألغز فقالت: يا معشر إياد أ بركب تجامعون النساء؟ قال فضرب بيده على إستها وقال: ما هذا؟ فقالت، وهي لا تعقل ما تقول: هذا القمر، فضرب العرب بها المثل أريها استها وتريني القمر."[4] أو صورة المرأة التي تعشق المرأة إشارة إلى الجنس المثلي، والظاهرة في خبر هند بنت النعمان وعشقها للزرقاء، ففي رواية ابن

1- م.ن: 18/ 77.
2- م.ن: 16/ 295.
3- م.ن: 18/ 235.
4- م.ن: 16/ 298. 299.

الكلبي في خبر عديّ بن زيد. ساعة حديثه عن هند بنت النعمان أنّها كانت تهوى زرقاء اليمامة، وأنّها أوّل امرأة أحبّت امرأة في العرب"[1].

وهي أفعال تبين عن نوع من النساء يمكن أن يوجد في كلّ زمان ومكان، وبالرغم من ذلك لم تصوّر المرأة في الجاهلية متاعا لا قيمة له أو ملكا مشاعا يمكن أن يأتيه من أراده دون قيد أو شرط وإنّما هي ظهرت كيانا له أثره في البناء الاجتماعي والسياسيّ والفكريّ للقبيلة، ولها دور مهمّ في الحياة التي تحياها. ولعلّ الصورة المثلى التي تظهر لهذه المرأة المطلوبة المرغوبة بصفاتها هذه، تتشكّل في هيئة امرأة من نساء عديّ بن النجّار كانت عند أحيحة وهي أمّ عبد المطّلب بن هاشم، خلف عليها هاشم بعد أحيحة "وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال إلاّ وأمرها بيدها، إذا كرهت من رجل شيئا تركته"[2]. وكيف أنّها احتالت حتّى تنذر قومها بغزو زوجها لهم[3]. وسمّاها قومها المتدليّة لتدلّيها من رأس الحصن. إذ كانت وفيّة لقومها ودبّرت أمرها حتّى تفارق بيت زوجها دون أن يعلم بها وتنذر آلها بما هم مصبحون عليه، ويشير الخبر صفة ثُبتت في عقود الزواج وتتمثّل في اشتراط المرأة حلّ الشراكة الزوجيّة متى شاءت، وهي صفة إن تأكّدت في الجاهلية بيّنت لنا وضعا للمرأة قد يغاير التصوّر الذي ألفناه وصار ثابتا في أذهاننا من أنّ المرأة كانت تعيش حياة المذلّة وكانت تتوارث كما يتوارث المتاع، ولم يكن لها كيان مستقلّ إلى غير ذلك من الأحكام التي شاعت وانتشرت في كتب أدبيّة وتاريخيّة عديدة.

فتلك هي صورة المرأة كما بدت لنا في الأخبار، ونؤكّد في هذا الإطار أنّنا لا نسعى إلى ضبط حقيقة الوضع التاريخي للمرأة في الجاهليّة، وإنّما نحن نرصد الصورة كما بدت في الخبر دون تأويل أو تأريخ أو بحث عن مطابقة الصورة للواقع، وهي مسألة نثيرها في الفصل التالي من هذا الباب.

1- م.ن: 2/110.

2- م.ن: 15/40.

3- م.ن: 15/40. وما بعدها.

❑ صلات الجاهليّ الخارجيّة.

لقد رصدت الأخبار صورة عن مجالٍ جاهليّ لم يُعزل عن الحواضر، إذ يظهر الجاهليّ وقد انشدّ بأسباب التواصل إلى كبرى الحواضر والممالك بطرائق مختلفة، وهي صلاتٌ كانت تُعقَد بين الجاهليّ والملوك وصلَ أفراد أو وصل قبائل، على وجهين، على وجه الاتّصال تِجارةً وتناصرا حربيّا وتحالفا، وعلى وجه المنادمة والتقرّب لغاية التكسّب أو البحث عن سند، وهذا الاتّصال يمكن أن يتحقّق على وجه نقيض نزاعا وتحاربا. وفي التأكيد على هذه الصورة -خاصّة في مستوى تقرّب العرب من ملوك الفرس ومن ناصرهم من ملوك الحواضر- أثار لواقع إنتاج كان فيه الصراع حاصلا بين العرب الذين راحوا يفخرون بقيم البطولة والأخلاق الفاضلة والأوليّة في القول الشعريّ، وبين الفرس الذين دخلوا الإسلام، وسعوا إلى إثبات ذواتهم وإلى التشكيك في هذه القيم.

ومن هذه العلاقات التي صورتها الأخبار، نذكر -على سبيل المثال- الاتّصال بكسرى الذي اتّخذ مظهرين، مظهر التقرّب منه والتوسّط به بغاية تيسير تجارة[1] أو مدح منه يُرجَى كسبٌ مأمول وهي صورة فيها يوضَع العرب في موضع المغلوب التابع، الراغب في التقرّب من كسرى ومظهر الوقوف ضدّه ومحاربته[2]، وهو مظهر به تشرف العرب.

فقد كانت القبائل العربيّة تُوصَل بممالك الروم والفرس وغيرها لغاية التجارة، وقد ذكرت الأخبار في عدد من المواطن هذه الصلة على هيئة خروج أبي سفيان بتجارة إلى العراق[3]، أو اتّصاله بالشام أيضا لذات الغرض و التقائه بهرقل ومحادثته معه[4].

1- كتاب الأغاني: 13/ 207.

2- انظر أساسا "يوم ذي قار": م.ن: 23/ 220.

3- م.ن: 13/ 207.

4-- م.ن: 6/ 325.

وقد ذكرت الأخبار لطيمة كسرى ، وقيام عرب الجاهليّة على حمايتها وضمان أمنها وسلامتها حدّ بلوغ هدفها، واللطيمة هي القافلة التجاريّة، والاعتداء عليها يمثّل اعتداء صارخا على الملك صاحبها نفسه.

والصورة التي ضُبطت لرصد صلة غيلان بن سلمة بكسرى دالّة على طرائق اتّصال العرب بملوك الفرس بغاية السماح لهم بالتجارة في أراضيهم، وقد لاقت هذه الوفادة قبولا في نفس كسرى بسبب من فطنة غيلان وحسن تعامله معه[1]، ممّا أدّى إلى مجازاته وإكرامه فبنى له أُطما (وهو القصر المبنيّ بالحجارة) هو الأوّل من نوعه في أرض الطائف[2].

وقد قام هذا الاتّصال على جملة من الأسئلة بسطها كسرى على غيلان وكانت أجوبته حِكما صادرة عنه، فكان ذاك سببا في تقرّبه منه، وهي صورة من صور سعي العرب إلى ملوك الفرس وطريقة من طرائق تواصلهم معهم. وقد بان من أقوال كسرى وضع للعرب في أسفل المراتب، فإثبات فطنة غيلان وحسن تعامله مع الملوك هو ذمّ للعرب، ذلك أنّ كسرى يعجب من عقل غيلان بسبب من انتمائه إلى قوم غاب العقل عنهم، "قال (كسرى): قد عجبت من أن يكون لك هذا العقل وغذاؤك غذاء العرب..."[3]

وتُمثّل قصّة عديّ بن زيد في مجمل أخباره المتكاملة صورة تُرصَد فيها هذه العلاقة ومظاهر تحقّقها وتجسّدها، وقد كان عديّ وآله فاعلين في قصر كسرى، مقرَّبين منه، عاملين في ديوانه[4]، وقد كان لعديّ الدور الرئيس في اختيار النعمان بن المنذر وتنصيبه ملكا على الحيرة[5]. وتبين أخبار عديدة هذا الدور الذي يؤدّيه العرب في

1- م.ن: 13/ 208

2- م.ن: 13/ 209

3 - م.ن: 13/ 207.

4- م.ن: 2/ 84.

5- م.ن: 2/ 88.

سياسة الفرس مع القبائل العربيّة، وخير مثال على ذلك بالإضافة إلى ما بان من خبر عديّ بن زيد، أحداث "يوم ذي قار" واستعانة كسرى ببعض من وجوه العرب المناصرين له في غزوته على بكر بن وائل، إذ يذكر الخبر وقوف تغلب وقضاعة وإياد مع كسرى[1]، وتجمّع ثلاثة آلاف من العرب في صفّه[2]، ووفود إياس بن قبيصة صحبة صنائعه من العرب لتأدية هذا الدور[3].

تؤكّد الأخبار هذه الصورة التي يُوصَل فيها عرب الجاهليّة بكسرى أساسا، وقد تتعارض المصالح فتؤدّي هذه الصلات إلى حروب تندلع بينهم وبينه.

وتعرض الأخبار في عدد من المواضع لهذه العلاقة الواصلة بين العرب ومن غايرهم من الشعوب وصلَ تجارة أساسا، من ذلك تحديد أرض الحبشة متجرا ووجها تقصده قريش، ويتّصل تجّارها بالنجاشيّ لعرض تجارتهم والتقرّب منه[4].

ومن الملوك الغالب حضورهم في الأخبار اتّصالا بالقبائل العربيّة على هيئات متعدّدة، النعمان بن المنذر وغيره من ملوك الحيرة بدرجة أقلّ. فقد كانت الحيرة حاضِرةً ينشدّ إليها العرب وخيطا يصلهم بمملكة فارس. وقد كان النعمان مشدودا إلى العرب نزاعا وتقرّبا، حروبا وصلات، فصورته حاضرة على الوجهين، وقد كان هو السبب في حدوث "يوم ذي قار"، إذ كان العرب أنصارا للنعمان ذائدين عنه، حامين لودائعه[5]، التي يُلحّ يُلحّ كسرى في طلبها. ويظهر من الخبر أنّ دور النعمان كان متمثّلا في قيامه خيط وصل بين كسرى وقبائل العرب وخاصّة منها بكر بن وائل، إذ به يتمّ حجزهم عن الغارة على السّواد، ومنعهم من التعدّي على حدود فارس، وهو ما أتته بكر بن وائل بعد قضاء

1- ذلك أنّ النزاع بينهم لم يكن بين الفرس والعرب مجموعين وإنّما كان خاصّا بشقّ من العرب خرجوا عن السلطان وخالفوا أمره.

2- م.ن: 23/ 226.

3- م.ن: 23/ 225.

4- م.ن: 9/ 55.

5- م.ن: 23/ 220.

كسرى على النعمان، ولم تقدر الوجوه التي ولاّها كسرى بعد النعمان على أداء هذا الدور وتحقيق التوازن إرضاء لبكر بن وائل ولكسرى في ذات الآن.

وتتركّز أخبار النابغة على التوسّع في بيان العلاقة الخاصّة التي كانت تشدّه إلى النعمان، وتفضيله له على سائر من يفد عليه من الشعراء، واكتفائه به إن حضر على غيره من طالبيه، ومادحيه، فقد "كان كبيرا عند النعمان خاصّا به، وكان من ندمانه وأهل أنسه"[1]، وتُظهر الأخبار أنّ النعمان كان قبلة الشعراء ومقصدهم طلبا لوصله ومنادمته[2]. وتؤكّد الأخبار وفاء المنذر بن ماء السّماء لندمانه وحرصه على إكرامهم، ويتجلّى هذا الحرص في قصّة الغريّين، وقتل المنذر لنديميه، وهما رجلان من بني أسد، وقد خرج عن وعيه، ثمّ بعد صحوه يندم على ذلك ويبني عليهما الغريّين، ويجعل لنفسه يومين في السنة عندهما أحدهما للنعيم والآخر للبؤس، يُكرم في الأوّل الوافد عليه بجامّ العطاء، ويقتل في الثاني الطالع عليه[3]. فمنادمة خيار العرب لملوك الحيرة مسألة رائجة في الأخبار، ومن ذلك أنّ "الربيع (بن زياد العبسيّ) {كان} ينادم النعمان مع رجل من أهل الشام تاجر يُقال له سرجون"[4].

وهذه الأواصر التي تشدّ العرب إلى ملوك الحواضر شائعة في الأخبار ومبينة عن العلاقة التي كانت تربط هذه القبائل بما جاورها من حواضر والسعي في التكسّب والتقرّب من ملوكها، وخاصّة ملوك الحيرة --ورأسهم حضورا في الأخبار المنذر بن ماء السّماء صداقةً للعرب ومنازعةً- الذين نازعوا هذه القبائل العربيّة وجودها في وجه من وجوه هذه العلاقة التي كانت تصلهم بهم، ومن ذلك طلب المنذر مالَ امرئ القيس وتوجيهه الحارث بن ظالم لأخذه عنوةً وقسرا وحربا[5]، ومن ذلك أيضا محاربة

1- م.ن: 11/ 8.

2- انظر اتّصال حسّان بن ثابت به: م.ن: 11/ 24. وانظر أيضا مجالسة المنخّل له ولأبيه من قبله والعلاقة المخصوصة الواصلة بينهم حدّ تبادل النساء والاشتراك في المتجرّدة: 21/ 5. 6.

3- م.ن: 23/ 411.

4- م.ن: 17/ 120.

5- م.ن: 22/ 111.

تغلب له، والعلاقة المتوتّرة التي كانت تصل بينهم[1]. غير أنّه بالرغم من هـذه النزاعـات فقد مثّل المنذر ملاذا وحمى، فهو الملجأ والجار، وتتأكّد هذه الصورة في جوار أبـي دواد الإيادي له وسعيه للأخذ بثأره عندما قُتِل أبناؤه.[2]

لقد مثّلت العلاقات التي تشدّ العرب إلى الأمم المجـاورة وإلى ملـوك الحواضـر مجالا انصرف إليه الرواة في معرض إخبارهم عن الجاهليّة، وهو مجال قـد تحرّكـت فيـه النزعات الشعوبيّة ووجدت فيها أرضا خصبة لبيان اقتدار الفرس وسيادتهم في ماضي الزمن. وهي مسألة يمكن أن نلحظها بيسر في تصوير سعْي الشخصيّات الجاهليّة الدائم إلى التقرّب من السلطان الفارسيّ، إضافة إلى بيان نِعَم هـذا السـلطان علـى عـدد مـن الشخصيّات الجاهليّة المهمّة.

ب- المجال الاعتقادي.

يُمثّل المجال العقدي تيمة أساسيّة من تيمات المجال الجاهليّ وقد استقطب عددا مهمّا من الأخبار، غير أنّ هذه الأخبار قد توجّهـت منحـيين عـالقين بالـدين الجديـد، منحى بيان المعتقدات الموجودة في الجاهليّة والتي بقّاها الإسلام ومنحى التمهيد للدعوة الإسلاميّة. ذلك أنّ المصفاة الإسلاميّة قد كانت أداةً قيّمة على حضر انفلات ما يـذكّر بالاعتقاد الجاهليّ، وبسبب من ذلك فإنّه يعسر أن نتبيّن صورة واضحة عـن الاعتقـاد الجاهليّ سواء فيما عُدّ إيجابا أو سلبا.

ونؤكّد أنّ غايتنا من التعرّض إلى المجال العقديّ وبيان مختلف مظاهره لا تعقـد صلة بتقصّي جوانب هذا المجال ومختلف ما شهده من أديان سماويّة أو وثنيّة أو غيرهـا وسما للفضاء العقديّ الجاهليّ بسمة تاريخيّة ثابتة، وإنّما نسعى إلى بيـان هـذه المظـاهر كما بانت في الأخبار صورةً تُقدّ بوسائط الصياغة الأدبيّة. فنحن نرصـد هـذه الصـورة التي صاغتها الأخبار وحدّدت ملامحها، اقتصارا عليها والتزاما بها.

◈ معتقدات الجاهليين التي بقّاها الإسلام.

1- م.ن: 11/ 51.

2- م.ن: 16/ 301.

يذكر ابن حبيب أنّ من السنن التي كانت الجاهليّة سنّتها وبقّاها الإسلام الحجّ إلى مكّة في بعض من المظاهر الباقية إلى اليوم من طواف بالبيت واعتمار ومسح على الحجر الأسود وسعي بين الصفا والمروة[1]. وتشير الأخبار إلى فعل الحجّ في الجاهليّة[2] وما يحفّ به من تجارة وعزوف عن القتال وترك السلاح وتوقيف طلب الثأر، ونذكر في ذلك مثل خبر حروب الفجار "وكانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعان حتّى يفرغوا من أسواقهم وحجّهم..."[3]، ومثل مالك بن عبد اللّه بن جعدة عندما رأى خليفا وعليه جبّة كعب (وهو كعب الفوارس الذي قُتِل ولم يُعلَم قاتله حتّى يدرك بثأره) فتأكّد من أنّه قاتل كعب، غير أنّه لم يقدر على قتله لأنّه كان محرما[4].

وفي أخبار أبي الطمحان القيني ذكر لفعل الحجّ الذي كان يؤدّيه الجاهليّون في الخبر الخاصّ بقيسبة بن كلثوم وقصّة أسره، وترد في الخبر عبارة اعتراضيّة تبين أنّه في زمن الحجّ يسود السّلم بين القبائل ولا يعرض لقاصد الحجّ معترض ولا قاطع طريق ولا آسِر، "خرج قيسبة بن كلثوم، وكان ملكا، يريد الحجّ –وكانت العرب تحجّ في الجاهليّة فلا يعرض بعضها لبعض– فمرّ ببني عامر بن عقيل..."[5].

وفي إطار تأدية الجاهليين لهذه المناسك الدينيّة، فإنّهم كانوا يخصّصون أشهرا حُرُما فيها يتعطّل القتال حتّى بالنسبة إلى الخلعاء والخارجين عن ضوابط القبائل من نحلة الصعاليك. فتأبّط شرّا وصحبه يقطعون الغارة حتّى انقضاء الأشهر الحرم لاستئنافها "فلمّا انقضت الأشهر الحرم خرج تأبّط والمسيّب بن كلاب في ستّة نفر يريدون الغارة على بجيلة، والأخذ بثأر صاحبيهما"[6]. ويتأكّد هذا الأمر في خبر آخر

1- ابن حبيب: *"المحبّر"*. ص311. "وكانوا يحجّون البيت ويعتمرون ويطوفون بالبيت أسبوعا ويمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة".

2- لمزيد التوسّع في بيان طرائق الحجّ في الجاهليّة ومختلف المظاهر التي تميّزه، يمكن العودة إلى كتاب *"أخبار مكّة"* وما جاء فيها من الآثار" للأزرقي (أبو الوليد محمّد بن عبد اللّه بن أحمد) تحقيق رشدي الصالح ملحس. دار الأندلس بيروت لبنان. ط 3. 1983. 1/ 179 وما بعدها.

3- *"كتاب الأغاني"*: 22/ 66.

4- م.ن: 5/ 19.

5- م.ن: 13/ 4.

6- م.ن: 21/ 181.

يُظهر خروج هؤلاء الصعاليك على إثر الأشهر الحُرم التي يحترمون مواقيتها وقداستها، ويذكر الخبر أنّه (تأبّط شرًا) خرج من أهله بغارة من قومه، يريدون بني صاهلة...وذلك عقب شهر حرام ممّا كان يحرّم أهل الجاهليّة"[1].

وكانت تُقَام في هذه الأشهر الحرم المشتركة أو الخاصّة محافل وأسواق ينشط فيها الجاهليّون، فتُثبّت الأخبار منزلة حاتم الطائي من الاجتماع الجاهليّ كرما وجودا، بجعله منصرفا إلى إقامة مآدب مكثّفة في أحد الأشهر الحرم التي تُعظّمها مضر، "وكان حاتم إذا أهلّ الشهر الأصمّ[2] الذي كانت مضر تُعظّمه في الجاهليّة ينحر في كلّ يوم عشرا من الإبل فأطعم النّاس واجتمعوا إليه."[3].

◈ **التمهيد للدعوة الإسلاميّة.**

إنّ القسط الأوفى والأجلى من انصراف الأخبار إلى بيان المجال الاعتقادي يظهر في انشداد أخبار عديدة إلى بيان أسبقيّة الإسلام وإعلان التمهيد للدعوة المحمّديّة بطرائق مختلفة إثباتا لعزوف بعضٍ من الشخصيّات الجاهليّة عمّا حرّمه الإسلام بعدا، أو تعرّضا لشخصيّات آمنت بهذه الرسالة قبل حلولها حلما ورؤية أو رفضا للسائد الدينيّ وبحثا عن بديل قويم. فقد بُنيت أخبار عديدة على التمهيد للدعوة الإسلامية والانصراف إلى أسلمة الجاهليّة بمختلف الوسائط، وذلك ببيان جولان الرسالة المنزّلة من السّماء بحثا عن صاحبها أو بإسناد ما أتى به الإسلام من معتقدات وأفعال إلى شخصيّات جاهليّة تُوضَع في موضع رفض السائد العقدي والانطلاق في رحلة البحث عن المعتقد السليم، حتّى يبدو الإسلام محقّقا لحاجة سابقة استدعت حلوله، وهي المسألة الغالبة في وسم المجال العقديّ.

ومن هذه المظاهر التي صوّرتها الأخبار ما ورد في خبر سيف بن ذي يزن من جنوح جامح لاعتناق الإسلام، وقد ظهر ذلك في لقائه بعبد المطّلب ومحاورته معه وتنبّئه بقدوم رسول ينشر رسالة دينيّة جديدة وهو صوت الحقّ[4]. وهو نفس الإيمان

1- م.ن: 21/ 191.

2- وهو شهر رجب.

3- م.ن: 17/ 281.

4- م.ن: 17/ 233.

الذي يُسنَد إلى شخصيّة جاهليّة مهمّة وهي هرقل، في خبر لأبي سفيان يرويه طرفا مساهما في أحداثه ووقائعه، إذ يتّصل بهرقل زمن الحرب بين الرسول وقريش، ويكشف الخبر عن رؤية داخلت منام هرقل مفادها أنّ "ملك الختان ظاهر"[1]، دفعته إلى الإيمان بالرسول قبل أن يُدعى إلى ذلك. وهو ينتهز فرصة وفود أبي سفيان عليه ليسأله عن خصال النبي الظاهر فيهم، وهو يتحقّق بعد الجواب على سؤاله من صدق دعواه، إذ يُقارن أفعاله وخلاله بأفعال الأنبياء السابقين وما اتّسموا به من صفات، "فلئن كنت صدقتني عنه، فليغلبنّ على ما تحت قدميّ هاتين، ولوددت أنّي عنده فأغسل قدميه.."[2] فيركّز الخبر على إيمان هرقل بالرسول وبدعوته، وهو من هو سيادةً وسلطانا وإمارةً، ثمّ هو حينما يُدعى للدخول في الإسلام، يجمع بطارقه ويدعوهم للإيمان، فلمّا يرى منهم الغضب والنخر والاجتماع عليه ينثني عن ذلك، فيُظهر الخبر أنّ عزوف هرقل عن اتّباع الرسول راجع إلى خوفه من بطارقه وسوء منقلبهم، وأنّه في باطنه مؤمن، متيقّن من هذه الدعوة، منتصر لها[3].

وتُصوَّر شخصيّة الرّباب بن البراء، وقد كان من أسرة كهنة، وقد تحوّل إلى طلب خلاف أهل الجاهليّة، فيعتنق الديانة المسيحيّة، وممّا يُركّزه هذا الخبر أنّ الرباب يُجمَع وبحيرا الراهب والرسول في منزلة خيار أهل الأرض، وذاك قبل مجيء الرسول، وفقا لصوت كان يملأ الليل في زمانه "فذكر أبو اليقظان أنّ النّاس سمعوا في زمانه مناديا ينادي في الليل، وذلك قبل مبعث النبي صلّى الله عليه وسلّم: خير أهل الأرض رباب الشنّي وبحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد"[4].

1- م.ن: 6/ 325.

2- م.ن: 6/ 327.

3- ورد في الخبر أنّ هرقل قال لبطارقه "يا معشر الروم قد جمعتكم لخبر أتاني في كتاب هذا الرجل يدعو إلى دينه، فوالله إنّه النبي الذي كنّا ننتظر ونجده في كتابنا، فهلمّ فلنبايعه ولنصدّقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا". م.ن: 6/ 328.

4- م.ن: 16/ 260.

وفي أخبار كعب بن زهير خبر يظهر فيه التمهيد للإسلام بصورة بيّنة، إذ يُوسم زهير بأنّه نظّار، ويُجعَلُ له في منامه من رؤياه ما به يهتدي أبناؤه، ومنهم كعب إلى الإيمان والتصديق بالإسلام، إذ يأتيه في منامه آت ويحمله إلى السّماء، فلمّا قارب مسّها تركه فهوى أرضا، فلمّا كان احتضاره قصّ على أبنائه رؤياه، ونبّههم إلى أنّ أمرا سماويّا يحدث بعده، فإن كان فينبغي الإيمان به والمسارعة إليه والتمسّك به[1]. ومنه أيضا تنبّؤ ورقة بن نوفل بالرسالة المحمّديّة وتمهيده لها[2].

وفي نفس هذا المجال الذي تكثر فيه الأحداث المنبئة بحدوث دين جديد له سابق ذكر عند رجال الدين والمطّلعين على كتب الأوّلين، يدخل خبر أبي سفيان إذ يتّصل صحبة العبّاس عمّ الرسول بحبر من أحبار اليهود فيسأل الحبر العبّاس عن خصال ابن أخيه وخلاله، فيجيب جواب الصدق بوسمه بالأمانة والأميّة والصدق في القول، "فذهب الحبر وترك رداءه وجعل يصيح ذُبحت يهود! قُتلت يهود!"[3].

إنّ هذا المجال الذي دارت عليه أخبار عديدة من مدوّنة أخبار الجاهليين موصول بانتصار الرّواة للدين السّائد الذي يخضعون له. فهذا المجال العقديّ لا ينبئ ضرورة بحال جاهليّة بقدر تصويره لتصارع النحل في الإسلام، ويمكن أن ندرك بيسر تركيز هذا النوع من الأخبار على التشكيك في إسلام الأمويين، ذلك أنّ أغلب الأخبار قد أظهرت أبا سفيان طرفا منكرا ساعيا إلى نفي النبوّة عن الرسول، وهو يُواجَه بأطراف مؤمنة وإن لم تبلغها دعوة الإيمان بالرسول.

وممّا يدخل في هذا المجال الاحتفاء بشخصيّات جاهليّة ترفض السائد العقديّ وتُلزم النفس بخصال وأفعال وشعائر أتى بها الإسلام لاحقا، فكأنّ دورها في هذا المعرض هو التمهيد للإسلام وانتظار حلوله وحدوثه. ومن ذلك ما صُوِّرت عليه شخصيّة زيد بن عمرو من رفض للمعتقدات السائدة، وهذا الرفض ناتج عن تجريبها وممارستها ونكران ما فيها من عيوب ونقائص، والانطلاق في رحلة البحث عن الدين

1- م.ن: 17/ 43.
2- م.ن: 3/ 113.
3- م.ن: 6/ 229. 230.

الأصل، وهو ظافر به في الحنفيّة، إذ يعتنق ديانة إبراهيم ويعدل عن عبادة الأوثان، "وكان زيد بن عمرو أحد من اعتزل عبادة الأوثان وامتنع من أكل ذبائحهم، وكان يقول: يا معشر قريش، أيرسل اللّه قطر السّماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فيها وتذبحوها لغيره! واللّه ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على دين إبراهيم غيري"[1]. وتتعرّض هذه الشخصيّة بسبب من خروجها عن السّائد العقديّ إلى الطرد والتهجير والمنع من دخول مكّة لمفارقتها أوثانها[2]، ويظهر اعتناق زيد بن عمرو الحنفيّة نتيجة بحث في الأديان السماويّة، وتجريب لها، فيُصوّر إيمانه بحثا عقليّا قائما على التجربة وعلى الاقتناع، فينصرف عن النصرانيّة واليهوديّة لاعتراضه على بعضٍ من عقائدهما، ويُوجّهه علماء هذين المعتقدين إلى الحنفيّة دينا فيه ما يطلب[3].

وقد مثّل هذا النوع من الأخبار مستَندا يتصرّف فيه الرّواة لغلبة بيان شرعيّة الدعوة الإسلاميّة وتوفير مهاد لها، وتصوير انتظار في الآفاق حاصل، ناتج عن فشل السائد الدينيّ، أو هو ناتج عن الاطّلاع على الكتب الدينيّة القديمة المنبئة بخروج رسول فيه صفات مخصوصة وسمات مميّزة. ومن هذه الشخصيّات الدائرة في هذا الفلك، والتي ركّزتها الأخبار لتأدية دور التمهيد للإسلام وانتظار الدين الجديد، شخصيّة أميّة بن أبي الصلت، وكان "قد قرأ كتاب اللّه عزّ وجلّ الأوّل، فكان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب"[4]، فاعتنق الحنفيّة وتخلّق بأخلاقها وراح ينتظر النبوّة المنزّلة علّها تصيبه، ويكون هو الرسول المنتظر، وراح يجوب البلاد، في حال انتظار دائم، متوقّعا في كلّ آن ترشيح الإله له، ممّا أدّى إذ أخطأته الرسالة ونَبَت عنه أن يقف ضدّ الرسول وأن يجهر بعدائه ومحاربته، لأنّه –وفقا لما صوّرته عليه الأخبار– كان يرجوها لنفسه[5].

1- م.ن: 3/ 117

2- م.ن: 3/ 117. 118.

3- م.ن: 3/ 120. 121.

4- م.ن: 4/ 124.

5- م.ن: 4/ 126. 127.

فتركّز الأخبار في تصويره لهذه الشخصيّة على تهيّئها للترشّح لنيل الرسالة السماويّة والاستعداد لتنزّل الوحي عليها، فهي موصولة بعالم الغيب، ويقع تصويرها في حال امتحان النبوّة وقد قام طائران باختبارها وشقّ قلبها، إلاّ أنّ الاختيار ينتهي بالفشل، وقد دارت أخبار عديدة رصدا لهذه الصورة وتعبيرا عن هذه النّواة في عدد من الصياغات المؤديّة لذات المعنى[1].

وهي أخبار تؤكّد –فيما نعتقد– منزعا شيعيّا يذهب إلى أنّ الرسالة النبويّة أخطأت الهدف في نزولها على محمّد، وإنّما كان المقصود بها عليّا، فتنزّلت على محمّد على سبيل الخطأ، وهو ما دارت في مجاله هذه الأخبار، بتأكيدها جولان الرسالة السماويّة وبحثها عن صاحبها[2].

ومن العوامل التي رشّحت أميّة بن أبي الصلت لمنزلة النبوّة تمكّنه من المعارف الخارقة بإدراكه لغة الحيوان وعلمه بها، إذ هو يسمع الشياه تتحادث فيفكّ مغلق أقوالها، ويختبر صحبه صدق ما يقول فيجدونه حقّا[3]، وهو يفقه لغة الغراب ويحاوره[4].

وضمن هذا الإطار يُخرج الرّواة النابغة الجعدي وقد آمن بعقله قبل حدوث الدعوة الإسلاميّة، فيُعمل فكره في السائد العقدي، وينظر في أمور الكون ومساره، حدّ بلوغه الأيمان عقيدةً وممارسة، فينفي الشرك ويعتقد في الإله الواحد، ويهجر الأزلام والأوثان، ويقول في الجاهليّة قوله الذي يُثبت فيه الإله الواحد نفيا لكلّ شريك أو ضريع (من البسيط):

الحَمدُ لِلّهِ لاَ شَرِيكَ لَه مَن لَم يَقُلها فَنَفسَهُ ظَلَمَا.

وهو أيضا يُنكر الخمر والسكر وما يفعله في العقل[5].

1- م.ن: 4/ 129. 130. 131. 135.

2- انظر مجمل أخبار أميّة بن أبي الصلت. م.ن: 4/ 123.

3- م.ن: 4/ 128.

4- م.ن: 4/ 136.

5- م.ن: 5/ 9.

وعلى هذا، فإنّنا نجد عددا من الشخصيّات تُحرِّم على نفسها ما حرّمه الإسلام فيما بعد، إدراكا سابقا لجدوى هذا التحريم ونجاعته، وهو المحور الذي دارت عليه أغلب أخبار قيس بن عاصم المنقري، إذ يبحث رواة أخباره في الأسباب التي دفعته إلى أن يُحرّم على نفسه الخمر، وهو أوّل عربيّ حرّمها على نفسه في الجاهليّة[1]، بعد أن أدرك عيوبها وما تفعله بصاحبها من سلبٍ للعقل ودفعٍ على إتيان ما لايأتيه في حال صحوه، فهو من أثرها يغمز ابنته أو أخته ويعتدي على ضيفه[2]. وصورته المرصودة داخلة في بيان مضارّ الخمرة وسوء منقلبها وقدرتها على تحويل صاحبها من حال إلى حال، يأتي فيها منكَر الفعال. وعلى ذلك فقد تمّ الإلحاح على هذه الصورة في أخبار قيس بن عاصم المنقري.

إنّ جملة هذه الشخصيّات المؤسّسة للإيمان بالإسلام يسبق حدوثه، في هيئة دعوة صريحة للتصديق به أو تطبيق لمبادئه الإيمانيّة والحياتيّة وانتظار حلوله، تُظهر توجّه الرّواة إلى تصوير حياة عقديّة سائدة لم تُرض قسما من الجاهليين، وشغف للإسلام وأمل في اعتناقه قبل أن يحلّ ويسود. فالوجه الإيجابيّ لتصوير معتقدات الجاهليين في الأخبار راجع إلى مقامٍ إنتاجيّ إسلاميّ، فيه تمّت أسلمة شخصيّات الجاهليّة، ورصْدها على حال من انتظار الإسلام أو الإيمان بمبادئه قبل حلوله. فمجمل الأمثلة التي ذكرنا تؤكّد حضور المقام الإسلاميّ من بيانٍ لشخصيات تجول بقاع الأرض بحثا عن الدين السليم إلى بناء شخصيّات ترفض الخمر وتؤمن بتحريمها... وهي أمور يحضر فيها الدرس الدينيّ وإثبات أوليّة الإسلام.

لقد تبيّنا من هذا الفصل أنّ جزءا مهمّا من رصد ملامح الجاهليّة وبناء شخصيّاتها راجع إلى مقامات إنتاجيّة كان لها دور مهمّ في صياغة جاهليّة مقرَّبة إلى النفوس محبّبة إليها. ومقام الإنتاج يحوي منزلة الذات المتكلّمة وطبيعة انتمائها الديني والقبلي والقومي، ويحوي أيضا طبيعة العلاقات التخاطبيّة التي نتج في ظلّها الخبر،

1- م.ن: 14/ 80.

2- م.ن: 14/ 79. 80.

وقد تتراكم هذه المقامات بانتقال الخبر بين الرواة وبين الأسفار، فيعسر بيان آثارها. فالجاهليّة المرغّبة لم ترد أخبارا تتمحّض للدلالة على هذه الصورة، وإنّما كانت عناصر موزّعة في الأخبار تجتمع ومظاهرَ أخرى قد تؤدّي دلالة الصورة الراصدة لجاهليّة منفّرة. فقد استخلصنا -على سبيل المثال- صورة للسيّد قد رصدها الرواة تبين عن حكمة في الرأي وعدل سائد، غير أنّ هذه الصورة في أغلب الأحيان ترد في معرض حدثيّ يدلّ على وفرة النزاع وكثرة التقاتل وغلبة المكائد، وهو الوضع المنفّر الذي رُصِد في الجاهليّة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مجموع الشخصيّات النموذجيّة البطوليّة والفاضلة، وبالنسبة أيضا إلى جلّ مظاهر الحياة الجاهليّة.

الفصل الثاني

الصورة المنفّرة

إن الشقّ الثاني من الصورة المرصودة للجاهليّة قائم على بناء شخصيّات وبيان مظاهر تُحوّل الجاهليّة من زمن الفضائل والقيم الأخلاقيّة الفاضلة والبطولة المثاليّة إلى زمن تسوده الفوضى وسفك الدماء، فالجاهليّة المنفّرة هي حصيلة فعال شخصيّات وتوفّر سمات متى تُذكر تُنبئ بقيَم تُضادّ ما تأسّست عليه الصورة الباهرة المرغّبة. وهي صورة متأسّسة من وفرة النزاع وانعدام الأمن وغياب الوازع الجامع بين قبائل جُعِلت على حال من الصراع دائم. وكما هو الشأن بالنسبة إلى الصورة الباهرة فإنّ ذات المقامات المؤسّسة للصورة المرغّبة هي التي ساهمت في بناء الصورة المنفّرة، فكان من الضروريّ أن يُظهَر أثر الإسلام إذ حلّ في أرض ملؤها الفساد والخور، ومن هذا المنطلق تأتّت صور عديدة مبينة عن جاهليّة يكثر فيها سفك الدماء وتغلب الإحن والمنازعات على العلاقات بين القبائل والأفراد. وأمّا في خصوص أثر المفاخرة بين القبائل في الإسلام فإنّ ما أسّس الصورة الأولى ترغيبا في الجاهلية هو الذي يؤسّس الصورة الثانية تنفيرا منها، ذلك أنّ ذكر أمجاد القبائل مقرون في أغلب الأحيان ببيان مناقب قبائل أخرى، وحكاية مآثر العرب موصولة بحكايات مناقب الأمم الأخرى، غير أنّه في كلا المقامين يعسر أن نخلّص الصورة الأولى من الصورة الثانية، وما فصلنا بين الصورتين إلاّ إجراء اقتضاه منّا المبحث، ذلك أنّ التداخل بينهما هو الغالب، ومن اليسير أن تنقلب الصورة الباهرة إلى صورة منفّرة والعكس قويم. فظاهرة الشخصيّة البطوليّة الهامشيّة -على سبيل المثال- يمكن أن تفيد غلبة الصعلكة على هذا المجال، ووفرة الغارة وانعدام الأمن، غير أنّ الرواة في توظيفهم لهذه الشخصيّات وفي ارتباطهم بآفاق تقبّل الذوات المخاطَبة يُحوّلون هذه الشخصيّات إلى أبطال، يدافعون

فكان إذا نزل منزلا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلاّ بإذنه، وكان يفعل هذا بحياض الماء، فلا يردها أحد إلاّ بإذنه أو من آذن بحرب.[1] وهي صورة لصاحب الأمر تصوّر البطش والظلم، غير أنّ هذا السيّد كان منيعا بقومه وفي قومه وهي الظاهرة التي أشرنا إليها آنفا ساعة تجتمع قبائل متعدّدة تحت إمرة سيّد واحد يتأمّر عليهم لسنده وقوّة عشيرته وأنصاره. فيُركّز عليه الراوي ويجعله محلّ تبئير بيانا لخصاله وموقعه وهو ما شكّل محور المقطع الأوّلي الضابط لأسباب قيام حرب البسوس. فقد كان بطش كليب لاحقا ببكر بن وائل وبغير آله، ومن ذلك أنّ بني تغلب قد سعوا إلى الطلب بدم سيّدهم[2] وكان ما كان في ذلك من حرب البسوس[3]. وهي الهيئة الثانية التي يكون عليها السيّد الذي أخرجته لنا أخبار الجاهليّة، إضافة إلى نماذج أخرى تدور في ذات المدار الذي حدّدنا، مع بعض الإضافات على شاكلة الاستناد إلى قوّة تسند هذا السيّد من خارج القبيلة أي من سلطان أعلى كملوك الحيرة، أو الصلة بملوك الفرس.

ومن أمثلة هذه الصورة التي ترصدها الأخبار للسيّد المتسلّط الجائر الجابي لأموال العشائر صورة زهير بن جذيمة العبسيّ، وقد كانت هوازن تراه ربّا، وكان يأخذ عشر أموالهم، فيأتي عكاظ في أيّامها ليتسلّم الإتاوة، وكان يهين كلّ عاجز عن تقديم الإتاوة حتّى حقدت عليه هوازن وسعت في قتله، وقد كانت سيادته لها بسبب من وهنها وضعفها وعجزها عن حماية نفسها "وهوازن يومئذ لا خير فيها، ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد، فهم أذلّ من يد في رحم، وإنّما هم رعاء الشاء في الجبل."[4] فلمّا كثرت عامر واشتدّت عملت على قتله، وكان لها ذلك[5].

1- م.ن: 5/ 29.

2- انظر رواية المفضّل لهذه الواقعة: م.ن: 5/ 34.

3- م.ن: 5/ 29 وما بعدها.

4- م.ن: 11/ 77.

5- م.ن: 11/ 77 وما بعدها.

فالسيادة قد تشمل آل السيّد وقد تتعدّاها إلى عشائر وقبائل واهنة تدخل في حماه وتكون من رعاياه، فيجور عليها ويمايز بينها وبين عشيرته إذ يفضّلهم ولا يعدل بينهم، وتُغذّي المفاضلة الصراع العشائريّ وتؤدّي بدورها إلى إذكاء نار الخلاف والصراع بين المتجاورين المتقاربين، ومنه ما كان من الغطاريف سيادةً على دوس وإذلالا لهم كان عامر بن بكر بن يشكر يُقال له الغطريف ويُقال لبنيه الغطاريف، وكان لهم ديّتان، ولسائر قومه ديّة، وكانت لهم على دوس إتاوة يأخذونها كلّ سنة، حتّى إن كان الرجل منهم ليأتي بيت الدوسيّ فيضع سهمه أو نعله على الباب، ثمّ يدخل فيجيء الدوسيّ فإذا أبصر ذلك انصرف ورجع إلى بيته."[1] فكان أن انقلبت دوس عليه ووقعت الحرب بين آل الحارث ودوس بسبب من جبروت آل الحارث وتسلّطهم.

ويتّخذ السيّد الجائر الظالم لأهله ولأجواره عددا من الهيئات والصيغ، استعمالا لنفوذه واستغلالا لسلطانه، ومن أسباب هذا الجور استمداد السيّد موقعه من سلطة خارجيّة أو من قوّة متحكّمة لا تُقهر هي التي تُنصّبه وهي التي تحميه وتذود عنه، مثلما كان أمر زهير بن جناب الذي ساد على كلب أوّل أمره، ثمّ بعد أن أمّره أبرهة حين طلع نجدا وشُدّ بأواصر الصلة إلى زهير على بني وائل: تغلب وبكر، فكان سيّدا عليهم يأخذ منهم الإتاوة، ولا يرحم عجزهم، حتّى وافت سنة شديدة، وعجزوا عن تأدية طلب زهير، فأجدبهم ومنعهم من النجعة حتّى يُؤدّوا ما عليهم، فكادت مواشيهم تهلك[2] ممّا أدّى بأحد بني تيم اللّه بن ثعلبة إلى السعي في قتله، فأخطأه، فاضطرّ إلى الحيلة ليخرج من ديار لا نُصرة له فيها ولا ذود، فتماوت وأخرجه مقرّبوه بعيدا عن مضارب الحيّ الكاره لسلطانه ولسيادته، حتّى عاد إلى قومه، وجمع لبكر وتغلب الجموع من بني كلب وهم آله ومن شذّاذ العرب والقبائل ومن أطاعه من أهل اليمن فقتلهم وشرّدهم. وهو ما يُؤكّد صورته سيّدا باطشا يسود بحدّ السيف.

1- م.ن: 13/ 225.

2- م.ن: 18/ 303.

وقد يجاوز فعل السيّد حدّ الإخضاع والإذلال إلى التنكيل والتقتيل لمحض التأثر بآراء آله المقرّبين منه. وتصوّر الأخبار عمرو بن هند في يوم أوارة سيّدا للقوم يهتزّ لآراء صحبه وتفعل فيه الأقوال فعلها، فيقتّل وينهب ويخلّ بالعهود، وذلك راجع لتأثير المحيطين به[1].

إنّ صورة السيّد الجائر لا تعنينا في ذاتها، وإنّما هي داخلة في رصد جاهليّة تسودها الهيمنة والظلم، وهو الشقّ الثاني للصورة التي رسمتها الأخبار للجاهليّة، فتوسيع الاهتمام بهذه الشخصيّة راجع إلى مقام إنتاجيّ وجد في الجاهليّة مجالا لبيان وضع للعرب قبل الإسلام تغلب عليه السيطرة وانعدام الضوابط والحدود، ولانعقاد حاضر سياسيّ يحوي سادة يُغلبّون فيجورون، وهو مبحث يعسر التوسّع فيه، ولكن يمكن أن نشير إلى أنّه يمكن أن ندرس هذه الأخبار في ظلّ الواقع السياسيّ الذي أنتجها، فهي محيلة عليه أكثر من إحالتها على واقع كان في ماضي الزمان.

ب. صورة البطل الهامشي.

نقصد بالبطل الهامشيّ ذاك البطل الذي تحقّقت بطولاته في مجال خارج المنظومة القبليّة وكان يمثّل حضورا فرديّا فيما يأتيه من بطولات، ويختصّ الصعاليك[2] بهذا المجال. وللصعاليك حضور مميّز في ما يُنقل ويرصَد عن الجاهليّة، فهذه الفئة لم

1- م.ن: 22/ 192.

2- يُعرّف جواد علي في كتابه "المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام" 9/ 60. الصعاليك، يقول: "والصعاليك قوم خرجوا على طاعة بيوتهم وعشائرهم وقبائلهم لأسباب عديدة، منها عدم إدراك أهلهم أو قبيلتهم نفسياتهم، ممّا سبّب إلى نفور منهم، وخروجهم على طاعة مجتمعهم، وهروبهم منه، والعيش عيشة الذؤبان، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم، وعلى قوّتهم في تحصيل ما يعتاشون به، بالإغارة على الطرق والمسالك ومهاجمة أحياء العرب المبعثرة أفرادا أو طوائف.". ويعرّفهم خليل عبد الكريم، في "قريش من القبيلة إلى الدولة المركزيّة" ص287. بقوله: "الصعاليك أو الخلعاء هم شبّان فقراء أمثال "عروة بن الورد" و"تأبّط شرّا" و"السليك بن السلكة" و"الشنفرى"، ويسمّون أيض "ذؤبان العرب" جمع ذئب لأنّهم كانوا مشهورين بسرعة العدو، ولكن مع فقرهم كانوا نبلاء ومن نبلهم أنّهم كانوا لا يهجمون إلاّ على الأشحّاء البخلاء من الأغنياء وكانوا يسمّون أيضا "العدّائين" لأنّهم كانوا مشهورين بسرعة العدو في السلب والنهب"

تُقَدّم عموما خلوا من تعاطف الرّواة معها، ولذلك فإنّ الصورة المرصودة لها لا تقرنها بقطّاع السبل وناهبي العباد بدون سبب، وإنّما الصعلوك هو من عرف بخلال فيه ثابتة، وكان خارجا في ما يأتيه من غزوات عن قبيلة يصدر عنها، وإن لم تنقطع صلاته بالقبيلة. ولقد ذهبت بنا الظنون مذاهب شتّى في تركيز البطولة الهامشيّة منزلةً من المحلّين، وذاك راجع أساسا إلى أنّ صورة البطل الهامشيّ لم تكن دوما صورة سلبيّة مُنكَرة، وإنّما هي في جانب مهمّ منها خاضعة للعلاقة التخاطبيّة المتحكّمة في إنتاج الخطاب، والتي بمقتضاها تتحوّل أخبار الصعاليك إلى مجال لطلب مُتَع القصّ، وقد تبيّنّا ذلك في القسم الخاصّ بدراسة البنية الحدثيّة لهذه الأخبار، المرتبطة دوما بمأزق ما يُوضَع فيه الصعلوك وهو خارج منه بما يتوفّر له من مواهب في القتال والمراوغة ولما يتحلّى به من فطنة وذكاء ودهاء.

إنّ الصعلكة مجال قد حوى قيما تخالف في طرائق تحقيقها نواميس القبيلة ولكنّها مبينة عن تصوّر ذاتيّ خاصّ لكسب القوت أو للأخذ بالثأر وهما الدافعان الأساسيان لخروج الصعلوك غازيا.

والشقّ الأقلّ حضورا يمثّل الخارجين عن السنن، أو هي صورة عن الخارجين عن نظام الجمع والمبتكرين سبيلا خاصّة تؤسّس مجال الصعاليك الذين جمعوا-فيما ذكرته الأخبار- بين الدهاء والقدرة على القتال.

فنتبيّن جملة من الشخصيّات الخارقة في أفعالها وفي تعاملها مع المؤسّسة القبليّة ومع انتظام المجموعة، غير أنّه ينبغي أن نشير إلى أنّ الصعاليك لم يكونوا قطّاع طرق وإنّما كان الخروج لقطع الطريق أو للظفر بالغنائم سلوكا عامّا خاصّة بين القبائل المتناحرة. وقد كان لكلّ واحد من هؤلاء الصعاليك هدف يصبو إلى تحقيقه ويرمي إلى بلوغه، ومن ذلك نتبيّن صور شخصيّات تصنعها هذه الأخبار وتؤسّسها تخرج عن حدود العادي والمألوف لتؤسّس لظاهرة مهمّة في الحضارة العربيّة وفي تاريخ الأدب العربي يتأسّس بها القدرة على الحكاية واصطناع مقام سرديّ تامّ منه تتشكّل الصورة.

ولقد تعرّضت دراسات عديدة[1] لظاهرة الصعاليك في الجاهليّة، وشقّ مهمّ منها أخرج الصعاليك من دائرة الشخصيّة إلى دائرة الشخص، إذ تُقوّى صلتها بالواقع وتُحال عليه. وقد أظهرت هذه الدراسات نحلة الصعاليك جماعة خارجة عن كلّ الضوابط والأعراف، تغلب عليهم العقد النفسيّة، المرضيّة.

وبالرغم من وجود شخصيّات تنتمي إلى هذا المجال وتُثبَت لها الفضائل العليا[2] والقيم الساميّة إلاّ أنّا آثرنا أن نردّ هذه الشخصيّات النموذجيّة البطوليّة إلى شقّ

1- انظر على سبيل المثال: السيّد عبد العزيز سالم: *"دراسات في تاريخ العرب. تاريخ العرب قبل الإسلام"* (1). مؤسّسة شباب الجامعة للطباعة والنشر. الإسكندريّة. د.ت. ص 388.

وعبد العزيز نبوي: *"الأدب الجاهليّ"*. الصدر للخدمات والطباعة. دمشق. الطبعة الثانية 1978. ص238. 241.

وشوقي ضيف: *"العصر الجاهليّ"*. ص67

2- فعروة بن الورد (3/ 70) يوسم بأنه "صعلوك من صعاليكها (الجاهلية) المقدّمين الأجواد" وهذا عبد الملك بن مروان الخليفة الأمويّ يتحدّث عن رمز مهمّ من رموز الجاهليّة وعلم يضارع حاتما الطائي في كرمه "من زعم أنّ حاتما أسمح النّاس فقد ظلم عروة بن الورد" 3/ 71، وتصوّر لنا الأخبار ثناء امرأته عليه بعد أن احتيل عليه في تركها "وجاءت سلمى تثني عليه فقالت: واللّه إنّك ما علمتُ لضحوك مقبلا كسوب مدبرا خفيف على متن الفرس ثقيل على العدوّ طويل العماد كثير الرماد راضي الأهل والجانب" (3/ 74)، وهي صفة ثبت له وتروج (3/ 74) صائغة ملامح الزوج المثاليّ، وما يؤكّد هذا القول أن الزوج الذي خلف عليها أراد منها ثناء يماثل ما شاع من ثنائها على عروة بن الورد، فقالت فيه من الصفات ما يحطّ من شأن الرجل وأجابته إلى طلبه، فصنعت له صورة تخالف الصورة التي قدّتها لزوجها الأوّل، "فوقفت عليهم (القوم) وقالت: أنعموا صباحا، إنّ هذا عزم عليّ أن أثني عليه بما أعلم. ثمّ أقبلت عليه فقالت: واللّه إنّ شملتك لالتحاف، وإنّ شربك لاشتفاف، وإنّك لتنام ليلة تخاض، وتشبع ليلة تُضاف، وما تُرضي الأهل ولا الجانب، ثمّ انصرفت. فلامه قومه وقالوا: ما كان أغناك عن هذا القول منها"(3/ 75).

ويعرّف عروة بن الورد بجمعه للضعفاء والجوعى وما يقوم من به من غزو إنّما هو لهم، ولذلك كان النداء كلّما اشتدّت بهم الحاجة "يا أبا الصعاليك أغثنا" (3/ 78).

وتؤكّد الأخبار انتشار صورة الصعلوك في أذهان النّاس في الإسلام، إذ يُركّز المنصور خليفة المسلمين راويةً لأخبار عروة بن الورد، وتقع أخباره موقعا حسنا في أنفس الرّواة المنصتين، -ولا خيار لهم غير

الصورة المنفّرة، بسبب من أنّها صور تؤكّد انعدام الأمن في الجاهليّة وسيادة الفوضى ووفرة الغزوات والسرق والنهب، فهي شخصيّات قائمة على تصوير مجال قصصي، تغلب عليه مُتَع القصّ من جهة، وهي من جهة ثانية شخصيّات تَسِمُ مجالا بجملة من الخصال التي يمتزج فيها الإيجابي بالسلبي، فشخصيّة الصعلوك قد اتُّخذت متّكأ لإنتاج أخبار تُحبَّب إلى النفوس بما فيها من مغامرة وما فيها من تشويق، وقد اتُّخذت أيضا مستندا لتصوير جاهليّة تخلو من الأمان وتكثر فيها الدماء. فشخصيّة الصعلوك واقعة في منطقة تماسّ بين الترغيب والتنفير، فهي في وجهها الفنيّ مرغّبة، وهي في وجهها الدلالي منفّرة. وقد قامت هذه الشخصيّة في بيان خلالها على سمات إيجابيّة، وهي سمات مشتركة قامت بقسط وافر في تمام صورته البطوليّة، وفي تيسير المغامرة والانفلات من المآزق، وبها يقدر على إتمام غاراته والظفر منها وضمان سلامته وسلامة صحبه إن كان مرفوقا بجمع يعضده:

■ شدّة العدو: وتمثّل هذه السمة أهمّ ما يتحلّى به الصعلوك من صفات وأكثرها اشتراكا بين جمع الصعاليك، فقد كان العدو مساعدا لهم في تحقيق غاراتهم ومعينا لهم على الإفلات ممّا يُكادُ لهم من حيل بغاية إصابتهم والإطاحة بهم. وهي صفة غلبت عليهم حتّى نعتهم الرّواة بها فصاروا يُعرفون بالعدّائين. وبها تتمكّن الشخصيّة البطوليّة الهامشيّة من "الغنيمة" إذ تحتفظ بسرعة المبادرة والمباغتة وتيَسِّر في ذات الآن أمر الانصراف والانفلات من الملاحقين الطالبين.فيوصَف حاجز بن عوف وهو أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب[1] بأنّه "ممّن كان يعدو على رجليه عدوا يسبق به الخيل[2]. وتتجاوز سمة العدو حدّ الخصيصة المميّزة للشخصيّة لتتحوّل إلى مجال لابتكار مختلف الأحداث التي تبرزها وتُظهرها، فتخرج بالشخصيّة البطوليّة الهامشيّة

ذلك، فحديث الملوك مستَحسن بالضرورة- حتّى ليبلغ الأمر بثمامة وهو أحد الرّواة المشهورين إلى أن يقول بعد إنصاته لرواية المنصور "واللّه يا أمير المؤمنين لقد زيّنته عندنا وعظّمته في قلوبنا." (3/ 73).

1-*كتاب الأغاني*: 13/ 211.

2- م.ن: 13/ 211.

إلى عالم الخارق والإفراط في تنويع ما يُمكن أن يأتيه الصعلوك من أمور جليلة اتّكاء على هذه الخصيصة. ومن ذلك على سبيل المثال ما وُسِم به تأبّط شرّا وقد كان –وفقا لتصوير الرّواة له "أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين"[1]، وهو من شدّة عدوه كان "ينتقي من الظباء أجودها إذا جاع ثمّ يجري خلفه فلا يفوته حتّى يظفر به"[2]، وهو يُصوَّر مفتخرا بعدوه أمام بجيلة "فقال: يا معشر بجيلة أأعجبكم عدو ابن برّاق، واللّه لأعدونّ لكم عدوا أنسيكم به عدوه، ثمّ عدا عدوا شديدا ومضى."[3]

وتُرصَد للسليك صورة جماع القوّة والإقدام، ويختصّ كغيره من الصعاليك بسمة العدو، ويُظهر الرّواة هذه الصفة فيه برواية واقعة له وهو شيخ طاعن في السنّ، إذ أتى بني كنانة وله عليهم نعمة، فجمعت له إبلا عظيمة ودفعتها له، وطلبت منه أن يُريها بعضا من عدوه، فقال: "ابغوني أربعين شابّا، وابغوني درعا ثقيلة، فأتوه بذلك، فلبس الدرع وقال للشبّان: الحقوا بي إن شئتم، وعدا فلاث لوثا، وعدوا جنبتيه فلم يلحقوه إلاّ قليلا، ثمّ غاب عنهم وكرّ راجعا حتّى عاد إلى الحيّ وهو وحده يُحضر والدرع في عنقه تضطرب كأنّها خرقة من شدّة إحضاره"[4]. فهذا فعله وهو شيخ طاعن في السنّ مدرّع، يهزم أربعين من خيرة شباب كنانة، فكيف هو عدوه وهو شابّ متجرّد من دروعه؟

إنّ سمة العدو خصيصة مهمّة في تشكيل صورة البطل الهامشيّ لا نجدها عند البطل الملحميّ بسبب من اختلاف المواضع والأهداف وطرائق الغزو والمقاتلة، وهي ركن أساسيّ من أركان البطولة، وسلاح من الأسلحة التي يستخدمها في الغارة وفي الانفلات، حبته به الطبيعة أو هو مكتسبه من مراسه وعناده مع عناصر هذه الطبيعة وكائناتها.

1- م.ن: 21/ 146.

2- م.ن.ص.

3- م.ن: 21/ 151.

4- م.ن: 20/ 247.

■ الإقدام والشجاعة وشدّة المقاومة: وهي خصال ثُبّت للصعلوك في غزواته وغاراته، وهي من قبيل السمات الثابتة في تشكيل كلّ الشخصيّات الدائرة في هذا الفضاء، ونضرب مثالين لبيان هذه الصفة الراسخة في بناء شخصيّة الصعلوك، مثال السليك وقد خرج بصحبه غازيا، فيُوفّر لهم الماء من حيث لا يعلمون، إلاّ أنّهم ينفضّون من حوله، ويرفضون صحبته في غارته، فيغزو وحيدا ويُقاوم قبيلتي مراد وخثعم وقد فطنوا به وطلبوه، فيهزمهم ويصيب من نعمهم ويظفر بامرأة يصطفيها لنفسه وبأسير من علية القوم، ويلحق بأصحابه الذين تركوه قبل أن يصلوا الحيّ[1]. وهي صورة تُرصَد للسليك محفوفة بالخوارق، تُخرجه بطلا أسطوريّا، يقاوم فردا قبيلتين معا، ويخرج من هذه المقاومة لا هاربا ولا فارّا وإنّما غانما ظافرا بنعم يسوقها وأسرى يحملهم معه. وتدور أخباره على تثبيت هذه الصورة وتركيزها. ومثال تأبّط شرّا وقد دارت جملة أخباره على بيان اتّسامه بالشجاعة والإقدام وترك الخوف، ولعلّ أبين صورة على ذلك ساعة تركه أصحابه وحيدا في وادي البير (الفرانق الذي يُعادي الأسد وهو ضرب من السباع) فيقتل ببرا ويغزو بعد ذلك هذيلا فردا ويغنم في غزوته ويعود ظافرا[2].

■ الحيلة: وهي عنصر أساسيّ في بنية أحداث الصعلوك، وبها تتمكّن الشخصيّة من الخروج من المآزق، وبها تتمكّن كذلك من الغارة والظفر، وبحذف هذه السمة فإنّ الصعلوك يعجز عن الكون، إذ أنّ فرديّته في مواجهة الجمع أو قلّة عدده لا تُمكّنه من الظفر والسلامة إلاّ إذا عوّل على الحيلة واستند عليها في كامل مراحل إنجاز أحداثه. والأمثلة على ذلك عديدة ، فحاجز يحتال على بني هلال بن عامر في غزوته لهم ويوقعهم في فخّ نصبه لهم[3]. وتكون الحيلة الأداة الرئيسيّة التي يستند عليها تأبّط شرّا للخروج من وفرة المطاردات وكثرة الراغبين في دمه. وممّا يُساعد الصعلوك على تمام حيلته ونجاعتها، تبصّره بالأمور وحسن توقّعه لما هو آت من أفعال، وحذره

1- م.ن: 20/ 350. 351.
2- م.ن: 21/ 157.
3- م.ن: 13/ 213.

الدائم. وخير نموذج لنفاذ البصيرة والفطنة تأبّط شرّا، الذي يُصوَّر على حذر دائم، ففي إحدى غزواته بعد أن أطرد نعما لبجيلة، يقول لعمرو بن برّاق، وقد اطمأنّ لظفره وأوبته سالما "أقلّ من الشراب فإنّها ليلة طرد، فقال: وما يدريك؟ قال: والذي أعدو بطيره إنّي لأسمع وجيب قلوب الرجال تحت قدمي، وكان من أسمع العرب وأكيدهم"[1]، فتُظهر صيَغ التفضيل صورة لشخصيّة خارقة، تكون النموذج في القدرة على السمع والنموذج في الفطنة. وتظهر هذه الصيغ في وصف السليك بصفات تجعله الأفضل والأقوى والأدهى "كان السليك من أشدّ رجال العرب وأنكرهم وأشعرهم، وكانت العرب تدعوه سليك المقانب، وكان أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وأشدّهم عدوا على رجليه، لا تعلق به الخيل، وكان يقول: اللهم إنّك تهيئ ما تشاء لمن تشاء إذا شئت، اللّهم إنّي لو كنت ضعيفا كنت عبدا، ولو كنت امرأة كنت أمة، اللّهم إنّي أعوذ بك من الخيبة، فأمّا الهيبة فلا هيبة."[2]، وكان يتميّز شأنه في ذلك شأن بقيّة الصعاليك بفطنة تُيسّر له تحقيق أهدافه، فكان يخزّن المياه في السبل التي يقطعها فارّا من غزواته حتّى لا يهلكه العطش "كان السليك بن عمير السعدي إذا كان الشتاء استودع ببيض النعام ماء السماء، ثمّ دفنه، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار، وكان أدلّ من قطاة يجيء يقف على البيضة، وكان لا يغير على مضر، وإنّما يغير على اليمن، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة"[3].

وبسبب من الإفراط في إثبات هذه الصفات وإسنادها إلى الصعاليك فإنّ هالة أسطوريّة قد غلبت على أفعال عديدة يأتونها، فيُصوَّر الصعلوك قوّة خارقة، تتحدّى القوى الغيبيّة وتصارعها[4]، ويعجز السحرة أمامها فيُردّ عليهم سحرهم إذ أرادوا أخذه

1- م.ن: 21/ 149.

2- م.ن: 20/ 247.

3- م.ن: 20/ 347.

4- انظر الخبر الذي يُصوّر مصارعة تأبّط شرّا لسبع من سباع الجنّ طوال الليل. م.ن: 21/ 152.

وتعطيل قواه بواسطة السحر[1]. وهو قادر على النفاذ مهما ضاق عليه الخناق، ومستعمل من الأدوات ما أُتيح له. ولعلّ الخبر الذي يُصوّر انسيابه والعسل أفضل مثال على أسطرة هذه الشخصيّات، إذ يُحاصَر تأبّط شرًا في غار كان يشتار منه العسل وتقف له هذيل على باب الغار تنتظر خروجه للظفر به فجعل يسيل العسل من الغار ويهريقه، ثمّ عمد إلى الزق فشدّه على صدره، ثمّ لصق بالعسل، فلم يبرح ينزلق عليه، حتّى خرج سليما وفاتهم، وبين موضعه الذي وقع فيه وبين القوم مسيرة ثلاث.[2]، فيتمّ تحويل الشخصيّة من مجال المألوف العاديّ إلى مجال الخارق لتُحاط بهالة أسطوريّة مكتسبة أساسا من العلاقة التخاطبيّة الحاصلة زمن إنتاج الخطاب الأخباريّ. فيتحوّل تأبّط شرًا أسطورةً تموت الطير إذ تأكل منه عند مقتله[3]، ويُصَوّر ساعة الإجهاز عليه بطلا يرمي قاتليه بأعضائه فيصيب منهم المقتل، إذ تسقط شماله بترا من طالبيه، فيأخذها ويرمي بها كبد الرجل فيموت[4]. والأسطورة المؤسّسة لتمام المائة الذين وعد بقتلهم وهي مسألة قد ساهمت في إنتاج عدد مهمّ من الأخبار التي يتعرّض فيها الرّواة لهذا الحادث، فالشنفرى يأخذ على نفسه عهدا أن يقتل مائة من القبيلة التي أسرته ورعته، فيموت دون تمامها، ويكتمل نصاب المائة وهو ميت يُقتَل المعتدي عليه فجاء رجل منهم كان غائبا فمرّ به وقد سقط فركض رأسه برجله، فدخل فيها عظم من رأسه، فبغَت عليه فمات منها، فكان ذلك الرجل هو تمام المائة[5].

غير أنّ هذه الفئة الجاهليّة لم تكن خارجة تمام الخروج عن سنن الاجتماع الجاهليّ وشرائعه، وإنّما كانت خاضعة لبعض من الاتّفاقات العامّة والمواضعات السائدة، فهي لا تغير في الأشهر الحُرم على سبيل المثال، فتقطع غاراتها وتنتظر

1- انظر الخبر الذي يلحظ فيه كاهن خثعم أثر تأبّط شرًا وكان يريد أن يأخذه لهم ويقرّ أنّ هذا لا يجوز على صاحبه الأخذ. م.ن: 21/ 166

2- م.ن: 21/ 158.

3- م.ن: 21/ 190

4- م.ن: 21/ 217.

5- م.ن: 21/ 217. وانظر أيضا: 21/ 209.

انقضاءها لمعاودة الغارة على الأهداف المحدّدة[1]. وهي تتناصر ويعضد الواحد منهم الآخر[2] ويأخذ النّاجي منهم بثأر الهالك[3]. وكانت تتّخذ من بينها قائدا وسائسا يرأسها في أمورها وفي غاراتها وتنتظم تحت لوائه[4].

وعلى هذا فعلينا إذا ما أردنا أن ننظر في شأن هذه الشخصيّة النموذجيّة الخارقة الخارجة عن السنن الجاهليّة العامّة أن ندرك فرادتها وتميّزها دون تهميش أو مطلق انتصار. فقد مثّلت ظاهرة صعاليك الجاهليّة مجالا لأخبار عديدة تحتفي بهذه الفئة وتُعلي من شأن بطولاتها وترصد مختلف أفعالها ومغامراتها. ومن الأكيد أنّ طرافة مواضيع الصعاليك قد ساهمت في اختلاق هذا المجال وابتكار أحداثه. وقد تحدّدت هذه الشخصيّات فيما تأتيه من بطولات في مواضيع كبرى عليها أُديرت الأخبار وتمّ بناء عالم الشخصيّة الهامشيّة، فبطولات عروة بن الورد قد انحصر أغلبها في تتبّع علاقته بالمرأة، وتركّزت أخبار تأبّط شرّا على ذكر انتقامه من آله الذين سَبَوه ثمّ سابُوه، ودارت أخبار الشنفرى على حدث موته ومنه نتبيّن البطولات التي أتاها.

2- مظاهر الحياة المنفّرة.

إنّ جملة من المظاهر التي تبنيها الأخبار تُظهر جاهليّة منكَرة تغلب عليها الفوضى وسفك الدماء، والافتقار إلى الوازع الذي يحمي الأفراد والجماعة، وعلى

1- انظر على سبيل المثال الخبر الذي يُظهر كفّ الصعاليك عن الغارة في الأشهر الحرم والانطلاق بعد انقضائها لمعاودتها: م.ن: 21/ 181 "فلمّا انقضت الأشهر الحرم خرج تأبّط والمسيّب بن كلاب في ستّة نفر يريدون الغارة على بجيلة..."

2- انظر في ذلك جملة من الأخبار المبينة عن سعي الصعلوك في تخليص أصحابه متى أُسروا وبذل النفس من أجل إنقاذهم:م.ن: 21/ 150. 151. 152.

3- إنّ الصعلوك يثأر لصحبه وجماعته، وهذا ما يظهر في رصد صورة تأبّط شرّا عندما يقتل بنو نفاثة أصحابه، فيُلزم نفسه بأخذ ثأرهم إذ يقول بعد مقتلهم "واللّه ما يمسّ رأسي غسل حتّى أثأر بهم" م.ن:21/ 188. 189.

4- فالصعاليك لم يكونوا جماعة خارقة لكلّ نظام، وإنّما كان لهم نظامهم الذي يخصّهم، وقد كانت منزلة السيادة والقيادة مثبتة فيهم، وكان عامر بن الأخنس هو رأسهم وسيّدهم "وكان إذا خرج في غزيّ رأسهم، وكلن يُقال له سيّد الصعاليك" م.ن: 21/ 187.

ذلك فإنّ الصورة المنفّرة لا تتشكّل في أخبار مستقلّة بذاتها وإنّما هي منجّمة طيّ المدوّنة، قد تُداخل بعضا من المظاهر الباهرة وقد تغلب الصورة الخاصّة بمجال جاهليّ يُعرَض لغاية بيان فضاءٍ تسوده الفوضى والنزاع.

ولذلك فلا غرابة أن نعرض إلى مظاهر تصوِّر إيجابا وهي ذاتها تُرصَد سلبا وإنكارا، بسببٍ من هذا التنازع القائم بين الصورتين المرصودتين، وبسبب من قدرة الجاهليّة على احتواء الظاهرة وضدّها، فهي مأتى الأخلاق الفاضلة والحكمة والرشاد، وهي في ذات الآن مصدر "الأخلاق الجاهليّة"، ووفرة التقاتل، وغياب فضائل الأخلاق..

ونعرض في هذا الإطار إلى بعضٍ من المظاهر السلبيّة في رصد صورة الجاهليّة، ونركّز أساسا على ظاهرة الثأر من حيث هو قيمة من القيم الجاهليّة التي مثّلت مدار عدد مهمّ من الأخبار، وقُدّت شخصيّات بتمامها تنصرف في ما تؤدّيه من أفعال وأقوال وما تختصّ من أحوال لغاية الأخذ بالثأر، كما نعرض إلى منزلة المرأة حتّى نتمّ صورة سبق أن وسمناها بالإيجاب، وهي في وجه من وجوهها تمثّل شطرا من معايب الجاهليّة، وأخيرا نسعى إلى بيان المظهر الاعتقادي.

◈ **قيمة الثأر.**

إنّ أهمّ هذه القيم التي حرّكت المجال الجاهليّ ودفعت بأعضاده إلى إحداث أفعال متعدّدة، قيمة الثأر، وهي ركن ثابت من أركان صورة هذا المجال، إذ نلاحظ توجّه عدد مهمّ من الأخبار إلى تصوير الشخصيّة المطالبة بثأرها، المنطلقة في رحلة البحث عنه، ومن هذا الغرض تتولّد أحداث جمّة ووقائع تأتيها الشخصيّة في سبيل تحقيق هدفها. فأخبار عديدة من المدونة التي نعتمد تدور في مدار هذه القيمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أي بصورة تتحدّد فيها الشخصيّة فيما تأتيه من أفعال بطلب ثأر يشدّ الأخبار المخصّصة لها، وبإدراكه تنتهي الشخصيّة، فالسمة المميّزة لها هي أداء هذا الفعل، أو بصورة يكون فيها طلب الثأر نتاج نزاعات أو سببا مُحدثا لنزاعات، فهو سمة داخلة في مجال أعمّ، وهو قسم من محدّدات صورة الشخصيّة وحدث من الأحداث المذكورة. ويبدو من جملة الأخبار التي نعرضها لاحقا أنّ قيمة الثأر داخلة في

تكوين شخصيّة الفرد وفي رصد صورة الجماعة، وهي حقٌّ يُطلَب ويُراق الدم من أجله، ويُعذَر صاحبه بقتل مطلوبه، ويُعاب على تركه والغفلة عنه.

ومن الشخصيّات التي توجّهت أخبارها إلى المطالبة بالثأر حدّا وُسِمت به، قيس بن الخطيم[1]، إذ ينشأ وعليه وزر دم موروث، ينبغي عليه إدراكه وإلاّ لحقه العار والخزي أنّى حلّ، فكان مطالَبا بقتل قاتل أبيه وجدّه. فراح يتقصّاهما حتّى أدركهما وأدرك منهما ثأره[2]. وتكاد تنحصر أخباره في تثبيت هذا الغرض من حيث هو قيمة أساسيّة يمكن أن يصرف المرء حياته من أجلها. فقيس بن الخطيم كان صغيرا لا يعي عندما قُتِل أبوه ومن قبله جدّه، وعندما يفع واشتدّ فرغ إلى طلب ثأره[3]، وهو الأمر الذي سبّب حروبا قامت بين قومه والخزرج. ولم يتركه الخزرج إذ أصاب منهم قتيلا، فراحوا يتقصّونه حتّى أخذوه، ذلك أنّ الثأر –كما هو بيّن في أخبار قيس بن الخطيم– يُمهَلُ ولا يُهمَلُ، فالخزرج يتذكّرون قيسا بعد أن هدأت حربهم مع الأوس، فتطلبه وتقتله[4]. وتتواصل السلسلة، دون قطع قدرا محتوما أن تظلّ الدماء دائما مطلوبة، فمن العسير أن يُسقط أحدهم دما له، فبعد مقتل قيس يأخذ رهطه بثأره بعديل له في المنزلة،

1- انظر أخباره: م.ن: 3/ 3.

2- م.ن: ¾ كان سبب قتل الخطيم أنّ رجلا من بني الحارث بن الخزرج يُقال له مالك، اغتاله فقتله، وقيس يومئذ صغير، وكان عديّ أبو الخطيم أيضا قُتل قبله، قتله رجل من عبد قيس. فلمّا بلغ قيس بن الخطيم وعرف أخبار قومه وموضع ثاره، لم يزل يلتمس غرّة من قاتل أبيه وجدّه في المواسم حتّى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله، وظفر بقاتل جدّه بذي المجاز...". وانظر توسيع هذه النواة في خبر لاحق: م.ن: 3/ 5.

3- م.ن: 3/ 5: "ونشأ (قيس بن الخطيم) أيّدا شديد الساعدين، فنازع يوما فتى من فتيان بني ظفر، فقال له ذلك الفتى: واللّه لو جعلت شدّة ساعديك على قاتل أبيك وجدّك لكان خيرا لك من أن تخرجها عليّ. فقال: ومن قاتل أبي وجدّي؟ قال: سل أمّك تخبرك...فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذبابه بين ثدييه، وقال لأمّه: أخبريني من قتل أبي وجدّي..."

4- م.ن: 3/ 12: "...أنّ حرب الأوس والخزرج لمّا هدأت، تذكّرت الخزرج قيس بن الخطيم ونكايته فيهم، فتوامروا وتواعدوا قتله..."

ضريع في السيادة والشجاعة، وهو أبو صعصعة يزيد بن عوف، ولمّا أُتِي قيس برأسه وهو يحتضر، مات وقد هدأ واطمأنّ أنّ دمه لم يضع ولم يُضيِّعه آله[1].

وتتداعى القبائل وتتناصر لغاية الأخذ بالثأر، وتوصَل بالملوك من أجل طلب المساعدة على إدراك الثأر، وهو ما أظهرته أخبار عديدة، ومنها ما بان في خبر امرئ القيس في رحلة طلب المناصرة للأخذ بدم أبيه، وقد ركّزت أخبار امرئ القيس على رصد حركته لتحقيق هذا الهدف، إذ يأخذ على عاتقه الأخذ بثأر أبيه بعد أن قُتِل، "فقال: الخمر عليّ والنساء حرام حتّى أقتل من بني أسد مائة وأجزّ نواصي مائة..."[2]، وهو في رواية أخرى يعزف عن ملاذّ الدنيا حتّى يدرك بثأره، "فلمّا صحا آلى ألاّ يأكل لحما ولا يشرب خمرا، ولا يدّهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه من جنابة، حتّى يُدرك بثأره"[3]. فيلحق ببكر وتغلب ويسألهم النصر فيما هو مقدم عليه، فيخرجون معه لمساندته ومساعدته على إدراك هدفه[4]. وتُصوّره أخباره يجمع القوم والأنصار بغاية القضاء على بني أسد، فهو يستنصر ملك حمير، فيمدّه بعتاد وجيش ويجمع شذّاذ العرب، ويستأجر رجالا من قبائل العرب لغاية إدراك ثاره[5].

ولم تكن الديّة هي المطلوب الأوّل وإنّما القتل بالقتل هو السبيل المرجوّ، فإن كان العجز عن الإدراك بسبب وهن آل المقتول أو شدّة القرابة أو التدخّل بالصلح، فإنّ الديّة هي بديل القتل. وعلى ذلك فإنّ بني أسد عندما عرضوا الفداء على امرئ القيس كان الرفض جوابه، "لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإنّي لن أعتاض به جملا أو ناقة فأكتسب بذلك سبّة الأبد وفتّ العضُد"[6]، وهو أيضا نفس جواب بني تغلب عندما قتل جسّاس كليبا، إذ عرض عليهم والد جسّاس عِوَضا من

1- م.ن: 3/ 12. 13.
2- م.ن: 9/ 86.
3- م.ن.ص.
4- م.ن: 9/ 89.
5- م.ن: 9/ 91.
6- م.ن: 9/ 101.

ماله، ألف ناقة، فغضبوا من مقالته، وكان طلبهم منه قاتل سيّدهم أو من يضاهيه منزلةً لقتله، "إنّا لم نأتك لتُرذل لنا بنيك ولا لتسومنا اللّبن"[1]، وكان ذلك سببا في قيام الحرب بين تغلب وبكر بن وائل.

فمسألة الثأر داخلة في منزلة القبيلة بين القبائل، وداخلة أيضا في منزلة الفرد من القبيلة، فإمّا أن يطلب ثاره أو تطالب القبيلة بثأرها ولا تتركه، فتكتسب بذلك منزلة بين القبائل تُعسّر استباحة دماء آلها، أو أن تصير عُرضةً للنهب والقتل إن تركت ثأرها.

ولقد وردت أخبار عديدة بناءُ أحداثها قائم على هذا الغرض الثابت في وسم المجال الجاهليّ. فمن ذلك أخبار جذيمة الأبرش إذ تُدار الأحداث على سعي قصير إلى الأخذ بثأر جذيمة وابتكار الحيل لبلوغ هذا الثأر[2]. ويغير دريد بن الصمّة على غطفان طالبا دم أخيه، فيقتل ويأسر، حتّى يبلغ ثأره[3]، وهو إذ يتركه زمنا ويغفل عنه، يُذكَّر به، ويُدفَع إليه. فأمّه تُخاطبه بعد حول من مقتل أخيه "يا بنيّ إن كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد، فأنف من ذلك وحلف لا يكتحل، ولا يدّهن ولا يمسّ طيبا ولا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتّى يدرك ثأره، فغزا هذه الغزاة وجاءها بذؤاب بن أسماء فقتله بفنائها، وقال: هل بلغت ما في نفسك؟ قالت: نعم، مُتّعت بك"[4].

وكما سلف أن أشرنا فإنّ مسألة الثأر داخلة في مجال هيبة القبيلة والعائلة وركن من أركان ضمان السلامة والحدّ من استباحة دماء القوم، وعسر سقوط طلب الثأر موصول بهذه الصورة التي يسعى الجاهليّ إلى المحافظة عليها بيانا لقدرته وعدم

1- م.ن: 5/ 34.

2- م.ن: 15/ 155.

3- م.ن: 10/ 11: "أغار دريد بن الصمّة بعد مقتل أخيه عبد اللّه على غطفان يُطالبهم بدمه، فاستقراهم حيّا حيّا، وقتل من بني عبس ساعدة بن مرّ وأسر ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب، أسره مرّة بن عوف الجشميّ. فقالت بنو جشم: لو فاديناه، فأبى دريد عليهم، وقتله بأخيه عبد اللّه".

4- م.ن: 10/ 13.

تفريطه في دمائه التي إن تركها استُبيحت أمواله ومتاعه ونساؤه، وإن تركتها القبيلة كانت عرضةً للغارة ولشذاذ العرب ولمختلف طرائق النهب والسلب[1]. وعلى ذلك فإنّ للثأر أنصارا، وهو مبدأ تتجامع عليه القبائل وتتناصر[2]، وهو درع واق وعنصر فاعل يضمن استمرار العائلات والقبائل، ومن كان عاجزا عن الدفاع عن دمائه كان يختار لنفسه أو لآله أو لقبيلته جوارا حسنا، فيلجأ إلى من يحمي دماءه ونساءه وآله، ومنه ننفتح على قيمة ثانية كانت سائدة في الجاهليّة وهي الجوار.

◈ منزلة المرأة.

لقد عرضنا في ضبطنا للصورة الباهرة للجاهليّة إلى منزلة للمرأة إيجابيّة، غير أنّ هذه الصورة الإيجابيّة لم تكن عامّة مطلقة، وإنّما تبين الأخبار عن وضع للمرأة فيه احتقار لذاتها وإهانة لشخصها.

ونشير إلى أنّ هذه المنزلة الخاصّة بالمرأة لم تشكّل غرضا مهمّا بالنسبة إلى الأخباريين، وإنّما ذكرها كان عرضا. وبالرغم من ذلك فإنّا نجد قسما من الدارسين يركّزون على هذه الصورة السلبيّة لأجل إظهار دور الإسلام في إكرام المرأة ووضعها المحلّ الأسمى. فخذ مثالا على هذا الرائج أنّ المرأة وفقا لما تصوّره هذه الأخبار لم تكن بالموؤودة سلوكا شاملا وعامّا عند الجاهليين، وإنّما كلّ ما وجد في أخبار الأغاني هو خبر يتيم يخصّ شخصيّة مفردة سلكت سلوكا يخصّها ولم يظهر وأد البنات سمة من

1- ولم تكن هذه القيمة بسبب من انعدام الحكومات كما ذهب إلى ذلك حسن إبراهيم حسن في *كتابه "تاريخ الإسلام السياسيّ والدينيّ والثقافي والاجتماعي"*. دار إحياء التراث العربي. مصر. الطبعة السابعة. 1964. ص51.52. إذ يقول "لم يكن للعرب من الحكومات المعروفة الآن، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه...وإنما كان الشخص المعتدى عليه يثأر لنفسه بنفسه، وعلى قبيلته أن تشدّ أزره، وإنما المطالبة بالثأر هي حكم في حد ذاتها يقرّها حكّام القبائل ويدفعون إليها.

2- انظر في ذلك استعانة وعلة الجرمي ببني ثمير حتّى يأخذ بثأر أخيه. *"كتاب الأغاني"*: 22/ 223. "قتلت نهد أخا وعلة الجرمي، فاستعان بقومه، فلم يعينوه، فاستعان بحلفاء بني ثمير كانوا له حلفاء وإخوانا، فأعانوه حتّى أدرك بثأره". وانظر أيضا دعوة عمرو بن هند بني تغلب لمساعدته على الأخذ بثأر المنذر بن غسّان. م.ن: 11/ 41.

سمات المجال الجاهلي، وهذه الشخصيّة هي قيس بن عاصم وقد آثر هـذا الفعـل بعـد واقعة حصلت له، أدرك منها أنّ المرأة تجلب الخزي والعار ولذلك لم يكن يرضـى بـأن يكون من نسله مَن يجلب له هذه المذلّـة. وفي خـبره أنّ ابنـة أختـه قـد سُـبيت فـذهب لاسترجاعها طوعا وأنعم عليه السّابي بـترك الأمـر لهـا إن شـاءت غـادرت معـه وإن شاءت بقيت من خواصّه، فرفضت العودة إلى أهلها، فـذاك هـو السـبب الـذي جعـل قيس بن عاصم ينفر البنات ويئدهنّ[1]. وقد كان قريبا من الإسـلام وتُـروى لـه أخبـار وقد تحوّل من هذا الوضع إلى الإسلام ويبـدو أنّ نهـي القـرآن عـن وأد البنـات كـان خطابا لشقّ يُشارك قيس بن عاصم فعله هذا ولم يكن هذا الشقّ هو الغالـب والـدليل على ذلك هو أنّ الأنصار كانوا يسألون قيس بن عاصم عن وأده بناته أمـام الرسـول: "وفد قيس بن عاصم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فسأله بعض الأنصار عمّـا يتحدّث به من الموءودات التي وأدهنّ من بناته، فأخبر أنّه ما ولـدت لـه بنـت قـطّ إلاّ وأدها."[2]

ويُمكن للمرأة الجاهليّة أن تُزوَّج مـن ابـن زوجهـا إن مـات زوجهـا[3]، وهـي ظاهرة قطعها الإسلام وأنكرها ونعتها بـ"نكاح أهل الجاهليّة" وبـ"نكـاح المقـت". غـير أنّ الأخبار لم تُوسِّع النظر في رصد هذه الصورة، وإنّما ذُكرت عرضا في مـواطن محـدودة،

1- م.ن: 14/ 68: "أنّ سبب وأد قيس بناته أنّ المشمرج اليشكري أغار على بني سعد فسبى منهم نسـاء واستاق أموالا، وكان في النساء امرأة، خالها قـيس بـن عاصـم، وهـي رميم بنـت أحمـر ابـن جنـدل السعدي، وأمّها أخت قيس. فرحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها لـه أو يفـدوها، فوجـد عمـرو بـن المشمرج قد اصطفاها لنفسه. فسأله فيها فقال: قد جعلت أمرها إليها فإن اختارتك فخذها، فخيّـرت فاختارت عمرو بن المشمرج. فانصرف قيس فوأد كلّ بنت، وجعل ذلك سنّة في كلّ بنـت تولـد لـه، واقتدت به العرب في ذلك، فكان كلّ سيّد يولد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة"

2- م.ن: 14/ 66.

3- يقول ابن حبيب، ص325: "وكانت العرب تزوّج نساء آبائها، وهو أشنع مـا كـانوا يفعلـون. فيقـال للذي يخلف على امرأة أبيه "الضيزن"". ويقول أيضا ص325، 326: "وكان الرجل إذا مات، قـام أكـبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه، فورث نكاحها. فإن لم يكن له حاجة فيها، تزوّجها بعض إخوته بمهر جديد."

ومنه ما ذُكِر في أخبار عمرو بن نفيل الذي أتى هذا النوع من النكاح، ويبدو أنّه نكاحٌ يُطلب تقصّيا للمرأة الحسنة المنجبة، ورغبة في التكاثر الذكوري، وليست إرثا يرثه الولد من جملة ميراث والده، وإنّما هنالك أسباب حضاريّة جعلت النساء المنجبات معدودات في الجاهليّة، تُتقصّى أخبارهنّ، بل إنّ الأخبار قد تواصل تتبّع هؤلاء المنجبات حتّى مراحل متقدّمة من حدوث الإسلام. وعلى ذلك فإنّا نلاحظ في خبر عمرو بن نفيل تركيزا على ذكر من أنجبتهم؟؟؟؟خلفا زوجة أبيه بعد أن نكحها "...ثمّ مات عنها نفيل فتزوّجها ابنه عمرو، فولدت له زيدا، وكان هذا نكاحا ينكحه أهل الجاهليّة"[1]. ومن ذلك أيضا ما يُروى في خبر منظور بن زبّان الذي فصله عمر بن الخطّاب عن زوجته[2]، وهي امرأة أبيه مليكة بنت خارجة، إذ واصل زواجه بها حتّى بعد دخولهما الإسلام. وتمثّل مليكة هذه مطلب الراغبين، إذ تدور الأخبار بحثا في متزوّجيها[3] بعد أن تركها منظور في خلافة عمر بن الخطّاب.

◈ المظهر الاعتقادي.

يُعتبر المظهر الاعتقادي من أوهن المظاهر التي احتفى بها الأخباريّون، وإنّما كانوا يعرضون لبعض هذه المظاهر ذكرا عارضا، وقد تميّزت هذه الصورة بأسلمة المعتقدات الجاهليّة، بذكر نماذج اعتنقت الإسلام قبل نزوله -كما سلف أن بيّنّا- أو بذكر المعتقدات التي بقّى عليها الإسلام كالحجّ وسيادة السلم زمنه ووجود أشهر حرم فيها يمتنع النّاس عن القتال والحرب.

ولقد غلب على رصد هذه الصورة ذكر المعبودات المجسّمة[4] أي الأصنام والأوثان التي كان الجاهليّون يتقرّبون إليها ويقصدونها حجّا والتماسا وتيمّنا، وهي التي كانت حاضرة في ما يُقسمون به من آلهة، ونضرب على ذلك مثلا قسم المنذر

1- *كتاب الأغاني*: 3/ 117.

2- م.ن: 23/ 503.

3- م.ن: 23/ 503 وما بعدها.

4- انظر محمّد مختار العبيدي *الأوثان في الجاهليّة من خلال القرآن* حوليّات الجامعة التونسيّة. عدد 25. 1986. ص108.

بـ"سبد" عندما توسّط زيد بن حمّاد بينه وبين أهل الحيرة، إذ همّوا بقتله فاتّفق معهم على أن يحافظ له على اسم الملك وأن يُولّوا عليهم رجلا آخر يُسيّر أمورهم[1]. وكذلك القسم الذي أقسمه أخو تأبّط شرّا "لا واللاّت والعزّى لا أرجع حتّى أغير على بني عتير..."[2]. ويُدعى دريد بن الصمّة في خبر من أخباره إلى تأدية اليمين تحقّقا من صدقه وإفحاما له عند "ذي الخلصة" وهو إله- صنم من آلهتهم "وما أنا بتاركك حتّى أستحلفكم عند ذي الخلصة"[3].

وقد كان يقوم على هذه الآلهة من يعتني بها ويقف عليها، وهي الشريحة التي أطلق عليها اسم السدنة، ولا نجد توسّعا في الأخبار لتتبّع طرائق السدانة ولا في بيان مظاهرها، ولا نجد أيضا حديثا عن السدنة، وإنّما هي إشارات عابرة ومقتضبة جدّا، على هيئة ما ذُكر إعلاما من أنّ "دبيّة السّلمي كان صاحب العزّى التي في غطفان وكان يسدنها."[4]

وتُذكَر الآلهة المعبودة شتاتا موزّعا في الأخبار، وهي في الغالب آلهة مجسّمة تتفرّع نوعين، الآلهة الجامعة الموجودة في مكّة، والآلهة الخاصّة بقبيلة من القبائل أو بمجموعة من القبائل. فأمّا المشترك فهو قبلة حجّهم الذي يقع في الأرض المقدّسة التي توجد فيها هذه الأصنام، يشدّون إليها الركاب مرّة كلّ سنة لتأدية مناسك الحجّ والاعتمار.

ونسعى في مستوى ثان من تتبّع الصورة المرصودة للمجال العقدي إلى ركن انصرفت الأخبار في شقّ منها إلى بيان منزلته في اعتقاد الجاهليين، وهو الكهانة[5] التي

1- *كتاب الأغاني*: 2/ 86.

2- م.ن: 21/ 176.

3- م.ن: 10/ 15.

4- م.ن: 21/ 234.

5- انظر: إسكندر عمّون: *الكهانة* مجلّة الزهور. مطبعة تصدر عن الجميّل وتقيّ الدين وشركائهما. مطبعة المعارف الفجالة مصر. أبريل/ نيسان. السنة الثالثة. 1912. ص58.. "وكان للكهانة في الجاهليّة شأن عظيم لشدّة اعتقاد القوم بها، فكان الواحد منهم إذا ضلّت له ضالّة أو سرق له شيء

كانت تشدّ اعتقاد الجاهليّ في ممارسات متعدّدة. فمنزلة الكاهن هي منزلة مهمّة في بنية الاجتماع الجاهليّ، وقد مثّل شخصيّة فاعلة في المجال الجاهليّ، فإليه منصرف الجاهليين فيما يُشكل عليهم وما يقدمون عليه من جليل الأفعال، فهو القادر على التبصّر بمقبل الوقائع والأحداث[1]، تنبّؤا وتقديرا يُغذّي الاعتقاد فيه والاعتصام بآرائه، ومكانه لا يقلّ أهميّة عن مكانة السيّد من القبيلة. وكانت العرب تُطلق اسم الكاهن على "العرّاف والعائف والطارق بالحصى والحازي والمنجّم، وعلى كلّ متكهّن يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، وربّما استعمل بعضهم العرّاف بمعنى الكاهن، فيطلقه على كلّ متكهّن"[2].

ومن مظاهر حضور الكاهن سلطةً فاعلةً في توجيه الجاهليين في مختلف ما يُقدمون عليه من أفعال أنّ اختطاط الحيرة راجع إلى تبصّر زرقاء بنت زهير، وهي شخصيّة تتحدّد بهذه السّمة "وكانت كاهنة"[3]. ويُظهر الخبر قلقها واضطرابها في أوّل الأمر بسبب ما تأتّاها من رؤية، إذ سألها آلها "ما تريدين يا زرقاء.؟ فقالت: مُقام وثُنوخ ما وُلد مولود وأنفقت فروخ إلى أن يجيء غراب أبقع أصمع، أنزع، عليه خلخالا ذهب، فطار فألهب، ونعق فنعب، يقع على النخلة السحوق، بين الدور والطريق فسيروا على وتيرة ثمّ الحيرة الحيرة..."[4]، وهو ما تحقّق في آخر الخبر، إذ يلتزم آلها بقولها ويسعون إلى الخضوع له والانصياع لرؤيتها بسبب من متين اعتقادهم فيها وفي صواب رؤيتها وصدق ما يتأتّاها من أمور تُختَبَرُ فتَصحّ، "وسارت أسلم بن الحاف وهي عذرة ونهد وحوتكة وجهينة والحارث بن سعد حتّى نزلوا من الحجر إلى وادي القرى،

أوهمّ بأمر ذي بال أو أصيب أحد من أهله بمرض، يذهب إلى الكاهن، فيستطلع منه ما يجبّ الوقوف عليه من مكان الضالّة أو محلّ السرقة أو مآل الأمر أو دواء المريض".

1- م.ن.ص57. "الكهانة في اللّغة القضاء بالغيب. والكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدّعي معرفة الأسرار".

2- م.ن. السنة الثالثة. مايو (أيار) 1912. ص128.

3- *كتاب الأغاني*: 13/ 78.

4- م.ن.ص.

ونزلت تنوخ بالبحرين سنتين. ثمّ أقبل غراب في رجليه حلقتا ذهب وهو في مجلسهم، فسقط على نخلة في الطريق، فنعق نعقات ثمّ طار، فذكروا قول الزرقاء، فارتحلوا حتّى نزلوا الحيرة، فهم أوّل من اختطّها"[1]. فالكاهن وفقا لما ظهر من بناء لشخصيّة الزرقاء عنصر من القبيلة له نفوذ وسلطان بسبب من اتّصاله بقوى غيبيّة تمكّنه من رؤية الآتي، فيرصد بذلك لقومه حسن السبيل. وهي نفس الصورة التي رصدها الرّواة لكاهن آخر يُحذّر قومه ممّا هو آت من نزاع، وهو "ضماد" سيّد آل الحارث الذي كان يتعيّف، وقد حذّر قومه من "جرائر أحمقين من آل الحارث" يُبطلان الرياسة فيهم[2].

فحركة القبيلة وثباتها وما هي مقبلة عليه من حوادث يراها الكاهن المتبصّر القادر على إدراك الآتي في لاحق الزمن، وهو قادر على تحديد طرق النّجاة ورصد ما يُمكن فعله لمجابهة الصعوبات. فكاهن بني أسد هو الذي يتكهّن لهم بقتل حُجر بعد أن أباح أموالهم وقتلهم بالعصا وصيّرهم إلى تهامة: "حتّى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنهم...، فقال لبني أسد: يا عبادي! قالوا: لبيك ربّنا. قال: من الملك الأصهب، الغلاّب غير المُغلّب، في الإبل كأنّها الربرب، لا يعلق رأسه الصخب، هذا دمه ينثعب، وهذا غدا أوّل من يُسلب. قالوا من هو يا ربّنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنّه حجر ضاحية. فركبوا كلّ صعب وذلول، فما أشرق لهم النهار حتّى أتوا على عسكر حُجر، فهجموا على قبّته"[3]. ذلك أنّه من الوظائف التي تُسنَد إلى الكاهن وظيفة الاستشارة، فهو مرجع قومه في حروبهم، يهتدون بنصحه، ويجتمعون على رأيه، ومخالفته تؤدّي إلى الهلاك، ومثال ذلك مخالفة بني أسد لكاهنهم في مسألة قتل حجر، بعد أن منعهم من ذلك، "فقال لهم كاهن من كهنتهم بعد أن حبسوه ليروا (بنو أسد) فيه رأيهم: أي قوم! لا تعجلوا بقتل الرجل حتّى أزجر لكم" فلمّا قتلوه قال كاهنهم: "أي قوم! قتلتموه! مُلك شهر، ودُلّ دهر. أما واللّه لا تحظون عند الملوك بعده

1- م.ن: 13/ 79.
2- م.ن: 13/ 223.
3- م.ن: 9/ 82.

أبداً"[1]. ومثاله أيضا مذحج إذ تنصرف إلى كاهنها وقد أعدّت العدّة لغزو بني تميم في يوم الكلاب الثاني، فتقصد المأمور الحارثي تيمّنا برأيه قبل الشروع في الحرب، فيُحذّرهم من هذه الغزوة ويردّهم عنها ويحثّهم على الانصراف عنها "لا تغزو بني تميم فإنّهم يسيرون أعقابا ويردون مياها جبابا، فتكون غنيمتكم ترابا[2]، بالرغم من أنّ واقع الحال ينبئ بنجاح هذه الغزوة، إذ أنّ بني تميم كانوا خارجين من يوم الصفقة مع الفرس منهكة قواهم، مهزومين، لم يتجمّعوا بعد، غير أنّ كاهن مذحج بنفاذ بصيرته يرفض هذا الواقع ويرى رأيا مخالفا، هو الثابت سلامته بعدا، وعصيانه أفضى إلى هزيمة مذحج، فكان الفشل نتاج غارتهم[3].

وتستعين القبيلة بالكاهن لغاية إبطال الغارات الفجئيّة التي كان الصعاليك والذؤبان يقومون بها. ومن ذلك لجوء خثعم بعد أن أكثر تأبّط شرّا من غاراته عليها بكاهنهم لتعطيل هذه الغارات والظفر به، غير أنّه يعجز عن أخذه سحرا بسبب من امتلاكه قوّة خارقة تُعطّل ما يمتلكه الكاهن من خارق الفعال[4]. وتُكرّر خثعم نفس الفعل مع "حاجز" وهو من صعاليك العرب، فتعمد ساحرتهم إلى سحر سلاحه وتنجح في ذلك فتعطّله وينفذ سحرها[5].

إنّ للكاهن منزلة مخصوصة في المجال الاعتقاديّ الجاهليّ، بمختلف الوظائف التي يُؤدّيها للقبيلة، وهو قبلة طالبي الرأي والمشورة ومحدّد آفاق ما يُقبلون عليه وما يُوَاجَهون به في مقبل الزمن.

لقد كان تصوير المجال الاعتقادي خاضعا إلى سلطان الواقع الإنتاجي الذي يسوده الإسلام دينا غالبا، وهو الأمر الذي يفسّر غياب المظهر الاعتقادي الجاهلي عن

1- م.ن: 9/ 85.
2- م.ن: 16/ 255.
3- م.ن: 16/ 257.
4- م.ن: 21/ 166.
5- م.ن: 13/ 215.

أخبار الجاهلية، وجعلهم يحتكمون في أغلب أمورهم إلى الكهنة، أو السحرة، وهو ما مثّل مجالا توسّع فيه رواة الأخبار.

تحوي الصورة المنفّرة جملة من النماذج والمظاهر التي يمكن أن تؤسّس جاهليّة على حال من السوء والفوضى . فلقد تعرّضنا إلى شخصيات يمثّل وجودها بشكل أو بآخر دعما لهذه الصورة، فصورة السيّد الظالم لأهله تبدو في أخبار عديدة منبئة بفضاء ملؤه الجور والسيادة الفاقدة للحكمة والعقل، وصورة البطل الهامشي بالرغم من بنائها على خصال إيجابية، تبين عن جاهلية ينعدم فيها الأمن وتكثر فيها الغارة، وتصوير مظاهر الحياة ترسم مجالا جاهليّا فيه تسوء منزلة المرأة ويكثر سفك الدماء في دائرة الثأر التي لا تنغلق... غير أنّا قد نُفقد الخطاب الأخباري روحه إذا ما وقفنا عند هذا الحدّ، ذلك أنّ من خصال الخبر أن يفيد الصورة وضدّها وألاّ يُبْدي منه مقاصد جلية، فلا تُدرَك مقامات إنتاجه بيسر.

وعلى ذلك فإن الصورة المنفّرة في حقيقة الأمر ليست واقعة في هذه المسائل تحديدا وإنّما قد تكون نتاج صورة البطل الملحمي، وقد تكون نتاج صلات الجاهلي الخارجية، كما أنّ صورة البطل الهامشي قد تؤدّي إلى الترغيب في الجاهلية بوجود نماذج بطوليّة خارجة عن الحدّ القبلي غير أنّها مكتسبة لقيم أخلاقية تشرف بها. فالصورة المنفّرة لا تُدْرَك في شخصية نموذجيّة ولا في ظاهرة اجتماعية أو سياسية، وإنّما هي موزّعة في الأخبار تكشف عن آثار مقام إنتاجي يرفض الجاهليّة أو يرفض منها بعض الظواهر الحاضرة فيه. ونشير إلى مقامات عديدة من شأنها أن تصوّر جاهليّة تَسُودها الفوضى والتقاتل، فالمقام الإسلامي له دور فاعل في تحديد الرؤية إلى الجاهلية وضبط مجالاتها، وواقع النزاع القبلي والقومي يمثّل أيضا مقاما مهمّا من شأنه أن يرصد صورةً عن الجاهليةِ منفّرةً. وتظلّ هذه المقامات متجسّدة في رواة الأخبار الذين يوجّهون النواة الوجهة التي يريدون وفقا لمواقعهم ولمصادرهم السياسية والاجتماعية والثقافية.

الفصل الثالث
الجاهليّة بين الأصل والصورة

تتنازع الخبر جملة من الجهات كلّ منها تشدّه بطرف إلى مجالها، جهة ترى فيه الحقيقة المطلقة وتعتبره مصدرا من مصادر التأريخ، وجهة ثانية هي للأولى ضدّ، ترى الخبر خطابا أدبيّا ينأى عن عيار الموضوعيّة ولا يخضع للتصديق أو التكذيب بحكم نوعه الخارج عن هذه المعايير. وَجِهة ثالثة جامعة بين هذا وذاك، آخذة من التاريخ بطرف ومن الأدب بطرف تردّ شقّا من الأخبار إلى التخييل والتمثيل وشقّا آخر إلى النقل والتعبير الصادق عن الواقع. فهو واقع بين حدّين ضدّين يتجاذبانه كلّ منهما يأخذ منه بطرف، حدّ التاريخ قطبا جالبا جاذبا، يُحوّله وثيقة تُقرأ منها حركة الشعوب وتُرصَد مظاهر حياتها الحاصلة في ماضي الزمان، وحدّ الأدب مجالا وسيعا للابتكار والاختلاق وفتح عوالم ليست صادرة عمّا هو كائن بل عن نظرة إلى هذا الكائن وتصوّر له وتمثّل وإعادة إنتاج. ويرجع هذا التنازع إلى تعقّد منزلة الخبر في التراث العربي وإلى طبيعة حدّ العرب للأدب من حيث هو العلم الجامع الذي تتداخل فيه أصناف التعبير وأشكاله تداخلَ تكاملٍ.

ومن أجل ذلك فقد وجدنا الخبر حاضرا في مصنّفات التاريخ القديم وتاريخ الأدب والحضارة العربيّة، وثيقةً يُستدلّ بها ويُحتجّ، وتُتّخَذ متّكأ وسندا، منها يُستَقى التاريخ. وتحوّلت الأخبار بذلك من مجال "الوضع" و"النحل" إلى مجال الحجّة والإثبات والشهادة[1]، ووقع التفريق بين أخبار خارجة عن حدّ التاريخيّ/ الواقعيّ، وأخبار أخرى

1- صمّود: *من تجلّيات الخطاب الأدبي: قضايا نظريّة* ص 18 "فإنزال الخبر منزلة الدليل والشاهد، تنتج عنه نتائج لعلّ أهمّها: الإقرار بأنّ الخبر على النحو الذي أخرجه المخبر يستجيب لشروط الشهادة، وفي مقدّمتها شرط الصدق الذي يقتضي ألاّ يزيد الشاهد في ما يدلي به ولا ينقص، وأن يحصّن شهادته عن الزور والكذب والبهتان، وألاّ يقول إلاّ بما رأى. وهذا الأمر الأخير مهمّ لأنّه

خاضعة لمنطق المطابقة وإمكان الوقوع. ووجدناه حاضرا في مصنّفات الأدب وتاريخه شكلا أدبيّا يجري عليه ما يجري على الخطاب الأدبي إحداثا لشخصيّات تجُول في عالم الخطاب وتنمو داخله، ولا مرجع لها غير ذلك الذي تكتسبه من فضاء نمائها وتكوّنها بوسائط اللّغة وشتّى إمكاناتها، وتصويرا لأحداث إن توطّدت صلتها بـ"واقع" ما، فإنّها تظلّ داخلة في مجال التصوير والتمثيل. فعُدّ الخبر بسبب من ذلك شكلا أدبيّا بما يحمله في بنائه وطرائق تصريف القول فيه، وعُدّ من جانب آخر مصدرا قد يكون أساسيّا للتاريخ القديم.

فهل الخبر مصدر من مصادر التأريخ يؤدّي الواقع وينقله نقلَ نسخ ومحاكاة أم هو ضرب من ضروب الأدب إذ يدخل حرمه يتلبّس خصائصه تصويرا وخضوعا لمقامه أم هو بين هذا وذاك واقعٌ يأخذ من النسخ بطرف ومن التصوير والتخييل بطرف آخر؟ أي هل أنّ الخبر يقتدي في بناء أحداثه نموذجا ومثالا خارجا عن جنسه يرصده وينقله، فهو وفيّ له، أم هو صانع لأمثلته من داخل جنسه، وفيّ لكونه ولذاته؟

لقد توجّهنا في البابين الأوّلين إلى بيان بعضٍ من المقامات التي ساهمت في بزوغ الخبر وظهوره وإظهار المقتضيات الحضاريّة التي ساهمت في تشكيله، كما توجّهنا إلى دراسة خصائصه البنائيّة التي أفردته وميّزته، علّنا بذلك نقف على منزلة الخبر في التراث العربي ودوره في تقديم صور تتباين وتتلاقى عن الحياة العربيّة في الجاهليّة، وتتحكّم فيها جملة من العوامل التي تُعسِّر من أمر اتّصاله بالموضوعيّة -إن أردنا منه ذلك- في بيانه لهذه الحياة، وتُعمّق وَصْلَه بحالّ نافذ فاعل في توجيهه وتصريفه.

ويقوم جهدنا في هذا الفصل على النظر في الخبر من هاتين الزاويتين أي من زاوية دلالته على التاريخ واعتماده أصلا من أصوله، ومن زاوية خروجه عن حدّ

يُطابق بين القول والواقع حتّى يكون القول نقلا أمينا للأحداث، كما جرت وتصويرا لها ومحاكاة تامّة لا يزيد المخبر على الحكاية وتحويل الأعيان والحوادث قولا مطابقا عريان عراء الواقع، بعيدا عن مذاهب التزيّد والكذب والتقوّل. فأوّل ما يتضمّن موضع الخبر من النصّ الإيهام بصدقه، ومطابقة ما يبني بالقول من أحداث ما وقع بالفعل. وبذلك تضمحلّ كلّ المسافات الفواصل فيه.

التأريخ وفتحه لمجالات قائمة على التصوير الخاضع في أبسط شروطه لمستوى ذاتي منه يُحدّد المصوّر الصورة المنتقاة وزاوية النظر ويكيّفها وفقا لمشيئته. وقد اعتمدنا لبيان هذين المظهرين على بعضٍ من القراءات الحديثة التي وظّفت الخبر مذاهب شتّى، سواء في تنصيبه شاهدا على الحوادث معاينا لها وناسخا، أو خروجا به عن هذا الحدّ إلى بيان دوره في صياغة المواد الحدثيّة التي يحوكها بإدخاله في فضاء التخييل والتمثيل لا الشهادة والمعاينة.

1- الخبر أصلا للتاريخ.

تختلف درجات تنزيل الخبر أصلا من أصول التأريخ ومصدرا من مصادره حدّ التباين، فمنها المعتصم به، المكتفي به عن غيره من الوسائط والأدوات، ومنها الناظر فيه نصّا قد يُرشّح للتوثيق وقد تعلو درجة صدقه وإحالته على الواقع فيُعتمد وقد تضعُف فيُترَك.

وقد ظهرت مسألة توظيف الخبر للدلالة على التاريخ على هيئتين أو في مظهرين، مظهر الوعي المرآوي الانعكاسي، وهو مظهر قائم على مطلق الاعتصام بالأخبار في قراءة التاريخ، واعتبارها "عاكسةً" للحقيقة، تتحدّد وظيفتها في التأريخ، وهو وعي صادر على تقوية صلة الخبر بالواقع. فيتحوّل مرآة فيه يبدو هذا الواقع متحرّكا، وتُرجَع بذلك الوقائع فيه إلى أحداث حاصلة ضرورةً في ماضٍ من الزمن، فيصبح الخبر شافّا عن وقائع التاريخ، تتراءى منه أحداثه، وأشخاص لا يُقصَر أمر كونها على الخطاب الذي تكوّرت في رحمه وتكوّنت وإنّما هي تتجاوز هذا الحدّ إلى الضدّ، لتُخرج شخوصا، مجالها العالم العيني المدرَك لا المجال الورقي. فينتفي عن الخبر بعدُه التخييلي وتُمحى المسافات الفاصلة بينه خطابا وبينه خبرا. ومظهر الوعي التأريخي المدرك، الناظر في الخبر، وفي مدى صدقه، بعرضه على دلائل تاريخيّة مغايرة، وباستصفاء الأخبار والمقارنة بينها.

وعلى ذلك فقد انصرف عدد مهمّ من الباحثين سواء في مجال التاريخ أو في مجال تاريخ الأدب إلى التنقيب عن مظاهر الحياة الجاهليّة، والاتّكاء على الأخبار مصدرا رئيسا للإثبات، ولإقرار حقائق تاريخيّة، أو هي سند لدعم ظواهر مثبتة أو

سمات عن الجاهليّة موروثة مستقرّة. ومن هذا المنطلق انصرف عدد من الباحثين إلى محاكمة الأخبار بخروجها عن جادّة سبيل التأريخ أو إلى الانطلاق منها للإقرار بمظاهر الحياة الجاهليّة وخصائصها.

فكان تاريخ الجاهليّة مجالا وسيعا لإثبات سمات كبرى تحدّد بها هذا الفضاء وتأكّدت هذه السمات من أخبار تُرسّخها وتدعمها، وهي سمات تخصّ أساسا المجال القيمي إثباتا لقيم عليا عرفتها الجاهليّة، والحالة التي كان عليها العرب، من "شتات ونزاع وفوضى..." وهي مواضيع كان السند الأساسيّ في إثباتها الأخبار المنقولة عن هذه المرحلة التاريخيّة.

لقد قامت قراءات عديدة لتاريخ الجاهليّة في التاريخ العربي القديم أو في تاريخ الأدب والحضارة العربية على اعتماد الخبر -بصورة كليّة أو جزئيّة- وثيقةً تاريخيّة ومرجعا يُستَند إليه ويُعتَمَد حجّة نفي أو إثبات لبيان تاريخ الجاهليّة، ولوسم الفضاء الجاهليّ بسمات أُقِرّت وتمّ تثبيتها، وسْما أشبه بالوشم. وهي دراسات تبني صورةً "تاريخيّة" عن الجاهليّة صدورا عن هذه الأخبار، فهي تُعتمد وسائط أساسيّة لكتابة التاريخ، ووثائقه الأصليّة، فتمّ من خلال هذه الدراسات "كتابة تاريخ الجاهليّة"، ووسمه بسمات ثابتة. ويقوم هذا المنطلق في التعامل مع الأخبار على مظهرين أساسين، مظهر يعتقد في هذه الأخبار اعتقاد المؤرخ المعتصم بها، إذ تغيب وسائط التاريخ ووثائقه وأماراته الدالّة عليه ممّا تبقّيه الأيّام منه، ومظهر ثان يمثّل خضوعا مطلقا لسائد يسم الجاهليّة بسمات لا سند لها ولا إثبات على مستوى التصوير أو على مستوى "الحقائق التاريخيّة".

فأمّا المظهر الأوّل فهو جامع بين مصنّفات سعت إلى أن تُوظّف الأخبار لبيان مظاهر الحياة الجاهليّة، ولكن دون الاقتصار عليها، وفيها اجتهاد بيّن. وبالرغم من وعي هؤلاء بطبيعة الأخبار وطرائق تشكيلها فإنّهم في بعض المظاهر يُوثّقون صلتها بالتاريخي، ومنهم من يُحاكمها ويطعن في صحّتها، ويميّز فيها بين السليم والسقيم، ومنهم من يعتمدها بتمامها اعتماد الواثق في صحّتها المؤمن بـ"عكسها" للحياة العربية في الجاهليّة.

وبسبب من هذا المنطلق فقد ضُبطت سمات المجال الجاهليّ ممّا أقرّته الأخبار، وممّا هو مُغلَّب في الموروث وفي السائد الفكري الذي لا تدعمه هذه الأخبار ضرورةً فكان عرض تاريخ الجاهليّة في المصنّفات السائرة في هذا المسار محكوما برؤى غائمة، هي من قبيل السمات التي أصبحت غالبة ولكنّها تقوم أساسا على إعادة سرد ما هو مسرود في الأخبار، واتّخاذ مواقف قد تفارق الواقع الذي تروم هذه الدراسات بلوغه. فكانت –وفقا لهذا المنحى- حياة الجاهليّة موسومة بغلبة الفوضى والرغبة في إراقة الدماء والجنوح إلى التقاتل والتنازع، مسايرةً لما ورد في أيّام العرب في الجاهليّة من وسْم لحياة دائمة الحرب إذ هي تنتهي لتستأنف من جديد، وقيامها كان في أغلب الأحوال لأسباب ساذجة وبسيطة، وإيمانا بصدق هذه الأيّام حروبا تُقَام ويذهب من جرّاها خلق كثير، وهذا ظاهر في قراءات عديدة تُغلّب هذه السمة وتجعل الجاهليّة فضاءً لانتشار الفوضى وانعدام القوانين والضوابط، وخذ مثالا بيّنا على ذلك ما يذهب إليه السيّد عبد العزيز سالم: "وهكذا كانت حياة العرب قتال في قتال، دماء تسفك، ودماء تراق، ولم يكن يطفئ الدم إلاّ سفك دم جديد، ويتعدّد القتل والثأر..."[1]، فهل كانت الجاهليّة مرحلة فوضى إلى هذا الحدّ؟ أم أنّ المسألة على صلة بقيم سائدة وبوضع تاريخيّ مخصوص وبتصوير للجاهليّة يخضع في صياغتها للتضخيم والمبالغة؟

إنّ جلّ الأيّام داخلة في باب الفخر وتحويها أشعار تُعمّق من توجُّه أحداثها لتحقيق هذا المقصد، وهي وقائع –ولا ريب- على صلة بالنزاع الاجتماعي والسياسي في الإسلام.

فيوم شراحيل بن جعفر تفتخر به مضر، ويوم شعب جبلة لبني عامر، ويوم الكلاب الثاني لبني تميم،.... وسرد أحداث هذه الأيّام قد يتجاوز الحدّ التأريخيّ لبيان الحيل المعتمدة ولسرد الأقوال الدائرة بين الشخصيّات بتمامها، فيتكوّن الحدث، وقد يكون في تكوّنه راجعا إلى أصل أو إلى نواة تُوَسَّع، وقد تنعدم الظلال التي تردّه إلى الواقع، غير أنّه في كلّ الأحوال لا يدلّ على الواقع الذي تصوّره أحداثه بقدر دلالته

1- م.ن: ص375.

على واقع إنتاجه. وهو ما لاحظناه في بناء الشخصيّات النموذجيّة وفي بيان المظاهر الجاهليّة.

وبذلك فإنّ الأحداث تُنْقَل من فضاء الخطاب الأدبي إلى فضاء التاريخ، فتتحوّل "الأيّام" إلى وقائع حقيقيّة حاصلة في الجاهليّة وتدخل بابا قارّا من أبواب التاريخ الجاهلي، وتُذكَر في المصنّفات التاريخيّة أيّام ووقائع ناتجة في أصل تكوّنها عن شرح الشعر، فأهمّ نصّ وردت فيه أيّام العرب هو نصّ "شرح نقائض جرير والفرزدق" لأبي عبيدة، ومنه تمّ التوسّع في ذكر هذه الأيّام. ولعلّ بعضا من الرواة القدامى كان أشدّ وعيا بهذه الحقيقة من جلّ مؤرّخي الحياة العربيّة القديمة، فالزبير بن بكّار يذكر أنّه لم تكن بين العرب أيّام تُذكر وإنّما هي وقائع بسيطة وخصومات مألوفة[1] لا تحتمل أن تتعدّى هذا الحدّ لتصير سمة من سمات الاجتماع الجاهلي. غير أنّنا نلحظ أنّ جواد علي في بيانه لأحداث يوم "ذي قار" يستند إلى رواية الطبري فيأخذ منها أغلب الأحداث على أساس سلامتها التاريخيّة[2].

وعلى ذلك فقد تمّ اعتماد أخبار الأغاني في أكثر المصنّفات التاريخيّة الحديثة[3] حجّة لإثبات مظاهر الجاهليّة وسندا منه المنطلق لوسم الحياة العربيّة والتأريخ لها.

تمثّل قصّة جذيمة الأبرش والزبّاء وقصير خير نموذج على تحوّل الحدث السرديّ القصصي إلى أحداث تاريخيّة تُعتمد في كتابة التاريخ، وقد ورد الخبر في مقام تفسير قول شعريّ لمتمم، ومنه صيغت أحداث عالقة بالقصّ ومراعية لآفاق تقبُّل مخصوصة في بناء الحكاية على التوالد الحَدَثي ووفْرة التشويق، وقد اقتضى بناء هذه الأحداث وجود سارد ملازم لعدد من الشخصيّات، فهو حاضر في المحاورة الدائرة بين

---

1 - "كتاب الأغاني" 3/ 9.

2 - "المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام" 3/ 296.

3- انظر على سبيل المثال: السيّد عبد العزيز سالم: *"تاريخ العرب قبل الإسلام"* 1. مؤسّسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع الإسكندرية. (د.ت).ص397. 34. 25.

- فكتور سحّاب: **"إيلاف قريش"**. ص146. 163. 214. 221. 252. 255. 369.

- حسين الحاج حسن: *"حضارة العرب في عصر الجاهليّة"*. 84. 85. 102. 172.

الزبّاء وأختها ناقل لما دار بينهما من حديث، وحاضر فيما دار من مشاورة بين جذيمة وأصحابه، وحاضر في ما دار من حديث بين جذيمة وقصير في رحلتهما إلى الزبّاء. وحاضر في ما دار بين جذيمة والزبّاء وعارض للحال التي لاقت بها الزبّاء جذيمة. فجملة الأحداث التي ساقها الرّواة في أخبار جذيمة الأبرش بادية الصياغة لا توصَل بالتأريخ من حيث مقصد التأليف وإنّما هي قصّة تتوفّر فيها جميع أركان القصّ، وما يعمّق من اتّصال أحداث هذا الخبر بالقصّ أنّ المتكلّم فيها سارد يُرافق الشخصيّات ويبدي ما تُضمره وما تُعلنه في مختلف وقائعها وخلواتها، وكأنّه حاضر بينها دوما مسجّل لأقوالها.

إنّ التمثيل في هذا المقام يُبعّد الخطاب المبنيّ عن عالم التاريخ، ويشدّه إلى مجال الأدب. والأحداث في هذا الخبر تتوالد وتتالى بغاية تحقيق مقصد هو بيان بلوغ الثأر بالحيلة وهو درس سياسيّ، إذ أنّ المقام الذي فيه نتج الخبر ينبغي أن يكون موصولا بالسياسيّ، بيانا للمكائد وطرائق توقّيها. فخبر الزبّاء من أروع القصص الجاهليّ التامّ القائم على الإثارة والتشويق، تكتمل فيه الشخصيّات وأفعالها، وتتنامى الأحداث وتتعاقد. وهو قائم على الثأر في حركة سرديّة أولى تؤسّس لمجال حدثي تكون فيه الزبّاء فاعلة وحائكة للحيلة لغاية الأخذ بثأر والدها من جذيمة. ويكون قصير صاحب الثأر في الحركة السرديّة الثانية إذ يأخذ بثأر جذيمة ويعمد إلى الحيلة المضادّة. ونقرأ أخبارا عديدة فيها متع القصّ وملاذه، وما به تخرج عن حدّ التعبير عن الواقع لتؤدّي مقاصد عديدة، منها التعليميّة والوعظيّة والسياسيّة...

غير أنّ بعضا من دارسي التاريخ العربي القديم يتجاوزون هذا الحدّ القصصي لهذه القصّة ويتّخذون أحداثها وشخصيّاتها متّكأ للتأريخ، استعادةً لهذه الأحداث وقصّا لها، فيعيد علي إبراهيم حسن[1] -على سبيل المثال- هذه القصّة كما وردت في الأخبار العربيّة.

1- علي إبراهيم حسن: *التاريخ الإسلامي العام. الجاهليّة-الدولة العربيّة-الدولة العبّاسيّة* مكتبة النهضة المصريّة القاهرة. د.ت. ص 66/ 67.

وبذلك دخلت قصّة جذيمة الأبرش وعلاقته بالزبّاء المجال التاريخي، وهي مسألة تُعمّق من حجج التوجّه الواصل بين كتابة التاريخ والسرد، هذا التوجّه الذي يعتبر التاريخ داخلا في الصنافة السرديّة[1].

وكذلك الأمر بالنسبة إلى خبر عديّ بن زيد الذي تظهر المقاصد السياسيّة بيّنة في إنتاجه، ونجد جواد علي يرتكز على هذه الأخبار ويعيدها بتمامها -تقريبا- تأريخا لتلك المرحلة وبيانا لظاهرة بلغ فيها بعض العرب أوج المراتب السياسيّة في ديوان كسرى وكان لهم النفوذ الظاهر في تسيير الحياة العربيّة ورسم خارطتها، وبالرغم ممّا يحفّ بهذه القصّة بالذات من صناعة بيّنة لأجل الوعظ السياسيّ وبيان طرائق تَحَيُّل الساسة ومختلف مكائدهم، فإنّ جواد علي يعتمدها ويعيد روايتها وقد آمن بمطابقتها للواقع[2].

ومن ناحية ثانية فإنّنا نظفر بكتابة في التاريخ قائمة على ضبط ظواهر تاريخيّة لا سند لها سوى الخضوع للسائد والموروث العامّ في بعضٍ من المواضيع الخاصّة بالمجال الجاهليّ. ذلك أنّنا نرى أصحاب الوعي المرآوي يطلقون أحكاما على الجاهليّة استنادا إلى الشاذّ من الأخبار أو ركونا إلى ما يدعم منطلقاتهم الفكريّة والاعتقاديّة.

وتغلب على الدراسة في هذا التوجّه الأحكام العامّة التي لا سند لها، وقد نجده متداخلا مع التوجّه الأوّل، فمن ذلك رأيهم في المرأة الجاهليّة، وكنّا في تتبّعنا لصورة المرأة وفقا لما أسّسته الأخبار تبيّنّا أنّها صورة إيجابيّة في عدد من المناحي، ومع ذلك فإنّا نرى حسين الحاج حسن، يسمها وسما سلبيّا ويعتبر أنّ المرأة قد كانت في أحطّ المراتب

1- انظر عزيز العظمة *الكتابة التاريخيّة والمعرفة التاريخيّة. مقدّمة في أصول صناعة التاريخ العربي*. ص13: "...فإنّنا سنعالج التاريخ بما هو فاعليّة أخباريّة، فالإخبار أكان مترافقا مع تعيين زمانيّ أم لا، هو إخبار عن وقائع. وصلة هذه الأخبار بالحادثات التي يخبر عنها كصلته بتواتر هذا الإخبار واندراجه في إطار سرديّ ما، لا تمتّ بصلة إلى تعيين وقت هذه الحادثات ..." وهو يقول أيضا ص: 44 "والخبر هو القول السردي المتعلّق بفعل ما بحيث أنّه يسرد حادثة فيها انتقال من بداية إلى نهاية دون أن يتمكّن من سرد أيّ شيء عدا الحوادث.."

2- جواد علي: *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*: 3/ 288 وما بعدها.

"المجتمع الجاهليّ ظلم المرأة ونظر إليها نظرة خاصّة إذ اعتبرها عضوا أشلّ، فهي قاصرة يجب حمايتها.."[1]

إنّ صورة المرأة التي أسّستها الأخبار في وضعها الباهر أو المنفّر لا تُحيل بالضرورة إلى حقيقة وضع تاريخيّ، وإنّما هي صورة فيها من آثار مقام الإنتاج ما يصرفها إلى تحقيق الإعجاب والميل إليها أو إلى تحقيق التنفير منها. وعلى ذلك فإنّه يعسر أن نبلغ وسْما أحاديّا لمنزلة المرأة، بسببٍ من تَوفُّر نماذج تنشدُّ من خلالها وأفعالَها إلى الحكمة وحسن الرأي، وتَوفُّر نماذج أخرى تُظهر سوء منزلة المرأة في المجال الجاهلي. ولذلك فإنّه من العسير أن نخلص إلى سمة واحدة يُمكن أن نتبيّن منها الوضع "الحقيقي" للمرأة، فصُورتها شأنها شأن كلّ الصور الجاهليّة كانت أداة طيّعة في أيدي الرواة يُصرِّفونها مذاهب شتّى وفقا لمقاصدهم.

وكذلك الأمر أيضا بالنسبة إلى إقرار ظاهرة وأد البنات التي يبدو أنّها لم تكن منتشرة في الجاهليّة بحيث تصبح فعلا شائعا ومألوفا وإنّما هي خاصّة بمواقف شخصيّة، ولم نجد لوأد البنات من إثبات أو تصوير في أخبار الأغاني بخلاف التعرّض لشخصيّة قيس بن عاصم الذي قُرن ذكره بهذا الفعل، وهنالك عدد من الأمارات تدلّ على أنّ عرب الجاهليّة الداخلين في الإسلام كانوا يستغربون فعل قيس بن عاصم ويسألونه أمره مع بناته.

لقد نتجت عن هذه القراءات صورة عن الجاهليّة تقوم على المطابقة، والحال أنّ المسألة أعقد وأشكل، فما ورد من مظاهر الجاهليّة هو تصوير خاضع لمقام إنتاجي كان له الدور المهمّ في اتّخاذ الجاهليّة مجالا لاحتواء ما يدور في الراهن من صراعات ونزاعات، ولاحتواء رؤية الذات المتكلّمة لهذا الراهن من جهةٍ وللجاهليّة من جهة ثانية. ولذلك وصَلَنا الخبرَ بالتصوير دون التأريخ.

1- حسين الحاج حسن: "*حضارة العرب في عصر الجاهليّة*". المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1984. ص 125.

2- الصورة.

لقد انتهينا من الفصلين السابقين إلى أنّ الجاهليّة قد خضعت في تصويرها إلى مقامات إنتاج صاغت ملامحها ووجّهتها ترغيبا أو تنفيرا. فأدركنا من خلال بياننا لطرائق بناء الشخصيّة النموذجيّة ومن خلال عرضنا لمظاهر الحياة الجاهليّة أنّ الأخبار تحيل إلى واقع الإنتاج أكثر من إحالتها إلى واقع جاهليّ. فكلٌّ له جاهليّة مخصوصة، تختلف المواقف منها باختلاف زوايا النظر إليها، فالذات المتكلّمة تحتلّ منزلة مهمّة في تصوير جاهليّة مقرّبة إلى النفوس فيها من ظواهر الإيجاب ما يغلب على السلب، أو في تصوير جاهليّة منكَرة، منفّرة. فصورة الجاهليّة إذن هي نتاج مواقع الذوات المتكلّمة وعلاقاتها التخاطبيّة. والصورة لا تُقدّم ماهية الشيء ولا شكله الواقع كما هو، وإنّما هي الشيء وقد داخلته رؤية ذاتية تعدل به عن أصل وضعه لتخرجه على هيئة مغايرة وقد استصفته عين رائية وانتقت منه مواقع التعبير وغضّت الطرف عن بعضٍ من جوانبه وبرّزت البعض الآخر، فبين الصورة والأصل مسافات[1] تُحدثها ذات المصوّر

1- يتحدّث صمّود عن مسافتين تقومان حاجزا بين الخبر والواقع وتحدّان من درجة إحالة الخبر على واقع موضوعي، انظر صمّود: "*من تجلّيات الخطاب الأدبي: قضايا نظريّة*".ص:19. "المسافة الأولى، وهي مهمّة جدّا، هي مسافة زمن المعيش وزمن الكتابة، أو إن شئنا مسافة الفعل وذكرى الفعل. فإخراج النصّ مخرج الشهادة تغييب لفعل الذاكرة في ما تسترجع وتتذكّر، وطمس لقدرتها على تحويل الأحداث وانتقائها وإخراجها على هيئة مغيّرة منتقاة، تعيد تركيب الأزمنة والأمكنة على نمط يخالف الأحداث والوقائع، وتُوجِد بين هذه من الروابط والأواصر ما لم يكن في الأصل كذلك، لأنّها لا تخزن بصفة آليّة وإنّما تنتقي وتشذّب، ترشّح وتقصي، تضمر وتظهر، وفي كلّ ذلك تراها مدعوّة إلى إعادة الصياغة وإعادة التركيب والترتيب. فالتذكّر صورة محوّلة وبنية معدولة، والكتابة عن الذاكرة ليست إلاّ صياغة جديدة لأحداث بعيدة بينها وبين الواقع بقدر ما بين زمنها والزمن التاريخيّ. فذكرى الشيء لا يمكن أن تكون الشيء، لأنّها تنبع من قوّة جُعلت لتحارب الزمن وتقاوم تجبّره وقسوته إلاّ أنّها به متّصلة لا تنفكّ عنه. ومن هذا الاتّصال الانفصال يستمدّ أدب الذاكرة خصائصه.

أمّا المسافة الثانية فهي مسافة الحدث والتعبير عن الحدث باللّغة، لأنّ اللّغة لا تنقل الأشياء كما هي، وإنّما تقيم هيآتها وتبني أمثلتها. فتقوم بين الشيء الموجود والعبارة عنه مسافات، بها وحدها يمكن للموجود العيني أن يصير إلى ما تكفله الأنظمة الرمزيّة وتؤدّيه.

وأثرها فيما هو موضوع تصوير. ولذا فإنّ في الصورة إذ تخرج من بين يدي صاحبها بعضا منه ونفسا من روحه، وفيها من نِسَب الذاتيّة ما به تخرج عن حدّ نقل الواقع والمحاكاة إلى تأسيس عالمها الخاصّ الجامع بين ما تركّزت عليه عين المصوّر وبين أدواته التي أجراها لإخراج المادّة الحدثيّة أو المشاهد التي يروم تصويرها وبين رؤيته التي توجّه نظره في ما هو موضوع تصوير.

لقد أظهرنا في رصدنا لصورتي الجاهليّة ترغيبا وتنفيرا أنّ أخبار الجاهليّة قد نتجت في مقامات متداخلة أفضت إلى إنتاج صورة عن الجاهليّة تبلغ حدّ التعارض والتضادّ في وسم الظاهرة الواحدة. ذلك أنّ المجال الجاهليّ كان محور صراع اجتماعيّ وسياسيّ، كلّ يراه من موقعه المشحون. فقامت بذلك مسافات بين الخبر من حيث هو صورة لواقع الحياة العربيّة في الجاهليّة وبين الواقع الجاهلي في ذاته. فالجاهليّة التي ترصدها الأخبار لا تمثّل واقعا تاريخيّا وإن اتّكأت على شخصيّات "تاريخيّة" ووقائع حادثة في ماض من الزمن، وإنّما هي "تمثّل لماضٍ يتحمّل رؤى متغايرة حدّ التعارض التامّ في ضبط سماته، ويساعد على هذا التمثّل المفارق للنقل والمحاكاة ما يتّسم به الخبر من "إعادة إنتاج متكرّر" ومن ضروب في القول وطرائق يتأسّس عليها الخطاب -تقديما وإرجاء، إيجازا وتوسّعا، تمثيلا وسردا...- وممّا يخضع له الخبر من مقام مؤثّر، فاعل في إنتاجه، تظهر فيه أصداء فعل المخاطَب وأثر مجتمع جمع عددا من الأصوات المعبّرة عن نحل متصارعة، منها ما كان سائدا من خلافات قائمة بين القبائل، ومنها رغبة الخلفاء في صناعة صور لأمجادهم، ومنها التوجّه إلى إعلاء شأن الدين الجديد، ومنها ما داخل العرب من عجم.. وكلّها أصوات لها مواقفها المختلفة من الجاهليّة، من حيث أنّها إرث أصحاب الدين الغالب والساسة الغالبين.

ولقد سلف أن وقفنا في الباب الأوّل على جزء من هذه العوامل الفاعلة في إنتاج أخبار الجاهليّة، وهي عوامل متى أُدركت بان لنا أنّ الجاهليّة التي أخرجها الرواة لا تشاكل ضرورة الجاهليّة التاريخيّة التي ظلّت غائمة، وإنّما هي في جانب كبير منها إسقاطٌ للراهن على الماضي. فالرواة يصدرون عن واقع اجتماعي وسياسي وديني يحدّ من درجات طلب الموضوعيّة في رواية هذه الأخبار، ويحدّد آفاق بنائها ونماء أغراضها.

فالجانب العقدي حدّ مهمّ –على سبيل المثال– في بناء جاهليّة تنصرف في أغلب الأخبار التي تتعرّض للمظهر الاعتقادي إلى الحديث عن مهاد في الجاهليّة لبزوغ الإسلام دينا ينتظره النّاس، ويعتزلون عباداتهم وشرائعهم ونظم عيشهم ليكونوا مسلمين قبل حلول الإسلام. وهو الأمر الذي حاولنا بيانه في إثارتنا لدور واقع الإنتاج في صياغة صورة مخصوصة عن المظهر الاعتقادي الجاهلي، ترغيبا فيه أو تنفيرا منه، بتصوير "جاهليّة إسلاميّة" تحوي نماذج تمهّد لمبادئ الإسلام وتنتظر حلوله، أو ببيان وَهَن معتقداتها عبادةً للأصنام أو اعتقادا في الكهَنة والسحرة. ولقد كان القدامى أكثر وعيا في بيانهم لتواصل بعض المظاهر الاعتقاديّة الجاهليّة في الإسلام من بعض الدارسين المعاصرين الذين يقرّون القطيعة التامّة في المستوى الاعتقادي بين الجاهليّة والإسلام، فنرى "ابن حبيب" على سبيل المثال في كتابه "المحبّر" يعقد فصلا يتناول فيه العادات الاعتقاديّة التي بقّى عليها الإسلام[1]. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الواقع السياسي على اختلاف منازعه ومذاهبه وزمنه، فهو دوما يتحمّل رؤية مخصوصة للجاهليّة، منها يستمدّ امتداد نسبه وعراقته، إضافة إلى بحثه في ماضيه عن دروس للاعتبار والوعظ. إضافة إلى واقع النزاع في الدولة الإسلاميّة وإسقاط هذا النزاع على الماضي. فالمقام – دوما– هو الموجّه لملامح الصورة التي ترصدها الأخبار الجاهليّة، وإن انطلق صائغها من نوى واقعة على وجهه الحقيقة، فكساء الصورة راجع إلى هذا المقام الذي حوى أبا عبيدة أو الأصمعي أو المفضّل الضبّي أو ابن الكلبي أو الأصبهاني أو غيرهم من الذوات المتأثرة بواقع سياسيّ واجتماعي وثقافيّ له رؤى مختلفة للجاهليّة وبسائدٍ دينيّ ينظر أيضا إلى الجاهليّة مواقفَ متغايرة. ونلحظ هذا المقام حاضرا في خطاب الخبر في وسم الشخصيّات بصفات منكَرة في الإسلام على شاكلة وسم عُمارة بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاص بالشرك: "وكلاهما مشرك"[2]، أو في توفّر سمات للقبائل متعارضة، ومثال ذلك ما وُسمت به هذيل من صفات متعارضة، فهي ساعةً تُنتج

1– ابن حبيب (أبو جعفر محمّد): *كتاب المحبّر. السنن التي كانت الجاهليّة سنّتها فبقّى الإسلام بعضها وأسقط بعضها*. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت. (د.ت) ص: 309.

2–كتاب الأغاني: 9 / 55 .

رجالا صارمين[1]، وساعة أخرى تُنتج رجالا جبناء[2]. ونلحظ أصداء هذه الآثار الباقية من واقع الإنتاج في عدد من الأخبار التي يُدرك رواتها أثر القبائل في تصوير الجاهليّة وفقا لمقاصدهم ، ففي ذكر حروب الفجار يشير أبو عبيدة إلى هذا الاختلاف الحاصل بين رواة القبائل : "قال (أبو عبيدة): وكان الفضل عشرين قتيلا من هوازن، فوداهم حرب بن أميّة فيما تروي قريش، وبنو كنانة تزعم أنّ القتلى الفاضلين قتلاهم وأنّهم هم ودوهم، وزعم قوم من قريش أنّ أبا طالب وحمزة والعبّاس بن عبد المطّلب عليهما السلام شهدوا هذه الحروب، ولم يرو ذلك أهل العلم بأخبار العرب"[3].

فالخبر إذن ليس مادّة منقولة محفوظة يسعى ناقلوها إلى المحافظة على نقائها وطهرها، وإنّما هو بما يخضع له من إعادة إنتاج في حالة تكوين دائمة لا يستقرّ على حال. ويقوم رُواته وفقا لمراكزهم ومدى قدرتهم على تحويله بتوجيهه المقصد الذي يرومون، ولا علاقة في هذه المسألة بين السند في نقل أقوال الرسول من حيث ضمان صدق هذه الأقوال وبين الخبر، الذي يظلّ مقطوعا في أحيان كثيرة، مجهولة أسماء الرواة فيه[4]، على اختلاف مواضعهم، يُثبت في كلّ مرحلة من مراحل استقراره مع أحد الرواة الرؤوس خضوعه للتبديل والتحويل والتصرّف في صياغته. فالجاهليّة بُنيَت من نوى أساسيّة وقع توسيعها وتأثيثها، والنوى يعسر تبديلها أو تحويلها، ومن هذا التأثيث يمكن أن نتبيّن آثار واقع الإنتاج. وقد تشكّلت هذه النوى في سمات عامّة لشخصيّات الجاهليّة أو لبعض أحداثها ووقائعها، فحاتم الطائي كريم، والشنفرى صعلوك، وعنترة فارس شجاع، وابن جدعان سيّد مطاع ... وعلى هذه النوى يصوغ الرواة مختلف أخبارهم، وهو ما أسّس الظاهرة التي نعتناها بالتفاعل الإعادي، إذ تتوفّر صيغ متعدّدة للنواة الواحدة.

1-م.ن:3/ 179.

2- م.ن: 21/ 179.

3- م.ن 22/ 79.

4- انظر جدول الرواةالمصادر.

وعليه، فإنّ الأخبار لم تجنح إلى نسْخ الواقع الجاهلي أو نقل أصْلٍ حادث في ماضي الزمنوإنّما هي تُظهر تمثّل مرحلة من الزمن وتصويرا لفضاء ماض برؤية محكومة بواقع مؤثّر في صياغة هذه الصورة وبناء أجزائها، وبمنطلقات يتحكّم فيها الدينيّ والسياسيّ والقبليّ والشعوبيّ، فالمتمثّل محكوم بواقع عصره أكثر من تقيّده بـ"الوفاء للمثال أو النموذج"[1] الذي يتمثّله ويصوّره.

إنّ ما تأسّس من أيّام على سبيل المثال من أخبار مديدة ووقائع جليلة قد لا يكون راجعا إلى نزاع قبليّ يبلغ تلك الدرجة من التقاتل والتصارع، فهو على صلة حتما بواقع النزاع القبلي في الإسلام وبتصارع القبائل كلّ يبحث في الجاهليّة عن ماضٍ له أثير منير ويبحث لضدّه عن ماض مهين ذليل. ولقد عبّر الزبير بن بكّار وهو أحد الرّواة المشهورين عن واقع أيّام العرب بعبارة موجزة مختصرة، منها ندرك أنّ الصراع القبليّ في الجاهليّة لا يختلف كبير اختلاف عن أيّ صراع يوميّ بين العائلات في الأرياف في زماننا الحاضر، يقول: "وقد أخبرني الحسين بن علي قال حدّثنا الزبير بن بكّار قال حدّثني عمّي مصعب قال: لم تكن بينهم في هذه الأيّام حروب إلاّ في يوم بعاث فإنّه كان عظيما. وإنّما كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب."[2]. وفي ذلك تصريح بيّن بأنّ "الأيّام"—وهي تمثّل قسما مهمّا من الأخبار المصوّرة للفضاء الجاهلي- إنّما تكوّرت من نواة بسيطة قائمة على نزاع طبيعيّ ومألوف بين القبائل والعشائر المتجاورة، فتكوّنت لها مقامات داخل الخطابات التي أنتجتها أصبحت الأيّام بمقتضاه حروبا عظيمة تحدّدت بها سمات متعدّدة للجاهليّة عن الحياة الدمويّة وعن الأبطال المبرّزين والحال أنّها صور متأسّسة داخل خطاب الخبر وليست متأتيّة من خارجٍ تلتزم بنقله ومحاكاته. ومن مظاهر تضخيم الأحداث ما صوّر عليه قيس بن الخطيم نفسه في القول الشعريّ الذي كان يمكن أن يُتّخذ أصلا لإنتاج أخبار تبرز

1 – « fidélité au modèle » : Michel Zink : « *La subjectivité littéraire* » Puf. 1er édition 1985. P : 36

2- *كتاب الأغاني*: 3/ 9.

بطولاته وشدّته في الحرب والقتال، "قال الزبير: وأنشدتُ محمّد بن فضالة قول قيس بن الخطيم: (من الطويل)

أُجَالِدُهُم يَومَ الحَديقَةِ حَاسِرًا كَأَنَّ يَدِي بِالسَيفِ مِخرَاقُ لاَعِب.

فضحك وقال: ما اقتتلوا يومئذ إلاّ بالرطائب والسعف."[1]

فلقد كان للرواة عميق التأثير في صناعة صور عن الجاهليّة مختلفة قياسا على الصراع الدائر بين هذه القبائل في الإسلام، أو بين المجتمع العربي ومَن داخَلَه من الروم والفرس، فساهموا في حياكة صور عن ماضيهم وعن ماضي أعدائهم، فالوسائط القيّمة على "نقل" الواقع في الأخبار لا "تنقل" -عادة- مادّة معاينة مشاهدة وإنّما هي ناظرة في ملفوظ يبلغها، فتصوغه وفقا لمقام الحال. وفي هذه الوسائط ما هو ثابت وفيها ما هو واقع ملء فراغ أو اندراجا في سنّة تأليفيّة. غير أنّها لا تمثّل "وسائط نقل" وإنّما هي مراكز تصوير. وتختلف أدوار هؤلاء الرواة فيما وضعوا فيه من مواضع، ففيهم الرأس وهو القادر على التصوير وصناعة الصورة أو إعادة تركيبها وإخراجها مخرجا جديدا، وفيهم القناة القائمة (سواء وُجدت أم لم تُوجَد) على وظيفة تمرير الصورة، والمحافظة على صياغة الرأس لها.

والرواة الرؤوس -وقد أظهرنا في الباب الأوّل الأدوار التي يؤدّونها في بناء الخبر وصياغته- لهم القدرة الكافية على توجيه الخبر مقاصد شتّى، بحكم انفتاح الخبر على ممكن الإضافة والتحويل، فهو أداة طيّعة في أيدي القبائل يُصرّفه رُواتها وفقا لمقاصدهم النزاعيّة، دعما لآلهم وحطّا من شأن القبائل المنازعة لهم، كما مثّل الخبر واسطة لقراءة مُعْمض الشعر وبيان مختلف إحالاته وإشاراته، فهو في مرحلة من مراحل نشوئه قد اعتُمِد آلة لفهم الشعر وشرحه، وهو في كلتا الحالتين واقع تحت أثر مصرّف له، هو القادر على صناعة الصورة وفقا لهذين المقصدين، بمنأى عن البحث عن درجة "الوفاء للمثال" أو النموذج" الذي يُعبّر عنه أو هو يوحي بالتعبير عنه[2].

1- 3/ 9. 10.

2- Zink : P : 36

إنّ آثار الرّواة في صياغة صورة عن الجاهليّة بيّنة وظاهرة في مختلف تصاريف الخطاب الأخباري، وبذلك فإنّه يعسر أن نجاري دعوة جواد علي ومن سار في مساره إلى تنقية التاريخ من زوائد هذه الآثار ومن المواضع التي أكثر فيها الواضعون والمتزيّدون، ذلك أنّ الجاهليّة، لم تُدوَّن معاشرةً أو معاينةً، وإنّما هي قد صيغت صورا صادرة عمّا هو شائع في أذهان النّاس وعمّا هو رائج من نوى عن أحداثها وشخوصها وأبطالها، وهي خاضعة بذلك إلى شتّى التصاوير ومختلف الصيغ.

لقد أظهرنا في بياننا للصورتين المرغّبة والمنفّرة أنّ الجاهليّة في رصدها واقعة تحت أثر زمن القول أكثر من وفائها للزمن الذي يعبّر عنه المقول، فهي خاضعة لثقافة الراوية ولموقفه من الفضاء الجاهلي، وهي خاضعة في ذات الآن إلى آفاق تقبّل المخاطب ومراعاة متطلّباته من هذا الزمن، ونحن عموما إزاء نوعين من المخاطبين لهما الحضور الفاعل في صياغة صورة مخصوصة عن الجاهليّة:

مخاطَب سياسيّ يرجو من سؤاله حسن الجواب وهو طالب أخبارا ترفع من شأن آله وتُثبت لهم عزّا تليدا ومجدا غابرا في الزمن حتّى تتركّز أقدامه فيما هو فيه. وهذا المخاطب هو الصائغ الفعليّ لمعالم جملة من الأخبار، إذ هو المخرج الرئيس "للتاريخ الرسميّ" الذي يُكتب في قصور الساسة ومنتدياتهم. وهو ذاك المخاطَب الذي يظهر في عدد من الأخبار ويُضمَر في أخرى، يظهر في سؤال يبسطه على رُواته بحثا عن خبر يتّعظ به أو يستمتع بأحداثه أو يفخر فيه بأجداده. وقد تبيّنّا حضوره في عدد من الأخبار، صوتا داخلا في الخطاب موجّها لمناحيه، فهو "المنصور" في خبر عروة بن الورد[1]، وهو معاوية في خبر "حاتم الطائي"[2]، وهو ابن هبيرة في خبر امرئ القيس[3]... ويُضمَر هذا المخاطب في أخبار عديدة تنصرف إلى بيان مكائد الساسة ومختلف أحابيلهم كما

1- *"كتاب الأغاني"*: 3/ 79.

2- م.ن: 17/ 300.

3- م.ن: 9/ 97.

هو الحال في خبر عديّ بن زيد[1]، أو غيره من الأخبار التي تعرض لبعضٍ من القبائل الجاهليّة التي كانت تناصر السلطان أو تُعاديه.

ومخاطَب عامّ (شعبيّ في بعض وجوهه الغالبة) باحث في تاريخ الماضي عن أصداء بطولات وعن أمجاد تُقَدّ بالمغامرة والشجاعة، وعليه تتأسّس جملة من الأخبار القائمة على التشويق وعلى صناعة صور أبطال نماذج.

وقد جمّع الأصبهاني هذه الصور في مصنّفه ولم يكن صوته في هذا التجميع غائبا ولا صياغته للمادّة التي بلغته منتفية، وقد عمد إلى سبيل اقتفاه به فكّ التسلسل التاريخي[2] للأخبار التي يرويها وأضرب عن اقتفائه، فلم يكن مقصده التأريخ ولم يكن همّه رصد وقائع الجاهليّة لذاتها، وإنّما كان واقعا بدوره تحت أثر حدّده بنفسه منذ المقدّمة تحكّم في صوغ مؤلّفه. فلقد أكّد صاحب الأغاني في مقدّمته أنّه صاغ مصنّفه على خطّة قوليّة قصد بها إلى إذهاب الملل عن قارئه وإفادته بأخبار تروقه إذ تبلغه، وأنّه لا يُلزم نفسه بتتبّع مسار تاريخيّ أو بتقصّي الوقائع الحادثة ضرورةً. وهذا ما يتأكّد بإيراد أخبار رواةٍ يُثبت في مواقع مختلفة من كتابه قلّة صدقهم ووفرة وضعهم وتزيّدهم. فمقاصد التأليف موصولة بمراعاة حال المخاطب وبناء الخبر على آفاق تقبّله، وهي مسائل تخرج بالمدوّنة من وضع "الموضوعيّة" إلى وضع "الذاتيّة" أي من وضع فيه تُشَدّ إلى آفاق تأريخيّة إلى وضع هي كائنة فيه، تجول في رحابه بمطلق الحريّة دون تسييج أو تحديد وهو وضع الأدبيّ. وبسبب من ذلك فإنّه من العسير أن ننطلق من هذه الأخبار أصولا لبيان "الحقائق التاريخيّة". ومن أمثلة ذلك أنّه يعتمد رواية ابن الكلبي بالرغم من أنّه يسمه في أكثر من موقع بالتزيّد والكذب[3]، وهذه الخلّة فيه لم تمنعه من اعتماد أخباره

1- م.ن: 2/ 80.

2- انظر مقدّمة *كتاب الأغاني*: 1/ 15.

3- *كتاب الأغاني*: 10/ 40 "قال مؤلّف هذا الكتاب: هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلّها، والتوليد بيّن فيها وفي أشعارها، وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمّة على سائر الروايات. وأعجب من هذا الخبر الأخير، فإنّه ذكر فيه ما لحق دريدا من الهجنة والفضيحة في

وروايتها. فالكذب والتعارض مع ما هو تاريخيّ و الخياليّ المجنّح لا يُقصى من المدوّنة[1]، وإنّما هو غالب عليها، وهي سمة أيضا لا تعتبر في رواية هذه الأخبار على اختلاف مقاصد الرواية، ويُغلَّب في هذا المقام مقصد الذات الراوية التي تطلب أخبارا تُسرّ النفس وتبهجها وهي في ذات الآن وسيلة للاعتبار والتعلّم، ولذلك فإنّ الكذب فيها مجاز، أمّا إذا طلبنا "الحقيقة التاريخيّة" فإنّ الذات المتكلّمة تنبّهنا إلى ضرورة إخراج الأخبار عن هذه الدائرة التي يتمايز فيها الكذب من الصدق، وتغلّب فيها الموضوعيّة والتحرّي على طلب المتعة وتحقيق المقاصد التعليميّة. ومثال ذلك معاوية بن أبي سفيان في بحثه في تاريخ الجاهليّة عن أجود النّاس ويظفر جوابا لمسألته بمن يروي له أخبار حاتم مثالا من أمثلة الجود، " قال: وكنّا عند معاوية فتذاكرنا الجود، فقال رجل من القوم: أجود الناس حيا وميتا حاتم، فقال معاوية: وكيف ذلك؟ فإنّ الرجل من قريش ليعطي في المجلس ما لم يملكه حاتم قط ولا قومه، فقال: أخبرك يا أمير المؤمنين.."[2] فالمقام الذي فيه تولّد هذا الخبر –بغضّ النظر عن مدى مطابقته للواقع الخارجي– هو مقام سياسيّ ذو خلفيّة قَبَليّة.

أصحابه وقتل من قتل معه وانصرافه منفردا (...) وهذا من أكاذيب ابن الكلبي. وإنّما ذكرته على ما فيه لئلاّ يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه."

1- لقد كانت الذات المتكلّمة على وعي بما تصطنعه الأخبار من فضاءات لا تُشَدّ ضرورة إلى الواقع، وإنّما هي قادرة بأدواتها أن تتأسّس على محض التخييل بوصل شقّ من الرّواة بفضاء الكذب والتزيّد دون النقل والتعبير عن الحقائق التاريخيّة. ففي خبر عبيد بن الأبرص، ما كان من علاقة بشجاع أكرمه فردّ عليه المزيّة –وتنعته الذات المتكلّمة بأنّه "خبر مصنوع يتبيّن التوليد فيه" 23/ 408.– إذ سقاه من عطش الرمضاء وكانت معه فضلة من ماء هي بقيّته فسقى بها الشجاع حتّى عادت إليه روحه، ولمّا كان الليل ندّت رواحل القوم، فقاموا في طلبها، فطلع عليه الشجاع وأبلغه مضارب قومه صبحا ووصل من سلم من القوم بعد ثلاث. 23/ 408. 409.

2- 17/ 300.

وتجمع الذات المتكلّمة بين عدد من الروايات، تُخرجها صوتا واحدا[1]، لتؤدّي دور موزّع الروايات، يسند الرواية تارة لهذا وطورا لذاك، فتتصبّب بذلك الصوت المنتهى، وإن كانت حقيقةً ناقلة عن مصنّفات أخرى. وتتّخذ هذه الذات هيئات متغايرة، ومواقف ظاهرة ممّا تنقله من أخبار. فهي تحاور "المنقول" وتحاججه وتخرج آنا عن الملفوظ فلا أداء لها يبدو سوى تحمّل الرواية، وتدخل آنا آخر صوتا يميّز رواية من أخرى، وتُرشّح من الروايات المتعدّدة رواية تُغلّبها، وتبرّز من الرواة من شاءت وتسقط من أرادت إسقاطه، وتجمع أصوات الرواة المختلفة[2]، فرؤيتها لا تتركّز على الأحداث في معاينتها وإنّما هي ناظرة في الصورة القوليّة لهذه الأحداث وفي وسائط نقلها.

فالراوية وفقا لهذه المعطيات المؤثّرة في صياغة الخبر زمن إنشائه لا يمكن أن يتحوّل –وإن كان طالب تأريخ– إلى ناسخ للواقع[3]، ولا ينبغي أن نخلط بين النصّ (الخبر) والمثال[4] (modèle) الذي يقاربه أو الذي يصدر عنه. وهو ما تمّ في الرؤية التي اعتبرت الخبر أصلا من أصول التأريخ، ونسخا لواقع حاصل ضرورةً. إنّ الخبر يقدّ أمثلته ونماذجه وإن انطلق من نواة عليها المرتكز والمستند، فهو إذ ينشدّ إلى الواقع بأسباب يمتّن من صلته بذاته فيقدّ "الواقع" بوسائطه الخاصّة، بوسائط اللّغة التصويريّة التمثيليّة، يركّز رائيا شاهدا على الأحداث والأقوال ناظرا في الشخصيّات محدّدا لحركتها ولما تضمره وتُظهره، وراويا يصوغ هذه المادّة

1- ونضرب مثلا على ذلك ما ورد في خبر دريد بن الصمّة من تجميع لروايات متغايرة الألفاظ يُخرجها في صوت واحد ويشير في بعض المواطن إلى الاختلاف بين هذه الروايات 10/ 21. 22 "أخبرنا أبو خليفة عن محمد بن سلاّم موقوفا عليه لم يتجاوزه إلى غيره، وحدّثني حبيب بن نصر المهلّبي وأحمد بن عبد العزيز الجوهري قالا حدّثنا عمر بن شبّة عن الأصمعي وأبي عبيدة. وأخبرني هاشم بن محمّد الخزاعي قال حدثنا أبو غسّان دماذ عن أبي عبيدة، وأخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدّثنا الزبير بن بكّار قال حدّثني علي بن المغيرة عن أبي عبيدة، وأخبرني محمّد بن خلف بن المرزبان قال حدّثني أبو بكر العامري قال حدّثني ابن نوبة عن أبي عمرو الشيباني، وأخبرني عمّي قال حدّثنا ثعلب عن ابن الأعرابي، **وقد جمعتُ أخبارهم على اختلاف ألفاظهم** في هذا الموضع أنّ دريد بن الصمّة..."

2- فهو يُوحّد بين عدد الأصوات في أكثر من موضع "قالوا جميعا" 2/ 97

3- *copiste* Zink : P : 28

4- Zink : P : 28

المرئيّة المعاينة بدءا من القول ينضّده ويرتّبه ويخرجه على الهيئة التي توافق آفاق تقبّل المخاطَب الطالب. وهو بذلك يخرج عن حدّ المرآة –سواء الواحدة أو المتعدّدة التي عليها يتشظّى الواقع، ليصنع مراياه الخاصّة به ويقيم حدوده، متتبّعا لمثال منه يُقَدّ. وما الجاهليّة إلاّ مسرح أو فضاء فيه يكون التنازع والتفاخر والتهاجي، فوفاء الخبر إذن يكون لذاته إذ يعبّر عن زمن ماضٍ وهو مشحون بواقع تأليفه، ويتعقّد حضور زمن الإنشاء وغلبته على زمن الأحداث بإثبات عدد من الرواة الرؤوس المساهمين في إعادة صياغة الخبر والمادّة الأخباريّة، وكلّ منهم يسم الخبر ميسما مميّزا مؤثّرا في توجيه مناحيه، ولا ريب أنّ رواية المعنى على سبيل المثال من شأنها أن تغيّر في معنى الخبر المنقول، فكلّما عبر الخبر الزمن تضخّم وفعلت فيه الرواية فعلها حتّى تغيب مقاصد واضعه الأصلي، أو تتراكم فيه المقاصد.

وبسببٍ من كلّ هذا فإنّ الجاهليّة صيغت صورا مختلفة تؤدّي مقاصد شتّى، فأخبار القيم على تنوّعها تؤسّس جاهليّة مثلى يسودها الكرم سلوكا اجتماعيّا وإباء الضيم ونجدة المظلوم والدفاع عن الظغائن، و"الأيّام" تقع موقعا وسطا بين بيان لبطولات في الجاهليّة وافتخار بوقائع كانت في الماضي، وبين إظهار لفضاء تسوده الخصومات وإراقة الدماء لأوهن الأسباب. وهي صورة على تعدّدها وتداخلها واقعة تحت أثر واقع إنتاجها الذي لم يمثّل مقاما واحدا ظاهرا وإنّما تعدّدت المقامات والمؤثّرات بتعدّد فضاءات إنتاج خطاب الخبر.

إنّ الواقع وإن أراد المصوّر نقله خاضع في تصويره لنسبة من الذاتيّة كامنة في اختيار المشاهد ودرجة فتح زاوية النظر وموقع الرؤية وضبط مراكز التبئير. والواقع – بذلك- في تصويره ليس واحدا، وإنّما هو قد يُصوَّر مشاهد شتّى كلّ منها ينطلق من ذات الموقع غير أنّها تقدّمه في هيئات متغايرة ومختلفة، فالواقع في تصويره لا يمثّل صورة موضوعيّة واحدة وإنّما هو واقع عدد[1]. وقد حاولنا إظهار هذه المسألة في

1 *(La multiplicité du réel)* in T. L. E théorie littérature enseignement

La représentation littéraire. Aspects et modalités d'une évaluation .

N : 4 puf paris 1982. Chimères de parodie. Christine Brooke- rose. P9.

دراستنا لصيغ أخبار الجاهليّة ومراوحتها بين التوسيع والاقتصاد في السرد، اقتصارا لبعض الرواة على الأفعال في حدّها الأدنى، وتوسيعا لرُواة آخرين للنواة الأخباريّة.

نخلص إلى أنّ دور الرواة لا يتمثّل في بناء أخبار تشاكل الواقع، وإنّما مواضعهم تُظهر مختلف ما يؤدّونه من أدوار (ولقد حاولنا إبانة ذلك في الفصل الذي خصّصناه لدراسة أثر مقام الرواية في إنتاج أخبار الجاهليّة) نقلا أو تصرّفا وصوغا للمادّة الحكائيّة أو للنواة الخبريّة وفقا للمقاصد المتحكّمة في إنتاج الخبر. فالذاكرة ليست حافظة الأشياء وإنّما هي تمثّل موقف الحافظ من الشيء المحفوظ، والجاهليّة قد تشكّلت عند هؤلاء الرّواة أخبارا محفورة في الذاكرة، خاضعة لشتّى التصاريف، فالذاكرة لا تعيد الأشياء كما هي وإنّما هي تستصفيها وتعيد صياغتها لتخرجها كونا جديدا، وما تَنَقّل الخبر عبر ألسنة الرّواة إلاّ إعادة صوغ له، يتّخذ في كلّ مرحلة من مراحل إنتاجه لبوس العصر الذي أنتجه حدّ بلوغ الراوية الأخير الذي يُخرجه على هيئته النهائيّة. وفي كلّ هذه المراحل رؤى يتحمّلها الخبر وعدول عن "المثال" الذي يُوهم بنقله، وابتعاد عن الواقع بدرجات. فالرواة لا يُنظَر إليهم إذن من حيث قدرتهم التأريخيّة وصدقهم في نقل الواقع وموضوعيّتهم، وإنّما هم على علاقة متينة بعالم الصياغة وفضاء الأدب، يحوكون من المادّة السائبة بين الناس، الرائجة فيهم –شعرا أو مثلا– بدَعا من القول، ولا واقع في ذلك غير واقع الخطاب.

وهذا ما يُفضي بنا إلى النظر في الخبر من حيث تصويره للواقع بمختلف مظاهره حقيقةً وخيالا، وتعامله معه مادّة من موادّ السبك والصوغ، لا النظر فيه من حيث قدرته على نقل الواقع، فهو في منتهى المطاف مشدود إلى واقعين منهما يتأسّس واقعا مغايرا، لا يُشاكل الأوّل ولا الثاني، واقع الإنتاج، وواقع تدور فيه الأحداث.

إنّ الخبر لم يتوجّه إلى نسخ الأصل[1] كما ذهب إلى ذلك عدد مهمّ من الدارسين الذين أبرزنا رؤيتهم في الشقّ الخاصّ باعتماد الأخبار أصلا من أصول التأريخ، وإنّما هو صورة ذكريات لوقائع متذكّرة[2]، فالمسألة موصولة أساسا بذاكرة الشعوب لا بذاكرة الأفراد، فجملة من الصور الموروثة عن الجاهليّة يعجز الرّواة مهما كانت درجة تصرّفهم في الأخبار عن تحويلها أو تبديلها، ومن ذلك على سبيل المثال أنّ حاتم الطائي لا يمكن أن يكون إلاّ شخصيّة فاضلة، وعنترة لا يمكن أن يُخرَج جبانا وإنّما أخباره تنصرف إلى بيان مواطن شجاعته وفروسيّته. ولقد ساهمت طبقات الأصوات المتراكمة في رصد هذه الصور المتذكَّرة وتوجيه مقاصدها، من حيث هي وسائط دعاية أو تشهير ومستند للإثبات أو للنفي.

وممّا يُمتِّن صلة أخبار الجاهليّة بالفنيّ أنّ قسما منها موصول بالإمتاع سواء في تأسيس الصورة الباهرة أو في تأسيس الصورة المنفّرة، وهو مقصد قد أثّر في صياغتها، وحدّد من معالمها، ذلك أنّ أخبار الماضي تمثّل في أغلب الأحيان طلب الذوات المتقبّلة وتُطلق بذلك المجال وسيعا لصانعيها لحياكة أخبار تحقّق القبول الحسن وتوافق ما يطلبه منهم المخاطبون، ولذلك فقد اعتبرنا أنّ الخبر يتميّز بقابليّة التشكّل والتمطّط. ولقد انتبه طه حسين إلى هذه الخصيصة الإمتاعيّة في الأخبار المصوّرة للحياة الجاهليّة، يقول: "وفي أدبنا العربي على قوّته الخاصّة، وما يكفل للنّاس من لذّة ومتاع، قدرة على الوحي وقدرة على الإلهام. فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تُكتب مرّة واحدة، ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنّما **قصّها الرّواة في ألوان من القصص**، وكتبها المؤلّفون في صنوف من التأليف."[3] وهذا التنوّع في الصياغة هو الذي يكفل للخبر خصوصيّته

---

1 - « *L'image copie* ». Paul Ricœur : « ***L'écriture de l'histoire et la représentation du passé*** » in « *Annales* »..Edition de l'école des hautes études en sciences sociales. 55é Année- n°4. Juillet-Août 2000. p733.

2- م.ن: ص 733.

3- طه حسين: *المجموعة الكاملة* المجلّد الثالث. "*على هامش السيرة*" دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1981 ج1..ص9

وتفرّده، فهو منفتح دوما قابل لشتّى صنوف الإضافات، ليس بالشكل المغلق أو المنتهي وإنّما هو مجمع أصوات ورؤى.

ولك أن تنظر على سبيل المثال أخبار الصعاليك فهي أخبار تحقّق آفاق المخاطَب المتقبّل الطالب من حيث بنية المغامرة فيها، ووفرة أحداث البطولة، والسعي في أغلب الحالات إلى الخروج بالبطل ظافرا في مواقف مختلفة. وانظر أيضا إلى أخبار الشخصيّات الفاضلة وتوجّه الرواة إلى حياكة أخبار تتوفّر فيها عناصر القصّة، وتتحقّق بها الشخصيّة الفاضلة كرما أو حسن جوار أو حماية للظعائن. ونعرض لبيان صلة الخبر بالإمتاع، ومفارقته للحدّ التاريخيّ خبرا يُصوّر فيه واضعوه امرأ القيس الشاعر الجاهليّ وقد خرج عمّا تحدّد به في المصنّفات الأخباريّة من سمات ثابتة ساعة يُذكَر على مستوى بروزه في القول الشعري وعلى مستوى تفرّغه للطلب بثأر والده.

"أخبرني محمّد بن القاسم عن مجالد بن سعيد عن عبد الملك بن عمير قال: قدم علينا عمر بن هبيرة، فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة فسمروا عنده، ثمّ قال ليحدّثني كلّ رجل منكم أحدوثة وابدأ أنت يا أبا عمر. فقلت: أصلح اللّه الأمير! أ حديث الحقّ أم حديث الباطل؟ قال: بل حديث الحقّ. قلت: إنّ امرأ القيس آلى بأليّة ألاّ يتزوّج امرأة حتّى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين، فجعل يخطب النساء فإذا سألهنّ عن هذا قلن أربعة عشر. فبينما هو يسير في جوف اللّيل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنّها البدر ليلة تمامه، فأعجبته، فقال لها: يا جارية! ما ثمانية وأربعة واثنتان؟ فقالت: أمّا ثمانية فأطباء الكلبة. وأمّا أربعة فأخلاف الناقة. وأمّا اثنتان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها فزوّجه إيّاها. وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائه على ثلاث خصال، فجعل لها ذلك ، وأن يسوق لها مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك. ثمّ إنّه بعث عبدا له إلى المرأة وأهدى إليها نِحيا من سمن ونِحيا من عسل وحُلّة من عصْب. فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحلّة ولبسها فتعلّقت بعُشرة فانشقّت، وفتح النِحيين فطعم أهلُ الماء منهما فنقصا. ثمّ قدم على حيّ المرأة وهم خلوف. فسألها عن أبيها وأمّها وأخيها ودفع إليها هديّتها. فقالت له: أعلم مولاك أنّ أبي ذهب يُقرّب بعيدا ويُبعّد قريبا، وأنّ أمي ذهبت تشقّ النفس نَفَسين،

وأنّ أخي يراعي الشمس، وأنّ سماءكم انشقّت، وأنّ وعاءيكم نضبا. فقدم الغلام على مولاه فأخبره. فقال: أمّا قولها إنّ أبي ذهب يُقرّب بعيدا ويبعّد قريبا، فإنّ أباها ذهب يحالف قوما على قومه. وأمّا قولها ذهبت أمّي تشقّ النفس نفسين، فإنّ أمّها ذهبت تقبّل امرأة نُفساء. وأمّا قولها إنّ أخي يراعي الشمس، فإنّ أخاها في سرح له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به. وأمّا قولها: إنّ سماءكم انشقّت، فإنّ البُرد الذي بعثت به انشقّ. وأمّا قولها إنّ وعاءيكم نضبا، فإنّ النِحيين اللذين بعثت بهما نقصا، فاصدقني. فقال: يا مولاي، إنّي نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي فأخبرتهم أنّي ابن عمّك، ونشرت الحلّة فانشقّت، وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل الماء. فقال: أولى لك! ثمّ ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام، فنزلا منزلا. فخرج الغلام يسقي الإبل فعجز، فأعانه امرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتّى أتى المرأة بالإبل، وأخبرهم أنّه زوجها. فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: واللّه ما دري أزوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كَرِشها وذنبها ففعلوا. فقالت: اسقوه لبنا حازرا (وهو الحامض) فسقوه فشرب. فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، ففرشوا له فنام. فلمّا أصبحت أرسلت إليه: إنّي أريد أن أسألك. فقال: سلي عمّا شئت. فقالت: ممّا تختلج شفتاك؟ قال: لتقبيلي إيّاك. قالت: فممّ يختلج كشحاك؟ قال: لالتزامي إيّاك. قالت: فممّ يختلج فخِذاك؟ قال: لتوركّي إيّاك. قالت: عليكم العبد فشدّوا أيديكم به ففعلوا. قال: ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجع إلى حيّه، فاستاق مائة من الإبل وأقبل إلى امرأته. فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: واللّه ما أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كَرِشها وذنبها ففعلوا. فلمّا أتوه بذلك قال: وأين الكبد والسنام والملحاء! فأبى أن يأكل. فقالت: اسقوه لبنا حازرا، فأبى أن يشربه وقال: فأين الصريف والرثيئة! فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم. فأبى أن ينام وقال: افرشوا لي فوق التَّلعة الحمراء، واضربوا عليها خباء. ثمّ أرسلت إليه: هلمّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث. فأرسل إليها سلي ما شئت. فقالت: ممّا تختلج شفتاك؟ قال: لشربي المشعشعات. قالت: فممّ يختلج كشحاك؟ قال: للبسي الحبرات. قالت: فممّ يختلج فخِذاك؟ قال: لركضي المطهّمات. فقالت: هذا زوجي لعمري! فعليكم به، واقتلوا العبد، فقتلوه. ودخل امرؤ

القيس بالجارية. فقال ابن هبيرة: حسبكم! فلا خير في الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن تأتينا بأعجب منه. فقمنا وانصرفنا. وأمر لي بجائزة."[1]

يتأسّس الخبر على طلب حديث الصدق في مقام السمر السياسي، غير أنّا متى تمعنّا الخبر وجدناه خلوا من الصدق موصولا بعالم المتعة والقصّة، وما تمّ هو توظيف شخصيّة مرجعيّة إحاليّة لها ظلال في أذهان المنصتين، واعتمادها أساسا لحياكة خبر قائم على التشويق بالرغم من تضادّ عدد من المعاني فيه، فمن ذلك أنّ المرأة تختبر زوجها الطالب ولا تميّزه ساعة وفد عليها الزوج الحقيقي والزوج المتحيّل والحال أنّها قد لاقته سابقا وحادثته وخضعت لاختباره. وقد قام الخبر أيضا -لتمام السمر- على جملة من الأحاجي الظاهرة في المسألة/ الشرط والمسألة المضادّة أو الشرط المضادّ. فهذا الخبر -وغيره من الأخبار الشبيهة به- ليس داخلا في باب الصدق والكذب وإنّما هو موصول بما أسّسه من معان وبما قام عليه من صياغة بالإمتاع والتأليف والانطلاق من شخصيّة لها ظلال في أذهان المخاطبين لبناء خبر تُوَظّف فيه مستويات الحكاية وهو خارج بذلك عن حدّ التأريخ لهذه الشخصيّة. فقد قام "حديث الصدق" على تركيز صورة لامرئ القيس تخرج عن مألوف أخباره ومعهودها، فقد دارت أخباره على طلب ثأر والده، وعلى بيان أوليّته في قول الشعر، وهي محاور غائبة عن هذا الخبر، إذ يجعله الراوي ضاربا في الأرض بحثا عن امرأة تحلّ ملغز قوله فيتّخذها له زوجة. فيُوصل بعلاقة مخصوصة مع المرأة- الطلب، هي علاقة الإلغاز وفكّ الإلغاز، وعن هذه الثنائيّة تتأسس أغلب الأحداث، ويقوم بين هاتين الشخصيتين طرف ثالث هو العبد الذي يتّخذ -زيفا- محلّ سيّده، وبسببٍ من عجزه عن فكّ الألغاز القوليّة فإنّه يعجز عن تمام حيلته. ومن هذه العلاقات نتبيّن دور العلاقات التخاطبيّة في إنشاء خبر قائم على التشويق في أغلب مراحله الحدثيّة، من خلال الثنائيّة المتحكّمة فيه إلغازا وفكّا للإلغاز.

1- *كتاب الأغاني*: 9/ 97. 98. 99. 100.

ونظفر بجملة من الأخبار التي لا يقتصر رواتها على ذكر الأحداث فيها ذكرا جافّا وإنّما هم يطلبون من رواية هذه الأخبار إدخال المتعة على الذوات المتقبّلة، ويدخل في هذا الباب خبر المغيرة بن شعبة بيانا لدهائه وحزمه وإظهارا لبعض من حيله [1]، وجملة من أخبار عروة بن الورد التي تُردّ في روايتها إلى المنصور[2]. وهي مقامات يظهر أثرها في طلب مُتَع القول، وعَقْد الخبر على طرافة ما ينتظرها المخاطَب من المتكلّم.

ومن ذلك يمكن أن ندرك أن قسما من هذه الأخبار كان ناتجا عن حديث السمر، وحديث السمر في المواقف الرسميّة وغير الرسميّة له مقتضياته[3]، وأوكد هذه المقتضيات قيامه على الإمتاع وإذهاب الملل، فكان الصدور عن شخصيّات لها ظلال في أذهان المنصتين والاتّكاء عليها في بناء أخبار تُقصَد بها المسامرة والمؤانسة لا التأريخ والنقل. وبذلك تُشَدّ هذه الأخبار إلى التاريخيّ بطرف وإلى الخيالي بطرف آخر، وتلك هي خصوصيّة الخبر أن يظلّ دوما موهما بالتصاقه بالواقع وبالتعبير عنه.

إنّ خيطا دقيقا يفصل بين ما هو خياليّ مجنّح وبين ما هو واقع، ذلك أنّ الخياليّ والواقعيّ لا علاقة لهما بالموضوعيّة، فهما ذاتيّان. فالخياليّ والواقعي محكومان بحدود تاريخيّة زمنيّة ومعرفيّة وعقديّة، ويعسر بسبب من ذلك التمييز بينهما أو فصل أحدهما عن الآخر. فإذ نلحظ بعض الدارسين يؤمنون بمطلق واقعيّة الخبر وبقدرته التسجيليّة، نلحظ البعض الآخر يُجرّد هذه الأخبار من أيّ صلة يمكن أن تعقدها بالواقع ليردّها إلى الأسطورة[4]، على سبيل الخروج المطلق عن أيّ مرجعيّة أو ظلال

1- انظر الخبر في *كتاب الأغاني*: 16/ 45. 46.

2- م.ن: 3/ 79وما بعدها.

3- يذهب عزيز العظمة إلى أنّ صاحب الخبر يركّز في بنائه لخبره على سيكولوجيّة متلقّي واقع هذه الأمم "فقصارى جهد المخبر بها أن يجعل من الحقيقة أسمارا يستمع إليها التذاذا وليس تصديقا لها واعتقادا." *الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية: مقدّمة في أصول صناعة التاريخ العربي*. ص24

4- يتحدّث بلاشير في *تاريخ الأدب العربي* ص: 145 عن "الأساطير المتعلّقة بالأمثال والمعطيات عن أيّام العرب ومناقبهم، ومفاخرهم أو مثالب بعض القبائل ومغامرات الشعراء الصعاليك."

لهذه الأخبار. والحال أنّ الواقع يكتسب وجوده من معتقد الشعوب وما هم به مؤمنون لا في ما نراه نحن اليوم واقعا، أو ممكن الوقوع.

إنّ ما نعتبره اليوم من قبيل الخيالي داخل في المنظومة المعرفيّة وفي المعتقد الشعبي الغالب، حقيقة لا يداخلها الشكّ ولا الزيف، فالواقعي هو المنغرس في أذهان الناس واقعا قد يغلب المشاهَد المعايَن. وعلى ذلك فإنّ مصارعة تأبّط شرّا للغول[1] داخلة في شروط الإمكان التاريخيّ ضمن معقوليّة تتقبّل هذا الفعل وتؤمن به وتؤرّخ له[2]، إذا ما اعتبرنا الوعي المنشِأ لهذه الصورة وحدود معارفه ونظرته لما هو واقع ولما هو من قبيل "الكذب"، وهو صراع شبيه بما تدوّن في "المخيال" الشعبي واقعا حقيقيّا من حكاية "سيدنا علي وراس الغول" وغيرها من حكايات الجنّ المنغرسة في الذاكرة الشعبيّة والتي تمثّل واقعا خارجا عن حدود المعقوليّة العالمة، داخلا في منظومة معرفيّة مغايرة لا يمكن بأيّ حال من الأحوال التشكيك في "واقعيتها. بل إنّ بعضا من هذه المعقوليّة الشعبيّة داخل مجال المعقوليّة العالمة وصار واقعا يُروى، وهذا ما يؤدّي بنا إلى بسط إشكال نراه عميقا يخصّ الحدود الفاصلة بين ما هو واقعيّ وما هو خياليّ، أي ما الواقعيّ وما الخياليّ الخارج عن حدّ الواقع؟

ونظفر في كتاب "الأغاني" بعدد مهمّ من الأخبار المستندة إلى أسطورة ما تتأسّس عليها، وهي أخبار تخصّ عالم الجنّ والشياطين، وتتحدّث عن حصون بنتها الشياطين بسبب من عظمتها[3]، ومثال ذلك المدينة القائمة على الأسطورة في خبر قصري الخورنق والحضر[4].

1- *كتاب الأغاني*: 21/ 152.

2- عزيز العظمة:م.ن: ص9: "فيأجوج ومأجوج شعب له معقوليّة معيّنة في إطار معيّن، معقوليّة تفرض الأخذ بأنّ أصحاب التاريخ سلّموا بوجوده، والنظر في مسوّغات هذا الأخذ ونتائجه، ودون أن يعني ذلك اقتناعنا بحقيقة أنطولوجيّة لهذا الوجود. فوجوده تاريخيّ بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى، ليس مرادنا الإمكان بل شروط الإمكان في التاريخ، ومن هذه الشروط الخرافة".

3- *كتاب الأغاني*: 17/ 225.

4- م.ن: 2/ 116.

ويظهر هذا البعد الأسطوري بجلاء في خبر عبيد بن الأبرص، وما كان من علاقة شدّته إلى شجاع أكرمه فردّ عليه المزيّة، إذ سقاه من عطش الرمضاء وكانت معه فضلة من ماء هي بقيّته فسقى بها الشجاع حتّى عادت إليه روحه، ولمّا كان الليل ندّت رواحل القوم، فقاموا في طلبها، فطلع عليه الشجاع وأبلغه مضارب قومه صبحا ووصل من سلم من القوم بعد ثلاث[1]. وبالرغم من أنّ الذات المتكلّمة تردّ هذا الخبر بعد روايته وتتهمّه بالتوليد[2]، فإنّه خبر يؤسّس لمعقوليّة أنتجته تؤمن بمبدأ المكافأة ساعة الإحسان إلى الحيوان[3].

إنّ الخبر بما فيه من تصاوير وأخيلة لا يعدّ خارجا عن الواقع الذي أنتجه بل هو ناتج عنه داخل فيه، وهو موصول دوما بهذا الواقع بواسطة ما حتّى في أكثر الأخبار تجنيحا في الخيال، ذلك أنّ الحدّ المميّز بين الخياليّ والواقعي يظلّ حدّا غير واضح، لا يمكن أن نميّز منه الواقعي من الخياليّ، وإنّما المسألة موصولة دوما بتوفّر شروط إمكان لحدوث واقعة أو لإنتاج شخصيّة لا يحيل الخطاب عليها بذاتها تحديدا في الواقع الموضوعيّ وإنّما إنتاجها داخل الخطاب يقتضي أنّها ممكنة التحقّق في زمن إنشاء الخطاب.

إنّ شروط الإمكان في التاريخ متحقّقة في أخبار تقبلها الذات المتكلّمة وترويها وتعدّد من صيغها بالرغم من اتّصالها بعالم الغيب وخروجها عن "الواقع" الموضوعي المعايَن، وغير متحقّقة في أخبار تبدو فيها الشروط الموضوعيّة للتحقّق والكون غير أنّها في عيار هذه الذات "كاذبة".

1- م.ن: 23/ 408. 409.

2- تنعته الذات المتكلّمة بأنّه "خبر مصنوع يتبيّن التوليد فيه". م.ن: 23/ 408.

3- وهو خبر فيما نرى موصول بذات العقليّة التي أنتجت الحديث المرفوع إلى بي هريرة "دخلت امرأة الجنّة في هرّة"

فتخرج الأخبار عن طهر التاريخ[1]، تجرّدا ونقاء وصفاء لتؤسّس مجالها الخاصّ إذ توصل بالواقع وصل إحالة وإيهام وتحوك استنادا عليه خطابا ليس هو الواقع وإنّما هو مكتسب لواقعه الخاصّ به، فتنتفي الحدود الفاصلة بين الثقة والمشكوك في علمه المظنون فيه، ويلتقي عالم الخيال والأسطورة مع العالم الممكن، ولا حرج في ذلك.

إنّ في أخبار الجاهليّة الواردة في "كتاب الأغاني" أخبارا لبطولات أسطوريّة[2] ولشخصيّات تخرج في ما تأتيه من أفعال عن حدّ الشخص، وفيها من أخبار الغيبيّات، وأخبار أخرى تكون فيها الشخصيّات والأحداث قابلة لإمكان الحدوث، غير أنّه لا يمكن أن نحكم على الأولى بمفارقة الواقع وعلى الثانية بالتزام الواقع، ذلك أنّ العقليّة التي أنتجت هذه الصور خاضعة لشروط إمكان بها يصبح الخارج عن الواقع واقعا. فهنالك أخبار يُلمَح فيها منزع التسجيل والتحديد المكاني[3] أو الزماني[4] إثباتا لوقائع أو لشخصيّات تدور في الفضاء الجاهليّ كإنتاج جملة من الأخبار لبيان قصّة المكان

1 –« *chasteté de l'histoire* » Roland Barthes. « ***Le discours de l histoire*** ». Poétique n°49. Fevrier 1982. p16.

2– يتحدّث بلاشير في تاريخ الأدب العربي 145 عن "الأساطير المتعلّقة بالأمثال والمعطيات عن أيّام العرب ومناقبهم، ومفاخرهم أو مثالب بعض القبائل ومغامرات الشعراء الصعاليك."

3– انظر على سبيل المثال: "كتاب الأغاني": 11/ 130. "فدخلوا شعب جبلة. وجبلة هضبة حمراء بين الشَّريف والشَّرف، والشريف ماء لبني نُمير. والشَّرف ماء لبني كلاب. وجبلة جبل عظيم له شِعَب عظيم واسع، لا يُؤتى الجبل إلاّ من قِبَل الشِّعب، والشِّعب متقارب المدخل وداخله متّسع.."

4– انظر على سبيل المثال "كتاب الأغاني": 11/ 149. "وكان جبلة قبل الإسلام بتسع وخمسين سنة قبل مولد النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بتسع عشرة سنة"، و 17/ 232. "لمّا ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بسنتين، أتته وفود العرب وأشرافها..." و 17/ 231. وكان ملك أرياط عشرين سنة، وملك أبرهة ثلاثا وعشرين سنة، وملك يكسوم تسع عشرة سنة، وملك مسروق اثني عشرة سنة (...) وكان قدوم أهل فارس اليمن مع وهرز بعد الفجار بعشر سنين، وقبل بنيان قريش البيت بخمس سنين.."

المعروف في الكوفة بـ"دير هند"[1]، أو التثبّت من هويّة بعض الشخصيّات[2]، وأخبار أخرى تتجاوز كلّ حدّ ممكن على مستوى الإدراك العقليّ[3]، غير أنّ المجالين يلتقيان في وسم الجاهليّة.

لقد عرضنا في بياننا للتوجّه الذي يصدر عن الأخبار أصلا للتأريخ بعضا من القراءات التي اعتمدت خبر الزبّاء وجذيمة الأبرش حقيقةً تاريخيّة وأعادته كما ورد في هذه الأخبار، والحال أنّه داخل في باب القصص الجاهليّ التامّ القائم على الإثارة والتشويق، تكتمل فيه الشخصيّات وأفعالها، وتتنامى الأحداث وتتعاقد. وهو قائم على الثأر في حركة سرديّة أولى تؤسّس لمجال حدثي تكون فيه الزبّاء فاعلة وحائكة للحيلة لغاية الأخذ بثأر والدها من جذيمة. ويكون قصير صاحب الثأر في الحركة السرديّة الثانية إذ يأخذ بثأر جذيمة ويعمد إلى الحيلة المضادّة، وهو خاضع لتصريف الرواة لأحداثه، ولاستبطان السارد فيه للشخصيّات ونقله ما يدور من أقوال، وحضوره في مواقع مختلفة. ولقد انتبه أحمد أمين[4]، إلى هذا المستوى القصصي في الخبر،

1- ومن المظاهر التي تشدّ الخبر إلى الواقع أو هي توهم بوصله بواقع ما، تحديد الذات المتكلّمة للمكان وذكر موقعه تثبيتا للخبر وتأكيدا على صدقه "وحبست نفسها في الدير المعروف بدير هند في ظاهر الحيرة" (كتاب الأغاني: 2/ 109). عند حديثه عن ترهّب هند بنت النعمان، ويبدو أنّ مأتى هذه الأخبار وجود مكان في الكوفة يُدعى دير هند، وهو ما يؤكّده خبر المغيرة بن شعبة والي الكوفة إذ وفد على هند وهي بديرها لخطبتها، فرفضت ذلك (م.ن: 16/ 47). وهو ما يظهر أيضا في خبر تنصّر النعمان وآله من بعده "وبنت هند بنت النعمان بن المنذر الدير الذي بظهر الكوفة، ويقال له "دير هند" (م.ن: 2/ 112).

2- انظر على سبيل المثال "كتاب الأغاني": 23/ 227. "وكانت حرقة بنت حسّان بن النعمان بن المنذر يومئذ في بني سنان. هكذا في هذه الرواية، وقال ابن الكلبي حُرقة بنت النعمان وهي هند، والحرقة لقب، وهذا هو الصحيح..."، و 16/ 254. "هو عبد يغوث بن صلاءة وقيل: بل هو عبد يغوث بن الحارث بن وقّاص بن صلاءة وهو قول ابن الكلبي، ابن المعقل، واسم المعقل ربيعة ابن كعب الأرتّ بن ربيعة بن كعب بن الحارث..."

3- انظر على سبيل المثال خبر أميّة بن أبي الصلت، وما تأسّس عليه من أسطورة. 17/ 224.

4- أحمد أمين: *فجر الإسلام* 67

وأكّد أنّه رواية خياليّة موضوعة لا علاقة لها بالتاريخ "فخبر الزبّاء المروي في الكتب العربيّة عن هشام بن محمّد الكلبي، رواية خياليّة موضوعة لا تتّفق والتاريخ" وقد كان على وعي تامّ بأثر الصنعة الإسلاميّة في بناء أخبار الجاهليّة[1]. وقد كانت أحداث هذا الخبر قابلة للسرد[2] ولمختلف الصياغات في كتب الأخبار، فنحن نلحظ الخبر يُروى مؤنّثا وقد تهيّأت شخصيّاته وتواصلت، وتعالقت أحداثه واتّصلت، في "كتاب الأغاني" وهو يُروى خلوا من هذا التأنيث، في كتاب "الأخبار الطوال" وقد اقتصر فيه راويه على أحداثه الكبرى[3].

وفي خبر عديّ بن زيد تتركّز الذات المتكلّمة مصرّفة لما انتهى إليها من روايات صائغة للمادّة الحدثيّة، تحوك من الأصوات المتباعدة المختلفة صوتا واحدا مؤلّفا وأحداثا متّصلة يعلق بعضها ببعض ويُمهّد السابق منها للاّحق. ويتصرّف الراوي في الأحداث تقديما وتأخيرا وفي نقل ما يدور من حوار بين الشخصيّات، فهو يظهر ملازما للشخصيّة في الموقف الجامع بين زيد بن أيّوب ورجل من بني امرئ القيس الذين كان لهم الثأر قِبَل أبيه. ينقل الحوار الدائر بينهما وهما مختليان ولا شاهد على هذه الأقوال، ويغوص في ذات الشخصيّة يبدي ما كمن فيها من مشاعر "واستوحش من الأعرابي وذكر الثأر الذي هرب أبوه منه"[4]. علما أنّ الأعرابي طُلِب فلم يُدرك، وزيدا بن أيّوب مات في هذا اللّقاء فمن نقل ما دار بينهما من حديث؟ ومن غاص في

1- م.ن:ص 65.

2 -Jaques Bres: *« La narrativité »*. Champs linguistiques : Edition Duculot louvain-la-neuve Belgique. 1994. p 174.

3- أبو حنيفة الدينوري (ت 282 هـ): **"الأخبار الطوال"**. تحقيق عبد المنعم عامر. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دار إحياء الكتب العربيّة. الطبعة الأولى. 1960. ص54 "فلمّا مات (عمرو اللّخمي) خلفه من بعده ابنه جذيمة بن عمرو فزوّج جذيمة أخته من ابن عمّه عديّ بن ربيعة بن نصر، فولدت له عمرو بن عديّ الذي استطار من الجنّ، وله حديث، فلم يزل جذيمة ملكا بالخورنق زمانا حتّى دعته نفسه إلى تزويج مارية ابنة الزبّاء الغسّانيّة، وكانت ملكة الجزيرة، ملكت بعد عمّها الضيزن الذي قتله سابور فقتلت جذيمة ثم قتلها قصير مولاه."

4- *"كتاب الأغاني"*: 2/ 82.

نفس زيد بن أيّوب ليعلم ما دار في خلده من توجّس وخيفة؟ ومن نقل الأفعال الحاصلة بينهما؟

وهو يتصرّف في الإرجاء واختيار الأحداث والتركيز على البعض وإهمال البعض الآخر، ففي حديثه عن زواج عديّ بن زيد بهند بنت النعمان يذكر الحدث إجمالا في إيراده لقصّة عديّ بن زيد ويرجئ قصّته مع هند إلى موقع لاحق "ولم يزل على حاله تلك حتّى تزوّج هند بنت النعمان بن المنذر، وهي يومئذ جارية حتّى بلغت أو كادت. وخبره يُذكر في تزويجها بعد هذا"[1].

وهو في صورة من صور تفاعل الأخبار، يُداخل بين الروايات، فيُغلّب صوتا على آخر وصياغة على أخرى، وخذ مثالا على ذلك: "ثمّ ذكر من قصّة النعمان وإخوته وعديّ وابن مرينا مثل ما ذكره ابن الكلبي"[2] في أخبار عديّ بن زيد.

ونلحظ في خبر أبي زبيد وجود رواية الشخصيّة التي تكون طرفا ثنائي الدور فهي شخصيّة مساهمة في الأحداث داخلة فيها وهي في ذات الآن راوية هذه الأحداث من حيث شهادتها على وقوعها في محاورة تُجعل بينه وبين عثمان بن عفّان، الذي يُوفّر مقام إنتاج الخبر، إذ يُجمَع والشخصيّة الراوية ويسأله عن قصّته مع الأسد، "أخبرني أبو خليفة الفضل بن الحُباب الجمحي إجازة قال: حدّثني محمّد بن سلاّم الجمحي قال حدّثني أبو الغرّاف قال: كان أبو زبيد الطائي من زوّار الملوك وخاصّة ملوك العجم، وكان عالما بسيرهم. وكان عثمان بن عفّان رضي اللّه تعالى عنه يُقرّبه على ذلك ويدني مجلسه، وكان نصرانيا. فحضر ذات يوم عثمان وعنده المهاجرون والأنصار، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارها. قال: فالتفت عثمان إلى أبي زبيد وقال: يا أخا تبّع المسيح أسمعنا بعض قولك، فقد أنبئت أنّك تجيد، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

من مبلغٌ قومنا النائين إذا شحطوا أنّ الفؤاد إليهم شيّق ولع

1- م.ن: 2/ 87.

2- م.ن: 2/ 94.

ووصف فيها الأسد. فقال عثمان رضي اللّه تعالى عنه: تاللّه تذكر الأسد ما حييت. واللّه إنّي لأحسبك جبانا هدانا. قال: كلاّ يا أمير المؤمنين، ولكنّي رأيت منه منظرا وشهدت منه مشهدا لا يبرح ذكره يتجدّد ويتردّد في قلبي، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غير ملوم. فقال له عثمان رضي اللّه عنه: وَيْ كان ذلك؟ قال: خرجتُ في صيّابة أشراف من أفناء قبائل العرب...."[1]

فالخبر من حيث هو خطاب أدبي يُقدّم بما يصوغه من مشاهد وشخصيّات وأحداث رؤية للكون[2].

إنّ الأخبار لا ترصد الجاهليّة واقعا تاريخيّا وإنّما هي ترصد صورا متعارضة متقاربة للجاهليّة، صورا موصولة بمنزلة النظر وبمنزلة الناظر وبمنزلة الراوي، وبطريقته في الصياغة وبالمقام الذي حدا به إلى أن يورد الخبر، ويمكن أن نوجز المقامات الفاعلة في صياغة هذه الأخبار وفي رسم صورة عن الجاهليّة لا تطلب الموضوعيّة وإنّما هي رامية إلى تحقيق مقاصد من هذه الصورة على علاقة بالرابطة التخاطبيّة:

المقام السياسيّ: وآثاره ظاهرة في أخبار محكمة الصياغة تتوجّه ناحية الوعظ السياسيّ وبيان حيل الساسة وشتّى مكائدهم وما يُجابهون به من نزاع ومكائد[3].

ولعلّنا نتبيّن اجتهاد الراوية في ترشيح أخبار وانتقائها بغاية الإقناع بصورة تُركّز للشخصيّة توافق هواها. ففي رصده لصورة أبي سفيان-على سبيل المثال- يُورد من الأخبار ما فيه إساءة لشخصه، فهو "عدوّ الإسلام"، صاحب مكائد، قد أساء

1- 12/ 118. 119.

2 - « *une version du monde* ». Thomas Pavel : « ***Univers de la fiction*** ». collection Poétique. Edition du seuil 1988. p20

3- ردّ هذه الأخبار إلى الصراع السياسي والشعوبي وإثبات دخولها في مقام التفاخر في الإسلام عاملا أساسيّا من عوامل بعثها. انظر على سبيل المثال موسى سليمان: "***الأدب القصصي عند العرب***". دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة الطبعة الخامسة 1983 ص71.

وأنّ قسما من الأخبار داخل في وضعه في النزاعات القبليّة بعد الإسلام وأنّ -على سبيل المثال- "في قصّة إساف ونائلة نيل من قريش التي كانت تخصّهما بالنقوش" جواد علي 6/ 267.

للرسول ولرسالته، وهو مُظهِرٌ عداء هذه الذات لسلطان بني أميّة، فنراها تتّخذ منه موقفا صريحا بالعداء بعد أن شكّك في إسلامه وركّزه نموذجا لتواصل الجاهليّة، يُعمّق نفاقه وعدم صفائه إذ أسلم ، فبعد أن أورد عددا من الأخبار في هذا الشأن يقول "ولأبي سفيان أخبار من هذا الجنس ونحوه كثيرة يطول ذكرها، وفيما ذكرت منها مقنَع"[1] وهذا القول الذي يختم به سلسلة أخبار أبي سفيان هو صوت هذه الذات وليس قول الرّواة المنقول. وكأنّه يصبو من إيراد هذه الأخبار إلى الإقناع بصورة أبي سفيان التي أسّسها من جملة الأخبار المروية.

ومن هذه الأخبار التي يذكر " دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كفّ بصره، فقال: هل علينا من عين؟ فقال له عثمان: لا. فقال: يا عثمان إن الأمر أمر عالميّة، والملك ملك الجاهليّة، فاجعل أوتاد الأرض بني أميّة"[2].

المقام التعليميّ

إنّ أخبارا عديدة تنشدّ إلى المقصد التعليمي على مستوى الاعتبار والوعظ، يقول موسى سليمان: "هنالك نوع آخر من الحكايات القصيرة أو الأخبار المروية، وهو الحكايات التعليميّة، وإن لم يكن هدفها الأساسي الوعظ والإرشاد. فحكاية تنصّر النعمان بن المنذر وضعت لتعطي درسا لهذا الملك فيترك عبادة الأوثان إلى عبادة اللّه الواحد"[3].

المقام الإبداعي:

وهو موصول أساسا بأخبار وُضعت لتأدية المتعة القصصيّة، ويدخل في هذا الباب قسم من أخبار البطولة وأخبار القيم أساسا، ويغلب على هذه الأخبار التشويق والبنية القصصيّة الواضحة، وهي أخبار تُشكّل ظاهرة مهمّة يمكن منها أن نتبيّن بداية القصص العربي، وخذ مثالا على ذلك خبر عديّ بن زيد وخبر جذيمة الأبرش وجملة أخبار الصعاليك وأخبار حاتم الطائي....

1- *كتاب الأغاني*: 6/ 335.

2- 6/ 334.

3- موسى سليمان: ص71. 72.

وعموما فإنّ هذه الأخبار لم تكن خلوا في وضعها من مقاصد أرادها لها واضعوها[1]، فهي لم تُوضَع لغاية التأريخ، ولم تُجمع أيضا لتحقيق هذا المقصد، وإنّما هي ناتجة عن وضع حضاريّ مخصوص ساهم في بزوغها ونمائها ومشدودة أيضا إلى مقاصد تحكّمت فيها الحالات التخاطبيّة، على مستوى تعليميّ داخل العلاقة التخاطبيّة القائمة بين الشيخ المعلّم وتلاميذه، يبحث عن أسباب لقول الشعر أو عن تأطير نثريّ لأشعار الجاهليين المرويّة، أو عن فكّ مثل يُروى أو عن ضبط نسب تحفّ به أخبار داعمة له، وعلى مستوى سياسيّ هو جامع بين المقصد التعليمي الوعظي والمقصد الإمتاعي الذي توضَع فيه الأخبار لتحقيق متع يطلبها المخاطَب من إنصاته لها، والراوية في هذا المقام مُلزَم بمراعاة حال المخاطَب وتحقيق آفاق تقبّله، فالمخاطَب السياسيّ يطلب الخبر لا لغاية بيان الصدق والحقّ، وإنّما هو باحث في الخبر عن مقصد ينبغي أن يتبيّنه الراوية حتّى يتحقّق له القبول الحسن، بحثا عن مجد تليد منغرس في عمق التاريخ، أو تأصيلا لنسب أو رغبة في متعة تتحقّق له وتقع منه موقع القبول لا موقع الرفض. وهنالك من الأخبار ما هو موضوع في مقامه العامّ لغاية تحقيق المتعة، وهو يظهر في الأخبار التي يعلو فيها المستوى القصصي.

إنّ ما حدا بنا إلى إثارة مسألة وصل الخبر بالتسجيل والتأريخ من جهة وبالصياغة والابتكار من جهة ثانية هو صدور بعض الدارسين عن اعتبار الخبر أصلا

1- يقول طه الحاجري: "هذه الحركة الأدبية القصصيّة التي نشأت حول أشعار الفرزدق وجرير والراعي والبُعيث وابن لجأ التيمي الصّلتان العبدي وغيرهم من شعراء هذه البادية في القرن الأوّل هي الأصل في اجتماع ذلك الفيض الزاخر من أخبار الحياة الجاهلية المختلفة في تلك الفترة من الزمن وفي ذلك الإقليم. وقد يكون من هذه الأخبار ما هو صحيح، وقد يكون منها ما هو مبالغ فيه، وما هو مختلف موضوع، ولكنّها جميعا تشترك في أنّها صورة للحياة العربية البدوية. والأصل فيها هو تلك الخصومات القبلية أوّلا ، ثمّ ما نشأ عنها من خصومات شعريّة، ثمّ لم تلبث هذه الأخبار والأقاصيص أن صارت مادّة من موادّ الدرس والطلب في بيئات البصرة الأدبيّة والعلميّة، تلتمس لذاتها ولما فيها من متعة فنيّة، وتلتمس لما فيها من تصوير للحياة الجاهلية العربية، وتلتمس لما تتضمّنه من تفسير لشعر هؤلاء الشعراء. وقد جاء أبو عبيدة فجعل يطلبها في حلقات الدرس كما جعل يلتمسها عند أولائك الأعراب." *أبو عبيدة* ص289.

من أصول التأريخ، وإضرابهم بذلك عن درجة حضور الراوية في الخبر من حيث هو عنصر فاعل في صياغته داخل في منظومة حضاريّة وعقديّة وسياسيّة توجّه بطريقة أو بأخرى صياغته لمعاني هذه الأخبار وصناعته لصورة عن الجاهليّة من منطلق ذاتي – ولا نقصد بالذاتي محض الرؤية الخاصّة بالراوية وإنّما نقصد بها أيضا وجود الراوية ذاتا منفعلة وفاعلة في الفضاء الحضاري الذي يحتويها- ومن زاوية نظر خاصّة، ولذلك فإنّ هذه الصورة لم تكن في أغلب الأحيان قائمة على الانسجام والتوافق، وإنّما نجد من السمات التي توسم بها الجاهليّة ما يعارض بعضها البعض وتُنقَل من النقيض إلى النقيض. فلقد كان للحاضر دور مهمّ في صياغة صورة الماضي[1]، وكان للرواة بذلك على اختلاف منازلهم من الرواية وتعاقب أزمنتهم الدور الفاعل في صناعة صورة عن الجاهليّة تخرج عن حدّ التاريخي والواقعي لتعتبر واقعا من الصراع في الإسلام متحكّما في صياغة هذه الأخبار.

ونخلص من كلّ هذا إلى أنّ الخبر يعسر أن يكون مصدرا رئيسا للتأريخ، وإلاّ فإنّه يخرج عن نوعه ويجافي جنسه. إلاّ إذا كان التاريخ قائما في ذاته على القصص والحكايات، وهو فهم مخصوص للتاريخ يصبح بمقتضاه قصصا.

فإذا كان التاريخ[2] في جوهره تصوّرا مخصوصا لمرحلة من الزمن وليس ضبطا دقيقا للظواهر وحدّا موضوعيّا للشخصيّات الحاصلة فيه، فإنّه يمكن الانطلاق من الأخبار صورةً من صور تاريخ الجاهليّة، ولا يمكن آنذاك وسمها بالتعارض أو

1- بلاشير في تاريخ الأدب العربي ص 193 "..فإنّ علماء العراق كغيرهم من علماء القرون الوسطى يؤرّخون الماضي بواسطة استعارات من عصرهم.

2- يقول عزيز العظمة في حد التاريخ: ص12 "ليس التاريخ علما للواقع بل معرفة بخبر عن الواقع"، وهو يُدخل التاريخ في مجال الخبر ص16 "فالتاريخ، حسب التعريف الأكثر منهجيّة ونسقا في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، هو صنف من علوم الخبر التي تتضمّن أيضا السير والقصص والأنساب والآثار: فهو علم أدبي (أدبي بما هو ليس شرعيّا) يتناول الأعيان في نثر متّبع بحسب المعنى دون اللّفظ."

التناقض[1] بسبب من قيام الصورة على جانب مهمّ من الذاتيّة في صياغتها. غير أنّه لا يمكن أن يُنزَّل منزلة الناسخ الناقل للواقع، يعبّر عنه كما هو ولا دور له سوى النقل، فهو في هذا المحلّ يُعَدّ وثيقة وتسجيلا لما هو حاصل في الواقع الموضوعيّ المعاين[2]، فيخرج بذلك عن كون التصوير إلى كون التسجيل، وهو ما لم يتوفّر في أخبار الجاهليّة. ولقد أشار حمّادي صمّود إلى ما به يتّصل الخبر بالأدب فيؤسّس عالمه الخاصّ به ويضمحلّ به وجوده الإحاليّ النسخيّ، إذ أبان وجود مسافتين بهما يخرج الخبر عن حدّ التاريخ والاقتصار على نقل الوقائع ومعاينتها إلى ضرب من الصياغة وتقديم رؤية مخصوصة للحدث المصوّر وهما: مسافة الفعل وذكرى الفعل، ومسافة الحدث والتعبير عن الحدث باللّغة. وباضمحلال هاتين المسافتين يتحوّل الخبر من الإنشاء والتكوين إلى النسخ والنقل[3].

إنّ الخبر يُقدم صورة عن الجاهليّة، والصورة دوما زوغ عن الواقع وضرب من ضروب التشويه له. فهي ناتجة من أثر النصّ وليست نسخا للحقيقة[4]، وليست الواقع في ذاته، وإنّما هي نتاج جملة من التفاعلات التي تُخرجها –وإن صدرت عن واقع– واقعا جديدا، إذ تكتسب خصوصيّتها من كونها خطابا قائما باللّغة ينبع من ذات خاضعة لتشكيل حضاري

---

1 – ناصر الدين الأسد: ص 42. "وكان من أثر هذا الذي قدّمنا أنّ أخبار حضارة الجاهليّة جاءت في هذه الكتب ناقصة شائهة، ثمّ متناقضة متنافرة في الكتاب الواحد للمؤلّف الواحد. ولكن الصفة الغالبة والسمة الظاهرة التي لا يكاد يشذّ عنها كتاب قديم هي وصف تلك الجاهليّة بأنّها كانت قليلة الحظّ من كلّ عمران ورقيّ، بعيدة عن كلّ مظهر من مظاهر الحضارة والمدنيّة وأنّ العرب كانوا أمّة أميّة جاهلة لا حظّ لها من علم أو معرفة أو كتابة."

2– صمّود: "من تجليّات الخطاب الأدبي: قضايا نظريّة" ص 18

3– صمّود: "*من تجليّات الخطاب الأدبي: قضايا نظريّة*" ص.20 "وإذا اضمحلّت هاتان المسافتان الرئيسيّتان خرج الخبر عن دائرة الكتابة الأدبيّة، ليلحق بدائرة النقل والرواية والأخبار المحقّقة، التي يجتهد أصحابها أيّما اجتهاد في إفراغها من كل طموح إلى إعادة صياغة الأشياء باللّغة صياغة جديدة، وتصريفها وجوها من التصريف تربطها بمعادن الخلق والإنشاء."

4 –Kerberat. O. « ***les interaction verbales*** ». Tom II p.13. « *La parole est toujours caresse ou agression jamais miroir de vérité.* »

يؤثّر في إنتاجها لهذه الصورة. وإذا كان الوصف هو القادر على تمثّل الموضوع المصوّر فإنّ الجاهليّة بقيت فضاء غائما غير واضح الملامح بسبب من فقر نصوصه للوصف. إذ ينتفي عن هذه الأخبار الواقع في جزئياته البسيطة بغياب الدلالة عليه، فالأخبار لا تهتمّ بالأشياء الدقيقة وإنّما هي متوجّهة إلى بيان كبرى الفعال، فيغيب "الواقع المعاين الملموس"[1] بغياب "الترف السرديّ"[2] وبافتقار الصورة إلى ما يوضّحها ويبين دقائقها، إذ هي صورة موجّهة مقصورة على الأفعال الكبرى، قائمة على التسريع السرديّ، وهو أثر حاصل عن التحاكك[3] بين زمن القول وزمن المادّة المقولة [4]. فأثر الواقع[5] ظاهر في هذه الأخبار، إنّه واقع إنشاء الخطاب لا واقع الخبر (histoire).

إنّ الواقع في تصويره يظلّ خاضعا لوجهة النظر ولدرجة تفاعل المصوّر مع الموضوع الذي يصوّر، وهو بهذا يخرج عن حدّ الواقعيّ والخارج عن الواقع، فالواقع لا يمثّل وحدة موضوعيّة، وإنّما هو مختلف الوقع في الذوات. وعلى هذا فقد كانت الجاهليّة مجالا للتصوير خاضعا لمختلف وجهات النظر التي صوّرتها من مواقع متغايرة وبصياغات تتنوّع بتنوّع المقصد الذي يروم الراوية بلوغه.

لقد حاولنا طيلة هذا البحث أن نتبيّن ما رصَدته الأخبار من صور لجاهليّةٍ، هي واقعة في أنفس رواتها ومثيريها مواقع متباينة، تتراوح بين تركيزها مصدرا للقيم الأخلاقية والفنية وبين نكران مظاهرها وتثبيت حياة الفوضى، والحاجة إلى دافع يخرجها من "العتمة" إلى "النور". فلقد جمعت الجاهلية في تصوير الأخباريين لها بين سمتين متعارضتين متضادّتين، سمة تُوفّر قيما أخلاقية فاضلة سائدة، تُعرِّف الجاهليّ بالإفراط في الكرم وبحسن الجوار وبنجدة المظلوم، وسمة يظهر فيها الجاهليّ طالب دماء، يعيش

1 – « *réel concret* ». Roland Barthes : « ***l'effet de réel*** » in « ***littérature et réalité*** ».Edition du Seuil. 1982. p 86.

2 –« *le luxe de la narration* ». Barthes: « ***l'effet de réel*** » p 82.

3 –« frottement »

4 –Barthes. « ***Le discours de l histoire*** » p14. « *matière énoncé* ».

5 –Barthes : « ***l'effet de réel*** » p15. « *déchrologiser le fil historique* »

بالقتل والنهب والقوة والبطش. وهما سمتان ناتجتان عمّا ورد في الأخبار من تعارض في وسْم المجال الجاهلي، يُعمّق صلتها بالذاتيّة ويُبَعِّدها بقدر عن طلب الموضوعية، وهما سمتان ناتجتان أيضا عن مواقف دارسي الجاهلية من هذا الفضاء إيمانا برفض الإسلام لها بحدوثه نظاما عقديّا واجتماعيا مغايرا محقّقا لحال اجتماعية وعقيدة سويّة تُرْجَى، ويُمَهَّد لها.

وعلى ذلك فقد سعينا إلى تتبُّع هذه الصور على تضادّها وتعارضها، ووَصَلْناها بجملة المقامات المذكورة في الباب الأوّل، وهي علّة تُوفّر هذه الصور على مظاهرها المختلفة.

ونتهي من كلّ ذلك إلى إثبات غلبة الصورة الباهرة، وتركيز الجاهليّة في أغلب مظاهرها أصلا يُقْتدى، وهو ما وجدناه وفيرا في الأخبار، احتفاءً بالنماذج العليا، وبالقيم الفاضلة، وبالبطولات الخارقة. ومنه نُدرك أنّ تعامل الرواة مع الجاهليّة لم يكن تعاملَ ردٍّ ورفض وإنكار وإساءة، وإنّما كان في وجه من وجوهه رجوعا إلى أصل مجيد وماض فيه تتحرّك الشخصيات المثاليّة، وتُوجِد الأفعال الفاضلة في صورتها المطلقة. غير أنّه رجوعٌ لاستقاء نماذجَ يُتّكأ عليها لنقد الحالّ وبناء مُقْبل أفضل. فلقد أدركنا من جملة المسائل التي أثرناها في هذا الباب أنّ الجاهلية خاضعة في إنتاجها إلى جملة من المقامات المتداخلة التي أثّرت في رصد صور قائمة على الترغيب فيها أو التنفير منها، وتنزيلُنا الصورة منزلة الترغيب أو التنفير هو محض إجراء لا يدخل ضمن الوسْم التاريخيّ، ذلك أنّ الحدّ الحاسم بين الصورتين عسير، إذ تظلّ الصور متداخلة من ناحية، ويبقى الترغيب والتنفير فعل حاصلين في زمن التلقي ودرجات المقاربة، فما يُتَمَثَّل سلبا قد يكون إيجابا والعكس صحيح. فأغلب الصور الخاصّة بالجاهلية واقعة في موقع تماسّ بين هذين الحدّين، وهو الأمر الذي عَسَّر تتبّع هذه الصور وإرجاعها إلى مقام خاصّ بها. ولقد انتهينا إلى وصْل الأخبار بتصوير المجال الجاهليّ دون التأريخ له، وهو تصوير داخل فيما تدخل فيه أشكال الأدب في صورتها العامّة، من تصوُّرٍ خاصّ بصاحب الصورة يوجّه خطابه إليه، ومن مقاصد جليّة أو خفيّة يسعى إلى بلوغها.

وعلى ذلك فقد حاولنا أن ننظر في أثر الرواة على اختلاف مواضعهم ومنازلهم في إخراج صور عن الجاهليّة مخصوصة وفقا لثقافتهم الغالبة ووفقا لمنطلقاتهم المعرفيّة والعَقديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، ومنه أيضا كان نظرنا في مَحلّ الذات المتكلّمة من الخطاب ودورها في تصريف أخبار الجاهلية وتطويعها إلى مقتضيات العصر الذي فيه نتج الخبر. فالخبر إذ يتّخذ من الجاهليّة مجالا يُصوِّرُ واقعَ حالٍ بما فيه من تنازع وتخاصم وبما فيه من فكر وأدب، فمن أخبار الجاهليّة يمكن أن ندرك صورة عن المخاطب الحاضر زمن إنتاج الخطاب، غير أنّ إشكالا يعترضنا فيُعَقّد بيان صورة هذا المخاطب، وهو أنّ الخبر لا يحوي صورا مختلفة للمتكلمين فحسب وإنّما هو أيضا بحكم ارتحاله وروايته في أزمنة مختلفة يحوي عددا من المخاطبين. ومنه يتأتّى الإشكال في بيان المقامات التخاطبيّة فيه. غير أنّ وفْرة الاتّكاء إلى المجال الجاهلي وغلبة الصورة الباهرة، المرغِّبة مسائل يمكن أن تحيلنا إلى أنّ الخبر لم يكن مرآة منها يُنظَر إلى الجاهليّة بقدر ما كان تمثُّلا واضحا لواقعٍ حاصلٍ افتُقِدت فيه قيمٌ وبطولات ونماذج هي مقصد أصحاب الفكر، الذين سعوا إلى بنائها في المجال الجاهلي أو الانطلاق من هذا المجال واعتماده نواه لغاية بناء نماذج تُقتَدى ويُضرَب بها المثل.

الخاتمة

لقد سعينا طيلة هـذا البحـث إلى أن ننظـر في صـورة الجاهليـة في أخبـار كتـاب الأغاني، وعَقَدْنا على هذه المسألة جملة من الأبواب حاولنا منهـا أن نـدرك خصـائص هذه الصورة التي ترصدها الأخبار، فبلغنا في ذلك نتائج إن لم تكـن في مجملـها إيجابيـة فإنّها ناتجة عن مجهود قد يُيَسِّر أمر البحث في قضايا الخبر الشائكة.

وقد أدركنا أنّ الخبر يَعسُر أن يُـدرس بنيـةً مغلقـة خـارج دائـرة المقامـات الـتي أنتجته، فهو موصول في كامل مراحل إنجازه بعوامل مؤثرة في بنيته، مـؤثرة في أغراضـه ومقاصده.

فالخبر المصوِّر للجاهلية ناتج عن جملة من المقامات التي أثّـرت عميـق التـأثير في توجيهه وتحديد معالمه، وعن مصادر اختصّت برواية أخبار الحياة العربيّـة في الجاهليّـة، وعن اجتماع هذين العاملين توفّرت أخبار عن الجاهليّـة ناتجـة عـن مقامـات احتوتْهـا ووَفّرت لها المناسبة للظهور والرواج، وعن مصـادر حاكَتْهـا وصـاغت وقائعهـا علـى هيئات مختلفة.

فلمقامات الإنتاج دور مهمّ في بعث هذه الأخبار وتوجيه مقاصدها، ولقد أبرزنا مقامين اعتمدناهما عاملين فاعلين في تكـوين أخبـار الجاهليـة وإنشـائها، وهمـا المقـام السياسي ومقام رواية الشعر، وإن كنّا لا نعدم مقامات أخرى يمكن أن تُعتمـد في هـذه الدراسة، وأن تُوسِّع من دائرتها.

ووقوفنا عند هذين المقامين داخل في إطار ضبط طرائق اشتغال الصـورة، إذ أنّـا نعتقد أنّ المقام له الدور الفاعل في توجيه مناحي الأثر الذي يحتويه فيَسِمُه بسماته.

وقد تبيّنّا من دراستنا لإنتاج الخبر التأثير البيّن للمقام السياسـي في إنشـاء الخـبر وتغذيّة روايته وفي الحثّ على العودة إلى الجاهلية.

فلا ريب أنّ المقام السياسي بجانبيه سائدا سياسيّا وعصبيةً قبليّة، قد أثّر في إنشـاء هذه الأخبار وفي توجيه مقاصـدها، فالسـائد السياسـيّ قـد رَكَـن إلى تـاريخ الجاهليّـة

موضوعا للمسامرة ولإثبات الذات إثارةً للمآثر وبعثا للضغائن، وقد وفّرت الجاهليّة لهذا السائد مجالا رحبا لتحقيق جملة هذه المقاصد. وبسببٍ من كلّ ذلك كانت العناية بأخبار الجاهليّة ووفْرَتها.

فالمقام السياسيّ هو الأقدر على توجيه الرواة وضبط الموضوع الذي يُصرَفون إليه، وهو ما مثّل بدءَ تَحوُّل الجاهليّةِ إلى موضوعِ إخبارٍ يُحتَفى به.

وقد مثّل النزاع القبلي السائد في الإسلام أرضا خصبة لتغذيّة العودة إلى الجاهليّة أخبارا وأشعارا. وقد أظهرنا أنّ جملةً من الصراعات قد طغت في ظلّ الخلافة الأمويّة، منها ما هو دائرٌ بين القيسيّة والكلبيّة، ومنها ما هو دائرٌ بين الهاشميين والأمويين، ومنها ما هو دائر بين الأنصار والمهاجرين، وقد كانت كلّ هذه الصراعات القَبليّة منضوية تحت لواء سياسيّ في إطار تشتّت الولاء ووفْرة المنازعين على الخلافة، ومنه كان المدخل لبعث صراعات كانت الجاهليّة مجالها، صياغةً لبطولاتٍ وأمجاد منغرسة في عمق التاريخ، أو بيانا لمثالب تُخصَّص للقبائل المعادية، وهو ما يفسّر ما حاولنا بيانه في الباب الثالث من هذه الدراسة من اشتغال صورتين متعارضتين عن الجاهليّة، صورة الحياة الباهرة وصورة الحياة المنفّرة.

وأمّا المقام الثاني الذي شكّل مناسبة لرواية أخبار الجاهليّة والبحث عنها، فهو مقام رواية الشعر، وقد اقتضى هذا المقام تقديم عدد مهمّ من أخبار الحياة العربية في الجاهليّة، فعن رواية الشعر الجاهلي تَوفّرت أخبار عديدة، تتراوح في وجودها بين وضع التابع الملتزم بإعادة ما ورد في الشعر وفكّ المنظوم، وبين التقديم له وتأثيثه وبيان أسباب قوله، وهو منزع لجأ إليه رواة الشعر بغاية تأطير رواية الشعر الجاهليّ ووَضْعه في المقام الذي كان نتاجه. وعن رواية الشعر الإسلاميّ أيضا نتجت أخبار عن الجاهليّة سببُ وجودها هو تفسير ما وَرَد في هذا الشعر من معان راجعة إلى الجاهلية، وقد مثّل "كتاب النقائض" النموذج الأوفى لهذه الظاهرة.

فأدركنا من هذه المقامات أنّ رواية أخبار الجاهليّة لم تكن بمعزل عن جملة من العوامل التي ساهمت في بعثها وأثّرت في توجيها، وهو المهاد الذي عنه صَدَرنا لبيان

اتصال تصوير الحياة العربية بالذاتي وابتعادها عن الموضوعي، وهو أيضا ما مثّل بذرا أوليّا لمسائل أثرناها في الباب الثالث من البحث.

فإذا ما تمّ لنا هذا الأمر من بيان المقامات التي اشتغلت فيها أخبار الجاهليّة ووفّرت لها المهاد للظهور والرواج، كان لزاما علينا أن نثير مبحث المصادر الروائية التي عملت على إنتاج أخبار الجاهلية، ذلك أنّ هذه الأخبار لم تكن لتظهر لولا وجود رواة تخصّص قسم منهم في روايتها وبعثها.

وبسببٍ من ذلك فقد عملنا على تثبيت جملة من المواضع في الإسناد منها حاولنا تبيّن الرحلة التي يقطعها الخبر، وهي رحلة بالرغم من إثباتنا لوجه من الحقيقة فيها فإنّها تظلّ خاضعة لمختلفٍ من التحويرات الداخلة على الخبر المنقول، قد تُبدِّل منه وتفعل فيه فعلا كبيرا، وهو سبيلنا لإثبات مسألتين على غاية من الأهميّة، سبيل النقل وهو خصيصة الثقافة العربية الإسلامية، وسبيل التصرّف في المنقول وفقا لحاجات العصر الذي فيه يُروى الخبر.

إنّ الأسماء الواردة في الأسانيد، هي أسماء يَشفُّ وجودُها عن مواضع في رواية الخبر لها بالغ الأهمية، فتتوزع إلى أصلٍ عنه ينتج الخبر ويُبعَث وقناةٍ تَتلَقّفه هي مَعْبَرُه ومسلكه، وداخلَها مواقعُ في الرواية متعدّدة، بين أصواتٍ باهتة لايبدو لها من أثر في تصريف الخبر، وبين مواقع تُظْهِر داخل القناة رواةً رؤوسا لهم فيما يُروَى نظرٌ ورأي، يَرُدُّون الخبر إلى الخبر، ويتثبّتون منه، ويُوحِدُون الروايات، لينتهي الخبر في آخر المطاف وقد حُفِظ تدوينا واستَقَرَّ وهَجَعَت فَوْرتُه.

وهذه الأصوات الراوية على اختلاف مواضعها في الرواية تُبين عن وجود أشخاص حقيقيين تخصّصوا في الرواية، أشخاص أدركنا وجودَهم بما خلّفوه من مؤلّفاتٍ، هي مرجع النظر بالنسبة إلى صاحب "كتب الأغاني" أو بما يُذكَر عنهم من أخبارٍ تَفَرّغهم للرواية وانصرافهم إليها. فالإسناد في هذه الأخبار ليس دُرْجَة وهميّة يُقصَد منها تثبيت علاقة الخبر بالواقع، وإنّما هو في وجه من وجوهه ردُّ الخبر إلى مصادره، وكِشْفٌ عن طرائق تبادل المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية. وعلى ذلك فقد لاحظنا أنّ الرواة المصادر يتحمّلون من القول ملكيّته وينتهي عندهم الإسناد،

وهو ما يُحْدِث في أحيان عديدة قطيعةً بينهم وبين الزمن الذي تُرَدُّ إليه أحداث الأخبار.

إنّ أغلب الأخبار لا يتواصل الإسناد فيها إلى الجاهليّة وإنّما هي أخبار مقطوعة، تصدر في الغالب الأعمّ عن أحد الرواة المصادر الذين تخصّصوا في رواية أخبار الجاهلية، ومن ذلك كان استنادنا إلى جداول فيها حاولنا ضبط أغلب أسانيد هذه الأخبار وتقسيمها وفقا للمواضع التي ذكرنا، ومنها حاولنا أن نقدّم إحصاء كانت خلاصته غلبة مطلقة للأسماء المصادر التي تَرِد مرّة واحدة، لتوفّر عددا مهمّا من المصادر المجهولة، وكانت خلاصته أيضا أن أدركنا غلبةً بيِّنة للرواة العلماء الذين اختصّوا برواية الحياة الجاهلية، فكان أبو عبيدة في المحلّ الأوّل، ولا غرابة في ذلك فقد صدرت عنه رواية أغلب أخبار الأيام واتّكأ عليه الأصبهاني في رواية هذه الأخبار، وكان أبو عمرو الشيباني في المحلّ الثاني، وكان ابن الأعرابي في المحلّ الثالث، ثمّ بعد ذلك كان هشام بن الكلبي ومحمد بن السائب الكلبي وابن الأعرابي والمفضّل الضبّي والأصمعي، وهي الأسماء المتعاودة، والتي تحتلّ المواقع الأولى في رواية أخبار الجاهلية، وأمّا ما عداها فإنّه يختصّ برواية أخبار مفرَدة أو برواية أخبار قليل عددها.

وعلى هذا فإنّ للرواة الأول فضل بعث الأخبار ولشقٍّ من الرواة الثواني فضل نقلها والحفاظ عليها، غير أنّ هذه المواضع التي أثبتنا مصادر إنتاج أو نَقَلَة حَفَظَة ليست دقيقة وحاسمة وإنّما فيها من تبادل المواقع وتَحوُّلِها ما هو حقيق بالاهتمام، وعلى ذلك فلا غرابه أن نلحظ أحد الرواة الأوَل يتحوّل ناقلا لخبر له صاحب أوّل. إضافة إلى أنّ الرواة الرؤوس لهم تصريف لهذا المنقول، وتصريفهم ليس بالضرورة تحويرا له وقلبا وإنّما هو ظاهر في الجمْع والتقصّي والمقارنة بين مختلف الروايات.

عدّةٌ هي الأصوات والمواضع، مسافةٌ مهمّة يَقطعها الخبر، وهو في كلّ محلّ خاضع لمختلف الإضافات والتوضيحات منذ انطلاقه وإلى منتهاه، وقد أُسِر في خطٍّ يُدَوَّن به، فهل يظلّ الخبر محافظا على ذات المقاصد التي عليها نشأ؟ وهل هو بخروجه من زمان إلى زمان يكتسب معاني جديدة هي فاعلة فيه؟

فإذا ما بذرنا هذه العوامل الفاعلة في إنتاج الخبر، ونزّلناه منزلته داخل مقامات لها دور مهمّ في بنائه وتحديد مقاصده، كان لنا أن نخصّص قسما للنظر في بنية هذه الأخبار ومختلف الطرائق التي اعتُمدت لصياغة صورة الجاهليّة، وأن نُظهر الأدوات التي اتّكأ عليها الرواة وسائطَ تعبيرٍ على علاقة بشكل أو بآخر بالمقامات التي تظلّ عنصرا فاعلا في تصريف وقائع الجاهلية وبناء نماذجها.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على ثلاثة عناصر، هي البنية الحدثيّة للخبر، وتَراوح الخبر بين الاقتصاد والإضافة، وتفاعل الأخبار لإخراج الصورة، وقد عُدّت هذه الوسائط من خصال الخبر في صورته العامّة، وهي داخلة في شروط إمكان الخبر شكلا أدبيا، غير أنّا حاولنا بيان اشتغالها لتصوير المجال الجاهلي، وقَصَرنا النظر في إجرائها على المدوّنة المعتَمدة.

وقد خلصنا من دراسة المستوى التركيبي إلى أنّ الأخبار تتنوّع محاورُها الحدثيّة وتختلف، غير أنّها يمكن أن تجتمع في جملةٍ من الأوضاع العامّة، وضع أوّلي، يتحقّق عبر عدد من الأحداث وفقا للمحور الغرضي الذي يَدخل فيه، فهو ظاهر في حدث الخروج في أخبار الصعاليك، وهو ظاهر في ضبط سبب الواقعة في أخبار الأيّام، وهو ظاهرٌ في فعل الطلب في أخبار القِيَم الفاضلة. ووضعُ التوتّر وهو خاضع أيضا في أحداثه إلى المحور الغرضي الذي ينتمي إليه، ليَظْهَر في فعل الصدام والمواجهة تقاتلا أو في فعل الغارة، أو في فعل الحيرة والبحث عن وسائط تحقيق الطلب. لتنتهي الأحداث إلى وضعٍ ختامي فيه يكون تحقيق الطلب أو بيان حصاد المواجهة والحرب أو بيان الانصراف ظَفَرا في أخبار الصعاليك. وثني هذه الأوضاع يمكن أن نجد مقاطع تكاد تكون ثابتة في الأخبار مثل المقطع الخاصّ بالحيلة، فهو مقطع يمكن أن نجده في محاور متعدّدة. وقد تبيّنا أيضا من هذه الدراسة أنّ أخبار الجاهليّة قائمة في أغلبها على محوري الصراع والقيم الأخلاقية الفاضلة، وهما المحوران اللّذان تدور عليهما أغلب الوقائع والأحداث.

وقد انتهينا من دراستنا لنماذج من الأثر إلى أنّ ضبط هيكل حدثي دقيق يمكن أن نسم به أخبار الجاهلية أمر لا يدرك ولا جدوى منه تظهر، إذ أنّ الثابت والمشترك

حاصل في الحدود الحدثيّة الكبرى وفي بعض المقاطع الجزئية، غير أنّ التعميم في هذا الإطار يخلّ بالمدوّنة ويُفْقِدُها خصوصيّاتها.

ودراستنا للبنية التركيبية لأحداث الخبر يَسَّرت علينا أمر الفصلين اللاّحقين، فمنها تمكنّا من ضبط المقاطع التي يكون فيها التوسّع والمقاطع التي يكون فيها الاقتصاد، ومنها أيضا أدركنا خصيصة التفاعل في ضمّ المقطع إلى المقطع لتمام الحدث أو في إعادة المقطع بصياغة مغايرة.

إنّ الخبر يُوسَم في صورته العامّة بالاقتصاد في السرد غير أنّا نلاحظ تفاوتا يظهر في صياغة الوقائع بين محض الاقتصاد وبين بعض الإفاضة الظاهرة في إضافة موتيفات للتوسيع تُجلّي الصورة وتُخرجُها من العتمة إلى بعضٍ من الضياء. واختلاف صيَغ ذاتِ الموادّ الحدثيّة راجع في وجه من وجوهه إلى منزلة الرواة وطرائق تعاملهم مع المادّة الحدثيّة، وراجع أيضا إلى تقلُّب الخبر عبر أزمنة عديدة لكلّ منها مقتضياتها ومقاماتها التي تتطلّب محض الإخبار والإعلام أو تأثيث النواة الحدثيّة وتوسيعها. وقد تبيّنا من هذه الدراسة وجود نوى حدثيّة تُشكّل الأصول التي يصدر عنها الرواة على اختلاف مواضعهم، لصياغتها بطرائق شتّى. غير أنّه كما ذكرنا فإنّ غلبة بيِّنة تبدو للصياغة القائمة على الاقتصاد، إذ تظلّ الشخصيات باهتة وتُختزَل الأحداث إلى حدّها الأدنى، وهو ما مثّل مدخلا لإثارة مسألة تفاعل الأخبار وضمّ الخبر إلى الخبر إرداف المقطع بمقطع إضافي يُؤْتى به من مصدر آخر، وإدماج مختلف الروايات وعلوق بعضها ببعض بغاية تمام صورةٍ تظلّ في الخبر الواحد -بنيةً مستقلّةً- غائمة صعب إدراكها.

إنّ تفاعل الأخبار وتضامنها لغاية أداء الصورة أمر مهمّ في صياغة أحداث الجاهليّة وهو سبيل منه ندرك انعدام الحدود الشكليّة الفاصلة بين الأخبار، فهي تظلّ دوما مجالا مفتوحا لممكن الإضافة والزيادة والتوضيح والإبانة. وقد رصدنا هذه الظاهرة من جهتين جهة التفاعل الإعادي وجهة التفاعل التواصلي.

فأما التفاعل الإعادي فهو ظاهر في ركون الذات المتكلّمة إلى تقديم صياغات متعدّدة لنفس النواة الأخبارية، وهي صياغات تدور في مدار حدثي واحد وتتوجّه في

الغالب وجهة واحدة، والتفاعل في هذا الإطار هو تفاعل تأكيد وتثبيت، وهو تفاعل بمقتضاه تتركّز الذات المتكلّمة في محلّ الناقل لروايات مختلفة محافظة على "حيادها". وأمّا التفاعل التواصلي وهو الظاهرة الأهمّ فبمقتضاه تُجمَع أصوات متعدّدة لتقديم الخبر الواحد، وفيه تكون الذات المتكلّمة فاعلة بصورة واضحة، في ترميم الخبر وفي ملء فراغاته وفي توضيح ما بان فيه غامضا، إذ تجمع عددا من الروايات ولا تقدّمها بتمامها، وإنّما هي تُراوح في روايتها بين مختلف هذه الصياغات، وتستدعي من هذا ومن ذاك، وتجمع المقطع الوارد في الرواية الأولى إلى مقطع وارد في رواية ثانية.

وبذلك نتبيّن أنّ الجاهليّة لم تُعرَض من زاوية نظر واحدة ولم تُصَغ بصياغة واحدة وإنّما في تصويرها كان شديد التأثّر بما يقتضيه مقام الخبر من تعديد للروايات والصياغات وتنويع زوايا النظر. ويمكن أيضا أن ندرك صورتين للذات المتكلّمة التي تكفّلت بتقديم هذه الصورة على تعدّدها واختلاف مجالاتها وتعارض معانيها، صورة الناقل الآخذ من مظان سابقة، وصورة المُؤَالف المُوازن بين هذه الروايات الجامع بين مختلفها في صوت واحد، هو بالضرورة صوته.

ولقد أفضى بنا هذا المستوى من البحث إلى أن نقف عند سمات هذا المجال الذي تداخلت مقاماتٌ عديدة في بناء مختلف عناصره، وتوجّهت إليه مصادر هي في ذاتها حاملة لرؤى متغايرة ولوجهات نظر قد تصل حدّ التباين في تعاملها مع "التاريخ الجاهلي". فخصّصنا الباب الأخير من هذا المبحث لإظهار ما تميّز به المجال الجاهليّ من صفات وخصال وُسِم بها، وكان منطلقنا في ذلك توفُّر صورتين عن الجاهليّة متعارضتين، صورة أولى تجعل الجاهليّة مصدرا للقيم الأخلاقية والفنية، وصورة ثانية هي للأولى ضدّ تَصِل الجاهليّة بعالم الفوضى واستلاب الأخلاق ووَفْرة الفساد وكثرة الإحن، وقد اشتغلت الصورتان معا في أحيان كثيرة، وهي مسألة معقودة على ما سلف أن وقفنا عليه في الباب الأوّل من صراع قبليّ في الإسلام جعل كلّ قبيلة تُعلي من صورتها في الجاهليّة وتَحُطّ من شأن القبائل المعادية، وقد ظهر هذا الأمر بجلاء في وَسْم القبيلة الواحدة بسمتين متعارضتين في مقامين مختلفين، فقد وُسِمت قبيلة هذيل بأنّها منتجة الأبطال في صورة أولى، ووُسمت في صورة ثانية بأنّها مُنتجة الجبناء، وهو

ما يفسِّر بصورة عامّة نُكران الجاهليّة، نكرانا تتدخّل فيه عوامل عديدة ويتّخذ مظاهر مختلفة من جهة، والقبول الحسن لبعض من شخصيّات الجاهليّة النموذجية ومظاهرها، وهي عوامل يجتمع فيها الديني والسياسيّ المذهبي والعصبيّة القَبَليّة.

وقد وَقَفْنا في هذا الإطار على نتائج مهمّة، تخصّ غلَبَة الصورة الباهرة، الناتجة أساسا عن تركيز شخصيّات نموذجيّة في الجاهليّة، تُعَدّ في ما تأتيه من أفعال وما تُتّصف به من خلال مثالا وقدوة، وقد اتّصلت هذه الشخصيات أساسا بعالم الفضيلة في تحلّيها بالقيم الأخلاقية الفاضلة، وبعالم البطولة والشجاعة، وبالتميّز والبروز في الإنتاج القولي، فهي شخصيّات جامعة بين القدرة الفعلية وبين القدرة القولية. وقد ساهم الفضاء الديني الإسلامي أساسا في تسويغ اعتماد هذه النماذج من خلال إبرازه لنماذج عُدَّت مضرب المثل في الشجاعة أو في الكرم أو في غيرها من الخلال التي امتدحها الإسلام وبَقّاها ودعا إلى اعتمادها. وقد أكّدنا في هذا المستوى أنّ فَصلْنا بين الصورتين هو فصل إجرائي بسبب من تداخلهما وبسببٍ أيضا من اختلاف المنظور إلى شخصيّات الجاهليّة ومظاهر حياتها، ولذلك فإنّ وضْعَنا على سبيل المثال لشخصية الصعلوك ضمن مجال الصورة المنفِّرة هو أمر حامل للنظر والمراجعة، فبالرغم من دخول هذه الشخصية ضمن مسار بيان جاهليّة تُسوِّدها الفوضى وفقدان الأمن وغلبة التناحر، فإنه قد اعتُمد أساسا لصياغة قصص غريبة عديدة وأخبار فيها من طرافة الحكاية الشيء الكثير، وفيها أيضا من تعاطف الرواة ما يجعل هذه الشخصيّات محبَّبة إلى النفوس، مقرَّبة منها.

ولم يكن وقوفنا عند سمات الجاهلية مبحثا تاريخيا وإنّما كان بيانا لأغلب السمات الموجودة في الأخبار بقطع النظر عن مدى تارخيّتها، ولذلك فقد ركّزنا اتّصال الخبر بالتصوير دون التأريخ الدقيق، ومنه كان منطلقنا لإثارة هاتين الصورتين الغالبتين في وسْم المجال الجاهليّ.

إنّ صورة الجاهليّة ليست نقلا لواقع حاصل بالضرورة وإنّما هي صورة متشظيّة تُقدِّم المظهر ونقيضه والسّمة وضدّها. ولنا أن نتساءل عن صاحب هذه الصورة وأصل تَشكُّلها، فهي صورة تتداخل فيها ذوات متنوّعة وتجتمع فيها أصوات وافرة كلّ له

ضلع في توجيه مناحيها، وتبلغنا بعد ذلك على تراكمها وكثرة الرؤى فيها صياغةً واحدة حاملةً لأصداء هي نتاج مقامات متداخلة يَعسُر الفصل بينها. ويظلّ الخبر بالرغم من ذلك حامل أوجه، يعقد أواصر صلة بالتاريخي وبالواقعي ويَنْشَدّ بدرجات إلى الخيالي والأسطوري، وتظلّ الحدود الفاصلة بين ما هو تاريخي وبينّ ماهو خياليّ غائمة.

لقد كان هاجسنا الأساسي من هذا العمل أن ندرك خصالا للخبر في صورته الفرعية من خلال اعتماد مدوّنة محدودة هي أخبار الجاهلية، فيها نظرنا وقَصَرْنا البحث، إلا أنّنا نعود إلى ذات شكاة محمد القاضي التي حاولنا بهذا العمل المتواضع أن نحدّ منها وهي الشكاة الخاصّة بافتقار البحوث الجامعية لدراسات تخصّ الأجناس الفرعيّة للخبر والتي منها يمكن أن نصوغ حدّ الجنس في صورته العامّة، فقد افتقرنا كما افتقر إلى بحوث تختصّ بدراسة بعض من الأجناس الفرعية للخبر حتى ندرك منها خصائص الجنس الفرعي الذي ندرس.

وقد اجتهدنا أن نصل إلى نتائج وإن لم تكن في ذاتها فتحا مبينا، فإنّا نعتقد أنّها تُمهِّد السبيل لإثارة جملة من المباحث العالقة بالخبر من حيث هو شكل أدبي وما يتفرع عنه من أجناس هي غير مدركة ما لم تتوفّر بحوث متخصّصة فيها.

لقد قطعنا شوطا من البحث ولمّا ندرك منه مقتلا، ولمّا نبلغ ما وعدنا النفس بإدراكه. فمن خصال البحث أنّ المرء يخوض غماره وقد تهيّأ وبان له من المسالك ما يضيء سبيله، فإذا هو في كلّ مراحله يقطع السبيل وفي النفس حسرةٌ لمواضيع شتّى تُورق ولمصنّفات عديدة تظهر على السطح ولم تكن في الحسبان، تُغري طالبها وتدعو للأخذ عنها، ويبقى الدارس بين هذه السبل المفتوحة وهو الأعجز عن تمامها، وبين ضيق من الزمن يَحدّ جموحه، ويُسَلّط سيفا عليه، في حُرقة من أمره، ليخرج من البحث وقد أدرك شيئا وغابت عنه أشياء ولا عزاء له إلاّ أن يمتدّ منه العمر حتى يأتي عليها ويصيب منها مقصدا مرجوّا.

ملحق الجداول[1]

يحتوي ملحق الجداول على :

1- جدول الرواة الذين أخذ عنهم أبو الفرج الأصبهاني أخبار الجاهلية .

2- جدول المصادر المطلقة .

3- جدول نِسَب ظهور الرواة المصادر .

لقد استعنّا في مختلف مراحل هذا العمل بجداول يسّرت علينا النظر في عدد من المسائل، وخاصّة في الفصل الذي أفردناه لمصادر إنتاج الأخبار وبيان منازل الرواة من السند. وقد آثرنا أن نخصّص ملحقا يحوي هذه الجداول لمقتضيين ، مقتضى إجرائيّ ، تطلّب منّا الإحالة على هذه الجداول في مراحل مختلفة من عملنا ، ومقتضى علميّ منه سعينا إلى تعريف الرواة إن وجدنا لهم تعريفا، وهي بذرة أولى لضبط جدول خاصّ برواة الأخبار، وهو مايُعَد مطمحا في دراسة الخبر[2].

---

1 - وقد اعتمدنا في ضبط هذه الجداول على:

- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. (د.ت).

- ابن النديم: الفهرست.

- ياقوت الحموي: معجم الأدباء.

- أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب (ابن قنفذ القسنطيني): كتاب الوفيات. تحقيق عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة. بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة. 1980.

2 يقول فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي ص: 15 : ".. ولابدّ كذلك من بحث القطع في المصادر التي وصلت إلينا والتي ترجع إلى كتب الأنساب المؤلفة في العصر الأمويّ . وهذا يتطلّب -قبل كلّ شيء - عمل فهارس دقيقة تضمّ أسماء الرواة".

وقد احتوى هذا الملحق على:

"جدول الرواة الذين أخذ عنهم أبو الفرج أخباره"، وهو جدول سعينا فيه إلى استخراج المصادر المباشرة التي استقى منها الأصبهاني أخبار الجاهليّة بيانا للرواة الذين استند إليهم، وهم رواة فيهم المعلوم وفيهم المجهول، فعرّفنا المعلوم وتركنا المجهول على حاله. وقد قمنا بضبط عدد الأخبار المنسوبة إلى كلّ راوية والإحالة عليها في مواضعها من المدوّنة، واجتهدنا في تقديم تعريف للرواة متى ظفرنا بذلك، فمن الصعوبات التي واجهتنا في ضبط هذا الجدول عسر الظفر بتعريف خاصّ بهؤلاء الرواة. ونعتقد أنّ ما قدّمنا يمثّل مجهودا أوليّا يُمكن أن يُشكّل نواة لضبط جدول خاصّ برواة الأخبار وتقديم مروياتهم ونبذة عن حياتهم إن كانوا أشخاصا حقيقين.

جدول المصادر المطلقة، وهو جدول خاصّ بضبط المصادر الواردة في أسانيد الأخبار التي لم يُذكَر فيها أسماء رُواتها، وقد أحلنا عليه في عدد من المواطن، وهو يحوي المصادر التي تعرّف بعلاقتها بناقل الخبر، والمصادر التي تُعرّف بانتمائها إلى القبيلة أو بصلتها بالشخصية المروية، والمصادر السائبة التي تظلّ غامضة تظهر إسنادا في فعل القول .

جدول نِسَب ظهور الرواة المصادر في أسانيد أخبار الجاهليّة الواردة في "كتاب الأغاني"، وقد ضبطنا فيه الرواة المصادر وعدد الأخبار الراجعة إليهم ونِسَب ظهورهم في الأخبار وتواريخ وفاتهم إن ظفرنا بها، ذلك أنّ هؤلاء غير معلومين. وهو جدول إحصائيّ مهمّ بالنسبة إلينا، فعليه كان المستَنَد في الإقرار بغلبة حضور راوية من الرواة أو بندرة ظهوره في الأسانيد. وقد أبان لنا هذا الجدول أنّ الغلبة كانت لرواة يضطلعون برواية الخبر الواحد، إضافة إلى بروز رواة يتعاود ذكرهم بشكل مكثّف وكأنّما تخصّصوا في رواية أخبار المجال الجاهليّ، وهم حسب الترتيب، أبو عبيدة، أبو عمرو الشيباني، ابن الأعرابي، هشام بن الكلبي، الأصمعي، محمّد بن السائب الكلبي، المفضّل الضبّي. فمن هذا الجدول تمكنّا من إقرار الغلبة المطلقة لهؤلاء الرواة في رواية أخبار الجاهليّة.

جدول رقم 1

جدول الرواة الذين أخذ عنهم أبو الفرج أخبار الجاهليّة[1]

اسم الراوية	وفاته	عدد الأخبار	ج\ص	صورته
الأخفش (عليّ بن سليمان)	ت 315هـ	35	11\50-11\51-65-11\66-11\113-11\119-11\153-12\125-12\167-13\9-15\250-17\233-17\123-2\80-2\116-3\4-3\12-3\74-3\75-5\29-8\235-8\240-8\242-20\346-20\355-21\6-21\198-21\231-22\97-22\388-23\220-21\347-15\12	"عليّ بن سليمان ابن الفضل، أبو الحسن الأخفش النحويّ سمع أبوي العبّاس ثعلبا والمبرّد وفضلا اليزيدي وأبا العيناء الضرير روى عنه عليّبن هارون القرميسيني وأبة عبيد الله المرزباني ...وكان ثقةً. (تاريخ بغداد:ج11\ص 433.)
ابن أبي الأزهر (أبو بكر بن أحمد بن مزيد)		2	151\21-357\20	هو أبو بكر بن أحمد بن مزيد النحوي الأخباريّ البوسنجي،من بوسنج أصله (...) وله من الكتب: كتاب أخبار الهرج والمرج في أخبار المستعين والمعتزّ، كتاب أخبار عقلاء المجانين ، كتاب أخبار قدماء البلغاء" "الفهرست" ص 182.181
الأسدي			85\3-116\17-3\13	
ابن إيّاد (إبراهيم)		1	414\23	
ابن أيّوب (إبراهيم)		5	-13\11-237\8-77\9-124\4 47\14	

1 مرتّب ترتيبا ألفبائيّا حسب الألقاب ودون اعتبار "ابن" و "أبو"

اسم الراوية	وفاته	عدد الأخبار	ج\ص	صورته
ابـــن ثعلـــب (الهمداني)		1	198\21	
ابن جعفر النحوي		1	223\22	
الجوهري (احمد بن عبدالعزيز)		21	-130\4-128\4-89\3-72\3 -114\3-118\9-105\9-77\9 -8\11-6\11-21\10-169\9 -32\11-23\11-13\11-9\11 -129\12-70\11-64\11 38\17-36\16	
ابن حبيب (محمّد)	ت:145هـ	5	- 152. 156 .15. 159\21 121\22	"محمّد بن حبيب صاحب كتاب المحبّر حدّث عن هشام بن محمد الكلبي وروى عنه محمّد بن أحمد بن أبي عرابة وأبو سعيد السكّري وكان عالما بالنسب وأخبار العرب ، موثّقا في روايته وكان والله حافظا صدوقا في الحقّ . وكان يعقوب أعلم منه، وكان هو أحفظ للأنساب والأخبار منه". تاريخ بغداد ج2\ص
الخزامي(هاشم بن محمّد)		20	.24 .4. 11. 13\10-87\3 -237\21-356 .25 .28 .19 406\23-75. 83. 285\22 74. 19\14-217\13-224.	
أبو خليفة (الفضل ابـــن حبـــاب الجمحي)	305هـ	6	127\12-404\23-21\10 22\18 .118 .123.	"مـــن رواة الأخبـــار والأشعار والأنساب". "الفهرست" ص143.
ابن دريد (محمّد بن الحسن)	ت:321هـ	21	-9/5-253/23-225/21 -18/10-237/8-321/6	"طلب الأدب وعلم النحو واللغة وكان أبوه من

اسم الرواية	وفاته	عدد الأخبار	ج/ص	صورته
			68/14-211/46-13/11 24 .31 .277/16-42/15- 294 .29 /17-9 .301 213. .213 .280 .305/18	الرؤساء وذوي اليسار ..وكان رأس أهل العلم والمتقدم في حفظ اللغة ولأنساب وأشعار العرب" . (تاريخ بغداد :2/ 196)
السري (أبراهيم)		1	.216/2	
ابن سعيد (أحمد بن محمد)		1	.114/23	
الصولي (محمد بن يحيى)	ت: 335 هـ	1	.111/2	"محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس المعروف بالصولي (..) ولد ببغداد ونشأ بها، وأخذ عن ثعلب والمبرد وأبي داود السجستاني، وأخذ عنه أبو عبدالله المرزباني الكاتب الأخباري وغيرة، وكان أخباريا أديبا كاتبا، وكان نديما للخلفاء متمكنا عندهم.." "معجم الأدباء".م:5 ج10، ص:109. 110. 111.
الطوسي (أحمد بن سليمان)		8	.117/3 /22-321/6-114 17-12/15-414/23-74 .210 .211/	أبو عبدالله أحمد بن سليمان بن داود بن محمد بن أبي العباس الطوسي (...)، وكان فاضلا، ومات فيما ذكره الخطيب في صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عن

اسم الراوية	وفاته	عدد الأخبار	ج/ص	صورته
				ثلاث وثمانين سنة. روى عنه أبو حفص بن شاهين وأبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني وأبو عبيد الله المرزباني، وكان
ابن عمار (احمد بن عبيد الله)		5	10-114/9-22/14-8/3 .85/3-5/	
ابن عبدالعزيز (محمّد)		1	227/21	
ابن أبي عديّ (المغيره)		1	414/23	
ابن أبي العلاء (الحرمي)		14	-121/6-128/4-127/4 152/21-21/10-10/10 /21-158/21-156/21- -74/22-201/21-159 .18/15-12/15-414/23	
ابن علاثة		1	117/9	
ابن عليّ (الحسن)		22	10/13-165/12-53/11 68 .67/18-34 .298/16- /22-149 .230 .230/21- -106 .116/2-17 .290 /9-9 .10 .11 .11 .1113/3 -304/10-77	
ابن عمران (محمد المؤدّب)	ت: 319هـ		.405/23	هو أحد مشايخ الكتّاب وعلمائهم ، وكان وافر الأدب وحسن المعرفة .... معجم الأدباء،م:4، ج7، ص177، 178.
العمري		1	207/13	
		1		
ابن قدامة (جعفر)		1	.224/8	
الكراني		1	.207/13	

اسم الراوية	وفاته	عدد الأخبار	ج\ص	صورته
ابن مالك (عبدالله) (النحوي الضرير)		3	405/23-19 .29/10	
ابن محمّد الأصبهاني (الحسن)		23	24/8-92/3-106 .111/2 /21-129/4-21/10- .145 .168 .225 .227. 145 /22-227 .230 -410/23-293 .293 .121 77. 80. 306\18-207\13 295\16-23.	
ابن محمّد (الحسن)		1	66\14	
المرزبان (محمّد بن خلف)		3	83. 293\22-21\10	
ابن مزيد (محمّد)		3	39\15-79. 81\14	
المهلّبي (حبيب بن نصر)		1	230\21	
ابن نصر (حبيب)		7	-8. 70\11-21. 6\10-105\9 .29\18-38\17	
ابن الهيثم (أحمد)		1	.68\14	
وكيع (محمّد بن خلف)	ت:306هـ	4	-117\22-35\10-85\3 .75\13	أبو بكر بن محمّد بن خلف بن حسّان المعروف بوكيع القاضي، وكان مفتنا في جميع الآداب.. الفهرست: ص144.
ابن يحيى (الحسن)		7	-9. 13\11-128\2-147\21 .294. 295\16-176\15	
ابن يحيى (يحيى بن علي)		1	284\22	
اليزيدي (محمّد بن العبّاس)		10	-29\5-86\3-347. 348\20 157. 77. 110. 115\9 32. 34\11-14\10-117. -296. 298\16-124\12-12. 119\17	

جدول رقم 2

جدول المصادر المطلقة .

	كتاب الأغاني :ج\ص	طرائق الأخذ	المصدر
المصادر العلاقة بالناقل	119\3	سمعت	من أرضى
	9\11	قالوا	علمائنا
	123\12	عن	من يثق به
	40\15	حدّثني	شيخ منّا
	112\15	سمعت	أشياخنا يزعمون
	302\17	عن	من حدّثه
المصادر المنتمية إلى القبيلة أو المتصلة بالشخصيات المرويّة	221\4	أخبرني	رجل من أهل صنعاء
	128\4	حدّثني	رجل من أهل الكوفة
	110\9	عن	رجل من قيس عيلان
	112\9	عن	بعض الكلابيّين
	53\11	عن	رجل من النمر بن قاسط
	70\11	عن	من أدرك شأس بن زهير
	70\17	عن	أشياخ من قومه
	118\17	عن	رجل من بني عبس
	179\17	عن	شيخ من بني نبهان
	118\17	عن	رجل من بني عبس
	282\17	عن	رجل من القوم
	306\18	عن	مشيخة من الكلبيّين
	6\21	عن	بعض بني الحارث بن كعب
	117\22	عن	رجل من الانصار
المصادر السّائبة	114\9	قال	رجل
	8\11	عن	غيره (أبو عبيدة) من علمائهم
	47\11	عن	غيرهما
	125\17	زعم	بعضهم
	125\17	زعم	بعضهم
	129\17	زعموا	(هم)

	كتاب الأغاني :ج\ص	طرائق الأخذ	المصدر
	125\17	زعم	بعضهم
	125\17	قال	بعض الرواة
	126\17	زعم	بعضهم
	281\17	ذكروا	(هم)
	302\17	زعموا	(هم)
	144\21	قال	الرواة
	166\21	ذكروا	الرواة
	169\9	يُقال	المجهول

جدول رقم 3

جدول نِسَب ظهور الرواة المصادر في أسانيد أخبار الجاهليّة في "كتاب الأغاني"[1]

الرّواة المصادر المُسمّاة أسماؤهم.	عدد الأخبار المسندة إليهم	نسبة الأخبار من المجموع.	وفاته
ابن أحمد الخليل	1	0.00272	170هـ
الأثرم	10	0.02717	232هـ
الأحنف العجلي	1	0.00272	-
الأحول مقاتل	1	0.00272	بعد250هـ
الأخذر النسّابة	1	0.00272	-
ابن الأرقط خلاّد	1	0.00272	-
ابن أبي إسحاق حمّاد (أبوه)	1	0.00272	-
ابن إسحاق محمّد	3	0.00815	250هـ
الأسديّ أبو صالح	1	0.00272	-
ابن الإسماعيل العجلي خراش	2	0.00543	-
الاشجعيّ أبو بركة	2	0.00543	-
الأصمعي	17	0.04620	213هـ
ابن الأعرابي	26	0.07065	230هـ
ابن الأهتم عمّار	1	0.00272	-
ابن بكّار الزبير	3	0.00815	256هـ
ابن أبي بكر الهلالي معقل	1	0.00272	-
أبو بلال سهم بن عيّاش	1	0.00272	-
ابن تولب النمر	1	0.00272	-
التيمي محمّد بن الحارث	1	0.00272	-
ابن ثابت حسّان	1	0.00272	-
الثوري سفيان	1	0.00272	-
ابن جابر عامر	1	0.00272	-
الجاحظ	1	0.00272	255هـ

1 مرتّب ترتيبا الفبائيا حسب الألقاب ودون اعتبار "ابن" و "أبو".

الرّواة المصادر المُسمّاة أسماؤهم.	عدد الأخبار المسندة إليهم	نسبة الأخبار من المجموع.	وفاته
ابن الجصّاص إسحاق	3	0.00815	-
الجرهمي عبيد بن شريّة	1	0.00272	-
ابن جعفر عبد الله ابن أبي عوف	1	0.00272	-
ابن جعفر المحرزي	1	0.00272	-
ابن حبيب محمّد	5	0.01359	245هـ
ابن الحدثان عاصم	1	0.00272	-
ابن حفص بن عمرو بن عبد الرحمان بن عوف راشد	1	0.00272	-
حمّاد صاحب أبي غسّان دماذ	1	0.00272	-
حمّاد الرّاوية	5	0.01358	155هـ
أبو الخنساء	1	0.00272	-
ابن دأب عيسى بن يزيد	3	0.00815	-
أبو زياد	1	0.00272	-
الزهري	2	0.00543	-
زهير	1	0.00272	-
ابن سعيد يحيى	1	0.00272	-
السكري	1	0.00272	-
ابن سلاّم أبو عبيد القاسم	1	0.00272	224هـ
ابن سلاّم محمّد	5	0.01349	232هـ
ابن سلمان بن عبد الله بن حنظلة الغسيل ابن أبي عار الراهب	1	0.00272	-
السلمي الحجّاج	1	0.00272	-
ابن السمعيّ	1	0.00272	-
ابن شبّة عمرو	5	0.01359	-
الشعبي	1	0.00272	-
ابن شهاب	1	0.00272	-
الشيباني (الأب)	3	0.00815	-
الشيباني إسحاق بن مرار	1	0.00272	-
الشيباني أبو عمرو	39	0.10598	206هـ
الشيباني عمرو بن أبي عمرو	1	0.00272	-

الرّواة المصادر المُسمّاة أسماؤهم.	عدد الأخبار المسندة إليهم	نسبة الأخبار من المجموع.	وفاته
صاعد مولى الكميت	1	0.00272	–
الضبّي المفضّل	14	0.03804	290هـ
ابن عائشة الزهري	1	0.00272	–
ابن عبّاس	2	0.00543	–
ابن عبد الأعلى الحسين	1	0.00272	–
ابن عبد الله جرير	1	0.00272	–
ابن عبد الله سالم	1	0.00272	–
ابن عبد الله بن الفضل الغراري يحيى وكان علاّمة	1	0.00272	–
ابن عبد الرحمان أيّوب	1	0.00272	–
أبو عبيدة	51	0.13859	208هـ
ابن عثمان مصعب	1	0.00272	–
ابن عديّ الهيثم	2	0.00543	–
ابن علاء أبو عمرو	1	0.01087	154هـ
ابن عمّار بن ياسر محمّد	1	0.00272	–
العماري	1	0.00272	–
ابن عمران بن عبد العزيز	1	0.00272	–
أبو عمرو أبو (الأثرم)	1	0.00272	–
ابن عمرو الحنفي أسد	1	0.00272	–
ابن عمرو بن سعيد	1	0.00272	–
ابن عمرو بن سيّار	1	0.00272	–
العنبري	1	0.00272	–
ابن عوف أبو عبد الرحمان	1	0.00272	–
ابن عيّاش	3	0.00815	–
ابن عيينة صمّار أحد بني شمس	1	0.00272	–
أبو الغرّاف	1	0.00272	–
أبو غزيّة	1	0.00272	–
الغطفاني أبو البلاء	1	0.00272	–
العيث الباهلي (أبوه)	1	0.00272	–
ابن فضالة (أبوه)	1	0.00272	–

الرّواة المصادر المُسمّاة أسماؤهم.	عدد الأخبار المسندة إليهم	نسبة الأخبار من المجموع.	وفاته
أبو فقعس	1	0.00272	-
ابن قابوس عمارة	1	0.00272	-
ابن قتيبة	2	0.00543	276هـ
القحذمي	1	0.00272	-
ابن القطامي الشرقي	8	0.02174	-
الكلبي محمّد بن السائب	15	0.04076	146هـ
ابن الكلبي هشام	19	0.05163	206هـ
لقيط	3	0.00815	109هـ
اللّهبي حمزة العتبي	1	0.00272	-
المازني أبو عثمان	1	0.00272	-
ابن مالك أنس	1	0.00272	-
مؤرّج	1	0.00272	195هـ
المجمّعي	2	0.00543	-
ابن محمّد إبراهيم	1	0.00272	-
محمّد الرسول	1	0.00272	11هـ
ابن محمّد مسكين	1	0.00272	
المدائني	2	0.00543	
أبو مسكين	2	0.00543	
ابن مسلم	1	0.00272	
المصعب	7	0.01902	
أبو المنذر (أبوه)	1	0.00272	
المنقري عبد الرحمان بن أبي حمّاد	1	0.00272	
أبو مهاجر	1	0.00272	
ابن ميمون الصادري	1	0.00272	
النطّاح محمّد بن صالح	7	0.01902	
النمري أبو هشام ابن هشام	1	0.00272	
ابن الهادي أبو عبد الله	1	0.00272	
هجّاس (أبوه)	1	0.00272	
الهذلي أبو بكر	1	0.00272	
ابن هذيم سعيد (أبوه)	1	0.00272	

الرّواة المصادر المُسمّاة أسماؤهم.	عدد الأخبار المسندة إليهم	نسبة الأخبار من المجموع.	وفاته
ابن أبي هريرة محرز	1	0.00272	
ابن هشام العبّاس (جدّه)	1	0.00272	
ابن هشام العبّاس (أبوه)	1	0.00543	
الهشامي محمّد بن داود	1	0.00272	
ابن أبي الهيذام	1	0.00272	
الواقدي	1	0.00272	
ابن ياسر محمّد	1	0.00272	
أبو اليقظان	1	0.00272	

قائمة المصادر والمراجع

I- المصدر.

- الأصبهاني (أبو الفرج): "كتاب الأغاني". دار الثقافة. بيروت. الطبعة السادسة. 1983

II- المراجع.

1. العربية والمترجمة:

الكتب:

1. الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد): أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار". تحقيق رشدي الصالح ملحس. دار الأندلس- بيروت. لبنان. ط3. 1983.
2. الأسد (ناصر الدين): "مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية" دار الجيل، بيروت، لبنان. الطبعة الثامنة. 1988.
3. إسماعيل (عز الدين): "الأدب العباسي: الرؤية والفن". دار النهضة العربية. بيروت. 1975.
4. أمين (أحمد): فجر الإسلام". دار الكتاب العربي. بيروت، لبنان. الطبعة الحادية عشرة. 1975.
5. البغدادي (عبد القادر بن عمر): "خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب". دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى. 1998.
6. ابن بكار (الزبير): "الأخبار الموفقيان". تحقيق سامي المكي العاني. طبعة العاني. بغداد. 1972.
7. بلاشير (ريجيس): "تاريخ الأدب العربي". ترجمة إبراهيم الكيلاني. دار الفكر. دمشق، سورية/ دار الفكر المعاصر. بيروت، لبنان. الطبعة الثانية 1984.
8. تأبّط شرا: "ديوان تأبّط شرّا وأخباره". جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر. دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى 1984.

9. الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): "البيان والتبيين". دار الجيل- دار الفكر. بيروت. (د.ت)

10. جعيّط (هشام): "الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية". دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى 1986.

11. جفال (خليل إبراهيم): الخليفة عبد الملك بن مروان الناقد الأديب". دار النضال. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى 1991.

12. الجمحي (ابن سلاّم): "طبقات فحول الشعراء". مطبعة المدني. القاهرة. (د.ت).

13. جواد (علي): "المفصّل في تاريخ العرب قبل افسلام". دار العلم للملايين. بيروت/ مكتبة النهضة. بغداد. الطبعة الثانية 1976.

14. ابن حبيب (أبو جعفر محمد): "كتاب المحبّر". تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت. (د.ت).

15. حسن (إبراهيم حسن): "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي". دار إحياء التراث العربي. مصر. الطبعة السابعة 1964.

16. حسن (حسين الحاج): "حضارة العرب في عصر الجاهلية". المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى 1984.

17. حسن (علي إبراهيم): "التاريخ الإسلامي العام: الجاهلية- الدولة العربية- الدولة العباسية. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. (د.ت).

18. حسين (طه):

19. "في الأدب الجاهلي". دار المعارف. الطبعة السادسة عشر. (د.ت).

20. "المجموعة الكاملة". المجلد الثالث. "على هامش السيرة". دار الكتاب اللبناني. بيروت 1981.

21. "في الشعر الجاهلي". دار النهر للنشر والتوزيع. الدقي. الطبعة الثالثة 1996

22. الحموي (ياقوت): "معجم الأدباء". دار الفكر. الطبعة الثالثة 1980.

23. أبو حنيفة الدينوري (الأخبار الطوال". تحقيق عبد المنعم عامر. وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دار إحياء الكتب العربية. الطبعة الأولى.

24. خفاجي (عبد المنعم): "الحياة الأدبية، عصر بني أمية" دار الكتاب اللبناني. بيروت. الطبعة الثانية 1982.

25. ابن خلدون: "المقدمة". دار الفكر. (د.ت).

26. خليل (عبد الكريم): "قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية". مؤسسة الانتشار العربي. بيروت. دار سينا للنشر. مصر. الطبعة الثانية 1997.

27. دراج (فيصل): "الواقع والمثال: مساهمة في علاقة الأدب والسياسة". دار الفكر. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى 1989.

28. دكسن عبد الأمير (عبد حسين): "الخلافة الأموية: 65هـ- 86م، دراسة سياسية". دار النهضة للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1973.

29. ابن رشيق (أبو علي الحسن): "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده". تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت، لبنان. الطبعة الخامسة 1981.

30. سالم (السيد عبد العزيز): "تاريخ العرب قبل الإسلام (1)". مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر. الإسكندرية. (د.ت).

31. سحّاب (فكتور): "إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف". المركز الثقافي العربي وكمبيو نشر. بيروت. الدار البيضاء. الطبعة الأولى 1992.

32. سركيس (إحسان): "الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية". دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى 1981.

33. سزكين (فؤاد): "تاريخ التراث العربي". نقله إلى العربية، محمود فهمي حجازي. نشر دار الثقافة والنشر بجامعة محمد بن سعود الإسلامية. المملكة العربية السعودية 1983.

34. سليمان (موسى): "الأدب القصصي عند العرب". دار الكتاب اللبناني. مكتبة المدرسة. الطبعة الخامسة 1983.

35. السواح (فراس): "جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة" دار علاء الدين. دمشق. الطبعة الأولى 1996.

36. الشلقاني (عبد الحميد):

37. "رواية اللغة". دار المعارف. مصر 1971.

38. "الأعراب الرواة". دار المعارف. مصر 1977.

39. صمّود (حمادي): "من تجليات الخطاب الأدبي: قضايا نظرية". سلسلة تحديث. دار قرطاج للنشر والتوزيع. تونس. الطبعة الأولى 1999.

40. ضيف (شوقي): "العصر الجاهلي". دار المعارف. القاهرة. مصر. الطبعة الحادية عشر. (د.ت).

41. الطائي (يحي بن مدرك): ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره". رواية هشام بن محمد الكلبي. تحقيق عادل سليمان جمال. مكتبة الخانجي. الطبعة الثانية 1990.

42. المصعب الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري): "كتاب نسب قريش". نشره وعلّق عليه: إ. ليفي بروفنيسال. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثالثة 1982.

43. أبو عبيدة (معمر بن المثنى): "كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق". الناشر دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. مطبعة بريل. ليدن 1908- 1909.

44. العروي (عبد الله): "العرب والفكر التاريخي". المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت. الطبعة الثالثة 1992.

45. العش (يوسف): الدولة الأموية". دار الفكر. سورية. الطبعة الثانية 1985.

46. العظمة (عزيز): "الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، مقدمة في أصول صناعة التاريخ العربي" دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. طبعة أولى. أكتوبر 1983.

47. القاضي (محمد): "الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية". منشورات كلية الآداب منزبة- دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998.

48. ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري): "عيون الأخبار" دار الكتاب العربي. بيروت، لبنان. (د.ت).

49. مصطفى (أبو ضيف أحمد): "دراسات في تاريخ العرب منذ ما قبل الإسلام إلى ظهور الأمويين". مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية. الطبعة الأولى 1983.

50. ابن منبه (وهب): "التيجان في ملوك حمير" تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية. الجمهورية العربية اليمنية. صنعاء. طبعة أولى 1925.

51. ابن منظور: "لسان العرب". دار صادر. بيروت. ج12.

52. نبوي (عبد العزيز): "الأدب الجاهلي". الصدر للخدمات والطباعة. الطبعة الثانية 1978.

53. ابن النديم: "الفهرست" تحقيق إبلاهيم رمضان. دار المعرفة بيروت لبنان. الطبعة الأولى 1994.

54. النص (إحسان): "العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي" دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية 1973.

55. الهذليون: "ديوان الهذليين" دار الكتب المصرية. القاهرة. الطبعة الثانية 1995.

56. ابن هشام: "السيرة النبوية" المكتبة العلمية. بيروت، لبنان. (د.ـ).

57. ويليك (رينيه) وأوستن (وآرن): "نظرية الأدب". تعريب عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية 1992.

58. يحياوي (رشيد): "شعرية النوع الأدبي: في قراءة النقد العربي القديم". دار إفريقيا- الشرق. الدار البيضاء. المغرب. طبعة أولى 1994.

المقالات والفصول.

1. الحاجري (طه):
2. "أبو عبيدة" مجلة الكاتب المصري. م2. عدد6. مارس 1946.
3. "الرواية والنقد عند أبي عبيدة". مجلة كلية الآداب، جامعة فاروق الأوّل، المجلد الخامس، مطابع رمسيس بالإسكندرية 1949.
4. الخبو (محمد): "مجنون بني عامر من الشخص إلى الشخصيّة بين متباين النصوص والمقامات". دراسة مخطوطة تضمّنتها أعمال ندوة "النص والتاريخ" التي نظّمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان. تونس. 2001.
5. السمطي (عبد الله): "جماليات الصورة السردية في أخبار الأغاني وحكاياته، أبو الفرج الأصفهاني قاصّاً". مجلة فصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. المجلد الثاني عشر. العدد الثالث. خريف 1993.
6. صمود (حمادي): "منزلة المنثور قي التراث النقدي إلى حدود القرن الرابع الهجري". درس قُدّم لطلبة شهادة التبريز سنة 1996. (درس مخطوط).
7. العبيدي (محمد مختار): "الأوثان في الجاهلية من خلال القرآن". حوليات الجامعة التونسية. عدد25، 1986.
8. عمّون (إسكندر): "الكهانة". مجلة الزهور. الجزء الثاني. أبريل/ نيسان. السنة الثالثة 1912.
9. فير (Weir. T.H): "جاهلية". دائرة المعارف الإسلامية". الطبعة العربية. عن كتاب الشعب. القاهرة. (د.ت).
10. كابريّاي: "أدب". "دائرة المعارف الإسلامية". الطبعة العربية. عن كتاب الشعب. القاهرة. (د.ت).
11. نيلدكه (تيودور): "من تاريخ ونقد الشعر". في كتاب "دراسات المستشرقين حول صحّة الشعر الجاهلي". ترجمة عبد الرحمان بدوي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى 1979.
12. اليعلاوي (محمد): "أدب أيّام العرب". حوليات الجامعة التونسية عدد 20/ 1981.

المراجع الأجنبية:

أ. الكتب.

Adam (Jean Michel):

- "Le texte narrative". Edition Nathan 1994.
- "Le récit". Presses Universitaire de France 1984.

- Banfield (Ann): "Phrases sans parole, théorie du récit du style indirect libre". Seuil 1995.
- Bres (Jaques): "la narrativité". Champs linguistiques. Ed. Duculot Louvain-la-neuve. Belgique 1994.
- Genette (Gerard) "Figures III". Collection poétique. Ed. Du Seuil. Paris 1972.
- Grojnowski (Daniel): "Lire la nouvelle". Dunod, Paris 1993.
- Jeandillou (Jean-François): "L' analyse textuelle". Armand Colin/Masson, Paris 1997.
- Maingueneau (Dominique): "Nouvelles tendances en analyses de discourse." Hachette. Paris 1987.
- Orecchioni (Catherine Kerberat): "Les interaction verbales". Armand Colin. Paris 1992.
- Pavel (Thomas): "Univers de la fiction". Collection Poétique. Ed. Du Seuil 1988.
- Todorov (Tzvetan):
  - "Poétique". Ed. Du Seuil 1986.
  - "Poétique de la prose". Ed. Du Seuil 1978.
- Vincent-Jouve: "L' éffet-personnage dans le roman". PUF. 1er édition. 1992
- Zink (Michel): "La subjectivité littéraire". PUF. 1er edition 1985.

ب. المقالات والفصول:

- Barthes (Roland):
  - "Introduction à L' analyse structurale des récit". In "L' analyse structurale du récit". Communication 8. ed. Du seuil 1981.
  - "Le discourse de L'histoire". Poétique n 49. fevrier 1982.
  - "L' éffet de réel" in "literature et réalité".
  - Ed.du seuil 1982.
- Brooke- Rose (Christine): "Chimères de parodie". "La représentation littéraire: aspects et modalités d'une evaluation". T.L. E. n 4. PUV. Paris 1986.

  Ducrot (Oswald): "La notion de sujet parlant" in "Recherches sur la philosophie du langage". N 2. 1982.
- Hamon (Philippe):
  - "Qu'est ce q'une description?". Poétique. 12/1972.
  - "Pour un statut sémiologique du personage". In "poetique du recit". Ed. Du seuil 1977.
- Khadi (Mohamed): "La composante narrative des "Journées des Arabes (AYYĀM AL-ARAB)". Arabica, Tome: XLUI. 1999.
- Leder (Stéfan): "Classical Arabic prose literature, in Arabic literature". Journal of Arabic literature. Vol. XXIII- part1. march 1992.
- Ricœur (Paul): "L' écriture de l histoire et de la representation du passé". In "Annales". Ed. De l école des hautes etudes en sciences socials. 55é Année. N 4. Juillet-Août 2000.
- Schaeffer (Jean Marie): "Qu est ce qu un genre litteraire?" in "Théorie des genres" collection Poétique. Ed. Scuil. Paris 1989.
- Todorov (Tzvetan): "personage in "Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage". Ed. Seuil 1972.
- Tomachevski: "Thématique" in "Théorie de la literature, textes des formalists russes". Réunis, présentés et traduit par Tzvetan Todorov. Collection "Tel Quel" aux editions du seuil 1965.
- Migget (Louis): "Héros". "Encyclopédia Universalis". France. S. A. 1995.
- Vadet (J.C): "Encyclopédie de L'islam". Tom III.Nouvelle edition. Ed. E. J. Brill. Paris. Premiére reimpression 1975.

فهرس الموضوعات

المقدمة 5

الباب الأوّل: إنتاج أخبار الجاهليّة

الفصل الأوّل: مقامات إنتاج أخبار الجاهليّة 16

السائد السياسيّ وأثره في إنتاج أخبار الجاهليّة 19

السلطان السياسيّ وأثره في إنتاج أخبار الجاهليّة 29

دور الشعر في إنتاج أخبار الجاهليّة 73

مرافقة الأخبار للأشعار 76

الفصل الثاني: مصادر إنتاج أخبار الجاهليّة 109

الرواة الأول 111

الرواة المجاهيل 112

المصادر المطلقة 112

الرواة الأعراب 118

الرواة المعلومون 124

الرواة الثواني 129

الرواة النَّقَلَة 130

الرواة الرؤوس 136

الباب الثاني: في طرائق بناء صورة الجاهليّة

الفصل الأوّل: البنية الحدثيّة للخبر 151

أخبار الأيام 163

يوم ذي قار 166

يوم شعب جبلة 177
أخبار الصعاليك 185
الفصل الثاني: الجاهليّة بين الاقتضاب والتوسّع 196
الفصل الثالث: تفاعل الأخبار 219
أ- الصورة الأولى: التفاعل الإعاد..... 223
ب- الصورة الثانية: التواصل الأخباري في رصد صورة الجاهليّة 241

الباب الثالث: سمات المجال الجاهليّ

الفصل الأوّل: الصورة المرغّبة 267
صورة الشخصيّة النموذجيّة 271
صورة السّيد..... 273
صورة البطل الملحمي 286
صورة الشخصيّة الفاضلة 297
صورة الشخصيّة النموذجية القوّالة..... 297
الفصل الثاني: الصورة المنفّرة..... 340
صورة الشخصيّة النموذجيّة 341
صورة السيّد..... 341
الفصل الثالث: الجاهليّة بين الأصل والصورة 366
الخبر أصلا للتاريخ 368
الصورة 375
الخاتمة..... 407
ملحق الجداول 417
قائمة المصادر والمراجع..... 431
فهرس الموضوعات 439